



جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الانسانية
قسم التاريخ



المؤتمر الأفخارستي الدولي بقرطاج وأثره في تطور الحركة الوطنية
التونسية في الفترة ما بين (1930-1940)

**The International Eucharistic Congress in Carthage and
its influence on the Tunisian national movement's
development between 1930-1940**

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف الأستاذ الدكتور:

لزهر بديدة

إعداد الطالبة:

سعيدة عمان

لجنة المناقشة

الجامعة	الصفة	الأستاذ
جامعة الجزائر 02، أبو القاسم سعد الله	رئيسا	أ.د/ عبد الرحمان أولاد سبدي الشيخ
جامعة الجزائر 02، أبو القاسم سعد الله	مشرفا/ مقررا	أ.د/ لزهر بديدة
جامعة الجزائر 02، أبو القاسم سعد الله	عضوا	د.د/ خديجة كريمي
جامعة الجزائر 02، أبو القاسم سعد الله	عضوا	د محمد بلقاسم
المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة	عضوا	أ.د. مزيان سعيدي
جامعة الشهيد حمّة لخضر - الوادي	عضوا	أ.د. محمد سعيد عقيب



Algiers 2 university – abou el kacem saadallah

Faculty of Humanities

Department of history



The International Eucharistic Congress in Carthage and its influence on the Tunisian national movement 's development between 1930-1940

Dissertation for the degree of Doctor of Science in modern and contemporary history

Preparation of the student:

Saida omane

supervision of Professor Dr:

lazhar bedida

Discussion Committee

Professor	Adjective	University
Prof. Abdul Rahman Awlad sabdi al-Sheikh	President	Algiers 2 university – abou el kacem saadallah
Prof. lazhar bedida	Supervisor	Algiers 2 university – abou el kacem saadallah
Dr. khadija krimi	Member	Algiers 2 university – abou el kacem saadallah
Dr. mohammed belkacem	Member	Algiers 2 university – abou el kacem saadallah
Prof. mezian sadi	Member	Higher School for teachers-buzreya
Prof. mohammed said agayeb	Member	University of chahid hamma lakhder – el oued

Academic year: 2021-2022

الإهداء

أهدي ثمرة هذا الجهد إلى

روح أبي وأمي، وأدعو الله أن يرحمهما وينور قبريهما ويجعلهما روضتين من رياض الجنة

سنام فخري وذروة اعتزازي إخوتي وأخواتي

سندي ورفيق دربي ومن أدين له بالفضل لإتمام هذا العمل زوجي عبد الغني

إلى فلذات كبدي أبنائي الأعزاء:

محمد بهاء الدين وأسيل وسيدرا

إلى كل من جمعتني بهم سنوات الدراسة والعمل زملاء وزميلات

إلى كل من سلك طريقا لطلب العلم.

سعيدة

شكر وعرفان

الحمد والشكر لله الذي بيده العون والتوفيق وبعد:

اعترافا برد الفضل لأهله واستجابة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا

يشكر الله من لا يشكر الناس"

أتقدم بجزيل شكري وعظيم تقديري للأستاذ الدكتور لزهريديدة على تفضله

بالإشراف على هذه الأطروحة ولم يبخل عليّ بمساعداته لي طيلة مشواري

الدراسي، فجزاه الله عني كل خير.

كل الشكر والامتنان لزوجي عبد الغني لمساعداته الجليلة ووقوفه بجاني من

أجل إخراج هذا العمل وبهذه الصّورة.

تحية تقدير واحترام مّي لأعضاء اللّجنة الموقرة لقبولهم قراءة ومناقشة

وتقييم هذه الأطروحة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}

الآية 19، آل عمران.

وقال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ
حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ}

الآية 36، الأنفال.

قائمة المختصرات:

B. M. L. P. F.T:	Bulletin Mensuel de l'office du Protectorat Français en Tunisie
C.G.T:	Confédération Générale du Travail
c.e de C:	congrès eucharistique de Carthage
c.e.i:	congrès eucharistiques international
N.V:	Nouvelliste valaisan.
La r. c. i. f:	La revue catholique des idées et des faits
S.F.I.O:	Section Française de l'internationale ouvrière.
La P.V:	La Patrie Valaisanne.

مقدمة

مقدمة:

بعد أن حققت فرنسا رغباتها في ضم تونس ربيع سنة 1881، وفي إطار إتمام وإبقاء السيطرة عليها اتجهت لغزو آخر أكثر أهمية من الغزو السياسي والعسكري ألا وهو الغزو الفكري والثقافي والديني، واتبعت في ذلك عدة سياسات وعلى رأسها السياسة التنصيرية، إذ رأت الجمهورية الفرنسية الثالثة ومن أجل تأمين ديمومة استعمارها لابد من التخطيط لشل حركية النضال الوطني، وبما أنّها كانت على علم بأن عوامل قوة المقاومة في تونس كانت تُستمد من روح العقيدة الإسلامية، لذا عملت كلّ ما في وسعها للتصدي للدين الإسلامي ومحاولة غرس عقيدة جديدة مكانه، فسعت منذ تواجدها بتونس إلى إفساح المجال للكنيسة الكاثوليكية من أجل ترسيخ مكانة المسيحية وتدعيم نفوذها وذلك من خلال تشجيع كل تحركاتها وأعمالها التنصيرية من إنشاء للمدارس والمستشفيات وهيئات اجتماعية وغيرها وذلك في إطار خدمة المصالح الفرنسية المادية لتركيع كل التونسيين عقائديا ونفسانيا لأطماعها الاستعمارية.

كما أنّ الكنيسة الكاثوليكية ورجالها رأوا في أنّ التعاون مع الإدارة الاستعمارية ضرورة ملحة بهدف تدعيم المشروع السياسي للسلطات الدينية المسيحية في جعل تونس بوابة لتنصير كامل إفريقيا، وفي هذا السياق تمّ تعبئة علماء الآثار من أجل استخراج الرّفات المسيحية لأنّ وجودها يضيفي الشرعية على مشروعها التنصيري، ولم تكتف بهذا فحسب بل جمّعت الألاف من الكاثوليكين للاحتفال بذكرياتها في مدينة قرطاج العربية الإسلامية في مؤتمر أفخارستي دولي في ماي 1930، هذا المؤتمر الذي لقي ردود أفعال قوية من قبل التونسيين عامة والوطنيين خاصة، إذ اعتبروه جزءا من سياسة فرنسا لتجذير مشروعها الاستعماري ودعوة صريحة لإحياء المسيحية ومحاولة لمحو ثلاثة عشر قرنا من الإسلام في إفريقيا وبالتالي فسخ الهوية الدينية والحضارية الإسلامية للتونسيين. فكان لهذا الحدث دور كبير في إيقاظ الحس والوعي الوطني ممّا أعطى دفعا جديدا للحركة الوطنية التونسية.

ولذا قرّرت من خلال هذه الرسالة التعريف بهذا المؤتمر ومحاولة إبراز الأثر الذي لعبه في تطوّر العمل الوطني بتونس خلال الثلاثينات من القرن العشرين.

وعليه جاء العنوان كالتّالي: "المؤتمر الأفخارستي الدّولي بقرطاج وأثره في تطور الحركة الوطنية التّونسية خلال فترة (1930-1940)".

الهدف من الدّراسة:

يتمثل الهدف الأساسي من هذه الدراسة في الوقوف عند الوازع الديني (الكاثوليكي) لهذا المؤتمر ومحاولة إبراز أبعاده الدّينية والسياسية وتداعياته القريبة والبعيدة على الصّعيدين الديني والاستعماري. وكذلك تحليل تأثيره على الوضع السياسي في تونس، وبشكل خاص على الحركة الوطنية، وفي نفس الوقت دراسة مدى تلازم الفكرة الوطنية مع الفكرة الدّينية في نشاط الحركة الوطنية.

أهمية الموضوع ودوافع اختياره:

- إعطاء صورة أو نموذج عن الصّراع الحضاري في التّاريخ المعاصر في منطقة مغربية مستهدفة منذ القدم من طرف استعمار غربي مسيحي مادي عمل كل ما في وسعه للقضاء على شعب استمد قوّته الرّوحية من دينه الإسلامي، فكان المؤتمر الأفخارستي بقرطاج عبارة عن حرب صليبية جديدة بشكل سلمي في إطار استكمال سلسلة حلقات الحروب الصّليبية الدّموية للقرون الوسطى، وإتمام المشروع الحضاري الذي توقّف عنده لويس التّاسع 1270م.
- محاولة الكشف عن طبيعة القضايا الجدلية التي طرحتها الصّحافة الفرنسية والتّونسية وحتى الإقليمية والدّولية عند معالجتها لموضوع المؤتمر الأفخارستي بقرطاج.
- التّعرف على نتائج المؤتمر الأفخارستي في قرطاج وردود الفعل التي أثارها بين الكاثوليك والاشتراكيين الفرنسيين وكذلك بين القوميين التّونسيين أو الأوساط الإسلامية المحافظة.
- بيان مدى أثر المؤتمر الأفخارستي على المجتمع التّونسي من النّاحيتين المعرفية والعملية فيما يتعلق بتهيئة الشعب التّونسي للتّصدي لمخططات الكنيسة وحلفائها.
- المساهمة بدراسة أكاديمية حول تاريخ الحركة الوطنية التّونسية في مرحلة هامة وحاسمة من مراحل تطوّرها ومحاولة إكمال النّقص أو إتمام دراسة أحداث 1930

بالمنطقة المغاربية، حيث تم تناول كل من ذكرى الاحتفال بمئوية الجزائر والظهير البربري بالمغرب الأقصى بينما ظل موضوع المؤتمر الأفخارستي بتونس وحيثياته غامضا، وبالتالي كان الدافع وراء هذه الرسالة هو إضافة لبنة في المكتبة التاريخية الوطنية فيما يخص هذا الموضوع وعلى الأقل من وجهة نظر جزائرية.

حدود الدراسة (1930-1940):

وقد تم اختيار هذه الفترة للدراسة لكون سنة 1930 هي سنة انعقاد المؤتمر الأفخارستي بقرطاج، وهي سنة صاخبة ومحورية في تاريخ تونس المعاصر، إذ مثلت منعرجا حاسما في تاريخ الحركة الوطنية التونسية وهذا لما لعبه المؤتمر من دور في الاسهام في إيقاظ وانتعاش العمل الوطني وفي إعادة بلورة الحركة الوطنية وفق أسس وآليات جديدة كانت سنوات الثلاثينات مسرحا لها، أما سنة 1940 فقد أقرت فيها حالة الظروف الاستثنائية الناتجة عن اندلاع الحرب العالمية الثانية. والتي كان لها الأثر على الطرفين التونسي والفرنسي، فبالنسبة للجانب التونسي فقد ضعف نشاط الحركة الوطنية إن لم نقل توقف بنفي زعمائها، أما بالنسبة لفرنسا فقد عرفت سقوط الجمهورية الفرنسية الثالثة باحتلال ألمانيا للعاصمة باريس في شهر جوان 1940.

الإشكالية:

تمثلت الإشكالية الأساسية لهذه الدراسة في البحث عن الظروف والمعطيات التي جاء فيها المؤتمر الأفخارستي وأهدافه وتداعياته على الحركة الوطنية التونسية خلال المرحلة محل الدراسة. ولتبسيط هذه الإشكالية تم طرح مجموعة من الأسئلة الفرعية تتمثل في:

1- كيف كان الوضع العام بتونس عند انعقاد هذا المؤتمر، وما هو النسق المحلي والدولي الذي طرّح فيه هذا المشروع؟

2- من هو المسؤول الفعلي عن هذا المؤتمر؟ هل هو مطلوب فعلا ومباشر من قبل السلطات الفرنسية أم أنها كانت غارقة في المبادرات المحلية للكنيسة التونسية المدعومة من الفاتيكان؟ وما هو دور كل واحد منهما في نشأة المشروع وتطوره؟

3- كيف سمحت جمهورية فرنسا العلمانية بعقد مؤتمر ديني كاثوليكي في محميتها التونسية؟ وكيف كان موقف العلمانيين وأعداء الدين من هذا المؤتمر؟

4- ما هي الأهداف والأبعاد التي كانت الإدارة الفرنسية تصبو إلى تحقيقها من وراء هذا المشروع؟

5- على اعتبار أنّ المؤتمر الأفخارستي تحدّى الشّعور الإسلامي للتّونسيين، فشعروا بخطر الاختراق الاستعماري للذّات التّونسية وإرثها الحضاري والتّاريخي فكيف كان موقف الشّعب التّونسي من هذا الفعل الاستعماري الكاثوليكي؟ أو كيف ساهم المؤتمر الأفخارستي في توتير الوجدان التّونسي واستنهاض الوعي الوطني لديه بضرورة العمل والكفاح الفكري والميداني؟ أو ما مدى مساهمة البعد الدّيني في التّعبئة ضد الاستعمار؟

وما هي الآليات والوسائل والايديولوجيا التي تبنتها قوى العمل الوطني للدّفاع عن كيانه وصيانة هويتها وشخصيتها التّاريخية؟ وماهي المرجعيات الفكرية التي تأثرت بها النّخبة الوطنية التونسية في ردّها على المشروع الاستعماري التغريبي ؟

6- إلى أي مدى ساهم المؤتمر الأفخارستي في تنسيق وتعميق العمل المشترك وفي توحيد صف النّضال الوطني وفي توحيد الخطاب السّياسي في مواجهة ايديولوجيا التغريب وسياسات الاستعمار المختلفة.

7- هل يمكن اعتبار المؤتمر الأفخارستي بقرطاج خطأ سياسي فادح ارتكبه الجمهورية الفرنسية الثّالثة، وماهي تداعياته على كل من الكنيسة والاستعمار؟

خطة البحث:

ولإنجاز هذا البحث، وللإجابة عن الاشكالية صمّمت خطة تتكون من مقدمة وأربعة فصول.

خُصّص الفصل الأول للحركة الوطنية قبل 1930، و فيه توضيح للإطار العام الذي تشكّل فيه الوعي السّياسي التّونسي، والذي أدّى إلى بروز النّخبة التي ستقود العمل الوطني ابتداء من أواخر العقد الأول من القرن العشرين إلى آخر فترة الدّراسة. وعليه تمّ أولاً تقديم العوامل التي دفعت وساهمت في ظهور الوعي الوطني والتي نجد على رأسها الاستعمار

الفرنسي وسياسته العنصرية، وبعدها عرّجت إلى عرض وشرح بقية العوامل كالحركة الفكرية والتّعليمية ومختلف الأنشطة الثقافيّة كالصحافة والنّوادي والجمعيات ناهيك عن المؤثرات الخارجية سواء الشّرقية العربية الإسلامية أو الغربية الليبرالية أو اليسارية.

كما حاولت إعطاء فكرة عن نشأة وتطور الحركة الوطنية قبل 1930 حتى يتسنى لنا معرفة التّغير والمستجدات التي طرأت على العمل الوطني بعد انعقاد المؤتمر الأفخارستي، تناولت أولاً حركة الشّباب التّونسي من حيث النّشأة والمطالب ثم عرضت نشاطاتها وأهم إنجازاتها على المستوى الوطني والدولي، وبعدها تطرقت للحزب الدستوري وظروف وعوامل تأسيسه وبرنامجه ووسائل عمله، كما قدّمت موقف السلطات الاستعمارية من الحزبين والمتمثل أساساً في شلّ النشاط السّياسي عن طريق توقيف العمل الصحفي ونفي الزعماء.

أما الفصل الثاني فقد تطرقت فيه للمؤتمر الأفخارستي الدّولي بقرطاج والمواقف المتعددة منه، وكانت البداية بالحديث عن الظروف المحلية لانعقاد هذا المؤتمر والمتمثلة أساساً في تراجع نشاط الحركة الوطنية خاصة بعد سن القانون التّعسفي في جانفي 1926، وفشل إصلاحات 1922، وتمادي فرنسا في سياستها الإدماجية بسنّ قانون التّجنيس 1923 والاحتفال بمئوية الكاردينال لافيغري 1925 وآثارهما في تنامي الوعي بالهوية، وبداية ظهور فئة من الشّباب المُجدّدين في أواخر العشرينات وبروز نشاطها من خلال مساهمتها في العمل الجمعي والنّضال الصحفي وإبداء مواقفها من بعض القضايا الفكرية والاجتماعية السائدة في تلك الفترة كالاشتراكية والحادثة وحرية المرأة وغيرها من المواضيع.

وبعدها قدّمت الظروف الخارجية أو السّياق الدّولي الذي طُرِح فيه مشروع المؤتمر الأفخارستي والمتمثل أساساً في تواصل الهجمة الاستعمارية الغربية المسيحية على العالم الإسلامي والتي وصلت في تلك الفترة إلى أقصى حدودها، وحتّى تحافظ على مصالحها فيه تحالفت قوى الاستعمار مع الكنيسة مع المنظمة اليهودية العالمية من أجل ضمان عدم وحدة المسلمين وتفكيك القوى الإسلامية وإفساد عقيدتها وإضعافها حتى يسهل ركوبها والسّيطرة عليها أي أنّ المؤتمر جاء ضمن الخطة التّنصيرية التي تستهدف العالم الإسلامي، وكذلك طُرِح المؤتمر الأفخارستي في إطار التّنافس الاستعماري بين فرنسا وإيطاليا وخصوصاً بعد

وصول الفاشية إلى الحكم 1922 ورغبتها في البحث عن المجال الحيوي والتوسع في شمال إفريقيا. وبعدها توقفت عند التعريف بالأفكارستيا والمؤتمر الأفكارستي بصفة عامة قبل الحديث عن مؤتمر قرطاج، الذي تناولته من حيث تحليل أبعاده الدينية ومراميه السياسية، وشرحت المواقف المتعددة منه سواء الفرنسية المؤيدة منها والمعارضة أو التونسية وحتى بعض المواقف الدولية.

وعالجت في الفصل الثالث وقائع ونتائج المؤتمر، وذلك بالاعتماد على ما نشرته الصحف المواكبة له والتي مثّلت آنذاك آلية من آليات الصراع الفكري ووسيلة هامة من وسائل إبداء الرأي حول كلّ القضايا التي تخصّ المؤتمر، فشكّلت بذلك رغم تضارب المعلومات بها المصدر الأساسي للحدث، وقسمت الفصل إلى أربعة عناصر أساسية، الأول حول الصحافة الفرنسية والتي بدورها انقسمت إلى فرعين كبيرين مؤيدة ومعارضة سواء في فرنسا أو في تونس، وفيما يخصّ الصحف الفرنسية المؤيدة في فرنسا سواء كانت دينية موالية للكنيسة أو نشرات استعمارية بشكل عام سواء صحف إبداء الرأي أو صحف إخبارية وبكل أطرافها السياسية والاقتصادية والاجتماعية أو اليومية منها والأسبوعية وحتى الشهرية، فتمّ معالجتها بطرح أهم المواضيع التي تطرّقت لها، أمّا عن الصحف الفرنسية المؤيدة في تونس فركّزت على جريدة (تونس الفرنسية)، وقدّمت مختلف آرائها ومواقفها من المؤتمر، أمّا الفرع الثاني من الصحافة الفرنسية فكان حول الصحف المعارضة ذات التّوجه اليساري بصفة عامة وعلى رأسها جريدة (تونس الاشتراكية) والتي رأت في تأييد السلطات الفرنسية للمؤتمر خروج عن مبادئ العلمانية وحقوق الانسان والمواطن ومبادئ ثورة 1789.

وفي العنصر الثاني من الفصل تناولت أهم المسائل التي طرحتها الصحف التونسية في كتابتها عن المؤتمر والتي نجد على رأسها التّديد بالسياسة التبشيرية التي تنتهجها الكنيسة ورجال الدّين وتدعمها الحكومة الفرنسية وسلطة الحماية، وكذلك استغلال أموال البلاد في تدعيم ظاهرة كاثوليكية وبدون فائدة تذكر ناهيك عن مشاركة كبار رجال الدّولة والدّين المسلمين في الهيئة الشرفية للمؤتمر، والاحتجاجات التونسية المناهضة لهذا الحدث وغيرها من المواضيع.

بينما تطرّقت في العنصر الثالث إلى نماذج عن الصّحف الإقليمية والدّولية وكيفية معالجتها لموضوع المؤتمر، فأخذت عن الصّحف الإقليمية والعربية جريدة (الشّهاب الجزائرية) وجريدتي (الشّورى) و(الفتح) المصريّتين. أمّا عن الصّحف الغربية فتناولت كنموذج عنها الصّحف الإيطالية والسويسرية والبلجيكية والبولندية. ولخصّصت في العنصر الرّابع تداعيات المؤتمر الأفخارستي على الكنيسة وسلطة الحماية.

أمّا الفصل الرّابع فقد خصصته لتداعيات المؤتمر الأفخارستي على الحركة السّياسية التّونسية في الثّلاثينات، وجاء في ثلاثة عناوين رئيسية: تحدّثت في العنصر الأول عن التّغير الذي وقع في فكر وتركيبه الحركة الوطنية، وعالجت في العنصر الثّاني البعد الدّيني ومبدأ الحفاظ على الهوية في الخطاب السّياسي للحركة الوطنية عبر مرحلتين الأولى قبل انشقاق الحزب الحر الدّستوري والثّانية بعد الانشقاق، بينما وضّحت من خلال العنصر الثّالث دور المؤتمر الأفخارستي في الاعتماد على مبدأ التعبئة الشّعبية في كل تحركات الحركة الوطنية خلال الثّلاثينات واعتباره أداة ووسيلة هامة من وسائل الضّغط على السّطات الاستعمارية، الأمر الذي أدّى إلى تصلّب الكفاح التّحرري والتّصادم مع الاستعمار عدّة مرات خلال فترة الدّراسة.

وجاءت الخاتمة تتويجا لكل الفصول السّابقة، وهي عبارة عن جملة من الاستنتاجات، والاستنتاجات حول تلك المرحلة وقضاياها، ومحاولة لإجابة عن التساؤلات التي طرحتها حول الموضوع. وذيلت عملي بمجموعة من الملاحق ذات الصّلة المباشرة بالموضوع محل الدّراسة.

المنهج المتّبع:

وقد اعتمدت في معالجة هذا الموضوع على المنهج التّاريخي الوصفي التحليلي في تغطية كل الأحداث والوقائع التي عرفت فترة الدّراسة، وكذلك في طرح كل ما نقلته الصّحف التّونسية والفرنسية وحتى الدّولية حول المؤتمر الأفخارستي وتداعياته.

وكذلك المنهج التاريخي المقارن لمقارنة مختلف المواقف من المؤتمر وكذلك في مقارنة مطالب الحركة الوطنية في كل مراحل تطورها خلال فترة الدراسة، ونفس الوقت مقارنة مواقف رجال النخبة الوطنية من السياسة الاستعمارية ومخططاتها.

نقد المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:

لقد اعتمدت في هذه الدراسة على العديد من المصادر المتخصصة في تاريخ الحركة الوطنية التونسية خلال فترة الاحتلال، فاستمد البحث مادته من مؤلفات قادة النضال التونسي والذين شاركوا في الكفاح من أجل التحرر: مثل كتاب الشيخ عبد العزيز الثعالبي "تونس الشهيدة" والذي أفادني كثيرا في معرفة الوضع العام بتونس بداية الاحتلال وتفاصيل السياسة الاستعمارية بها، وكذلك "مذكرات مناضل" لمحمود الماطري وكتاب علي البلهوان "تونس الثائرة"، والحيب ثامر "هذه تونس"، وأحمد بن ميلاد ومحمد مسعود إدريس "الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية - ج1"، والطاهر عبد الله "الحركة الوطنية التونسية"، وكتاب أحمد توفيق المدني "حياة كفاح - ج1"، والتي أفادتي في معرفة كل تفاصيل نشأة وتطور الحركة الوطنية قبل 1930، وخاصة كتابي "تونس الشهيدة" و"حياة كفاح - ج1"، أما بقية المصادر إضافة إلى كتابات الحبيب بورقيبة والمتمثلة في "تاريخ الحركة الوطنية، مقالات صحفية (1929-1934)" و"محاضرات بورقيبة بمعهد الصحافة عن تاريخ الحركة الوطنية (حياتي، آرائي جهادي)" فقد أفادتي في معرفة كل المتغيرات التي شهدتها سنوات الثلاثينات من ظهور لفئة الشبان المتعلمين في المدارس الفرنسية وبداية نشاطهم السياسي وصراعهم مع الحزب الدستوري القديم ودورهم في إعادة بلورة الحركة الوطنية التونسية وقيادتها نحو التصلب ومواقف السلطة الاستعمارية من العمل الوطني وزعمائه خلال هذه الفترة وغيرها من التفاصيل.

كما اعتمدت كذلك على الصحافة وخاصة فيما يخص الفصلين الثاني والثالث والمتعلقين بالمؤتمر الأفخارستي، وخاصة الصحف الفرنسية وبعض الصحف الأوربية والتي شكّلت المصدر الأساسي للموضوع وهي كثيرة ويمكن أن أستهجد فقط ببعض منها، فنذكر مثلا الجريدة الدينية اليومية (La Croix) والتي أمدتني بكل مجريات المؤتمر وفعالياته

بالنسبة للجانب الكاثوليكي، وهي شاملة لكل التفاصيل إلى درجة أن كل ما ورد فيما يخص المؤتمر في بقية الصحف الفرنسية كان عبارة عن تكرار لما جاء فيها من أخبار، وكذلك الجريدة الشهرية (**L'Afrique française**) والتي أفادني عددها الصادر بجوان 1930 كثيرا في معرفة تداعيات المؤتمر الأفخارستي والمواقف المتعددة منه من خلال ما نشرته بعض الصحف التونسية والإيطالية وصحيفة تونس الاشتراكية (**Tunis Socialiste**)، وكذلك جريدة (**Le Temps**) الاخبارية اليومية والتي أضافت إلى مجريات المؤتمر بعض مواقف الصحف الإيطالية من المؤتمر، كما تناولت الموقف التونسي من المؤتمر من وجهة نظر فرنسية وغيرها من الجرائد.

أما بالنسبة للصحافة العربية فنجد جريدة "الفتح" القاهرية لمحب الدين الخطيب والتي نشرت معلومات عدة عن موضوع المؤتمر الأفخارستي بقرطاج قدّمها لها مكتب الأخبار التونسية بمصر، والذي قام في سنة 1349هـ / 1931م بإعادة جمعها وطبعها في كتاب مستقل تحت عنوان: "ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي هل تمثل مأساة الأندلس من جديد في شمال إفريقية الحملة الصليبية التاسعة في المؤتمر الأفخارستي"، وقد احتوى هذا الكتيب المكوّن من 80 صفحة معلومات قيمة عن موضوع المؤتمر، فشكّل بذلك مصدرا هاما وأساسيا لكل تفاصيل وحيثيات الموضوع، وقد تمّ الاستفادة والاستزادة منه في بعض القضايا، وخاصة فيما نشرته الصحف حول المؤتمر. كما استفدت من جريدة "لسان الشعب" للبشير الخنقي، والتي كانت بمثابة نموذج عن كيفية معالجة الصحافة التونسية للمؤتمر، وغيرها من الجرائد والتي في معظمها تعدّ عليّا الحصول عليها، فاعتمدت في غالب الأحيان على ما نقلته المصادر ككتاب بورقيبة "مقالات صحفية" وما نقلته المراجع والكتب للاستشهاد.

أما فيما يخص المراجع التي ساعدتني في إنجاز هذا العمل فهي كثيرة، وأخص بالذكر منها: كتاب علي المحجوبي "جذور الحركة الوطنية التونسية (1904-1934)"، وكذلك كتاب زهير الدّواي "تحولات العمل الوطني التونسي في السنوات الثلاثين 1929-1939"، وكذلك كتاب "تونس عبر التاريخ، الحركة الوطنية ودولة الاستقلال - ج3" والذي ألفه عدد من المؤرخين كنور الدين الدّقي الذي أخذت منه في "تنظيم الحكم" ويحي الغول

في "جذور الحماية الفرنسية"، ومحمد لطفي الشايب في "الحزب الحر الدستوري التونسي (1920-1934)"، وعبد السلام بن حميدة في "الحركة النقابية (1924-1952)".

أمّا في ما يخصّ المراجع باللّغة الفرنسية فهي متنوعة وأذكر منها ما أفادني بشكل كبير ما كتبه علي المحجوبي حول المؤتمر الأفخارستي في كراس تونس:

“ Le Congrès Eucharistique de Carthage et le mouvement national tunisien en 1930,(Extrait des cahiers de Tunisie),C.T..Tunis ,1978 ».

والذي حلّ فيه الموقف الفرنسي من المؤتمر وكذلك تأثير المؤتمر على الحركة الوطنية التونسية. وكذلك مقالات جاك ألكسندروبولوس (Jacques Alexandropoulos) وأخصّ بالذكر منها:

"Entre archéologie universalité et nationalismes: le trentième congrès eucharistique International de Carthage"

والتي أفادتني خاصة في عنصر التّحضير للمؤتمر ودور الجانب الأثري وعالم الآثار الأب ديلاتر (Delattre) في التّحضير للمؤتمر. كما أفادتني كثيرا المقالات التي تحلّ العلاقة بين الإسلام والكاثوليكية في تونس كمقال بيير فيرميران (Vermeren Pierre):

"Catholicisme et l'islam dans le cadre du protectorat tunisien (1881-1930)"

الصّعوبات:

واجهت بعض الصّعوبات خلال مسار هذه الدّراسة أذكر منها: اختلاف المعطيات الإحصائية في المصادر والجرائد حول كل القضايا التي تخصّ المؤتمر: من عدد الدّول المشاركة، فمصادر تقول 21 دولة، وأخرى تذكر 25 دولة، وكذلك في تعداد الوافدين إلى المؤتمر، فالمصادر الفرنسية تضخّم العدد، إذ أنّ الأرشيف الفرنسي ذكر حوالي عشرين ألف مشارك من بينهم عشرة آلاف فرنسي أمّا بقية المصادر وأقوال الصّحف فأعطت أرقام مغايرة وخاصة التونسية والاشتراكية والتي قلّلت من هذا العدد بشكل كبير، وكذلك فيما يخصّ أعداد

الحضور في الافتتاح وفي بقية فعاليات المؤتمر، لذا حاولت عرض كل المعطيات كما نقلتها المصادر وخاصة الصحف بحكم أنها شكلت المصدر الرئيسي للموضوع.

كما وقفت عند تضارب وتناقض المواقف بين مختلف المصادر والمراجع فيما يتعلق بالصراع داخل الحركة الوطنية وأحقية كل طرف في النزاع، فمعظم الكتب كتبت وفق توجهات وميولات وايدولوجيات شخصية المؤلفين، وهو ما حثم عليّ قراءة جُلّ الكتب ومحاولة طرح وعرض كل ما قيل في بعض المسائل كمسألة أسباب ودوافع الانشقاق داخل الحزب الدستوري وأحقية كل طرف في زعامة وقيادة الحركة الوطنية.

كما أنّ جائحة كورونا وغلق الحدود صعّبت مهمة السفر إلى تونس للاستزادة والاستفادة أكثر من المادّة الأرشيفية والمصادر الأساسية للموضوع كالصحافة مثلاً.

بالإضافة إلى صعوبة تحديّ الزمن وإنجاز هذا العمل في الوقت المحدد له والأسباب كثيرة ومتعددة منها ما هو صحي ومنها ما يرتبط بعدم القدرة على التوفيق وإيجاد الوقت الكافي له من بين بقية المسؤوليات الخاصة بي.

وفي الأخير أرجو أن أكون قد وُفِّقت في الإلمام والإحاطة بمعظم جوانب هذا البحث، وأعطيتها ما تستحق من الاهتمام والتوضيح، وإن قصّرت في بعض الجوانب فيبقى هذا العمل من صنع البشر، ويكفيني فخراً أنني قد اجتهدت وحاولت من خلال هذه الدراسة فتح الباب أمام الدارسين والباحثين في الكثير من النقاط الواردة للخوض والتعمّق فيها بشكل أكبر وأدق في المستقبل.

الفصل الأول: الحركة الوطنية التونسية قبل المؤتمر الأفخارستي

1- الحماية الفرنسية على تونس 1881

1-1- الوضع العام بتونس قبل الحماية وتزايد الأطماع الأوربية عليها

1-2- فرض الحماية وتوقيع معاهدة الاستسلام

2- عوامل ظهور الوعي الوطني بتونس في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

1-2-1- الظروف والعوامل الداخلية

1-2-1-1- فشل المقاومة بداية الاحتلال

1-2-1-2- السياسة الاستعمارية

1-2-3- ظهور الصحافة الوطنية

1-2-4- ظهور الجمعيات

1-2-5- الحركة الإصلاحية والتعليمية بتونس

2-2- التأثيرات الخارجية: الشرقية الإسلامية والغربية الليبرالية

1-2-2-1- التأثيرات الشرقية الإسلامية

1-2-2-2- التأثيرات الغربية

3- تطور العمل السياسي بتونس قبل 1930

1-3- حركة الشبان التونسيين 1907-1912

1-3-1-1- بؤادر العمل السياسي

1-3-2- تأسيس حركة الشبان التونسيين 1907 وأهم مطالبها

1-3-3- أهم نشاطات حركة الشبان التونسيين

1-3-4- موقف السلطة الاستعمارية من حركة الشبان التونسيين

2-3- الحزب الحر الدستوري التونسي (1919-1925)

1-2-3-1- ظروف وعوامل نشأة الحزب الحر الدستوري التونسي

1-2-3-2- نشأة الحزب الحر الدستوري وبرنامجه

1-2-3-3- وسائل العمل السياسي للحزب

1-2-3-4- موقف السلطات الاستعمارية من الحزب الدستوري

الفصل الأول: الحركة الوطنية التونسية قبل المؤتمر الأفخارستي:

1- الحماية الفرنسية على تونس 1881:

تعود الأطماع الفرنسية في تونس إلى حقبة بعيدة تمتد لعام 1270م عندما قاد الملك الفرنسي لويس التاسع (Louis 9)¹ حملة عسكرية للسيطرة عليها، وكان مصيرها الفشل، وبقيت الأطماع الفرنسية متواجدة إلى أن ظهرت بشكل جليّ بعد احتلالها للجزائر 1830، إذ أولت فرنسا اهتماما خاصا بتونس، فعدتها امتدادا للجزائر من الناحية الشرقية، وأخذت تعمل على إيجاد المسوغات لاحتلالها.

1-1- الوضع العام بتونس قبل الحماية وتزايد الأطماع الأوروبية عليها:

أصبحت تونس إيالة عثمانية بعد فرض السيادة المباشرة عليها منذ عام 1574، وإلى غاية مطلع القرن الثامن عشر، وفي 1705 أسّس الحكم المحلي بإعلان البيعة إلى حسين بن علي (1705-1735) مؤسس الأسرة الحسينية التي استمر حكمها بالوراثة، وحكمت تونس بشكل شبه مستقل عن الدولة العثمانية عن طريق نظام البايات، عرفت خلالها تونس مرحلة من التقدم الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي استمر إلى مطلع القرن التاسع عشر.²

¹ هو الملك الفرنسي قائد الحملة الصليبية الثامنة على تونس سنة 1270م بمباركة ومساعدة الكنيسة والبابا أنوسنت الرابع (Innocent)، وجاءت حملته هذه وهو في عمر السبعين ليمحو عار هزيمته في حملتيه السابقتين على كل من مصر والشام (1248-1254م)، وشارك معه في الحملة عدد كبير من أمراء وسادة أوروبا، كما شارك معه ابنه فيليب الثالث (Philippe-3) الذي تولّى قيادة الحملة بعد وفاة والده إلى أن حضر ممّه شارل كونت أنجو (Charles comte D'Anjou). وكانت حملة فاشلة توفي خلالها الملك لويس التاسع. ومنذ ذلك الحين أصبح الصليبيون وخصوصا الفرنسيين على ارتباط بتونس، إلى أن تحصلوا وفي عهد المشير باشا الحسين على تصريح من الحكومة التونسية بإقامة كنيسة في المكان الذي مات فيه لويس التاسع، وهذه الكنيسة معروفة بكنيسة القديس لويس. للمزيد من المعلومات أنظر: سامية عامر، الصليبيون في شمال إفريقيا، حملة لويس التاسع على تونس (1270م) (668-669هـ)، ط1، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، مصر، 2002، ص 90-91. وكذلك محمد أمين، شمال إفريقيا والحركة الصليبية 1189-1390م، مطبعة جامعة القاهرة، مصر، 1975.

² جمعة عليوي فرحان الخفاجي، وسام هادي عكار عظيم، "السياسة الفرنسية حيال تونس 1881-1914"، مجلة الأستاذ، كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية، جامعة بغداد، العدد 214، المجلد الأول، سنة 2015، ص 253.

وبدأ القرن التاسع عشر في تونس كأُسوأ ما يكون، وهو القرن العصيب كما وصفه المؤرخ محمد الهادي الشّريف، فبالإضافة إلى تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية الداخلية، أصبحت الإيالة التونسية مسرحاً لصراع الدّول الأوربية التي أبدت رغبتها في الانقضاض عليها.¹

إذ شهد القرن التاسع عشر تزايد حركة التّوسع الاستعماري الأوربي، هذه الحركة الناتجة عن تضافر عدة عوامل لاسيما العامل الاقتصادي، إذ نتج عن نضج الثّورة الصناعية في إطار الرّأسمالية المتطورة الحاجة إلى توفير المواد الأولية وإيجاد مجالات لاستثمار فوائض رؤوس الأموال وأسواق لترويج البضائع والمصنوعات.²

وفي ظل التّنافس الاقتصادي بين القوى الأوربية أصبحت مراقبة الطّرق التّجارية غاية تُحتمها الحركة الاستعمارية، وفي هذا الإطار ظهرت خطورة التّوسع الأوربي على تونس، إذ كان لموقعها الجغرافي الاستراتيجي والذي لا يبتعد على جزيرة صقلية - التي تشكل معها مضيقاً - سوى 140 كلم بمثابة منطقة عبور بين غربي البحر المتوسط وشرقه ممّا يسمح بمراقبة الملاحة والطّرق التّجارية عبره، وكذلك اعتبار مرفأ بنزرت قاعدة عسكرية من الصّنف الأول، وهمزة وصل بين الشّرق والغرب في البحر المتوسط ؛ دور كبير في جعل تونس محل أطماع وتنافس القوى الاستعمارية الأوربية العظمى أمثال فرنسا وإنجلترا وحتى إيطاليا.³

وكانت فرنسا أكثر اهتماماً بتونس وخصوصاً بعد احتلالها للجزائر 1830، وذلك بهدف أن لا يكون لها حدود مع الدّولة العثمانية التي كانت تحكم طرابلس، وكذلك رغبة منها

¹ زهير الدّواي، الاستعمار وتأسيس الحركة الإصلاحية الوطنية التونسية، ط1، الأطلسية للنشر، تونس، 2006، ص34-35.

² يحي الغول، "جذور الحماية الفرنسية"، تونس عبر التاريخ، الحركة الوطنية ودولة الاستقلال، ج 3، مركز الدّراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2005، ص7.

³ علي المحجوبي، ما يجب أن تعرف عن انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، تعريب عمر بن ضو وآخرون، سراس للنّشر، تونس، 1986، ص26.

في إنهاء الحكم العثماني الاسمي بتونس كي يفسح لها المجال للتدخل فيها،¹ لذا انتهجت حكومتها سياسة التغلغل الاقتصادي² (بذل أقصى جهد للسيطرة على اقتصاد البلاد)، وعمدت كذلك إلى حماية استقلال بايات تونس من الباب العالي ومنع أي تدخل عثماني في شؤونها، وقامت بدعم نفوذها بتونس إلى درجة أن الباي محمد الصادق³ عرض دستوره⁴ على إمبراطور فرنسا للموافقة عليه قبل إصداره.¹

¹ محمد محمود السروجي، العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية إلى الاستقلال، المكتبة الوطنية، بنغازي، (د. ت)، ص 56.

² شرح سياسة التغلغل الاقتصادي: شرع بايات منذ بداية القرن التاسع عشر في استقدام الخبراء الأجانب ومنحهم عدد من الامتيازات للمشروعات الخدمية، ما حمل القناصل الفرنسيين على التدخل لحماية مصالحهم والتأثير في البلاط للاستدانة وأخذ القروض وخصوصا من فرنسا، والتي بدأت تتدخل في شؤون البلاد لحماية مصالحها وامتيازاتها وأموالها، وأمام تدهور الأوضاع الاقتصادية لاسيما المالية - بسبب ترف البايات والنفقات التي اقتضتها الإصلاحات - سلّمت الدولة مصلحة الجمارك للأجانب نظير ما اقترضته من أموال، فتشكلت سنة 1869 لجنة مراقبة مالية دولية تراقب مصاريف الدولة وتتحكم في مداخيلها، وحولت هذه اللجنة مجموع الديون إلى دين موحد قدر بنحو مائة وعشرين مليون فرنك بفائدة (5%)، فأصبح من الصعب على تونس أن تدفع لفرنسا أكثر من 6 ملايين فرنك سنويا من مجموع 13 مليونا التي هي إيرادات الحكومة التونسية، وبذلك غدت تونس مسخرة لدفع فوائد الدين الأجنبي. للمزيد أنظر: عليوي فرحان الخفاجي، وهادي عكار عظيم، المرجع السابق، ص 254. وكذلك الدوايدي، المرجع السابق، ص 66-67.

³ الباي محمد الصادق (1859-1882) بن حسين بن محمود باي، ولد في 7 فيفري 1813، واعتلى العرش يوم 23 ديسمبر 1859 بعد وفاة أخيه أحمد باي، وهو الباي الثاني عشر في سلسلة الأسرة الحسينية، أخذ لقب المشير من السلطان العثماني، وأصبح يدعى المشير الثالث، دام حكمه 22 سنة، كان بايا ضعيف الشخصية وقع رهينة لوزرائه الذين أغرقوه في حياة الترف وورطوه في الفساد، وهو الذي أمضى معاهدة باردو 1881، توفي يوم 29 أكتوبر 1882. ينظر: أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج 5، تح لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس، 2004، ص 11. وكذلك: نور الدين صحراوي، النفوذ الأوربي (الفرنسي - الإنجليزي - الإيطالي) في تونس 1857م-1881م، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، السنة الجامعية 2012-2013، ص 58. وكذلك: الشيباني بن بلغيث، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859-1882)، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، صفاقس، 1995، ص 219.

⁴ دستور 1861: وهو أول دستور في الوطن العربي والإسلامي انطلقت لجنة إعداده وصياغته والمشكلة من (الوزير مصطفى خزندار رئيسا وخير الدين باشا وأحمد بن أبي الضياف عضوين) سنة 1857، وأنهت مهمتها سنة 1861، وأصدر محمد الصادق باي في 29 جانفي 1861 مرسوما يعلم فيه الرعية بالدستور الجديد، ويحدّد يوم 26 أفريل 1861 كتاريخ ابتداء العمل به، وتم نشره في جريدة الرائد التونسي، ومن خلال هذا الدستور تم لأول مرة في تاريخ تونس الفصل بين السلطات الثلاثة والحد من سلطة الباي، وهو يضم 114 مادة مؤسسة على قواعد عهد الأمان (عهد الأمان: أصدره

وقد تمكنت فرنسا من تحقيق ما كانت تصبو إليه بعد حصولها على التزكية من الأطراف المتصارعة على بسط النفوذ على المنطقة وذلك من خلال مؤتمر برلين 1878، إذ شجعت ألمانيا فرنسا للتوجه إلى تونس لتبعدها عن التفكير في الانتقام منها بعد هزيمتها أمامها في حرب السبعين (الحرب البروسية الفرنسية)، ووافقت بريطانيا على ترك فرنسا تتصرف في تونس مقابل سكوتها على احتلالها لجزيرة قبرص ومصر²، ولتجنب سيطرة إيطاليا على ضفتي مضيق صقلية بين حوضي البحر المتوسط³ وتمكنها في النهاية من قطع طريق الهند (درة التاج البريطاني) لاسيما بعد فتح قناة السويس 1869⁴، أما إيطاليا فلم تلق دعماً فعلياً من أحد، وقاومت بشدة النفوذ الفرنسي بتونس ما حدا بفرنسا على الإسراع في احتلالها.⁵

1-2- فرض الحماية وتوقيع معاهدة الاستسلام:

محمد باي (وهو ابن عم أحمد باي، ولد سنة 1811، ارتقى إلى العرش سنة 1855، وتوفي 1859.) في يوم 9 سبتمبر 1857، وهو يهدف إلى توضيح حقوق الزاعي والزعية وتحديد الأسس الجديدة التي سيرتكز عليها نظام الحكم بالإيالة، وهي تركز على مجموعة من القواعد تتمثل في تأكيد الأمان لسائر السكان على الأعراس والأموال والأبدان، والمساواة بين جميع السكان في أصل القانون والأداء، ويضمن كذلك حرية المعتقد وحرية التجارة ويسمح للأجانب بتعاطي سائر الحرف وامتلاك الأراضي والعقارات مثل سائر أهل البلاد بشرط أن يتبعوا القوانين... إلخ، أي أنه في الدستور كان هناك نصيب وافر لحقوق الأجانب (خاصة البنود من 105 إلى 114). . للمزيد أنظر: حبيب حسن اللولب: دور الصحافة العربية بتونس في تفعيل الوعي الوطني 1860-1914، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: 2000-2001، ص 11 و ص 16. وكذلك: صحراري، المرجع السابق، ص 105.

¹ سافر الباي محمد الصادق إلى الجزائر يوم 15-09-1960 لملاقاة الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث (Napoléon-III) وإحاطته علماً بما تم في تونس من الإصلاحات، وسلّمه نسخة من دستور تونس أنظر: ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ص 42. و عبد الله الطاهر، الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة، ط2، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، (دت)، ص 21. وكذلك أنظر: أحمد ياغي، محمود شاعر، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج2، قارة إفريقية، دار المريح للفكر، الرياض، السعودية، 1993، ص 97.

² محمود شاعر، التاريخ الإسلامي -14- التاريخ المعاصر لبلاد المغرب، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1996، ص 123.

³ الغول، المرجع سابق، ص 10.

⁴ حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، دار الكتب العربية التونسية، تونس، (دت)، ص 71.

⁵ ياغي، شاعر، المرجع السابق، ص 99.

لقد اتخذت فرنسا مشاكل الحدود التونسية الجزائرية¹ كذريعة للتدخل في شؤون تونس²، فاستغلت الحكومة الفرنسية المناوشة الحدودية ليومي 30-31 مارس 1881 للحصول على مصادقة البرلمان في 7 أبريل على اعتمادات مالية لعملية عسكرية قدمها رئيس الحكومة الفرنسية جول فيري³ (Jules Ferry) (1832-1893) على أنها مجرد تدخل أمني على الحدود التونسية الجزائرية.⁴

فهم الجيش الفرنسي والمقدّر بحوالي 35000 ألف جندي برّا من المستعمرة الجزائرية وشرع في احتلال شمال البلاد التونسية منذ 24 أبريل 1881 متّجها نحو تونس العاصمة، وأنزلت بميناء بنزرت في غرة شهر ماي قوات مسلحة قدمت من فرنسا ومعها القائد العام للحملة بريار (Berat) الذي زحف يوم 8 ماي 1881 على تونس العاصمة، وحلّ يوم الخميس 12 ماي على الساعة الرابعة مساء أمام أبواب "القصر السعيد" بباردو مقر محمد

¹ إذ توغلت في شهر جانفي حوالي 300 من قبيلة بني خمير التونسية إلى التراب الجزائري لينتقموا لأحد أفرادهم فوق اشتباك بينهم وبين القوات الفرنسية. أنظر: نيقولا زيادة، **تونس في عهد الحماية 1881-1934**، الأهلية للنشر والتوزيع القاهرة، 1963، ص 100. كما وقع ما بين 1870-1881، حوالي 2379 هجوم على الحدود الجزائرية التونسية، للمزيد أنظر:

Mgr -A-Pons ,**La nouvelle église d'Afrique , le catholicisme en Algérie , en Tunisie et en Maroc depuis 1830**, librairie Louis Namuva ,Tunis,-p,243.

² ياغي، شاكّر، **المرجع السابق**، ص 99.

³ جول فيري: سياسي فرنسي، ولد في 5 أفريل 1832 في سانت ديي (Saint-édi) من عائلة ألزاسية درس القانون، اشتغل بالمحاماة منذ 1851، واشتهر أيضا كصحفي تلقّد عمدة باريس 1870 لمدة ست أشهر ونصف، تقلّد عدّة مرات وزارة التعليم في الفترة (1879-1883)، تولى رئاسة مجلس الوزراء من 23 سبتمبر 1880 إلى 14 نوفمبر 1881، ثم مرة ثانية من 21 فيفري 1883 إلى 20 نوفمبر 1883، تميّز بكونه منظرا للسياسة الاستعمارية للجمهورية الثالثة، ويعتبر جول فيري الفاعل الأكبر في النهضة الاستعمارية في تونس، في عام 1881 واجه البرلمان بأمر واقع الحملة الفرنسية على تونس لتهدئة الحدود الجزائرية، وظهر خلال فترة حكمه كمؤيد قوي للاستيعاب في شمال إفريقيا وكان يرى أنه على الشعوب الراقية الحق في تمدين الشعوب الدنيا، وهو واجب محمول عليها، وكان يهدف إلى تحويل السكان سواء أكانوا مسلمين أو إيطاليين أو يهود. أنظر:

Pierre Vermeren, « Catholicisme et l'islam dans le cadre du protectorat tunisien (1881-1930) », édition de la Sorbonne, 9-8-2021, p-p, 4-5. (<https://books.openedition.org/psorbonne/41278?lang=fr>).

-Paul Robiquet ,**Discours et Opinions de Jules Ferry** ,T. 1 ,Armand Colin et ,Editeurs ,Paris ,1893, pp 01FF.

⁴ الغول، **المرجع السابق**، ص 23.

الصّادق باي الذي كان في البداية رافضاً للتدخل الفرنسي في الشؤون الداخلية¹ واحتجّ لدى القوى العظمى عبر قناصلها المعتمدين بتونس كما أخبر السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (1876-1908) بمجريات الأمور مطالباً الباب العالي بالقيام بدور فعّال وسريع لإيقاف القرار الذي اتخذته الحكومة الفرنسية،² لكن الدولة العثمانية³ لم تسطع عمل أي شيء ولا سيما وأنّ إنجلترا كانت في الوقت نفسه تعتدي على مصر وتثبت حكمها على قبرص.⁴

وتمكن الجنرال بريار من مقابلة الباي محمد الصّادق وأرغمه على التوقيع على وثيقة الاستسلام والتي ستعرف فيما بعد بمعاهدة باردو، التي لم تكن معاهدة بل نصّاً فرض على الباي فرضاً، إذ أعطي للباي مهلة أربع ساعات لقبوله. وهذه المعاهدة لم تنص صراحة على التدخل الفرنسي في الشؤون التونسية الداخلية بل جعلت تونس محمية فرنسية⁵ أي منح فرنسا حق الإشراف على الشؤون العسكرية والخارجية والمالية⁶، وأعطت المادة الثانية منها الحق للقوات الفرنسية في احتلال المراكز التي ترى احتلالها ضروريا لحفظ النظام وإقرار الأمن، كما أنّها نصّت على إنهاء الاحتلال عندما تصبح الإدارة المحلية قادرة على المحافظة على الأمن والنظام.⁷

¹ خولة لعيرج وآخرون، موجز تاريخ الحركة الوطنية التونسية (مقاربة) 1881-1964، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة منوبة، تونس، 2008، ص 10.

² نيقولا زيادة، المصدر السابق، ص 128-129.

³ إنّ الدولة العثمانية لم تعترف لفرنسا بالوضع الذي فرضته على تونس إلا بعد معاهدة لوزان 1924، اعترفت تركيا بذلك. أنظر: يونس درمونة، تونس بين الحماية والاحتلال، مكتب تونس الحرة، مكتبة الخافجي للنشر والتوزيع، مصر، 1959، ص 18.

⁴ ياغي، شاكر، المرجع السابق، ص 99.

⁵ الحماية في القانون الدولي هي مؤسسة ينتج عنها وضع حد للسيادة الخارجية للدولة وتكليف الدولة الحامية بتسييرها، وبالمقابل فإنّ الدولة المحمية تحافظ على كيانها كدولة وعلى سلطاتها التي تمارسها تحت مراقبة الدولة الحامية. للمزيد أنظر: معتز القرقوري، النظام السياسي التونسي، مجمع الأطرش للكتاب المختص، تونس، 2020، ص 89-90.

⁶ لعيرج، المرجع السابق، ص 11. وكذلك أنظر: درمونة، المصدر السابق، ص 25-26.

⁷ علّال الفاسي، محاضرات في المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، مصر، 1955، ص 32.

فمعاهدة باردو حسب السّياسي رافع بن عاشور وُقِّعت " في استنباط حل وسط بين وضعية الاستقلال ووضعية الإلحاق، ذلك أنّ فرنسا في هذه المعاهدة اعترفت بسيادة الباي على البلاد التونسية، ولكنّها قيّدت سلطاته في بعض الميادين وخاصة منها الميدان المالي، كما أنّها أصبحت تقوم مقامه في كلّ ما يتعلق بعلاقاته مع الخارج، فأخضعت البلاد التونسية إلى نظام قانوني مغاير للنّظام القانوني التي أخضعت له مستعمراتها الأخرى وخاصة منها الجزائر"¹، وذلك لتجنّب الحرب التي يمكن أن يثيرها الشعب التونسي والتي قد تضعف قدراتها الدّفاعية وخزينتها، ولكي تتفادى تبعات الإلحاق والحكم المباشر (الخسائر المادية والبشرية) اكتفت بفرض الحماية وهو نظام استعماري مستحدث يراعي الظّرفية السّياسية الدّاخلية والدّولية، إذ أنّ الظّروف حثّت على فرنسا أن تكون مستعدّة في كل وقت لمواجهة جارتها القوية ألمانيا عسكرياً²، وأيضاً طمأنة الدّول الأوربية التي لها مصالح في تونس وتحييدها وقتياً على الأقل وخاصة بريطانيا وإيطاليا³ وكذلك لامتناس غضب الرّأي العام الفرنسي المعارض وقتئذٍ للمغامرات الاستعمارية.⁴

لكن هذا الأمر لم يستمر طويلاً إذ بمجرد أن استتبّت الأمور لفرنسا طوّرت استعمارها بعقد معاهدة المرسى بين الباي علي⁵ وبول كامبون⁶ (Paul Cambon) في 8 جوان 1883¹

¹ رافع بن عاشور، المؤسّسات والنّظام السّياسي بتونس (الإطار التّاريخي -النّظام الحالي)، مركز النّشر الجامعي تونس، 2000، ص 71.

² القرقوري، المرجع السابق، ص 91.

³ لعبرج، المرجع السابق، ص 12.

⁴ عارض البرلمان الفرنسي الحملة العسكرية ضد تونس، ووقف جورج كليمنصو (Georges Clemenceau) كمتحدث بلسان الجانب الدّيموقراطي وتوجّه بحديثه إلى جول فيري قائلاً: "لقد أخفيت الحقيقة عن البرلمان وتجاوزت الغاية التي شرحتها أمامه فإنّك لم تمض بحملتك ضد قبيلة خمير فحسب بل ضد تونس... " أنظر: درمونة، المصدر السابق، ص 24-25.

⁵ هو الباي علي الذي خلف أخاه الباي محمد الصّادق عقب وفاته، توفي علي بن خليفة 18 تشرين الثاني 1884 عن عمر يناهز 82 سنة. أنظر: شاكر، التاريخ الإسلامي، ج 14، المرجع السابق، ص 128.

⁶ بول كامبون: ولد في باريس 1843، حاصل على دكتوراه في القانون المدني من جامعة أكسفورد، وكان السكرتير الأوّل لجول فيري في محافظة السين، عين وزيراً مقيماً لفرنسا في تونس في 28 فيفري 1882، وبقي في منصبه إلى غاية 28 أكتوبر 1886، أنظر: Vermeren ,Op. cit ,p6.

والتي صادق عليها البرلمان الفرنسي بقانون 9 أبريل 1884 والذي على أساسه فوّض رئيس الجمهورية الفرنسية للمقيم العام الفرنسي² بتونس حق إقرار الأوامر الصادرة عن الباي باسم الحكومة الفرنسية، وقد أصبح الباي بذلك مقيد الصلاحيات وعاجزا عن التحرك بمفرده فحتى السيادة الداخلية أصبحت مرتبهة بمباركة المقيم العام الفرنسي لمقررات الباي.³

فمعاهدة المرسى وحسب ما جاء في نص المادة الأولى منها: "يتعهد باي تونس من أجل تسهيل مهمة الحكومة الفرنسية بتحقيق الحماية بإجراء الإصلاحات الإدارية والقضائية والمالية التي ترى ضرورتها الحكومة الفرنسية"⁴ قد أتاحت للحكومة الفرنسية سيطرتها التامة على البلاد فتحوّلت الحماية بموجبها إلى استعمار مباشر، ولم يترك لممثلي السلطة المحلية إلا نفوذا صوريا على اعتبار أنهم قليلي المعرفة والدراية بالمنهج والروح اللذين تسير بهما إدارة عصرية.⁵ وعليه فإن ممارسة السلطة انتقلت من أيدي السلطات التونسية إلى السلطات الفرنسية تحت اسم الباي الأمر الذي سيعقبه عواقب وخيمة على الشعب التونسي بشكل

¹ لعيرج، المرجع السابق، ص 12.

² المقيم العام: هو منصب جاءت به معاهدة باردو التي نصت على أن حكومة الجمهورية الفرنسية يمثلها لدى سمو الباي وزير مقيم عام يكون ساهرا على تنفيذ العقدة ويكون الواسطة فيها للحكومة الفرنسية مع السلط التونسية بالنسبة لجميع القضايا المشتركة بين البلدين، ويمكن القول بأن المقيم العام الفرنسي هو موظف سام تعينه الحكومة الفرنسية لتمثيلها لدى الباي. ويمكن حوصلة صلاحيات المقيم العام في النقاط التالية انطلاقا من أمر 29 أبريل 1882 الذي ضبط مشمولات المقيم العام ونظم سير الحماية والمنقح بأمر 10 نوفمبر 1884 وأمر 23 جوان 1885:

- يعتبر المقيم العام مؤتمنا على سلطة الجمهورية الفرنسية بتونس وتبعا لذلك فهو المسؤول عن المصالح الإدارية سواء تعلق نشاط هاته المصالح بالتونسيين أو بالفرنسيين، وللمقيم العام كذلك صفة القائد الأعلى للقوات البرية والبحرية في تونس.

- يؤشر المقيم العام باسم الحكومة الفرنسية، الأوامر الصادرة عن الباي.

- يحتكر المقيم العام حق التراسل مع الحكومة الفرنسية، علما بأن المراسلة تتم عن طريق وزارة الخارجية. للمزيد أنظر:

القرقوري، المرجع السابق، ص 104.

³ القرقوري، المرجع السابق، ص 99-100.

⁴ عبد العزيز الثعالبي، تونس الشهيدة، ترجمة وتقديم سامي الجندي، ط1، دار القدس، بيروت، لبنان، 1975، ص 33.

⁵ محمد الهادي الشريف، ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، دار سراس للنشر، تونس، 1993، ص 100.

خاص، لأنّ جميع القرارات ذات الطّابع السّياسي أو التّظيمي ستُتخذ في غالب الأحيان دون علمهم، وغالبا ما تكون الإجراءات المتّخذة مواتية للأوروبيين.

2- عوامل ظهور الوعي الوطني بتونس في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين:

لقد توفرت في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الظروف الملائمة لبروز الوعي الوطني بالإيالة التونسية وهي ممثلة في:

2-1- الظروف والعوامل الدّاخلية:

2-1-1- فشل المقاومة وبداية الاحتلال:

لقد رفض الشعب التونسي الاحتلال وانتفض مُدافعا عن حريته وكرامته فتطافر الوازع الدّيني مع الشّعور الوطني لاندلاع انتفاضات شعبية بأسلة، حيث دارت المعارك الأولى بالشمال الغربي - أي من حيث دخلت الجيوش الفرنسية إلى تونس - وتزعمتها قبائل خمير وعمدون ورشّاتة، ثم بعد ذلك في وسط البلاد وجنوبها، وقد انظمت إليهما مدينتا صفاقس وقابس دون سائر المدن ضدّ نفوذ الباي (وكان الثّوار يرددون "باع بلاده للفرنسيين")، وضد حُماته الجدد، وقد اتّحدت القبائل متناسية انقساماتها لمواجهة تقدّم الجيوش الفرنسية، أمّا عن القيّاد القدّامي والرؤساء التقليديون لتونس فقد كان من أبرزهم القائد الكبير علي بن خليفة النفّاثي، الذي قاد حركة المقاومة من وادي مجرّدة إلى التّخوم الجنوبية، ولكن المقاومة المسلحة باءت بالفشل، فتشتت فلول الثّائرين واندرحت إلى طرابلس¹ التي انطلق منها القتال على أسس جديدة، وظلّت المنطقة الجنوبية تقاوم بزعامة بن خليفة حتى عام 1910.²

¹ لعيرج، المرجع السابق، ص 12. وكذلك: الشريف، المرجع السابق، ص 112.

² الحبيب ثامر، هذه تونس، تقديم: الرشيد إدريس، تحقيق حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1988، ص 30.

ولم يقتصر الأمر على ردود الفعل الشعبية فحسب بل ظهرت كذلك أشكال أخرى للمقاومة والتي أبداهها الأهالي على المستوى النخبوي أمثال محمد العربي زروق¹ (1823-1902) رئيس بلدية تونس، الذي ناهض الاستعمار وحرّض الباي ووزرائه على المقاومة، فصرخ في وجه الباي وحكومته قائلا: "من هنا تبدأ المعركة... أن نموت أحرارا دفاعا عن شرفنا وشرف الوطن أفضل من حياة العبودية والذل"² إلا أنه فشل، واختار الهجرة على قبول معاهدة الحماية³، والشيخ محمد بيرم الخامس⁴ الذي غادر الإيالة إثر سقوط حكومة خير الدين⁵ 1877 متجها إلى الشرق حيث استقرّ في مصر وأنشأ جريدة "الإعلام" سنة 1884

¹ محمد العربي زروق: ولد بتونس 1823، درس بباردو، أسندت إليه رئاسة المجلس البلدي لمدينة تونس، وعين كأول مدير للمرسلة الصادقية، دخل الجيش التونسي برتبة مارشال، ثم ارتقى إلى رتبة أمير لواء في عهد محمد الصادق باي، وقد أقال من وظائفه بعد فرض الحماية على تونس 1881، للمزيد ينظر: أحمد بن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، المجلد 4، ج7، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999، ص-ص 130-133.

² الطاهر عبد الله، **المصدر السابق**، ص30.

³ المنجي الزيدي، "التجمع الدستوري الديمقراطي، التحولات التاريخية ورهانات التغيير"، **جريدة الحرية**، ط1، تونس، 2008، ص12.

⁴ محمد بيرم الخامس: ولد بمدينة تونس مارس 1840، خريج جامع الزيتونة، شغل عدة مناصب كالإشراف على إدارة الأوقاف 1874، كما ساهم في وضع برامج المدرسة الصادقية 1875، وأشرف كذلك في نفس السنة على المطبعة الرسمية، وأصدر صحيفة (الرائد التونسي)، وبعد أداء مناسك الحج 1879 زار سوريا ولبنان والأستانة، واستقرّ بالقاهرة إلى أن توفي بها في 15 ديسمبر 1889، له كتاب (صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار). للمزيد أنظر: الصادق الزملي، **أعلام تونسيون**، تر و تق، حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1986، ص ص 87-95.

⁵ خير الدين باشا: (1810-1890) هو وزير ومؤرخ من رجال الإصلاح الإسلامي، شركسي الأصل لكنه أصبح تونسي الروح بعد أن كان مملوكا اشتراه صاحب أحمد باي، و جاء صغيرا إلى تونس، وتعلم بعض اللغات، وانخرط في مدرسة باردو الحربية، ثم تدرج في المناصب العليا فصار وزيرا للبحرية 1857، ثم رئيسا للمجلس الاستشاري الأكبر 1861، ثم استقال لكثرة المكائد داخل البلاط، قام برحلة إلى عدة دول أوربية، ألف بعدها كتابه الشهير "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، الذي طبع سنة 1867، وترجم إلى عدة لغات الفرنسية سنة 1868، والإنجليزية سنة 1874، وبالتركية 1878، وأعيد طباعته بالعربية عدة مرات، كما شارك في لجنة صياغة الدستور الذي أصدره الباي محمد الصادق 1861، ثم عين الوزير الأكبر لتونس 1873 حيث أصدر إصلاحاته الشهيرة، ونظرا لتواصل المكائد ضده تولى عن منصبه 1877، وانتقل إلى استنبول حيث صار صدرا أعظما، وبعدها استقال ثم توفي هناك 1890. للمزيد أنظر: الزملي، **المصدر السابق**، ص ص 97-108. وأيضا: النواوي، **المرجع السابق**، ص ص 125-139.

التي شنت حملة واسعة ضدّ الاحتلال الفرنسي¹، وكذلك محمد السنوسي² الذي قام بتشكيل وفود شعبية ذهبت لمقابلة الباي تطالبه بإيقاف الفرنسيين عند حدّهم الأمر الذي جعل السلطات الفرنسية تقوم بنفيه خارج تونس.³

كما تحركت نخبة الأعيان بالعاصمة في إطار ما عرف بـ "النازلة التونسية" 1885 وهي حركة احتجاجية ضدّ القرارات التي اتخذتها السلط الاستعمارية في مجالات الاقتصاد والإدارة والممارسات الدينية والتي أضرت بمصالح التونسيين المادية ومقومات ذاتيتهم الثقافية، وكان نتيجة هذا التحرك القمع والتعسف والعزل.⁴

وهكذا فإن الشعب التونسي أظهر إرادته في عدم قبول الحماية التي فرضت عليه فرضاً، وعند أدراك عدم تكافؤ موازين القوى توخّت النخبة التونسية مهادنة نظام الحماية كمرحلة أولى حتى يتسنى لها اتخاذ مسالك أخرى لمواجهة الاستعمار وإصلاح حال المجتمع.

2-1-2- السياسة الاستعمارية:

2-1-2-1- السياسة الإدارية والقضائية:

ظهرت هيمنة فرنسا السياسية على كل المستويات في البلاد التونسية، فاستولت على السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية، إذ أخذ الباي يفقد تدريجياً سلطاته لفائدة الوزير المقيم

¹ محمد لطفي الشابي، " الحركة الوطنية التونسية ومطلب الاستقلال (1881-1956) "، أعمال الندوة الوطنية الثالثة عشرة حول استقلال تونس ومسيرة التحرر من الاستعمار، المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة منوبة، تونس، 2006، ص 8.

² محمد السنوسي: وهو أحد قادة الحركة الإصلاحية بتونس أجبرته السلطات الفرنسية على مغادرة تونس بعد 1882 ليتجه إلى إيطاليا، ثم إلى الدولة العثمانية، ليتم زيارته إلى بيت الله الحرام، ليعود إلى دمشق، ثم انظمّ إلى جمعية العروة الوثقى السرية التي أنشأها جمال الدين الأفغاني، وبعد أن سافر إلى بيروت توفي بها، وقد سجّل رحلته هذه في كتاب تحت اسم (الرحلة الحجازية)، أنظر، البشير الحاج ابن عثمان الشريف، أضواء على تاريخ تونس الحديث 1881-1924، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، 1981، ص 48.

³ الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 30.

⁴ الزيدي، المقال السابق، ص 12.

الفرنسي، حتى ولو أن معاهدة باردو لم تسلبه إلا سيادته الخارجية، إلا أنه ومنذ شهر جويلية 1882 حمل الوزير المقيم الأول (بول كامبون) والذي اشتهر بمهاراته الإدارية بفرنسا الباي محمد الصادق على التوقيع على معاهدة جديدة جرّده من كامل سيادته، وبعد وفاة محمد الصادق باي خلفه أخوه علي باي الذي وقّع على اتفاقية المرسى التي مكّنت المقيم العام الفرنسي من حكم تونس حكما مباشرا بعد أن سلبت الباي كامل سلطاته وأصبح بموجبها شبيها بموظف سام مضغوط على حريته الشخصية.¹ ويقول في هذا الصدد رافع بن عاشور بأنه "لم يبق من سلطات الباي الأصلية إلا صلاحيات طفيفة وبذلك وقع التطور بالنظام السياسي التونسي من السيادة المزدوجة إلى بسط السيادة الفرنسية بصورة تكاد تكون مطلقة. وقد تحصّل المقيم العام بمقتضى الأمر المؤرخ في 10 نوفمبر 1884 على حق المصادقة باسم الحكومة الفرنسية على إصدار وتنفيذ جميع الأوامر التي يصدرها الباي بالبلاد التونسية".²

وبالإضافة إلى تحكّم سلطات الحماية على السلطة التشريعية والتي هي من اختصاص الباي، سيطرت كذلك على الإدارة المركزية إذ وافق الباي على التخلي على الحكومة القائمة والخضوع لسلطة الوزير المقيم، وكانت أول حكومة شكّلها سلطات الحماية مكونة من سبعة أعضاء لا تتضمن إلا تونسيين اللذين أسندت إليهما الوزارة الكبرى ووزارة القلم³، وكان دورهما يقتصر على تنفيذ القرارات التي يتّخذها الباي باقتراح رؤساء مختلف الإدارات وبعد موافقة المقيم المسبقة، وزيادة على هذا فهما تحت الرقابة الدقيقة للكاتب العام للحكومة التونسية وهو موظف سامي فرنسي وهو المسؤول الفعلي عن الإدارة التونسية والذي لا يمكن

¹ ثامر، المصدر السابق، ص 35.

² ابن عاشور، المرجع السابق، ص، 74.

³ ثم أضافت إليهما منصب وزير العدل سنة 1921 لإدارة المصالح العدلية وكل القضايا التي هي من اختصاص المحاكم الشرعية، ومنصب وزير الشؤون الاجتماعية سنة 1945. أنظر: ثامر، المصدر السابق، ص 35. وكذلك: علي المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية (1904-1934)، تعريب، عبد الحميد الشّابي، ط1، بيت الحكمة، تونس، 1999، ص 269.

اتخاذ أي قرار دون علمه ولا تنفيذ أي أمر دون موافقة مسبقة منه وبالتالي فقد الباي وحكومته كل الصلاحيات لصالح المقيم والكاتب العام ومختلف المديرين.¹

كما بسطت الإدارة الفرنسية هيمنتها على الإدارة المحلية، فكانت سلطات الحماية تقوم باختيار مستخدمي الإدارة المحلية من قياد ومشايخ وخلفاء من بين أعيان البلاد المعروفين بالوفاء لفرنسا، وقد وُضعوا تحت الرقابة المشددة لموظف فرنسي يسمى "المراقب المدني" فتحول مستخدمو الإدارة إلى مجرد أعوان لتنفيذ السياسة الفرنسية بالبلاد.² أي أنّ الإدارة حادت عن جادتها الطبيعية أي مصلحة المواطن، فهي لا ترى ولا تعمل إلا من خلال الروح الاستعمارية وطبقا لمصلحة الاستغلال وحدها، وهكذا تعمقت الهوة على مر الأيام بين التونسيين والحكومة التي يرون أنّها غير وطنية.³

ونفس الأمر بالنسبة للسلطة التشريعية، إذ أبعدت سلطة الحماية التونسيين عن حكم بلادهم وانتزعت منهم حقهم الأول وهو حق التشريع، فأُسست الحكومة تحت ضغط الاستعمار نوعا من مجلس حكومي مؤلف من ممثلي غرف التجارة والزراعة ومن رؤساء البلديات الفرنسيين وغدا هذا المجلس الاستعماري سنة 1896 الندوة الاستشارية، وتوسّعت إطاراته فتألّف هذا المجلس من ممثلين ينتخبهم الاستعمار الزراعي والصناعي والتجاري ومن مُجمّع ثالث هو كل الفرنسيين من غير الفصيلتين السابقتين مثل الموظفين وأصحاب المهن الحرة، وتعدّدت صلاحياته حدود مصالحه الزراعية والصناعية والتجارية، فأصبح يستشار في المسائل المالية كلّما دعت الحاجة إلى اتخاذ إجراءات قد تؤدي إلى زيادة الضرائب على المستوطنين الفرنسيين، ومعنى هذا أنّ الجالية الفرنسية، أعطت الحق بإبداء الرأي بكل

¹ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية...، المرجع السابق، ص ص 96-100.

² المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية...، المرجع السابق، ص ص 96-100.

³ الثعالبي، المصدر السابق، ص ص 35-36.

فعاليات الحكومة التونسية، واستطاع هذا المجلس أن يفرض إرادته على الحكومة¹، ولا دخل للباي في السلطة التشريعية إلا في التوقيع على الأوامر التي يفرضونها عليه.²

وظلّ الوضع على هذا الحال حتى آل الحكم إلى السيد بيشون³ (Pichen) (1900-1907) الذي أراد أن يقيم سياسة مشاركة بين التونسيين والمعمرين الفرنسيين، فشجّع على مساهمة التونسيين الضرورية في الندوة الاستشارية⁴ إذ رأى ظلماً أن يهيمن مجلس من الخواص الذين لا يدفعون الضرائب على ميزانية يمولها أولئك الذين أقصوا عن مناقشتها، وآلت هذه السياسة إلى مرسوم 2 فيفري 1907 الذي قضى بأن يكون الممثلون الفرنسيون ستة وثلاثين عضواً ينتخبون بالاقتراع العام، وأن يكون عدد التونسيين ستة عشر ينتقيهم المقيم العام من أقل العناصر كفاءة في شؤون الاقتصاد والسياسة، وكانت المناقشات التي تتم في هذه الندوة تكشف وتوضح حقيقة السياسة الفرنسية في تونس، الأمر الذي أدركه المقيم العام فقسّم الندوة إلى قسمين: شعبة فرنسية وأخرى تونسية بالمرسوم الصادر 27 أفريل 1910.⁵

وأمام هذه الازدواجية كان لابد من إيجاد جهاز للتحكيم فتأسس مجلس الحكومة الأعلى الذي يتألف من أحد عشر فرنسياً وخمسة تونسيين، وفي حقيقة الأمر فإنّ المقيم العام هو الذي كان يقرّر وحده، وبالتالي فإن سياسة المشاركة ما هي إلا وسيلة لتثبيت وتقوية الهيمنة

¹ نفسه.

² المحجوبي، جذور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 102.

³ ستيفان بيشون: ولد سنة 1857 بأرناي لودك درس الطب لانه تركه وتفرغ للعمل السياسي والصحف تقلد عدة مناصب، وعين مقيم عام بتونس 1900، وتوفي يوم 18 ديسمبر 1933. أنظر: اللولب، المرجع السابق، ص 99.

⁴ كانت طريقة تمثيل التونسيين في الندوة الاستشارية موضع تنديد الحركة الوطنية التي طالبت بعد 1919 بإحياء دستور 1861 وتأسيس مجلس تفاوضي له حق وضع برنامج جلساته والنظر في الميزانية، لهذا السبب شرع المقيم العام سان لوسيان (Lucien Saint) بعد ح. ع. 1. في تعديل تركيبة الندوة الاستشارية وتحويل اختصاصاتها، ثم آل الأمر إلى إلغائها وتعويضها بالمجلس الكبير وكان يتكون من قسم فرنسي وعدد أعضائه 50 عضواً وقسم تونسي عدد أعضائه 18 عضواً، ثم تم ترفيعه إلى 28 تونسياً سنة 1928. وبقي المجلس الكبير يعمل حسب الصورة التي رسمها قرار 1922 إلى غاية تعديله سبتمبر 1945، حيث تم إدخال مبدأ المساواة العددية بين أعضاء القسم التونسي وأعضاء القسم الفرنسي.

أنظر: الدقي، "تنظيم الحكم..."، المرجع السابق، ص 29.

⁵ ثامر، المصدر السابق، ص 33.

الاستعمارية، وكذلك للتمويه وخداع الرأي العام الأوربي وإيهامه بأن الشعب التونسي يساهم في حكم بلاده، وأن التونسيين موافقون على السياسة المنبثقة عندهم.¹

أما عن السيطرة الفرنسية على المجال القضائي فتتمثل في إنشاء محاكم فرنسية عوضت المحاكم القنصلية المنصوص عليها في المعاهدات السابقة للحماية، وأبقت على المحاكم الشرعية مثلما كانت قبل الحماية تنظر في القضايا العقارية² وفي المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية من زواج وطلاق بالنسبة للمسلمين وفق الأحكام القرآنية، وكانت العدالة التونسية تابعة لموظف فرنسي سام وهو مدير المصالح العدلية التابع بدوره للمكتب العام للحكومة.³

أما المحاكم الفرنسية والتي ترجع بالنظر مباشرة لوزارة العدل الفرنسية فقد انتزعت من المحاكم التونسية جزءا كبيرا من سلطتها، فامتد نظرها إلى نزاعات الرعايا الأهالي التي يكون فيها أحد الطرفين أوربيا، وبذلك أصبح القضاء الفرنسي المرجع العدلي للبلاد، وانتقل له تبعاً لذلك النظر في المسائل السياسية وفي القضايا التي تتعلق برواد الكفاح الوطني⁴، فأصبح القضاء أداة لإرهاب الوطنيين والقضاء على الروح القومية. كما هيمنت على العدالة اللائكية والتي تنظر في القضايا المدنية والتجارية والجنائية. وعليه يمكن القول بأن السلط الفرنسية قامت بالتدرج في فرض السيطرة على القضاء وذلك بافتكاك صلاحيات المحاكم التونسية وتهميشها وحصر اختصاصاتها في مجالات ضيقة.⁵

2-2-1-2- السياسة الاقتصادية:

¹ الثعالب، المصدر السابق، ص ص 37-39.

² جاء قانون 1 جويلية 1885 لينظم عملية التسجيل العقاري وجعل النظر في العقارات المسجلة من اختصاص المحاكم الفرنسية أو المشتركة بحيث أصبح نظر المحاكم الشرعية مقصوراً على الحقوق العينية والعقارات غير المسجلة وشؤون الأوقاف، أنظر: الدقي، "تنظيم الحكم"، المرجع السابق، ص 41.

³ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية...، المرجع السابق، ص 102-103.

⁴ منذ 1926 أصبحت الجرائم السياسية من اختصاص المحاكم الفرنسية وذلك لتطبيق الأوامر الجائرة والأحكام الاستثنائية أنظر: ثامر، المصدر السابق، ص 38.

⁵ الدقي، "تنظيم الحكم"، المرجع السابق، ص 41.

لقد عملت سلطات الحماية منذ البداية على فتح تونس أمام الرأسماليين الفرنسيين، والذين مارسوا فيها سياسة استعمارية بواسطة رؤوس الأموال، فتدفق المال بغزارة إذ وظّف على البلاد التونسية نحو خمسمائة مليون فرنك ذهباً في مدة عشرين سنة من بداية الحماية¹، كما أنّ القانون العقاري الصادر 1 جويلية 1885² - والذي مثل الإطار القانوني لاستعمار الأراضي - مكّن المستوطنين الفرنسيين من الحصول على الضمانات للاستثمار في شراء الأراضي بالبلاد التونسية³، الأمر الذي رفع الملكية الفرنسية من 114000 هكتار قبل الحماية إلى 443000 هكتار سنة 1892، وكانت 416000 هكتار ملكاً لـ 16 ملاكاً من بينها شركات مالية قوية⁴، كما انتقل رقم الاستيطان سنة 1912 إلى 882 ألف هكتار، علاوة على 135 ألف هكتار وقع الاستيلاء عليها من لدن الجالية الإيطالية⁵.

كما أصدرت أمر آخر في 13 جانفي 1896 يقضي بإلحاق الأراضي البور بأمالك الدولة، وأخذت سلطة الحماية على عاتقها تحديد الأراضي البور وراحت تدخل ما تشاء من الأراضي في هذا النوع معتدية بذلك على حرية الأملاك الفردية⁶، وبالتالي فإنّ السلطات الاستعمارية اقتصرت على تهيئة الظروف الملائمة لتمكين الرأسماليين الفرنسيين من توظيف رؤوس أموالهم لشراء الأراضي بالبلاد التونسية، ولم تكتف بسياسة الاستعمار من قبل الخواص فحسب، بل لجأت في سياسة الاستعمار الرسمي إلى تجميع أكثر ما يمكن من

¹ الشريف، المرجع السابق، ص101.

² يقتضي هذا القانون تنظيم ملكية الأرض وتسجيلها بعد أن تنتظر في أمرها محكمة مختلطة تتكون من ثلاثة قضاة فرنسيين واثنين تونسيين والحكم الذي تصدره هذه المحكمة حكم نهائي لا رجعة فيه. أنظر: علي البلهوان، تونس الشائرة، المطبعة العالمية، القاهرة، 1954، ص18.

³ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية...، المرجع السابق، ص27.

⁴ شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة سليم المنجي وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976. ، ص74.

⁵ عبد الماك خلف التميمي، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي: المغرب العربي، فلسطين، الخليج العربي، دراسة تاريخية مقارنة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر 1983، ص47.

⁶ البلهوان، المصدر السابق، ص19.

الأراضي بين أيدي الدولة قصد توزيعها على الرعايا الفرنسيين بأسعار زهيدة، من أجل تركيز جالية فرنسية هامة بالبلاد للتفوق خاصة على الجالية الإيطالية.¹

كما عملت على ضم الغابات والأراضي المشجرة إلى أملاك الدولة بمقتضى أمر 22 جويلية 1903، وقامت بالاستيلاء على كل الأراضي التي لا يملك أصحابها عقد ملكية، فعملت بذلك على سلب الفلاحين وطردهم من أراضيهم²، كما استولت كذلك على أراضي الأحباس، فانتقل منذ انتصاب الحماية إلى غاية 1914 حوالي مليون هكتار من أيدي التونسيين إلى الرعايا الأوروبيين وكانت هذه الأراضي واقعة عادة في أخصب مناطق البلاد وأكثرها إرواء وأعلاها مردودا. فمكنت الحماية الفرنسية على البلاد التونسية بعض مئات من المستوطنين على الهيمنة على أجود الأراضي على حساب السواد الأعظم من الأهالي، كما ضمنت لهم في الآن نفسه الاستيلاء على الفلاحة مما أدى إلى تدهور القطاعات الاقتصادية المتصلة بها كتربية الماشية والصناعات المحلية والتجارة.³

كما عانت الصناعات المحلية التونسية بصفة مطردة من منافسة البضائع الأجنبية مما تسبب في كساد الكثير من الصناعات كالخشب والنسيج والخزف والجلد، وكان لتدهور الزراعة وضعف الصناعة من شأنه أن يجبر حتما إلى إفلاس التجارة والهيمنة عليها خصوصا بعد إلغاء الرسوم الجمركية الداخلية التي كانت تعرقل حرية تنقل السلع، فازدهرت التجارة الأوربية بالبلاد التونسية، وأصبحت تجارة الجملة ونصف الجملة وحتى تجارة التفصيل تحت سيطرة التجار الأوروبيين وحتى اليهود لتتحول تدريجيا إلى السيطرة والهيمنة الفرنسية.⁴ ونفس الأمر بالنسبة لثروة البلاد المعدنية وخاصة الفوسفات، فقد سلّمتها السلطة الفرنسية إلى شركات احتكارية فرنسية مقابل إيجار سنوي زهيد.⁵

¹ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص30.

² نفسه، ص34.

³ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص38.

⁴ نفسه، ص47.

⁵ ثامر، المصدر السابق، ص50.

كما عانى الشعب التونسي من كثرة وتنوع الضرائب المفروضة عليه، التي كانت كلّها تقع على عاتق التونسيين، وحتى عندما أراد المقيم العام ألابيت (Alapetite)¹ (1907-1918) إجبار المستوطنين على دفع بعض الضرائب الطفيفة وجد معارضة ومقاومة شديدة من المستوطنين دفعته إلى عرض المشكلة أمام البرلمان الفرنسي، حيث ألقى فيه خطاباً سنة 1912 قال فيه: "إنّي أرى الجالية الفرنسية في كيفية الحكم في تونس بسيطة وواضحة كل الواجبات على التونسيين وجميع الحقوق للفرنسيين ! كل الضرائب على التونسيين وإعفاء الفرنسيين منها!"².

ووفقاً لذلك، فإن نظام الحماية قد مكّن فئة المستوطنين أو الجالية الفرنسية من السيطرة على البلاد والاستيلاء على خيراتها وثرواتها إلى درجة أن أصبحوا يعتبرون أنفسهم هم أصحاب البلاد الحقيقيين.

2-1-2-3 - السياسة الاجتماعية:

تتشكّل الجالية الفرنسية بتونس من فئة المتفوقين وهي تتمثل في البرجوازية الفرنسية وهي التي أخذت تُهيمن تدريجياً على قطاعي الفلاحة والتجارة بتونس، وأخذ عدد هذه الفئة في الارتفاع بعد أن كانت قليلة حتى سنة 1892،³ وكان المتفوقون يسلّطون ضغوطاً على حكومة الجمهورية الفرنسية عن طريق الشركات المالية وغيرها من الوسائل، وكانت لهم صحف خاصة بهم كجريدة (تونس الفرنسية)⁴ التي تستعمل في الدّفاع عن مصالح الاستعمار.

¹ قابريال الأبتيت: ولد عام 1854 وهو مجاز في الحقوق حيث اشتغل محامياً، وتقلد عدة مناصب سياسية هامة، وعين مقيماً عاماً في تونس 1907، توفي يوم 22 مارس 1932. . أنظر، اللولب، المرجع السابق، ص 101.

² البلهوان، المصدر السابق، ص 30.

³ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 49.

⁴ تونس الفرنسية: لاتونيزي فرنسا، وهي جريدة سياسية، أسبوعية ناطقة باسم المعمرين، وأصدرت أول أعدادها يوم 26 نوفمبر 1892. أنظر: اللولب، المرجع السابق، ص 125.

وكذلك فئة الموظفين وهي أهم الفئات الفرنسية عدداً، وهم الموظفون في الإدارات العامة والخاصة والإطارات والمدرسون وغيرهم، وكانت هذه الفئة تحافظ على مصالحها وتنميها في نطاق نقابتهم المتصلة بدورها بالكونفدرالية العامة للشغل، وبالإضافة إلى هاتين الفئتين نجد كذلك العمال وخصوصاً في قطاعي سلك الحديد وترسخانه بنزرت، وكان كل من الموظفين والعمال الفرنسيين وكذلك الأوربيين يحتكرون أفضل الوظائف الإدارية ويحظون بالأولوية في التشغيل وبأجور مرتفعة جداً مقارنة بما يتقاضاه نظراؤهم التونسيين¹، والحُجّة في ذلك أنّ عمل التونسي أقلّ جودة، وأن حاجاته المعيشية أقلّ.²

أمّا العمّال التونسيين فكانوا يد عاملة رخيصة لكثير من القطاعات الاستعمارية كالزراعة والمناجم والنقل وغيرها، والذي يرفض العمل منهم مآله السجن من قبل المحكمة الجزئية حسب الأمر الصادر بتاريخ 04 أبريل 1884.³ وكذلك لم يكن لهم الحظ في الوظائف العليا التي تمكنهم من الاطلاع على سير أمور الدولة، كما حيل بينهم وبين إدارات الإنفاق والإدارات التقنية، فكان الموظف التونسي لا يطمع إلا في الوظائف الثانوية.⁴

ونتج عن هذه السياسة تناقضا اجتماعيا كبيرا بين السكان الأصليين والذين وصل عددهم قبيل الحرب العالمية الأولى 1790611 نسمة⁵ بعدما كان تعدادهم حوالي 1.2 مليون نسمة 1881،⁶ والفرنسيين المقدر عددهم حوالي 46044 نسمة قبيل (ح.ع 1).⁷ بعد أن كان عددهم سبعمائة فرنسي من بين 12 ألف أوربي سنة 1881،⁸ وكانت هاته الأقلية الأكثر استفادة من القروض البنكية، والأكبر قسما من عائدات الميزانية سواء كأجور

¹ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 52-53.

² الثعالبي، المصدر السابق، ص 45.

³ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 63.

⁴ الثعالبي، المصدر السابق، ص 43.

⁵ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 80-81.

⁶ محمد الهادي الشريف، " تاريخ الحركة الوطنية التونسية نظرة تقييمية "، مجلة روافد، العدد 1، المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة منوبة، تونس، 1995، ص 18.

⁷ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 80-81.

⁸ الشريف، ما يجب ان تعرف عن تاريخ تونس، المرجع السابق، ص 101.

للموظفين أو للتجهيز الاقتصادي طبقا لحاجيات المصالح الاستعمارية، أوفي التعليم العمومي إذ كان من نصيب التونسيين من قرابة 290 مدرسة اشتملت عليها تونس عند نهاية الح.ع.1 أقل من 60 مدرسة، وكان السّكان التونسيين الذين يمثلون حوالي 97 بالمئة من مجموع السّكان لا يستفيدون إلاّ من 25 بالمئة من مجموع المدارس، ناهيك عن التعليم الثّانوي فالحالة فيه أسوء، إذ كان عدد التونسيين لا يكاد يذكر بالقياس إلى اليهود والأوربيين.¹

ففي الوقت الذي يعيش المجتمع الأوربي ويتمتع بكل الحريّات، كان التونسي مهضوم الحقوق ويعيش في وطنه أجنبيا وممقوتا.² وكانت الحريّات محدودة للغاية ونذكر من ذلك حرية الاجتماع وتأسيس الجمعيات والرّأي والتّعبير، وحرية النقابات للدّفاع عن أنفسهم، فكانت مثلا حرية تأسيس الجمعيات لا يتم إلاّ بترخيص من السّلطة وذلك وفقا للأمر الصادر 15 سبتمبر 1888، ونفس الأمر ينطبق كذلك على حرية الصّحافة، فالضّمانات التي يجب دفعها عند تأسيس صحيفة والمقدرة ب 6000 فرنكا للصحف السّياسية و 3000 فرنكا لغيرها كانت تضايق الصّحافة العربية أكثر من سواها باعتبار أنّ امكانياتها محدودة.³

وبالتّالي فإنّ نظام الحماية والذي جاء للقيام بالإصلاحات الضّرورية والارتقاء بتونس إلى مصاف الدّول المتحضرة لم يقدّم إلاّ بخدمة المصالح الفرنسية ونهب ثروات البلاد، فأصبح الفرنسيون هم المستفيدون من خيرات البلاد ويعيشون فيها بكل حرية ودون المساس بمصالحهم في حين كان التونسيون يعانون من التّعسف وكبت الحريّات وهضم الحقوق الأمر الذي أدّى إلى خلق رد فعل من الأهالي التونسيين للدّفاع عن مصالحهم والمطالبة بحقوقهم، إذن فالتّناقضات السّياسية والاقتصادية والاجتماعية النّاجمة عن السّياسة الاستعمارية أحدثت الظّرف الملائم لنشوء الوعي الوطني ونموّه.

2-1-3- ظهور الصّحافة الوطنية:

¹ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 80-82.

² الثعالبي، المصدر السابق، ص 41.

³ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 108.

بالرغم من وجود الصحافة التونسية تحت رحمة قرار من الإدارة الاستعمارية، والمتمثل في مرسوم 14 أكتوبر سنة 1884 والذي جاء فيه: "إنّ نشر وتوزيع الصحف باللغتين العربية والعبرية وكل ما يكتب في تونس يمكن منعه بقرار خاص مُوقع من المقيم العام"، والذي أوجب كذلك دفع كفالة - التي حذفها مرسوم 1887، ثم أعادها مرسوم 1897، ليعيد حذفها مرسوم 1904 من جديد -، ومنع الجرائد والمطبوعات الفرنسية والأجنبية من دخول تونس، مع وجود تجسس وبوليس محكمة التنظيم للتضييق على الفكر والرأي.¹

إلا أنّ هاته الضغوط والعراقيل لم تمنع من بروز وتطور الصحافة في هذه المرحلة التاريخية وتمكّنها من لعب أدوار هامة على الساحة الوطنية، ومن بين أهم الصحف التي ظهرت خلال تلك الفترة نذكر: جريدة (الحاضرة) الأسبوعية التي صدر أول عدد لها في 12 أوت 1888، وهي أول جريدة غير رسمية² أصدرها نخبة من شيوخ الزيتونة وخريجي الصادقية وعدد من عناصر البعثات الدراسية إلى الخارج وتولى إدارتها "علي بوشوشة" (1859-1917)³ وهو سليل أسرة ثرية من بنزرت، ومثقف صادقي من خريجي المعاهد الإنجليزية، وكان من أبرز موظفي وإطارات الكتابة العامة للحكومة التونسية، والتفّ حوله مجموعة من المثقفين من أنصار خير الدين والمتأثرين بأفكار الجامعة الإسلامية⁴ ومن

¹ الثعالبي، المصدر السابق، ص 41.

² محمد ضيف الله، الحركة الطلابية التونسية (1927-1939)، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، جانفي/كانون الاول، 1999، ص 22.

³ علي بوشوشة: لمعرفة المزيد أنظر: الزمرلي، المصدر السابق، ص ص 133-140.

⁴ الجامعة الإسلامية: هناك نظرتان لمفهوم مشروع الجامعة الإسلامية، الأولى نظرة رسمية حميدية وتعني تجميع كل مسلمي العالم تحت سلطة الخليفة لمواجهة الاستعمار الغربي، فهي حركة تحرر سياسي، بينما الجامعة الإسلامية الأفغانية فهي أكبر من هذا، فبالإضافة إلى معناها التحرري في المجال السياسي، فهناك العمل التحرري الفكري والعقلي، على أن تقوم الوحدة على أساس دستوري شوري على شكل وحدات أو خديويات لا مركزية. للمزيد حول مفهوم الجامعة الإسلامية أنظر: الصادق دهاش، مشروع الوحدة التحرري لحركة الجامعة الإسلامية في بلدان المغرب العربي بين 1876-1919، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2008-2009، ص ص 62-74.

ذوي الثقافة العصرية أمثال البشير صفر¹، ومحمد بن خوجة² ومحمد الأصرم³ وبمساندة الشيخ سالم بوحاجب⁴ ومحمد السنوسي وغيرهم⁵.

وقد لقيت جريدة (الحاضرة) رواجاً كبيراً في أوساط التونسيين المتعطّشين للثقافة والمعرفة، كما ساهمت بمقالاتها في تكوين رأي عام بالبلاد التونسية مثل مقال علي بوشوشة

¹ البشير صفر: ولد بمدينة تونس في 27 فيفري 1865 وتوفي عام 1917، لقب بأبي النهضة التونسية بعد خير الدين، التحق عام 1884 بالإدارة التونسية، وفي عام 1892 عينته الحكومة رئيساً لجمعية الأوقاف، وفي 1908 عينته الحكومة والياً على منطقة الساحل التونسي إلى غاية وفاته، أنظر: بورقيبة، محاضرات بورقيبة بمعهد الصحافة عن تاريخ الحركة الوطنية (حياتي، آرائي، جهادي)، إعداد ومراجعة وتعليق، عبد الجليل بوقرة، تقديم، سعيد بحيرة، ط1، دار آفاق، تونس، 2015، ص36.

² محمد بن خوجة: ولد في فيفري 1869، التحق بالصادقية، وبعد إتمام دراسته الثانوية تقلّد عدة مناصب إدارية، ساهم في تحرير جريدة الحاضرة، وانتخب عضواً في الهيئة المديرة لمعهد الخلدونية المؤسس سنة 1896، كما تمّ تعيينه مديراً للمطبعة الرسمية، مما ساعده على تأليف "الرحلة الفليارية" سنة 1911 و"الرحلة الناصرية" 1912، قدّم إلى مؤتمر شمال إفريقيا 1908 عدة بحوث حول القضاء الشرعي في الإسلام ونظام التعليم بجامع الزيتونة، عين في خطة مدير التشرّفات السنية والمترجم الأول بالقصر الملكي سنة 1914، ثم والياً على قابس 1919 وبعدها على الكاف ثم بنزرت 1924، وبعدها عين في خطة مستشار الحكومة إلى أن أقصاه محمد منصف باي من القصر الملكي سنة 1942، وتوفي في نفس السنة مخلفاً كتاب "معالم التوحيد" الذي ألفه سنة 1939. للمزيد أنظر: الزمرلي، المصدر السابق، ص ص 225-235.

³ محمد الأصرم: من عائلة برجوازية فيروانية درس بالصادقية والزيتونة، ثم التحق بفرنسا، وما إن عاد حتى عين معلماً بالمدرسة العلوية، ثم تقلّد منصب مدير إدارة الفلاحة الحديثة العهد، ونشط في الجمعية الخلدونية، له كتاب "المشروع الملكي في سلطنة أولاد حسين بن تركي"، وكتاب "الرحلة إلى البلاد السنوسية"، شارك في مؤتمر مرسيليا 1906، وفي إصدار جريدة (التونسي)، وفي مؤتمر شمال إفريقيا 1908، توفي 1925. أنظر: الزمرلي، المصدر السابق، ص ص 177-185.

⁴ سالم بوحاجب، ولد بقرية بنبلّة على مقربة من المنستير 1827، التحق بجامع الزيتونة بعد أن أنهى تعليمه الابتدائي، عين مدرّساً بجامع الزيتونة، كلّفه الوزير خير الدين بالعضوية في مختلف اللجان المستحدثة لضبط الإصلاحات الأساسية كإحداث مجلس بلدية الحاضرة، وتأسيس المدرسة الصادقية، وإحداث إدارة شؤون الأوقاف، عاش مدة متنقلاً بين المدن الإيطالية (1875-1882)، عاد إلى تونس بعد انتصاب الحماية وعين بالمجلس الشرعي سنة 1906، وارتقى إلى خطة مشيخة الإسلام المالكي 1919، توفي سنة 1924. للمزيد أنظر نفسه، ص ص 169-174.

⁵ محمد الفاضل بن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية بتونس، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972، ص 65. وكذلك الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 33.

الصادر في 20 نوفمبر 1894 بعنوان "مطالبنا"¹. وكانت هذه الجريدة تتدد بالسياسة الاستعمارية التي تهدف إلى القضاء على القيم الوطنية والحضارية للشعب التونسي، وكذلك الاستيلاء على الثروات والإمكانات الاقتصادية²، كما كان لها أثر فعال في تجديد الثقافة التونسية للنقاش في مسائل تشغل الأهالي لاسيما سياسة التشريك.

وحظيت جريدة (الحاضرة) بمساندة شق الليبراليين³ في جهاز الإدارة الاستعمارية في فترة المقيمين العاملين روني ميني⁴ (René Millet) (1894-1900)، وستيفن بيشون (Stephen Pichen) (1900-1907)، وتخلّت عن موقف المقاومة الأدبية لتتجه نحو موقف الإصلاح معبرة على هذا التوجه، ويبدو أنها لم تدرك سياسة الجمهورية الفرنسية الثالثة في تأمين ديمومة الاستعمار، وذلك بالتخلي عن الإدماج وابتداع سياسة المشاركة التمويلية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر،⁵ وعموما فإن طابعها المعتدل هو أهم سبب في تواصل صدورها حتى سنة 1911.⁶

¹ الشايب، المرجع السابق، ص 9-10.

² الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 33.

³ الليبراليين: هم الذين يتبنون الأفكار الليبرالية والتي ازدهرت في عصر التنوير في أوروبا، وهي تدعو في شقها السياسي إلى احترام الحريات الفردية والعامّة ومساواة المواطنين أمام القانون والفصل بين السلطات وسيادة الشعب في اختيار حكامه وممثليه بواسطة الانتخابات، وفي شقها الاقتصادي تتلخص في مقولة الاقتصادي الانجليزي آدم سميث (Adam Smith) (1723-1790) "دعه يعمل أتركه يمر". أنظر: الطاهر قاسمي، مشروع النهضة في المغرب العربي المعاصر (1867-1954)، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، السنة الجامعية 2017-2018، ص 264.

⁴ روني ميني: ولد بباريس سنة 1849، مجاز في الأدب والحقوق، عين مقيما عاما سنة 1894 وكان منفتح الحضارة العربية الإسلامية، انتهت مهامه 1900، وتوفي في 5 ديسمبر 1919 أنظر: اللولب، المرجع السابق، ص 160.

⁵ الشايب، المرجع السابق، ص 9-10.

⁶ ضيف الله، المرجع السابق، ص 22.

كما ظهرت كذلك جريدة (الزّهرة)¹ والتي انتقدت سياسة الاستعمار نقدا لاذعا، لذا وجد فيها الكثير من الوطنيين ضالّتهم فانتشرت انتشارا واسعا جلب لها غضب السّلطة الفرنسية التي أوقفتها سنة 1896.²

وتواصلت النّهضة الصحفية العارمة وتعزّزت بصحف عديدة مثل الصّحف التي كوّنوها طلبة الشّيخ المكي بن عزوز³ متمثلة في (المستقبل التونسي) بالفرنسية و(حبيب الأمّة) بالعربية و(سبيل الرّشاد) التي كان يديرها الشّيخ عبد العزيز الثّعالي⁴ و(لسان الحق) و(القلم)

¹ الزّهرة (1890-1959): هي جريدة سياسية أدبية هدفها إنارة الفكر العام، أنشأها عبد الرحمان الصندالي واستمرت إلى ما بعد وفاته 1935، صدر عددها الأول 20 / 6 / 1890 واستمرت إلى غاية 9 / 4 / 1959 وتخلّلتها فترات انقطاع عن الصّدر، وهي نصف أسبوعية، ثم أصبحت ابتداء من 1905 تصدر يوميا، وأمّا مضمونها فهي إخبارية جامعة، واتجاهها وطني إصلاحية، للمزيد أنظر: محمد الصّالح المهدي، تاريخ الصحافة العربية وتطورها بالبلاد التونسية (1902-1969)، المطبعة الرّسمية، تونس، 1965، ص 7. واللّولب، المرجع السابق، ص 40.

² الزيدي، المقال السابق، ص 18-19. وكذلك، أحمد خالد، أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد ونضال جيل، ط3، الدار التونسية للنشر، تونس، ص 11.

³ محمد المكي بن عزوز (1854-1915): مصلح إسلامي جزائري الأصل تونسي المنشأ، زيتوني الثّقافة، فكان أديبا وشاعرا وعالما دينيا، دعا 'إلى مقاطعة فرنسا اقتصاديا، مارس عدة مهن منها الافتاء والقضاء والتّدرّيس بجامع الرّيتونة، هاجر إلى اسطنبول سنة 1896م، فعينه السلطان عبد الحميد الثاني مدرسا للحديث بدار الفنون إلى أن توفي بإسطنبول، له ما يزيد عن مئة كتاب في مختلف العلوم والفنون، منها الأجوبة المكية على الأسئلة الحجاجية. . أنظر: دهاش، المرجع السابق ص 131 و، ص 172.

⁴ عبد العزيز بن ابراهيم بن عبد الرحمان الثّعالي: من أصل جزائري، ولد بتونس عام 1874، درس بالصادقية ثم بالزيتونة، أصدر جريدة (سبيل الرّشاد) سنة 1901، ثم ما لبث أن عطلها ورحل عن طريق مصر إلى الأستانة واتصل هناك بجمال الدين الأفغاني، ورجع إلى تونس 1902م وبدأ بمهاجمة التّخلف، أصدر سنة 1905 كتاب بعنوان "الروح الحرة للقران"، وانتسب إلى حركة الشباب التونسي سنة 1907 وأشرف على صحيفة التونسي لسان حال الحركة، نفاه الفرنسيون عام 1912، فسافر إلى باريس، واستتبّول، والهند، واندونيسيا، ورجع إلى تونس عام 1919، مثل تونس في مؤتمر الصّلح بباريس، وحرر كتاب "تونس الشهيدة"، واتهم بالتأمّر، واعتقل في فرنسا، ونقل إلى سجن تونس، وأسس أنصاره حزب الدستور، وجعلوه رئيسا له، وترأسه بعد إطلاق سراحه، وأصدر جريدة (الفجر)، غادر تونس 1923 وزار مصر والشام والعراق والحجاز والهند، ورجع إلى بلاده 1937 لمواصلة النضال في صفوف الحزب الدستوري إلا أنه ترك الحياة العامة واعتزل السياسة بعد الانشقاق الحاصل في أركان الحزب، وتوفي عام 1944. أنظر: محمود شاكر، المرجع السابق، ص 131. وكذلك: الثّعالي، المصدر السابق، ص 9-20. (في التّقديم)، صالح خرفي، عبد العزيز الثّعالي، من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.

و(الصّواب)¹ لمحمد الجعايي² و(ترويح النفوس) و(المعارف) و(العدلية)، وساهمت في هذه النهضة المطابع التونسية في ذلك الوقت، فتجاوز عدد الدّوريات الصّادرة بين 1888 و1906 الثلاثين دون الحديث عن الصّحف والمجلّات الشّرقية مثل (المنار)³ و(المقتطف) و(الهلال) و(الضّياء) والتي لعبت كلها أدوارا كبيرة في مقاومة الاحتلال والسّعي إلى النهوض بالمجتمع التونسي وتوعيته وتطويره.⁴

2-1-4- ظهور الجمعيات:

صدر أول قانون ينص على حرية تأسيس الجمعيات في تونس في جريدة (الرّائد)⁵ 15 سبتمبر 1888، ولكن بعد الحصول على ترخيص من الجهات الوصية خوفا من حدوث جرائم سياسية، وظل تأسيس الجمعيات خاضع للنّظام الوقائي إلى غاية 1901⁶، وظهرت خلال هذه الفترة جمعية (الخلدونية) بشكل رسمي يوم 26 ديسمبر 1896، وهي جمعية تهدف إلى تلقين العلوم العصرية للشّباب الرّيتوني وذلك بتنظيم دروس ومحاضرات في

¹ الصّواب: جريدة علمية سياسية أدبية، ثم أصبحت أدبية وطنية سياسية اقتصادية، اتجاهاها وطني إسلامي، وأصدرت أول أعدادها 1 أبريل 1904، وهي أسبوعية ثم أصبحت نصف أسبوعية، صدرت بشكل غير منتظم إلى غاية 1938، ومديرها محمد الجعايي. أنظر: اللولب، المرجع السابق، ص 69.

² محمد الجعايي: ولد بتونس سنة 1876 درس بالزيتونة اشتغل بالتجارة وأسس عدة جرائد، وهو محرر في عدة صحف ويعتبر من مؤسسي الحزب الحر الدستوري ويعتبر من أبرز الوطنيين، توفي في ماي 1938. أنظر: اللولب، المرجع السابق، ص 43.

³ المنار: صدرت بالقاهرة المصرية من 22 شوال 1315 هـ الموافق لسنة 1898م، واستمرت إلى 20 محرم 1354 هـ الموافق ل ماي 1935م (صدر لها 34 مجلدا) خلال ثلاثة وثلاثين عاما، أصدرها محمد رشيد رضا، وظل يصدرها إلى غاية وفاته، وهي مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران، وكانت تحمل لواء الفكرة السلفية، للمزيد أنظر: أنور الجندي، تاريخ الصحافة الإسلامية - 1، المنار محمد رشيد رضا (1315هـ/1898م) - (1353هـ-1935م)، دار الأنصار، مصر، ص 30.

⁴ الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 31.

⁵ أصدر الباي محمد الصادق قرار في 20 جويلية 1860 ينص على إنشاء مطبعة بالحاضرة لطبع الصّحف، وتأسيس صحيفة أسبوعية بالّلغة العربية تسمّى (الرّائد التونسي) وذلك بهدف تبليغ نتائج أعمال المشرّعين، فهي إذن أول جريدة رسمية صدر العدد الأول منها في 22 جويلية 1960. أنظر: اللولب، المرجع السابق، ص 36.

⁶ محمد بوطيبي، "الجمعيات الخيرية التونسية خلال النصف الأول من القرن العشرين"، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، ع 10، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، جوان 2016، ص 153.

التّاريخ والجغرافيا واللغة الفرنسية والاقتصاد السّياسي وعلوم الصّحة والفيزياء والكيمياء¹، وكانت هذه الجمعية إلى جانب دورها في سد الثّغرة في التّعليم الزيتوني مدرسة لممارسة الديمقراطية في اختيار الأعضاء والمسيرين، وقد افتتح نشاط الخلدونية يوم 15 ماي 1897، وتمّ خلاله إلقاء محاضرة شهيرة للشيخ سالم بوحاجب حول تفسير الآية الكريمة "وعلم آدم الأسماء كلّها" وركّز فيها على أنّ الإسلام لا يتعارض مع العلوم العصرية، وكان من أبرز أساتذتها وأشهرهم البشير صفر الذي كان يلقي دروس التّاريخ والجغرافيا، والذي أصبح يلقب "بزعيم النّهضة"، وقد ذاع صيت هذه الجمعية وبلغ عدد القراء في مكتبتها 4800 قارئ سنة 1905.²

وساهمت الخلدونية بما أحدثته من حركة فكرية هامة بقسط وفير في نشر الثقافة الحية وتمهيد النّهضة في أوساط التّلاميذ والطلّبة الزيتونيين بصفة خاصّة، كما مهّدت لروافد أخرى غدّت الإصلاح والتّحديث.³

وتأسّست كذلك جمعية (قدمات الصّادقية) بإيعاز من علي باش حامية⁴ في 23 ديسمبر 1905، وتألّفت من طلبة الزيتونة والصادقية، تولى رئاستها الأولى خير الله بن مصطفى⁵، وكان من أعضائها البارزين علي باش حامية وعبد الجليل الزاوش¹ وحسن

¹ ضيف الله، المرجع السابق، ص 23.

² الزيدي، المقال السابق، ص 19.

³ ضيف الله، المرجع السابق، ص 24.

⁴ علي باش حامية: ولد بتونس (1876 - 1908) وهو محام أصله من المماليك الأتراك، تعلم بالمعهد الصادقي، وأمّ حلقات التدريس بجامع الزيتونة، وأحرز إجازة من كلية الحقوق بباريس وكان يحسن العربية والتركية والإيطالية والإنجليزية والألمانية، عمل كموظف بسيط بجمعية الأوقاف ثم مدير لأحباس المعهد الصادقي، وغادر بعدها الوظيفة العمومية إلى المحاماة سنة 1905. ، وبدأ نشاطه الاجتماعي والسياسي سنة 1906 عندما انخرط في جمعية قدمات الصّادقية، كما كان من بين مؤسسي حركة الشباب التونسي، توفي 1918، ينظر: نور الدين الدقي، حركة الشباب التونسي، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة تونس الأولى، تونس، 1999، ص ص 233-235. وكذلك: أحمد خالد، المرجع السابق، ص 22.

⁵ خير الدين بن مصطفى (1867-1965): بدأ دراسته في المدرسة العلوية، عين مدرسا بالمدرسة الصادقية، ثم عمل مترجم عدلي، كان ممن انتموا لجمعية قدمات الصّادقية، انضم لأسرة تحرير جريدة التونسي الصادرة سنة 1907، كان مدرسا خاصا للأمرءاء، تولى منصب مدير التّشريفات لمدة سنتين، ثم مديرا لجمعية الأوقاف بدءا من ماي 1922، فنضم

قلاطي²، وكان هذا النادي أداه لنشر الثقافة الفرنسية والحضارة الغربية مبتعدة كل البعد عن الثقافة العربية، مما جعل الشعب يقف منهم موقفا سلبيا، ودفع هذا الأمر بخير الله بن مصطفى إلى فتح الحوار وعدم التطرف مع الحركة الإصلاحية من جديد، ودعا مثقفي الزيتونة والخلدونية أمثال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور³، ومحمد النخلي¹ ومحمد الخضر

إدارتها وشؤونها، أنظر: محمد السعيد عقيب، الحزب الحر الدستوري التونسي القديم (1934-1956)، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، بوزريعة، 2011، ص 66.

¹ عبد الجليل الزاوش (1873-1947)، درس في ثانوية سان شارل ثم التحق بفرنسا لمواصلة دراسته بكلية الحقوق والعلوم السياسية، ورجع إلى تونس 1900 بعد تحصيله على الإجازة في الحقوق، شارك رفقة عناصر أخرى في تأسيس "جمعية قدماء الصادقية" سنة 1905، وفي سنة 1907 أعيد تنظيم المجلس الشوري التونسي، وكان عبد الجليل من بين أعضائه، وفي نفس السنة أسس رفقة أصدقائه جريدة (التونسي) كما شارك في مؤتمر شمال إفريقيا 1908، ثم أسس "الاتحاد التجاري"، عين واليا على سوسة 1917، وصار سنة 1934 شيخ مدينة تونس، وفي سنة 1935 صار وزيرا للقم والاستشارة، وفي سنة 1936 عين على رأس وزارة العدل، واستقال منه سنة 1943، توفي 1947. أنظر: الزملي، المصدر السابق، ص ص 253-271.

² حسن القلاطي بن علي بن أحمد الجزائري الأصل من مواليد بوغار قصر البخاري (1880-1960)، وانتقل أهله إلى تونس وعمره سنة، درس في الثانوية بمعهد كارنو، وتحصل منه على شهادة البكلوريا سنة 1898 والتحق بكلية الحقوق بتولوز وتخرج منها سنة 1902، متحصلا على شهادة الحقوق، تدرب على مواجهة المحاكم، كما كان من أقطاب السياسية في القرن العشرين حيث التف حول جريدة (التونسي) مع المناضل علي باش حامبة، وساهم معه في حرب طرابلس، وبعد حادثة الزلاّج 1911، والترامواي 1912، ألقي عليه القبض، وتم نفيه إلى الجزائر وبعد رجوعه إلى تونس، شارك في تأسيس الحزب الحر الدستوري، وأسس في عام 1921 الحزب الإصلاحي وخلال نفس السنة أصدر جريدة (البرهان) والتي صدر منها 45 عددا وبعد فشله في انتخابات المجلس الكبير 1928 اعتزل السياسة، وتوقف نشاطه الإصلاحي، أصيب في آخر عمره بمرض فقدان الذاكرة حتى وفاته 27 نوفمبر 1966. أنظر: محمد بوطيبي، الفكر الاجتماعي في تونس في النصف الأول من القرن العشرين (1900-1950) (دراسة مقارنة بين الفكر والواقع الاجتماعي)، مذكرة دكتوراه، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة بوزريعة، السنة الجامعية 2013-2014، ص 177-178.

³ محمد الطاهر بن عاشور: ولد بالمرسى بالضاحية الشمالية لتونس العاصمة سنة 1879، التحق بالزيتونة 1893، وأقبل على التدريس به سنة 1899، كما عين مدرسا بالصادقية 1904 وعضوا بمجلس إدارتها سنة 1909، وعين عضوا في لجنة الإصلاح الأولى 1910 والثانية 1924 لجامع الزيتونة، عين نائبا أولا عن الحكومة لدى النظارة العلمية بجامع الزيتونة سنة 1907، وفي سنة 1932 سلمت إليه مقاليد الإشراف عليه غير أنه لم يبق في المنصب سوى سنة ونصف بسبب العراقيل التي وقفت في وجهه عند عزمه على إصلاح التعليم الزيتوني، ثم أسندت إليه نفس المهمة سنة 1945، وعين شيخا للإسلام المالكي سنة 1932، وأسندت إليه رئاسة الجامعة الزيتونة 1956. ، ونتيجة لغزارة مؤلفاته وكتابات الصحفية ومدخلاته في المؤتمرات العلمية والدولية كان أول الفائزين بالجائزة التقديرية للدولة التونسية ونيله وسام

بن الحسين² وغيرهم من طلبة الزيتونة إلى المشاركة في إلقاء المحاضرات في النادي، وقد أحدثت مشاركتهم ومحاضراتهم صدى بعيدا في نفوس الناس وفي تجذر الروح الوطنية لدى الشباب.

وكانت هذه الجمعية تهدف إلى توعية الجماهير الشعبية ونشر المبادئ التجديدية التي كان المعهد الصادقي مصدرا لها، وكذلك إلى تغيير عقلية الشعب التونسي بدفعه نحو التقدم والأخذ بالأفكار العصرية عن طريق تنظيم المحاضرات، إذ نظمت من أفريل 1906 إلى أفريل 1907 حوالي 84 محاضرة، وكذلك المساهمة في تحقيق نهضة أدبية وفكرية عبر عنها علي باش حامية قائلا: "في اليوم الذي نصل فيه إلى تربية عامة للشعب بنشر الأفكار العصرية، والتعريف بالعلوم وتقريبها إلى الأذهان، نكون قد نجحنا في إيقاظ النشاط والإسراع بتطوير بلادنا نحو وضع أكثر تلاؤما مع متطلبات العصر"³، ثم تحولت الجمعية في هدفها من منبر لإشعاع الثقافة العصرية وبث فكرة التطور إلى منتدى سياسي على غرار الجمعية

الاستحقاق الثقافي سنة 1968، توفي يوم الأحد 12 أوت 1972. للمزيد أنظر: بلباسم الغالي، من أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، ط1، دار ابن حزم، لبنان، 1996.

¹ محمد النخلي (1867-1924): أصيل القيروان، من أشهر علماء الزيتونة الذين برعوا في العلوم العقلية والنقلية. درس بالزيتونة وانتصب للتدريس بها عقب تخرجه منها، كان عضوا في الجمعية الزيتونية وشاعر مجيدا، من آثاره ألفية في الجغرافيا. أنظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984، ص ص 304-309.

² محمد الخضر حسين، (1873-1958)، ولد بنفطة التونسية، وهو ذو أصول جزائرية، انتقل مع والده وهو في سن الثالثة عشر سنة إلى تونس العاصمة والتحق بالجامع الزيتوني، وحصل على شهادة التطوع 1316هـ، تولى القضاء ببنزرت بين سنتي 1904-1905، ثم انتقل إلى التعليم فصار مدرسا بالزيتونة والصادقية، أنشأ مجلة السعادة العظمى بتونس 1904، هاجر إلى دمشق 1912 وبقي بها إلى غاية 1920، ثم انتقل إلى مصر 1920 وبقي بها إلى غاية وفاته 1958، وتولى عدة مناصب بدأها في التصحيح بدار الكتب المصرية، وساهم في تشكيل عدة جمعيات إسلامية ووطنية: كجمعية الشبان المسلمين، جمعية الهداية الإسلامية... إلخ، تأسيس وإصدار وتحرير عدة مجلات كمجلة الهداية الإسلامية ولواء الإسلام ونور الإسلام، التدريس في الأزهر وعضويته في هيئة كبار العلماء، وإمامته لمشيخة الأزهر (1952-1954). أنظر: علي الرضا الحسيني، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ج 1، ط1، دار النوادر، سوريا، 2010، ص ص 11-17.

أحمد بشيري، علماء من المغرب العربي في الأزهر الشريف، منشورات ثالة، الجزائر، 2007، ص 54-55.

³ نفسه، ص 9-10.

الخدونية، فانبتق عنها سنة 1906 (النّادي الأدبي) والذي سيشكل نواة حزب سياسي سمي بالحزب الإصلاحي.¹

كما ظهرت كذلك (جمعية تلامذة الزيتونة) والتي تحولت سنة 1907 إلى (الجمعية الزيتونية) برئاسة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، و تدعو هذه الجمعية إلى إصلاح التّعليم الزيتوني.²

فكان للعمل الدّعائي الذي أنجزته المحاضرات التي كانت تلقى بمقرات جمعية الخدونية وجمعية قدماء الصّادقية والتي مهّدت لنشأة (النّادي التونسي) دور في جمع ولمّ شمل عناصر النّخبة التونسية وإفساح المجال لها في إيقاظ الهمم وتحريكها، وكان على رأس هذه النّخبة محمد البشير صفر (خريج الصّادقية ورئيس مجموعة الحاضرة) والذي كان متّصلاً بحركة الإصلاح الإسلامي (لقاؤه مع محمّد عبده³ أثناء زيارته لتونس سبتمبر 1903 وبزعيم حركة النّهضة المصرية مصطفى كامل⁴).⁵

2-1-5- الحركة الإصلاحية والتّعليمية بتونس:

¹ أحمد خالد، المرجع السابق، ص18.

² الزّيدي، المقال السابق، ص20.

³ محمد عبده، ولد في مصر عام 1849 في قرية محلّة نصر وتعلّم القراءة والكتابة فيها، وأكمل تعليمه في الأزهر، وعُيّن مدرّسا في دار العلوم ألف كتابا في علم الاجتماع، وأخذ يكتب في جريدة الأهرام، وتولّى تحرير جريدة (الوقائع المصرية)، اشترك في ثورة عرابي 1882، ثم نفى إلى بيروت، وشارك مع الأفغاني في تأسيس جمعية العروة الوثقى، انصبّ نشاطه في الدّعوة إلى التّجديد الإسلامي وإصلاح المؤسسات الدّينية، ثم تولى الإفتاء في مصر، للمزيد ينظر: علي محافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1789-1914) الاتجاهات الدّينية والسياسية والاجتماعية والعلمية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ص79-80.

⁴ مصطفى كامل باشا (1874-1908) زعيم سياسي وكاتب مصري، من أكبر المناهضين للاستعمار وعرف بدوره الكبير في مجالات النّهضة مثل نشر التّعليم وإنشاء الجامعة الوطنية، حصل على شهادة الحقوق من فرنسا ثم سلك طريق النّضال ضد الاحتلال الإنجليزي، وأسّس الحزب الوطني وجريدة اللّواء.

⁵ الزّيدي، المقال السابق، ص9-10.

لقد شهدت تونس في منتصف القرن 19م بوادر نهضة ثقافية إصلاحية، إذ كان لتأثر أحمد باي¹ بالحركات الإصلاحية بالشرق العربي وإعجابه بالحضارة الغربية وخاصة الفرنسية منها دور كبير في فتح باب الإصلاحات بتونس²، وجعل في مقدمة مشروعه الإصلاحي ترتيب الجنود، فأسس أول مدرسة عصرية حربية بباردو في 5 مارس 1840 لتعليم ما يلزم من فنون القتال وتخرج منها العديد من المهندسين والموظفين، كما قام بإحياء خزانة الكتب، وتنظيم الدروس بجامع الزيتونة³ سنة 1842.⁴

وواصل الوزير خير الدين (1873-1877) المسيرة الإصلاحية، إذ مكّنه منصبه كرئيس للوزراء من إنجاز إصلاحات مهمّة في الإدارة والتعليم والصّحة والاقتصاد،⁵ كما أصدر كتابه المعروف بـ (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) الذي عبّر فيه عن رؤيته في تطور وتقدّم المجتمع والدّولة، وشرح فيه رؤيته للغرب وبالذات على صعيد تطور النّظم السياسية والدستورية والإدارية والقانونية وذلك بإبراز الجوانب الايجابية للغرب والتي لا تتعارض حسب وجهة نظره مع القانون والشريعة الإسلامية، فدعا إلى ضرورة التّجديد والاجتهاد بما يتلاءم مع الشريعة الإسلامية وأحوال المسلمين، كما دعا إلى الإصلاح الشّامل الذي يقوم على أساس تحقيق العدل والمساواة في حكم الرّعية واحترام حقوق الانسان وذلك

¹ أحمد باي: هو أحمد باي بن مصطفى أول مشير على تونس 1837، أدخل العديد من الإصلاحات الاقتصادية والثقافية والعسكرية إلى تونس، كما منع تجارة الرق، توفي 1855، أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2002، ص 257-258.

² الثعالبي، المصدر السابق، ص 57.

³ وهو أقدم من جامع القرويين بفاس، والأزهر الشريف بمصر، ويعود تأسيسه إلى عصر الفتح الإسلامي لبلاد تونس والذي كان سنة 79 للهجرة أي حوالي 698 للميلاد من طرف حسّان بن النّعمان الغساني، حيث تمّ ايجاده من أجل الصّلاة، لكن التاريخ لم يتكلم عنه بصفة مسجد جامع إلا ابتداء من عام 114 هـ الموافق لـ 732 م عندما قام الأمير بن الحجاب والي إفريقية بتوسيعته وإحكام وضعه على أساس فخم، وتعرض الجامع للتّرميم عدّة مرات كان آخرها 1939، وأصبح الجامع كمؤسسة تعليمية ابتداء من القرن الثالث الهجري، ومن أشهر من درس به الإمام أحمد بن عرفة والمؤرخ ابن خلدون. للمزيد حول الموضوع أنظر: محمد بن خوجة، صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق، حمادي الساحلي، الجيلاني بن الحاج يحي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص 283-308.

⁴ نفسه، ص 289.

⁵ الزّبيدي، المرجع السابق، ص 16.

عن طريق إقامة نظام حكم يقوم على الشورى وتعدد مؤسسات الحكم لأنّ في الاستبداد والانفراد مدعاة للتفريط في الحقوق.¹

كما رأى خير الدين كذلك بأن ما وصل إليه الغرب من تقدم يعود الفضل فيه إلى ما اكتسبه من العلوم العصرية والمستحدثة والتي تفتقر لها البلدان العربية الإسلامية، لذلك قام بإصدار أمر 13 جانفي 1875 الذي دعا من خلاله إلى إنشاء مدرسة الصادقية والتي تعتبر مؤسسة علمية عصرية تدرس فيها العلوم الحديثة واللغات الأجنبية إلى جانب العلوم الشرعية، وأسندت إدارتها في البداية إلى محمد العربي زروق رئيس المجلس البلدي بتونس، وبقي على رأسها إلى غاية استقالته من منصبه إثر انتصاب الحماية² 1881 ليبدأ حينها الدور الثاني من تاريخ المدرسة الصادقية، إذ كان في باكورة الإصلاحات التي رسمها المقيم الأول بول كامبون (Paul Cambon) تغيير قانونها الأساسي وإلغاء الإرساليات العلمية لتلاميذها لمواصلة الدراسة بالمعاهد الفرنسية، وإلغاء تعليم اللغتين الإيطالية والتركية بها، وعزل المدرسة عن تيار الثقافة العربية الإسلامية وإحاقها بالتعليم الفرنسي بعد أن أحدث إدارة العلوم والمعارف 1883 للتعليم العام وعيّن المستعرب الكبير لويس ماشويل³ (Louis Machuel) مديرا عليها، ووضع هذا الأخير يده على جميع المؤسسات الثقافية بما في ذلك جامع الزيتونة، واجتهد في توسيع نطاق المدرسة الصادقية بإحداث فروعها بالحاضرة

¹ نغم محمد الصالح، الحركات الإسلامية في المغرب العربي (المغرب - تونس - الجزائر) دراسة لدورها السياسي في ظل التحولات الديمقراطية، ط1، الجنان للنشر والتوزيع، عمان، 2010، ص 81.

² ابن خوجة، المصدر السابق، ص 312.

³ لويس ماشويل: ابن مدرّس ولد في الجزائر العاصمة منذ 1848 لعائلة ناطقة باللغة العربية والفرنسية، شغل مدرس لغة عربية في كلية قسنطينة، ثم في ثانوية بالجزائر، تولى كرسي الرئاسة العامة لتدريس اللغة العربية الأدبية بوهران، تم استدعاؤه إلى تونس للقيام بمهمة إعلامية ودراسية في الزيتونة وكلية الصادقية، ثم عيّن من قبل بول كامبون 1883 إلى غاية 1908 رئيسا لمديرية التعليم العام. أنظر:

Pierre Vermeren ,Op. cit ,p 6.

التونسية، وقام بإنشاء المدرسة العلوية لتكوين المعلمين الابتدائيين بالفرنسية ومدرسة كارنو (Carnot)¹ وغيرهما.

وقد زار هذه المدرسة العديد من الشخصيات كالأشّخ جمال الدين الأفغاني²، والكاردينال لافيغري³ (Lavigerie) والذي قال حينها "إنّ العنصر التونسي أهل لتلقي الثقافة

¹ هي في الأصل معهد سان شارل (Saint-Charles) التي أحدثها الكاردينال شارل لافيغري (أنشأ لافيغري كلية سان لويس التي بدأت في العمل منذ أكتوبر 1880 بقرطاج وكان بها كان بها 65 طالبا، وتم نقلها إلى تونس 1882 تحت اسم كلية سان شارل)، وتم بيع الكنيسة للكلية إلى فرنسا 1889 بمليون فرنك، وفي سنة 1890م أطلقت عليها السلطات الاستعمارية اسم المعهد الصادقي حتى تتمكن من الاستفادة من الأموال المتأتية من أحباس المدرسة الصادقية، غير أنّ هذه المناورة باءت بالفشل، فلجأت السلطات آنذاك إلى تسميتها باسم الرئيس الفرنسي سادي كارنو (Sadi Carnot) الذي أعتل بليون فرنسا سنة 1893م في سنة 1894، وسنظل كذلك حتى ثمانينات القرن الماضي عندما تمّ التنازل عنها لتونس وتحمل اسم ليسيه بورقيبة. للمزيد أنظر: ابن خوجة، المصدر السابق، ص 318-319. وكذلك:

-pierre Soumille, « Les activités et les œuvres des congrégation religieuses catholiques en Tunisie à l' époque du protectorat français (fin 19 –milieu 20 siècle) », **La Tunisie mosaïque**. P 5. (9:15-21/08/2022. (<https://books.openedition.org/pumi/5018>))

² جمال الدين الأفغاني: ولد في قرية أسد أباد في أفغانستان عام 1839 تلقى تعليمه في كابل وانتقل إلى الهند، وتعلّم الإنجليزية هناك، ثم ذهب إلى الأستانة وعيّن في مجلس المعارف، ثم عاد مرة أخرى إلى مصر لكنّه نُفي إلى الهند وقام بالتأليف، وذهب إلى بيروت وأنشأ مع محمد عبده جمعية العروة الوثقى، ودعا إلى التحرر السياسي ودعوة المسلمين إلى النهوض ببلادهم والثورة ضدّ المستعمرين، أنظر: علي محافظة، المرجع السابق، ص 71-72.

³ الكاردينال شارل مرسيل ألمان لافيغري (1825-1892): قسيس فرنسي من أسرة نبيلة، ولد بمدينة بايون شمال شرق فرنسا 1825، أكمل تعليمه الثانوي بمدينة، درس الأدب اللاتيني بمعهد الدراسات العليا للأباء الكريملين، متحصل على شهادتي دكتوراه (في الآداب وفي اللاهوت)، دس التّاريخ الكليروسي بكلية السربون 1854-1856، وبدأ يظهر في الوطن العربي منذ إشرافه سنة 1860 بصفته مديرا لمؤسسة "مدارس الشرق" على توزيع الإعانات على المسيحيين الذين اضطهدهم الدّروز وقتلّوهم، فتولّد لديه الحقد على المسلمين واعتبرهم أخطر أعداء المسيحية، ثم قبل عرض المارشال ماكماهون (Mac Mahon) الحاكم العام على الجزائر منصب كبير أساقفة الجزائر 1867، وأنشأ جمعية مبشري إفريقيا والمعروفة "بالآباء البيض" سنة 1868 و"الأخوات البيض" سنة 1869، أصبح كاردينالا سنة 1882، وقد لعب لافيغري دورا أساسيا في التمهيد للحماية الفرنسية في تونس، إذ كان مستشار قامبيتا وجول فيري، بل يمكن القول أنّه كان دليلهما، توفي في 26 نوفمبر 1892 في الجزائر العاصمة، ونقل جثمانه إلى تونس ووضع في قبو أقيم خصيصا في سرداب كاتدرائية قرطاج الأولية في بيرسا في 8 ديسمبر 1892، وعندما اضطرت الكنيسة تسليم الكاتدرائية للحكومة التونسية، نقلت رفاته في 23 جوان 1864 إلى روما. للمزيد أنظر: عبد الجليل التّيمي، "دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس 1830-1881"، **المجلة التاريخية المغربية**، ع 3، تونس، جانفي يناير، 1975، ص 15. وكذلك، عبد المجيد الشرفي، "الحركة التبشيرية في تونس في القرن التاسع عشر، بورغاد (Bourgade)، ولا فيغري (Lavigerie)"، **حوليات الجامعة التونسية**، ع 8، جامعة منوبة، 1971، ص 144-145.

الأوربية... وأنّ العرب جنس شريف لا تصلح بهم إلاّ شريعة الإسلام وهم لا يصلحون إلاّ بها.....¹.

وقد أفضت السياسة التعليمية والثقافية للإدارة الاستعمارية إلى انبعاث جيل من المثقفين ورجال الفكر والإعلام شكّلوا دعائم التيار التغريبي بتونس من أمثال حسن قلاّتي، عبد الجليل الزّاوش، الأخوين علي ومحمد باش حامية²، البشير صفر³ وغيرهم من النّخبة الذين تولّوا وظائف سامية.⁴

ولكن ابتداء من مطلع القرن العشرين قامت السّلطة الاستعمارية بضرب نظام الصّادقية بكامله، فانحطّ مستوى الدّراسة وانخفض عدد الطّلاب وتحولّ التّعليم فيها عن غايته التي كانت إعداد نخبة فكرية متحرّرة، وغدت آلة تُشوّه عقل الشّباب التونسي، تُخرّج فقط التّراجمة السيّئين لجهاز البوليس أو الوظائف الدّنيا في الإدارة.⁵

وفي إطار الحركة الإصلاحية قام الوزير خير الدين كذلك بإصدار أمر في 27 جانفي 1876 لإصلاح التّعليم الرّيتوني، وإقحام تدريس العلوم العصرية به، لكنّ هذا التّوجه الجديد لم يلق قبولا من شيوخ الرّيتونة، واعتبروه ضربا من ضروب الرّجس والبدعة⁶، لكن مع ذلك فإنّ جامع الرّيتونة عرف حركة تجديدية في نهاية القرن التّاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وأصبح له خمسة فروع بالعمالة التونسية، كما أحدثت له دولة الحماية في سنة 1896

¹ ابن خوجة، المصدر السابق، ص 320.

² محمد باش حامية (1881-1920): ولد بتونس في جوان 1881، تعلم بالمدرسة الصّادقية، اشتغل مترجما، وانتسب إلى كلية الحقوق بباريس فحصل على إجازة في القانون، عين ابتداء من 21 أفريل قاضيا مساعدا بمحكمة الدريّة، ولكنه استقال منها في أوت 1913، والتحق بأخيه في اسطنبول، أعلن معارضته لنظام الحماية، واستقر بجنيف وأصدر العديد من الصحف المعارضة للاستعمار الفرنسي كـ"مجلة المغرب" و"التّونسي"، الأمر الذي دفع بالسلطات الاستعمارية بتونس إلى اعتباره متمردا واستصدرت في 12 جويلية 1917 أمرا بعقل أملاكه بتونس وبيعها لفائدة الدّولة، توفي ببرلين ديسمبر 1920، أنظر عقيب، الحزب الحر الدّستوري التّونسي...، المرجع السابق، ص 23.

³ الحسين بن عيسى، البورقيبيّة والهوية، صراع مشاريع، ط1 مكتبة تونس، تونس، 2015، ص 49.

⁴ ابن خوجة، المصدر السابق، ص 321.

⁵ الثعالبي، المصدر السابق، ص 62.

⁶ ابن خوجة، المصدر السابق، ص 294.

بمساعي الوزير المقيم ريني ميني (Louis René Millet) فرعاً آخرًا لتعليم طلبته اللغة الفرنسية ومبادئ العلوم الرياضية والمتمثل في معهد ابن خلدون.¹

وأخيرًا يمكن القول بأن الحياة الثقافية في تونس قبل الحماية شهدت ازدهارًا واضحًا وخاصة في مجال التعليم العصري الذي لعب إلى جانب المؤسسات الدينية وخصوصًا جامع الزيتونة دورًا بارزًا في النهوض بالبلاد فكريًا وثقافيًا وكذلك في إيقاظ الحس والوعي الوطني لدى الشباب التونسي، وتكوين النخبة التي ستقود العمل الوطني التونسي في القرن العشرين.

2-2- التأثيرات الخارجية: الشرقية الإسلامية والغربية الليبرالية:

2-2-1- التأثيرات الشرقية الإسلامية:

لقد كان لموقع تونس الجغرافي وقربها من بلاد المشرق العربي أثره العظيم في انتشار أفكار المفكرين والمصلحين الشرقيين، فقد امتد تأثير الحركة الإصلاحية التي ظهرت بالمشرق الإسلامي والعربي إلى تونس، وقد وجدت ولأول مرة من طرف خير الدين التونسي وأحمد

¹ فرع مدينة صفاقس، فرع جامع عقبة ابن نافع بالقيروان، وفرع مدن سوسة، قفصة، توزر. أنظر: نفسه، ص 294.

بن أبي الضياف¹، ومحمود قبادو² (1871-1813) والشيخ سالم بوحاجب ومحمد بيرم الخامس والجنرال حسين³ والجنرال رستم⁴ وغيرهم⁵.

كما لاقت فكرة الجامعة الإسلامية صدى واسعا في أوساط الشباب التونسي من ذوي التكوين الزيتوني والمعتنقين لتيار الجامعة الإسلامية وعلى وجه الخصوص الذين هم في المهجر⁶، وعلى سبيل المثال نذكر محمد السنوسي الذي تعرّف في منفاه في مصر على أهداف حركة (العروة الوثقى)⁷، وعند عودته من منفاه بدأ يعمل على نشر مبادئها، فليقت قبولاً لدى التونسيين وخصوصاً علماء جامع الزيتونة والذين تأثروا بها كثيراً وأصبحوا من أعضائها المؤسسين ونذكر منهم محمد السنوسي، محمد بيرم الخامس والشيخ سالم بو

¹ أحمد ابن أبي الضياف (1802-1874) من قبيلة أولاد عون، ولد بحاضرة تونس، ونشأ في حجر أبيه الشيخ بالضياف كاتب الوزير يوسف صاحب الطابع تلقى العلوم على يد شيوخ عصره، تولى العديد من الوظائف السامية، ولاه الحسين باي على خطة العدالة ثم خطة الكتابة بديوان الحكومة، ثم جعل أحمد باشا بيده قلم دولته ورقاه إلى أسمى الرتب وكان يعتمد في سفارته للدولة العلية، وصاحبه في سفره لفرنسا، وعندما تولى محمد الصادق جعله من أعضاء مجلس الشورى وسماه وزيراً للقلم. واعتمده في شرح القانون الأساسي المسمى بعهد الأمان فأحكم دعائمه وقواعده. ، ألف كتاب إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ويعتبر من المصلحين، أنظر حسن حسيني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 170.

² محمود بن محمد قبادو (1812-1871): من أسرة أندلسية الأصل لجأت إلى تونس في بداية العهد العثماني في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، ولد محمود قبادو في تونس سنة 1812 ودرس بجامع الزيتونة، وانقطع عن التعليم وسافر للمشرق، تنقل لطلب العلم بين مصراته واستنبول ومكث بها أربع سنوات، وعند عودته إلى تونس عين مدرسا بمدرسة بارود الحربية، ترجم عدة كتب إلى العربية، اشتغل بالتدريس في الزيتونة تخرجت على يده نخبة من العلماء و الأدباء مثل سالم بوحاجب ومحمد السنوسي، وتولى خطة قاضي بالمجلس الشرعي بالعاصمة سنة 1868، وبقي بهذا المنصب حت وفاته، يعد من المصلحين التونسيين ومن أنصار التجديد، أنظر: الزملي: المصدر السابق، ص 63 - 70.

³ الجنرال حسين: متوفي سنة 1887، شركسي تخرج من مدرسة باردو وتولى عدة مناصب هامة أهمها رئيس المجلس البلدي وأشرف على الرائد الرسمي. أنظر اللولب، المرجع السابق، ص 9.

⁴ الجنرال رستم: أبو ضياء رستم المتوفي سنة 1886 مملوك شركسي رباه أحمد باي تخرج من مدرسة باردو وتولى عدة مناصب منها وزارتي الداخلية والحربية. أنظر نفسه، ص 9.

⁵ زهير الذوايدي، المرجع السابق، ص 130-131.

⁶ بدأ الاتصال بين جمال الدين الأفغاني (1839-1897) وبين أحرار تونس عند إقامة الشّيوخين محمد عبده (1849-1905) وجمال الدين الأفغاني في باريس 1884. أنظر: الثعالبي، المصدر السابق، ص 9.

⁷ برزت هذه الحركة سنة 1882 وهي ذات طابع سرّي أسّسها المناضل الإصلاحي جمال الدين الأفغاني، وكان هدفها تحرير العالم الإسلامي وتوحيده. أنظر: الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 31.

حاجب وهؤلاء هم الذين أوحوا لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده بفكرة إصدار مجلة (العروة الوثقى)¹ بباريس سنة 1884، ولقيت هذه المجلة إقبالا شديدا في تونس².

وكانت هذه الحركة على اتصال دائم بأعضاء حركة (العروة الوثقى) بالمشرق وعلى رأسهم محمد عبده والكواكبي³ ورشيد رضا⁴، ومما كرس هذا التواصل زيارتي محمد عبده إلى تونس⁵، الأولى كانت في فترة ما بين 6 ديسمبر 1884 و4 جانفي 1885 وزيارته الثانية خلال شهر سبتمبر 1903.⁶ وقام خلالهما باللقاء المحاضرات في جامع الزيتونة وتواصل مع المثقفين ورجال الدين التونسيين الأمر الذي ساعد على انتشار أفكاره بين الطلبة والأساتذة المتفتحين على المشرق⁷.

ومما ساهم في انتشار الأفكار الإصلاحية بتونس كذلك نجد تواصل النخبة التونسية مع الصحافة العربية وخاصة جريدة (المنار) والتي كانت تصل إلى الكثير من رجال الفكر التونسي وعرفت انتشارا واسعا بتونس⁸، وارتبطت بالنهضة الفكرية التونسية وخاصة في

¹ صدرت العروة الوثقى في باريس (5 جمادى الأولى 1301هـ) الموافق لـ 13 مارس 1884، وتوقفت في 16 أكتوبر 1884 (صدر منها 18 عددا)، وكانت تدعو إلى قضية الوحدة الإسلامية وتحرير العالم الإسلامي من النفوذ الأجنبي من الاستعمار، للمزيد أنظر: الجندي، المرجع السابق، ص 18.

² الثعالبي، المصدر السابق، ص 9.

³ الكواكبي: عبد الرحمان الكواكبي (1848-1902)، مصلح اجتماعي وسياسي سوري، اشتهر بالتأليفين: أم القرى و طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، وقد أعطى الكواكبي في كتابه أم القرى عشرون سببا من الأسباب الدينية لفتور وضعف العالم الإسلامي. أنظر: دهاش، المرجع السابق، ص 17.

⁴ محمد رشيد رضا: (1865-1935) ولد بالقلمون إحدى قرى لبنان، التحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية وعقب إغلاقها انظم إلى المدارس الدينية في طرابلس الشام، نال إجازة في العلوم الشرعية والعربية 1897، اتصل بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وتأثر بهما إلى جانب أستاذه حسين الجسر، شارك في جريدة العروة الوثقى، وأسس جريدة "المنار" يوم 15 مارس 1898 وهو من المصلحين ومن آثاره: الوحدة الإسلامية، الوحي المحمدي، حقيقة الربا وغيرها توفي سنة 1935. أنظر يوسف أبيش، رحلات الإمام محمد رشيد رضا، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979، ص ص 5-8.

⁵ ابن عاشور، المصدر السابق، ص 70.

⁶ الزملي، المصدر السابق، ص 138.

⁷ ابن عاشور، المصدر السابق، ص 70.

⁸ الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 32. وكذلك أحمد خالد، المرجع السابق، ص 10-11.

مسائل التّعليم والإصلاح والجوانب الدّينية والاجتماعية كالنّهي عن زيارة قبور الأولياء الصّالحين ومحاربة البدع والخرافات، وبالتالي فإنّ هذه المجلة لعبت دورا بارزا في التّواصل بين التّيار الإصلاحية التونسي والمصري.

كما كان لتونس تواصل فكري وثقافي مع الدّولة العثمانية عن طريق جريدة (الكوكب العثماني) ذات الطّابع الدّيني السّياسي، وغيرها من الجرائد والمجلات التي كانت تصل إلى تونس.¹

وقد تسربت روح النّهضة العربية إلى تونس أيضا عن طريق الكتب والطّلاب الذين تخرجوا من كليات مصر وسوريا أو الذين تعرّفوا في باريس في الحي اللاتيني بزملائهم من الشرق الأدنى أو عن طريق أسفار الحجّاج كذلك.²

وكان لهذا الاتصال والارتباط دور كبير في انتشار الأفكار الإصلاحية وترسيخ فكرة الجامعة الإسلامية عند مجموعة من رجال الفكر التونسي ومحري الصّحف التّونسية كالشيخ عبد العزيز الثّعالبي الذي عاد إلى تونس 1902 لينشط في مجال الدّعوة إلى الإصلاح الدّيني والاجتماعي والتّطور والتّحرر وفهم أسرار الدّين الإسلامي من أجل إنقاذ المسلمين من الانحطاط والتّخلف والاستعمار، ونجد كذلك الجعايي صاحب جريدة (الصّواب)، سليمان الجادوي³ صاحب جرائد (أبو نواس)، (المرشد)، (مرشد الأمة)، والطّيب بن عيسى⁴ صاحب (المشير) وغيرهم، وبالتالي فإنّ لمشروع الجامعة الإسلامية تأثيرا واضحا

¹ بوطيبي، المقال السابق، ص ص 162-164.

² جوليان، المصدر السابق، ص 32.

³ سليمان الجادوي (1876-1951): تخرج من جامع الزيتونة والمدرسة البارونية بالجل الغربي بليبيا، احترف تجارة الصوف بأسواق مدينة تونس إلى جانب الصحافة، حيث أصدر جريدة المرشد سنة 1906، وهي صحيفة أسبوعية كانت تصدر كل يوم جمعة، وتعرض بسبب مقالاته الجريئة للسجن، وأوقفت الصحيفة سنة 1908، ولما خرج من السجن أصدر سنة 1909 جريدة مرشد الأمة وأبو نواس شبه الهزلية والتي جاءت منها الشكايات من قبل الموظفين المتعاملين مع الحماية والإقامة العامة بالجزائر، وله مؤلفات منها: الفوائد الجمّة في انتخابات مرشد الأمة الذي طبع بتونس 1925. للمزيد أنظر عقيب، الحزب الحر الدستوري. . المرجع السابق، ص 41.

⁴ الطيب بن عيسى (1885-1965): من أصل جزائري، درس بالزيتونة والخلدونية، واشتغل بالتجارة، وساهم في تحرير عدد من الصحف بتونس كالصواب، وأنشأ المشير سنة 1911، ثم الوزير سنة 1920، كان عضوا بارزا في الحزب الحر

على تطور الوعي الفكري والثقافي والسياسي في تونس، إذ تبناه مجموعة من رجال النخبة كعبد العزيز الثعالبي وعلي باش حامية والطاهر بن عاشور وغيرهم.¹

2-2-2- التأثيرات الغربية:

لقد كان للغرب الأوربي تأثيره الواضح على الفكر والوعي التونسي وخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وذلك نتيجة للزيارات الرسمية إلى دول أوروبا كرحلة أحمد باي إلى فرنسا 1846، والتي لاحظ فيها التفاوت الحضاري بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي، وكذلك سفر خير الدين إلى العديد من الدول الأوروبية، كما أن إقامته بفرنسا لثلاث سنوات متصلة مكنته من توسيع معارفه وإدراكه لأسباب التقدم الأوربي، وعند عودته إلى تونس دعا إلى ضرورة الإصلاح والتطلع إلى الغرب والاقتباس منه بما ينفع الأمة الإسلامية، خاصة في مجال النظم السياسية المبنية أساسا على الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية بين جميع المواطنين أمام القانون، كما طالب بتحديد سلطة الحاكم اتجاه المواطنين وفق دستور لحمايتهم من المظالم في الملكية والأعراض والكرامة مما يؤدي في النهاية إلى التقدم، وعليه فإن الوزير خير الدين المتأثر بالفكر الغربي أصبح مرجعية وبادرة أولية للتفكير في المسائل الوطنية، كما أنه فتح الباب للحركة الإصلاحية والوطنية في القرن العشرين لتحذو حذوه في المطالبة بحقوق التونسيين والعدالة والمساواة والحريات العامة، فكان بذلك بذرة ساعدت على نمو وتطور الفكر والوعي السياسي التونسي.²

كما كان الاحتكاك بالأجانب في تونس وانتشار التعليم الفرنسي والطباعة وغيرها منافذ واسعة للأخذ من المدنية الغربية والعقلية الأوروبية.³

الدستوري، وله العديد من الآثار المكتوبة، مثل المغرب الأقصى بين عهدين، وخواطر حاج، ومذكرات سجين، وتحرير المرأة. أنظر: عقيب، الحزب الحر، المرجع السابق، ص 41. وكذلك: اللولب، المرجع السابق، ص 58.

¹ ابن عاشور، المصدر السابق، ص 70. وبوطيبي، المرجع السابق، ص 169-170.

² بوطيبي، المقال السابق، ص 178.

³ نفسه، ص 175.

وقد ساهمت كذلك البعثات الطلّابية وخاصة من المدرسة الصادقية التي كانت خلفية للإرساليات التعليمية التونسية إلى فرنسا وأوروبا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين دورا كبيرا في نقل العلوم العصرية ومختلف مظاهر التّقدم والتّطور الحاصل في الدّول الغربية من حقوق الانسان والحريات العامة وفي مختلف المجالات، ونذكر مثال عن هؤلاء الطلبة: البشير صفر، علي بوشوشة، محمد الأصرم، علي باش حامبة وأخوه محمد باش حامبة، عبد الجليل الزّاوش وحسن قلاّتي، محمّد النّعمان¹، حسونة العياشي²... الخ³، ونتج عن تأثر هؤلاء الشّبان بالثقافة الغربية ظهور تيار ليبرالي الفكر يدعو للأخذ من المدنية الغربية حتّى في مسائل القيم، وكان هذا التّيار يؤمن بضرورة التّطور والانقلاب على النّقايد والعادات التي وقفت ضد تقدّم المجتمع التونسي⁴.

وعليه يمكن القول بأنّ الذين تكونوا بالمعهد الصّادقي ثمّ بالجامعات الفرنسية وبالرّغم من قلة عددهم والذي لم يتجاوز العشرين إلى غاية الح ع 1 إلّا أنّه سيكون لهم دور أساسي وهام في صلب الحركة الوطنية، والسّبب في ذلك هو وعيهم بحالة التّدور التي آلت إليها البلاد في عهد الحماية⁵.

¹ محمد النّعمان: ولد بتونس 1872، درس بالمدرسة العلوية ثم سافر إلى باريس وانتسب إلى جامعة أكس حيث أحرز على إجازة في الحقوق، وانخرط في سلك المحاماة وكان من مؤسسي حركة الشباب التونسي، وكتب مقالات في عدة جرائد، وتم نفيه إثر أحداث الترام. أنظر: اللولب المرجع السابق، ص 175.

² حسونة العياشي (1873-1958): محامي وصحافي ورجل سياسة، ولد بسوسة 1873، بدأ دراسته الابتدائية والثانوية بسوسة، وأتمها بمدينة توس (المعهد الصّادقي ودار المعلمين)، عين معلما بالمنستير 1893، ثم مدرسا للعربية في معهد كارنو 1894، وعين كمتّرجم لمدة قصيرة في إدارة الفلاحة، التحق بكلية الحقوق بباريس (1896-1898)، ورجع بعدها ليعمل محاميا في سوسة، كتب في عدة صحف: الزهرة، الحاضرة، ساهم في تأسيس جريدة "التونسي" وجمعية "الأداب"، نشط في الحزب الدستوري وكان ضمن الوفد الثاني الذي توجه إلى باريس لدعم عمل الوفد الأول في التعريف بالقضية التونسية، عند انشقاق الحزب الدستوري كان ضمن الحزب الدستوري الجديد ونتيجة لنشاطه السياسي، سجن 1938 ولم يسترجع حريته إلا سنة 1943. للمزيد أنظر: الزمري، المصدر السابق، ص 301-306.

³ بوطيبي، المقال السابق، ص، 165.

⁴ بوطيبي، المقال السابق، ص-ص، 57-58.

⁵ أحمد القصاب، تاريخ تونس المعاصر (1881-1956)، تعريب حمادي الساحلي، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986، ص، 489.

3 تطور العمل السياسي بتونس قبل 1930:

3-1- حركة الشباب التونسي 1907-1912:

3-1-1- بؤادر العمل السياسي:

يعتبر الخطاب الذي ألقاه البشير صفر بمناسبة تدشين دار العجزة يوم 24 مارس 1906 وبحضور المقيم العام ستيفان بيشون، والذي يعرف بخطاب التكية إيدانا بنشأة الحركة السياسية التي ستتبلور في نطاق حركة الشباب التونسي، إذ عبّر وبلهجة معتدلة عن مشاغل التونسيين وسوء حالهم، وطالب بلغة دبلوماسية بإصلاحات نافعة تتضمن "اعتناء جدياً بالنظر في الوسائل التي تحفظ التونسيين من الوقوع في مهواة الفقر والخراب، وذلك بفتح أبواب التعليم الصناعي والتجاري والزراعي أمام الأهالي وبحماية الصناعة المحلية من المنافسة الأجنبية وإبقاء الأرض بيد أصحابها التونسيين"¹، وقد أثار هذا الخطاب غضب الصحف الفرنسية بتونس وبالخصوص صحيفتي (المُعمر الفرنسي) و(تونس الفرنسية)، وأعفي على إثر هذا الخطاب البشير صفر من مهامه على رأس إدارة الأوقاف بالعاصمة، وعُيّن عاملاً بسوسة.²

كما أنّ شعور البشير صفر بخطورة التيار التغريبي على تونس جعلته يحاول ربطهم بالحركة الإصلاحية بالشرق، ووقف في وجه من أراد التعاون مع الفرنسيين من الشباب البرجوازيين وعلى رأسهم محمد الأصرم وحسونة العياشي واللذين شاركوا في مؤتمر مرسيليا الاستعماري سنة 1906، حيث قدّم محمد الأصرم تقريراً حول تونس وجملة من المطالب منها منح التونسيين دستوراً يحفظ لهم حقوقهم، والمطالبة بالمساواة مع الفرنسيين وضمان التمثيل في الندوة الشورية، وكذلك دعوا إلى نشر التعليم الفرنسي حتى في الكتاتيب القرآنية

¹ الزيدي، المقال السابق، ص 20. وكذلك: لعيرج، المرجع السابق، ص 30-31.

² القصاب، المرجع السابق، ص 490.

وهذا عكس ما كانت تدعو إليه الحركة الوطنية الإصلاحية التي تدعو إلى المحافظة على عروبة تونس وحمايتها من السير في طريق الغرب وحضارته، فوق الانفصال بينهما.¹

وتجدر الإشارة هنا عن وجود تيارين وطنيين وهما: حركة الإصلاح التي هاجر على إثرها أقطابها المكي بن عزوز والشيخ صالح الشريف² واسماعيل الصفايحي³ والخضر بن الحسين، والتيار المناهض للإصلاح ضمن الجامعة الإسلامية والذي واصل نشره وتعزيزه الشيخ الثعالبي، أما التيار الثاني فهو يتمثل في التونسيين الذين وقفوا مع الكتلة الجمهورية الاشتراكية والمنظمات الانسانية "منظمة حقوق الانسان"⁴ و"منظمة الفكر الحر"⁵، "المنظمة اللائكية والمنظمة الماسونية"⁶، وساهموا بقسط كبير في نشر الوعي بين التونسيين وكان

¹ الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 37. وكذلك أحمد بن ميلاد ومحمد مسعود إدريس، الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية 1892-1940، ج 1، بيت الحكمة، تونس، 1991، ص 5.

² صالح الشريف التونسي (1866-1920): مصلح تونسي من أبوين جزائريين، نال شهادة التطوع سنة 1888، وهاجر إلى الأستانة عام 1900، شغل منصب مستشار عسكري لوزير الحربية التركي أنور باشا، كما شارك في لجنة تحرير تونس والجزائر، وهو الذي كتب مقال "حقيقة الجهاد سنة 1914 والذي وزع في بلدان المغرب العربي، أنظر: دهاش، المرجع السابق، ص 167. وكذلك: اللولب، المرجع السابق، ص 56.

³ اسماعيل الصفايحي: (1853-1918): مصلح تونسي زيتوني الثقافة، يعود إليه الفضل في تنظيم المكتبة الصادقية، هاجر إلى استنبول وبقي بها إلى غاية انتهاء الحرب العالمية الأولى. أنظر دهاش، المرجع السابق، ص 170.

⁴ منظمة حقوق الانسان: وهي منظمة مكرسة للدفاع عن حقوق الانسان، وذلك من خلال تحديد الانتهاكات وجمع البيانات حولها ونشرها، وتعزيز الوعي العام والضغط على الجهات المسؤولة لوقف هاته الانتهاكات، وتم إعلان حقوق الانسان والمواطن في فرنسا سنة 1789.

⁵ الفكر الحر: يعرف قاموس أكسفورد الإنجليزي الفكر الحر "الممارسة الحرة للعقلانية في مسائل المعتقد الديني، دون مراعاة للسلطة وتبني مبادئ المفكر الحر" ويرتبط الفكر الحر بشكل وثيق بالعلمانية والإلحاد والانسانية ومعاداة لرجال الدين وانتقاد الأديان. واستخدم المصطلح لأول مرة في القرن السابع عشر للميلاد للإشارة للأشخاص الذين شككوا في المعتقدات الدينية التقليدية، ويرمز للفكر الحر بزهرة بنفسج الثالوث.

⁶ المنظمة الماسونية: هي منظمة سرية عالمية يتشارك أفرادها عقائد وأفكار واحدة فيما يخص الأخلاق وتفسير الكون والحياة والإيمان بالخالق، وفيما يتعلق بأهدافها فهي تسعى إلى استقطاب ذوي النفوس الحرة والأخلاق الحسنة الراغبين في العمل من أجل تحسين الشّروط المادية والمعنوية للبشرية، والارتقاء بها إلى مستوى ثقافي وحضاري أرفع. وتطمح الماسونية إلى أن تكون شمولية، بحيث لا تتخطى الحدود السياسية والجغرافية الفاصلة بين الأقطار والأمم فحسب، وإنما أيضا الحواجز العقائدية الفاصلة بين الأديان والأحزاب. للمزيد أنظر: الكيالي: موسوعة السياسة، ج 5، ط 2، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، 1990، ص 657.

الشيخ الثعالبي يعمل في صلب هذين التيارين وهو الذي سيوفق بينهما وبين حركة الشبان التونسيين.¹

3-1-2- تأسيس حركة الشبان التونسيين 1907 وأهم مطالبها:

وهي تعتبر أول مجموعة سياسية وطنية واكبت التّحركات السياسية والاجتماعية في أوساط الجاليات الأوروبية واستفادت من أساليب عملها، وأسست نمط من الكفاح القانوني لم يألفه التونسيون ويتمثل في جملة من المطالب في مقدّماتها طرح القضايا الكبرى من فقر ومجاعة وانتزاع الثروة من الأهالي والدعوة إلى تحريرهم من الاستغلال والتّعسف والتمثيل العادل للسكان والمساواة²، وهي تعدّ امتدادا لحركة النضال الثقافي الذي قادته جريدة (الحاضرة) والعمل الجمعياتي الذي طورته (الخلدونية) وجمعية (قدماء الصادقية)، ونجحت الحركة في القضاء على الخلافات بين التيار التغريبي والإصلاحي وتضمنتهم مع بعض.³

واقترن تأسيس حركة الشبان التونسيين بتأسيس جريدة (التونسي) (LeTunisien) الناطقة بالفرنسية على يد علي باش حامية في 7 فيفري 1907، وكان من محرريها نخبة من الشبان المتدربين بالصادقية وواصلوا تعليمهم العالي بفرنسا ومن بينهم حسن القلاطي ومحمد نعمان ومحمد الأصرم والبشير صفر وخير الله بن مصطفى وعبد الجليل الزاوش، وعلي بوحاجب⁴، وكذلك الصادق الزملي⁵ وعبد العزيز الثعالبي الذي قام سنة 1909

¹ ابن ميلاد ومسعود إدريس، المصدر السابق، ص 5.

² نور الدين الدقي، "الآباء المؤسسون للحركة الوطنية، حركة الشباب التونسي"، مجلة الفكر الجديد، العدد 4، أكتوبر 2015، ص 64.

³ الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 40. وكذلك: الدقي، حركة الشباب التونسي، المرجع السابق، ص 9.

⁴ علي بوحاجب (1888-1965) الباحث والمناضل والصحفي، ساهم في تحرير جريدة "التونسي" الناطقة بالفرنسية، انظم إلى جمعية "الأداب" التمثيلية التي أنشأها حسن قلاطي أثناء الح. ع. 1، نشط ضمن الحزب الدستوري عند تأسيسه 1920، كتب في جريدة "الصوت التونسي"، "صوت الشعب"، وعند طلب سلطة الحماية تشكيل وزارة 1947 أسند إليه مصطفى الكعك بحكم عمله في مجال الصيدلة وزارة الصحة والشؤون الاجتماعية لمدة ثلاث سنوات. للمزيد أنظر: الزملي، المصدر السابق، ص ص 327-331.

⁵ الصادق الزملي: (1884-1983) من مواليد تونس، درس بالمعهد الصادقي ثم غادره قبل إتمام دراسته، انخرط في جمعية قدماء الصادقية سنة 1905، ناضل في حركة الشباب التونسي وكتب في جريدة التونسي، أبعد سنة 1912 إلى

بإصدار جريدة (التّونسي) النّاطقة بالعربية، وقد بلورت هذه الحركة اتّجاهها نضاليا ينادي بتشريك التّونسيين في الحياة العامة وفي تسيير شؤون بلادهم وتمثيلهم في المجالس النّيابية إلى جانب تعميم التّعليم العصري والإصلاح الزراعي والجباي، وتنظيم العدلية والمحاكم التّونسية، وتفريق السّلط، كما عملت أيضا على الدّفاع عن الهوية التّونسية والحقوق الوطنية المهضومة، ويحسب لها أسبقيتها في تجديد الخطاب السّياسي وإدخال مفاهيم جديدة مثل: "الأمة التّونسية"¹ و "الشّعب التّونسي"، وكان نشاط الحركة مُستمد من أرضية مبدئية أساسها الالتزام بقيم المسيرة الإصلاحية التّونسية من ناحية أي التّعلق بمفهوم الوطنية² التّونسية وبانتمائها للحضارة العربية الإسلامية³، كما كانت تؤيد فكرة الجامعة الإسلامية إذ كتب علي باش حامبة في جريدة (التّونسي) 1910: "إنّ كلّ مسلم هو من أنصار فكرة الاتحاد الإسلامي، وأنّ التّونسيين قاطبة أنصار لهذه السّياسة ومتعلقون بالرابطة العثمانية التي مع نتيجة تلك الفكرة ومظهرها الباهر، وإذا كانت ثقافتنا العصرية قد أكسبتنا عقلية جديدة، فإنّنا بصفة كوننا مسلمين قد احتفظنا بولائنا الخالص المتين لإخواننا في جميع

الجنوب، وساهم في الاجتماعات الممهدة لتأسيس الحزب الدّستوري، وبعد أن نشب خلاف بين الدّستوريين، مال إلى الحزب الإصلاحي لحسن قلّاتي، وكتب في جريدة البرهان التابعة له، كما عمل في الإدارة وكان صديق للمنصف باي فعينه عقب توليه العرش عضوا في المجلس الخاص له، أحيل سنة 1955 إلى المعاش، وقد ألّف العديد من الكتب. أنظر الزّمرلي، المصدر السابق، ص ص 13-20، وكذلك: عقيب، المرجع السابق، 26.

¹ مصطلح الأمة: مصطلح قانوني وسياسي يستخدم للإشارة لمجموعة بشرية تكون تآلفها وتجانسها القومي عبر مراحل تاريخية تحققت خلالها لغة مشتركة وتاريخ وتراث ثقافي وديني ومعنوي وتكوين نفسي مشترك والعيش على أرض واحدة ومصالح اقتصادية مشتركة حتى لو لم يخضعوا لنظام سياسي معين، مما يؤدي إلى إحساس بشخصية قومية، وتطلعات ومصالح قومية موحدة، فمصطلح الأمة يتقاطع مع مفاهيم الشّعب والقومية والعرق تارة ويتميز عنها تارة أخرى، وفي المقابل ينظر إلى الأمة وفق مفاهيم الدّولة القومية بارتباطها بكيان سياسي معين وبقعة من الأرض كحقيقة وكيان مجرد له وجود مستقل عن المواطنين الذين على قيد الحياة في لحظة معينة، فهي شخص حقيقي قانوني معنوي حر، فالأمة هي كل الأجيال السّابقة والمعاصرة بل واللاحقة أيضا، فهي تسمو على الشّعب الحالي للدّولة ووجودها يسمو على وجوده، لأنّها توجد قبله ومعه وبعده. للمزيد حول مفهوم الأمة أنظر: عبد الوهاب الكيّالي، موسوعة السّياسة، ج1، ط1، المؤسّسة العربية للدراسات والنّشر، بيروت-لبنان، 1979، ص ص 305-306.

² الوطنية: هي التّعلق العاطفي والولاء والانتساب لأمة محدّدة، والوطنية تحيل إلى وطن أي أرض أو منطقة جغرافية محدّدة وخاصّة واستثنائية عن البلدان الأخرى، ويعرفها مارك توين: "الوطنية هي أن تدعم بلادك في جميع الأوقات وحكومتك عندما تستحق ذلك"، والوطني هو الشّخص الذي يدعم بلاده بقوة والمستعد للدّفاع عنها من الأعداء.

³ الدقي، "الأباء المؤسسون للحركة الوطنية..."، المقال السابق، ص 63. وكذلك: القصاب، المرجع السابق، ص 493.

الأقطار...¹، ومن جهة أخرى فإنّ الحركة كانت متأثرة بالأيديولوجية الليبرالية والديمقراطية الغربية²، فهي إذن عبارة عن محاولة ائتلاف بين التّيار الوطني المُتفرنس والتّيار الوطني العروبي الإسلامي ولو أنّ هذا التلاقي كان مؤقتاً.³

فحركة الشّبّان التّونسيين عملت على كشف المظالم الاستعمارية وطالبت بالعدالة الاجتماعية والسياسية والنّهضة الثقافيّة والعلمية، وقد اندرج سعيها في إطار سياسة التّشريك التي كانت تدعو إليها حكومة الجمهورية الفرنسية إذ لم يكن الاستقلال هدفا معلنا في برنامجها⁴، وقد أبدى المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليّان ملاحظته حول الأسباب التي جعلت الحركة لا تطالب بالاستقلال في قوله: "تري فائدة ما تقدمه فرنسا من زاد ثقافي واقتصادي (...). وأنّ الكرامة الانسانية تقضي أن يتساوى المُستعمرون مع المُستعمرين"⁵، ونفس الرأى ذهب إليه الثّعالبي في كتاب (تونس الشّهيدة)، حيث كان يرى بأنّ الحركة كانت تلحّ على الحوار لا على التّصادم، وكانت تمدح رسالة التّحضير الفرنسية ولعلّ ما جاء في افتتاحية جريدة (التونسي) الصّادرة بالفرنسية والمّوّعة من طرف باش حامية ما يثبت ذلك: "لقد بدأ عمل فرنسا التّمديني يأتي أكله في تونس، فهناك جيل جديد تتقّف بالّلغة الفرنسية وانطبع بأفكارها الكريمة، بدأ اليوم يأخذ مكانه في التّجديد القائم..."⁶. ومع ذلك فإنّ الحركة استطاعت أن تخلق رأيا عاما تونسيا، وساهمت رغم صبغتها النّخبوية والبرجوازية بمجموعة من النّشاطات.

3-1-3- أهم نشاطات حركة الشّبّان التّونسيين:

¹ المحافظة، المرجع السابق، ص 111.

² الدقي، "الآباء المؤسّسون..."، المقال السابق، ص، 63. وكذلك: القصاب، المرجع السابق، ص 493.

³ الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص41. وكذلك: أحمد خالد، المرجع السابق، ص ص 22-24.

⁴ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية...، المرجع السابق، ص 142.

⁵ شارل أندري جوليّان، المعمرون الفرنسيون وحركة الشّبّان التّونسي، تعريب، محمد مزالي والبشير بن سلامة، الشّركة

الوطنية للتوزيع، تونس، (دت)، ص95.

⁶ الثّعالبي، المصدر السابق، ص10.

شاركت هذه الحركة في مؤتمر شمال إفريقيا المنعقد بباريس من 6 إلى 8 أكتوبر 1908 والذي ترأسه جوناك (Jonnart)¹ الحاكم العام للجزائر وهو من الدعاة الذين دعوا إلى التقارب مع العرب لفرنستهم، وسجل الشباب التونسي انتصارا فكريا في هذا المؤتمر إذ أكد فيه البشير صفر على عروبة تونس وأنها جزء من الوطن العربي الإسلامي، وطالب فيه خير الله بن مصطفى بضرورة تعريب التعليم وإنشاء مدارس ابتدائية على غرار المدارس السورية والمصرية.²

كما ساهمت بالرغم من عدم وجود تنظيم حقيقي لديها في بروز الجماهير الشعبية التونسية على الساحة السياسية قبيل الح.ع.1، فكانت وراء الصدمات التي جرت بمدينة تونس بين المسلمين وجهاز الحماية³، والتي شاركت فيها بصفة غير مباشرة فدعمت هذه الحركة إضراب طلبة الزيتونة مارس - أبريل 1910 ومطالبتهم بتحسين أوضاعهم وإصلاح التعليم عبر مسيرات وتجمعات في الشوارع وأمام قصر الحكومة⁴، كما احتجت الحركة سنة 1910 على إلحاق اليهود التونسيين بالمحاكم الفرنسية واعتبرته كخطوة أولى لتجنيس اليهود بالفرنسية، ودعت إلى مقاطعة اليهود اقتصاديا وأدبيا، وساندت وأيدت انتفاضة الزلاّج 7-8 نوفمبر 1911⁵ وانتفاضة التراموي 1912¹. وقد كان هذا العمل إيذانا بتحول النضال

¹ شارل جوناك (1857-1927): هو سياسي ودبلوماسي فرنسي، كان حاكما عاما للجزائر حوالي ثلاث مرات على التوالي (1900-1901)، (1903-1911)، (1918-1919)، وأصبح 1920 رئيسا للجمهورية الفرنسية، وقع في عهده حراك ثقافي بسبب تشجيعه لإحياء التراث العربي الإسلامي الجزائري الذي استفادت منه فرنسا بالدرجة الأولى. . أنظر: دهاش، المرجع السابق، ص 164.

² الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 41.

³ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية. . المرجع السابق، ص 142.

⁴ الزيدي، المقال السابق، ص 23.

⁵ الزلاّج: وهي مقبرة في ظاهر تونس الجنوبي الشرقي، اختلفت البلدية والأوقاف على ملكيتها، وطلب الأهالي على أن تبقى وفقا لأن فيها مقام "سيدي بالحسن" من القرن السادس الهجري، فلما جاء موظفو الكادستر لتحديد ما قامت مظاهرة عنيفة تغلبت على الشرطة، فتدخل الجيش وتفرق الأهالي بعد أن سقط من الجانبين حوالي عشرين قتيلًا، واستمرت المظاهرات بعد ذلك في المدينة وتحولت إلى معركة بين الطليان والعرب كانت حصيلتها تسعة قتلى من الفرنسيين وخمسة من الطليان وواحد وعشرين رجلا من الشرطة وحوالي ثلاثين تونسيا عدا الجرحى. من الطرفين، أنظر: الثعالبي، المصدر

الوطني إلى مرحلة المواجهة الفعلية، وبرز الجماهير الشعبية على الساحة السياسية، فكانت الصدمات الدائمة التي سقط فيها العديد من الشهداء محطة حاسمة في تاريخ الحركة الوطنية،² إذ تدرج فيها نشاط الحركة من عمل نخبوي يشمل أقلية من المثقفين إلى توجه متفاعل مع التحركات الشعبية.³

ولقد اهتمت هذه الجماعة كذلك بالأحداث التي وقعت في بلدان المغرب العربي وبأخبار المشرق العربي، ووقفت ناقدة لسياسة المولى عبد العزيز⁴ الموالية لدول الغرب في المغرب الأقصى، بعد أن كانت نبّهت بخطورة الاتفاق الودي الإنجليزي الفرنسي⁵ على مستقبل العرب.⁶

كما قام علي باش حامبة وبإلحاح من الثعالبى بإصدار جريدة (الاتحاد الإسلامي) والتي تولى الثعالبى نفسه تحريرها⁷ وذلك بهدف مؤازرة ليبيا في صراعها مع إيطاليا 1911

السابق، ص 13. وللمزيد من المعلومات أنظر، الجيلاني بن الحاج يحيى، محمد المرزوقي، معركة الزلّاج، ط2، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986.

¹ حادثة التراموي، وتتمثل في مقاطعة الأهالي للترام الكهربائي وذلك بسبب سلوكها العنصري البغيض فكانت لا تستخدم إلا الأجانب وحتى القلة من التونسيين الذين تستخدمهم كانوا يلاقون سوء المعاملة زيادة على أجورهم المنخفضة كثيرا بالنسبة للأجانب وانعدام فرص الترقية، وبلغ غضب التونسيين ذروته عندما دحس الترام طفلا صغيرا فارداه قتيلا، وتسببت مقاطعة التونسيين للترام إفلاس الشركة، مما جعل السلطات تتدخل لإيجاد حل للزمة، لكن عزوف الشركة عن تحقيق مطالب الحركة الوطنية جعل المقاطعة تستمر، مما دفع بالسلطة الاستعمارية إلى نفي زعماء الحركة محملة إياهم مسؤولية المقاطعة، للمزيد أنظر: الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 50.

² الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 42.

³ الشريف، المرجع السابق، ص 11.

⁴ المولى عبد العزيز (1878-1943): هو سلطان المغرب ال 18 من العلويين، حكم ما بين (1894-1908).

⁵ الاتفاق الودي: يطلق على مجموعة من الاتفاقيات التي وقعها كل من بريطانيا وفرنسا في 8 أبريل 1904 بعد تسوية عدد من النزاعات الاستعمارية التي كانت ناشبة بينهما وقتئذ، والسمة الأكثر أهمية في الاتفاق أنه منح بريطانيا حرية التصرف في مصر، كما منح لفرنسا حرية التصرف في المغرب شريطة أن يتيح ذلك التصرف سماحية معتبرة لصالح إسبانيا هناك.

⁶ جلال يحيى، المغرب الكبير، الفترة المعاصرة وحركات التحرير والاستقلال، 3 ج، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، 1966، ص 1071.

⁷ الثعالبى، المصدر السابق، ص 11.

وإذكاء موجة التضامن الشعبي العارمة التي انخرط فيها التونسيون لمعاودة الطرابلسيين بالمال والسلاح والعتاد.¹

3-1-4- موقف السلطة الاستعمارية من حركة الشبان التونسيين:

وكان من نتائج نشاط حركة الشبان التونسيين أن قرّر المقيم العام 13 مارس 1912 حل هاته الحركة² ونفي زعمائها (علي باش حامبة، الثعالبي، محمد نعمان إلى فرنسا والشادلي درغوث³ وصادق الزمرلي إلى تطوان وحسن القلاطي إلى الجزائر⁴ ومحمد باش حامبة، والبشير صفر)⁵ وإيقاف الصحف، ومن ثمة تبين وهم سياسة التشريك وكشر الاستعمار عن أنيابه ودخلت الحركة الوطنية في ركود وسبات طيلة الح. ع. 1.

واتّسمت هذه المرحلة بتوقف العمل السياسي الداخلي، وبحرص السلطة الاستعمارية على استئباب الأمن والتّصدي لبعض الاضطرابات في الجنوب التونسي.⁶

وبعد فشل سياسة التعاون غير الشبان التونسي سلوكهم اتّجاه المحمية، وظهر هذا التّغيير السياسي من خلال نشاط زعماء الحركة في المهجر، حيث قام علي باش حامبة بعد استقراره النهائي بالقسطنطينية وتقلّده خطة مستشار الحكومة العثمانية بإنشاء (لجنة تحرير المغرب العربي) في عام 1916 من أجل تنسيق نشاط الوطنيين في المهجر وتنظيم العمل لتحرير المغرب العربي بالسّلاح حسب ما أشارت إليه الوثائق الأرشيفية الألمانية⁷، ولئن لم

¹ الثعالبي، المصدر السابق، ص 11.

² الشريف، المرجع السابق، ص 11.

³ الشادلي درغوث: ولد بتونس عام 1862 من أصل تركي درس في الكتاب ثم تفرّغ للتجارة، وهو ممول مشاريع حركة الشبان التونسي، وكانت له مشاركة فعّالة في أحداث الزّلاّج والنّرام. أنظر اللولب، المرجع السابق، ص 95.

⁴ الثعالبي، المصدر السابق، ص 13.

⁵ ياغي، شاكر، المرجع السابق، ص 105.

⁶ اندلعت نيران الثورة في الجنوب بداية من 1915 شاركت فيها قبائل بني زيد تحت قيادة بطلها الحاج سعيد بن عبد اللطيف، ودامت سنتين، لكن تمكنت السلطات الاستعمارية من إخمادها. أنظر: البلهوان، المصدر السابق، ص 42.

⁷ Nouredine Sraieb, « Note sur les dirigeants politiques et syndicalistes tunisiens de 1920 à 1934 », *Revue de L'Occident musulman et de la Méditerranée*, N°9, 1971, p98. (https://www.persee.fr/doc/remmm-0035-1474-1971-num-9-1-1102)29-03-2019.

يتحقق حلمه فإنّه أقرّ مطلب استقلال المغرب الأقصى عند مشاركته إلى جانب محمد العنابي¹ من المغرب الأقصى وممثلين عن جميع البلدان الإسلامية المحتلة في المؤتمر الإسلامي المنعقد بستوكهولم سنة 1917.²

أمّا أخوه محمد باش حامبة فقد استقر بجنيف سنة 1916، وأصدر مجلة المغرب (La Revue du maghreb) الشهرية الناطقة بالفرنسية، وأثناء إدارته لهاته المجلة من (1916-1918) طالب باستقلال تونس والجزائر، وتولّى تنسيق أنشطة بعض الوطنيين المغاربة المقيمين في أوروبا، كما أنجز عدة مؤلفات دعائية باللّغة الفرنسية نذكر منها (العدلية الفرنسية) (جنيف 1917) و(الشعب الجزائري التونسي وفرنسا) (جنيف 1917) و(مناورة فرنسية: الإصلاحات الأخيرة بالجزائر) (جنيف 1918)، كما شارك في أشغال المؤتمر الثالث للقوميات المضطهدة المنعقد بلوزان بسويسرا من 27 إلى 29 جوان 1916 وعرض فيه مطالب مسلمي الجزائر وتونس.³

كما كلّف الشيخ صالح الشريف وهو من أبرز قادة الحركة الوطنية بالمهجر أثناء ح.ع.1. من طرف الحكومة العثمانية بالقيام بمهمة الاتّصال بأسرى الحرب المغاربة (تونسيون وجزائريون ومغاربة)، وتنظيمهم ضمن فرقة واحدة تزوّد بالسلاح والذخيرة وترسل عن طريق الغواصات إلى طرابلس، كما بادر بتكوين (لجنة استقلال تونس والجزائر) ببرلين للدّفاع عن قضايا الشعوب المغربية، ومن مؤلفاته وبالاشتراك مع اسماعيل الصّفايحي (برلين 1916).⁴ و(حجج دامغة حول وجوب خروج الفرنسيين من تونس)... إلخ، كما قدّم رفقة الشيخ اسماعيل الصّفايحي تقريراً إلى مؤتمر الصّالح المنعقد ببافيس للمطالبة بحق أهل

¹ محمد العنابي: من علماء القيروان ساءت العلاقات بينه وبين الشيخ شعيب الدكالي مما اضطره للهجرة إلى الحجاز 1913 منها إلى اسطنبول، له عدة مقالات منها "تخوفات فرنسا من نوايا ألمانيا تجاه المغرب". أنظر: دهاش، المرجع السابق، ص 196.

² الشريف، المرجع السابق، ص 12-14. وكذلك: ابن ميلاد ومسعود إدريس، المصدر السابق، ص 182-183.

³ عادل بن يوسف، "النضال المغربي المشترك ضد المستعمر الفرنسي: النشاط الطائفي التونسي-الجزائري بفرنسا (1927-1962)"، مجلة هيروودوت للعلوم الانسانية والاجتماعية، الجزائر، العدد العاشر، ص 23. / الردمك 2602-7038 (www.heodoteb.com)

⁴ الشريف، المرجع السابق، ص 12-14. وكذلك: ابن ميلاد ومسعود إدريس، المصدر السابق، ص 182-183.

المغرب العربي بالاستقلال، كما راسل في 2 جانفي 1919 الرئيس الأمريكي ولسن (Woodrow Wilson)¹ في الموضوع نفسه.²

وقد هيا هذا النضال للنخبة التونسية المستقرة بأوروبا منذ الح.ع.1. الطريق لمواصلة المشوار النضالي التونسي بعد الحرب.

3-2- الحزب الحر الدستوري التونسي (1919-1925):

3-2-1- ظروف وعوامل نشأة الحزب الحر الدستوري التونسي:

لقد أدت التحولات الناجمة عن الحرب العالمية الأولى والمتمثلة خاصة في تراجع القوى الاستعمارية التقليدية وبروز الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي كقوى جديدة على الساحة الدولية، وظهور مبادئ ولسن 14 سنة 1918 المتضمنة لحق الشعوب في تقرير مصيرها، وانتصار الثورة البلشفية والإعلان عن قيام الأممية الشيوعية الثالثة 1919 بالاتحاد السوفياتي ودعوتها إلى دعم حركات التحرر الوطنية بالمستعمرات تأثيرا بليغا في انتعاش الروح الوطنية وتوجيه حركة النضال الوطني في تونس.³

كما أن النخبة السياسية التونسية تأثرت كذلك بقانون الميثاق الأساسي الذي منحه إيطاليا لليبيين غرة جوان 1919 والذي يقضي بإنشاء برلمان طرابلسي منتخب بالاقتراع العام وحكومة الأغلبية الساحقة من أعضائها مسلمين (8 من 10)، واعتبره التونسيون بادرة نحو

¹ توماس وودرو ولسن: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الثامن والعشرون، ولد بولاية فرجينيا لعائلة ثرية ودرس الفلسفة والقانون والتاريخ في جامعتي كومبيا وبريستون، حصل على شهادة الدكتوراه في القانون عام 1879، عمل في مجال التدريس الجامعي، أصبح رئيس جامعة بريستون بين 1902 و 1910، حاكم لولاية نيو جيرسي بين 1910-1912، مرشح الحزب الديمقراطي، وأصبح رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية، ودخل البيت الأبيض 1913 حتى 1921، اشتهر بمبادئه الأربعة عشر، للمزيد أنظر: عبد العزيز سليمان وعبد المجيد نعنعي، تاريخ الولايات المتحدة الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، 1983، ص 159.

² عادل بن يوسف، المقال السابق، ص 24.

³ محمد لطفي الشايب، "الحزب الحر الدستوري التونسي (1920-1934)"، تونس عبر التاريخ، ج 3، المرجع السابق، ص 85.

تحقيق الاستقلال الداخلي¹، ومن ناحية أخرى فإنه كان لمبادرة سعد زغلول² الزعيم المصري والمتمثلة في تكوين حزب الوفد المصري للتعبير عن مطالب مصر أمام مؤتمر الصلح بباريس وطرح قضية الاستقلال عن الهيمنة البريطانية³ الأثر الكبير على الشيخ الثعالبي ورفاقه.

وكان للصدى الواسع الذي لاقته فكرة الجامعة الإسلامية في أوساط الشباب التونسي من ذوي التكوين الزيتوني والمعتنقين لتيار الجامعة الإسلامية انطلاقا من ألمانيا على وجه الخصوص تأثير على الرأي العام التونسي الذي كان يتابع تطورات الوضع بإستتبول بعد هزيمة الدولة العثمانية في ح.ع.1، وقد انتظمت مظاهرة أمام مقر الإقامة العامة احتجاجا على احتلال الجيوش الإنجليزية لإستتبول (10 مارس 1920) وهو ما غذى الشعور الوطني لدى التونسيين.⁴

وبالموازاة مع ذلك فقد اشتدت التناقضات بين التونسيين والقوى الاستعمارية التي واصلت سياستها التوسعية والتعسفية، فالوضع السيء الذي كان يسود البلاد التونسية نتيجة الهيمنة الاستعمارية التي صادرت الأراضي وأفلست الحرف وأرهقت السكان بالضرائب وكرّست التمييز بين الأهالي والفرنسيين كسّنها لقانون (الثلاث الاستعماري)⁵ سنة 1919،

¹ القصاب، المرجع السابق، ص 498.

² سعد زغلول (1857-1927): ولد بقرية كفر الشيخ بمصر، داعية وإمام مصري تولى العديد من الوظائف الإدارية والسياسية في مصر منها قاضي ووزير التربية والتعليم سنة 1906 ووزير للعدل سنة 1910، وتزعم الثورة المصرية ضد الإنجليز عام 1919، أنظر: الحسن الحسني المعدي، موسوعة أشهر الثوار في العالم، ط1، دار النهار، القاهرة، 2012، ص ص 160-163.

³ للمزيد من المعلومات أنظر: عبد الرحمان الزّافعي، في أعقاب الثورة المصرية، ثورة 1919، ج 1، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1407هـ/1987، ص 353.

⁴ الشّابي، "الحزب الحر الدستوري التونسي..."، المرجع السابق، ص 85.

⁵ قانون الثلاث الاستعماري 1919: وهو يتمثل في ترفيع أجور الموظفين الفرنسيين (12 ألف موظف سنة 1922) بنسبة 33 بالمائة، مما زاد في تعميق الفوارق مع نظرائهم التونسيين، والذين نددوا بهذه السياسة التمييزية. أنظر: نفسه، ص 86.

وأمر المقيم العام فلاندا¹ (Etienne Flandin) (1918-1920) وذلك خدمة للمصالح الفرنسية، وما تكبدته تونس من خسائر بشرية في الحرب²، و كل هذه الأمور دفعت إلى عودة نشاط الوطنيين التونسيين في العشرينات.³

3-2-2- نشأة الحزب الحر الدستوري وبرنامجهم:

في ظل التطورات المحلية والدولية والتي أفرزتها الحرب العالمية الأولى، بدأت تتبلور فكرة إنشاء حزب سياسي، ونضجت تدريجيا من الاجتماعات التي كانت تعقدها النخبة التونسية بالنوادي العديدة وكذلك بالمنازل والبيوت الخاصة، وقد تمحورت الأفكار الجينية الهامة في ذلك الوقت حول فكرة الاستقلال التي تحمس لها الشيخ الثعالبي وأنصاره، ورأي وسط يرى ضرورة وضع المطالب الوطنية في إطارها القانوني وضمن المعاهدات وهو رأي المحامين ومن زعمائهم أحمد الصافي⁴ ورفاقه، وتيار ثالث يرى تقديم المطالب السياسية على مراحل ومن أنصاره حسن قلاتي وصحبه.⁵

ومهما يكن من أمر فقد تقرر إحداث الحزب التونسي من سنة 1919، إذ قامت جماعة بإمضاء لائحة ذيها 500 وطني اقترحوا فيها تأسيس حزب⁶ بقيادة عبد العزيز

¹ أمر فلاندا: 8 ماي 1920، يدعو إلى ضمّ الأحياس لصالح المساحات الزراعية التي يتصرف فيها المستوطنون، وقد تزامن هذا الإجراء مع تدني أوضاع الفلاحين، مما أدى إلى تنظيم مظاهرة احتجاجية، عبرت عنها مظاهرة يوم 14 ماي 1920 أمام مقر الإقامة العامة. أنظر: نفسه، ص 85.

² ساهمت البلاد التونسية في الحرب بحوالي 80 ألف رجل، قتل منهم 10723 رجلا أي ما يعادل 13% من مجموع الجنود، كما بلغ عدد القتلى والجرحى 45 ألف تونسي أنظر: القصاب، المرجع السابق، ص 496. وكذلك ص 525.

³ الزيدي، المقال السابق، ص 23-24.

⁴ أحمد الصافي: ولد في 21 أوت 1882 بتونس، درس بالصادقية ثم سافر إلى فرنسا ودرس الحقوق حيث تحصل على الإجازة واشتغل محاميا وكان من بيب الأعضاء الناشطين في حركة الش التونسي وكتب عدة مقالات في الجرائد، وعين أمين عام الحزب الدستوري، وتوفي سنة 1935. أنظر، اللولب، المرجع السابق، ص 107.

⁵ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 220.

⁶ عبد الكريم عزيز، نضال شعب أبي، تونس 1881-1956، مركز النشر الجامعي، تونس، 2001، ص 179.

الثعالبي وأحمد الصافي وحسن قلاتي، ولم يكن حزبا بالمعنى المتعارف عليه بل كان تجمعا وطنيا غايته إجراء الإصلاحات في تونس.¹

وعند عقد مؤتمر الصّالح بباريس سافر الشّيخ الثّعالبي إلى فرنسا لمؤازرة جهود أحمد السّقا² هناك وعرض المطالب التونسيّة على الرّئيس الأمريكي ولسن والاستفادة من النّفس التّحرري الذي أحدثته مبادؤه³. وإن كان مؤتمر فرساي قد خيّب آمال الشّعوب في تلك المبادئ النظرية⁴ التي لم تقدم أي دولة أوربية على تنفيذها، فإنّ هذا لم يمنع الثّعالبي والسّقا في محاولة التعريف بالقضية التونسيّة في الأوساط السّياسية الفرنسيّة، ولدى الرّأي العام الفرنسي، فكسبت القضية تعاطفا واهتماما من قبل الاشتراكيين وعديد الجمعيات النّاشطة في فرنسا، إلا أنّ فشل الحزب الاشتراكي الفرنسي في انتخابات 1919 مثّل خيبة أمل للوفد التّونسي، فكتب الثّعالبي لرفاقه رسالة جاءت من باريس نوفمبر 1920 ورد فيها " إنّ حركة ولسن قد أخفقت وإنّ الآمال المبنية عليها قد انهارت...ولهذا لزم الاستعداد لكفاح طويل مرير...إنّّه لم يعد الآن في الإمكان المطالبة بإلغاء نظام الحماية، فذلك قول لا يسمع له اليوم أحد إنّما يجب أن نطالب بإعلان الدّستور التّونسي وأخذ زمام الحكم بأيدينا وإدارة بلادنا بأنفسنا وتكتفي فرنسا بالإشراف والحماية الخارجيّة كما هو منطوق ومفهوم معاهدة

¹ الثّعالبي، المصدر السابق، ص 14.

² أحمد السّقا:مناضل وطني تونسي، ولد 1891 بالمنستير، توفي 21 ديسمبر 1957، تحصّل على شهادة البكالوريا من معهد كارنو، ثم التحق بباريس ودخل كلية الحقوق ودرس بها حتى أحرز إجازة في الحقوق، ثمّ تحصّل على شهادة الدكتوراه في الحقوق 1916، مكث بباريس قرابة أربعين عاما مكنته من أن يطلع على دقائق مهنة المحاماة، وكان ناشطا سياسيا بفرنسا واتّصل بقيادة أحزاب اليسار الذين كانوا يرفعون شعارات مساندة لحق الشّعوب المضطّهة في تقرير مصيرها، وقد ساعد الثّعالبي في تأليف كتاب تونس الشهيدة، إذ كان الثّعالبي يقوم بإملاء المعلومات بالعربية، بينما يصوغها السّقا بالفرنسية، وأشرف السّقا على الشّعبة الدّستورية التّابعة للديوان السّياسي والموجودة بفرنسا.

³ الثّعالبي، المصدر السابق ، ص15.

⁴ مبادئ ولسن:إلغاء الدبلوماسية السّرية، حرية الملاحة أعالي البحار، تخفيف الحواجز الاقتصادية بين الأمم، تخفيف التسليح، تسوية حقوق الشّعوب، جلاء ألمانيا عن روسيا، سيادة بلجيكا، جلاء ألمانيا عن فرنسا، إعادة تخطيط حدود إيطاليا مع النمسا، منح شعوب النمسا -المجر الحكم الذاتي، الجلاء عن أراضي صربيا ورومانيا، و الجبل الأسود، الاستقلال الذاتي لشعوب الدولة العثمانية، استقلال بولندا، تكوين عصبة الأمم، أنظر:عبد العزيز سليمان وعبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص 183-184.

1881... يجب أن يتطور الحزب وينتظم ويجب أن يدعى (الحزب الحر الدستوري) ويجب أن يشمل كل الطبقات التونسية...¹

وبالتالي فإنّ مطالب الدستور تعد مرحلة جديدة في سياسة حركة (الشباب التونسي) التي كانت قبل الحرب تؤمن بسياسة المشاركة معتقدة في التعامل مع بعض العناصر الفرنسية الليبرالية والأقل تصلبا للوصول إلى تحقيق مطالبها، إلا أن الحرب ونتائجها أسفرت عن إفلاس تلك السياسة.²

ولقد كان لكتاب (تونس الشهيدة) للثعالبي والذي صدر 1920 الأثر العميق على الحركة الوطنية بما تضمّنه من تحليل لنظام الحماية وكشف تناقضاته وطرح لطموحات التونسيين في العدالة والمساواة وتطوير أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهو يغلب فكرة الدستور على فكرة الاستقلال، إذ طالب بالاستقلال الداخلي مع تغييب للسيادة الخارجية، أي أنّ المطالب تبقى في إطار الحماية وفي ظلّ السيادة الفرنسية، وصار الكتاب بمثابة القاعدة التي يستأنس عليها الحزب.

وتمّ إعداد مشروع القانون الأساسي للحزب والذي أرسله فرحات بن عياد إلى الثعالبي الذي أعاد صياغته وأقره،³ وبإيعاز من الثعالبي استقر الرأي على تسميته بالحزب الحر الدستوري التونسي، وفي 14 مارس 1920 عقد بتونس العاصمة أول اجتماع تأسيسي للحزب الحر الدستوري الذي رسم لنفسه أهدافا ترمي إلى تحرير البلاد والارتقاء بالشعب التونسي إلى مستوى الشعوب الأخرى فيتمتع بحريته المطلقة في كنف دستور يضمن له حكمه الذاتي وتسيير شؤونه بنفسه طبقا لمبادئ العدل المتبعة من الشعوب المتمدنة.

ولئن كان الهدف على المدى البعيد هو تحقيق الاستقلال فقد تضمّن برنامج الحزب المطالب الأساسية التالية:

¹ أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج1، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 207.

² أحمد خالد، المرجع السابق، ص 56.

³ ابن ميلاد ومسعود ادريس، المصدر السابق، ص-ص 198.

- 1- تأسيس مجلس استشاري يتكون من أعضاء تونسيين وفرنسيين منتخبين بالاقتراع العام، له السيادة الكاملة في وضع برنامج أعماله وله اختصاصات واسعة فيما يخص الميزانية.
- 2- تأسيس حكومة مسؤولة أمام هذا المجلس.
- 3- الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية.
- 4- دخول التونسيين في جميع الوظائف الإدارية بشرط أن تتوفر فيهم الضمانات الثقافية والأخلاقية المتوفرة في المترشحين الفرنسيين.
- 5- المساواة في أجور الموظفين ذوي القدرات المتساوية في الوظائف.
- 6- تنظيم بلديات منتخبة بالاقتراع العام في جميع أنحاء البلاد.
- 7- حرية الصحافة والاجتماع وتأسيس الجمعيات.
- 8- مشاركة التونسيين في شراء أسهم الأراضي الزراعية وأملاك الدولة.
- 9- التعليم الإجباري.¹

ولقد تمركز الحزب الحر الدستوري بالعاصمة وخاصة في أحيائها الشعبية وامتد إلى شمال البلاد والوطن القبلي وبعض المدن الساحلية، وقد حدّد الحزب كيفية تمويله رسمياً من خلال اشتراك كل عضو فيه بـ 12 فرنكا شهرياً، كما كان يقبل التبرعات.²

وكانت قيادته تتحدر من العائلات الكبيرة بالعاصمة³ وهي متأثرة بالثقافة العربية الإسلامية مع أنّ عدداً قليلاً منها تلقى دراسته بالجامعات الفرنسية، كما ترى بعض المراجع التاريخية بأن ثلثي المنخرطين بالحزب الحر الدستوري على مستوى هياكل التسيير المحلية والجهوية تتحدر من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة مثل الفلاحين والملاكين والتجار والحرفيين، كما حضى الحزب بمساندة طبقة الأعيان والبرجوازية الحضرية في حين بقي عدد

¹ يوسف مناصريه، الحزب الدستوري التونسي (1919-1934)، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1980، ص 58-59.

² نفسه، ص 65.

³ باستثناء أحمد السقا المولود بالمنستير في 1891، أما الآخرون فهم ينتسبون إلى عائلات مترقّية من العاصمة التونسية، وبعضهم من أصل جزائري: كالشيخ التّعالبي وحسن القلاّتي وحسين الجزيري، وبعضهم من أصل تركي كالصّادق الزّمرلي. أنظر: القصاب، المرجع السابق، ص 505.

الموظفين متواضعا وهناك من يُفقد ذلك ويشير إلى أن دفتر أسماء المنخرطين في الحزب الدستوري يثبت أن الأغلبية هي من الطبقة الشعبية الكادحة.¹

كما تذهب بعض المراجع إلى أن قيادة الحزب قد ساهمت خلال العشرينات في نشر الوعي الوطني، ومع ذلك فإنها "وبحكم تأثير أعضائه المنتمين إلى مهنة المحاماة (السقا، نعمان، فرحات، القلاّتي، الصّافي، الجميل) قد طبعت الحزب بخصائصه الأساسية والمتمثلة في نزعته إلى التمسك بالشكليات القانونية ومنح الثقة للطرق الدبلوماسية والالتجاء إلى المرافعات المقنعة المعززة بملف مهيب وتفضيل ذلك على العمل الجماهيري والمظاهرات العنيفة".² فكانت إذن تحترز من الطبقات الشعبية والالتحام بالجماهير ولا تحبذ العمل المباشر.

3-2-3- وسائل العمل السياسي للحزب:

كانت الصحافة هي الوسيلة الأولى التي اعتمد عليها الحزب في نشر أفكاره (ترسيخ مفاهيم الوطنية وسيادة الدستور) وكسب أنصاره إلى جانب الاجتماعات واللقاءات والمحاضرات والخطب الدينية في المجالس والنوادي، فساندت صحف كثيرة نشاطه ومبادئه وقامت بالدعاية له، إذ بعد قرار تحرير الصحافة التونسية في أول فيفري 1920، عادت الصحف القديمة للصدور كجريدة (الصّواب) و(المشير)³، و(مرشد الأمة) و(المنير)،⁴ وظهرت صحف أخرى جديدة والتي أسسها الحزب لتكون منابر له ونذكر منها: (النّديم) في 12 فيفري 1921 و(لسان الشعب) في 28 ديسمبر 1920 و(الوزير) في 5 أفريل 1920 و(الإتحاد) في 15 أوت 1920 و(العصر الجديد) في 21 ماي 1920، وقد بلغ عدد الصحف النّاطقة بالعربية ثلاثين عنوانا سنة 1921، وبالفرنسية نجد (صدى الصحافة) التي

¹ القصاب، المرجع السابق، ص 505.

² نفسه، ص 505.

³ المدني، المصدر السابق، ص 196.

⁴ والتي رجعت إلى الظهور بعد تعطيلها على إثر حوادث الجلاز 1911، بعد ترخيص وقتي وشرطي من المقيم العام فلاندا في ربيع 1920. أنظر: المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية...، المرجع السابق، ص 273.

أسسها الشيخ الثعالبي و(اللواء) و(الصوت التونسي)¹ وكذلك مجلة تسمى (الفجر) سنة 1920 وهي مجلة علمية أدبية فكرية غايتها جمع المال²، وكانت كلها باستثناء جريدة (الزهرة) تساند أطروحات الحزب الحر الدستوري.³

ولعل أهم المقالات التي أكدت على أهمية (الدستور) قد وردت بجريدة (الصواب)⁴ اللسان الرسمي للحزب حيث عرّف فيها محمد الجعايي الدستور قائلاً: "يسألونك عن الدستور قل هو ضمانات وكفالات تتألفها الأمم فتحميها من يد العدوان وتصورها من عبث الإطلاق وتجعل بينها وبين كل ظلم غشوم سدًا لا تفعل فيه معاول الجور والإرهاب، بل هو قانون أساسي يحدد سلطة الحكومة ويمثل نفوذ الأمة ويرسم ما لها وما عليها من الواجبات كما يقرر واجبات الملك وما هو مفروض عليه (...). ويكون قيما على إدارة الأمة حارسا للقانون حاميا للشرع العزيز...".⁵، فالدستور في روحه وفي مجموع نصوصه هو نظام يكفل للشعب حكم نفسه بنفسه، بإرادته وباختياره، ويكفل لأفراده تمتعهم بحقوقهم الشخصية والسياسية، فهو إذن مرادفا للديموقراطية.

كما اعتمد الحزب كذلك على سياسة إرسال الوفود لتقديم مطالبه، فتوجّه وفد الأربعين إلى الناصر باي (8 جوان 1920) برئاسة الصادق النيفر⁶ وذلك من أجل ضمان تأييده

¹ الشّريف، المرجع السابق، ص 16-17.

² المدني، المصدر السابق، ص 216.

³ كان مدير "الزهرة" عبد الرحمان الصندالي ملتزما الحياد، أنظر: المحجوبي، جذور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 273.

⁴ عطلت في 5 أفريل 1922 لنشرها مطالب محمد الناصر باي الثمانية عشر. أنظر: المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية...، المرجع السابق، ص 343.

⁵ محمد الجعايي، "الدستور، الصواب، 30 جويلية 1920.

⁶ محمد الصادق بن محمد الطاهر النيفر (1882-1938)، من عائلة علم بتونس، أخذ علومه من جامع الزيتونة على يد كبار شيوخها، سالم بوحاجب ومحمد النخلي. إلخ، تولى التدريس بجامع الزيتونة مدرسا من الطبقة الأولى، كما تولى الإمامة والخطابة في جامع باب بحر، عمل في الحزب الحر الدستوري، واشتغل قاضيا. أنظر، علي الرضا الحسيني، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر الحسين -21-، المرجع السابق، ص 13.

للقضية الوطنية ومساندته لمطالب الحزب والمتمثلة خاصة في مجلس تشريعي منتخب وحكومة مسؤولة أمامه وقد استجاب الباي وأعلن تضامنه مع شعبه.¹

كما اتّجه أول وفد إلى الحكومة الفرنسية (جوان - جويلية 1920)، والذي التحق بكل من الشيخ الثعالبي وأحمد السقا واللذين يقومان بباريس بحملة ضد سياسة فرنسا بالبلاد التونسية منذ جويلية 1919 وذلك بهدف إبراز التقاف مختلف شرائح المجتمع حول المطالب الوطنية، وأكد على ضرورة توقيع العرائض الموجهة إلى البرلمان الفرنسي مطالبا إيّاه بمنح دستور للبلاد، إلّا أنّ مساعي هذا الوفد قد فشلت²، وخصوصا فيما يتعلق بالمطلبين الأساسيين المجلس التشريعي والحكومة المسؤولة لديه، فتوجه وفد ثان إلى الحكومة الفرنسية في (22 ديسمبر 1920) يتركب من عناصر معتدلة لا تنتمي جميعها إلى الحزب الدستوري³، ووزع حال وصوله إلى باريس مذكرة ندّد فيها بالاستبداد بالبلاد التونسية والمطالبة بتمكينها من ضمانات دستورية على أساس برنامج الحزب الدستوري، وبالرغم من تقديم الوفد كل ضمانات الاعتدال وعدم الطّعن في الحماية الفرنسية على البلاد التونسية والاكتفاء فقط بطلب إصلاحات ضمن نظام الحماية، إلّا أنّ هذا الوفد فشل في إحراز نتائج تذكر، وإن كان نشاطه كلل بتغيير المقيم العام إتيان فلاندا بالمقيم العام لوسيان سان (Lucien Saint) في 24 نوفمبر 1920⁴ والذي فوّضت له وزارة الخارجية أمر تحديد طبيعة الإصلاحات اللازمة بتونس، إلّا أنّ إصلاحاته هذه كانت بعيدة عن منح ميثاق

¹ عزيز، المرجع السابق، ص 185. وكذلك: المدني، المصدر السابق، ص ص 216-220.

² المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية...، المرجع السابق، ص 255.

³ وكان يرأسه الطاهر بن عمار الذي كانت له علاقات طيبة مع الأوساط السياسية الفرنسية، كما رافق الوفد الثاني حسن القلاّتي وهو زعيم الشق المعتدل لحزب الدستور، ودوران انقليغال أحد القادة الرئيسيين للجامعة الاشتراكية بالبلاد التونسية، أنظر: المحجوبي، جذور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 263.

⁴ لوسيان سان: ولد بافرو 1867، واتجه بعد دراسات قانونية إلى مهنة المحاماة، ثم تقلد مهنة محافظ (أوب)، ثم محافظ (الايين)، وأصبح مقيما عاما على تونس في نوفمبر 1920، وحل بتونس يوم 21 جانفي 1921 وأدار هذه البلاد إلى غاية 1929، ونقل في نفس الخطة إلى المغرب، وفي 1937 عاد إلى فرنسا حيث انتخب شيخا، توفي 1938. ، أنظر: نفسه، ص 266.

⁵ القصاب، المرجع السابق، ص 508.

دستوري للتونسيين¹، ولذلك تواصل نشاط الوطنيين في الدّاخل وفي فرنسا لكسب الدّعم للقضية التونسية، وتمّ إرسال وفد ثالث (نوفمبر - ديسمبر 1924) على إثر ارتقاء أحزاب كتلة اليسار إلى الحكم محاولة منه لكسب دعم برلمان فرنسا وحكومتها والتخفيف من الآثار التي تركها كتاب (تونس الشّهيدة)، لكن رد رئيس الحكومة الفرنسية إدوارد هيريو (Edouard Herriot)² هو عدم مقابلة الوفد الدّستوري، والذي استقبل من طرف رئيس مجلس النواب ووزير المستعمرات، واللّذين أكّداً للدّستوريين عن عدم القيام بأيّة إصلاحات ما لم يكفّ الدّستوريون عن التّعامل مع الشّيعيين³، الأمر الذي دفع بالحزب الدّستوري إلى قطع صلته بجامعة (عموم العملة التونسية)⁴ التي أسّسها محمد علي

¹ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية. .، المرجع السابق، ص 266-267.

² إدوارد هريو (1872-1957) وهو محامي وسياسي فرنسي راديكالي من الجمهورية الثالثة، شغل منصب رئيس لبلدية ليون، ثم أصبح رئيس وزراء فرنسا، ولما استقالت وزارته انتخب رئيساً لمجلس النواب الفرنسي. أنظر: أشرف محمد عبد الرحمان مؤنس، "الشّيخ عبد العزيز الثّعالبي والنّخبة السّياسية والفكرية في مصر (1924-1931)م" صحيفة الشّورى أنموذجاً، المجلة التاريخية المصرية، المجلد 55، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، 2021، ص 33.

³ تكونت الحركة الشّيعية في تونس على إثر الانشقاق الذي حصل في فرع "الحزب الاشتراكي الموحد الفرنسي" في تونس، وبدفع من الحزب الشّيعي الفرنسي الذي تأسّس بدوره إثر الانقسام الذي وقع في مؤتمر تور ديسمبر 1920 لنفس الحزب، ويمكن اعتبار تاريخ 27 مارس 1921 تاريخ البعث الرّسمي للجامعة الشّيعية بتونس، وعقد المؤتمر التّأسيسي للفرع الفدرالي للأمية الشّيعية في تونس في 18 ديسمبر 1921 بخلق الوادي، وكانت مطالبه تمثل مصالح الطبقة العاملة، ومطامح الشّعب التّونسي في النّحر الوطني والاجتماعي، كما أنّه لم يضبط ماهية الدّولة التي يناضل من أجلها، فهو حزب إصلاح، وبعد ستة أشهر عن تأسيس الفرع الفدرالي صدر قرار حلّه، وتعرّض الشّيعيون لحملة قمعية واسعة في الفترة 1924-1925، وبشكل أكبر بعد صدور قرار 29 جانفي 1926، ومع ذلك فنشاط الشّيعيين لم يتوقف بتونس، للمزيد أنظر: الحبيب القزذغلي، تطور الحركة الشّيعية بتونس (1919-1943)، شهادة بحث معمق، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة تونس، السنة الجامعية 1987-1988، ص 62، وكذلك: محمد الكيلاني، الحركة الشّيعية في تونس، 1920-1985، مكتبة التقديمية، تونس، 1989، ص 22.

⁴ جامعة عموم العملة التّونسيين: والتي أنشأها محمد علي الحامي بعد عودته إلى تونس سنة 1924، حيث قام بفصل الحركة النقابية التونسية عن الجامعة الفرنسية للشّغل (C. G. T) بتأسيس جامعة عموم العملة التّونسيين والتي ضمّت في أول عهدها إلّا بعض نقابات منطقة بنزرت، ثمّ التحقت فيما بعد نقابات من العاصمة ومن داخل البلاد، وقد بدأت الجامعة عملها بتنظيم اضطرابات في ديسمبر 1924 وجانفي 1925 جمعت بين العملة الفلاحين بالوطن القبلي وعملة المعامل الصّناعية بالعاصمة وحمام الأنف، لكن ردود فعل إدارة الحماية كانت عنيفة فألقت القبض على زعماء الحركة العمالية وأحالتهم على المحاكم وفتتهم خارج الوطن يوم 28 نوفمبر 1925. أنظر: الطّاهر الحدّاد، العمال التّونسيون وظهور

الحامي¹ في 12 أكتوبر 1924 (بيان 21 فيفري 1925)، وقطع علاقته مع الشيوعيين ليصبح في صف المعتدلين الذي يضم الجامعة الاشتراكية² والحزب الإصلاحي، والأعضاء التونسيين في المجلس الكبير، لكن النتائج كانت عكسية إذ تمكنت السلطات الاستعمارية من استغلال عزلة الجامعة النقابية لضربها وإلقاء القبض على أبرز قادتها في 5 فيفري 1925، وفيهم خارج تونس في 28 نوفمبر 1925.³

3-2-4- موقف السلطات الاستعمارية من الحزب الدستوري:

الحركة النقابية، مطبعة العرب، تونس، 1927، ص ص 126-128. وأيضا، ص ص 182-188. وكذلك: القصاب، المرجع السابق، ص 524.

¹ محمد علي بن مختار الغفاري الحامي: ولد سنة 1894 بالحامة وتتلّمذ بكتاب القرية، ولما شبّ نزح إلى تونس، واشتغل في سوقها المركزية، وتمكن من الحصول على رخصة سياقة، فعمل على سياقة الضابط التركي أنور باشا من تونس إلى ليبيا، ثم أخذ أنور باشا معه إلى تركيا، ومنها انتقل إلى برلين، وتمكن فيها على الحصول على شهادة عليا في الاقتصاد فيفري 1924 من مدرسة العلوم والاقتصاد السياسي بألمانيا، وعاد إلى تونس 1924 وعمره 30 سنة، بادر بإنشاء جمعيات التعاون الاقتصادي وشركات استهلاكية صيف 1924، وبعدها عمل على تأسيس جامعة عموم العملة التونسيين بتزكية من الحزب الدستوري وبمساعدة بعض أعضائه (توفيق المدني، الطاهر الحداد)، لكن إدارة الحماية عملت على إيقافه وزملائه عن كل نشاط في 5 فيفري 1925 بتهمة التآمر على أمن الدولة، ثم نفي بعدها إلى خارج الوطن آخر نوفمبر من نفس السنة، فانتقل إلى مصر ومنها إلى جدة أين توفي على إثر حادث سيارة. للمزيد أنظر: عزيز، المرجع السابق، ص ص 193-194. وكذلك: الشريف، ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس، المرجع السابق، ص 123.

² لقد تمّ بعث الجامعة الاشتراكية في تونس 1908، ثمّ انضمت للفرع الفرنسي للأمية العمالية (S. F. I. O) سنة 1912، وناذت بتطبيق إصلاحات اجتماعية تحرّر الأهالي من سيطرة الأرستقراطية، وبتعميم التعليم، واستعادت الجامعة نشاطها بعد ح. ع. 1. بداية من 1919، وفي نفس الوقت تمّ بعث الشبيبة الاشتراكية، والتي كانت تضمّ بالخصوص تلاميذ السنوات النهائية بمعهد كارنو، ومنذ 10 أكتوبر 1920 تحوّل عناصر الشبيبة الاشتراكية إلى الأممية الشيوعية وأسّسوا لهم جريدة (المستقبل الاجتماعي)، أمّا بقية الأعضاء في الجامعة الاشتراكية فأسّسوا صحيفة (تونس الاشتراكية) الأسبوعية التي صدر أول عدد لها يوم 1 مارس 1921، ويديرها دوران انقليفيال. للمزيد أنظر: الحبيب القزدغلي، المرجع السابق، ص ص 20-22. وكذلك: ص 60.

³ تمّ إلقاء القبض على الأخوة محمد علي، المختار العياري، الرّفيق فندوي (ممثل الحزب الشيوعي في تونس)، بتهمة التآمر على أمن الدولة، وأبعد المدني عن تونس يوم 5 جوان 1925 بسبب عمله إلى جانب حركة العمال، وفي 12 نوفمبر من نفس السنة حكم على محمد الكبادي ومحمد الغنوشي وعلي القروي بخمسة أعوام سجن، وعلى محمد علي، المختار العياري، م فندوي بالإبعاد مدة عشر سنوات عن التراب الفرنسي ولواحقه، ونفذ الحكم عشية 28 نوفمبر 1925. للمزيد أنظر: لطفي الشايب، "الحزب الحر الدستوري..."، المرجع السابق، ص 93. وكذلك: المدني، المصدر السابق، ص 346. وكذلك: الطاهر الحداد، العمال التونسيون...، المصدر السابق، ص 188.

لقد كان موقف السلطات الاستعمارية الفرنسية وأمام النجاحات التي حققها الحزب الدستوري وخاصة في الخارج وخصوصا في فرنسا¹ انتهاج سياسة قمعية للحد من تأثيره وإشعاعه، فاتهمت القادة الدستوريين بالتآمر ضد أمن الدولة وزجت بالثعالبي في السجن سنة 1920²، وأوقفت موظفين دستوريين عن العمل واتخذت إجراءات صارمة للحد من حرية الصحافة، وبالموازاة مع ذلك عملت على زرع الانشقاق داخل الحزب فظهرت مجموعة³ يتزعمها حسن القلاّتي هذا الأخير الذي نشر مقالا في جريدة (تونس الاشتراكية) هاجم فيه كتاب (تونس الشهيدة) ونحى عليه باللائمة أنه أزعج الرأي العام الفرنسي.⁴ كما عمل على تأسيس ما سمي بالحزب الإصلاحي في 16 أبريل 1921⁵ والذي كان يطالب فيه بالالتزام بنصوص الحماية، ومنح التونسيين إصلاحات في إطارها وربط تونس بفرنسا ربطا

¹ صدرت في 10 جويلية 1921 فتوى ذات أهمية كبرى في الموضوع من طرف "جوزيف بارتملي" أستاذ القانون الدستوري في جامعة باريس، باتفاق مع "أندري فايس" أستاذ القانون الدولي العام في نفس الجامعة وكاهية رئيس المحكمة الدولية بلاهاي، أثبت هذان الأستاذان أن انتصاب الحماية ليس من شأنه تغيير النظام الدستوري في البلاد التونسية، إذ تحترم الحماية سيادة الملك الداخلية على الصورة التي تجدها عليه يوم انتصابها، كما أقر "بارتملي" بأن نظام الحماية يتفق في طبيعته وروحه مع النظام الدستوري، وأن من حق الباي إجراء محادثات مع الحكومة الفرنسية ترمي إلى رفاهية شعب ما يزال مسؤولا عنه ". ثم يقول بأن ليس هناك تناقض مبدئي بين وجود حريات سياسية في البلاد المحمية وبين نظام الحماية. أنظر: جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، المصدر السابق، ص 91-92.

² في 21 جويلية 1920 أوقف الثعالبي بباريس في سجن "شيرش ميدي"، ثم نقل في 22 أوت الموالي إلى السجن المدني بتونس، ثم أطلق سراحه بعد أن استفاد من قانون العفو التشريعي العام الصادر 29 أبريل 1921، وأطلق سراح الثعالبي في 1 ماي 1921، ووقع الإعلان عن قرار إنهاء التتبعات ضد الثعالبي وشركائه (محمد الرياحي وصالح بن يحيى) 18 جوان 1921. أنظر: المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية...، المرجع السابق، ص 290. وكذلك: القصاب، المرجع السابق، ص 509.

³ محمد نعمان، البشير عكاشة، حسونة العياشي، والوكيلان أحمد بنيس، الشيخ محمد بورقيبة، الضابط في الجيش الملكي رشيد حيدر، والصادق الزمرلي، والتاجر الطاهر المهيري، والوجيه محمد محسن، والصحفي الشاذلي القسطللي. أنظر: القصاب، المرجع السابق، ص ص 512-513.

⁴ الثعالبي، المصدر السابق، ص 20.

⁵ لم يكن يحظى بشعبية كبيرة لأنه كان يسير في اتجاه معاكس للرأي العام، وفي شهر مارس 1922، اعترف لوسيان سان نفسه بأن الحزب الإصلاحي بقيادة القلاّتي قد انهيار تقريبا. أنظر: المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية...، المرجع السابق، ص 300.

كليا¹، أي الرجوع إلى سياسة التشريك التي نادى بها الشباب التونسي قبل الحرب،² كما قام بإصدار جريدة (البرهان) والتي أصدر مكانها بعد عدة أشهر جريدة (النّهضة)³، فاتخذها الحزب كوسيلة للهجوم على الثّعالبي وحزبه،⁴ ولم يكن خافيا أنّ المساندة التي كان يلقاها هذا التيار من المقيم العام لوسيان سان كانت تهدف إلى إحداث شقاق داخل الحزب ولا يمكن أن يكون هذا إلا في صالح السياسة الفرنسية.⁵

كما أنّ أزمة أفريل 1922⁶ زادت من الضغط على الحزب وعلى الدّستوريين وعزلهم، وتراوحت السياسة الاستعمارية بين منح بعض الإصلاحات وزيادة التّشدد في ارتباط تونس وشمال إفريقيا بفرنسا إلى الأبد كما جاء على لسان الرئيس الفرنسي الكسندر

¹ للنظر في مطالب الحزب ارجع إلى: حسن قلاتي، "برنامجنا"، البرهان، يوم الاثنين، 9 سبتمبر 1921، ع1، السنة 1.

² المحجوبي، جذور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 299.

³ النّهضة: وهي جريدة سياسية إخبارية، صدرت في تونس منذ 1 أكتوبر 1923، وصاحبها هو الشاذلي القسطلبي، ورئيس تحريرها الأستاذ البكار العروسي. أنظر، علي الرضا الحسيني، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر الحسين - 21-، المرجع السابق، ص 70.

⁴ شاكر، المرجع السابق، ص 134.

⁵ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية. .، المرجع السابق، ص 299.

⁶ ونتجت هذه الأزمة عن مساندة الباي محمد الناصر لمطالب الشعب وهدد بالتخلي عن العرش إذ لم تنفذ مطالب الشعب، الاستقلال الذاتي و"الدستور"، فكان جواب المقيم العام محاصرة القصر الملكي بقوات كبيرة من الجيش يوم 5 أفريل 1922، فثار الشعب وعمّت المظاهرات وسارت عشرات الألوف (خمسين ألف رجل) من الجماهير مشيا على الأقدام من العاصمة تونس إلى المرسى حيث القصر الملكي (على طول 18 كم) تأييدا لملكها، فلجأ المقيم إلى المراوغة ووعد الملك وعدا صريحا بإرضاء الرغبات الوطنية ما بعد زيارة رئيس الجمهورية ميليران لتونس. وبعد أن تمّت الزيارة نكت المقيم العام لوسيان سان عهده وأصدر الأوامر الاستثنائية لتعطيل الحريات العامة ومصادرة الصحف ومنع الاجتماعات العامة، وتوفي الملك بعد هذه الأحداث مباشرة ففقدت الحركة الوطنية أكبر عضد لها. أنظر: البلهوان، المصدر السابق، ص 45. وكذلك: المدني، المصدر السابق، ص 298-312. وكذلك:، ماسآة عرش، سلسلة من الحقائق التاريخية والوثائق السياسية، يقدمها مكتب استعلامات اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، ص 24-25.

ميلران¹ (Alexanddre Millerand) أثناء زيارته إلى تونس² في الفترة الممتدة من 27 أبريل إلى 6 ماي 1922.³

وعليه فإن فشل إصلاحات 1922 في تحقيق مطالب الدستوريين، كما أن فقدانهم لمساندة الباي الجديد محمد الحبيب منذ أن وقع على إصلاحات 1922 ورفض مقابلة الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وكذلك انسلاخ العضو الناشط فرحات بن عياد⁴ عن الحزب وخطه المتصلب وتأسيسه (الحزب الدستوري المستقل) والذي ساندته كل من الشاذلي المورالي مدير جريدة (المنير) والطيب بن عيسى مدير جريدة (الوزير) وأحمد الجزيري مدير جريدة (المشير) وانسلاخ عناصر أخرى عديدة عن الحزب⁵ (كمحمد شنيق⁶، الطاهر بن عمار⁷،

¹ الكسندر ميليران ولد في 10 فيفري 1859 سياسي فرنسي، درس بكلية الحقوق بباريس، شغل منصب رئيس وزراء فرنسا من 20 يناير حتى 23 سبتمبر 1920 ورئيس فرنسا من 23 سبتمبر 1920 حتى 11 جوان 1924. ، وتوفي في 6 أبريل 1943 بفرساي.

² المدني، المصدر السابق، ص 311.

³ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 317.

⁴ فرحات بن عياد كان ممثلاً للحزب الحر الدستوري التونسي في العاصمة الفرنسية، ثم انشق عنه وأسس الحزب الحر الدستوري المستقل في نوفمبر 1922، وانطفاً حزبه بعد تعيينه في منصب كاهية صاحب الطابع في الحكومة التونسية سنة 1924.

⁵ محمد شنيق، الطاهر بن عمار، الطاهر التوكابري، والجيلاني بن رمضان وغيرهم من كبار الدستوريين، أعلنوا انضمامهم في ديسمبر 1922 إلى "القسم الأهلي" من المجلس الكبير، أما الصادق النيفر عُيّن في منصب قضاء العاصمة. أنظر: نفسه، ص 343. وكذلك: المدني، المصدر السابق، ص 328.

⁶ محمد شنيق (1889-1976): ولد في ماي سنة 1889، درس بالمعهد الصادقي، كما حصل من الخلدونية على شهادة في المحاسبات التجارية، عين مدير شركة: الاتحاد التجاري عام 1906، استطاع شغل رئيس للحجرة التجارية الأهلية للشمال بين 1920 و1948، كما عين رئيساً لبنك التعاضد الدولي الذي أسسته السلطات الفرنسية عام 1922، وبقي في هذا المنصب حتى عام 1933، ترأس كذلك القسم التونسي للمجلس الكبير بين 1922 و1934، وأسس عام 1938 الجامعة العامة للنقابات التجارية والصناعية التونسية، عين وزيراً أولاً مرتين، الأولى في عهد المنصف باي سنة 1943 والثانية في الفترة بين 1950 و1952، أبعدته المقيم العام دي هوتكلوك إلى قبلي بسبب نشاطه السياسي، بعد الاستقلال انسحب من الحياة السياسية حتى وفاته في 20 نوفمبر 1976، للمزيد أنظر التيمومي، المرجع السابق، ص 47-48.

⁷ الطاهر بن عمار (1889-1985): ولد بتونس، لعب أدواراً سياسية في الفترة ما بين 1956-1991، كان ضمن وفد الدستور سنة 1921 الذي رفع مطالب التونسيين للسلطات الفرنسية، ترأس الوزارة الأولى التي قادت المفاوضات مع فرنسا جوان 1955، والتي ستشهد لإعلان الاستقلال في 20 مارس 1956. أنظر: عقيب، المرجع السابق، ص 72.

الطاهر التوكابري، الجيلاني بن رمضان والشيخ الصادق النيفر) إثر الإغراءات الناتجة عن إصلاحات جويلية 1922، وكذلك انفصال محمد الجعايي عن الرّعيم الدّستوري عبد العزيز الثّعالبي حرم الحزب من خدماته الصّحفية الجليّة وذلك لما يحظى به من قوة تأثير وثقة بين الجماهير الشّعبية.¹

يضاف إلى ذلك هجرة الشّيخ الثّعالبي إلى المشرق عبر إيطاليا في 26 جويلية 1923، كلّها أمور أدّت إلى تقلص نشاط الحزب وركوده،² فانخفض عدد منخرطي الحزب من 100 ألف منخرط أواخر سنة 1922 إلى حوالي 30 ألف منخرط سنة 1923، ثم ارتفع العدد إلى 45 ألف سنة 1924 ويرجع ذلك إلى استغلال الوطنيين التونسيين مشروع قانون التّجنيس الصادر في 20 ديسمبر 1923 في التّعبئة الشّعبية لمناهضة نظام الحماية³، وقد أيّدت مواقفه خمس صحف وهي (الأمة، المرشد، جججوح، النّديم والعصر الجديد)⁴، وتواصل نشاط الحزب إلى غاية فشل الوفد الثّالث إلى باريس من تحقيق مطالبه لدى حكومة هيريو أواخر 1924، كما أنّ موقف الحزب من جامعة (عموم العملة التونسية) الجامعة النقابية الفتية والتي تسببت في مجموعة من المظاهرات والاعتصامات عبر تونس من ديسمبر 1924 إلى جانفي 1925 أفقده قسم هام من العمال التونسيين، ورغم نشاطه البارز على إثر نصب تمثال الكاردينال لافيغري 1925 هذا الحدث الذي عكّر الجو السّياسي وأدّى إلى ظهور ردود أفعال عنيفة من قبل إدارة الحماية نتج عنها ركود الحركة الوطنية التونسية.⁵

خلاصة:

¹ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية. . المرجع السابق، ص 345.

² الشايب، "الحزب الحر الدستوري..."، تونس عبر التاريخ، ج 3، المرجع السابق، ص 91.

³ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 369.

⁴ نفسه، ص 273.

⁵ أحمد خالد، المرجع السابق، ص 63.

يبدو أنّ معاهدة باردو واتفاقية المرسى قد سلّبت تونس استقلالها وفرضت عليها الحماية الفرنسية، وأنّ فرنسا سارت في سياستها الاستعمارية في تونس وفق خطة منظمة صريحة أساسها أن يبقى الحكم بيد الفرنسيين، وأنّ نهياً البلاد لخدمة فرنسا وحدها، كما ساعد نظام الحماية على وضع تونس بأكملها تحت سيطرة واستغلال الجالية الفرنسية، لكن تطوّر الأوضاع في تونس أظهر جماعة من القادة تربّى عدد منهم في المدارس الفرنسية، تمكّنوا من تأسيس أول حركة مطلبية أهلية ذات أبعاد سياسية وثقافية أمام إدارة الحماية تمثلت في حركة الشّباب التونسي (1907-1912) والتي لم تدرج مطلب الاستقلال في برنامجها بل دعت إلى مشاركة التونسيين في حكم بلادهم وتوسيع مجال العمل أمام العناصر الوطنية ومشاركتها في أداء شؤون البلاد.

ولكن سياسة التّشريك هذه فشلت، وتعرّضت التجربة الأولى للعمل السّياسي إلى مصادمة عنيفة من قبل سلطات الحماية، ومع ذلك فإنّها هيأت عن طريق بلورة مفاهيم جديدة للأمة والوطن والشّعب للعمل الوطني المنظم والذي كانت ح.ع.1. من أهم عوامل تفجيرها، فكان ميلاد الحزب الحر الدّستوري سنة 1920 إثر حدثين هامّين على المستوى الدّولي وهما: مبادئ ولسن التّحررية وأبعاد الثّورة البلشفية في المستعمرات، ولئن لم يجهر هذا الحزب بمطلب الاستقلال لأسباب تكتيكية إلا أنّ هدفه الأسمى تحرّري، إذ قدّم فكرة الدّستور أي تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم على الاستقلال وإخراج الفرنسيين من البلاد، ومع ذلك لاقى هذا العمل نفس المصير ونفس موقف الحكومة والمتمثل أساساً في التّضييق على الحريّات ومنع التّنظيمات والتّجمعات بسن القوانين الرّجزية والمتناهية في الجور.

الفصل الثاني: المؤتمر الأفخارستي الدولي بقرطاج 1930 والمواقف

المتعددة منه

1- ظروف انعقاد المؤتمر الأفخارستي

1-1- الظروف الداخلية (المحلية)

1-1-1- فشل إصلاحات 1922

1-1-2- القوانين الجزرية سنة 1926 وتراجع نشاط الحركة الوطنية

1-1-3- ظهور فئة من المجددين

1-1-4- النشاط الجمعياتي

1-1-5- تنامي الوازع الديني والوعي بالهوية

1-1-5-1- قانون التجنيس 20 ديسمبر 1923

1-1-5-2- الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد الكاردينال لا فيجري نوفمبر 1925

1-1-5-3- انتشار أفكار حول تحرير المرأة

1-1-6- الأزمة الاقتصادية والاجتماعية مطلع الثلاثينات

1-2- ظروف دولية خارجية

1-2-1- تواصل المد الاستعماري والحركة التنصيرية إزاء البلاد العربية والإسلامية بعد الح.ع.1

1-2-2- إفرازات الحرب العالمية الأولى

1-2-3- تصاعد المد الفاشي وتوتر العلاقات بين فرنسا وإيطاليا

1-2-4- استقلال الفاتيكان 1929

2- إنعقاد المؤتمر الأفخارستي 1930

1-2- التعريف بالأفخارستيا والمؤتمر الأفخارستي

1-1-2- الأفخارستيا

1-2-2- المؤتمر الأفخارستي

1-2-2- دوافع وعوامل اختيار قرطاج لعقد المؤتمر الأفخارستي الدولي الثلاثين

1-2-3- الاستعدادات لمؤتمر قرطاج الدولي

1-2-4- أحداث المؤتمر ومجرياته

3- المواقف المتعددة من المؤتمر الأفخارستي

1-3- الموقف الفرنسي

1-1-3- الموقف المؤيد

1-1-2- الموقف المعارض

1-2-3- موقف ف التونسيين

3-2-1 - عموم التونسيين

3-2-2 - الوطنيون

3-2-3 - الطلبة التونسيين

3-2-1-1 - في تونس

3-2-3-2 - الطلبة التونسيين بفرنسا

3-3 - موقف اليهود

3-4 - المواقف الدولية من المؤتمر الأفخارستي

3-4-1 - موقف الطلبة الجزائريين والمغاربة بفرنسا

3-4-2 - الموقف المصري

3-4-3 - الموقف الإيطالي

المؤتمر الأفخارستي الدّولي بقرطاج 1930 والمواقف المتعدّدة منه

في إطار تواصل السّياسة الاستعمارية بتونس وافقت السّلطة الفرنسيّة على تنظيم المؤتمر الأفخارستي المسيحي الكاثوليكي بها في الفترة الممتدة من 7 الى 11 ماي سنة 1930، ففي ما يتمثل هذا المؤتمر؟ وماهي ظروف وعوامل انعقاده؟ وما دوافع فرنسا لقبولها عقد تظاهرة كاثوليكية في محمية إسلامية؟ وكيف كانت ردود الأفعال من هذا المؤتمر؟

1- ظروف انعقاد المؤتمر الأفخارستي:

إنّ انعقاد المؤتمر الأفخارستي لم يكن صدفة أو مناسبة عابرة بل كان محورا رئيسيا في رؤى الاستعمار الفرنسي وتوجّهاته السّياسية، وضمن سياق عالمي وظروف دولية كانت وراء انعقاده وإثرائه، كما أنّ الأوضاع السّياسية والاقتصادية والاجتماعية المحلية السّائدة آنذاك بتونس أثّرت وبشكل جلي على موقف التّونسيين وردود أفعالهم من المؤتمر، ممّا جعل له انعكاسات وتداعيات دينية وسياسية على المستوى القريب والبعيد.

1-1- الظروف الدّاخلية (المحلية):

1-1-1- فشل إصلاحات 1922:

لم تضع إصلاحات اللّوسيان سان حدّا للأزمة السّياسية بتونس، فهي لم تُرض الحزب الدّستوري الذي بقيت مطالبه حبر على ورق، وقد وُجّهت أقسى الانتقادات إلى المجلس الكبير الذي تُمثّل فيه الجالية الفرنسية التي تُعدّ 71 ألف نسمة ب 44 نائبا، بينما السّكان التّونسيون والذين بلغ عددهم 2.1 مليون نسمة لا يمثلهم سوى 18 نائبا بالقسم الأهلي، ومن

¹ هي الإصلاحات التي أمر الملك الجديد محمد الحبيب بنشرها وتنفيذها كشرط أساسي لتوليّه الملك، وهي تتمثل في: مجالس القيادات "المحافظات والولايات" وهي مجالس منتخبة التّونسيين خاصة، تعطي رأيها للحكومة فيما يتعلق بالمسائل المالية الخاصة بالناحية، وهي استشارية محضة، وكذلك مجالس الجهات، وهي مؤلفة من تونسيين وفرنسيين، منتخبين تنظر في الأمور المالية التي تخصّ "مجموعة من الولايات، وكذلك المجلس الكبير وهو النقطة الأساسيّة في هذه الإصلاحات. له الحق في النظر في الميزانية التّونسية كما تعرضها الحكومة، وليس له حق الابتكار في الموضوع، فهو يكتفي بالمناقشة فقط. للمزيد أنظر: المدني، المصدر السابق، ص 324-325.

بين جملة النّواب التّونسيين نجد 10 تنتخبهم مجالس الجهات، أما الباقيين فيتم تعيينهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة من طرف السّلطة،¹ وبالرّغم من ترفيع عدده إلى 28 تونسيا سنة 1928. إلا أنّه بقي يعمل حسب الصّورة التي رسمها قرار 1922²، لا روح له ولا تُسند إليه السّلطة أي جزء من الصلاحيات التّشريعية.³

1-1-2- القوانين الزّجرية سنة 1926 وتراجع نشاط الحركة الوطنية:

جاء في تقرير أمني فرنسي مؤرخ في 30-11-1928 (نقلا عن الذّوايدي) والذي رصد تحرّكات ونشاطات الحركة الوطنية التّونسية وتحديدًا الحزب الدّستوري ما يلي: "في حقيقة الأمر، إنّ الحزب الدّستوري لم يعد موجودا، فهو مبعثر يتآكل داخليا ومنعدم الامكانيات المالية، وعمله يكاد يكون منعدما..."، إذ أنّه بعد مغادرة الشّيخ الثّعالبي البلاد التّونسية (جويلية 1923) وفشل التّجارب النّضالية خلال الفترة الممتدة 1922-1924 والخيبة التي أصابت الوطنيين من سياسة كتلة اليسار التي حكمت فرنسا 1924، وتفكيك انطلاقة العمل النّقابي التّونسي المستقل على يدي محمد علي الحامي 1925، جاء المقيم العام سان لوسيان بحكم إدارة استبدادي (أوامر 29 جانفي 1926)⁴ خنق من خلاله كل إمكانية للعمل النّضالي والإعلامي والسّياسي للحركة الوطنية، فعلى الصّعيد السّياسي انزوى المناضلون عن أنفسهم، وعُلّقت كل النّشاطات السّياسية والنّقابية والاحتجاجات الجماهيرية.⁵

فالحزب الدّستوري والذي آلت قيادته بعد مغادرة الثّعالبي إلى أحمد الصافي (رئيس) وصالح فرحات⁶ (كاتب عام)، وبرزت في صلبه وجوه جديدة من الرّموز الوطنية كمصطفى

¹ القصّاب، المرجع السابق، ص 520.

² إلى غاية تعديله سبتمبر 1945، حيث تمّ إدخال مبدأ المساواة العددية بين أعضاء القسم التّونسي وأعضاء القسم الفرنسي. أنظر: الدقي، "تنظيم الحكم"، المرجع السابق، ص 29.

³ القصّاب، المرجع السابق، ص 520.

⁴ زهير الذوايدي، تحولات العمل الوطني التونسي في السنوات الثلاثين 1929-1939، الطليعة للنشر، ص ص 7-8.

⁵ الشابيبي، "الحزب الحر الدستوري".، المرجع السابق، ص 93.

⁶ صالح فرحات (1890-1977) درس الحقوق وامتحن المحاماة، من الوجوه الدّستورية البارزة، كان على رأس اللّجنة التّنفيدية للحزب الدّستوري القديم في الأربعينات من القرن العشرين. أنظر: عقيب، المرجع السابق، ص 32.

الكعّاك (رئيس الخلدونية) والشاذلي خزندار¹ وزين العابدين السنوسي² دخل في مرحلة تراجع، وحتى وإن بقي يمثل الإطار الأصلي للحركة الوطنية فإنّه صار في نهاية العشرينات هيكلا هرما وهشا لا تقضي مقالاته ولا جلساته حاجة المجتمع الطّامح إلى تغيير كلّ للحالة التي عليها البلاد.³

وقد أرجع المحجوبي هذا الرّكود والفتور في الحركة الوطنية إلى الازدهار الاقتصادي الذي شهدته البلاد خلال سنوات 1926-1929، إذ أنّ الرّخاء في الميدان الزراعي والامتيازات التي منحها المقيم العام لبعض القادة الدّستوريين قد كانت سببا في التّخفيف من حدة المطالب الدّستورية.⁴

¹ محمد الشاذلي خزندار (1881-1954): ولد في ضواحي العاصمة تونس، نظم الشعر في سن مبكرة واشتغل في قصر الناصر باي كضابط في الحرس الملكي إلا أن الأمر لم يطل به في مهنته إذ اعتقل وزج به في سجن البارود نظرا لمواقفه الصريحة، مارس النشاط الصحفي فترأس تحرير جريدة الأمة (ظهرت عام 1920) يعد أحد أعضاء الحزب الدستوري القديم، كان يمضي مقالاته باسم مستعار "أبي فراس" يعتبر من الشعراء القوميين والمناضلين في المغرب العربي، لقب بأمر الشعراء زار الجزائر عام 1928 وجاب العديد من مدنها. للمزيد أنظر: محمد العياري، محمد الشاذلي خزندار أمير شعراء الخضراء، تونس، 1975.

² زين العابدين السنوسي (1898-1966) وهو الابن الأصغر للشّيخ محمد السنوسي، مات أبوه وهو صغير فتربى يتيما، درس بالزيتونة التي لم يتحصل منها على شهادة وغادره سنة 1920، أسس مطبعة العرب وتمكّن بفضل ذلك من طباعة مجلة "العالم الأدبي" التي ساهم في تحريرها، علاوة على إصدار العديد من الكتب والنشرية التي ألفها بعض الكتّاب التّونسيين، له عدة آثار أدبية وشعرية أشهرها "الأدب التونسي في القرن الرابع عشر". للمزيد أنظر الزمرلي: المصدر السابق، ص 341-344.

³ الذواودي، تحولات العمل الوطني التونسي...، المرجع السابق، ص 7-8.

⁴ تزايد الإنتاج الفلاحي في العشرينات فسجّل نمو الحبوب بالنسبة لفترة 1920-1925 نموّا هاما، فالمعدل السنوي لإنتاج القمح بين 1920-1925 كان حوالي 2 مليون قنطار ثم ارتفع إلى حوالي 3. 2 مليون قنطار خلال سنوات 1926-1929، وارتفع إنتاج الشّعير لنفس الفترات من 1. 3 مليون ق إلى 2 م ق ونفس الأمر بالنسبة لزيت الزيتون الذي مر من 299 ألف ق إلى 415 ألف ق (هذه الاحصاءات لم تعبر على الواقع التّونسي بأكمله لأن زيادة الإنتاج لم تمس الجنوب. -ارتفع عدد السّكان التّونسيين المسلمين 1. 864908 ساكنا سنة 1926 إلى 2. 086762 ساكنا سنة 1931 ولم يشهد السكان التّونسيين حتّى 1930 أزمت معاشية مع ما ينجر عنها من مجاعة وسوء تغذية، ولم يفض النّمو الديمغرافي الذي شهدته البلاد من 1926 إلى 1929 إلى تدهور الأحوال المعيشية للأهالي. ' للمزيد أنظر: المحجوبي، جذور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 476-477، وكذلك، ص 491-492.

وأما أحمد القصاب فقد رأى بعدم خمود الحركة الدّستورية في أواخر العشرينات وكل ما في الأمر أنّ هناك نوع من التّراجع التّكتيكي لنشاط الحزب، والدّليل على ذلك أنّه يلاحظ في تلك الفترة تكاثر الشّعب الدّستورية داخل الإيالة واتّساع نطاق الحركة النّقابية وصدور عدة صحف باللّغة العربيّة واللّغة الفرنسيّة رغم أوامر المقيم العام، كما ظهرت للوجود عدة جمعيات خيرية وتمثيلية وطنيّة تونسيّة صرفة.¹

وبرّر عدم ركود الحزب الدّستوري في تلك الفترة أكثر من مرة، ولعل أبرزها الرّسالة التي وجّهها أحمد الصافي إلى " المؤتمر العالمي للشّعوب المضطّهدة " المنعقد في بروكسل (10-14 فيفري 1927)، وقد جاء فيها بالخصوص ما يلي، "إنّ تونس المسّتغلّة بحدّة والواقعة دوما تحت نير الاستعمار، مازالت هي تونس الشّهيدة.. إنّنا نتأسف عن الماضي ونتألّم من الحاضر ولكن المستقبل سيكون أسوا إذا لم يواصل الشّعب التّونسي إلى أبعد حد الكفاح الذي يخوضه اليوم والذي هو سبيله الوحيد للنّجاة..²

أما على الصّعيد الصّحفي فزيادة على الإجراءات التي تعطلّت بموجبها عدة جرائد سنة 1924 مثل جريدة (العصر الجديد) و(الاتحاد) و(Le Libéral) فإنّ صدور الصّحف أصبح رهين قرار إداري³، ونتيجة لهاته القيود المفروضة خاصّة على الصّحف العربيّة، فرأى الوطنيون أن يصدروا صحفهم باللّغة الفرنسيّة نظرا لتمتع هذا النّوع من الصّحافة بكافة الحريات.⁴

1-1-3- ظهور فئة من المجدّدين:

¹ القصاب، المرجع السابق، ص 530.

² نفسه، ص 531. وكذلك: ضيف الله، المرجع السابق، ص 51.

³ الشايب، "الحزب الحر الدستوري التونسي..."، المرجع السابق، ص 91.

⁴ ثامر، المصدر السابق، ص 76.

برز في تونس أواسط عشرينات القرن العشرين مجموعة من المثقفين والأدباء: عرفوا بـ"جماعة تحت السّور" (Essor)¹ وهي فئة من الشّباب المجدّدين²، رفضوا الأخلاق التقليدية وتحرّروا من كل تبعية اجتماعية، وكان أغلبهم ينحدر من المناطق الدّاخلية، وتمكّنوا من الوصول إلى مواقع مؤثّرة في النّسيج الثّقافي والسّياسي والنّقابي، ما أتاح لهم رؤية عصرية للسلطة والمجتمع، وكان منهم الطّاهر حدّاد³ ومحمد علي الحامي وأبو القاسم الشّابي⁴ والذين أعطوا نموذجاً بارزاً لدخول أبناء الدّاخل مجالات كانت حكراً على الأجنبي أو على أبناء العاصمة.

فكانت تونس رغم ركود الحركة الوطنية مرفأً نشيطاً يعجّ بالتّظاهرات الثّقافية، وقد ساعدت التعدّدية السّياسية والثّقافية السّائدة⁵ وما رافقها من سجال فكري بين الجماعات

¹ هو أحد النوادي الشهيرة في تونس العاصمة بين الحربين لجمعية أدبية تابعة للحزب الاشتراكي الفرنسي، كان أعضاؤه يجتمعون للأدب وامتاع أنفسهم بالأحاديث الفنية وأدب الفكاهة والهزل، وفيهم الممثل والموسيقي والصحفي والقصاص والشاعر والنّاثر، يكتبون بالعامة والفصحى، يقيمون الليل في اللهو والطرب أنظر: الطاهر قاسمي، المرجع السابق، ص 140.

² المجدّدين: كان دعاة التبعية والتقليد للغرب يسمون أنفسهم "المجدّدين"، وتسمى حركتهم حركة التجدد أو التجديد، وكان دعاة التجديد يرون أن النهضة لا تكون إلا بالأخذ من الغرب واقتفاء خطاه في مجالات العلم والصناعة والسياسة والثقافة. أنظر: الطاهر قاسمي، المرجع السابق، ص 265.

³ الطاهر حداد (1899-1935): ولد بتونس، تعلم في الكتاتيب، التحق 1911 بجامع الزيتونة، فأحرز منه على التّطويع، اشتغل في التجارة، التحق سنة 1920/1921 بمدرسة الحقوق التونسية، لكنه انقطع عنها وتوجه للنشاط السياسي ثم النقابي فكان صديقاً لمحمد علي الحامي، وكان ينتقد الحزب الدستوري خاصة قادته، له مؤلفات منها الكتاب الذي أثار جدلاً كبيراً وهو "امرأتنا في الشريعة والمجتمع"، ساند الدستور الجديد 1934، توفي ديسمبر 1935. أنظر أحمد خالد، المرجع السابق، ص 3-74.

⁴ أبو القاسم الشّابي: الملقب بشاعر الخضراء، ولد بتوزر 24 فيفري 1909، التحق بجامع الزيتونة 1920، تخرّج منه بشهادة التّطويع 1927، وفي العام الذي يليه انتسب إلى المدرسة التّونسية للحقوق وأخذ إجازتها سنة 1930، وتوفي 9 أكتوبر 1934، له مقال نشر في جريدة الزّمان 4 جوان 1929 يتحدث عن الأحداث السّياسية في عصره عنوانه "اليقظة الإسلامية" وعبر من خلاله عن همومه السّياسية حول الجدال الاجتماعي حول التّربية ومرجعياتها. أنظر: نور الدين الدّقي، أبو القاسم الشّابي وهاجس الصّحوة الدّينية"، الفكر الجديد، ع 5، 2016، ص 98.

⁵ يوجد في تونس تيارين: تيار المجدّدين الذين يتبنون خطأ تحريراً ويدافعون عن الإصلاح الاجتماعي وتغيير العقليات والتّجديد في الثّقافة والأدب كالشّابي والحدّاد، وأثار هذا التيار نقمة المؤسسة الدّينية واتّهامهم بالملحدين وكانت جريدة

الحزبية الأجنبية والتّونسية في دفع العديد من الشّبان المثقفين ثقافة غربية والذين تخرجوا من المدرسة الصّادقية أو من الجامعات الفرنسية من أمثال: محمود الماطري¹ والحبيب بورقيبة² والطّاهر صفر³ إلى المشاركة في الحياة العامة من خلال الصّحافة والتّظاهرات الثّقافية، ولم يكن لهم في البداية أي انتماء سياسي رغم تنبّهم أطروحات الحزب الدّستوري وعلاقاتهم الجيّدة مع الاشتراكيين، فشاركوا في الجدل السّياسي الدائر حول وضع البلاد عبر الصّحف القريبة من الحزب الدّستوري وخاصة جريدة "اللّواء التّونسي" التي كان يصدرها الشاذلي خير الله⁴، والذي سبق لهم أن تعرفوا عليه لمّا كان ممثلاً للحزب بباريس سنة

(الصّواب) المنبر الوحيد المعبر عن هذه النّزعة، وتيار ثان محافظ: متمسك بالثّوابت الفكرية الثّقليدية في السّياسة والتّنظيم الاجتماعي يمثله قيادة الحزب الحر الدّستوري القديم. أنظر: الدّقي، "ابو القاسم الشّابي..."، المقال السابق، ص 97.

¹ محمود الماطري (1897-1972): ولد بمدينة تونس في ديسمبر 1897، درس في الصّادقية، وبعد حصوله على شهادة ختم الدّروس بها عين في أكتوبر 1916 معلماً، بعد حصوله على البكالوريا التحق بالمدرسة الطّبية في ديجون بفرنسا، كان رئيس للحزب الدّستوري الجديد إثر ظهوره سنة 1934، أبعد لبرج البوف، اختلف مع بورقيبة، تولى العديد من المناصب. أنظر الزمرلي: المصدر السابق، ص 355-360.

² الحبيب بورقيبة (1903-2000): ولد يوم 3 أوت 1903 بمدينة المنستير درس بالمعهد الصّادقي، ثم بمعهد كارنو، تحصل على البكالوريا سنة 1924، ثم التحق بجامعة باريس ونال منها الإجازة في الحقوق، وعاد إلى تونس 1927، انخرط في الحزب الدّستوري، كتب في العديد من الصّحف، ثم أسّس جريدة العمل مع نخبة من أصدقائه، عُيّن عضواً في اللجنة التّفيذية للحزب سنة 1933، وبعد انشقاق الحزب تولّى الأمانة العامة للحزب الدّستوري الجديد، اعتقل العديد من المرات، فافوض فرنسا على الاستقلال الدّاخلي وتمّ إعلان ذلك في 3 جوان 1955، ثم الاستقلال التّام الذي أعلن في مارس 1956، أنتخب رئيساً للجمهورية التّونسية سنة 1957، بعد أن أزاح الأسرة الحسينية من على مسرح الحياة السّياسية في تونس، أزيح من الحكم في نوفمبر 1987 من طرف وزيره الأول السيد زين العابدين بن علي، توفي في 6 أفريل 2000 بالمنستير. . أنظر: عقيب: الحزب الحر الدّستوري. . المرجع السابق ص 79، 80. وعبد الكريم عزيز، المرجع السابق، ص، 216.

³ الطّاهر صفر (1903-1942): ولد بالمهدية في 15 نوفمبر 1903، درس بالكتاتيب، وحفظ بها القرآن الكريم، ثم التحق سنة 1909 بزاوية سيدي عيسى، ثم بالمدرسة الصّادقية، وبمعهد كارنو، انتقل سنة 1925 لباريس لدراسة الحقوق، وتحصل منها على إجازة في الحقوق، وانضم سنة 1927 لجمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، عاد إلى تونس سنة 1928، وقام بالعديد من النشاطات كالكتابة الصحفية في عدد من الصّحف العربيّة والفرنسية كالعمل التّونسي وصوت التّونسي، وانضم للحزب الدّستوري واشتغل في المحاماة، كان من أبرز قادة الحزب الدّستوري الجديد، سجن عدة مرات، وتوفي في 9 أوت 1942، ودفن في المهدية. أنظر نفسه، ص 80.

⁴ الشاذلي خير الله (1898-1972): هو الابن الأكبر للجنرال خير الله بن مصطفى، دخل الكتاب ثم المدرسة الابتدائية قبل أن يلتحق بمعهد كارنو، تحصل منه على شهادة البكالوريا، اشتهر بعمله الصحفي في الصّحف الناطقة بالفرنسية،

=

1926، ثم جريدة "صوت تونس" التي عوّضتها، والتي أصبحت منبرا يدافع بقوة عن حقوق التونسيين وعن مقومات الشّخصية التّونسية.¹

1-1-4 - النّشاط الجمعيّاتي:

وإن كانت الإجراءات التّعسفية عطّلت النّشاط العادي للحزب (الصّحافة، الاجتماعات...) فإنّها لم تمس النّشاط الجمعيّاتي، والذي مثّل في هذه الفترة رافدا ساهم في دفع النّشاط الوطني، ونذكر على سبيل المثال جمعية قدماء الصّادقية والتي كان من أبرز أنشطتها تكوين ناد أدبي، وكان من أبرز رواده زين العابدين السّنوسي، وعثمان الكعّاك، ومصطفى آغا²، والشيخ الفاضل بن عاشور³، والشاذلي خير الله، والطاهر صفر ممن كانوا يلقون محاضرات حول مواضيع سياسية واجتماعية ودينية وغيرها.⁴

كما كان لتأسيس جمعية "نجم شمال إفريقيا"⁵ 1926 تأثير هام على نشاط الطّلبة التّونسيين بفرنسا، وإن كان تأسيس الجمعية من قبل جمع من العمّال الجزائريين إلّا أنّ هذا

ونضاله في صفوف الحزب الدستوري له كتابات بالفرنسية: حركة الشباب التونسي، الحركة التطويرية التونسية. .
أنظر: الزمرلي، المصدر السابق، ص 345-347

¹ الدّقي، تونس من الإيالة. . ، المرجع السابق، ص 147

² مصطفى آغا (1871-1946): شاعر وفيلسوف، عصامي التّكوين، نشط في جمعية " الآداب التّمثيلية " و"النّادي التّونسي " والذي سيتولى رئاسته على إثر وفاة المقدم عمر قلاتي. للمزيد أنظر: الزمرلي: المصدر السابق، ص 237-242.

³ محمد الفاضل بن عاشور (1909-1970)، الابن الأكبر للشيخ الطّاهر بن عاشور، ولد بتونس وتولى التّدريس بجامع الزيتونة والقضاء ثم عميدا بالكلية الرّيتونية للشّريعة وأصول الدّين، ومفتيا للجمهورية التّونسية، من مؤلفاته: تراجم بالأعلام - الحركة الأدبية والفكرية في تونس - ومضات فكر. أنظر: الزمرلي، المصدر السابق، ص 349-354.

⁴ الشايب، "الحزب الحر الدستوري..."، المرجع السابق، ص 93.

⁵ تأسست " جمعية نجم شمال إفريقيا " سنة 1926 بباريس وبدأت عملها التّأطيري للأوساط المغاربية المناهضة للاستعمار الفرنسي ترأسها الشاذلي خير الله سنة 1927 بعد تنحية حاج علي عبد القادر من رئاستها بسبب ميولاته الشّيعوية الصّريحة، وقد نشط في صلبها خلال مرحلة رئاسة الشاذلي خير الله عدد من الطّلاب التّونسيين مثل الطّيب دباب، أحمد بن ميلاد، سليمان بن سليمان، الهادي نويرة، علي بلهوان، صالح بن يوسف، الذين انتفعوا كثيرا من تلقن صيغ العمل التّنظيمي والدّعائي والتّحريضي لمنظمة شمال إفريقيا المستوحاة إلى حد كبير من النمط الحزبي الشّيعوي، فتمتّع وعيهم السّياسي وتكوينهم العقائدي إلى جانب مخالطتهم الأوساط الجامعية الفرنسية مما زوّدتهم بذخيرة فكرية حديثة، ورغم طرد

لم يمنع بعض التّونسيين من الانضمام إليها لاسيما أن هدفها الدّفاع عن المصالح المادية والمعنوية لمسلمي شمال إفريقيا، فانخرط فيها سليمان بن سليمان¹ سنة 1928، وكان مقتنعا بضرورة الارتباط بين العملة والطلّبة لتحرير بلدان شمال إفريقيا.²

وكان لنشاط "جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين"³ بفرنسا صدى بالبلاد التّونسية، إذ طالبت بإنشاء فرع لها بتونس، وفعلا فقد بادر الوطنيون بتكوين لجنة تمثّل هذه الجمعية في تونس (27 أفريل 1930)، وتمحور نشاطها في إقامة الحفلات لاكتتاب الأموال وإرسالها إلى فرنسا لمساعدة الطّلبة المغاربة الفقراء والضّعفاء، لكن نشاط هذه المنظمة المحلية أزعج السّلاطات الاستعمارية، لكون أغلب العناصر المكونة لها من حزب الدّستور وهم في أغلبهم متعاطفين مع الشيوعيين، لذلك لم توافق على الاعتراف بها.⁴

الشّاذلي خير الله من الحزب الدّستوري وعودته إلى تونس يقتضى قرار الطرد من السّلاطات الفرنسية يوم 27-12-1927، فإن عددا كبيرا من المناضلين التّونسيين بقوا فاعلين في منظمة شمال إفريقيا مما جعلها إحدى أهم مدارس التّكوين الأولى للجيل الجديد من الوطنيّين التّونسيين المقيمين بفرنسا. كما ضمت جمعية الطّلبة المسلمين لشمال إفريقيا ببّاريس عددا من المناضلين التّونسيين والذين سوف يلعبون دورا قياديا في الحزب الدّستوري الجديد مثل: صالح بن يوسف، حبيب ثامر، وعلي البلهوان وسليمان بن سليمان. أنظر: الذّواذي، **تحولات. . المرجع السابق**، ص 9.

¹ سليمان بن سليمان (1905-1986)، ولد بزغوان، درس بالمدرسة الصّادقية، وتخرّج في سنة 1925، ثمّ انتقل إلى فرنسا ودخل كليّة الطب ببّاريس، ونشط إلى جانب دراسته في جمعية الطّلبة المسلمين لشمال إفريقيا، وعند تأسيس الدّستور الجديد انضمّ إليه، وانضمّ إلى قيادته في مؤتمر 1937، واعتقل إثر أحداث أفريل 1938، ولم يطلق سراحه إلّا سنة 1943. للمزيد أنظر: عقيب، **المرجع السابق**، ص 174.

² الشّاذلي، **"الحزب الحر الدّستوري..."**، **المرجع السابق**، ص 99.

³ تأسّست ببّاريس، وتكونت لجنة تحرير قانونها الأساسي على إثر عدة اجتماعات في نوفمبر 1927، و تمّ مناقشة قانونها الأساسي في اجتماع 15 ديسمبر 1927 وتمّت المصادقة عليه من قبل الحاضرين التّونسيين والجزائريين والمغاربة، وتم انتخاب مجلس مؤلف من الشّاذلي خير الله كرئيس، والطاهر صفر نائب له وأحمد بن ميلاد (كاتب عام وأحمد بلا فريج (مساعد له ومحمود العرابي (أمين مال)، والأعضاء: الطاهر الزاوش والشّاذلي بن رمضان ومحمد الفاسي وحسن الوزاني وعمر العجيمي ومحمد بن ساسي وأحمد المشري، فكان بذلك عدد التّونسيين 7 من مجموع 12، مقابل 3 أعضاء من المغرب وعضوين من الجزائر، وصدر الاعتراف الرّسمي بالجمعية في الجريدة الرّسمية الفرنسية في غرة جانفي 1928.

أنظر: ابن يوسف، **"النضال المغربي المشترك..."**، **المقال السابق**، ص 26.

⁴ ابن يوسف، **"النضال المغربي المشترك..."**، **المقال السابق**، ص 100.

وإضافة إلى ذلك تأسّست "جمعية الشّبان المسلمين" (مارس 1928) التي أشرف عليها الحزب الدّستوري، وكان هدفها ظاهرياً مساعدة الطّلبة الفقراء، وسرياً تكوين الشّباب الطّلابي وتدريبه على أساليب الكفاح لخوض المعارك السّياسية في المستقبل.

وكانت هذه الجمعيات الثّقافية بمثابة منابر للحوار، ونذكر على سبيل المثال المحاضرة المَعنوّنة بـ "المرأة المسلمة غداً، مع الحجاب أم ضدّه" والتي ألقتها حبيبة المنشاري¹ العضوة في الفرع النسائي للحزب الاشتراكي بناادي جمعية السّور "جمعية التّرقّي الأدبية" سنة 1929 ودعت من خلالها إلى تقليد نمط العيش الأوربي الذي يمكن المرأة والأطفال والعائلة من السعادة، ونددت بالحجاب وتزويج البنت في سن مبكرة دون الأخذ برأيها، واعتبرت الحجاب عادة بالية موروثّة عن قرون مضت، واستشهدت بتجربة تركيا التّقدمية.² وقد أثارت هذه المحاضرة جدلاً سرعان ما أخذ طابعاً سياسياً، فهاته الجمعيات إذن إلى جانب النوادي الشّبابية والرّياضية لاسيما جمعية التّرجي الرّياضي التّونسي (1919) والنّادي الإفريقي (1920) ثم النّجم السّاحلي (1925) والنّادي التّونسي 1928 لعبت دوراً هاماً في إثارة الحس الوطني، إذ كانت المباريات تسبقها الاحتفالات التي تُغنى بها الأناشيد الوطنية ويرفّع فيها العلم التّونسي.³

1-1-5- تنامي الوازع الدّيني والوعي بالهوية:

وقد ساعدت عوامل عديدة على تثبيت الوعي بالهوية وبالإحساس الدّيني نذكر منها:

1-1-5-1- قانون التّجنيس 20 ديسمبر 1923:

يرجع مشروع التّجنيس في تونس إلى إميل مورينو (Emile Moreno) وذلك بإصدارة عدّة مراسيم تقنّن وتنظم باسمه مادة التّجنيس، ويعتبر قانون مورينو والذي يسمح باكتساب الجنسية والموافق عليه من مجلس النّواب يوم 12 جويلية 1923 والشّيوخ يوم 20 ديسمبر

¹ الشابيبي، "الحزب الحر..."، المرجع السابق، ص 94.

² نفسه، ص 305-306.

³ الشابيبي، "الحزب الحر..."، المرجع السابق، ص 94.

1923 مشجّع على التّجنّيس والتّصير معا، حيث ورد في مقال في جريدة " إفريقيا الفرنسية " في جويلية 1927 الغرض المرجو من إصداره كمايلي: " يعدّ تجنّيس غير الفرنسيين ضرورة مطلقة بغرض تحقيق نوع من المساواة إزاء الإيطاليين، أو قصد إسعاف مجموعتنا الوطنية بدورها التّمدّيني"¹، فهذا القانون كان يهدف إلى ضمان تفوق الجالية الفرنسية في الإيالة للوقوف في وجه مطامع إيطاليا في إقليم "إفريقيا القديم"، وهاته المطامع اتّخذت صبغة مكشوفة منذ مجيء موسوليني² سنة 1922 وذلك بالاعتماد على تفوّق عدد الإيطاليين مقارنة بالفرنسيين بالبلاد التّونسية.³

إذن فأمام تواصل التفوق الدّيمغرافي الإيطالي وفي ظلّ عزوف الفرنسيين عن القدوم بكثافة إلى البلاد التّونسية، ونظرا للعدد المتواضع من التّونسيين الذين تحصّلوا على الجنسية الفرنسية (220 شخصا) وذلك بسبب الانتقائية الكبيرة التي مارستها فرنسا، إذ أنّ القوانين النّاطمة لهذه المسألة⁴ جعلت الجنسية الفرنسية حكرا على المتزوّجين بفرنسيات أو الذين قدّموا

¹ أمحمد مالكي، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1993، ص ص 184-186.

² بنبينو أدريا موسوليني، ولد في 29 جويلية 1883، حكم إيطاليا ما بين 1922-1943، كما شغل منصب رئيس الوزراء ووزيري الداخلية والخارجية، ويعتبر من مؤسسي الحركة الفاشية الإيطالية. للمزيد ينظر: كيفن باسمور، الفاشية، ترجمة رحاب صلاح الدين، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر 2013، ص 13.

³ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 972-373.

⁴ عملت فرنسا على جعل الحصول على الجنسية التونسية مستحيلا بينما سهلت أسباب الخروج منها وأصدرت عدة قوانين لأجل ذلك: الأمر العلي: 26 يونيو 1889، الذي يقضي بأن الفرنسية التي تتزوج أجنبية لا تتبع جنسية زوجها -أي الفرنسية التي تتزوج تونسي تبقى فرنسية-، وكذلك الأمر العلي 29 يوليو 1897 الذي أعطى تسهيلات كبيرة للتونسيين الذين يرغبون في كسب الجنسية الفرنسية، كما أنه قرر أن الأرض التونسية أرضا فرنسية، بأن جعل إقامة الأجانب فيها مدة ثلاث سنوات تخولهم حق اكتساب الجنسية الفرنسية وبالتالي أصبحت الإقامة في تونس كإقامة في فرنسا نفسها، وهو مخالف للقانون الدولي، وفيه اعتداء على السيادة التونسية. وكذلك استصدرت السلطة الفرنسية من الباي أمر 28 فبراير 1899 والذي يسمح للفرنسيين والأجانب الذين تخلوا عن جنسيتهم بالرجوع إليها. ثم أمر أكتوبر 1910 نص على سحب الجنسية الفرنسية على أبناء المتجنسين من التونسيين. وأمر 8 نوفمبر 1921 يقضي بإخراج الأجانب الذين ولد أجدادهم بتونس عن الجنسية التونسية والحاقهم بالجنسية الفرنسية ماعدا الإيطاليين، وتعززت كل هذه التشريعات بالقانون الفرنسي 20 ديسمبر 1923 الذي فتح باب التجنس الاختياري بالجنسية الفرنسية على مصراعيه، فأصبحت تعطى لكل من يقدم طلبا لذلك. أنظر: ثامر، المصدر السابق، ص ص 79-81.

خدمات عسكرية جلييلة لفرنسا أو المتحصّلين على الشّهادات العلمية العليا، سارعت فرنسا باتّباع سياسة تجنيسية أكثر جرأة وانفتاحا لاستمالة جميع الطّوائف المتواجدة في تونس لصالحها، حتّى يسهل عليها تحقيق كل سياساتها التي ترمي إلى تحقيقها في تونس خصوصا أنّ كلّ تصريحات رجال الحكومة الفرنسية تقول بأنّ تونس مرتبطة بفرنسا إلى الأبد.¹

ولمّا كان إلحاق تونس بالاتّحاد الفرنسي ليس أمرا ميسورا لجأت إلى التّحيل وإصدار قانون التّجنيس، وبالرّغم من أنّ هذا القانون يتنافى مع القوانين الدّولية الخاصّة بالجنسية ولا السّيادة التّونسية التي اعترفت بها في معاهدة باردو، إذ أنّ الجنسية تُمنَح للأجانب المقيمين بفرنسا وللأجانب المقيمين بالجزائر (قانون 29 يونيو 1865)، أمّا الإقامة بتونس فلا تُعطى حق اكتساب الجنسية الفرنسية لأنّ الأرض التّونسية لا تعتبر أرضا فرنسية.² وكذلك فإنّ معاهدة باردو تعطي للباي سلطة النّظر في شؤون رعاياه الذين إذا أصبحوا فرنسيين خرجوا عن حكمه.³

وعليه فإنّ فرنسا اتّجهت إلى فرنسة تونس وشكّلت لذلك سبلا كثيرة، فهي لم تكتف بتحقيق تفوق العنصر الفرنسي في البلاد فحسب (تشجيع الهجرة، الوظائف، مرتبات ضخمة، الأراضي الخصبة..)، بل سهّلت على الأجانب وحتى على التّونسيين أنفسهم الحصول على الجنسية الفرنسية،⁴ وقامت بتأسيس أجهزة لرعاية مصالح المَجَنّسين التّونسيين وصيانة حقوقهم كإنشائها "عصبة المسلمين الفرنسيين" التي تهدف إلى ربط الصّلة بين المسلمين من ذوي الجنسية الفرنسية وتنمية روح النّضامن وحب الوطن لديهم.⁵

¹ آيت ميهوب، المرجع السابق، ص 134.

² ثامر، المصدر السابق، ص 79-80.

³ عزيز، المرجع السابق، ص 207.

⁴ ثامر، المصدر السابق، ص 79.

⁵ مالكي، المرجع السابق، ص ص 184-186.

ففرنسا إذن أرادت من خلال سياستها هذه الإجهاز على الدّاتية الوطنية والشّخصية العربية الإسلامية لتونس وبشكل قانوني لإتمام عملية الإلحاق المفروض بالقوة حتى ذلك الوقت،¹ ولذلك دخل الوطنيون التّونسيون منذ شهر أوت 1923 في حملة ضدّ سياسة التّجنّيس، وفي فترة كان فيها الحزب في منتهى الانحلال، فحاربوا قانون التّجنّيس لكونه يرمي وبوضوح إلى ابتلاع الشّعب التّونسي.²

كما ثاروا ضدّ نظام الحماية لأنّها صادمتهم في شعورهم الدّيني الذي كان آنذاك أقوى من الشّعور الوطني، وذلك لأنّ جنسية المسلم تمتزج مع دينه وخاصّة فيما يتعلّق بالأحوال الشّخصية (الرّواج - قضية التّعدد - الطّلاق، الميراث...)، فإذا ما اختار المسلم الجنسية الفرنسية فإنّه لا يبق خاضعا في مادّة الأحوال الشّخصية إلى أحكام القرآن، بل يصبح خاضعا إلى القانون المدني الفرنسي، ولذا فإنّ تغيّير الجنسية أو الحالة المدنية يُعدّ من المسلم في هذه الظّروف مروقا من الأحكام الإسلامية وبالتالي مروقا من الدّين، وعليه فالتّخلي عن الجنسية كفر وردّة بصريح القرآن، ومن الآيات التي استدلتّ بها الدّستوريون، نذكر: الآية 47 من سورة المائدة: "وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ"، وكذلك الآية 59 من سورة النّساء: "فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ".³

وفي ذات السّياق قامت جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا في 28 فيفري 1930 بإصدار لائحة تقضي بطرد زملائهم الحاملين للجنسية الفرنسية من الجمعية، وقد جاء في نص اللاّحة التي تمّ إرسالها إلى الصّحف التّونسية ومن بينها صحيفة "النّهضة" التي أوردت في عددها الصّادر يوم الأربعاء 26 مارس 1930 "...قرّرت الجمعية بأغلبية

¹ عواد إبراهيم خضر العبيدي، حسن علي خضير العبيدي، "الخلافات الأيديولوجية الفكرية في الحركة الوطنية التونسية 1933-1937"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، ع4، المجلد22، نيسان، 2016، ص 7.

² المحجوبي، جذور الحركة الوطنية. . المرجع السابق، ص 373-972. وكذلك، المدني، المصدر السابق، ص 333-334.

³ المنير، "موقفنا أمام التّجنّس"، العدد 71، 15 ربيع الثّاني 1342هـ. من كتاب: الفلاح الجبلاني، الشّعب التّونسي والتّجنّس، المطبعة العربية، تونس، 1342هـ/1924م، ص 31.

ساحقة وبعد مناقشة طويلة وبحث عميق مَسْتَدَة في قرارها على هذين المبدأين -أولاً: إنّ الجمعية تعاونية وبما أنّ المتجنسين صاروا فرنسيين فيمكنهم أن يستفيدوا منها وليس من العدل أن نجعلهم يستفيدوا من جمعيتنا ومن الجمعيات الأخرى - ثانياً: إنّ جمعيتنا إسلامية قبل كلّ شيء ويظهر ذلك من عنوانها، وبعد بحث واستشارة أهل الخبرة ثبت لدينا إنّ الذي يترك شريعة الإسلام وقوانينه وأحكامه لا يعتبر مسلماً "ويعتبر هذا القرار ملفتاً للانتباه لصدوره من نخبة متشعبة بالتّعليم العصري والثّقافة الفرنسية¹، وهذا وإن دلّ على شيء فإنّما يدل على الرّوح الوطنية الحادة والمعادية لكل ما هو فرنسي على حسب ما جاء على لسان المراقب المدني لمدينة تونس.²

وفي نفس الاتّجاه تبنت سياسة الحزب الحر الدّستوري حتى بعد القوانين الزّجرية 1926 المطالبة بإصلاحات التّعليم وإعطاء اللّغة العربية مكانتها في البرامج التّعليمية ورفضت توصيات المؤتمر الاشتراكي الدّاعية إلى لائكية التّعليم والتّقليص من عدد ساعات تدريس اللّغة العربية واعتبرته مؤامرة ضد اللّغة العربية والدين.³

1-1-5-2- الاحتفال بالذّكرى المئويّة لميلاد الكاردينال لافيغري نوفمبر

1925:

لقد تمادت فرنسا بالمجاهرة في إبراز نفوذها بتحدّي شعور التّونسيين بالاحتفال بالذّكرى المئويّة لميلاد الكاردينال لافيغري نصير التّوسع الاستعماري بالمغرب العربي وخصوصاً تونس وذلك لما تمثله من رهان لبعث كنيسة قرطاج، ولعلّ ما ذكره لويس برتران (Louis Bertrand)⁴ سنة 1925 أي عند مرور قرن عن ميلاد لافيغري ما يؤكّد ذلك: "لو لم يقم إلّا بتهيئة انتصاب حمايتنا على تونس، تلك الحماية التي كان يمكن عقدها قبل الأوان الذي

¹ عادل بن يوسف، "قراءة في مواقف الطّلبة التّونسيين بفرنسا من بعض القضايا الوطنية في مطلع الثّلاثينات (التّجنيس والمؤتمر الأفخارستي والزّواج المختلط)"، مجلة روافد، ع5، جامعة منوبة، 1999-2000، ص 73-74.

² نفسه، ص 81.

³ ابن ميلاد، مسعود إدريس، المصدر السابق، ص 307.

⁴ لويس برتران، هو روائي وكاتب ومؤرخ فرنسي، ولد 20 مارس 1866 في منطقة ميوز فرنسا تخرج من المدرسة العليا للأساتذة، عين في معهد آكس أون بروفانس، كان عضواً في أكاديمية اللغة الفرنسية، توفي في 6 ديسمبر 1941.

عقدت فيه لو استمع إليه، وبأقل ممّا كلفتنا من الرّجال والأموال بكثير، لأستحقّ كلّ اعتراف بالجميل من الوطن الأم¹، فقامت سلطة الحماية باحتفالات دينية في الفترة الممتدة من 15 إلى 22 نوفمبر 1925 في كل من تونس وقرطاج، تضمّنت كل يوم محاضرة عن شريعة من حياة لافيجري²، وتمّ خلالها نصب تمثال ضخم³ للكاردينال لافيجري⁴ حاملاً الصّليب بيده اليمنى، والإنجيل بيده اليسرى قبالة النّهج المؤدّي إلى جامع الزيتونة.⁵

وقد أدّى هذا الوضع العدواني على مشاعر المسلمين إلى استقزاز أبناء الشّعب العربي ورجالات الحركة الوطنية التّونسية على حد السّواء، فدعا الحزب الدّستوري إلى مقاطعة الاحتفالات والقيام بمظاهرات شعبية رسمية للتّنديد بالسياسة الفرنسية وذلك في 23 نوفمبر 1925، كما قامت بلدية العاصمة احتجاجاً على هذه الإهانة بمظاهرة يوم 28 نوفمبر شارك فيها ما يقرب من ألف طالب زيتوني⁶، وقد توجّه المتظاهرون إلى شيخ المدينة خليل بوحاجب⁷ للمطالبة بوضع حد للإهانة الموجهة للسّكان المسلمين⁸، وأراد المواطنون تحطيم

¹ ممدوح حسين، مدخل إلى تاريخ حركة التّنصير، ط1، دار عمار، عمان، الأردن، 1416هـ/1995م، ص 80.

² "La Tunisie Catholique", 18 octobre 1925, "Les fêtes du centenaire du Cardinal Lavigierie." ³ وتم افتتاح تماثيلين متطابقين في الجزائر وتونس، وهما من أعمال فيزيين (Vézien) نحّات مرسيلي، نال الجائزة الكبرى لروما 1921، أنظر:

Françoise Jacquin et Jean –François Zorn, *L'altérité religieuse*, éditions Karthala, Paris, 2001, p.104.

⁴ من أول الأعمال التي قامت بها الحكومة التّونسية بعد الاستقلال المطالبة بإزالة تمثال الكاردينال لافيجري من قلب العاصمة وقد تمّ نقله إلى كنيسة قرطاج في 8 ماي 1956، ثمّ نقل إلى روما بعد الاتّفاق المبرم بين تونس والفاثيكان 1964 والذي ينص على احتفاظ الكنيسة بعدد قليل من المعابد والمعاهد المدرسية والطبية واسترجاع الدولة التّونسية لبقية ممتلكات الكنيسة وتمّ على إثره نقل جثمان لافيجري من قرطاج إلى روما. للمزيد أنظر: الشرفي، "الحركة التبشيرية في تونس..."، المقال السابق، ص155.

⁵ الدقي، "أبو القاسم الشّابي وهاجس الصّحوة الدينية".، المقال السابق، ص98.

⁶ ذكرت جريدة (تونس الفرنسية) أن عدد الطلبة حوالي 200 طالب. أنظر:

⁷ La Tunisie Française, 25 novembre 1925.

⁸ خليل بوحاجب (1863-1942): وهو ابن الشّيخ سالم بوحاجب، رجل سياسي تونسي، درس بالصّادقية ثمّ تحوّل إلى فرنسا للدراسة بمعهد سان لوي، شيخ مدينة تونس (1915-1926)، تقلّد منصب وزير القلم (1922-1926)، والوزير الأكبر التّونسي (1926-1932).

⁸ القصاب، المرجع السابق، ص 528-529. وكذلك: ضيف الله، المرجع السابق، ص48.

التّمثال فوقعت صدامات مع قوات السّلطة الفرنسية، استشهد خلالها الكثير من أبناء الشّعب التّونسي ورَجّ البعض الآخر بالسّجن وعُطّلت جريدة الحزب (مرشد الأمّة) وصُيّق على الصّحافة والحريات الشّخصية.¹

1-1-5-3- انتشار أفكار حول تحرر المرأة:

أخذت قضية حقوق المرأة على السّاحتين العالمية والعربية حيّزا مهما في مطلع القرن العشرين، إذ فتحت فتنة الحداثة التي نتجت عن الغزو الاستعماري للمجتمعات الإسلامية معارك ساخنة حول قضايا المرأة، والتي شكلت واحدة من أشد أنواع الاصطدام بين المنظومات الفكرية المتنازعة في رؤيتها الاجتماعية والثّقافية والسّياسية في المجال العربي والإسلامي نظرا لأهميتها ودورها في المجتمع، وقد زادت حدة النقاش حول قضايا الحجاب وتحرير المرأة في تونس خلال عشرينات القرن العشرين بين أنصار السّفور من المجدّدين والاشتراكيين الفرنسيين من جهة، وأنصار رجال الحركة الإصلاحية والمتقّفين في تونس من جهة أخرى، ومن أبرز الذين جرّوا أقلامهم للكتابة في تحرير المرأة في تونس نذكر الصّحفي الهادي العبيدي، والذي قال في مقال نشرته جريدة (الصّواب) في 20 جانفي 1928 بعنوان "تعليم المرأة والحجاب" ما يلي: "...إنّ في تحرير المرأة من قيود الاعتقال والحجاب فائدة عظيمة.. فبالتّحرير تتمكّن المرأة من تنوير ذهنها بالعلوم والمعارف في ميدان الحياة إلى جنب الرّجل، وفي السّفور فوائد صحية وعقلية... أنظر إلى المرأة المتحجّبة كيف أنّ صحتها سقيمة وسيّئة، ففي الحجاب مضار كبيرة تهّدّد هذا المجتمع بالدّمار والنّقهر...²، وكذلك حسن قلاتي³ والسّيدة التّونسية حبيبة منشاري والذين تهجّما على التّقاليد والجهل والحجاب⁴، وقد أثارت هذه الأفكار الدّاعية إلى تحرير المرأة جدالا كبيرا بين التّونسيين الاشتراكيين

¹ العبيدي، المقال السابق، ص 10.

² أحمد خالد، المرجع السابق، ص 254.

³ ابن عيسى، المرجع السابق، ص 50.

⁴ الحبيب بورقيبة، تاريخ الحركة الوطنية التونسية، مقالات صحفية، (1929-1934)، الدّار التّونسية للنّشر، تونس، 1979، ص 10-11.

والدستوريين، فكان الدستوريون يدافعون عن الحجاب حفاظا على مقومات الشّخصية والخصوصية التّونسية من الإذابة من طرف الاستعمار.¹

فمسألة الحجاب تمسّ الشّخصية التّونسية، ومن ثمة وجود أو عدم وجود أمة أو قومية²تونسية في حد ذاتها، وما ينجر عن ذلك من ضرورة إقرار حق تقرير مصير أهالي تونس أو إدماجهم في فرنسا إدماجا نهائيا، وبما أنّ الاشتراكيين يميلون إلى الدّمج النّهائي لتونس في فرنسا، فإنّهم يريدون تطبيق كل القوانين التي تعتبر تقدما اجتماعيا في نظرهم على المجتمع التّونسي حتّى وإن كانت تعارض تراثه الحضاري ومقومات شخصيته وتقاليده، وهذا الأمر الذي دفع الوطنيون التّونسيون إلى معارضتهم.³ وخصوصا وأنّ تحرير المرأة المسلمة وتغريب المجتمع بواسطتها، أصبح وسيلة من وسائل السّياسة الفرنسية الرّامية إلى فرنسة تونس وإدماجها، إذ جاء في تصريح راهب بجريدة (تونس الفرنسية): "إنّ اليوم الذي تحرّر فيه المرأة المسلمة على نمط الحرية الموجودة عند الغربيين يمكن لنا أن نقول فيه على الإسلام السّلام " ⁴

¹ زهير الدّواوي، تطور الحركة الوطنية التّونسية 1929-1939، دار التّقدم للنشر والتّوزيع، تونس، ص، 38.

² القومية: هي الرّابطة التي تربط شخصا بقوم، والقوم من الوجهة السّياسية المعنوية لا تدلّ على الدّولة بل إنّما هي مجموعة النّاس التي تتولد عنهم الدّولة. فبمجرد ما تشاهد دولة يلزم أن تجزم بأنّ هناك قوما وقومية. والأركان التي أثبت تاريخ الأمم أنّ القومية مؤسّسة عليها، وتكون لوجودها شرطا حتميا، إذا اجتمع أناس من أصل واحد وعلى دين واحد ولسان واحد وأخلاق وآداب واحدة وتاريخ واحد وشرعية واحدة اعتبروا قوما بشرط أن توجد بينهم إرادة ربط هذه الأركان بعضها ببعض ارتباطا محكما، وأن يُقرّوا طوعا أن يعيشوا تحت سلطة سلطان واحد أو تحت دولة واحدة، فالأستاذ مسيو نيس مدرّس الحقوق العامة بباريس عام 1895 قال عنها: "... وبمجرد ما تُنظّم إرادة الأفراد لاتّحاد الأصل والمصلحة تكون القومية قد برزت متلبّسة بحق مقدّس يستحيل التّنازل عنه أو اغتصابه بأيّ وجه من الوجوه وهو حق تأسيس دولة، وهذا الحق كحق الفرد بالنّسبة للحرية الدّاتية وأصول القوميات دأبها السّعي وراء إحياء هذا الحق. "، فالأقوام التي هي من أصل واحد واتّحدت في اللّغة والدين والآداب والأخلاق والتّاريخ والشرعية معتبرة كشخص واحد وإرادتها لتكوين دولة لحفظ كيائها حق طبيعي كحق الفرد في التّمتع بحريّته الدّاتية التي هي حق طبيعي خلّق مع الانسان لا يُمسّ وأوجبوا على العالم الدّفاع عن كيانه والاحتفاظ عليه لأنّ انتزاعه كانتزاع الحياة. أنظر محمد النعمان، "اعتناق التّونسيين القومية الفرنسيّة"، الزّهرة، عدد 4885 و4887 و4890 و4895 /ربيع الأوّل 1342هـ. من كتاب: الفلاح الجبلاني، المصدر السابق، ص 56-57.

³ الدّواوي، تطور الحركة. . المرجع السابق، ص 38.

⁴ أحمد خالد، المرجع السابق، ص 395.

ولذا فإنّ دعوة تحرير المرأة لم تلق قبولا عند الوطنيين والرّأي العام التّونسي، وقد كانت (العلم التّونسي) الجريدة المستقلّة عن الأحزاب والتي أسّسها الشاذلي خير الله والمجموعة التي انظمت إليها (الحبيب بورقيبة، الطاهر صفر، محمود الماطري، بحري قيقّة¹). تدافع عن مسألة الحجاب² منذ يوم 11 جانفي 1929 باعتباره رمزا للشّخصية التّونسية حيث كتب فيها الحبيب بورقيبة مقالا بعنوان "الحجاب"، والمقال هو نص لكلمة ألقاها في جمعية السّور عند نيابته لأخيه محمد الذي كان عضوا فيها، وقد دافع بورقيبة عن الحجاب قائلاً: "إنّ الحجاب قد يخلو من اللّطافة، لكنه يعد جزاء من الشّخصية التّونسية، وإن فرنسا تسعى لمحق هذه الشّخصية وترم فرنستها... لذلك يجب أن نتمسك بجميع مظاهر شخصيتنا..."³، وقال أيضاً: "...إنّ التّطور واقع لا محالة لكن بدون انفصام عن جوهرينا حتّى تتحقّق الصيرورة الدّائمة لشخصيتنا"⁴، كما أنّ الرّأي العام التّونسي لم يهدأ إذ تحرّك كذلك لمجابهة

¹ البحري قيقّة (1904-1998): ولد في 4 مارس 1904 بتاستور كان من المؤسّسين لجريدة العمل التّونسي سنة 1932 رفقة بورقيبة، درس الحقوق واشتغل بالمحاماة، وكان من أعضاء مكتب الدّيوان السّياسي الأوّل للدّستور الجديد بعد تأسيسه سنة 1934، تولى العديد من المسؤوليات وشغل مناصب مختلفة وتوفي سنة 1998. أنظر: عقيب، المرجع السابق، ص 81.

² الذوادي، تطور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 38.

³ حسين زغير حزيم "دور الحبيب بورقيبة في تجديد عمل الحركة الوطنية في تونس (1929-1945)"، مجلة كلية التربية بجامعة المستنصرية، العدد 55، ذي القعدة 1437 هـ/آب 2016م، ص 589.

⁴ بورقيبة، تاريخ الحركة الوطنية التونسية، المصدر السابق، ص 14.

فتح مدرسة جديدة للبنات من طرف البروتستانت¹، وأثار نفس الوعي الدّيني والثّقافي مقاطعة عرض مسرحية "الحرية" التي اعتبرها التّونسيون سخريّة من عاداتهم ومن قواعد دينهم².

1-1-6- الأزمة الاقتصادية والاجتماعية 1929/1930:

لقد أثّرت الأزمة الاقتصادية العالمية 1929 على تونس بصفتها مَسْتَعْمَرة ومُلْحَقَة بفرنسا على كل الأصعدة، وخصوصا على الاقتصاد التّونسي بحكم ارتباطه بالاقتصاد الأوربي، وإن كان التّأثير في بداية الأمر أقلّ خطورة لانعدام الاتّصال المباشر بين القطاع التّونسي والأسواق العالمية -التجارية والبنكية - لكن تضرر الاقتصاد الأوربي من الأزمة سرعان ما مرّر ذلك الضّرر إلى القطاع التّونسي، وكان من نتائج تلك الأزمة انتشار المجاعة وانحيار الإنتاج، وانعدام مواطن الشّغل، وتحمل الفلاحين الصّغار والفقراء كل نتائجها الوخيمة³ ناهيك عن الأزمة الاقتصادية الخانقة التي مرّت بها تونس خلال الثلاثينات والتي ألحقت أضرارا بالغة الخطورة بالاقتصاد والمجتمع، إذ شهدت البلاد في بداية الثلاثينات تقلبات مناخية⁴ فعمّ الجفاف البلاد سنة 1930 فتأثرت الفلاحة وانهار الانتاج النّباتي والحيواني بنسب مفعجة وأصبحت قطاعات واسعة من السّكان تهدّدها المجاعة، فساهمت هذه الأزمة في تدمير البنية التّقليدية للاقتصاد والمجتمع عبر الرّحف الهائل للبضائع الأجنبيّة وعمليات المصادرة والبيوعات الرهنية ممّا أدّى إلى إفلاس أعداد كبيرة من التّجار

¹ البروتستانتية: أحد مذاهب وأشكال الإيمان المسيحي، تعود أصول المذهب إلى الحركة الإصلاحية التي قامت في القرن السادس عشر على يد الألماني مارتن لوثر (Martin Luthero) (1483-1546)، هدفها إصلاح الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا الغربية، ومن أبرز مقومات فكر البروتستانت اللّهوتي هي أن الحصول على الخلاص أو غفران الخطايا هو هدية مجانية ونعمة من الله من خلال الإيمان باليسوع مخلصا، أي تحريم صكوك الغفران، والاكتفاء بالكتاب المقدس ليحصل البشر على الخلاص وهو المصدر الوحيد للمعرفة المختصة بأمور الإيمان، والسّماح لرجال الدّين بالزّواج، وقد انتشرت البروتستانتية في ألمانيا، والدول الاسكندنافية (الدانمارك، السويد، النرويج)، بالإضافة إلى أجزاء من بولونيا (بولندا). أنظر: أحمد تركي الشريدة، "نشأة البابوية وتطورها"، مجلة دراسات، قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، مج 45، العدد 4، 2018، ص 397.

² ابن ميلاد، مسعود إدريس، المصدر السابق، ص 305.

³ الذوايدي، تطور الحركة الوطنية التّونسية، المرجع السابق، ص 15.

⁴ كذلك حدوث فيضانات في الوسط والشمال 1931، واجتياح الجراد لمناطق الوسط والجنوب 1932

والحرفيين والفلاحين، ومست الأزيمة كل القطاعات الاقتصادية بما فيها (المناجم والنقل) فتضخّم عدد العاطلين عن العمل، وانتشرت الآفات الاجتماعية.¹ وزادت معدّلات الفقر وتفشّت الأمراض خاصّة الملاريا والحمى التّيفوسية...

وترتّب على هذا الوضع تردي وضع شرائح عديدة من التّونسيين وافقارها ونجد في مقدمة هذه المجموعة الطبقة المسيّرة التّقليدية وبعض أعيان البلدية التي حرّمها الاستعمار من وسائل النّفوذ السّياسي وبالتالي من السّيطرة على المواقع الاقتصادية الحسّاسة، كما شمل التّقهقر الاجتماعي الفئات الحضرية الوسطى أي جماعات الحرفيين وصغار التّجار والمالكين الذين عجزوا عن التّأقلم مع الأوضاع الاقتصادية الجديدة نتيجة منافسة هياكل الانتاج والتّوزيع الاستعمارية، أمّا في الأرياف فقد تعرّضت شرائح عديدة من الفلاحين إلى مختلف ضروب الابتزاز والإقصاء، لاسيما في المناطق المجدية وذات الاقتصاد الرعوي.²

وما يمكن ملاحظته أنّ تدهور الوضع الاقتصادي العام وتراجع الأحوال الاجتماعية للتّونسيين خصوصا مع ارتفاع عدد السكان³ قد أعطى دفعا جديدا للكفاح الوطني إذ ساهم هذا المناخ المتردي في تهيئة بيئة ملائمة للاحتجاج، وهذا ما يفسّر الدّفع الذي عرفته الحركة الوطنية التي انبرت للدّفاع عن مصالح التّونسيين إزاء الإقامة العامة التي صرفت جهودها لمساعدة المستوطنين دون سواهم.⁴

1-2- ظروف دولية خارجية:

1-2-1- تواصل المد الاستعماري الأوروبي والحركة التنصيرية إزاء البلاد العربية

والإسلامية بعد الح.ع.1:

¹ لعيرج وآخرون، المرجع السابق، ص ص 75-77.

² الدقي، تونس من الإيالة. . ، المرجع السابق، ص 145.

³ كان سنة 1926: 864. 908 نسمة، ثم ارتفع إلى: 2. 086. 762 نسمة سنة 1931. أنظر:

Ali Mahjoubi , *Le Congrès Eucharistique de Carthage et le mouvement national tunisien en 1930*, (Extrait des cahiers de Tunisie), C. T. . Tunis ,1978,p 121.

⁴ الدقي، تونس من الإيالة. . ، المرجع السابق، ص 148.

مع نهاية الحرب العالمية الأولى وقع اقتسام الإيالات العثمانية في المجلس الأعلى للحلفاء المنعقد بسان ريمو (San Rémo) الإيطالية ما بين 19 و 25 أبريل 1920، وقد قرّر هذا المؤتمر أن تصبح فلسطين وجنوب سوريا والعراق لبريطانيا، وسوريا ولبنان من حق فرنسا، وقد مثلت هذه القسمة انتصارا للصّهاينة، إذ أنّ حماية بريطانيا لفلسطين يجزّها لتنفيذ وعد بلفور¹ - الصّادر في 2 نوفمبر 1917² - والالتزام به، وفعلا ففي 16 سبتمبر 1922 تمّت المصادقة عليه من طرف عصبة الأمم، وتزايدت بذلك الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين.³

وتعتبر بذلك فترة العشرينات فترة وصول المشروع الاستعماري الأوروبي إلى ذروته وإلى أقصى حدوده، إذ أصبح العالم الإسلامي جميعا⁴ باستثناء اليمن وقلب الجزيرة العربية تحت السّيطرة الاستعمارية، والتي عملت بدورها على زيادة الارساليات التّبشيرية والأعمال

¹ بلفور-آرثر جيمس -لورد: مفكر وسياسي بريطاني ولد في إنجلترا في عام 1848 وتوفي بها في عام 1930 وكان زعيما للمحافظين ورئسا للحكومة البريطانية بين عامي 1902-1905، وخلال فترة زمنية عرض عليه مشروع أوغندا، وقد أثر عليه رفض الصّهاينة لهذا المشروع، وبدأ يهتم بالصّهيونية، وفي 2 نوفمبر 1917 صدر تصريح بلفور، الذي وجهه وزير الخارجية البريطاني إلى اللورد روتشيلد على صورة رسالة أعربت فيها الحكومة البريطانية على تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، . للمزيد أنظر: افرايم ومناحم تلمي: **معجم المصطلحات الصّهيونية**، ترجمة: أحمد بركات العجرمي، ط1، دار الجبل، عمان، 1988، ص 70-71. وكذلك: الكيّالي، **موسوعة السّياسة**، ج7، المؤسّسة العربية للدراسات والنّشر، بيروت، 1994، ص295.

² إدريس جنداري، من أجل مقارنة فكرية لإشكاليات الربيع العربي، "العروبة، الإسلام، الديموقراطية"، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2015، ص 233. وكذلك: زين نورالدين زين، **نشوء القومية العربية**، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التّركية، ط4، دار النهار للنشر، بيروت، 1986، ص 140.

³ ارتفع عددهم من 88790 يهوديا من مجموع 752000 من سكان فلسطين سنة 1922، إلى 174600 يهوديا من مجموع 1033314 سنة 1931، أمّا مساحة المستوطنات اليهودية ارتفعت من 65000 هكتار سنة 1920 إلى 120000 هكتار سنة 1932. أنظر: كلثوم السمغي، **تصور الصّحف اليهودية التّونسية للدولة اليهودية "الثلاثينات"**، دراسة في صحف، الحلوز، الفجر، **اليقظة اليهودية**، ط1، شرّتن، قبرص، 1989، ص 71.

⁴ احتلت بريطانيا: أكثر بلاد إيران وجزء من تركيا بالإضافة إلى العراق وأكثر سوريا ومصر والسودان وأكثر السّواحل الجنوبية والشرقية من الجزيرة العربية، وخضع للنفوذ البريطاني أمام عسير وشيخا الكويت والبحرين، وسلطانا عمان وحضر موت، وشيوخ الساحل المهادن والمحميات الملحقة بعدن، واحتلت فرنسا أرض تونس والجزائر والمغرب وجزء من سوريا، كما ثبتت إيطاليا نفسها في ليبيا. للمزيد أنظر: عبد الكريم محمود غرابية، **دراسات في تاريخ إفريقيا العربية (1918-1958)**، ط1، مطبعة الجامعة، دمشق، 1960.

التّصيرية كاشفة بذلك عن روحها الصّليبية وحقدّها الكبير إزاء المسلمين، وخصوصاً بعد تصريح اللّبنّي (Allenby)¹ في القدس حين أعلن "الآن انتهت الحروب الصّليبية"²، وكذلك غورو³ (Gouraud) في دمشق حين أطلق شماتته المعروفة "لقد عدنا يا صلاح الدّين"⁴، الأمر الذي زاد من قلق وتحديّ الشّعوب الإسلاميّة بما فيها الشّعب التّونسي، فعاد إلى أذهانها ذكرى الحروب الصّليبية القديمة، مما ألهب الحماسة الدّينية لديها وجعلها تستنكر كل ما يحدث للعالم الإسلامي على يد الغرب.⁵

¹ اللّبنّي: هو إيدموند هنري هاينمان ألبنّي: ولد في 23 أفريل 1861 ببريطانيا، قائد عسكري وسياسي بريطاني، مندوب سامي بمصر من (1919-1925)، اشتهر بدوره في الحرب العالميّة الأولى حيث قاد قوة التّجريدة المصريّة في الاستيلاء على فلسطين وسوريا عامي 1917 و1918، توفي 14 ماي 1936 بلندن. للمزيد أنظر: الكيّالي، موسوعة السياسة، ج 1، المرجع السابق، ص 263.

² الحروب الصّليبية: مصطلح يطلق على مجموعة من الحملات العسكريّة التي قامت بها أوروبا المسيحيّة إلى الشرق العربي والإسلامي من أواخر القرن الحادي عشر حتى التّلت الأخير من القرن التّالث عشر ميلادي (1096-1291م)، وكانت حملات دينية وتحت شعار الصّليب من أجل الدّفاع عنه وذلك لتحقيق هدفهم الرّئيسي وهو السّيطرة على الأراضي المقدسة كبيت المقدس. للمزيد أنظر: الكيّالي، موسوعة السياسة، ج 2، المرجع السابق، ص-ص 238-241.

³ غورو: هو الجنرال هنري جوزيف أوجين غورو (1867-1946)، ولد وتوفي في باريس، درس بمدرسة سان سير العسكريّة، توجه إلى السلك الاستعماري، كان من أنصار النّظرية العسكريّة الفرنسيّة القائمة على "الهجوم حتى الإبادة"، تولى منصب مندوب سامي فرنسي في سوريا ولبنان (1919-1923)، ودُكر أنّ غورو ذهب إلى قبر صلاح الدّين الأيوبي وركله ثم قال: "استيقظ يا صلاح الدّين لقد عدنا، وجودي هنا يكرّس انتصار الصّليب على الهلال". لمعرفة المزيد: أنظر: الكيّالي، موسوعة السياسة، ج 4، المرجع السابق، ص 377.

⁴ صلاح الدّين الأيوبي (1138-1193م): هو يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان بن يعقوب الذويني التكريتي العراقي، قائد مسلم أسس الدّولة الأيوبيّة التي وحدت مصر والشّام والحجاز وتهامة واليمن في ظل الزّاية العبّاسيّة السّنية بعد أن قضى على الخلافة الفاطميّة الشّيعيّة التي استمرت 262 سنة، وقاد عدة حملات ضد الصّليبيين في سبيل استعادة الأراضي المقدسة التي كان الصّليبيون قد استولوا عليها في أواخر القرن الحادي عشر، وقد تمكن من استعادة معظم أراضي فلسطين ولبنان بما فيها مدينة القدس بعد معركة حطين. الفاصلة في 1187م.

⁵ ونذكر من جملة ما استنكره الشّعب التّونسي ممّا يحدث للعالم الإسلامي ما يلي:

- استياء الرّأي العام التّونسي من الأخبار التي كانت تصله حول الأحداث الدّامية في فلسطين، واحتضان القضية الفلسطينيّة، والقيام بمظاهرات منددة بالدّاعيّة الصّهيونيّة جابوتسكي (فلاديمير جابوتسكي: يهودي روسي اشتهر هو وجماعته بعدائهم لسياسة وايزمن التي تقوم على الدّبلوماسية والتّروّي والاعتماد على بريطانيا، وكان يؤمن بضرورة الإسراع في الهجرة والاعتماد على وحدات عسكريّة يهوديّة، وقد انفصم عن المنظمة الصهيونيّة ووايزمن سنة 1922، وأسس حزب سياسي جديد سمّاه "التّصحّيحون"، ومن مبادئ هذا الحزب تكثيف الهجرة وتعمير البلاد واستغلالها والاعتماد على القوة

كما أصبحت النبرة الإسلامية ودعوة وحدة المسلمين والعودة إلى ماضي الإسلام البطولي أو السّلفية¹ هي الشّعار المضطرم في العالم الإسلامي أجمع آنذاك، وبالرّغم من تضائل فكرة الجامعة الإسلامية التي دعا إليها الأفغاني والقائمة على الدّعوة إلى تحرير العالم الإسلامي وتوحيده في إمبراطورية إسلامية تحت خلافة² واحدة، وذلك بسقوط الخلافة العثمانية³ بعد قرار 3 مارس 1924، إلّا أنّ هذا الأمر لم يمنع مواصلة المسلمين البحث في إيجاد حلول لوضع الخلافة وتوحيد العالم الإسلامي، وتمّ عقد أول مؤتمر إسلامي بمصر

المسلحة، وهو أول من نادى منذ مؤتمر بازل الصهيوني الأول 1897، بأن المملكة اليهودية يجب أن تؤلف من فلسطين كلها ومن شرق الأردن، ثم من النيل إلى الفرات، للمزيد أنظر: السّمعي، المرجع السابق، ص 36. (أنظر: الهادي التيمومي وآخرون، المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي، بيت الحكمة قرطاج، 1999، ص، 693.

–التّنديد بقصف دمشق (تعرّض دمشق للدمار والقصف الوحشي بقنابل المدافع والطائرات الفرنسية والذي بدأ يوم الأحد 18 أكتوبر 1925، ولم يتوقف إلا ظهر الثلاثاء 20 أكتوبر 1925، أنظر: هزرتي بن جلول، الجزائريون والتضامن العربي الإسلامي 1911-1954، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، سنة 2012-2013، ص 200.)

– مساندة عبد الكريم الخطابي في ثورة الريف (1919-1924). أنظر: التيمومي، المرجع السابق، ص، 693.

– استنكار الإصلاحات العديدة التي قامت بها تركيا وخصوصا انتهاجها نحو اللاتينية سنة 1929.

– استنكار الأعمال القاسية التي تقوم بها الجيوش الفاشية بطرابلس من طرد وتعذيب وفك للأراض.

– استنكار الرّأي العام التّونسي الاحتفالات الكبيرة التي وقعت في سنة 1930 لإحياء الذّكرى المئوية لاحتلال فرنسا للجزائر واعتبرها تحدّ صارخ للمشاعر الوطنية للجزائريين. أنظر: ابن ميلاد، إدريس، المصدر السابق، ص 305.

¹ السّلفية: تعني السّلفية في مفهومها الأصل، العودة إلى الاقتداء بنهج السّلف الصّالح الذي ساد العهد النبوي وعهود الخلفاء الراشدين، وهي اتّجاه ديني يعني الرّجوع إلى المصادر الأولى للشّريعة الإسلامية، ونبذ المستحدثات البدعية السّلبية المضرة بالدين الحنيف والمشوّهة لصفاء ونقاوة الإسلام الصّحيح، ويقصد بسلفية العصر الحديث النّخبة التّجديدية المتشعبة بالتّقاليد العربية الإسلامية، التي تؤمن بالمشروع النّهضوي التّجديدي من منظور الطّرح الإسلامي، وإعادة بعث الإسلام قويّا كما كان على عهد السّلف الصّالح، وقد اعتمدت السّلفية في نضالها الأسس والأهداف التالية: –الرجوع إلى مصادر الدّين الإسلامي –الإصلاح الداخلي ومقاومة البدع والانحرافات ومحاربة الطّرقية المستغلة من طرف الاستعمار –مقاومة الاستعمار ارتكازا على تعاليم الدين –فتح باب الاجتهاد لتطوير النّشريع وإيجاد فكر أيديولوجي جديد يجمع بين الأصالة والمعاصرة. أنظر: الطّاهر قاسمي، المرجع السابق، ، ص 254-255.

² الخلافة لغة: تعني من خلف، نقول فلانا خلفا وخلافة: جاء بعده، والخلافة والإمارة والإمامة والخليفة: المستخلف، ونقول خلفه، جاء بعده. والخلافة اصطلاحاً: تعرف بأنها النيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم في سياسة الدين والدنيا وفق الشرع، والخليفة السلطان الأعظم. أنظر: نفسه، ص 291.

³ جمال حمدان، العالم الإسلامي المعاصر، ط 1، عالم الكتب، القاهرة، 1971، ص ص 132-134.

سنة 1926، لكنه لم يسفر عن شيء في ظل التنافس حول منصب الخلافة¹ ومحاولة الإنجليز الرّامية لإحباط أي محاولة توحيدية جامعة²، وهذا ما نستشفه من خلال تصريح لوزير المستعمرات البريطانية إبان سقوط الخلافة الإسلامية: "إنّ الحرب علّمتنا أنّ الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي يجب أن نحاربه وأن نقاومه، وليست بريطانيا وحدها هي التي تلتزم بذلك بل فرنسا أيضا... إنّ سياستنا تهدف دائما وأبدا إلى منع قيام الوحدة الإسلامية أو التّضامن الإسلامي ويجب أن تبقى هذه السّياسة كذلك".³

وعليه فإنّ الدّول الغربيّة النّصرانية كانت تهدف إلى تفكيك العالم الإسلامي، وتفتيت البنية الاجتماعيّة الملتقّة حول العقيدة الإسلامية، وتكوين قوى اجتماعية مختلفة الولاء العقدي والقومي فيسهل ركوبها وتسييرها وما تصريح الضّابط الفرنسي الكابتن أدينو⁴ في كتابه "السّياسية الصّريحة"⁵ إلاّ أكبر دليل على ذلك: "الإسلام يهدد لفرنسا وخطر عظيم على نفسها، لأنّه لو انحاز المسلمون عن جانب فرنسا كان في ذلك لضرر كبير على قوّتنا.... أليس من الواجب علينا إذن أن نقلّل من درجة قوّتهم وديانتهم الزّاهرة التي تودّ صعودا وانتشارا؟ وإنّ ليشدّ خوفنا من اجتماع طوائفهم المختلفة يوما ما على كلمة واحدة واتّفاقهم علينا...".⁶

¹ كان التنافس مضمرا حول منصب الخلافة بين الملك حسين بن علي، والملك فؤاد في مصر، وأمان الله خان في أفغانستان. للمزيد أنظر: عبد الغني عماد، الحركات الإسلامية في الوطن العربي، المجلد الاول، ط1، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 2013، ص 61.

² غرابيبيّة، المرجع السابق، ص18/م. وكذلك: عبد الغني عماد، المرجع السابق، ص ص 61-66.

³ محمد بن علي آل عمر الزيلعي، الطّائفة الكاثوليكية وآثرها على العالم الإسلامي، ط 1، مركز البحوث والدراسات، الرياض، 1432 هـ، ص 385.

⁴ أدينو هو أحد كبار رجال السلطة الفرنسيّة في المغرب الأقصى ومن أقدمهم، قدم إليه تقريبا في سنة 1327هـ (مدير الاستخبارات لمدينة فاس وضواحيها)، له كتاب "محور السّياستين".

⁵ تُرجم وطُبّع بالعربيّة 1347هـ، فقامت فرنسا بجمع نسخه ومنعت نشره لأنّه صرّح فيه بسياستها السّرية، إذ نبّه هذا الفرنسي قومه إلى اجتتاب كل ما يقوّي شوكة المسلمين من علوم إسلامية أو أوربية. وقد نشرت جريدة (الفتح) جملا من بينها هذه الجملة. أنظر: المنار: "آراء ساسة فرنسا في سياستها الإسلامية"، ج3 المجلد 31، ربيع الآخر 1349هـ / 22 سبتمبر 1930م، ص 221.

⁶ المنار: "آراء ساسة فرنسا في سياستها الإسلامية"، المقال نفسه، ص 221.

ولذا انسجمت الخطط الاستعمارية في الحرب ضد الإسلام وديار المسلمين مع قوى التّصير الكاثوليكية بقيادة الكرسي البابوي في روما، وقوى التّصير البروتستانتية بقيادة اليهودية العالمية فأصبحت هناك علاقات قوية ومصالح مشتركة بين الغرب الاستعماري والبابوية وكنائسها ولكن خارج النّطاق الأوربي.¹

وكان من نتائج هذه السّياسة تفكّك وتمزق العالم الإسلامي بانتشار فكرة القوميات كالقومية العربية² والقومية الطورانية³، وتعدّدت الولاءات⁴ وظهرت الأفكار الغربية خصوصا لدى المتمردين في الدول الأوروبية وكذلك بداية انتشار الايديولوجية العلمانية⁵ والتي بدأت

¹ إذ استفادت البابوية من تلك العلاقة الخارجية في دعم إرسالاتها التنصيرية في ظل تلك الحكومات الاستعمارية لأغلب أجزاء العالم الإسلامي، كما أن تلك الحكومات الغربية استفادت من البابوية وكنائسها لتركيعة الشّعوب المحتلة عقائديا ونفسيا لأطماعها الاستعمارية، للمزيد أنظر: الزيلعي، المرجع السابق، ص ص 403-407.

² القومية العربية: في مفهومها المعاصر هي الإيمان بأنّ الشعب العربي شعب واحد تجمعته اللّغة والثّقافة والتّاريخ والجغرافيا والمصالح، إضافة إلى مبدأ حرية الأديان (هدف القوميين العرب)، وهي تهدف إلى تحقيق استقلال الشّعب العربي استقلالاً تاماً وبعث الحضارة العربية وتحقيق الوحدة بين الأقطار العربية لتتشكّل الأمة العربية دولة واحدة تستطيع أن تساهم في الحضارة الانسانية، وظهرت في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كردّ فعل على السّياسة القمعية للحركة القومية التّركية الطّورانية ممثلة في قيادتها "جمعية الاتحاد والترقي" اتّجاه العرب، والتي عملت على تنريكهم وإلغاء وجودهم الثّقافي، واتّسع نشاطها فيما بعد عند ظهور دولة إسرائيل 1948. للمزيد أنظر: الكيالي، موسوعة السّياسة، ج4، المرجع السابق، ص832.

³ الطّورانية: نزعة قومية متطرفة، تهدف إلى سيادة الطّائفة الطّورانية نسبة إلى منطقة طوران في إدارة شؤون الدّولة التّركية، وقد هاجرت هذه الطّائفة من شرق آسيا، وهم الأتراك السّلاجقيون والأتراك العثمانيون والتّتار في جنوب روسيا والمجريين والفنلنديين، والبلطيقين والسبيريين والمغوليين في شرق آسيا، وكان من أبطالهم أتلا وأرطغل وجنكيزخان، وتيمورلنك، وقد ساهمت هذه الحركة المتطرفة إلى جانب الحركتين الصّهيونية والماسونية في الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني ومشروعه الوحدوي التّحري، ولذلك تحوّلت الحركة الطّورانية سنة 1909 من دعوة مثالية إلى حوكة سياسية، وفي سنة 1911 وبصفة رسمية "الجمعية الطّورانية للإعلام والعلوم" وأصبحت لها مجلة تحمل اسم "يورك توردي". أنظر: دهاش، المرجع السابق، ص 142.

⁴ حمدان، المرجع السابق، ص 138.

⁵ العلمانية أو اللائكية: مفهوم سياسي اجتماعي: تبلور بأوروبا إبان عصر التّنوير والنّهضة، عارض ظاهرة سيطرة الكنيسة على الدولة وهيمنتها على المجتمع، وهي كما تعرفها دائرة المعارف البريطانية: أنّها حركة اجتماعية تهدف إلى صرف النّاس، وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالدّنيا وحدها، واعتماد كلمة علماني أو مدني للتعبير عن كل أمر غير ديني، وللتعبير عن فصل السّلطة الدّينية عن الحكومة ومؤسساتها والسّلطة السّياسية وحياة المجتمع، أي عدم خضوع

تصور للشّعوب الإسلامية أنّ التّمسك بالدّين يتعارض مع الديمقراطية والحرية والعلم والتّقدم وأنّه لا سبيل للخروج من المستنقع إلّا بالتّخلي عن الدّين أو بفصل الدّين عن الدّولة.¹

وقد كان للتّجربة التّركية التي أعلنت مباشرة بعد سقوط الدّولة العثمانية إحادها ونبذها للشّريعة الإسلامية، وتركها للغة العربية وكتابة اللغة التّركية بالحروف اللاتينية دور في زيادة طمع الدّول الغربية المستعمرة للبلاد الإسلامية في إخراج المسلمين من دينهم.²

وضمن هذا المضمار يمكن القول أنّ عقد المؤتمر الأفخارستي بتونس يندرج ضمن الهجمة الاستعمارية الغربية المسيحية التي تستهدف العالم الإسلامي لإخراج شعبه من الإسلام إلى النّصرانية أو الإلحاد.

1-2-2- إفرازات الحرب العالمية الأولى:

لقد كان للإفرازات الجديدة التي شهدتها السّاحة الدّولية بعد الح.ع.1 كالمبادئ الولسونية وخاصة مبدأ حق الشّعوب في تقرير مصيرها، وبداية انتشار الشّيعوية ودعايتها المناهضة للإمبريالية الاستعمارية، إضافة إلى أفكار الجامعة الإسلامية، مع اكتساب فرنسا بعض أوراق الانتداب على بعض المناطق العربية دور كبير في دفع فرنسا إلى توطيد نفوذها وترسيخ مركزها وتثبيت أركان إمبراطوريتها الاستعمارية من مخاطر الدّعوات والتأثيرات الخارجية.

فعقدت بعد احتفالها بالقضاء على ثورة الرّيف والقاء القبض على عبد الكريم الخطّابي³، المؤتمر الأفخارستي بتونس بالتّزامن تقريبا مع تنظيم الاحتفالات الرّسمية للذكرى

الأنشطة البشرية والقرارات وخصوصا السّياسية منها لتأثير المؤسّسات الدّينية. أنظر: الطاهر قاسمي، المرجع السابق، ص 264. وكذلك: الكيّالي، موسوعة السّياسة، ج4، المرجع السابق، ص 179.

¹ نعم محمد الصّالح، المرجع السابق، ص 47.

² المنار، "الفتح الأوربي والفتح الإسلامي"، ج2، م31، ربيع الأول 1349هـ / أوت 1930، ص 150.

³ محمد بن عبد الكريم الخطّابي: رجل سياسي وقائد عسكري مغربي، ولد في أجدير بالمغرب سنة 1882، كان قائد المقاومة الرّيفية ضد الاستعمار الإسباني والفرنسي، ويعتبر أول من أشاع استعمال مصطلح المغرب العربي الكبير بعد أن أسّس لجنة تحرير المغرب العربي، كما كان يلقب بأمرير الرّيف أو أسد الرّيف، توفي في 6 فيفري 1963. للمزيد

المثوية المخلّدة للاحتلال الفرنسي للجزائر¹ وذلك من أجل إبراز التّقوق الحضاري الفرنسي واسترجاع مكانتها الدّولية التي عرفت انتكاسة أثناء الح.ع.1.

فكان المؤتمر مع العيد المئوي فرصة لرد الاعتبار، ودحض ادّعاءات تذرّ الشعوب المُستعمَرة من السّياسة الاستعمارية الفرنسية، وإقناع الغير بمدى نجاعة فلسفتها ومنظومة أفكارها وأساليبها الاستعمارية في دمج وتوطين مستعمراتها.²

1-2-3 - تصاعد المد الفاشي وتوتر العلاقات بين فرنسا وإيطاليا:

لقد امتد التّوتر الحاصل بين فرنسا وإيطاليا إلى تونس وخصوصا أمام كثرة السّكان الإيطاليين في تونس وتفوقهم على السّكان الفرنسيين والذي شكّل خطرا على المستعمرة الفرنسية لاسيما بعد احتلال إيطاليا لليبيا 1911، وسعيها لمنافسة الرّأسمال الفرنسي في تونس عن طريق إنشاء البنوك، والقيام بتأسيس مراكز ثقافية لدمج الليبراليين للأيديولوجية

ينظر: محمد بن عبد الكريم الخطابي، صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار، تحقيق محمد علي داهش، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2002، ص10.

¹ الاحتفال المئوي: وهو احتفال بمرور مائة عام على الاستعمار الفرنسي في الجزائر، حيث أقامت فرنسا احتفالات ضخمة رسمية في سنة 1930 دامت ستة أشهر حاولت من خلالها إظهار أنّها قهرت العروبة والإسلام، وتعود فكرتها إلى 1922، وأعتبر الحاكم العام بيار بورد الذي عيّن خلفا لفيوليت خريف 1927 منظم هذه الاحتفالات، وكانت هاته الاحتفالات بالإضافة إقامة تمثال لامورسيار سنة 1927 (وهو الذي شهد هزيمة واجهاض المقاومة في غرب الجزائر) خاصة وأنّه كان شاهرا سيفه في وجه الجزائريين سببا في شعور الجزائريين بالإهانة لما تحمله هذه الأحداث من استقزازات. وقد كلّفت هاته الاحتفالات ما لا يقلّ عن 132 مليون فرنك، وكان برنامج الاحتفالات متنوّعا من إقامة عشرات المعارض على اختلاف أنواعها إلى جانب الاستعراضات والمحاضرات والألعاب والأفلام والمطبوعات والجولات السّياحية وافتتاح لمنشآت جديدة زيادة على المسرحيات التي تستحضر صور الإنزال بسيدي فرج، كما عرضت العديد من الأفلام حول المناسبة منها فيلم الذّكرى المئوية والذي أخرجه جون رينوار لحساب الحكومة العامة، وتنظيم لقراية 56 مؤتمرا وطنيا. وقد حضر هذه الاحتفالات الرّئيس الفرنسي قاستون دو مارق في شهر ماي لتمجيد الاستعمار. للمزيد أنظر: إسماعيل العربي، " السياسة الاستعمارية في بلدان المغرب العربي سنة 1930"، مجلة القرطاس، العدد 8، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، جانفي 2018، ص ص 58-62.

² إلياس نايت قاسمي، الذّكرى المئوية للاحتلال الفرنسي للجزائر وأثرها على الحركة الوطنية الجزائرية، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2002/2003، ص 51-52.

الفاشية¹، ومحاولة إثارة المشاكل في تونس بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال منحها للاستقلال الدّخلي النّسبي لليبيا 1919، الأمر الذي استدعى فرنسا وبكل الطّرق أن تحافظ على هيمنتها والحذر من محاولات إيطاليا المتزايدة للاستيلاء على تونس.²

1-2-4- استقلال الفاتيكان 1929:

أصبحت الفاتيكان³ دولة مستقلة معترف بها دوليا بعد أن وقّع البابا بيوس الحادي عشر (1922-1939) وموسوليني رئيس الحكومة الإيطالية معاهدة لاتيران (Laterano) في 11 فبراير عام 1929، وتمّت المصادقة عليها في 7 جوان من العام نفسه، وأصبح بموجبها للفاتيكان مندوبين في الدّول الأجنبية يدعى (القاصد الرّسولي) وهو يعادل مرتبة السّفير،⁴ كما ألغت هذه المعاهدة تدخل البابوية في الشّؤون الإيطالية، وأصبحت مسؤولية فقط عن أراضي دولة الفاتيكان، وألغت حق البابوية في الاشتراك في المؤتمرات السّياسية الدّولية أو إبرام معاهدة تحالف مع الدّول الأخرى.⁵

2- إنعقاد المؤتمر الأفخارستي 1930:

¹ الفاشية: (Fascism)، وهي حركة أسسها بنيتو موسوليني في ميلانو في 19 مارس 1919 بتأييد من جماعات كبيرة من قدامى المحاربين وقدامى النّقابيين الثّوريين، ويلخص موسوليني الفاشية بأنّ إرادة الشّعب ليست الوسيلة للحكم، وإنّما الحكم هو القوة وهي التي تفرض القانون. وتمنح الفاشية السّلطة التّفيذية أفضلية كبيرة على حساب السّلطة الأخرى، وتتمثل هذه السّلطة في شخص رئيس الوزراء. وطبّق موسوليني هذا النّظام السّياسي بعد وصوله للسّلطة في 30 أكتوبر 1922، ومنذ ذلك الحين اقترنت الفاشية باسمه. كما تطلق الفاشية على الايديولوجيات والحركات السّياسية وأنظمة الدّولة التي تتّخذ موقفا قوميا متطرفا، وتجنح إلى التّسلط والعسكرة. للمزيد أنظر: الكيالي، موسوعة السّياسة، ج4، المرجع السابق، ص449.

² Nouredine Sraieb, Op. cit, p 92-93.

³ مدينة الفاتيكان المعروفة رسميا باسم دولة مدينة الفاتيكان، تقع في قلب مدينة روما عاصمة إيطاليا التي تحيط بها من جميع الاتّجاهات ويفصلها عنها أسوار خاصة، وهي أصغر دولة من حيث المساحة في العالم، تبلغ مساحتها 44 هكتارا، ويعتبر البابا رئيس هذه الدّولة ويده كافة السّلطات التّشريعية والتّفيذية. للمزيد أنظر: الكيالي، موسوعة السّياسة، ج4، المرجع السابق، ص440.

⁴ الزيلعي، المرجع السابق، ص 149-150.

⁵ نفسه، ص 176. وكذلك: أحمد تركي الشّريدة، المرجع السابق، ص 398.

2-1- التّعريف بالأفخارستيا والمؤتمر الأفخارستي:

2-1-1- الأفخارستيا:

هي كلمة يونانية تعني الشكر، وإذا رفع الشكر لله اتخذ شكل الصلاة، أي "صلاة الشكر" أو "أداء شكر لله"، وهو سر (طقس مفرد طقوس) التناول أو القربان المقدس، وهو أحد الأسرار السبعة المقدسة¹ في الكنيسة الكاثوليكية، والتي يرى النّصارى وجوب المحافظة عليها، وسر الأفخارستيا له قداسة عالية عند النّصارى، وتسمّى بهذا الاسم منذ القرن الثّاني للميلاد، وفيها يقدم النّصارى لله الأب التّسبيح والشّكر عن كل ما وهبهم إياه في الخلق والخلّاص بذبح ابنه على الصّليب من أجل خلاصهم، فالأفخارستيا تعني (الخلّاص والحياة في عبادة الله وتمجيده)، ويتضح هذا في ألفاظ ختام الصلاة الأفخارستية وهي: (به ومعه وفيه، لك أيّها الإله الأب القدس في وحدة روح القدس، كل تمجيد وإكرام، الآن وإلى الأبد)، ويقال أيضا المحفل الأفخارستي، وذلك لأن الأفخارستيا يحتفل بها في جماعة المؤمنين النّصارى وتكون يوم الأحد لكونه اليوم الذي خلق الله فيه العالم وقام فيه المسيح من الأموات، ويتم في هذا الاحتفال بتناول الخبز والخمر لأنهما في اعتقادهم يصلان إلى جسد المسيح ودمه، واستمرار الكنيسة في طاعتها له عن طريق التذكير بالعشاء الذي تناوله المسيح رفقة تلاميذه عشية ألامه، والتي في صبيحتها قتل ربّهم على الصّليب، لذلك تسمّى عندهم أيضا "مائدة عرس الحمل" والتي تأتي الأفخارستيا الأرضية استباقا لها أي علامة سابقة لوليمة العرس السماوية.² ولسر الأفخارستيا تسميات متعددة منها: مائدة الرّب، كسر الخبز، الذّبيحة المقدسة، القدّاس،³ المناولة، القربان المقدّس، العشاء الرّباني.⁴

¹ الأسرار السبعة: سر المعمودية، زيت الميرون، القربان المقدس، سر التوبة، سر مسحة المرضى، سر الزّيجة، سر الكهنوت.

² محمد بن علي بن محمد آل عمر، الطائفة الكاثوليكية: فرقها وعقائدها وآثرها على العالم الإسلامي، رسالة دكتوراه، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، 1428هـ/2007م، ص 279-289.

³ الزيلعي، الطائفة الكاثوليكية وآثرها على العالم الإسلامي، المرجع السابق، ص 102.

⁴ عناية، المرجع السابق، ص 195.

2-1-2- المؤتمر الأفخارستي:

يمثل المؤتمر الأفخارستي أو المؤتمر القرباني حركة دينية تخص العبادة المسيحية، ظهرت في القرن التاسع عشر في أوروبا كرد فعل على العلمانية، وهجمات الإلحاد¹، فهي من منظور رجال الدّين الكفاح الأفضل ضد معارضي الكنيسة الكاثوليكية، وهي تهدف على حسب البابا ليون الثالث عشر (1878-1903) إلى إشراك جميع المسيحيين في القدّاس، فالمؤتمر القرباني ليس حكرا على رجال الدّين واللاهوتيين² فقط، وذلك من أجل تجديد الحياة المسيحية وتحفيز إيمان الكاثوليك من خلال التّواصل المتكرر بينهم، لتعميق المذهب الأفخارستي وتكريم السرّ المقدس³.

وبالإضافة إلى نشر العقيدة المسيحية في العالم، وتمجيد الكنيسة في وجه الشّعوب غير المسيحية، ينتقل المؤتمر من دولة إلى دولة، ومن قارة إلى قارة لمواجهة العولمة العلمية والاقتصادية والسّياسية وجميع التّيارات الاجتماعية، و" تذكّر الكنيسة من خلال هذه المحافل أنّها كانت الأممية⁴ الأولى، وأنّها ستبقى الأكثر أمانا على الإطلاق".⁵

وتعود فكرته إلى تاريخ 29 جوان 1873، وصاحبة الفكرة هي امرأة عادية من تور (Tours) تدعى (إيميلي تاميزي) (Emilie Tamisier) (1834-1910) والتي استلهمت من القديس بيير جوليان ايمارد (Pierre-julien Eymard) (1811-1868)

¹ الإلحاد: عقيدة قوامها إنكار وجود الله، ولعرفة معناه الواسع أنظر إلى: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مج 1،

تعريب خليل أحمد خليل، ط2، منشورات عويدات، بيروت -باريس، 2001، ص 107.

² اللّاهوتيين: وهم الذين يهتمون بدراسة علم اللاهوت (علم الكلام)، والذي يبحث في وجود الله وذاته وصفاته وصلاته بالعالم والانسان، والإيمان بالتّصوص المقدّسة، فهو علم العقيدة عند النّصارى، ويقوم عند المسيحيين مقام علم الكلام عند المسلمين، ويسمى أيضا علم الربوبية والالهيات. للمزيد أنظر: لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مج 3، المرجع السابق، ص 1450-1452.

³ Jean Comby , *L'eucharistie au 20^e siècle*, Lyon , janvier, 2000, p p 2-3.

⁴ الأممية: مبدأ سياسي يتجاوز القومية، ويشار إلى أنصار هذا المبدأ على أنّهم أمميون، وهم الذين يعتقدون عموما على شعوب العالم أن تتحد عبر الحدود الوطنية أو السّياسية أو الثقافيّة أو العرقية أو الطبقيّة لتعزيز مصالحها المشتركة.

⁵ Giovanni Hoyois, « Le cinquanteaire des congrès eucharistiques internationaux », *La revue catholique des idées et des faits*, année 11, N°16 , Vendredi 10 juillet 1931, p 25.

⁶ Ibid , p 23.

مؤسس جماعة الأسرار المباركة والذي دعا إلى "رسول القربان المقدس"¹، وبمبادرة هذه المرأة وبمساعدة رجل غني في ليل (Lille) يدعى فلوپير فرو (Flaubert Frau)² وأشخاص عاديين وكهنة وأساقفة، وبمباركة البابا ليون الثالث عشر عقد أول مؤتمر أفخارستي عالمي في ليل المدينة الصّناعية الكبرى شمال فرنسا في عام 1881 وحمل موضوع "القربان المقدّس ينقّض العالم"،³ وحضره الألاف من المشاركين بما فيهم الأجانب من الدّول المسيحية، ومنذ هذا المؤتمر انتشرت فكرة المؤتمرات في جميع أنحاء العالم.⁴

وكان المؤتمر في الفترة الأولى يقام بشكل حصري في فرنسا وبلجيكا: ليل 1881، أفينون (Avignon) 1882، لياج ببلجيكا (Liège) 1883، فريبورغ (Fribourg) (سويسرا) 1885، تولوز (Toulouse) 1886، باريس (Paris) 1888 ثم (Anvers) ببلجيكا 1890، (Jerusalem) سنة 1893.

ثم استؤنف التّناوب الفرنسي البلجيكي لمدة عشر سنوات ريمس (Reims) 1894، باراي لومونييل (Paray-le-monial) 1897، بروكسل (Bruxelles) 1898، لورد (Lourdes) 1899، أنجـرس (Angers) 1901، نامور (Namur) 1902، أنغوليام (Angoulême) 1904.

وفي الفترة الثانية (1904-1914) أصبح المؤتمر يعقد كل سنة مرة، وأكثر تجولا من السّابق، إذ دعا البابا لعقد القربان المقدس بروما (Rome) وكان ذلك سنة 1905، ثم عاد المؤتمر سنة 1906 إلى أصوله الأولى ليعقد في تورناي (Tournai) البلجيكية، ليتوجه بعدها إلى الغرب البروتستانتية، فعقد في ماتز (Metz) الألمانية 1907، لندن (London) 1908، كولونيا (Cologne) الألمانية 1909، مونتريال (Montréal) الكندية 1910. ثم تحول إلى

¹ *Pèlerins en marche*, Février 2007, N°17, "Les congrès eucharistiques", p. 6.

² Ks. Jozef Roginski, *Podroz do Afryki na kongres Eucharystyczny w Kartaginie*, Odpitka z Zycia i Pracy, Lomza, 1930, p. 6

³ *Pèlerins en marche*, Op. cit, p. 6.

⁴ Roginski, Op. cit, p. 6.

العواصم الكاثوليكية الكبيرة، مدريد (Madrid) 1911، فيينا (Vienne) 1912، مالطا (Malte) 1913¹، ثم عقد المؤتمر في لورد (Lourdes) بباريس 22 يوليو 1914.

وبعد أن بدأت ح.ع.1 توقفت المؤتمرات إلى غاية 1921، لتبدأ بعدها الفترة الثالثة بحيث أصبح المؤتمر الأفخارستي يعقد كل سنتين مرة، وذلك نظرا لأهمية هذا الحدث بالنسبة للمسيحيين وما يتطلبه من تحضيرات وأعمال تتجاوز أكثر من 18 شهرا، وتعد هذه المؤتمرات وفقا لإرادة البابا، فهو الذي يُعَيِّن مكان انعقاده.²

واستؤنفت سنة 1922 في روما³ الإيطالية، ثم امستردام (Amsterdam) الهولندية سنة 1924، وفي شيكاغو (Chicago) الأمريكية سنة 1926⁴، وعقد سنة 1928 في سيدني (Sydney) بأستراليا حيث استقبلت مدينة سيدني التي بها ألف استرالي حوالي 200 ألف زائر⁵، وفي كل مرة جمعت الاحتفالات الدينية حشودا كبيرة من جميع أنحاء العالم.

ومنه فإن تنظيم هذه المؤتمرات وإلى غاية عام 1910 تمت في قارة أوروبا، ثم بدأت بعدها بالتجول عبر القارات، كما أنها أصبحت بشكل سنوي عشية الحرب العالمية الأولى⁶، ومرة كل سنتين بعدها، وكذلك فإن هذه المؤتمرات الأفخارستية⁷ لا تقام فقط في البلدان الكاثوليكية كروما وفيينا ومدريد بل وجدت تعاطفا عالميا، حيث أقيمت حتى في الدول البروتستانتية كلندن وشيكاغو وسيدني، وكانت كل الحكومات تبذل مجهوداتها لإنجاح هذه المؤتمرات والترحيب بالممثلين الكاثوليك.⁸

¹ Hoyois, ,Op. cit ,p 24.

² L'Afrique du Nord illustrée ,31 mai 1930, N°474 ,année 25, Le 30 congrès eucharistiques internationale de Carthage ",p 6.

³ Guy Zelis ,Les intellectuels catholiques en Belgique francophone aux 19 siècles et 20 siècles ,Presses universitaire de Louvain ,Belgique ,2009,p-p,86-88.

⁴ Jacques Alexandropoulos,"Entre archéologie universalité et nationalismes: le trentième congrès eucharistique International de Carthage", **Anabases** ,9-2009 ,343. p 53-54. ,(miss en ligne le 1 mars 2012).

⁵ L'Afrique du Nord illustrée ,31 mai 1930, Op. cit. ",p 6.

⁶ Alexandropoulos , Op. cit ,p 53-54.

⁷ أنظر الملحق رقم 1، ص 364.

⁸ Bulletin Mensuel de l'office du Protectorat Français en Tunisie ,Février 1930 ,année 23,N° 225, " Le congrès eucharistique de Carthage ", p 23.

2-2- دوافع وعوامل اختيار قرطاج لعقد المؤتمر الأفخارستي الدّولي الثّلاثين:

إن عقد المؤتمر القرطاجي بتونس الأرض العربية الإسلامية¹ وبمدينة قرطاج² له أكثر من معنى وأكثر من دلالة، فاختيار قرطاج لتنظيم المؤتمر كان من أجل تحقيق أهداف دينية وسياسية على حد سواء، فالمؤتمر جاء لتذكير الكنيسة الحشود الكاثوليكية بموت الملك الفرنسي سان لويس (Saint-Louis) - لويس التاسع - في تل ببيرسا في 25 أوت 1270 عندما كان مسؤولاً عن الحملة الصليبية الثّامنة ضد تونس، هذا الحدث الذي لم يُمح من ذاكرة الفرنسيين إلى درجة أنّ الملك الفرنسي لويس فيليب³ (Louis-Philippe) (1830-1848م) عندما قام بإحياء ذكره بنى فوق قطعة أرض صغيرة⁴ في المكان الذي توفي فيه بتل

¹ كان تعداد السّكان سنة 1931 في تونس يتكون من 195293 نسمة أوروبية، و2.160.000 نسمة من المسلمين للمزيد، أنظر: Mahjoubi , Op. cit, p 109.

² قرطاج: مدينة تونسية تقع على بعد 16 كم تقريبا من الشمال الشرقي لمدينة تونس، اسمها الفينيقي "قרת حدشت" يعني المدينة الجديدة، أسسها سنة 814 ق م الفينيقيون الذين أنشؤوا من صور بقيادة ديدن وتسمى أيضا "إيسا" أخت "بيغماليون" ملك صور، وبعد حروب دامت قرن من 264 ق م إلى 146 ق م، استولى عليها الرومان بقيادة "سيبيون" بعد حصار دام ثلاث سنوات في سنة 146 ق م، ثم استولى عليها الوندال القادمين من شمال شرق أوروبا نحو إسبانيا ثم شمال إفريقيا بقيادة "جنسريك" في سنة 439 م وجعلها عاصمة له، وحاول فرض الأريوسية بدلا من الكاثوليكية، وعمل على اضطهاد أتباعها، وبعد ذلك أخضعها "جستينيان" السلطة الأمبراطورية البيزنطية سنة 533 م، وفتحها العرب المسلمون سنة 698 م، وبعد ألف سنة من ذلك حوّل بناؤو تونس وإيطاليا قرطاج إلى مقلع ضخم يستخدمون حجاره ورخامه، فأدّى ذلك إلى اندثار معالمها، ولم يبق منها إلا الآثار الموجودة في متحف "باردو" بتونس، والمتحف الوطني بقرطاج، ونصوص بونية في لوفر باريس وبريتش ميوزيوم بلندن، ومتحف بيروت، وللمزيد أنظر: مادلين هورس ميادان، تاريخ قرطاج، ترجمة إبراهيم بالش، ط 1، منشورات عويدات، بيروت، باريس، 1981. وكذلك:

R. P. Silvio Gaston Moreno, **Carthage éternelle- un pèlerinage aux ruines chrétiennes de Carthage**, Imprimatur R. P. Daniel Cima ,Institut du Verbe Incarné ,Tunis,2013,p-p,15-20.

³ لويس فيليب الأول (1773-1850م): ملك فرنسي، تربّع على العرش بعد ثورة جويلية 1830، واستمر في الحكم إلى أن خلع في ثورة 1848 التي قادها البرجوازيون الليبراليون والذين أعلنوا عن قيام الجمهورية الفرنسية الثّانية (1848-1851)، ومات في منفاه بإنجلترا في 26 أوت 1850، أنظر خير الدين التّونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ط1، مطبعة الدّولة بحاضرتها تونس المحمية، 1284هـ، ص131. وكذلك: الكيّالي، موسوعة السّياسة، ج5، المرجع السابق، ص537.

⁴ لقد استغل الملك الفرنسي شارل العاشر (الذي أزيح من العرش، ولكن لم يتم التّعرف على سقوطه بتونس) شعور الفرع الذي استولى على الباي حسين وحاشيته حين بلغه خبر سقوط الجزائر 1830، فتحصل عن طريق القنصل الفرنسي وهو ماثيو دي ليسبس (Mathieu de Lesseps) في 8 أوت 1830 على معاهدة في ثمان مواد حررت بباردو ينص فصل

ببرسا كنيسة صغيرة¹، ونقش على صخر رمادي لويس فيليب أول ملك فرنسي أقام هذا النصب التذكاري 1841، وقام بتعيين بورغاد² (Bourgade) قسيسا عليها إلى غاية 1856، وفي عام 1875 في عهد البابا بيوس التاسع³ (Pie 9) تمّ البدء في ترميم هاته الكنيسة المتواضعة.⁴

وفي 21 جوان سنة 1881 أي بعد ستة أسابيع من توقيع معاهدة باردو عين البابا ليون 13⁵ لافيغري (Lavigrie) مديرا للنيابة الرسولية بتونس ثم كردينا¹ 1882²، ثم أرجع

سري منها على التنازل الأبدي لفرنسا عن ربوة ببرسا لإقامة كنيسة في المكان الذي مات فيه الملك لويس التاسع، للمزيد، أنظر:

- **Les Annales coloniales**, Revue mensuelle illustrée ,Avril 1930 , « La France catholique en Tunisie. », Georges GOYAU ,p 8.
- Victor Guérin , **La France catholique en Tunisie a Malte et en Tripolitaine** ,éditeurs, Alfred mame et fils ,Tours ,p p 20-21.

¹ هذه الكنيسة مازالت موجودة معروفة بكنيسة القديس لويس وهي بجوار متحف الآثار القديمة الذي أنشأه الآباء البيض قرب حلق الوادي. للمزيد من المعلومات أنظر: سامية عامر، **المرجع السابق**، ص 90-91. وكذلك محمد أمين، **المرجع السابق**.

² فرانسوا يورغاد (1806-1866): ولد بقوجون (Gujan) في 7 جويلية 1806، توج قسا في أفريل 1832، وعين في 1836 مساعد أسقف بمبروند، أول من تزعم حركة التنصير بالمغرب العربي في القرن التاسع عشر، استهل جهوده في الجزائر التي وفد إليها 18 مارس 1838، وانتقل إلى تونس 1840 مصاحبا لـ "أخوات الصفاء الساعات في مصالح الفقراء والمرضى ابتغاء مرضاة الله" إثر خلافهن مع أسقف الجزائر، فأسس مدرسة ومعهد سان لويس، كما أسس جمعية سان لويس التنصيرية 1847، له عدة مؤلفات أهمها: "مسامرة قرطاجنة"، رحل عن تونس 1858، توفي سنة 1866. للمزيد أنظر: ممدوح حسين، **المرجع السابق**، ص 74. وكذلك: حميدة حمايدي عياري، "المشروع التبشيري الكاثوليكي الفرنسي بالجزائر وتونس في القرن التاسع عشر، أخوات القديس يوسف وفرانسوا يورغاد نموذجا"، **مجلة مسارات**، ع 2، مركز مسارات للدراسات الفلسفية والانسانيات، تونس، 2014، ص 124.

³ البابا بيوس التاسع: ولد باسم جيوفاني مارياماستاي-فيريتي في 13 ماي 1792 بإيطاليا، تعد فترة حكمه الأطول في تاريخ الكنيسة حيث خدم من 16 جوان 1846 حتى وفاته في 7 فيفري 1878، وهي فترة ما يقرب من 32 عاما. للمزيد أنظر: الكيالي: **موسوعة السياسة**، ج 1، **المرجع السابق**، ص 661.

⁴ **L'Afrique du Nord illustrée**, 31 mai 1930, Op-cit, p 6.

⁵ البابا ليون 13: وهو فينشنزوبيتشي (Vincenzo pecci) ولد بإيطاليا 2 مارس 1810، وانتخب بابا في 20 فيفري 1878 وتوفي 20 جويلية 1903. وهو من أشهر الباباوات الذين تعاقبوا على الفاتيكان، ويعود له الفضل في تخفيف التوتر الذي كان يسود العلاقات بين الكنيسة وغالبية دول أوروبا وحتى أمريكا (باستثناء إيطاليا)، وهذا ما أعطى للكنيسة دورا على الصعيد العالمي. للمزيد أنظر: الكيالي: **موسوعة السياسة**، ج 5، **المرجع السابق**، ص 612.

⁶ النائب الرسولي: خبر أو أسقف يوفده البابا بصفة عادية لتمثيله أو لممارسة اختصاصاته.

كرسي الأسقفية³ إلى قرطاج في 10 نوفمبر 1884 وعين لافيغري رئيسا لأساقفتها، كما أصدر أمرا بتشديد كاتدرائية⁴ على تل سان لويس بقرطاج والتي تم تكريسها في 15 ماي 1890⁵، ومنح رئيس أساقفتها لقب رئيس إفريقيا استنادا لمقولة البابا ليون التاسع⁶ سنة

¹ الكالردينال: يحوز أعلى المهام في الكنيسة الكاثوليكية بعد البابا، يعين من طرف البابا نفسه، عادة من بينهم يتم إختيار البابا الجديد، أنظر: عزالدین عناية، نحن والمسيحية في العالم العربي وفي العالم، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب، 2010، ص 198.

² GOYAU, Op. cit ,p 9.

³ الأسقفية: هي رتبة دينية تمنح حاملها الذي يدعى أسقف درجة الرعاية للبشر المسيحيين على أن يكون قادرا على تعليمهم ووعظهم في أصول الدين المسيحي، وتمتد سلطة الأسقف إلى عدة مدن، وتليها رتبة (القسيسية) وهي كذلك رتبة دينية تعني الشيخ أو الكاهن، ويدعى صاحبها القس أو القسيس وهو أقل درجة من الأسقف، وسلطته تقف على حدود القرية أو المدينة ولا تتعداها، وتليها رتبة (الشماسية-الشماس) وهي كذلك رتبة دينية يباشر أصحابها كافة الأمور الخدمية في الكنيسة الواحدة وكذلك كافة أمور الخدمة الاجتماعية لأتباع كنيسته. وتنقسم رتبة الأسقف نفسها إلى ثلاث درجات مرتبة حسب حجم ونطاق خدمته إلى:

-الأسقف: رئيس قساوسة وقمامصة الكنائس الواقعة داخل أبرشية جديدة أو صغيرة (مدن صغيرة وقرى)
-المطران: هو أسقف كبير وذو أقدمية ويكون عادة أسقفا على الأبرشية المهمة (من حيث الحجم، أو التاريخ، أو كلاهما)، وفي هذه الحالة يطلق على أبرشيته "مطرانية"، وكلمة مطران مشتقة من الكلمة اليونانية (متروبوليتيس) والتي تتكون من مقطعين (مترو: الأم، بوليتيس: مدينة)، فيكون معناها (صاحب المدينة الأم أو الكبيرة).
-البطريرك أو البابا: رئيس جميع المطارنة والأساقفة وصاحب أعلى درجة كهنوتية بالكنيسة. وكلمة بطريرك مشتقة من الكلمة اليونانية (باتري ارش)، والتي تتكون من مقطعين (باتري: أب، أرش: رئاسة)، فيكون معناها كبير أو رئيس الآباء.
أنظر: أحمد تركي الشريدة، المقال السابق، ص 399.

⁴ الكاتدرائية: هي كنيسة مسيحية تستخدم مقرا لمطران الأبرشية، المصطلح مستخدم في الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأنجليكانية وبعض الكنائس اللوثرية، المصطلح غير مستخدم في الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، حيث أن كنيسة المطران تسمى الكنيسة العظمى.

⁵ Bulletin Religieux de L'archidiocèse de Rouen, année 29, N°2, Samedi 11 janvier 1930, P P 29-31.

⁶ البابا ليون التاسع ولد بفرنسا 21 جوان 1002 بفرنسا، أنتخب للبابوية 12 فيفري 1049 إلى غاية وفاته 19 أفريل 1054 بإيطاليا.

1054م وهي: "الاشك أنّه بعد الحبر الأعظم الرّوماني¹، أصبح أسقف قرطاج أول رئيس أساقفة ومطران أعلى لكل إفريقيا".²

ومن قرطاج بدأ نشاط لافيجري التّصيري هذا الأخير الذي اعتبر احتلال فرنسا لتونس بمثابة الانتصار النّهائي للحضارة المسيحية في الشّعوب البربرية، فنادى في وجه المبشرين الشّبان: "تعالوا يا أبناي اسمعوا نواقيسكم، يجب أن نعلن عن بعث قرطاج المسيحية إنّ عرب تونس ليسوا مطلقا مسلمين متعصبين، وسوف يخضعون بسهولة لتقاليدنا.."³، كما أوصى المبشرين بأن لا يتركوا فرصة سانحة أو مناسبة إلّا وذكّروا المسلمين بأنّ أجدادهم كانوا مسيحيين وأنّهم لم يدخلوا الإسلام إلّا قهرا، واهتمّ بالبحث والتّقيب عن تاريخ الكنيسة الإفريقية، واعتبر نفسه محي أمجاد تلك الكنيسة والوارث لكرسي القديس قبريانوس⁴، وهو القائل: «...وكنيسة تونس هي كنيسة قرطاج... هي عهد المسيحية في إفريقيا، وفيها كرسي الجاثليق⁵ (primat) المشرف على سبعمائة كنيسة أسقفية وهي مدينة العديد من الشّهداء، والعلماء والعذاري، وهي مدينة ترتليان⁶ (Tertullien) وقبريانوس (Cyprien)

¹ الحبر الأعظم: تعني كلمة: الحبر الزّينة والحسن، وكذلك بمعنى العالم عند إطلاقها على أحد رؤساء الكنيسة، أي العالم المنوط به تحسين العالم، ويطلق لقب "رئيس الأقباط" أو "الحبر الأعظم" على بابا الكنيسة الكاثوليكية. أنظر: أحمد تركي الشّريدة، المقال السابق، ص 400.

² Roginski , Op. cit , p. 63.

³ التّيمي، "دور المبشرين في نشر المسيحية..."، المقال السابق، ص 15. وكذلك: الشرفي، "الحركة التبشيرية..."، المقال السابق، ص ص 144-145.

⁴ القديس يوحنا القبرصي أو قبريانوس (210-258م)، ولد في قرطاج لعائلة أبوية ثرية، وهو خطيب ومحامي، تمّ تعميده في 245 أو 246، وأصبح أسقفا على قرطاج عام 249، نفي عام 257 بموجب مرسوم فاليريان، وتمّ إعدامه في 14 سبتمبر 258، وكرست له عدة أضرحة في قرطاج أهمها بازيليك القديس قبريانوس، وهو يعدّ أهم أساقفة كنيسة قرطاج وكتابها، فهو منشئ أول مؤتمر أسقفي في عام 256 والذي حضره أكثر من ثمانين أسقفا إفريقيا. للمزيد من المعلومات أنظر:

Moreno, Op. cit , p 43.

⁵ الجاثليق: كلمة معربة عن السّريانية من أصل يوناني، وتعني متقدم الأساقفة، أي المشرف على أكثر من أسقفية محلية، ويكون تابعا للبطريرك الذي هو رئيس جميع الإكليروس، فهي إذن رتبة كنسية أدنى من البطريرك، وأعلى من المطران.

⁶ ترتليان (160-225م)، أصله من قرطاج، اعتنق المسيحية، ورُسّم كاهنا في قرطاج عام 190، وهو مدافع متحمس عن المسيحية وعالم لاهوت، فكان أول الكتاب المسيحيين الناطقين باللاتينية. أنظر:

Moreno, Op. cit , P 42.

وفولجانس¹ (Fulgence) وفيليسيتي (Félicité) وبربيتو² (Perpétue)، ومدينة تلك المجامع الشهيرة التي كانت مدة طويلة نور العالم المسيحي³، وقام بفتح العديد من المدارس المسيحية وفي كثير من المدن التّونسية، وقد ذكر لوي ماشويل أنّه توجد بالبلاد التّونسية 24 1883 مدرسة منها 20 مدرسة مسيحية⁴.

فمؤتمر قرطاج إذن جاء من أجل تكريم الكاردينال لافيغري على ما بذله من جهود لإحياء كنيسة إفريقيا وقد عبّرت جريدة (Semaine Religieuse de L'archidiocèse d'Alpi) عن مدى فرح الكاردينال لافيغري وهو في قبره بعقد المؤتمر الأفخارستي في مدينة قرطاج التي أقامها⁵.

وعقد المؤتمر الأفخارستي في قرطاج جاء بقرار نهائي من البابا بيوس الحادي عشر (11 Pie) (1938-1922)، لكن فكرة عقده بها طُرحت منذ فترة طويلة كما ذكر رئيس المنظمة ورئيس تحرير "أعمال المؤتمر" الأب اليسوعي بوبي (Boubée)، والذي عزا الفكرة الأولى لعقد المؤتمر الأفخارستي بقرطاج إلى الأكاديمي لويس برتران (Louis Bertrand)، لإعجابه الكبير بإفريقيا الرّومانية حسب ما ورد في صفحة من كتابه "إحساس العدو" وذلك

¹ فولجنس (532-467) م ولد في ثيلبت (Thelepte)، كان جده غوردانوس (Gordianus) سيناتور قرطاج، أصبح راهبا وحج إلى روما، وتم تعيينه أسقفا على روسبي (Ruspe) جنوب شرق تونس، تم نفيه إلى سردينيا من قبل ثراسموند (Thrasamond) وعاد إلى إفريقيا ومات في 1 جانفي 532، واعتبر أعظم عالم لاهوت في عصره وله عدة مؤلفات، للمزيد أنظر:

.Moreno, Op-cit ,P 45

² بدأت عملية الاضطهاد الرّئيسي من طرف الرومان اتّجاه المسيحيين سنة 180م وهي سنة الحكم الأولى من حكم الامبراطور كومودوس (Commode)، بحيث بدأ تطبيق القوانين الرّومانية التي حرمت ممارسة العبادة المسيحية، وفي سنة 203م وتحت حكم سيبتيوس سيفيروس (Septime Sévère) ألقي القبض على ستة من مكان طيبة (Tébourba)، وكان من بينهم فليسييتي وهي عبيدة وكانت حاملا في الشهر الثّامن عند القبض عليها وبربيتو وهي سيّدة شابة نبيلة كان عمرها حين ألقي القبض عليها 22 سنة وأم لطفل، وتم قتل 5 منهم بما فيهم فليسييتي وبربيتو في المدرج الرّوماني والذي يتّسع ل 30000 متفرج، وكان ذلك في 7 مارس 203م. للمزيد أنظر:

Moreno, Op. cit ,P 20-21.

³ الشرفي، "الحركة التبشيرية في تونس..."، المقال السابق، ص 151-152.

⁴ Semaine Religieuse de L'archidiocèse d'Alpi, Jeudi ,5 juin 1930,N°,23,année,57,"Notre pèlerinage à Carthage",p-p,286-290.

بعد حضوره لمؤتمر "لورد" بفرنسا (1914) إذ عندما ظهرت فكرة عقده في العالم الإسلامي، فكّر أولاً في بيروت، لأنّه منذ الحروب الصليبية لم تشهد العاصمة السّورية القديمة مثل هذا المظهر المسيحي، ولكن تخوفه من التّعصب الإسلامي فيها، فكّر في قرطاج¹، إذ قال: "ولمّا لا قرطاج؟ حيث ترفرف روح "سان لوي" لا يوجد ما نخشاه من المشاعر الإسلامية، إنّنا في وطننا على هضبة بيرسا التي تغنى بها فيرجيل (Virgile)، عمّدتها دماء فيليسيّتي (Félicité) وبريتو (Perpétue)، وتوفّي بها سان لويس (saint Louis)، والتي استدعت أخيراً فرنسا والكاردينال لافيغري (Lavigerie)"²، ومنه فإنّ المجمع الفرنسي "لويس برتران" يعتبر أب فكرة انعقاد المؤتمر الأفخارستي بقرطاج، وهو الذي اقترح البلاد التّونسية لأنّه اعتبر تونس أرضاً تابعة للتّراب الفرنسي، ومدينة قرطاج رقعة مسيحية تغنى بها فيرجيل وزكّتها دماء ملك فرنسا القديس لويس، وكانت في نظره أم الكنائس الإفريقية، فأنجبت القديس أوغسطين³، وفيها تبلورت تعاليم المسيحية⁴، وهذا الأمر أكسبه دعوته لحضور مؤتمر قرطاج، وكان - لويس برتران - فيه من أكثر المتحدّثين تقدّيراً من قبل الجمهور.

¹ Alexandropoulos , Op. cit, p 55.

² L. Bertrand ,Le sens de l'ennemie, Paris ,Fayard,1917,p 313.

³ أوريليوس أوغسطين، لاهوتي مسيحي وكان داعية وقاضياً وخطيباً، لقب بالإفريقي، من أشهر آباء المسيحية ومؤسسيها، من أصل بربري، ولد بمدينة تاجسطة (Thagaste) سوق أهراس حالياً 13 نوفمبر 354 م، من أم مسيحية (مونيكا)، وأب وثني، أظهر امتياز كبير بالدراسة في صباه، فبعثه أبوه إلى مادورا لتعلم الخطابة، ثم من بعد إلى قرطاجنة لمواصلة دراسته العليا، ثم انتقل إلى روما وميلانو أين التقى بشخصيات دينية هامة أبرزها القديس (أمبروسيوس)، فاعتنق المسيحية وعمره 32 عاماً، وألّف العديد من الكتب القيمة والدراسات الهامة، ووضع العديد من الرّسائل الدّقيقة والشّروح العميقة في تفسير أجزاء متفرقة من الكتاب المقدس، وأعظم كتاب له هو "مدينة الله" الذي كتبه في الفترة ما بين 393-426 م في 22 فصلاً، وترجمته الدّاتية "اعترافات" المتكون من 13 كتاباً حوالي سنة 389 م، عُيّن أسقفاً لمدينة هيبون (Hippone) عناية حالياً، وشغل هذا المنصب 34 عاماً، أي إلى غاية وفاته 430 م، للمزيد أنظر: القديس أوغسطينوس، اعترافات، ترجمة، الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط4، 1991، في المقدمة، ص ص 1-6. وكذلك: القديس أغسطينوس، اعترافات، ترجمة، إبراهيم الغربي، مراجعة، محمد الشّاوش، دار التنوير، تونس، ط2، 2015، ص ص 5-6. (في التّقديم)

⁴ La Tunisie Catholique ,19-01-1930, « Le Congrès Eucharistique de Carthage- Louis Bertrand et Le Congrès Eucharistique. »

كما توجد أسباب أخرى غير هذا المنظور الإيديولوجي، والتي أشار إليها رئيس أساقفة قرطاج أليكسيس لوماتر¹ (Alexis Lemaitre) وهي أنّ المؤتمر عقد في كلّ القارات، فقد استضافته آسيا في القدس وأمريكا في شيكاغو وأوقيانوسيا في سيدني، فلا تزال إفريقيا، وبالتالي فالمطلوب من القانون المسكوني² إصلاح هذا النقص، كما أنّ عام 1930 عام الخمسينية للمؤتمرات الأفخارستية، وهي مناسبة جيّدة، والأهم من ذلك أن عام 1930 يتوافق مع الذّكرى المئوية الخامسة عشر لوفاة القديس الإفريقي أوغسطين³ والذي كان من البربر ومن ناحية تونس.⁴ ولكن السّؤال الذي يطرح لماذا تمّ تكريس قرطاج للذّكرة المسيحية ولم يعقد المؤتمر في هيبون المقر الأسقفي للقديس أوغسطين، فالموقعان متشابهان ولعبا نفس

¹ لوماتر (1864-1939): تدرّب في مدرسة رئيس أساقفة الجزائر، حيث كان نائبا عاما، قبل أن يصبح أسقفا لقسطنطينة عام 1881، وكان رئيسا لجمعية منصري إفريقيا، وقبلها المرشد العام للفيالق السّودانية خلال الحرب العالمية الأولى، ثم أصبح المساعد الأول لكومب (Combes) في عام 1920، وبعدها رئيس أساقفة قرطاج عند وفاة هذا الأخير 1922 إلى غاية وفاته في ماي 1939، وهو شخصية نافذة ومسموعة الكلمة لدى سلطة الحماية، حيث كانت الإقامة العامة تراه أقرب إلى القومية الفرنسية منه إلى الكاثوليكية. وقد كان مستوطنا، ومن كبار المدافعين عن التأثير الثقافي الفرنسي ضد التّوسع الإيطالي أنظر الملحق رقم 2، ص 366. أنظر: الدّقي، "أبو القاسم الشّابي وهاجس الصّحوة الدّينية"، **المقال السابق**، ص 96. وكذلك

-Françoise Jacquin et Jean-François Zorn(éds), **L'altérité religieuse ,Un défi pour la mission chrétienne**, éditions Karthala ,Paris, 1999. P 93-94.

² القانون المسكوني: القانون الصادر عن المجلس المسكوني وهو اجتماع للأساقفة للنظر في مسائل العقيدة المسيحية وكل ما يختص بالعالم المسكون، أنظر: **عناية المرجع السابق**، ص 199.

³ لقد كان التّعلّل بالمدخل الأوغسطيني في التّصور الكنسي أساس أطروحات مشروع البعث لكنيسة إفريقية في الفترة الحديثة، وبدأت الفكرة تتجسد عند تعيين المونسنيور دوبوش (Dupuch) أسقفا في الجزائر سنة 1838، على إثر احتلال البلد بادر الرجل بإذابة وصهر قطع برونز مدافع تركية متبقية وتحويلها إلى تمثال للقديس أوغسطين، وتمادى في حشد الرّموز المسيحية ذات الصّلة بالمنطقة، فاستجلب بعضا من رفات أوغسطين، أي يده اليمنى، وانطلقت عملية ترحيل هذه اليد في 12 أكتوبر 1842 من مدينة بادوا الإيطالية، وطافت عدة أبرشيات أوربية كانت فيها محل حفاوة من الكاثوليك، لتستلم البقايا البحرية الفرنسية في الجزائر وتحطّ الرّحال في مدينة عنابة في 3 نوفمبر، حيث أقيم حفل بهيج عقده والي المدينة الفرنسي ورجال الكنيسة. وقد كشف هذا الحدث رمزيا عن طموحات فرنسية مبكرة لإحياء الماضي المسيحي القديم في شمال إفريقيا. أنظر: **عناية المرجع السابق**، ص 41.

⁴ عمر فروخ والمصطفى الخالدي، **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، منشورات المكتبة المصرية، دط، بيروت، 1986، ص 158.

الدّور إلى درجة أنّ الكاردينال لافيغري أقام بازيليكاتين¹ متشابهتين فيهما، فربما يعود ذلك إلى أنّ أوغسطين قد مارس نشاطه في هيبون لكن قرطاج فازت بالتّسلسل الهرمي وسمحت بالاستشهاد من خلال القديس قبريانوس والقديستين بيريتو وفليسيتي، فالموقعان إذن يشتركان في نفس الدّور لكن بشكل غير متساو ولكن بطريقة تكاملية.² ومن هذا المنطلق نُظّمت احتفالات بمئوية أوغسطين في بون³ أو هيبون في نفس توقيت المؤتمر كما أُقيمت روابط بينهما عن طريق تنظيم زيارات لحجّاج قرطاج نحو هيبون لحضور الاحتفال.⁴

إذن كانت هذه هي الحجج الرّئيسية التي جادل بها لوماتر اللّجنة الدّائمة للمؤتمرات الدّولية للفوز بقرار الموافقة، والذي صادق عليه البابا لاحقا.⁵

وعليه يمكن القول أنّه تمّ اختيار مدينة قرطاج اعتبارا للذكرى المئوية الخامسة عشر لوفاة القديس أوغسطين، وكذلك باعتبار قرطاج من أشهر عواصم الامبراطورية الرّومانية في التّاريخ القديم، وواحدة من أكثر الأجزاء ازدهارا في الكنيسة الأولى، إذ عقد فيها أكثر من عشرين مجمعا دينيا منها خمس مجامع مسكونية⁶ مؤثّرة في مسيرة الكنيسة الكاثوليكية، وهي: مجمع قرطاج الأول 251م، مجمع قرطاج الثاني 390م، مجمع قرطاج الثالث 397م،

¹ بازيليك: هو اصطلاح كان يستعمل لدى الإغريق بمعنى صالة الملك أو العرش أو الملك أو القاعة الملكية، وقد أخذ الرومان هذا الفن المعماري من الحضارة الإغريقية، وبعد انتشار المسيحية ونظرا لأنّها مكان فسيح استغله المسيحيون كمكان للقيام بصلواتهم وشعائهم المسيحية.

² Jacques Alexandropoulos, *Tourisme patrimoine à Carthage en 1930 souvenirs d'un pèlerin du congrès eucharistique*, jeudi 21 janvier 2021, 17:38, (<https://books.openedition.org/cjb/1491?lang=fr>), p.7.

³ وقد ذكرت جريدة (La Croix) بأن مدينة بون (هيبون) مدينة فرس النهر تحتفل لأول مرة بالذكرى الخامسة عشرة لوفاة أسقفها سان أوغسطين، وقامت بنشر برنامج الاحتفال والذي سينطلق يوم 12 ماي. أنظر:

La Croix, Dimanche 11, Lundi 12 mai 1930, année 31, N°14478, «Le congrès de Carthage», A-Michelin, p 2.

⁴ Alexandropoulos, "Entre archéologie universalité et nationalismes. . .", *Op. cit*, p 55.

⁵ Alexandropoulos, "Entre archéologie universalité et nationalismes. . .", *Op. cit*, p p 56-57.

⁶ مجمع: يسمى "السينودس" أيضا، هو لقاء يجمع الأساقفة لتدارس مسائل تهم الديانة المسيحية، المجامع درجات: مسكونية وطنية وحلية. المسكونية: العالمية، أي ما يختص بالعالم المسكون. أنظر: عناية، المرجع السابق، ص 199.

مجمع قرطاج الرابع 398م، ومجمع قرطاج الخامس 401م¹، إذن فغنى قرطاج بالذّكرات المسيحية، كذكرات القديس قبريانوس (Cyprien) أسقف قرطاج الذي شكل موته إحدى صفحات التّاريخ المسيحي، وكذلك المدافع العظيم ترتليان (Tertullien)، وأخير الملك الفرنسي سان لويس الذي قاد الحملة الصّليبية على تونس وتوفي بها، جعل لقرطاج مكانة دينية عند المسيحيين عموما والكاثوليك خصوصا.²

أمّا بالنّسبة للأيديولوجيين الاستعماريين فإنّ الوجود الفرنسي يتوافق بوضوح مع عودة المسيحية إلى المغرب العربي، لذا كان موضوع كنيسة إفريقيا من الموضوعات الرّئيسية للمؤتمر، فأرادوا أن يُقام المؤتمر في تونس للإشادة بعظمة كنيسة قرطاج القديمة وبالحروب الصّليبية التي كانت ترمي إلى محاربة الكفّار وبعثهم على اعتناق النّصرانية³، وقد كتبت صحيفة (La Croix)⁴ عشية المؤتمر أنّه "بعد ثلاثة عشر أو أربعة عشر قرنا من الموت الظاهر تمّ إحياء كنيسة قرطاج المجيدة"⁵، ومنه فالمؤتمر يهدف إلى الإحياء بحيث يصبح تاريخ هذه الكنيسة، الذي يمثل موتها وقيامتها، وحدث عيد الفصح علامة على الأهمية العالمية للمسيحية.

وعليه فمركز قرطاج التّاريخي من حيث الدّين والسّياسة هو الذي هيّأها لأن تكون المكان المثالي لعقد أول مؤتمر في القارة الإفريقية، فهي ليست فقط مقر أقدم الرّئيسيات في إفريقيا ولكن أيضا هي المكان الذي يفتح منه قارة بأكملها ليتم مواصلة الحملة التّنصيرية.

فهذا المؤتمر إذن يعتبر بمثابة حملة صليبية تاسعة لاسترجاع مجد الكنيسة الرّومانية بإفريقيا وتنصير سكانها الذين خضعوا للحكم العربي الإسلامي لمدة ثلاثة عشر قرنا⁶، كما

¹ محمد الفاضل اللّافي، القضايا الجدلية بين المجلة الزيتونية ومجلة (La Tunisie catholique) تونس الكاثوليكية"، مركز البحوث والدراسات في حوار الحضارات والأديان المقارنة، سوسة، تونس، (د. ت)، ص 8.

² La Croix , jeudi 8 mai 1930, année 31 , N°14475, «L'Eucharistie sur la terre d'Afrique- le congrès de Carthage s'est ouvert mercredi après-midi », A-Michelin.

³ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 507.

⁴ (La Croix): صحيفة يومية فرنسية مسيحية، تأسست في 15 جوان 1883 بباريس من قبل جماعة الرّهبان الكاثوليك.

⁵ Alexandropoulos, "Entre archéologie universalité et nationalismes. . . », Op. cit ,p p 56-57.

⁶ حفيظ طبّأبي، الحزب الحر الدّستوري التّونسي، 1934-1938، ط 1، الدارالتونسية للكتاب، تونس، 2011، ص، 37.

أنّ المؤتمر جاء كذلك لتأكيد رسالة فرنسا الحضارية في العمل على انبعاث روح روما، فروما التي أسعفت المغاربة على ولوج عتبة التّاريخ ومعانقة المدنيّة والتي قدّمت التّنظيم والمعرفة من أجل تنمية اقتصادية حقيقية في المنطقة هي جدّة فرنسا¹، ولذا فهي مسؤولة عن تجديد آثارها، وهذا ما أكّده الأكاديمي الفرنسي لويس برتران، الذي لم يتقاعس عن الإقرار وهو بصدد حديثه عن الكاردينال لافيغري: " بأنّ النّشاط الفرنسي بإفريقيا ما هو إلّا استمرار للآثار اللاتينية، التي بادرت روما بالقيام بها منذ عشرين قرنا خلت، إنّ التّاريخ سيُضفي طابع الشّريعة على غزونا، لأنّنا لا نقوم إلّا باستعادة عمل متوقف، ولأنّنا وارثو تاريخ مشرق..."²، ومن هذا المنطلق جاء اهتمام فرنسا المُبكر بعلم الآثار المسيحي في تونس والذي يعود إلى عام 1875 عندما نصّب لافيغري الأب ديلاتر³ (Alfred-Louis Delattre) على تلّ قرطاج من أجل العمل على إحياء الكنيسة الإفريقية القديمة بالاعتماد على البقايا الأثرية لإفريقيا المسيحية، وهذا العمل الذي كلّل في النّهاية بتنظيم هذا المؤتمر⁴، هذا الأخير الذي يعتبر بمثابة تكريم تشريفي لفترة الرّومان المسيحية⁵ لأنّها تخدم الشّريعة

¹ ترجع صلة فرنسا بالإمبراطورية الرّومانية إلى ما قبل الميلاد، حيث سيطر الرّومان على غاليا بكاملها سنة 52 ق. م ووحدها، ونشروا فيها الحضارة الرّومانية واللّغة اللاتينية إلى غاية 481م أي إلى حين تمكّن كلوفيس (Clovis) (465-511) الإفرنجي الجرمان من السّيطرة عليها، وجعله لباريس عاصمة لمملكته في سنة 511م لتصبح بعدها فرنسا مستقلة نهائيا عن الإمبراطورية الرّومانية. للمزيد أنظر: الكيّالي، موسوعة السّياسة، ج4، المرجع السابق، ص508.

² المالكي، المرجع السابق، ص 115-116.

³ ألفريد ديلاتر ولد بروان 1850، عيّنه لافيغري كأب أبيض في قرطاج 1875، وفيها شغل رئيس كهنة كنيسة سانت لويس البدائية إلى غاية وفاته 1932، فعاش وعمل في قرطاج لأكثر من خمسين عاما، وبالإضافة إلى عمله ككاهن لمرسلي إفريقيا، عمل على إدارة الحفريات في الموقع القديم وبلغت اكتشافاته 235 سنة 1932، وغطت حفرياته و منشوراته جميع مواقع وعصور قرطاج من أقدم المقابر البونية إلى شهادات الوجود البيزنطي وحتى آثار وجود الصليبيين في عهد سان لويس، وأنشأ متحف لعرض أعماله الأثرية سمي بسان لويس (1875 -1899)، ثم متحف لافيغري (1899-1956)، ثم متحف قرطاج الوطني بعد تنازل الفاتيكاني عنه للدولة التونسية الفتية عام 1964، أنظر:

Joann Freed, "Le Père Alfred-Louis Delattre(1850-1932) et les fouilles archéologiques de Carthage", **Histoire et missions chrétiennes**, N°8, Décembre, 2008, pp66-(.75https://www.cairn. info/revue-histoire-monde-et-cultures-).

- Moreno ,Op. cit, P 56.

⁴ Alexandropoulos, Le Maghreb antique:enjeux contemporains ,Op-cit,p 65-66.

⁵ دامت فترة السّيطرة الرّومانية على تونس من 146 ق. م إلى 430 م، وكان الرّومان كبقية الأمم القديمة يعبدون عدة آلهة وأرباب يمثلونها بأصنام في صور الآدميين ويشيّدون لها الهياكل العظيمة والمعابد المزخرفة، وظهرت الدّيانة

الاستعمارية، وحتّى ولو أنّه تمّ تكريس جزء كبير من البحث للعنصر الرّوماني الوثني إلّا أنّه لم يكن هناك ترميم أثري واسع النّطاق أو إنشاءات تذكارية تُذكر بالفترة البونيقية¹، فلم يكن هناك لوحة تذكارية لضحايا تدمير 146 ق م كما سيتم به للضّحايا المسيحيين للاضطهاد الرّوماني، والسّبب واضح وهو أنّ فترة قرطاج البونيقية لا يمكن أن تخدم بشكل مباشر في تثمين العمل الاستعماري،² وبهذا فإنّ الأكاديمي برتران يضمّ صوته إلى عديد من الأصوات الاستعمارية المنادية بضرورة إدماج تونس والجزائر والمغرب الأقصى في التّراب الفرنسي لأنّهم اعتبروها بقاعا لاتينية وأجزاء لا تتجزأ عن الوطن الأم.³

وبالتّالي فالمؤتمر نسيج بين القومية الفرنسية والعالمية الكاثوليكية (تعدّد المشاركين في المؤتمر)⁴، فهو من جانب المُستعمر يعتبر كرمز مزدوج، فمن جهة فهو يمثل مع الذّكرى المئوية لاحتلال الجزائر جزءا من الاحتفالات الكبرى للإمبراطورية المُنتصِرة، ومن جهة أخرى فهو يبيّن أنّ هناك رغبة في التّصوير تتّضح من مباركة الحشد لتمثال الكاردينال لافيغري⁵، وتوزيع رجال الدّين لمنشورات باللّغة العربية لدعوة المسلمين إلى اعتناق المسيحية.⁶

المسيحية بمملكة الرّومان في أول عهد القياصرة وانتشرت بسرعة بين طبقات الأمة خصوصا السّفلى منها لاحتوائها على مبادئ المساواة والعدالة، وعند تخوّف رجال الحكومة الرّومانية من تأثيرها في النّفوس، واعتبروها خطرا على سلطانهم قاوموها وضيقوا على الدّاخلين فيها، حتّى كانوا يصلّبونهم ويلقونهم إلى الحيوانات الضّارية، ولم تتأيد الدّيانة المسيحية إلّا في سنة 330 م بمساعي الإمبراطور قسطنطين الأكبر (306-337م). للمزيد أنظر: حسيني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 25-26.

¹ يستخدم مصطلح البونيقية والمرادف اللاتيني للمصطلح اليوناني المشتق "فينيقي" حصريا للإشارة إلى "الفنيقيين" في غرب البحر المتوسط، وخصوصا قرطاج القديمة والتي دامت أكثر من ستمائة عام (814-146 ق.م)، والتي سقطت بيد الرّومان بعد الحروب البونيقية والتي دامت أكثر من قرن (264-146 ق.م)، والتي انتهت باستيلاء روما على إفريقية بعد أن أهلكوا سكانها ودمروا وخرّبوا معالمها. . للمزيد أنظر: نفسه، ص 13-19.

² Alexandropoulos, Tourisme patrimoine à Carthage. . , Op. cit, p 7.

³ أحمد خالد، المرجع السابق، ص 68.

⁴ Alexandropoulos, "Entre archéologie universalité et nationalismes. . , Op. cit, p 56-57

⁵ Ibid, p 53-54. .

⁶ ضيف الله، المرجع السابق، ص 54.

وعليه فإنّ المؤتمر الأفخارستي جاء ليذكّر بماضي المسيحية والحملة الصّليبية الثّامنة على تونس فهو إذن يعدّ خير مثال على الهجوم الاستعماري على الإسلام كدين وهوية فهو بمثابة حملة صليبية جديدة سلمية وجزء من الحملة الاستعمارية للقضاء على المقومات الشّخصية وطمس معالم الهوية الثّقافية للشّعب التّونسي.¹

2-3- الاستعدادات لمؤتمر قرطاج الدّولي:

لقد كان الإعداد لمثل هذا المؤتمر في عاصمة صغيرة نسبيا مع وجود بنية أساسية محدودة للطرق وقدرة استقبال منخفضة أمرا صعبا للغاية بالنّسبة لفرنسا، وخاصة أنّها أرادت أن تعطي لهذه القيامة المسيحية في عالم إفريقيا صدا دوليا². وكذلك ليكون شهادة بليغة لصالح عملها الذي أنجزته على مدار خمسين عاما في هذه الأرض، ولإبراز دورها في تمدين الشعوب المحتلة.³

لذا ومنذ إعلان الصّحيفة الرّسمية للأسقفية في 25 ديسمبر 1927 أنّ المؤتمر الأفخارستي الثّلاثين سيعقد في قرطاج⁴، بدأ في الاستعداد له، إذ تواصلت التّنظيمات أشهر عديدة وذلك من أجل تطوير البنى التّحتية التّونسية، وأيضا من أجل إحياء كنيسة إفريقيا التي أرادها لافيجري، ولقد تمّ التّحضير للمؤتمر في جو من الصّخب والتّحدي السّافر لأهل البلاد ورغم أصوات الاستتكار المرتفعة من حناجر الوطنيين⁵ والذين صُدموا نتيجة النّفقات الكبيرة للحدث الدّيني المسيحي الدّولي، وفي ظرف كانت تونس تعاني فيه وبشدة من تدهور الوضع الاقتصادي والاجتماعي، فبدأ المؤتمر وكأنّه نزيف مالي غير عادل لصالح المنفعة

¹ طبّابي، المرجع السابق، ص 37.

² Alexandropoulos , "Entre archéologie universalité et nationalismes. . , Op. cit, p p 57-59.

³ Ibid ,p 69.

⁴ La premier annonce du Congrès « Sa Grandeur Monseigneur L'Archevêque de Carthage Primat d'Afrique , nous annonce une grande nouvelle. Sa Grandeur avait exprimé le désir que le trentième Congrès Eucharistique International fut tenu à Carthage en 1930. » , In **La Tunisie catholique** , N°46 , Dimanche 25 Décembre 1927.

⁵ **La Voix du Tunisien** , 10 -05-1930 , " Le Congrès Eucharistique , une folie" par Mohamed Bourguiba.

الوحيدة هي الكاثوليكية.¹ كما أنّ هذه التّكلفة المالية أثارت غضب المعارضة الاشتراكية والعلمانية والدوائر الدّينية الإسلامية بتونس.²

إذ خصّصت حكومة الحماية أموالاً طائلة لعقد المؤتمر، وقدّرت بمليون فرنك هذا بالإضافة إلى القيمة التي تتحصل عليها الكنيسة³ كلّ سنة من ميزانية الدّولة التّونسية⁴، كما ساهمت بلدية مدينة تونس بحوالي خمسة ملايين فرنك في الأشغال العامة كصرف الطّرقات وتمهيد السّاحات ونصب المظلات للوافدين وتوفير الأمن لانعقاد المؤتمر وغيرها ممّا يليق بإحضار قرطاج لضيوفها، وهذا في ظلّ تردّي الوضع الذي تعيشه تونس.⁵

وشكّلت هيئة باسم: "الشّركة المدنية للمؤتمر الأفخارستي" تحت رئاسة أسقف قرطاج لوماتر، هذا الأخير الذي وصل إلى تونس 1 أكتوبر 1920 وكان عنوانه المزدوج المحرر والمسؤول الرّسولي، وكان تعيينه نتيجة اتّفاق بين الكرسي الرّسولي⁶ والحكومة الفرنسية، وهو صاحب مبدأ استحالة تصوّر وجود الكنيسة خارج الإطار الاستعماري، وقد لعب دوراً هاماً في انتعاش ونمو وتوسّع كنيسة قرطاج تحت راية العلم الفرنسي⁷ وهوية الأساقفة الفرنسيين خلال فترة عمله (1920-1939).¹

¹ Alexandropoulos , "Entre archéologie universalité et nationalismes. . , Op. cit, p 70.

² Ibid , p p 57-59.

³ لقد أرادت فرنسا تحويل الكنيسة إلى فرنسية الطّابع على مستوى الكادر الكهنوتي المشرف، فأبرمت اتفاقية مع الفاتيكان سنة 1893 تضمن استمرارية القيادة الفرنسية للكنيسة مقابل مدفوعات سنوية للكنيسة قدرّت ب 75 ألف فرنك سنوياً سنة 1893، ثمّ 400 ألف فرنك 1921، ثمّ 425 ألف فرنك عام 1922، و 500 ألف 1925، وتطورت إلى 1. 8 مليون فرنك في عام 1926، للمزيد أنظر:

Mahjoubi , Op. cit , p 114.

⁴ المحجوبي، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس... ، المرجع السابق، ص 143. و

Mahjoubi, Op. cit , p 125.

⁵ حمة النّهامي، المجتمع التّونسي دراسة اقتصادية واجتماعية، ط1، دار صامد للنّشر والتّوزيع، تونس، 1989، ص 49.

⁶ الكرسي الرّسولي: الكرسي البابوي هو كيان سياسي قانوني معترف به دولياً يرأسه "أسقف روما" أو رأس الكنيسة الكاثوليكية، المعروف عموماً باسم بابا روما أو الحبر الرّوماني، وتمثّل الإدارة البابوية الرّومانية الحكومة المركزيّة في الكرسي الرّسولي وهي تمثّل مجموعة من الإدارات و الهيئات الكنسية والتي يرأسها البابا.

⁷ لقد كانت في سنة 1920 خمس مؤسسات تربوية جماعية مسيحية فقط تعمل في تونس، وتمّ تسجيل حوالي ألف طالب، وعند وصول لوماتر أعاد فتح المدارس التي كانت مغلقة أثناء الاضطهاد في مطلع القرن العشرين (لقد تمّ دمج مدارس

وتولّت هذه الهيئة والتي نُصّب مكتبها الدّائم بالمدينة العتيقة في قلب العاصمة -بساحة سيدي علي عزوز عدد1 قرب الكنيسة -² قبض المليونيين من الفرنكات لإنفاقها مع ما يحصل لديها من بيع أوراق اليانصيب وجوازات الدّخول لساحة المؤتمر وكراء أماكن للتّجار على تهيئة المساكن ولوازم المؤتمر.³

وقام أسقف قرطاج من حشر مجموعة من رجال الحكومة التّونسية المسلمين وبعض الدّوات من المسلمين واليهود والمسيحيين في هذه اللّجنة، ونذكر من بينهم شيخ مدينة تونس الشّاذلي العقبي، وقائد أحد ضواحي مدينة تونس صلاح الدّين البكوش وغيرهم، وأخذت هذه اللّجنة تطوف على بعض الدّوات الذين لهم مساكن حول قرطاج لاستعارتها منهم لإنزال الوافدين بها، وإذا تعذرت الاستعارة تسوغها منهم بالثّمن.⁴

التّعليم الجماعي المسيحية إلى مدارس التّعليم العام 1883 بعد اتّفاق بين الكاردينال لافيغري والمدير لويس ماشويل، وفي عام 1901 كانت هناك 16 مدرسة عامة تديرها راهبات أو مدارس: 6 للبنين و10 للبنات، وبعد الانتصار الانتخابي لكتلة اليسار في انتخابات أفريل /ماي 1902 وتتصيب وزارة إميل كومبس(Emile Combes) في جوان حصلت القوّات العلمانية التّونسية بدعم من القوّات الفرنسية على الرّضا في المجال المدرسي، وصدر مرسومان بيليان في إطار علمنة المؤسّسات، الأول في 7 أوت 1903:يحظر التّجمعات في تونس غير المصرّح بها في فرنسا، أمّا الثّاني في 2 ديسمبر 1903 ينظّم تراخيص التّدريس للطّوائف الدّينية القائمة بالفعل في تونس والمصرّح بها في فرنسا، ونتيجة لذلك أغلقت بعض المؤسّسات وأصبحت خاصة وترك رجال الدّين التّعليم العام.)، وأصبح في عام 1935 لدى راهبات القديس يوسف 1659 طالبا في مدارسهم في جميع أنحاء تونس، وكان إخوان المدارس المسيحية أكثر من 400 في تونس، وأكثر من 100 في حلق الوادي، مع إنشاء مدارس جديدة بأوامر دينية أتت إلى تونس بعد 1920، وعليه فقد تطورت المؤسّسات الدّينية من سنة 1920(للرجال:7 تجمّعات دينية، 13منزل، 202أب وأخ، أمّا للنساء:11 تجمّع، 23منزل، 340 راهبة)ليصير العدد سنة 1935(للرجال:9 تجمّعات، 19 منزل، 417 أب وأخ، أمّا للنساء 16 تجمّع، 45 منزل، 564 راهبة) أنظر:

-Soumille, « Les activités et les œuvres des congrégation... » , Op. cit ,pp 12-14.

¹ Mgr –A-Pons ,Op. cit ,p 276.

²La Tunisie Catholique ,9 -11- 1930.

³ مكتب الأخبار التّونسية بالقاهرة، ظاهرة مربية في سياسة الاستعمار الفرنسي، هل تمثل مأساة الأندلس من جديد في شمال إفريقية، الحملة الصّليبية التاسعة في المؤتمر الأفخارستي، المطبعة السّلفية ومكتبتها، القاهرة، مصر، 1349هـ. ص 13.

⁴ مكتب الأخبار التّونسية، المصدر السابق، ص 14.

وكانت إدارة الأشغال العامة ولعدة أشهر على أشدّها لتطوير مواقع المؤتمرات،¹ ومن عمليات إعادة البناء والتّحسينات التي تمّ إجراؤها لهذه المناسبة نجد ترميم ساحة المدرج الرّوماني حيث كان الأسقف كومب(Combes)(1893-1922) قد بنى في عام 1895 كنيسة صغيرة على شرف القديستين بيرييتو وفليسييتي، وتمّ كذلك إعادة بناء جدران وتقوية أعمدة بازيليك سانت مونيكا(Sainte Monique)²، وتهيئة الأماكن التي ستعقد فيها الجمعيات العمومية³، وتوسيع وإنارة جميع الطّرق المؤدية إلى الأماكن المقدّسة للمسيحيين، كما تمّ تجهيز مواقع الحج بمنصات كبيرة مخصّصة لاستقبال المندوب البابوي وكبار الشّخصيات الكنسية، كما تمّ إعادة تطوير وتجهيز جميع محطات السّكك الحديدية الكهربائيّة التي تنطلق من تونس إلى قرطاج و تزويدها بأرضيات مخصّصة لتسهيل وصول العربات، وتزيين ساحة الإقامة العامة والطّريق الكبير جول فيري المؤدّيّة من الكاتدرائيّة إلى محطة القطار الكهربائي بالأعلام وأجهزة الإضاءة، وتمّ تمديد ساحة الكاتدرائيّة حيث سيتم استقبال المندوب البابوي وافتتاح المؤتمر،⁴ وفي منتصف شارع قرطاج الواسع المؤدي من المحطة إلى مواقع الحج أقيم قوس النّصر بالخشب وورق المقوى بارتفاع 13 مترا وعرض 12 مترا⁵، وهو نسخة طبق الأصل لقوس النصر الرّوماني بمدينة سبيطة⁶ مع استبدال النّقش الموجود على القوس الأصلي الذي تمّ تشييده تكريما للمظطهّدين دقلديانوس وغاليروس⁷ بنقش باللاتينية جاء فيه

¹ Alexandropoulos, "Entre archéologie universalité et nationalismes. . », **Op. cit**, p 60-61.

² القديسة سانت مونيكا: ولدت في مدينة طاغاست (سوق أهراس) في نوميديا (الجزائر) سنة 332 م ونتيجة لرعاية أبيها المسيحيين نشأت القديسة تقيّة محبّة للصّلاة، تزوجت سنة 354م بباتريس، وأنجبت أوغسطينوس ليصبح بعدها من أهمّ قديسي المسيحية الغربيّة، وانتقلت مع ابنها إلى روما بإيطاليا وهناك مرضت وماتت في مدينة أسطيا سنة 388م.

³ Freed, « Le Père Alfred-Louis Delattre(1850-1932) ... », **Op-cit**, p75.

⁴ **Le Temps**, N° 25095, Mercredi 7 mai 1930.

⁵، أنظر الملحق رقم 3، ص 367.

⁶ سبيطة: وتسمى عند الرّوم "سوفيطلة" مدينة كائنة بأواسط القطر التونسي في الجنوب الغربي من القيروان. أنظر: حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 44.

⁷ دقلديانوس(244-311): امبراطور روماني في الفترة (284-305م)، قسم الامبراطوريّة سنة 286م إلى جزئين شرقي تحت حكمه وغربي تحت حكم مكسيمانوس، وعين غاليروس وقسطنطينوس كأباطرة مساعدين، نشر مع زميله ومساعدته الامبراطور غاليروس (305-311م) أول مرسوم شهير لاضطهاد المسيحيين في 24 فيفري 303م، والذي أمر بهدم كل الكنائس المسيحية وإحراق الكتب الكنسية، واعتبار المسيحيين خارجين عن القانون.

"يا قرطاج المباركة يا بيضاء مبهرة بنقاوة أعمال أطفالها، هي الآن ملطّخة بدماء شهدائها"، وكان من المقرر أن يمر تحته موكب الأطفال الصليبيين.¹

كما تمّ استجواب جميع السّكان الكاثوليك نعم أم لا لإيواء الحجاج، ونظّم الجيش معسكرات قماش كبيرة² في قرطاج مع المقاصف والكنائس الرّيفية لإيواء معظم المشاركين.³ فأقيمت مدينة مؤلفة من 750 خيمة على هضبة سانت مونيكا بالقرب من قرطاج⁴ وفي كل واحدة منها أربعة أسرة.⁵ وتمّ تهيئة 14 سفينة سياحية كبيرة في موانئ تونس وحلق الوادي لتكون بمثابة فنادق عائمة لآلاف من المشاركين لعدم قدرة المدينة على استيعابهم.⁶

ولكنّ من بين كل هذه الاستعدادات كان للجانب الأثري مكانة أساسية ودور بارز وواضح في التّحضير لهذا المؤتمر، وقد كتب الأب ديلاتر بعد المؤتمر مباشرة "إنّها الاكتشافات الأثرية، والعمل الذي تمّ تنفيذه من طرف الكنيسة خلال نصف قرن لإعداد الأرض وتمكين الاحتفال الثلاثين للمؤتمر القرباني الدّولي"، فالفضل في نجاح المؤتمر يعود للأب ديلاتر ومجموعته في مشروع القيامة في كنيسة قرطاج⁷، حيث أرسل إلى قرطاج عام 1875 أي بعد عام من التزامه النّهائي بالمرسلين في إفريقيا، وعندها أحكم على الموقع وظهر كعالم آثار بلا كلل، فكان باستمرار يقوم بالبحث والتّفتيش وتسليط الضّوء على بقايا البازليك والحمامات والمكرّمات وحتى التّحف القديمة ويقوم بإثراء متحفه الذي أعطاه اسم لافيغري⁸، وكان في اتصال دائم مع الأكاديمية وينشر بانتظام نتيجة اكتشافاته، وبالنّسبة له فالمؤتمر كان بمثابة ذروة حياته المهنيه وتتويجا لعمله الأثري، فبعد انعقاد المؤتمر أعطاه

¹ Alexandropoulos, "Entre archéologie universalité et nationalismes. . . », **Op. cit**, p 64.

² أنظر الملحق رقم 4، ص 368..

³ Ibid, p 64.

⁴ **Journal des débats**, N°127, année 142°, jeudi 8 mai 1930.

⁵ **La Croix**, année 31, N° 14474, mercredi 7 mai 1930, «Avant Le Congrès Eucharistique de Carthage- les congressistes à Carthage», A-Michelin, p 1.

⁶ **La Liberté**, Mercredi 7 mai 1930. et **Journal des débats**, jeudi 8 mai 1930.

⁷ Clémentine Gutron, **L'archéologie en Tunisie (19-20 siècles), jeux généalogiques sur l'antiquité**, éditions Karthala, Paris, 2010, p 176.

⁸ Mgr –A-Pons, **Op. cit**, p 320.

رئيس الأساقفة تكريما مشهورا»...لقد انعقد المؤتمر القرطاجي الدّولي الأفخارستي في روعة لن تنس من قبل تمثيل 25 دولة، هل فكرنا بما فيه الكفاية، إنّ الكونغرس...كان سيبقى غامضا بدون عملك...إنّ أعمالك التي دامت خمسين عاما قد جلبت مشاعر مؤلمة لروح هؤلاء الآلاف من المؤمنين والآلاف من الكهنة والكهنة المستقبليين، عندما يمكنهم أن يقولوا لأنفسهم هنا على هذا المدرج عاشوا، قاتلوا، وضحوّ بحياتهم من أجل المسيح..¹، ويأتي هذا الشّكر قبل وفاة الأب ديلاتر في 11 يناير 1932، أي بعد عام ونصف من اختتام المؤتمر، ومنه فإنّ علم الآثار لعب دورا هامّا في الإعداد للمؤتمر والذي بدوره كرّس قرطاج كمكان للذاكرة المسيحية.

ويمكن العثور على هذا الوجود النّشط للآثار في الاحتفالات على ثلاثة مستويات في المشهد الأثري المُعد لهذه المناسبة، في الصّور والأشياء التي تمّ إنشاؤها واستخدامها للاحتفالات وفي الأغاني والصّلوات وخطب المشاركين.²

وقد كان للأب ديلاتر صدى في الأغاني والخطب والطّقوس التي رافقت الحجاج، فبالإضافة إلى الأغاني الدّينية التّقليدية، تمّ تأليف ثلاث أغنيات أخرى لهذه المناسبة، وكانت الرّسمية للمؤتمر والتي تمّ اختيارها من بين 350 مشاركة دولية، وهيمن على الثّلاث أغاني موضوع استشهاد مسيحيّ إفريقيّا - وخصوصا سان لويس - بمعنى إعطاء المؤتمر الصّبغة العالمية للمشاركين في المؤتمر. أمّا عن الطّقوس، فقد تضمّنت سلسلة من القديسين وشهداء إفريقيّا من تأليف لافيّجري نفسه،³ حيث قام الكاردينال لافيّجري من خلال إنشاء عمل بحثي علمي كان يهدف إلى تكريم الكنيسة وأبرشية قرطاج وجمعية الآباء البيض وتمكّن من خلاله المساهمة في انعقاد وإنجاح المؤتمر الأفخارستي الثّلاثين.⁴ أمّا الخطب فكانت حول موضوع عقيدة وممارسة القربان المقدّس وفقا للقديس أوغسطين والآباء الآخرين لكنيسة إفريقيّا.⁵

¹A-L. Delattre ,*L'archéologie et le congrès eucharistique international de Carthage, avec 46 illustrations et une introduction par le P. G. G. Lapeyre*, E2 ,Imprimerie. J. Aloccie,Tunis,1932,p,a.

² Alexandropoulos,"Entre archéologie universalité et nationalismes. . », *Op. cit* ,p62.

³ Ibid ,p 66.

⁴ Delattre , *Op. cit* ,p 72.

⁵ Alexandropoulos,"Entre archéologie universalité et nationalismes. . », *Op. cit*,p,66.

وكذلك الاحتفال بالكنيسة القديمة بإفريقيا بالإضافة إلى كتاب برتران "تأبين نابض بالحياة للأعمال الاثرية المُنجزة"¹.

أمّا عن تشكيل اللّجنة الشّرفية للمؤتمر فقد صدر عن مكتب الأخبار التونسية بمصر أنّه وقع أثر محاولة أسقف قرطاج الحصول على رخصة من وزارة الخارجية الفرنسية لإقامة المؤتمر في تونس، لأنّ وزير الخارجية كان رافضا لإعطاء التّرخيص مُستندا إلى قانون الدّولة الذي يمنع ذلك، واقترح عليه تشكيل لجنة شرفية يرأسها الباي ورجال دولته تحمل عليها مسؤولية الرّغبة في انعقاد المؤتمر بالمملكة التّونسية²، فأصدر أسقف قرطاج منشورا إلى ملك تونس والمقيم العام بها ورجال الدّولة التّونسية وكبرائها وأعيانها يطلب إليهم فيه قبول العضوية الشّرفية للمؤتمر الأفخارستي، وقبل أن يتلقّى جوابا من الذين دعاهم بالقبول أو الرّفص نشر أسماءهم على صفحات الجرائد زاعما أنّهم قبلوا بتلك المهمّة التي فرضها عليهم فجعلهم بذلك أمام الأمر الواقع.³

وعدم رفض الطّلب يعني أنّ هذا المؤتمر وجد الدّعم والمساندة من قبل الباي⁴ وأعيان البلاد حتّى من كبار رجال الدّين، وقد ضمّت القائمة الشّرفية للمؤتمر وجوها تونسية بارزة تتقلد وظائف دينية وسياسية كشيخ الإسلام أحمد بيرم والمفتي المالكي الطّاهر عاشور والوزير الأكبر خليل بوحاجب ووزير القلم الهادي الأخوة، والوزير السابق الطيب الجلولي ومحمد حامد شنيق ومحمد بن رمضان وعمر البكوش أعضاء في القسم التّونسي للمجلس

¹ Ibid, p 66.

² ومما يجدر ذكره أنّ لوماتر أسقف قرطاج اصطحب في الزيارة التي أداها إلى الباي (بولار) الرّئيس المساعد بالديوان و(سيمنى) المترجم الأول بالإقامة العامة يوم 16 جانفي 1930 ليعرض ربما على صاحب العرش الرّئاسة الشّرفية، أنظر:

La Tunisie Française, 17-01-1930, Echos-Chez S. A. Le Bey

³ مكتب الأخبار التّونسية، المصدر السابق، ص 14.

⁴ -ومما يدل على تواطؤ الباي مع إدارة الحماية هو زيارته كنيسة فورفيار (Fourviere) العتيقة يوم 25 جويلية أثناء زيارته إلى فرنسا وإقامته بمدينة ليون وتقبله شكر الكاردينال (موران) على الحفاوة التي خصّه بها الملك وحكومته وعلى حسن الاستقبال الذي وجده الرّهبان مدّة المؤتمر، أنظر:

Semaine religieuse du diocèse de Lyon, 1 aout 1930, N°35, année 87, "Le Bey de Tunis à Fourvière".

الكبير، والشاذلي عقبي شيخ مدينة (رئيس بلدية) تونس وصلاح الدّين البكّوش قائد في ضواحي مدينة تونس¹، كما شارك في المؤتمر الطّاهر بن عمار رئيس الغرفة الفلاحية الذي أكّد بنفسه لجريدة "لاديباش تونزيان" على الانتماء إلى لجنة المؤتمر.²

وكان شيخ مدينة تونس الشاذلي العقبي وصلاح الدّين البكّوش عامل أحواز مدينة تونس إضافة إلى انتمائهما إلى اللّجنة الشّرفية، كُلفا بالمساعدة على البحث على مساكن للمؤتمرين، وقد عرض على غيرهم من الأعيان المسلمين وخاصّة بعض الأمراء والأميرات إسكان بعض القساوسة ورجال الكنيسة عندهم من أجل كسب رضى السّلطات الاستعمارية.³

وكان سعي الإدارة الاستعمارية لضم هاته الشّخصيات للهيئات التّنظيمية للمؤتمر مقاصد ومرامي سياسية ظاهرة كما ذكرنا آنفا وكذلك لإضفاء الشّرعية لهذه المناسبة الدّينية وإعطائها صبغة رسمية،⁴ ومبطنّة كتثبيت وجودها بتونس وإحكام السّيطة عليها.

ويذكر أندري دوران أنقليفيال⁵ (André Duran Angliviel) مدير جريدة (تونس الاشتراكية) إنّ الاستعدادات للمؤتمر تمّت في العاصمة الفرنسية بمعزل عن حكومة الحماية التي بوغتت به بعد توجيه الاستدعاءات إلى الوفود، ولمّا أرادت التّخفيف من غلوائه في بلاد إسلامية أسندت رئاسته الشّرفية إلى المقيم العام والباي ومن يحوم حولهما من "متملقي النظام" بدون تمييز جنسي ولا عقائدي، كما يرى أنّ الأسقف هو وحده المسؤول عن الجراح العميقة التي تركها المؤتمر في نفوس الأهالي المسلمين، ويرى أحمد خالد أنّ هذا التّعليل

¹ طبّابي، المرجع السابق، ص 37.

² La voix Tunisien, 3 mai 1930.

³ (Tunis socialiste, 16 mai 1930) نقلا عن المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التّونسية (1904-1934)، المرجع السابق، ص 511.

⁴ عبد القادر القليبي، محي الدّين القليبي أو جهاد ثلث قرن، (د ط)، دار سراس للنّشر، تونس، 2004، ص 121.

⁵ أندري دوران أنقليفيال (1877-1964): ولد بفرنسا، وكان محررا صحفيا، قدم إلى تونس وأول عمل قام به في المجال الصحفي مشاركته في تحرير (بريد تونس) ثم (الديباش تونزيان)، واصل دراسته وتحصل على شهادة المحاماة، كان داعيا للسلام، معارضا للحل العسكري وأكثر اقتناعا بالتّوجه الاشتراكي، ناصر الجذب الدّستوري الجديد حتى نيل الاستقلال.

صدر من فرنسي مدافع عن الحضور الفرنسي بتونس ولكنّه متحرّج بموجب نزعتة الاشتراكية من مساندة حكومة الحماية للمؤتمر الأفخارستي بصفة سافرة.¹

2-4-أحداث المؤتمر ومجرياتة:

مع ترك مبادئ العلمانية جانبا، وفي تجانس فرنسا مع الكاثوليكية، نظّمت السّطات الدّينية والسّياسية الفرنسية أسبوعا من الاحتفالات المثيرة في تونس البلد المسلم في وقت كان السّكان مشغولين في التّحضير للعيد الأضحى المبارك.

وجمع هذا المؤتمر الذي شارك فيه علم الآثار بشكل كبير آلاف الكاثوليك من جميع أنحاء العالم (21 دولة مسيحية)، والتي قدمت إلى العاصمة تونس لمّا اقترب موعد المؤتمر،² فحضر حوالي ثمانية من أمراء كنيسة، وأكثر من 100 أسقف وأكثر من 4000 كاهن، وأكثر من 10 آلاف مندوب من فرنسا ومثلهم من بقية دول العالم،³ وقامت الحكومة الفرنسية لتشجيع المشاركة في المؤتمر بتقديم عروض سخية لجميع الأكاديميين الذين عينتهم سلطات الأبرشية لحضور المؤتمر كمجانبة النّقل ل 1000 رجل دين فرنسي، وتقديم تنازلات ل 3000 آلاف كاهن فرنسي في النّقل وفي العديد من المزايا الأخرى كنفقات المعيشة.⁴

كما أطلق لوماتر رئيس أساقفة قرطاج يوم الثلاثاء 6 ماي نداء لأهالي تونس يدعوهم فيه لحضور المؤتمر، وقد جاء فيه: "أعزائي التّونسيين، هذا المساء سيصل مندوب الأب معلنا عن افتتاح المؤتمر الأفخارستي الذي سيُعقد الأربعاء على الساعة الرّابعة، لا أحد يجهل أنّ القربان المقدّس بالنّسبة للكاثوليك هو بامتياز فعل محبة الله تجاه إخوانهم، ولا يغيب عن أحد حقيقة المؤتمرات الأفخارستية والتي أسّسها الكاثوليك في إطار حملة صليبية سلمية للأعمال الخيرية لإظهار محبتهم وإخلاصهم لجميع النّاس بغض النّظر عن عرقهم أو دينهم، هذه هي الطّريقة التي فُهمت بها المؤتمرات وحُظيت بالترحيب والاستحسان من قبل

¹ أحمد خالد، المرجع السابق، ص 71.

² L'ouest-Eclair ,Mercredi 7 mai1930, N° 11235,année 31," Le congrès eucharistique du Carthage".

³ « Ce que fut le congrès »,ANO ,XXX,276 /113.

⁴ Roginski ,Op. cit ,p 114.

جميع الأمم الكاثوليكية وغير الكاثوليكية حيث عُقدت، وهذا أيضا ما يفسر لكم المنافسة الكبيرة للكاتوليك الذين أتوا من جميع أنحاء العالم ليقدموا لكم شهادة الحب والثّقاني...في الواقع إنّ إفريقيا وحدها من بين القارات لم تتلق حتّى الآن علامة المحبة المسيحية هذه...لقد اختار البابا هذا العام تربة قرطاج المقدّسة ليعقد فيها المؤتمر الأفخارستي الدّولي الثّلاثين، لفتة الحبر الأعظم هذه سيتفهمها جميع سكان تونس، والذين سوف يستجيبون لهذا الدّليل على المودّة من شخص قلبه كبير بما يكفي لُحِب الجميع...فمشاركة الشّعب التّونسي في المؤتمر هي بمثابة تعبير رسمي عن الثّقاهم والاحترام والثّقة المتبادلة بين الجميع.¹

وفي مساء نفس اليوم قدّم مندوب البابا أو المبعوث الرّسولي للبابا الكاردينال ليغات ليبيسييه² (Lépicier légat) إلى تونس، وحظي باستقبال كبير، إذ احتشد جمع غفير من النّاس لاستقباله على طول الخط الرّابط بين شارع جول فيري وشارع ستيفن بيشون، حيث وجد صف طويل ومزدوج من الأطفال يرتدون ملابس بيضاء ويضعون على صدورهم الصّليب الأحمر رفقة طلاب المدارس والسّياح، كما حضرت جميع السّلطات العسكرية والمدنية وبزيّها الرّسمي، واحتشد السّلك الدّبلوماسي بأكمله على رصيف الميناء، واستقبله باسم فرنسا السيد بونزون (Bonzon) الوزير المفوض المنتدب لدى الإقامة العامة، وبعد الاستقبال الدّيني والعروض التي قدّمتها السّلطات المحلية تمّ تشكيل الموكب، وسار الوفد إلى مقر الإقامة العامة للقيام بزيارة مجاملة للمقيم العام مونسورون³ والتي دامت ساعة⁴،

¹ La Croix , mercredi 8 mai 1930 , Op. cit.

² Légit Alexis-Henri Marie Lépicier ولد 1863 في فوكلور مقاطعة جان دار، عيّن كاهنا 1885، وعيّن أسقفا على طرسوس 1924، وشغل وظيفة المندوب خلال احتفالات الذّكرى المئوية الخامسة لجين دار في أورليانز 1929، وعيّنه البابا بيوس الحادي عشر مندوبا للاحتفال بالمؤتمر الأفخارستي بقرطاج. أنظر:

L'Afrique du Nord illustrée ,31 mai 1930 , Op. cit , p 6.

³ مونسورون: من مواليد 1872، درس الحقوق ببّاريس، بعد تقلّده بمناصب إدارية عديدة عين نائبا للمقيم العام بتونس 1912، أصبح كاتباً عاما للحكومة 1919، ثم التحق بالابنتيت بفرنسا فعين واليا على "الموزيل" 1919، وسمي مقيما عاما على تونس فيما بين 1929 و1933. أنظر: شكيب أرسلان، الرّسائل المتبادلة بين الأمير والشّيخ عبد العزيز الثّعالبي، الدار التّقديمة، ص 55.

⁴ Le Monde colonial illustré ,Juillier 1930,N° 83,année 8, « Au congrès eucharistique du Carthage",P,175.

وبعدها قام المندوب البابوي بزيارة رسمية للباي أحمد باشا رفقة المقيم العام مونسورون¹، وحينها ألقى ليبيسية خطابا، جاء فيه: «..تمّ تعيين صحابة السّمو من قبل قداسة البابا بيوس الحادي عشر...، أوّد أن أقدم إلى سيادتكم تعبيراً عن تقديري عن حفاوة الاستقبال التي وجدتها. كما أشكركم على قبول الإشراف على رئاسة اللجنة الشّرفية للمؤتمر، وأنّ هذا المؤتمر أكبر دليل على محبة البابا للأفارقة، والذي اختار قرطاج دون غيرها من المدن لما فيها من ذكريات للمسيحية، وقد جاء من أجل تحقيق السّلام والوحدة بين الشّعوب والأديان....»²، كما قدّم امتنانه لرئيس أساقفة قرطاج على الدّور الكبير الذي قام به لإنجاح المؤتمر.³

وتّم في ظهيرة الأربعاء الافتتاح الرّسمي للمؤتمر، إذ استقبل رئيس أساقفة قرطاج لوماتر السّلطات الفرنسية والتّونسية في المحمية وعلى رأسها المقيم العام، وكذلك المشاركين في المؤتمر بما فيهم المندوب البابوي الكاردينال ليبيسية مع مختلف الوفود الكنسية الدّولية، كلّ هذا في السّاحة الرّئيسية في الحي الأوربي بتونس العاصمة⁴ والتي تُواجه الكاتدرائية وقصر المقيم العام الفرنسي⁵. وقُرأ في هذا الافتتاح الرّسالة البابوية، وقام الأسقف هيلين (Heylen) رئيس اللّجنة الدّولية للمؤتمرات الأفخارستية بإلقاء خطاب انتهى في الأخير بالقراءة والغناء.⁶

وفي يوم 8 ماي والذي خُصّص للطّفولة، أقام في الصّباح هولند (Hlond) رئيس أساقفة بوزنان قدّاساً⁷ في الهواء الطّلق بالحديقة العامة ببلفيدير⁸، حيث اجتمع حوالي خمسة أو ستة آلاف من الصّبية والبنات وبدأوا بالاستعراض من شارع باريس إلى حديقة بلفيدير، وكان جميعهم يرتدون ملابس بيضاء مُزينة بصليب أحمر شبيهة بملابس المُحاربين

¹ أنظر الملحق رقم 5، ص 369.

² Alexandropoulos, "Entre archéologie universalité et nationalismes. . », Op. cit ,p p 57-59.

³ L'Afrique du Nord illustrée ,31 Mais1930 ,N°474 ,Année 25 ,P 6.

⁴ أنظر الملحق رقم 6، ص 370.

⁵ Alexandropoulos, "Entre archéologie universalité et nationalismes. . », Op. cit ,p p,57-59.

⁶ L'Afrique du Nord illustrée ,31 mai 1930 , Op. cit ,p 8.

⁷ القدّاس: تجمع المسيحيين في الكنيسة لأداء طقوسهم. أنظر: عناية، المرجع السابق، ص 198.

⁸ Le Monde colonial illustré ,Juillier 1930 , Op. cit ,p 175.

الصّليبيين في القرون الوسطى، وأخذوا يشكّلون صليبا بشريا ضخما كان مركزه المذبح¹، وهم يغنّون الأغاني الدّينية²، كمجد الههم، وانتصار اليسوع وكنيسته، وترنيمة النّصر "أنا مسيحي وسط النّصفيق، وفي الوقت نفسه أقام شولات (Chollet) رئيس أساقفة كامبري (Cambrai) الطّقوس البابوية في كنيسة قرطاج الأولىّة.

وفي الظّهيرة أقام الأب هالنز (Hlanes) والآباء البيض والعديد من أعيان الكنيسة في مدرج بيربيتو وفيليسيتي في قرطاج الحفل الأكثر لفتا للنّظر، وحضر هذا الحفل أكثر من ثلاثين ألف شخص وكلّهم يحملون أوراق النّخيل يرفعونها وينزلونها في نفس الوقت³، وثمانية كرادلة و100 من الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وقدم خلالها مدير رسولية الصّلاة بارا (R.P.Parra) خطاب قصير وحيوي يستذكر كل شهداء إفريقيا⁴. كما تمّ فيه تقديم قرابين النّخيل للشّهداء المسيحيين على يد الصّليبيين الصّغار أنفسهم⁵، وقام الأطفال بالعرض الختامي⁶ وكانوا عندما يجتمعون يلوحون بأشجارهم تكريما لأرواح شهداء مسيحيّ إفريقيا⁷. وينشدون:

أطفال شهداء قرطاج.... نقاتل مثلهم ببسالة

أقل دموية هي مليشياتنا.... أقل وقاحة بالنّسبة لنا فضيلة

لكن بالصّلاة والتّضحية حاربنا من أجلك على هذه الأرض المقدّسة⁸.

¹ أنظر الملحق رقم 7، ص 371.

² ClGutron , **Op. cit**,p 178.

³ **Le Monde colonial illustré** ,Juillier 1930 ,**Op. cit** ,p 175.

⁴ A-Michelin , «Sur les ruines des basiliques ... » , La Croix, **Op. cit** ,p 1.

⁵ أنظر الملحق رقم 8، ص 372.

⁶ **L'ouest-Eclair** ,vendredi ,9 mai1930 , N° 11237,année 31 , " Au congrès eucharistique du Carthage"

⁷ **La Croix** ,Samedi 10 mai 1930 ,année 31 , N°14475 «Sur les ruines des basiliques Carthaginoises-Les solennités du congrès eucharistique se poursuivent avec un incomparable éclat » , A-Michelin ,p 1.

⁸ **Semaine Religieuse de L'archidiocèse d'Alpi** , Jeudi ,5 juin 1930, **Op. cit**.

وكانت هذه التّظاهرة والتي دامت ساعة ونصف إعلان عن حيوية الكنيسة في شمال إفريقيا واستمرار الكاثوليكية فيها، وفي منتصف اللّيل قام مير لارو (Larue) النّائب الرّسولي في أستراليا بقّداس أو حفل المشاعل في صحن كنيسة قرطاج.¹ وفي نفس الوقت نُظّم قّداس آخر في كاتدرائية تونس العاصمة.²

واحتفلت الجماهير المسيحية في يوم 9 ماي وعلى السّاعة العاشرة صباحا في جميع الكنائس، أمّا البابوية فأقامت احتفالها بشوارع بازيليك ماجورم (Magorm) حيث توجد جثث كل من القديّستين بيريتو (Perpétue) وفيليسيتي (Félicité)³ والتي تمّ اكتشافها من قبل الأب ديلاتر في سنة 1907، وقام الكاردينال ليبيسييه في نهاية هذا القّداس بتقبيل العلم الفرنسي وسط الحشود المتدفقة والصّراخ بأعلى صوته "تحيا فرنسا، تحيا فرنسا.. فاستجاب له عدد وافر من الحجاج بحماس كبير: تحيا فرنسا ويحيا البابا...".⁴

ووقع في مساء نفس اليوم تجمّع كبير في مدرج قرطاج حضره آلاف من الرّجال وكانوا يحملون في أيديهم شموعا مشتعلة، ألقي فيه المونسieur تيسييه (Tissier) خطبا حول تمجيد القربان المقدّس، وردّ الرّجال على خطابه بأغنية (Credo).⁵ وقدّم خلاله كذلك أسقف شالون (Chalons) "الذّكرات العظيمة لهذه الأرض المقدّسة".⁶

وفي يومي السّبت 10 ماي والأحد 11 ماي تمّت زيارة العديد من الكاتدرائيات والمواقع الأثرية المسيحية كبازيليك سان قابريانوس التي شهدت يوم الأحد على السّاعة العاشرة

¹ *Annuaire de l'Institution secondaire libre de Saint-Pé*, Année 24, Bagnères imprimerie péré, 1931, P-P, 157.

² *La Croix*, Vendredi 9 mai 1930, «Le 30 c. e de C», A-Michelin, *Op. cit*, p 1.

³ *L'ouest-Eclair*, samedi 10 mai 1930, n 11238, année 31, "Au congrès eucharistique du Carthage"

⁴ *La Croix*, Dimanche 11, Lundi 12 mai 1930, «L'Hostie ressuscite Carthage - Fermant le cycle des cérémonies-un cortège triomphal va parcourir la ville antique», A-Michelin, p1.

⁵ *La Croix*, Vendredi 9 mai 1930, «Le 30 c. e de C», A-Michelin, *Op. cit*, p 1.

⁶ *La Croix*, Dimanche 11, Lundi 12 mai 1930, «L'Hostie ressuscite Carthage...», A-Michelin, *Op. cit*, p1

صباحا قدّاسا بابويا أقامه الكاردينال ليغات وحضره مائة من الأساقفة ورؤساء الأساقفة و4000 رجل دين.¹

وقد تخلّل المؤتمر اجتماعات لاهوتية مغلقة للأقسام الوطنية أي لكل دولة اجتماعاتها الخاصّة بها، والتي نظّمت في مختلف الكنائس أو المباني في تونس،² كما عُقدت جمعيات عمومية أيّام الخميس والجمعة والسّبت في الهواء الطّلق وباستعمال مكبّرات الأصوات، على السّاعة الخامسة مساءً حول موضوع "القربان المقدّس وفقا للآباء المسيحيين في إفريقيا"، فقدّم المداخلّة يوم 8 ماي الأب فيليب (Philips) الأستاذ بالإكليريكية الكبرى في لياج (Liège) كلمة حول موضوع "الحضور الحقيقي والذّبيحة المقدّسة حسب القديس أوغسطينوس وآباء الكنيسة في إفريقيا"،³ أمّا الجمعية الثّانية التي عقدت بهضبة سان لويس والتي كانت مخصّصة للأب بونس حول "الشّركة حسب الآباء الأفارقة"، فقد تمّ تغييرها واستبدالها بخطاب للمونسieur روشيه (Rocher) عن القربان المقدّس⁴، أمّا يوم السّبت فكان الإغلاق على السّاعة الخامسة بخطاب ألقاه لويس برتران من الأكاديمية الفرنسية عن الكنيسة القديمة لإفريقيا ونهضتها وإحيائها في القرن التّاسع عشر أمام البازيليكا الأولى التي أقيمت في مكان وفاة سان لويس على تل قرطاج، وأهم ما ورد في هاته الكلمة: "...إنّه لأمر جيّد..أن تتزامن هذه الاحتفالات مع المئوية لسانت أوغسطين..إنّه حاضر دائما بيننا باعتباره الخطيب العظيم غير المرئي يترأس هذا المؤتمر، إنّ روحه تخترقنا وتعطي معناها الحقيقي لهذا المظهر، وكذلك نوايا البابا السيادي الذي اختار قرطاج لهذه القمم الجالسة..."⁵، ودعا برتران في خطابه هذا نحو 20000 ألف مستمع لتكريم الدّين المسيحي في إفريقيا بذكر نضال أسلافهم.⁶

¹ La Croix ,Dimanche 11, Lundi 12 mai 1930, «Le congrès de Carthage », A-Michelin ,p 2.

² Alexandropoulos,"Entre archéologie universalité et nationalismes. . », Op. cit,p p 57-59.

³ Le Temps ,N°25099 , Mercredi 7 mai 1930.

⁴ Le Temps ,N°25095 , Dimanche 11 mai 1930.

⁵ L'Afrique du Nord illustrée ,31 mai 1930 ,Op. cit ,p 9.

⁶ Gutron , Op. cit,p 178.

وُخِصَّتْ ظهيرة اليوم الأخير 11 ماي لاختتام المؤتمر ومنح الأوسمة¹، وقد حضر هذا الحفل 150 ألف شخص²، وتمّ حشدهم على امتداد 6 كلم، وكان يوجد خلف النّاس العاديين 4000 كاهن معظمهم فرنسيين و150 أسقفا والمبعوث البابوي كما حضر كبار المسؤولين في المحمية بما فيهم المقيم العام وجميع السّلك الدّبلوماسي.³

وأخيرا نقول بأنّه رغم التّأكيد على الجانب الدّولي للمؤتمر إلّا أنّ الانتعاش القومي كان واضحا فيه، فأخذ المؤتمر طابعا فرنسيا وبشكل مفرط والدّليل على ذلك وجود أعلى السّلطات المدنية والعسكرية الفرنسية في جميع الاحتفالات، وكذلك في كثرة الحجاج الفرنسيين الذين طغى عددهم على المشاركين الأجانب، وخاصّة الإيطاليين الذين جاءوا عن قصد في عدد صغير وكذلك الألمان الذين لم تكن لهم مشاركة رسمية،⁴ وحتى الإنجليز كانت مشاركتهم فاترة⁵ وهاته من بين السّلبات التي وُجّهت للمؤتمر، ناهيك عن العيوب التّظيمية، إذ تمّ الاعتناء بالحجاج الفرنسيين دون غيرهم بمنحهم الإقامة في قرطاج نفسها، أمّا الأجانب فكانوا يتّخذون من السّفن كأماكن للإيواء على حدّ قول الأب البولندي جوزيف روجينسكي (Jozef Roginski) والذي رأى أنّه رغم أوجه القصور الكبيرة للمؤتمر إلّا أنّه لا يخلو من جوانب إيجابية، ولعلّ أبرزها الدّعم الذي وجده من طرف السّكان غير الكاثوليكين كمشاركة شخصيات دينية إسلامية ويهودية هامّة في اللّجنة الشّرفية للمؤتمر. كما اعتبر انعقاد المؤتمر نفسه دليل على أنّ عمل المبشرين الكاثوليك لم يذهب سدى، ورأى بأنّ " الكاثوليكية في إفريقيا لا تزال تواجهها صعوبات لكنّها لم تعد غريبة إذ عُرِست جذورها فيها وبعمق، فدخل المؤتمر الأفخارستي إلى الأراضي الإفريقية يعدّ مغامرة ومع ذلك فهو جائزة لعمل الآباء البيض والسّكان الكاثوليك هناك، وإذا كان المؤتمر القرطاجي بسيط بما فيه الكفاية إذ لا يمكن مقارنة عدد المشاركين فيه بالمؤتمرات التي عقدت في فينّا وشيكاغو وأمستردام، لكن

¹ أنظر الملحق رقم 9، ص 373. وكذلك انظر الرابط التالي:

https://drive.google.com/file/d/1ZS10PCe-IIDEpbmzQTYziIbX4yhOKtBE/view?usp=share_link

² بينما ذكرت صحيفة (L'Afrique du Nord illustrée)، وكذلك (colonial illustré Le Monde) أن العدد في الحفل الختامي كان 80000 شخص.

³ **Express Du midi**, lundi 12 mai 1930, N°18552, année 89, "A Carthage la clôture du congrès eucharistique "

⁴ Roginski, **Op. cit**, p 115.

⁵ Alexandropoulos, "Entre archéologie universalité et nationalismes..», **Op. cit**, P 68.

كانت لديه صفات ومزايا لا يمتلكها الآخرون ممّا جعله يعلو فوقهم، لقد كان لديه أماكن مقدّسة مبلّلة بدماء الشّهداء.¹

أمّا الأب موفيليك (Movelic) (1901-1995) فقال عنه: "قد يبدو هذا الحدث فخماً ويبدو أنّه كرّس في العالم خمسين عاماً من علم الآثار المسيحي في تونس ونجاح رغبة لافيغري في استعادة الكنيسة في إفريقيا"، ومن وجهة نظره كان ناجحاً وموازناً لمؤتمرات سيدني وشيكاغو، وسر نجاحه في تصوّره وتنفيذه على حساب تكلفة بسيطة. كما قال بأنّ المسلمين لم يؤمنوا بنجاح العيد المسيحي ومع ذلك اعترفوا بأنّ رئيس أساقفة قرطاج قد نجح في زرع بذرة المسيحية في أرض الإسلام ليجعلها تنبت.²

وهكذا انتهى المؤتمر وبقيت ذكراه خالدة لدى المسيحيين وفي الكتب العديدة التي ألّفت حوله، ونذكر منها على سبيل المثال: كتاب الرّاهب بونس³ (Pons Mgr) بعنوان "الكنيسة الجديدة لإفريقيا"، وكتاب الأب شايي (père Chaillet) بعنوان "إفريقيا ذكريات وعبر"⁴، وكتاب الأب ديلاتر بعنوان "الرّموز الأفخارستية لقرطاج"،⁵ وكتاب "رحلة إلى إفريقيا، إلى المؤتمر القرباني في قرطاج" للأب جوزيف روجينسكي البولندي⁶، و"قرطاج الخالدة وألغاز النّزف" للأب البريتوني فرانسوا موفيليك⁷ وغيرها من الكتب.

¹ Roginski , **Op. cit**,p 1 .16

² Alexandropoulos, **Tourisme patrimoine à Carthage en 1930. . ,Op. cit** ,p 8.

³ ألكسندر بونس (1877-1938) البروتوني: من رجال الدّين، خطيب وكاتب من أصل تولوز استقر في تونس منذ عام 1911، يلقي محاضرات في كاتدرائية تونس كل يوم أحد، وكان ضدّ الزّواج المختلط، ويرى أنّ الكاثوليكية هي حصن الأديان الأخرى. للمزيد أنظر:

- Françoise Jacquin et Jean-François Zorn(éds) , **L'altérité religieuse ,Un défi pour la mission chrétienne.** **Op cit**,p 103.

⁴ أحمد خالد، المرجع السابق، ص 68.

⁵ A-L- Delattre , **Symboles Eucharistiques Cartague** ,Imprimerie Générale ,Tunis,25 avril 1930 ,P3.

⁶ Roginski , **Op. cit**,p1 .

⁷ Alexandropoulos , **Tourisme patrimoine à Carthage en 1930. . ,Op. cit**,p p 10-22.

وأخيرا نقول أنّ إصرار السّلاطات الفرنسيّة على تنظيم هذا المؤتمر وبهذا الشّكل إلّا تأكيدا على الحقّ الصّليبي الدّفين على الإسلام والمسلمين، وبالتالي فالمؤتمر فضح غُلاة المُستعمرين أكثر ممّا خدمهم.

3-المواقف المتعددة من المؤتمر الأفخارستي:

3-1-الموقف الفرنسي:

3-1-1-الموقف المؤيّد:

لقد لقي هذا المؤتمر مساندة من مختلف الأطراف الفرنسيّة الرّسمية، إذ أيّده الرّئيس الفرنسي قاستون دومارق (Doumergue Gaston)¹، وعبر عن ذلك في ردّه على رسالة المندوب البابوي² أيّام المؤتمر بقوله: "... أود أن أعرب لكم على شكري الصّادق على الإنجاز السّعيد للرّسالة المقدّسة التي أكلها إليكم الأب الأقدس"³، وكذلك رئيس المجلس

¹ قاستون دومارق: ولد في 1 أوت 1863 بفرنسا، درس في كلية الحقوق في باريس عضو في الحزب الرّاديكالي، رئيس فرنسا من 13 جوان 1924 إلى 13 جوان 1931، كما تولّى منصب رئيس مجلس الوزراء الفرنسي (1934-1934)، توفي في 18 جوان 1937.

² بعث المندوب البابوي عندما جاء إلى تونس برقية إلى رئيس الجمهورية الفرنسيّة عندما كان في قسنطينة للمشاركة في الاحتفال المئوي، وجاء فيها: "أتقدم إلى سيادتكم وأنا على أرض إفريقيا لترأس المؤتمر الأفخارستي بالتحية، ولكم منا الولاء والاحترام العميق والصادق جدا للقيام بأنفسكم على الإشراف على الاحتفال بالذكرى المئوية للجزائر". أنظر:

La Croix , jeudi 8 mai 1930 , «L' ouverture du congrès de Carthage», A-Michelin , p 2.

³ La Croix ,Vendredi 9 mai 1930 ,«Le 30 congrès eucharistiques de Carthage -Les grandioses cérémonies inaugurales », A-Michelin , p 1.

ريموند بوانكريه (Raymond Poincaré)¹ والذي استقبل أسقف قرطاج في جوان 1929 وأعرب له عن دعمه لحملته²، فساندت الحكومة الفرنسية انعقاده، وبذلت جهدها لمعاوضته كتوجيه المناشير إلى المقاطعات الفرنسية وتوزيعها على الناس لتحريضهم على اشتراء تذاكر اليانصيب، وحثّ ولاية الأمور على ترويجها لفائدة المؤتمر.³

واعتبر وزير الخارجية الفرنسي بريان (Aristide Briand) المؤتمر على أنه انتصار وطني قبل كل شيء⁴، وأعلن أمام مجلس النواب أثناء عرض الوزارة لفصل من الميزانية يرمي لمساعدة الجمعيات التبشيرية ومعارضة بعض الأحزاب اليسارية له: "إنّ فرنسا إذا كانت لا دينية في داخل حدودها فإنّها دينية في الخارج"،⁵ كما أنّه وفي رد على رسالة من لوماتر حول موضوع المؤتمر كتب إلى المقيم العام بتونس يأذن له بتوجيه خدمات المحمية لتقديم أكبر قدر من الدعم المادي لتنظيم المؤتمر، ودعاه لدراسة الظروف التي يكون فيها هذا التعاون ممكناً وأكثر فعالية،⁶ ومن أوجه المساندة الرسمية للمؤتمر تكفل وزارة الحرب الفرنسية وبطلب من رئيس المجتمع المدني لوسيان بيزو (Lucien Baizeau) بالدعم البشري والمتطلبات الضرورية لاستقبال الحشود وإعاشتهم، وذلك من خلال توفير 800 خيمة و50 مطبخاً متنقلاً⁷، إذن فالقضية لم تعد بعيدة عن المسؤولية الرسمية للجمهورية الثالثة التي تعتبر اللائكية من أجلى مظاهرها التي تفتخر بها.

¹ ريموند بوانكريه (20 أوت 1860-15 أكتوبر 1934) سياسي فرنسي تولى رئاسة الجمهورية الفرنسية الثالثة العاشر (1913-1920)، وفي عهده دخلت بلاده الحرب العالمية الأولى، كما تولى رئاسة الوزراء في فرنسا ثلاث مرات (21 جانفي 1912-21 جانفي 1913)-(15 جانفي 1922-6 جوان 1924)-(23 جويلية 1926-29 جويلية 1929).

² ضيف الله، المرجع السابق، ص 54.

³ أبو الفرج، "حول المؤتمر الأفخارستي بقرطاجنة"، جريدة لسان الشعب، العدد 389، السنة العاشرة، الأربعاء 2 ذي الحجة 1348/30 أبريل 1930، ص 1.

⁴ ضيف الله، المرجع السابق، ص 54.

⁵ علّال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، عبد السلام جاسوس، القاهرة، 1948، ص 71.

⁶ Mahjoubi , Op. cit ,p 112.

⁷ اللافي، المرجع السابق، ص 10.

أمّا سلطات الحماية في تونس وبناء على تعليمات وزارة الخارجية لم تبخل بوسائل المساعدة المادية والمعنوية لإنجاح المؤتمر، ويتجلّى ذلك في جلسة الاستماع الأولى التي منحها المقيم العام مونسورون لأعضاء المجتمع المدني للتّحضير للمؤتمر والذين جاءوا ومن الصّيف لطلب المساعدة بصحبة نائب رئيس المجلس الكبير والمدراء العامّون للأشغال العامّة والزّراعة.¹

وتمثّلت معاضدة سلطات المحمية للمؤتمر ماديا بتزويد منظمي المؤتمر بمساعدة مهمّة أخذت شكل خدمات مقدّمة وإعانة مالية قدرها مليوني فرنك منحتها الحكومة للمجتمع المدني المسؤول عن التّنظيم المادي للمؤتمر، ولتجنّب الانتقادات التي قد يثيرها مثل هذا الدّعم تقرّر عدم عرضه على مناقشة المجلس الكبير، وبالتالي أخذها من أموال الفوائض المتاحة، وبالإضافة إلى هذه الإعانة منحت الحكومة المجتمع المدني سلفة قدرها 1.500.000 فرنك يتم سدادها على عائذات البيع بعد المؤتمر للمعدات المشتراة، كما تأذن الحكومة بتنظيم سحب يانصيب يتألف من مئتي ألف بطاقة لـ 10 فرنك والتي يتم وضعها في تونس والجزائر وفرنسا..²

أمّا معنويا فقد تدخّلت سلطات المحمية بصورة واضحة في تنظيم هيئة المؤتمر إذ اتفق المقيم العام مع جميع رؤساء الأقسام تقريبا على أن يكونوا جزءا من اللّجنة الشّرفية الأمر الذي أعطى للمؤتمر الصّفة الرّسمية، وهكذا فإنّ هاته المظاهرة الكاثوليكية جرت تحت رعاية عالية من ممثّل حكومة جمهورية علمانية.³

ومما يدلّ كذلك على تواطؤ سلطات الحماية مع الأسقفية والكنيسة أن إدارة الأمن "استدعت الصّحافيين العرب وهدّتهم بالإيقاف وبتحميلهم مسؤولية كل حركة احتجاجية تصدر عن الشّعب إذا ما شنّوا حملة دعائية ضدّ المؤتمر".⁴

¹ Mahjoubi , Op. cit , p 112.

² Mahjoubi , Op. cit , p 112.

³ Ibid, p 112.

⁴ . حسب شهادة عبد العزيز العروي في مقال له بالفرنسية بعنوان "أنظروا وأحكموا" نشر بجريدة "الهلال " في ظروف الصّجة حول الطّاهر الحداد:

وفُسِّر الاهتمام الكبير الذي أولته السّلاطات الفرنسية بالكنيسة في تونس، والدّعم المادي والمعنوي الذي قدّمته للمؤتمر الأفخارستي في قرطاج كرد للجميل للكنيسة لمساهمتها الفعّالة في تعزيز الوجود الفرنسي في هذا البلد¹، إذ قبل إنشاء المحمية قدّمت الكنيسة الكاثوليكية خدمات بارزة للجمهورية، فجاء لافيغري رئيس أساقفة الجزائر ليستقرّ في تونس قبل قوَّات الاحتلال لإزالة بعض العقبات أمام الحماية الفرنسية، كما أنّه نجح في فصل كنيسة تونس الكاثوليكية عن قبضة الإيطاليين من أجل السّيطرة عليها من خلال استبدال الإيطاليين بالفرنسيين، وقام في نهاية المطاف بطردهم في 1891 ووضعا في خدمة فرنسا،² فلافيجري الذي كان يسعى إلى إعداد قاعدة للانسحاب إذا انتصرت مناهضة الإكليروس التي باتت تتصاعد في فرنسا³، لبّى في نفس الوقت أهداف حكومات الجمهورية والتي رأت ومن أجل الحفاظ على السّيادة المنتصرة لفرنسا والفرنسيين في تونس لأبد من مجابهة مخاطر السّكان الأصليين واليهود والإيطاليين، وبالتالي فهي تعتبر دور الكنيسة هو أولاً وقبل كلّ شيء تعزيز موقف فرنسا من خلال فرض سلطتها على جميع المستوطنين

¹ La Croissant, 24-10-1930, Editorial "comparez et jugez ", Abdelaziz Laroui.

¹ يتمثل الدّور الهام الذي لعبه الآباء البيض في سان لويس قرطاج قبل الاحتلال الفرنسي في أنّه عندما طلب الأسقف المجري سوتر (Sutter)(1881-1834)- قبل عام من معاهدة باردو- التّخلي من منصبه لكبر سنه (84 سنة) وعدم قدرته على مواصلة العمل، وطلب بأن يتولى المنصب شخص أكثر حزماً لإدارة الكنيسة، حينها كتب المطران لافيغري إلى القنصل الفرنسي بتونس روستان (Roustan)، أنّه من مصلحة فرنسا أن تمنع ترشيح خليفة إيطالي لمقر سوتر، وأن يحلّ محلّه أسقف فرنسي ماهر بما يكفي لوزن الانتقال الضّروري دون اهتزاز، واستبدال الإيطالي بالعنصر الفرنسي في جميع الأبرشيات والمدارس في البلاد، ومنه فقد حقّق لافيغري القنصل ووزير الخارجية والسّفير الفرنسي في الفاتيكان إلى أن حقّق ما كان يصبو إليه، فبعد معاهدة باردو ببضعة أشهر عيّنت الفاتيكان لافيغري مديراً رسولياً لتونس. وفي 10 نوفمبر 1884 قال البابا ليو الثالث عشر (Léon 13)(1878-1903)، " في اعتقادنا أن الوقت قد حان لاسترجاع قرطاج إلى سلطتنا" أنظر:

Mgr –A-Pons ,Op. cit , p p 243-244.

² Mahjoubi , Op. cit ,p 113.

³ Pierre Soumille , "Des catholiques en Tunisie » , Histoire ,monde et cultures religieuses,N°44,décembre,2017. p24. (<https://www.cairn.info/revue-histoire-monde-et-cultures-religieuses-2017--page-13.htm>)

الأوربيين، وأكسبه هذا التعاون البراغماتي مكانة كبيرة داخل الجمهورية،¹ إذ عهد إليه قامبيتا (Gambetta) في سنة 1882² وكان وقتئذ رئيسا للمجلس ليؤكد له حسن تصرفات حكومة الجمهورية فيما يتعلق بالكنيسة،³ وكذلك جول فيري الذي دعا إلى ضرورة تدعيم التعليم الطائفي الكاثوليكي⁴ عن طريق تقديم مساعدات مادية للآباء البيض بهدف تعزيز التأثير الثقافي الفرنسي في تونس لمواجهة التهديد الرقمي للإيطاليين.⁵

وبعد موت لافيجري تدخلت الحكومة الفرنسية لمنع الإيطاليين من السيطرة على الكنيسة وعقدت اتفاق خاص مع الكرسي الرسولي حيث التزم الفاتيكان ترشيح أسقف فرنسي في تونس مقابل إعانة سنوية قدرها 75 ألف فرنك، وعُيّن كومب (Combes) (1893-1922) المتعاون مع لافيجري ليواصل محاربة التأثير الإيطالي في تونس⁶، لكن الإيطاليين بدأوا يستعيدون نفوذهم بسبب تدهور العلاقات بين فرنسا والفاتيكان بعد انفصال الكنيسة عن

¹Pierre Soumille, "Des catholiques en Tunisie », **Op. cit.** p26.

² ليون قامبيتا: سياسي فرنسي ولد بتاريخ 2 أبريل 1838 في كاهور (Cahors) ومات بتاريخ 31 ديسمبر 1882 في سيفر (Sevres)، درس في كلية الحقوق في باريس (1857-1860)، كان من الحزب الجمهوري شارك في حكومة الدفاع الوطني، عين وزير داخلية فرنسا (1870-1871)، كما تولى منصب رئيس مجلس الوزراء الفرنسي (1881-1882).

³ Mahjoubi, **Op. cit.** p 113.

⁴ أسس لافيجري كلية للآباء البيض (58 تلميذا في عام 1882) على تل بيرسا، بجانب كنيسة سان لويس، ثم نقلت كلية سان لويس إلى تونس 1882 لتصبح كلية سانت تشارلز بفضل دعم حكومي قدره 60 ألف فرنك، استقبلت 240 طفل عام 1884 من بينهم 25 عربيا، و 17 إسرائيليا، وخلال عامين من الحماية أنشأ الآباء البيض 9 مدارس أخرى في تونس تشجعا للتعليم الطائفي وأملا في جذب الإيطاليين إلى اللغة الفرنسية. أنظر:

Vermeren, **Op. cit.** p 8.

⁵ سنة 1881: 700 مقيم فرنسي مقابل 10 آلاف إيطالي، وبعد عشر سنوات 10 آلاف فرنسي مقابل 21 ألف إيطالي، وفي سنة 1911: 88 ألف إيطالي مقابل 46 ألف فرنسي، وبعد الحرب العالمية الأولى استؤنفت الهجرة الإيطالية بقوة في العشرينات ولعكس العلاقة الرقمية الفرنسية الإيطالية، دعت السلطة الفرنسية إلى تجنيس الأطفال الإيطاليين، فأصبح العدد سنة 1931: 91400 فرنسيا مقابل 91170 إيطاليا. أنظر:

Vermeren, **Op. cit.** pp 6-12.

⁶ كان في تونس في بداية الحماية بضعة آلاف من الإيطاليين وكانت لهم مدارس خاصة بهم: 6 مدارس، و 3 كليات عامة في 1884، وتحول العدد إلى 23 عام 1896. أنظر:

Vermeren, **Op. cit.** p 8.

الدّولة،¹ وهذا ما يُفسر لنا الدّافع وراء وجود السّلاطات الفرنسية، إذ بعد كومب تمّ تعيين لوماتر مع زيادة الدّعم المخصّص للكنيسة التّونسية للسّماح للأسقف الجديد بمكافحة التّفوق الإيطالي بشكل فعّال، فالعلاقة بين الدّولة والكنيسة في تونس طُبعت في إطار المنافسات الفرنسية الإيطالية وهكذا يمكن تفسير الدّعم المادي الذي قدّمته السّلاطات الفرنسية للمؤتمر.

إذ أنّ الحكومة الفرنسية كانت تتابع عن كثب موقف الإيطاليين اتّجاه المؤتمر، وخاصّة بعد تزايد مطالبها بشأن تونس، وخشية منها أن يأخذ المؤتمر طابعا إيطاليا أو أن يكون لإيطاليا زمام المبادرة فيه ولاسيما وأن سفير فرنسا لدى الكرسي الرسولي أخبرهم بأنّ موضوع المؤتمر يثير اهتمام إيطاليا والتي تنتظر فقط كسوف فرنسا للعمل، لذا فالجمهورية الفرنسية رأت أنّه إذا لم يتم وضع المؤتمر تحت رعاية أعلى سلطات المحمية فإنّه يخاطر بالفشل وعدم الحفاظ على طابعه الفرنسي، أي أنّه يخضع للسيطرة الإيطالية.²

فالتّنافس الوطني مع التّنافس الاستعماري مع إيطاليا الوريثة الحقيقية لروما القديمة ومقر البابوية التي على هذا النّحو يمكن أن تستفيد من المؤتمر هو السرّ وراء الموقف الرّسمي الفرنسي من مؤتمر قرطاج، ناهيك عن المنافسة بين المؤتمرات الأفخارستية المتعاقبة نفسها، والتي يُعزّزها التّنافس بين القوميات، إذ بعد أن نظّم الأنجلوسكسون مؤتمري شيكاغو وسيدني وكانا رائعين بشكل خاص كان على فرنسا أن تكون في نفس المستوى إن لم يكن أفضل.³

وهذه الدّوافع هي التي جعلت حكومة الجمهورية ترغب في أن يكون المندوب البابوي للمؤتمر فرنسيا، وكذلك وراء رفض لجنة التّحضير للمؤتمر للمساهمات الأجنبية والدّعم الخارجي.

¹ Mahjoubi , *Op. cit* ,p 114.

² Mahjoubi , *Op. cit* , ,p 115.

³ Centre Jacques-Berque , *Tourisme et patrimoine à Carthage en 1930 souvenirs d'un pèlerin du congrès eucharistique* ,p 8. jeudi 21 janvier 2021,17:38. (<https://books.openedition.org/cjb/1491?lang=fr>)

وذلك لتحقيق أهداف السّلاطات من هذه المظاهرة والمتمثلة في إبراز شخصية فرنسا أمام الكاثوليك من جميع دول العالم، والسّماح لهم بأخذ انطباع عن ليبرالية فرنسا ومهاراتها الحضارية من أجل ترسيخ مكانتها في الوصاية وقمع وتثبيط مطالب إيطاليا بشأن تونس، وبالإضافة إلى هذه الفائدة المعنوية برّرت السّلاطات الفرنسية دعمها بالازدهار الاقتصادي الذي يجلبه تدفق الألاف من الزّوار إلى تونس بمناسبة المؤتمر.¹

كما يمكن أن نأخذ عامل آخر في الاعتبار وهو أنّ التّحالف القائم بين الفرنسيين التونسيين ورجال الدّين في المحمية يأتي في إطار توسيع الهيمنة ومواجهة الأخطار المحلية (القومية الناشئة في تونس مطلع العشرينات) واليهودية والإيطالية، إذ أنّ التّوترات القائمة في تونس وفي ظل وجود اختلالات ديموغرافية قوية، حفّزت بقوة المجتمع الأوربي والذي في غالبيته كاثوليكي للمحافظة على التّضامن الفعلي بين الكنيسة والمستعمرين،² وعلى الأخص الذين ينتمون إلى مجموعات اليمين واليمين المتطرف والتي وجدت في الكنيسة سلاحا ايدولوجيا ودعما سياسيا لحماية مصالحهم وامتيازاتهم التي تتازعها كل من الجماعات التّونسية اليسارية والقومية التّوجه، فهم يعتمدون على الكاثوليكية لإهانة منافسيهم وخصومهم الأوربيين والتّونسيين،³ ونتج عن هذا الموقف دعم المصالح الكاثوليكية في المحمية والذي تجلّى من خلال مقالات (تونس الفرنسية) قبل وأثناء وبعد المؤتمر ضدّ غرائمها الملحدين والعلمانيين والمسلمين، وتجلّى كذلك في انتخاب رجال الأعمال لتشكيل شركة برأسمال اثنان مليون وبشكل سريع لضمان التّنظيم المادي للمؤتمر وذلك ليس بدافع سياسي وعقائدي فحسب بل لمصالح مادية وفورية أيضا.⁴

وفي الأخير نقول أنّه بالرّغم من العداء المستحكم بين الكنيسة والدّولة الفرنسية، وحدّة التّنافر القائم بينهما فوق الأرض الفرنسية، استوجب الحضور في بلاد مسلمة توحيد

¹ Mahjoubi , **Op. cit** ,p 116.

² Vermeren , **Op. cit** ,p 10.

³ Maria Chiara Cugusi, **Una testimonianza silenziosa-Storia della chiesa cattolica in Tunisia dal Trattato del Bardo alla 'rivoluzione dei gelsoini'**, coordinatore dottorato tutor Bianca Maria Carcangiu, Patrizia Manduchi, Università degli Studi di Cagliari, 2013-2014 ,p 58.

⁴ Mahjoubi , **Op. cit** ,p 116.

الصّفوف من أجل استئصال شأفة دين محمد، وعليه اتّفق المبشرون والسّاسة أنّ الإسلام عدو فرنسا والكنيسة ولا مهادنة معه، وأنّ تمسيح الشّعوب الإسلامية يندرج في إطار مصالح السّياسة الفرنسية وضمن تطلّعات الكنيسة والفكر المسيحي عموماً.

3-1-2-الموقف المعارض:

أمّا عن المعارضين فقد تمرد اليسار المناهض للدين ورأى أنّ المؤتمر يتنافى ومبادئ فرنسا الجمهورية العلمانية التي تدعو إلى حماية حقوق الانسان والمواطن، وندّد الاشتراكيون والاشتراكيون الرّاديكاليون والماسونيون بالطّابع الرّسمي الممنوح للمؤتمر والمساعدة المادية المقدّمة للكنيسة بمناسبة هذه التّظاهرة مستندين في ذلك إلى مبدأ الحياد الدّيني الذي تنصّ عليه المادة الثّانية من قانون الفصل بين الدّين والدّولة لعام 1905: "لا تعترف الجمهورية بأي دين ولا تدافع عنه ولا تدعمه"¹، واستناداً على هذا أثار النّائب الاشتراكي من نيفر (Nièvre) هنري قومار (Henri Gomard) في أفريل 1930 في مجلس النّواب² مناقشة حول المؤتمر بسؤال ألّقه على رئيس الحكومة يتعلّق بالمليون فرنك كإعانة لإقامة هذا المؤتمر وبتدخلها في شؤونه تدخل دفع وزير الدّاخلية لإصدار منشور إلى حكام الولايات يحرّضهم فيه على شراء أوراق اليانصيب المخصّص ربعها لهذا المؤتمر قائلاً أنّ هذه الأعمال تنافي الفصل الصّريح من الدّستور الفرنسي الذي ينصّ أنّ الدّولة الفرنسية لا دينية، ولمّا حاول رئيس الحكومة التّمّص من الإجابة عن هذا السؤال، ألحّ في طلب البيانات، فأجابه الرّئيس بما معناه أنّ المقيم العام لم ير من واجبه المعارضة في إقامة هذا المؤتمر، وقد أصدر سمو الباي أمراً خوّل بمقتضاه من الباب الخاص من ميزانه إعانة قدرها مليونين فرنك، ثمّ قال أحد من النّواب أنّ الفصل الخاص بفصل الكنيسة لا ينطبق على تونس.³

وعارض المؤتمر إدوارد هيريو الذي كان وزيراً للخارجية وأستاذاً كبيراً بالجامعة وممثل السّياسة الرّاديكالية الاشتراكية، والذي أعرب في رسالة وردت في صحيفة " صدى باريس

¹ *Tunis socialiste*, 14 avril 1930.

² *Tunis socialiste*, 19 avril 1930.

³ مصطفى بن شعبان: "حركات الرّهبان"، لسان الشعب، العدد 389، السنة العاشرة، الأربعاء 2 ذي الحجة 1348/30 أفريل 1930، ص ص 2-3.

"عن عدم سروره بمنح مؤتمر القربان المقدّس في تونس قيمة مليوني فرنك والتي تمّ الحصول عليها من الباي ومنحها للكونغرس مقابل منحه شرف رئاسته، الأمر الذي سيؤدي إلى تملق الكثير من المسلمين الخاضعين لحماية جمهورية علمانية.¹

كما عارض السيد م. جامارد (M.Gamard) رئيس رابطة حقوق الانسان، هاته الأخيرة التي كتبت من جانبها في 10 مايو 1930 إلى وزارة الخارجية « إنّ الرّأي الفرنسي المرتبط بمبادئ العلمانية، والرّأي التّونسي المرتبط بالعقيدة الإسلامية يوافقان للأسف، إنّ ممثلي فرنسا قد ابتعدوا في هذه الظروف عن الحياد الدّيني الصّارم الذي هو أساس مؤسساتنا".²

كما تمّ تنظيم احتجاجات في فرنسا بمبادرة عالم الاجتماع ألبير بيت (Albert Bayet).³

وخاض الحزب الاشتراكي وزعيمه دوران أنقليفيال (André Duran Angliviel) في تونس كذلك قتالا عنيفا ضد المؤتمر مثلما سبق وأن ندّد سنة 1925 بإقامه نصب الكاردينال لافيغري مشهرا بالتحاق الكنيسة بالجهاز الاستعماري في شكل صارخ.⁴ معتبرا ذلك خروج الجمهورية عن مبادئها العلمانية وأنّ المؤتمر يتنافى ومبادئ ثورة⁵ 1789.⁶

وكذلك الماسونيون، إذ كانت المعارضة الماسونية (المنتمية إلى الرّابطة الكبرى في فرنسا) للمؤتمر القرباني في قرطاج 1930 جزءا من السّياسة المعادية لرجال الدّين، حيث اتّخذ المجلس الفلسفي بالإجماع في 26 نوفمبر 1929 موقفا ضد طلبات لجنة الكونغرس

¹ **Nouvelliste valaisan**, mardi 22 avril 1930, année 27, N°94, "Les loges contre le congrès eucharistique que le gouvernement Français protège".

² Alexandropoulos, "Entre archéologie universalité et nationalismes. . » , **Op. cit**, p 59.

³ Gutron , **Op. cit** , p 177.

⁴ الذوايدي، تحولات. . ، المرجع السابق، ص 11.

⁵ ثورة 1789: وهي ثورة شهدتها فرنسا في عهد الملك لويس السادس عشر ضد الاستبداد وفساد نظام الإدارة واللامساواة، وهي تحمل شعار (حرية، إخاء، مساواة)، تمكّن خلالها الثّوار من الاستيلاء على سجن الباستيل (La Bastille) في 14 جويلية 1789، وتمّ الإعلان عن حقوق الانسان والمواطن في 26 أوت 1789 دون إزاحة النّظام الملكي، الذي لم يطح إلّا عند قيام الجمهورية في 22 سبتمبر 1792. للمزيد أنظر: الكيّالي، موسوعة السّياسة، ج4، المرجع السابق، ص 510.

⁶ **L'Afrique française**, Juin 1930, N° 6, année 4, "Autour du Congrès Eucharistique de Carthage", p 352.

بمنح إجازة مدرسية، وتحرير المدارس لإيواء الحجاج، فبالإضافة إلى ضياع الوقت على التّلاميذ، أشار المجلس إلى "التّحدي المقيت الذي يواجه السّكان المسلمين والذين يرون أنّ الأماكن العامة يشغلها المسيحيون"، وبناء على هذا الطّلب سترفض مدارس تونس لاستيعاب أعضاء المؤتمر الأفخارستي، كما طالب مؤتمر المحافل في شمال إفريقيا وورشّة "الأضواء والتّقدم" (الرّابطة الكبرى) التّدخل مع برلمانها من أجل إزالة جميع أشكال الدّعم والاعانات المقدّمة للأساقفة وللمؤتمر القرباني، فالماسونية التّونسية إذن ناءت بنفسها عن سياسة التّحدي هذه إمّا للتّعلق بالعلمانية أو الرّغبة في تجنب الرّأي العام التّونسي.¹

كما أنّ إيقاف تلامذة الشّبان عند احتجاجهم على المؤتمر لم يمر بدون إثارة غضب اليسار الفرنسي بالبلاد التّونسية، إذ احتجّ كل من الفرع التّونسي للرّابطة النّسائية من أجل السّلم والحرية، وكذلك فرع الحزب الاشتراكي باسم الحريات الدّيمقراطية ضدّ القمع الذي اتّخذ طابعا تعسفيا خاصّة عندما تعلق الأمر بصغار السّن، وذهبت هاتان المنظمتان حتى إلى بعث وفود لدى المقيم العام فرانسوا مونصرون الذي أبدى استعدادات لاتّخاذ اجراءات تهدئة رغم تأكّيده على أنّه لا يمكنه التّدخل في شؤون المحكمة الفرنسية.²

أمّا عن موقف الطّلبة الفرنسيين في باريس سواء الاشتراكيين أو الجمهوريين وقفوا إلى جانب جمعية حقوق الانسان واحتجّوا على السّياسة الفرنسية بتونس.³

3-2- موقف التّونسيين:

3-2-1- عموم التّونسيين:

أثار انعقاد المؤتمر الأفخارستي بقرطاج غضب التّونسيين، واعتبروا التّظاهرات التي نظّمها الكنيسة بمثابة تهديدات خطيرة على الإسلام وتشكّل بذلك تحدّيات للسّكان الذين كان

¹ Khalifa Chater, "La Franc-maçonnerie en Tunisie à l'épreuve de la colonisation (1930-1956)", mardi 24 /11/2020-20:03, <https://journals.openedition.org/cdlm/1177>

² المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية (1904-1934)، المرجع السابق، ص 517.

³ عادل بن يوسف، النّخبة العصرية التّونسية طلبية الجامعات الفرنسية (1880-1956)، دار الميزان للنّشر، سوسة تونس، 2006، ص 532.

أغليبتهم السّاحقة من المسلمين، وممّا زاد في تدمير الأهالي هو رئاسة الباي الشّرفية للمؤتمر والذي يعتبر بمثابة الرّعيم الرّوحي في البلاد، وكذلك وجود كل من شيخ الإسلام الحنفي والمفتي المالكي ضمن قائمة الهيئة الشّرفية للمؤتمر والذي اعتبروه مخالفا لمناصبهم الدّينية، والأمر الذي زاد من تأثرهم رفض رئيس الكنيسة البروتستانية قبول عضوية الشّرف احتراماً لمذهبه، وكذلك لويس ماشويل احتراماً لمبدأ التّعليم اللاديني الذي يشرف عليه وكذلك بعض الدّوات من الفرنسيين للغرض نفسه.¹

وتنامى الشّعور العدائي للمسلمين أكثر عند صدور كتاب ضخم يحمل عنوان "الكنيسة الكاثوليكية الجديدة في إفريقيا منذ سنة 1830" للرّاهب بونس² الذي بيّن فيه الخطط التي يراها مناسبة لتتصير المسلمين، فورد في مقدمته التي كتبها كبير أساقفة قرطاج مايلي: "إنّ ما كتبتموه من شأنه أن ينير الفكر العام ويحمل القلوب أكثر من ذي قبل على العناية بالأمة الإسلامية العزيزة علينا، وبمرضاها وأبنائها ولاسيما ببناتها اللاتي هنّ أزواج وأمّهات الغد، وإنّي لأود شخصياً أن يتهياً لي توجيه ممرضة مخلصة ومبشرة لكل قبيلة، وراهبة مثقفة ومفعمة بالأناة والصّبر لكل قرية من قرى الإيالة، وإنّ المقاطعات الفرنسية لم تزل ترسل لنا أنشط أبنائها للاستعمار، فلماذا لا ترسل لنا أيضاً رهباناً للتّبشير بالإنجيل؟"³، وقال بونس بأنّ الاحتلال الفرنسي لشمال إفريقيا لا يمكن اعتباره قراراً بصفة باتّة إلّا إذا تتصرّ المسلمون؛ فالمسيحية عنده من أعظم وسائل تمكين الاحتلال وترسيخ قدم الاستعمار، فتصريح الأسقف لوماتر ومساعدته الأب بونس في إمكانية تتصير سكان شمال إفريقيا وإعادة سلطان الصّليب كما في عهد الرّومانين وذلك شريطة مساعدة الدّولة مادياً ومعنوياً، وكذلك بالاعتماد على المرأة كما جاء في تصريح مطران قرطاج "...إنّ المرأة هي التي سيدخل الدّين يوماً بفضلها

¹ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 15.

² كتاب بونس والذي أثار ضجة لدى التّونسيين، جاء بعنوان "الكنيسة الإفريقية الجديدة أو الكاثوليكية في الجزائر وتونس والمغرب منذ عام 1830" (La nouvelle église d'Afrique ou le catholicisme en Algérie , en Tunisie , et en Maroc depuis 1830، تناول إلى جانب الحوادث التاريخية، البحث في مشكل قال عنه بيارميل الكاتب الفرنسي الكبير والعضو بأكاديمية العلوم الاستعمارية بباريس: إنه مشكل كبير وخطير حيث يتعلّق بحمل الأهالي المسلمين بإفريقيا الشّمالية على اعتناق المذهب الكاثوليكي. أنظر: مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 40.

³ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 58.

إلى البيت المسلم، لأنّ ديننا يسمو بها ويحرّرها عوض إبقائها في حال العبودية.."، كان له تأثير على أعيان المسلمين فقاموا بسحب بناتهم من مدارس الأخوات البيض التي اعتبرت أداة للتّصير.¹

كما اهتزّ التّونسيون عاطفياً لما صاحب المؤتمر من تشويه لصورة المسجد، إذ وضعت الأسرة في المساجد ليرقد عليها الرّهبان الذين جاءوا من أطراف العالم لإعلان حرباً صليبية عليها²، وتهجّم المتدخلون في هذا المؤتمر والإدلاء بتصريحات معادية وتلميحات مسيئة للدين الإسلامي، مثلما جاء في تصريح مطران قرطاج الأب لوماتر في نشرية المجلة الكاثوليكية التي أخرجتها الكنيسة، والذي اعتبر المؤتمر حملة صليبية جديدة ملؤها الكرم المسيحي والعقيدة النيرة، والمحبة السّلمية الوضّاءة، وأنّ الدّافع إلى عقده هو الفكرة العظيمة التي كانت تملأ جوانب سان لويس³، والتي ورثها عنه الكاردينال لافيغري.⁴ وكذلك ما ورد في الخطاب الرّسمي للمفوض الرّسولي للبابا الكاردينال لبيسييه وبحضور السّلطات المحلية عند ذكره عن التّواجد الإسلامي بالمغرب الكبير: "...ظهرت الشّمس والنّور بعد أربعة عشر قرناً خلت من الظّلام والأسى..".⁵

¹ Gutron , **Op. cit** , p 178. .

² خالدي، فروخ، المرجع السابق، ص 158.

³ يأتي سان لويس حسب المؤرخ رينيه جروسيه في مقدمة ساسة الغرب الذين وضعوا الخطوط العريضة لهزيمة الإسلام، وخاصّة بعد أن أنهكت الحروب الصّليبية قوى الغرب البشرية والمادية، ورأى بأنه: 1- يجب تحويل الحملات الصّليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه، وتجنيّد المبشرين الفرنسيين في هذه المعركة السّلمية لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره، ثمّ القضاء عليه معنوياً. 2- العمل على استخدام من يمكن إغراؤهم من مسيحيي الشّرق في تنفيذ سياسة الغرب. 3- العمل على إنشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق الإسلامي يتّخذها الغرب نقطة ارتكاز ومركزاً لقوته الحربية ولدعوته السّياسية والدينية ومنها يمكن حصار الإسلام والوثوب عليه. للمزيد حول سياسة لويس التّاسع أنظر: عبد الرحمان عميرة، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التّبشير وضلال الاستشراق، دار الجيل، بيروت، (دت)، ص 23.

⁴ Cugusi , **Op. cit** , p 59.

⁵ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية (1904-1934)، المرجع السابق، ص 507-508. وكذلك عبد الكريم العلاقي، "النّخبة الرّيتونية وأهل الكتاب في عهد الحماية"، أعمال النّدوة الدّولية الحادية عشر حول الرّيتونة: الدّين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي، تونس أيام 5-6 ماي 2002، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة منوبة، ط2، ع11، تونس، 2006، ص 312.

إضافة إلى ما تلا المؤتمر من إلقاء لمحاضرات وكتابة لمقالات مغرضة ضدّ الإسلام والمسلمين في الأوساط الفرنسية وبعديد المدن التّونسية، والتي عُدّت في نظرهم تواصل لعملية التّبشير والتّصير، وخلقت نوعا من الاستياء والشّعور بالإهانة للإسلام والمسلمين بتونس.¹

وعليه فإنّ رفض التّونسيين لهذا المؤتمر لا يدلّ على تعصّبهم باعتبار أنّه مجرد اجتماع ممثلي المسيحية للنّظر في شؤونهم الدّينية، ولكنّ في الحقيقة أنّ الدّافع لمقاومتهم له إنّما يتمثل في مقاومة السّياسة الأهلية الفرنسية التي ترمي لفرنسة المغاربة عن طريق تمسيحهم، واستغلال الدّين ورجاله واستعمال القوة الرّوحية التي تمثلها المسيحية لتمكين المستعمرين من الوصول إلى أغراضهم في هدم الكيان التّونسي هو الباعث الأوّل في الموضوع، وزيادة على ذلك فإنّ الحماية لا يمكنها أبدا أن تسمح للمسلمين بعقد مؤتمر إسلامي على نمط المؤتمر الأفخارستي في أرض الحماية.²

ومنه يمكن القول بأنّ الأهالي عارضوا المؤتمر لأنّه أثبت عن إرادة فرنسا في تعزيز وترسيخ هيمنتها على تونس وكامل بلدان المغرب العربي، وأكّد على اصطباغ السّياسة الاستعمارية الفرنسية بالصّبغة التّصيرية، وأعرب عن تهجّم فرنسا على العقيدة الإسلامية التي التزمت لهم باحترامها، والمحافظة عليها عن طريق تنشيط الكنيسة بإطلاق حرية العمل لها في الوسط الإسلامي المحض، وممّا زاد في شدّة حساسية التّونسيين للمؤتمر أنّه جاء في ظرفية إقليمية متوتّرة تمثّلت بعض تجلّياتها في الاحتفال بالذّكرى المئويّة لاحتلال الجزائر، التي صرّح فيها أسقفها بأنّ الذّكرى تعتبر احتفالا بمرور مائة عام على إقرار الكنيسة المسيحية في الجزائر³، وصدور الظّهير البربري⁴ في المغرب¹، وما مثّله من عدوان على

¹ الفاسي، الحركات الاستقلالية، المصدر السابق، ص 74.

² نفسه، ص 72.

³ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 10.

⁴ الظّهير البربري: صدر يوم 17 ذي الحجة 1348هـ / 16 ماي 1930م في المغرب وهو الظّهير السلطاني المتضمّن إنشاء محاكم عرفية تنتظر في شؤون البربر المدنيّة والجنائيّة. كما أنّ الأحوال الشّخصية (زواج، طلاق، ميراث) فإنّ مرجعها إلى مراقب النّاحية الفرنسي، فهو الذي يعقد أنكحتهم ويفسخها، ويقوم بسائر أحكام أحوالهم الشّخصية، ويتنازل

الشّعب المغربي المسلم، وذلك سيرا في تطبيق رأي الأب شارل دو فوكو² (Charles de Foucauld): "إذا لم يتتصر المسلمون في ممتلكاتنا الاستعمارية بالشّمال الإفريقي بالتّدرج والليونة فإنّي أرى أنّه ستكون هناك حركة قومية... وإن لم نحسن كيف نصيّر تلك الشّعوب فرنسية (المغرب والجزائر وتونس) فإنّها ستخرجنا من بلادها، فالوسيلة الوحيدة التي تُصيّرهم فرنسيين هي أن يصبحوا مسيحيين".³

3-2-2- الوطنيون:

لقد حاولت السّلطة الاستعمارية ورجال الدّين المسيحيين من خلال المؤتمر الأفخارستي اقناع الرّأي العام بأنّ تونس قد تفرنست، وأنّ هذا الأمر طبيعي بل هو عودة الأمور لطبيعتها التّاريخية لكون فرنسا جاءت لتخليص التّونسيين من الوجود العربي الذي أتى غازيا لهذه الأرض التّونسية الرّومانية دون أن يقيموا وزنا للمشاعر التّونسية ضنّا منهم أنّ سكانها

السلطان عن التّدخل في شؤون البربر الدّينية وغيرها. وليس له الحق في مطالبتهم بالشّعائر الإسلامية كلّها، وأنّه يكل أمرهم إلى الإدارة الفرنسية تفعل بهم ما تشاء، والغاية منه هو التّفرقة بين العرب والبربر، وإخراج البربر من سلطة المخزن وبعثهم على الإخلاص لفرنسا والاندماج فيها، وابعادهم عن الشّريعة الإسلامية ليسهل تنصيرهم. أنظر: ص 91. علي الرضا الحسيني: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ج 16-جبهة الدّفاع عن إفريقيا الشّمالية، المرجع السابق، ص 91.

¹ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية (1904-1934)، المرجع السابق، ص 508.

² شارل دو فوكو (1858-1916): راهب وقسيس كاثوليكي فرنسي، كان ضابطا تابعا للجيش الفرنسي، ورسم كاهنا سنة 1901، قام برحلة استكشافية للمغرب وقّدّم مذكراته إلى الجمعية الجغرافية الفرنسية التي كانت تتولى بمهمة الاستكشافات الاستعمارية، وبالإضافة إلى المعلومات الجغرافية والاجتماعية أبرز فوكو في مذكراته، تمرد البربر في المغرب عن السّلطان وعدم تقيد أهلها بتطبيق الشّريعة الإسلامية فضلا عن جهلهم للغة العربية، وهذا الأمر ألهم حماس الاستعماريين الفرنسيين الذين يطمحون لاسترجاع شمال إفريقيا نهائيا وذلك بتطبيق السياسة البربرية أي أنّ تمرد البربر على السّلطان يعني رفضهم للحكم العربي، ممّا يسهل دمجهم في فرنسا والحضارة اللاتينية. للمزيد حول شارل دو فوكو أنظر: مركز دراسات الوحدة العربية، تطوّر الوعي القومي في المغرب العربي، سلسلة كتب المستقبل العربي -8-، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، أبريل 1986، ص 40. وكذلك: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج6، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص ص 133-136.

³ مركز دراسات الوحدة العربية، المرجع السابق، ص 41.

أصبحوا مستسلمين وخاضعين لهم تمام الخضوع،¹ الأمر الذي زاد من إصرار الوطنيين ودفع بهم إلى التّحرك من جديد وإخراج الحركة الوطنية من السّبات والخمول الذي أصابها منذ 1926، فقاموا بتكثيف حملاتهم الدّعائية ضدّ المؤتمرين والمشرفين عليه.²

فكتبت اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدّستوري رسالة³ للباي تدعوه إلى رفض الرّئاسة الشّرفية للمؤتمر، وقد حرص موجّهوها على إكسابها صبغة تمثيلية ودعائية، فذيلوها بمئات التّوقيعات من مدينة تونس ومن داخل البلاد.

ولكنّ الباي لم يستجب لندائهم وأعتبر كحليف لأعداء الإسلام، كما وجّه الدّستوريون نداء شبيهاً⁴ إلى شخصيات تونسية عديدة للفت انتباههم إلى ما للمؤتمر من صبغة صليبية حقيقية تجعله لا يتلاءم مع كرامتهم وعمق تجذّرهم الدّيني، ورفض انتمائهم للجنة المشرفة على المؤتمر.⁵

ولم تجد هذه النّداءات الدّاعية إلى مقاطعة المؤتمر الصّدى المرجو منها، فتحرّك الوطنيون في اتّجاه الجماهير، وكثّفوا من عقد الاجتماعات وتنظيم العديد من التّحركات الشّعبية⁶، وقد أثمرت جهودهم في تعدّد المظاهرات الاحتجاجية والإضرابات، فشنّ عمّال

¹ محمود الماطري، مذكرات مناضل، تقديم عزالدّين قلّوز، تعريب حمّادي السّاحلي، ص ص 41-42. وكذلك: الطّاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 57.

² علي آيت ميهوب، بنزرت والاستعمار بحث في السّياسة الاستعمارية والحركة الوطنية في جهة بنزرت، 1924-1956، المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، جامعة منوبة، ص 133.

³ أنظر الملحق رقم 10، ص 374.

⁴ أنظر الملحق رقم 11، ص 376.

⁵ أرسل النداء إلى الباي، والوزير الأكبر خليل أبو حاجب ووزير العدلية التونسية طاهر خير الدين، ووزير القلم والاستشارة الهادي الأخوة، وأمير لواء الحرس الملوكي الحبيب العلام، وشيخ مدينة تونس ورئيس بلديتها الشاذلي العقبي، وعمر البكوش ومحمد بن رمضان ومحمد شنيق الأعضاء بالمجلس الكبير، وعامل أحواز الحاضرة صلاح الدين البكوش، والوزير الأكبر الشرفي الطيب الجلولي، ولم ترسل إلى شيخ الإسلام حميدة بيرم ورئيس الإفتاء الطاهر بن عاشور لكونها رفضا حسب جريدة الزهرة الدعوة للانضمام للجنة الشرفية، كما لم يرسل النداء إلى رئيس الغرفة الزراعية الطاهر بن عمار، وذلك لكونه نشر بجريدة الدبش تونزيان بقبوله إعطاء اسمه للجنة المؤتمر الشرفية. أنظر: مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 20.

⁶ طبّابي، المرجع السابق، ص 38.

الرّصيف بتونس وبنزرت¹ إضرابات احتجاجية عند قدوم أولى مجموعات المؤتمرين في 3 ماي ليُعرّبوا للأساقفة عن عداء الأهالي لمؤتمر قرطاج الأفخارستي²، كما أغلق التّجار دكاكينهم احتجاجا على انعقاد المؤتمر ووقاحة الشّبان المسيحيين الذين كانوا يجوبون شوارع العاصمة مرتدين زي الصّليبيين³، لكنّ تدخل أعوان الأمن وشيخ مدينة تونس وأعوانه وبعض أعضاء الغرفة التجارية دفع التّجار المسلمين عن العدول عن الإضراب تحت التّهديد بالسّجن.⁴

3-2-3- الطّلبة التّونسيين:

3-2-3-1- في تونس:

لقد أثار المؤتمر الأفخارستي الاستفزازي حفيظة الطّلبة التّونسيين، ووضّح شدّة حساسيتهم للقضايا المتعلقة بالهوية، إذ رأوا فيه مؤامرة ضدّ الدّين واللّغة العربية كما أنّه يرمي للقضاء على الشّخصية التونسية العربية المسلمة، لذلك بادروا بالقيام برد فعل جماعي ضدّ المؤتمر، فدخل طلبة جامع الزّيتونة والتّلاميذ المسلمين لمعهد كارنو والعلوية والصّادقية في إضراب عن الدّروس منذ يوم السّبت 3 ماي الموافق ل 4 ذي الحجة وهو اليوم الذي تقرر فيه قدوم الأفواج الأولى من المؤتمرين، كما نظّموا احتجاجا في صحن جامع الزّيتونة ونزلوا على إثره في مظاهرة عظيمة إلى المدينة⁵، وكان تعداد المتظاهرين يربو على السّبعة آلاف متظاهر أغلبهم من جامع الزّيتونة (إذ كان حينها طلبة المدارس يُعدّون بالمئات فالصّادقية ما بين 150 و160 تلميذا، وكارنو لا أكثر من 50 تلميذا تونسيا أمّا طلبة الجامع

¹ إضراب عمال رصيف بنزرت لم يكن سببه المؤتمر الأفخارستي لأنّ الإضراب بدأ في شهر مارس، في حين انعقد المؤتمر في شهر ماي، فالمؤتمر ساهم فقط في منح المضربين شحنة معنوية ليواصلوا إضرابهم. أنظر: آيت ميهوب، المرجع السابق، ص 133.

² المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية...، المرجع السابق، ص 516.

³ طبّابي، المرجع السابق، ص 38.

⁴ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية. .، المرجع السابق، ص 516.

⁵ علي الزّيدي، الزّيتونيون ودورهم في الحركة الوطنية التونسية، 1904-1945، ط1، مكتبة علاء الدّين، تونس، صفاقس، 2007، ص ص 332-333.

فبالآلاف)¹، وتدخلت على إثرها الشّركة لتشتيتهم، وتمّ إيقاف 17 متظاهرا،² لتتواصل على إثر هذه الأحداث الإضرابات والمظاهرات والخطب الحماسية تضامنا مع الموقوفين،³ كما قام الطّلبة في نفس اليوم الذي اعتقل فيه الطلبة بكتابة عريضة ممضاة من طرف 125 طالبا، جاء فيها: "...نحن الطّلاب المسلمون من المؤسّسات التّونسية المختلفة نظهر للحكومتين الحامية والمحمية، للرّأي العام والعالم أجمع استياءنا الكبير من روح المؤتمر الأفخارستي وهي نفس روح القديس لويس، إنّ هذا المؤتمر يسعى إلى تنفيذ برنامج الكاردينال لافيغري، ومنظموه الذين صرحوا مرارا وتكرارا أنّ هدفه الحقيقي كان حملة صليبية عنيفة ضد الإسلام في شمال إفريقيا، نحن ملزمون بإظهار استيائنا من الحكومة الفرنسية التي مبدؤها احترام الأديان والامتناع عن مهاجمة أيّا منها.. بدون هذه الرّوح من المؤتمر الأفخارستي كنّا سنستقبل هذا المؤتمر بفرح مثل جميع السّياح من إنجلترا وألمانيا..."⁴.

وفي يوم الأحد 4 ماي قرر الطلاب مواصلة الاضراب والاحتجاج كتابيا على اضطهاد رفقائهم واعتقالهم، وهذا نص الاحتجاج الذي وقّع عليه كل من تلامذة جامع الزيتونة، والليسي كارنو، والصّادقية، والعلوية، وبعثوا به إلى الوزير الأكبر بالدولة التّونسية وإلى الصّحف الوطنية: "نحن الموقعين أسفل هذا من عموم الطلبة نعلن تضامنا مع رفقائنا الواقع إيقافهم في مظاهرة أمس، وإنّا نطلب من المراجع ذات النّظر إطلاق سراحهم، نظرا لكونهم عبّروا عن الرّأي العام فيما قاموا به من الاحتجاج الذي هو مشروع لكافة الجماعات وإنّهم قاموا بذلك بغاية الرّصانة والهدوء، وإنّ الأعوان هم الذين تسبّبوا في مقاومتهم للمظاهرة بالعنف في التّشويش الذي ربّما يقولون أنّه وقع أثناء المظاهرة، ومع احتجاجنا على منعنا من إبداء آرائنا والتّعبير عن شعورنا فإنّنا نطالب بكل إلحاح بإطلاق سراح رفقائنا والسّلام"، وفي يوم الاثنين 5 ماي تحرّك الطّلبة بمظاهرات شعبية أمام دار السّفارة الفرنسية، ثمّ في

¹ محمد السّعيد عقيب، " المؤتمر الافخارستي بقرطاج ماي 1930 وتطور العمل الوطني بتونس "، مجلة البحوث والدراسات، العدد 22، السنة 13، صيف 2016، ص 296.

² الموقوفون 17: منهم 1 تاجر، 3 عمال، 3 حرفيين، 9 طلاب من الزيتونة، 1 طالب من العلويين، وتم الحكم على عاملين و 4 طلاب فقط يوم 13 ماي. مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 71-72.

³ ضيف الله، المرجع السابق، ص 55.

⁴ L'Afrique française , Juin 1930 , Op. cit, p 352.

ساحة الحلفاويين، وتجمّعوا في مسجد "صاحب الطّابع" ليؤكدوا تضامنهم مع رفاقهم الموقّفين، وطالبوا بالإصرار على الإفراج عنهم، فأفرجت الشرطة في اليوم نفسه عن 6 من الموقّفين، وأبقت على إحدى عشرة في السجن بتهمة انتهاك حرية العمل والتّحريض على الإضراب واستعمال وسائل العنف ضدّ أعوان الأمن والإخلال بالأمن العام، وكان هدف السّلاطات من هذا الفعل ردع المتظاهرين وإحباط أي مظاهرات محتملة وقت التام المؤتمر أي من 7 الى 11 ماي.¹

ولم تقف عند هذا الحد بل استدعت بعض المسؤولين في الحزب الحر الدّستوري مثل الشّاذلي بن مصطفى خير الله مدير جريدة (الصّوت التونسي)، ومحي الدّين القليبي² مدير المكتب السياسي للحزب، وعمر بن ققسية الأمين العام لشعبة الحلفاوين الدّستورية القوية، ونسبت إليهم مسؤولية الأحداث الأخيرة وهدّدتهم بالإيقاف في حالة وقوع أحداث جديدة.³

وبناء على طلب المحامين تمّ الإفراج على خمسة آخرين يوم 8 ماي، أمّا السّتة الباقين حكم عليهم في 13 ماي بالسّجن ثمانية أيام مع وقف التّنفيذ لمدة شهرين، واستؤنفت الدّراسة في جميع المؤسسات في نفس اليوم.⁴

3-2-3-2-الطلّبة التّونسيين بفرنسا:

¹ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص ص 24-27.

² محي الدّين القليبي (1900-1954): السّياسي والكاتب الصّحفي والعامل في الحقل الدّيني، أصله من قليبية، استقرت أسرته بمدينة تونس في القرن 18م، حفظ القرآن ودرس بالرّيتونة، كان عضوا في اللّجنة التّنفيذية للحزب الحر الدّستوري، ثمّ الكاتب العام بعد عام 1925، كتب في العديد من الصّحف، كما تولّى رئاسة تحرير الكثير منها كالنّذير والنّديم والمشير ومرشد الأمّة ولسان الشّعب. إلخ، حوكم سنة 1924 بسبب مقال نشره، ونفي سنة 1934 إلى برج البوف وتمّ تسريحه بعد عشرين شهرا، حجّ سنة 1947، ثمّ استقرّ بمصر، وبعدها عاد إلى تونس ومنها توجّه مرة أخرى إلى المشرق لخدمة القضايا الإسلامية، واستقرّ بسوريا إلى أن توفي سنة 1954، واشتهر بتأليف كتاب "ظاهرة مربية..."، و"مأساة عرش... إلخ. للمزيد أنظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلّفين التّونسيين، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985. ص ص 118-122.

³ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص28.

⁴ Mahjoubi , Op. cit , p 131.

قبل انعقاد المؤتمر ببضعة أسابيع وردّا على المقال الوارد بصحيفة (لا ديباش تونسيان) يوم 11 مارس 1930 والمتعلّق بمسألة دار طلبة الهند الصّينية، بعث الطّلبة التّونسيون بباريس¹ ببرقية نشرت على أعمدة صحيفة (تونس الاشتراكية) يوم 20 مارس 1930 جاء في نصّها ما يلي: "...نحتج ضدّ صحيفة (لا ديباش تونسيان) ليوم 11 مارس الجاري المهتمة بالطلّبة التّونسيين، نحترم أفكار ومواقف إخواننا من الهند الصّينية، إلّا أنّ بلادنا قادرة ماديا على بناء دار تونسية بما أنّها ثرية بما فيه الكفاية لدفع أكثر من مليوني فرنك للمؤتمر الأفخارستي..."²

فالطلّبة إذن عبّروا عن استيائهم ومشاعر سخطهم ومعارضتهم للسياسة الاستعمارية التي تدفع أكثر من مليوني فرنك للمؤتمر الأفخارستي في وقت تمتنع فيه عن بناء دار للطلّبة التّونسيين بباريس والطلّاب منهم السّكن بالمبنى الجامعي لطلّبة الهند الصّينية.

كما قاموا بالتّشهير بتنظيم هذا المؤتمر المسيحي في الأوساط الطّلابية والسياسية بالعاصمة الفرنسية (النّواب الاشتراكيون بالبرلمان، نجم شمال إفريقيا ورابطة حقوق الانسان...) ³

وعبّر الطّلبة كذلك عن سخطهم ومعارضتهم للسياسة الفرنسية المُنتهجة في تونس في الحفل الذي عقد بباريس 5 أفريل 1930 تخليدا لذكرى 5 أفريل 1922، والذي استقبل فيه الطّلبة العرب الدّارسين بفرنسا، وتطرّقوا خلاله إلى قرب انعقاد المؤتمر الأفخارستي المسيحي فوق أرض إسلامية وما في ذلك من تحدّ لشعور الأهالي والمسلمين عامّة...⁴

¹ ارتفع عدد الطّلبة التّونسيين بفرنسا الى 190 طالبا من جملة 230 طالب مغربي خلال السّنة الجامعية (1931-1932). أنظر: الشابيبي، "الحزب الحر الدّستوري. . المرجع السابق، ص 95.

² ابن يوسف، النّخبة العصرية التّونسية، المرجع السابق، ص 530-531.

³ ابن يوسف، "قراءة في مواقف الطّلبة التّونسيين بفرنسا. ."، المقال السابق، ص ص 83-85.

⁴ ابن يوسف، النّخبة العصرية التّونسية، المرجع السابق، ص 530-531.

أمّا عن موقف الطّلبة التّونسيين بالجامعات الفرنسية ذوي الثّقافة الغربيّة فيتجلّى في موقف جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين¹ بفرنسا والتي كان جلّ أعضاء مكتبها السّياسي آنذاك من تونس، إذ كان يضم 06 أعضاء تونسيين من مجموع 10 وهم السّادة: محمد السّقا كرئيس، أحمد بن ميلاد ككاتب عام مساعد، وكل من الصّادق الملولي، الحبيب جاوحدة، الشّاذلي بن رمضان، والطّيب بن سالم كأعضاء، إلى جانب آخرين من المغرب الأقصى والجزائر،² وقام طلبة الجمعية عند قدوم الفرق الأولى للمؤتمرين وبلوغ نبأ اعتقال السّلطات الفرنسية للطّلبة والتّلاميذ المضربين يوم 5 ماي 1930 بجمع مبلغ مالي في صفوفهم وتمّ إرساله إلى تونس، كما أرسلوا برقية إلى تونس بإمضاء 26 طالبا تضمّنت عبارات المساندة إلى زملائهم التّلاميذ والطّلبة، وجاء في نص البرقية ما يلي: "إنّ الطّلبة التّونسيين بفرنسا يضمّون أصواتهم إلى إخوانهم طلبة الكليات بتونس ويحتجون على حكومة الجمهورية لسلوكها سياسة مسيحية..."، فالطّلبة إذن لم يكتفوا بالاحتجاج والتّضامن مع زملائهم بل قاموا بالتّنديد بانعقاد هذا المؤتمر المسيحي فوق أرض تونس المسلمة، وأثبتوا مدى تشبّثهم بديانتهم الإسلاميّة والتّفافهم لحمايتها من محاولات الطّمس والتّمسّيح الذي تستهدفه من قبل الكنيسة المسيحية من جهة، وعن مؤازرتهم لزملائهم التّلاميذ والطّلبة بجامع الرّيتونة والمعاهد الثّانوية الأخرى ووقوفهم إلى جانبهم ضدّ غطرسة الإدارة الاستعمارية بكل ما لديهم من إمكانيات.³

¹ تأسست هذه الجمعية في شهر نوفمبر 1927 وانعقد أول اجتماع تأسيسي لها بحضور 20 طالبا تونسيا وطالبا من المغرب الأقصى بمقهى المترو بسان جرمان بباريس، لتوطيد روابط الصّداقة والمودة بين طلبة شمال إفريقيا ومساعدتهم على إتمام دراستهم العليا بفرنسا، وتمّ التّصريح بها في محافظة الشّرطة بباريس يوم 28 ديسمبر 1927، وتمّت الموافقة عليها رسميا غرة جانفي 1928، وكانت الجمعية تضمّ عند تأسيسها 50 طالبا ثم 69 طالبا سنة 1929، 102 طالبا سنة 1931. أنظر: ابن يوسف، "قراءة في مواقف الطّلبة التّونسيين بفرنسا".، المقال السابق، ص 70.

² إلى جنب كل من محمد الفاسي نائب رئيس، وأحمد بلا فريج كاتب عام و محمد الخطي كعضو من المغرب الأقصى، والأعضاء عبد المالك زغليش وموفق من الجزائر، ومنذ تلك السنة وإلى أواخر الثلاثينات أصبح المكتب السّياسي للجمعية يضم 4 أعضاء من تونس و4 أعضاء من المغرب، مقابل عضوين من الجزائر. أنظر: ابن يوسف، "قراءة في مواقف الطلبة التّونسيين بفرنسا".، المقال السابق، ص 70.

³ ابن يوسف، "قراءة في مواقف الطلبة التّونسيين بفرنسا".، المقال السابق، ص ص 83-85.

وكان رد فعل الإدارة الفرنسية على موقف الطّلبة التّونسيين بالجامعات الفرنسية القيام بمنع عقد الحفلات لفائدة جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين وتضييق الخناق علي ممثليها بتونس العاصمة بداية من جوان 1930، وذلك باستدعاء الدّكتور محمود الماطري من طرف إدارة الأمن العمومي خلال شهري جوان وجويلية 1930 وإعلامه بضرورة التّوقف عن النّشاط داخل جمعية غير معترف بها، ممّا جعل بعضهم يدين بشدّة هذه الممارسة على أعمدة إحدى الصّحف التّونسية.

وبدأ التّفكير بجديّة في محاولة توجيه الطّلبة التّونسيين إلى جامعة الجزائر عوضا عن المعاهد والكلّيات الفرنسية، حيث جاء في توصيات الدّعوة السّابعة لشمال إفريقيا لسنة 1931 ما يلي "....من الأجدى ومن وجهة نظر مدرسية وسياسية توجيه الطّلبة نحو جامعات الأقاليم عوضا عن باريس ومن الأفضل الجزائر لمساعدتهم...."¹ ومنه يمكن القول بأنّ انعقاد المؤتمر الأفخارستي بتونس يعتبر نقطة تحوّل هامّة في تاريخ العلاقة بين الطّلبة التّونسيين في فرنسا والإدارة الفرنسية نحو التّباعد والتّوتر بسبب التزامهم بقضايا البلاد وتصدّيهم للسياسة الاستعمارية المنتهجة بتونس.²

3-3- موقف اليهود:

إذا كان اليهود في تونس لم يكثرثوا بمسألة الحركة الوطنية التّونسية بقدر ما كان اهتمامهم منصّبًا في فترة الثلاثينات بالمسألة اليهودية والحصول على الوطن الفلسطيني، فإنّهم لم تكن لهم في تونس أي علاقة عدائية مع سلطات الحماية³، وكانوا يطالبون

¹ ابن يوسف، "قراءة في مواقف الطلبة التونسيين بفرنسا.."، المقال السابق، ص ص 86-87.

² ابن يوسف، النخبة العصرية التونسية، المرجع السابق، ص 533.

³ لقد كانت صورة اليهودي في الصحافة اليمينية الفرنسية في عشرينات وثلاثينات القرن الماضي صورة سلبية للغاية، فكانوا يعتبرونهم غرباء عن فرنسا لأنهم كانوا يختلفون في عاداتهم وتقاليدهم وتطلعاتهم العميقة عن الفرنسيين، كما انتشرت العنصرية المعادية لليهود والسامية في جميع الدوائر الفرنسية في تونس، فناشدت صحيفة (La Voix Française) في 21 نوفمبر 1920 الفرنسيين للوقوف معا في مواجهة الخطر اليهودي، وكتبت: "لأننا قوميون فرنسيون، معادون للسامية... لذلك نحن لا نتسامح مع انخراط اليهود في سياستنا أو كونهم مصدر إلهام غامض لها، لن نمارس قوانين الضيافة اتجاههم إلا بعد اختيار صارم، . . ولكن مع حظر صريح لإساءة معاملتهم. . "، فلم يتم اخفاء عدم الثقة في اليهود، فوصفت

بإصلاحات خاصّة بهم، كما أنّ فرنسا كانت تعمل على صهرهم في الحضارة الفرنسية بممارسة سياسة التّجنيس.¹

أمّا بخصوص موقفهم من المؤتمر فقد ورد في مقال نشرته جريدة (تونس الفرنسية) 16 أفريل 1930 بعنوان "المؤتمر الأفخارستي والاشتراكيون بتونس" ذكرت فيه بأنّ الحبر م.ليدون فلانّي كبير الجالية الفرنسية الذي انتخب بالإجماع في الانتخابات الأخيرة للجالية الإسرائيلية قد كان ضمن أول من استجاب للدّعوة الصّادرة من الأسقف وانخرط في سلك الهيئة الشّرفية لمؤتمر قرطاج ونفس الأمر بالنّسبة لرئيس أحبار اليهود بتونس، أمّا جان بسيس رئيس الجالية اليهودية فقام بزيارة لأسقف قرطاج،² وأجرى كذلك الحاخام الكبير يعقوب بوكارة عميد الجالية اليهودية الليفرونية والبالغ من العمر تسعين عاما مقابلة مع المندوب البابوي، كما قدّم الكثير من اليهود مساعدتهم للشّركة المدنية للمؤتمر الأفخارستي، فأعاروا محلاتهم وقسم من مساكنهم لإيواء أعضاء المؤتمر، وعلى سبيل المثال سمحت امرأة يهودية ثرية واحدة باستخدام مساحات كبيرة من أراضيها لم تقم بزرعها عن قصد لصالح المؤتمر في قرطاج.³

وسانّدت جريدة البتي ماتان (Petit Matin) والتي رأسمالها يهودي وغايتها نشر الدّعاية لليهود وخدمة مصالحهم المؤتمر عن طريق النّشر والدّعاية للمسيح والمسيحية. وقد رأت الصّحف التّونسية أن هذه الجريدة قد اغتتمت فرصة انعقاد المؤتمر لتحقيق أغراضها المتمثلة

الصحافة القومية الفرنسية اليهودي ب"المستفيد الأبدي"، "الكائن الجشع"، "المنتج"، "الأدنى من الأجناس البشرية"، "مضارب موهوب"، "مغتصب الأماكن في العالم، في الإدارة"، "الشّعب الحقير"، "تونس موبوءة بشكل خاص بالفيرس اليهودي"، كما انتقدت هذه الصحافة يهود تونس لانضمامهم جماعيا إلى أحزاب اليسار وتمويل صحفهم. للمزيد أنظر: Fayçal El Ghoul, « Le français de Tunisie et L'autre dans les années 1920-1930 », **Cahier de la Méditerranée**(En ligne), 66|2003, mis en ligne le 21 juillet 2005, consulté le 22 octobre 2021. p6-7. (URL: <http://journals.openedition.org/cdlm/104>; DOI: <https://doi.org/10.4000/cdlm.104>)

¹ السمغي، المرجع السابق، ص 19.

² المؤتمر الأفخارستي والاشتراكيون بتونس، "جريدة لسان الشعب"، العدد 388، السنة العاشرة، الأربعاء 25 ذي القعدة 1348 / 23 أفريل 1930، ص 3.

³ Roginski, Op. cit, p. 116.

في التّفرقة بين الأجناس، وشمّ العنصر المسلم التّونسي، ورمي الدّين الإسلاميّ بالباطل وبأنّه انتشر بالسّيف والإكراه.¹

3-4- المواقف الدّولية من المؤتمر الأفخارستي:

3-4-1- موقف الطّلبة الجزائريين والمغاربة بفرنسا:

لقد تحمّس الطّلبة الجزائريون المسلمون بباريس لمسألة المؤتمر الأفخارستي، وأرسلوا برقية مساندة واحتجاج تضمّنت توقيعات 8 طلبة² (زوايش، عبّاس، موفق، الإخوان ابن سالم، الجبلي، تامزالي) فيما يلي نصّها، .. إنّ الطّلبة الجزائريين المسلمين بباريس يحتجون على إيقاف الطّلبة التّونسيين من أجل قيامهم بمظاهرة ضدّ المؤتمر الأفخارستي..³

كما نسج طلبة من المغرب الأقصى على منوال زملائهم الجزائريين فبعثوا برقية تضمّنت 6 توقيعات⁴ (بلا فريج، بن جلول، العبّاسي، الخلطي، الوزّاني، فرج.) إلى إخوانهم التّونسيين جاء في نصّها ما يلي: .. إنّ طلبة المغرب الأقصى المسلمين المقيمين في باريس يحتجون بكلّ قواهم على انعقاد المؤتمر الأفخارستي بأرض إسلامية ويضمّون أصواتهم إلى أصوات إخوانهم المسلمين..

3-4-2- الموقف المصري:

لقد عارض طلبة رواق المغاربة بالجامع الأزهر بواسطة السيّد عبد السّلام الصّفاقسي الأزهري المؤتمر، وكذلك شعبة الحزب الحرّ الدستوري التّونسي التي تضمّ الجالية التّونسية هناك بواسطة الأستاذ الشّيخ علي شقرون⁵، والتي كتبت احتجاجا عن سلوك فرنسا في تونس

¹ ابن شعبان: "ذيل المؤتمر ... حوادث وتعليق"، "لسان الشعب"، العدد 391، السّنة العاشرة، الأربعاء 23 ذي الحجة 1348/21 ماي 1930، ص-ص، 2-3.

² Paris , 9 mai 1930.

³ ابن يوسف، "قراءة في مواقف الطلبة التونسيين بفرنسا. ."، المقال السابق، ص 86.

⁴ Paris , 9 mai 1930.

⁵ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 33.

وأرسلوه إلى رئيس الجمهورية الفرنسية بباريس¹. كما شاع بأنّ شيخ الأزهر قد راسل شيخ الإسلام بتونس للاحتجاج على هذا الأمر.²

وأصدر مكتب الأخبار التّونسية بالقاهرة كتابا من تأليف محي الدّين القليبي بعنوان: "ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي..."³، واعتبر هذا المنشور المؤتمر الأفخارستي حملة صليبية تاسعة، فوورد في مقدمته التي كتبها النّاشر محب الدّين الخطيب⁴ صاحب المطبعة السّلفية⁵ ما يلي: «... إنّ الحملة الصّليبية التّاسعة التي أعلنها الكاثوليك الفرنسيون من رهبان وساسة في المملكة التّونسية أثناء عيد الأضحى من عام

¹ الشّورى، " أبناء تونس بالقاهرة يعملون لوطنهم"، العدد 276، السّنة السّادسة، الأربعاء 7 محرم 1349هـ / 4 جوان 1930.

² مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 33.

³ وهي المقالات التي نشرتها جريدة الفتح القاهرية وتمّ جمعها ونشرها في هذا الكتاب. أنظر: الصّفحة الأولى لكتاب ظاهرة مريبة وكذلك: حفيظ طباطبي، البناء الوطني وتحديات الاستقلال، ط1، الدّار التّونسية للكتاب، تونس، 2011، ص 94.

⁴ محب الدّين الخطيب (1886-1969): ولد لأسرة دمشقية، اشتهر أفرادها بالعلم والتّجارة وكانت فيهم خطابة جامع بني أمية الكبير، تلقى علومه الأولى بدمشق، وفي سنة 1905 قصد الأستانة والتحق بكلّيتي الحقوق والآداب، وعمل هناك مع طلائع الشّباب العربي، فلاحقته السلطات ففر قاصدا اليمن حيث عمل مترجما في القنصلية التركية، ولمّا أعلن الدّستور العثماني عام 1908 عاد إلى سوريا، ثمّ قصد الأستانة، لكنه غادرها بسبب اضطهاد الحركة العربية وتعرّس النّزعة الطّورانية، وقصد القاهرة عام 1909، حيث عمل في الصّحافة والنّشر، ولمّا أعلن شريف مكة الثّورة العربية 1916 التحق بها، وفي مكة أصدر جريدة "القبلة" وحكم عليه الأتراك بالإعدام غيابيا، ولمّا دخل الجيش العربي دمشق عام 1918 وقيام الدّولة العربية فيها عاد إليها وتولّى إدارة "العاصمة" أول جريدة عربية حكومية بدمشق، ولمّا احتل الفرنسيون دمشق عام 1920، فرّ الخطيب إلى مصر ليحرّر في "المؤيد" و"الأهرام"، وليؤسّس عام 1926 "دار الفتح"، ويصدر مجلتي "الزّهراء" و"الفتح"، وقام كذلك بتأسيس "جمعية الشّبان المسلمين"، وله المطبعة السّلفية ومكتبتها، وتولّى تحرير "مجلة الأزهر" لعدة سنوات، واستمر على التّأليف والنّشر والدّعوة إلى أن توفي بالقاهرة عام 1969، له تصانيف عديدة منها: تاريخ مدينة الزّهراء بالأندلس، الرّغيل الأوّل في الإسلام، ذكرى موقعة حطين... إلخ أنظر: الطّاهر قاسمي، المرجع السابق، ص 87. وكذلك: علي الرضا الحسيني، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين-21، المرجع السابق، ص 74.

⁵ المطبعة السّلفية: من أهم وأكبر دور النّشر في البلاد العربية، أسّسها محب الدّين الخطيب في القاهرة بمصر سنة 1909، وكانت في البداية مكتبة صغيرة، أغلقها عندما التحق بالشّريف حسين، ثم أعاد فتحها مرة أخرى عندما رجع إلى مصر في 1920، وكانت هذه المطبعة بمثابة مركز القيادة للحركة الفكرية في ذلك الوقت. لمعرفة المزيد حول المطبعة وصاحبها محب الدّين الخطيب أنظر: رغداء محمد أديب زيدان، قضايا الإصلاح والنّهضة عند محب الدين الخطيب (-1969/1389)، رسالة ماجستير، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، بيروت، لبنان، 2006، ص ص 83-89.

1348هـ (1930م) لم تكن وليدة المفاجأة، وإنّما هي حلقة من سلسلة طويلة تقدّمتها حلقات وتتبعها حلقات... نعم إنّها حملة، وإنّ العربية والإسلام يستهدفان لقذائفها...".

ثم دعا النّاشر العرب والمسلمين للنّهوض والدّفاع عن دينهم وقوميتهم فقال: "...من البلاهة أن يبقى العرب والمسلمون في غفلة عن دخائل ما يُبيّت لقوميتهم ومليتهم...فالتّصريحات التي صاحبت المؤتمر تكشف السّتار عن الخطط المرسومة في الظّلام لأمر أخرى ستقع ان لن نهبّ من نوم طال أمده، ولا عذر لمسلم بعد الآن إذا لم يفهم وراء الأكّمة، وإذا لم يعد نفسه وبنيه وذويه ومعاشره للوقوف في هذه المعركة موقف الجسم الحي الذي يطلب البقاء، ويدفع عن نفسه الفناء...فإلى اليقظة أيّها المسلمون، قبل أن يفوت الوقت".¹

3-4-3- الموقف الإيطالي:

إنّ الموقف الذي اتّخذه الإيطاليون من المؤتمر ليس من السّهل فهمه، فممكن أنّ الصّراع وتوتر العلاقات بين فرنسا وإيطاليا من أجل الاستحواذ على تونس وخاصّة مع تزايد العنصر الايطالي فيها وتخوّف فرنسا من السّيطرة الإيطالية على المؤتمر سببا في الموقف الذي اتّخذته الحكومة والصحافة الإيطالية من المؤتمر.²

ومن مواقف الحكومة فقد انتشرت بعض الشّائعات تقول بأنّ موسوليني رفض أن تقترب سفينة تحمل أساقفة فرنسيين من نابولي ليأتي ركبها لمقابلة الكاردينال ليبيسييه مغادرا إلى المؤتمر.³ أمّا عن موقف الصّحف سيأتي توضيحه في الفصل القادم.

¹ مكتب الأخبار التّونسية، المصدر السابق، ص 3-4. (مقدمة النّاشر محب الدّين الخطيب).

² Roginski , Op. cit ,p, 114

³ Alexandropoulos , "Entre archéologie universalité et nationalismes. . » , Op. cit ,p . 69

خلاصة:

إنّ إصرار السّلطة الفرنسية على تنظيم المؤتمر الأفخارستي بقرطاج ما هو إلّا تأكيد لحقيقة الحقد الصليبي الدّفين وكره الفرنسيين الشّديد للإسلام والمسلمين، فجاء هذا المؤتمر من أجل إعطاء قوة دفع جديدة لعمل الآباء البيض بتونس وإفريقيا بأكملها، وكان بمثابة حرب صليبية سلمية، لكنّ ما حصل في النّهاية خيّب آمال الكنيسة والاستعمار، إذ أنّ المؤتمر فضح نواياهم الخبيثة أكثر ممّا خدمهم، وفي نفس الوقت عزّز رد فعل الأهالي والوطنيين التّونسيين تجاه المؤتمر، وكشف عن عمق تمسّكهم بعروبيتهم ودينهم الإسلامي الحنيف.

الفصل الثالث: وقائع المؤتمر الأفخارستي ونتائجه من خلال بعض الصحف والدوريات الفرنسية والتونسية والإقليمية والدولية

1- الصحف والدوريات الفرنسية

1-1- الصحف الفرنسية المؤيدة للمؤتمر

1-1-1- الصحف المؤيدة بفرنسا

1-1-2- الصحف المؤيدة بتونس

1-2- الصحف الفرنسية المعارضة

1-2-1- الصحف المعارضة بفرنسا

2-2-2- الصحف المعارضة بتونس

2- القضايا التي طرحتها الصحف التونسية في ردّها على المؤتمر

1-2- التنديد بنشاط الكنيسة الكاثوليكية ومدارس المبشرين

2-2- انقلاب فرنسا على مبادئها العلمانية والصبغة الرسمية التي منحت للمؤتمر

2-3- مشاركة الباي وبعض أعيان تونس في الهيئة الشرفية للمؤتمر

2-4- أموال البلاد

2-5- الاحتجاجات والإضراب العام الذي وقع يوم السبت 5 ذي الحجة /3 ماي 1930

2-6- مواقف من بعض الصحف والرد على بعض أقاويلها

3- المؤتمر الأفخارستي من خلال بعض الصحف الإقليمية والدولية

3-1- الصحف الإقليمية

3-1-1- الجزائرية

3-1-2- المشرق العربي (مصر)

3-2- الصحف الدولية الغربية

3-2-1- الصحف الإيطالية

3-2-2- الصحف البولندية

3-2-3- الصحف السويسرية

3-2-4- الصحف البلجيكية

4- تداعيات المؤتمر على الكنيسة وسلطة الحماية.

الفصل الثالث: وقائع المؤتمر الأفخارستي ونتائجه من خلال بعض الصحف والدوريات الفرنسية والتونسية والإقليمية والدولية

لقد عرف موضوع المؤتمر الأفخارستي بقرطاج تغطية إعلامية واسعة وهذا نظرا لما يمثله المؤتمر الأفخارستي من أهمية لدى المسيحيين الكاثوليك، ونتيجة لما أبدته السلطات الفرنسية العلمانية من تأييد وتدعيم لهذه التّظاهرة الدّينية في محمية تونس البلد العربي الإسلامي وما أفرزه من انقسام للرأي العام الفرنسي والأوربي بين مؤيد ومعارض، وما كان لانعقاده بقرطاج من أبعاد سياسية ودينية والتي ألّبت الرّأي العام التونسي ضدّ الكنيسة والاستعمار، فحاز الموضوع على اهتمام كبير من جلّ الصحف الفرنسية والتّونسية وحتى الدّولية والتي كانت مسرحا لعرض كل ما يخصّ وقائعه وأحداثه وتداعياته وآثاره على جميع المستويات والأصعدة. وهذا ما سنحاول توضيحه من خلال هذا الفصل.

1- الصحف الفرنسية:

1-1- الصحف الفرنسية المؤيدة للمؤتمر:

1-1-1- الصحف المؤيدة بفرنسا:

لقد أولت جلّ الصحف الفرنسية وبمختلف أطيافها الدّينية والاجتماعية وحتى السّياسية والاقتصادية اهتمامها بالمؤتمر الأفخارستي بقرطاج، وتناولته من أوجه عدّة، وهذا ما سنحاول إبرازه من خلال طرح أهم الانشغالات والمواضيع التي تمّ التطرق لها:

1-1-1-1- الدّعاية والإشهار للمؤتمر:

لقد راهنت فرنسا بشكل كبير على إنجاح هذه التّظاهرة الدّينية العالمية في تونس المحمية الفرنسية، ونجاحها مرهون بعدد الوافدين والمشاركين في المؤتمر ومن هذا المنطلق ومنذ الإعلان عن موعد ومكان انعقاده، بدأت الصحف الفرنسية بالدّعاية له والتّشهير به، ودعوة الحجاج الرّغبين في المشاركة إلى تسجيل أنفسهم على مستوى الأبرشيات القريبة منهم، وذلك من أجل إحصائهم لضمان حسن السّفر، وكذلك لتقديم المعلومات اللازمة لجمعية الكونغرس الكائن مقرها بشارع رقم 17 بقرطاج تونس من أجل إجراء التّرتيبات

اللازمة والخاصة بتنظيم التنقل والإطعام والإقامة أيام المؤتمر، كما عرضت أسعار الرحلات، وقدمت برنامج المؤتمر، ومن هذه الصحف نذكر جريدة (Semaine religieuse du Diocèse de Lyon) الصادرة بتاريخ 25 أكتوبر 1929¹، وكذلك مجلة (Le sacerdotat Recruitment) الصادرة في جانفي 1930، والتي عرضت في مقال لها بعنوان "كهنة فرنسا في المؤتمر الأفخارستي الثلاثون بقرطاج" التخفيضات الخاصة بالتنقل إلى تونس والتسهيلات التي ستمنح للراغبين في حضور المؤتمر كمجانبة الإطعام والإسكان وغيرها من الإجراءات لتجنيد أكبر عدد ممكن من المشاركين لتمثيل فرنسا وإظهار عظمتها في حمل شعلة الإنجيل والمسيحية في تونس بعد قرون من الإسلام.²

أما النشرة الإخبارية الشهرية (Bulletin Mensuel de l'office du Protectorat Français en Tunisie, Février 1930) اعتبرت الدعاية الإعلامية ضرورية لمثل هاته التظاهرة الدينية بالنسبة للمسيحيين، وتكمن أهميتها في أنّ معرفة مكان وموعد المؤتمر القادم تعطي فرصة للرأي العام الكاثوليكي العالمي للاستعداد له، كتأجير سفن خصيصا للظرف.³

وفي إطار الحملة الإعلامية قامت بوضع ملصقات إخبارية له في صفحاتها الخارجية للعديد 226 و 227 الصّادرين في شهري مارس وأفريل لسنة 1930.⁴

1-1-1-2- التعريف بتاريخ قرطاج وذكرياتها المسيحية:

لقد سبق انعقاد المؤتمر كتابة عدة مقالات وبأقلام معتمدة، لتشرح للمشاركين عبر أرجاء العالم تاريخ قرطاج وتعرّفهم بذكرياتها المسيحية.

¹Semaine religieuse du Diocèse de Lyon, 25 octobre 1929, N°47, année 36, P P 329-331.

² Le Recrutement sacerdotal, Revue trimestrielle, Année 30, Janvier 1930, P.

³ Bulletin Mensuel de l'office du Protectorat Français en Tunisie, Février 1930, Op. cit, P 23.

⁴B. M. L. P. F. T., Mars 1930, année 23, N°226.

- B. M. L. P. F. T., Avril 1930, année 23, N°227.

وفي هذا الصدد كتبت النّشرية الدّينية لأبرشية روان¹ (Bulletin Religieux de L'archidiocèse de Rouen) الصّادرة بتاريخ 11 جانفي 1930 مقالا عرّفت من خلاله كنيسة سان لويس وقدّمت مراحل تطوّرها، ووصفت كاتدرائية قرطاج التي بها قبر الكاردينال لافيغري باعتبارها المكان الذي سيقام فيه المؤتمر.²

وفي إطار الاستعداد للمؤتمر والتّعريف التّاريخي بمكان انعقاده والدّور الذي لعبته الدّولة المنظمة فيه كتبت حوليات المستعمرة (Les Annales coloniales) في أفريل 1930 مقالا مطوّلا ومفصّلا ومزوّدا بالصّور يتكون من 8 صفحات حول تاريخ فرنسا الكاثوليكية في تونس، وسأحاول تسليط الضّوء على أهم ما جاء فيه.

قُسم المقال إلى خمس عناصر أساسية، تناول في العنصر الأول السّوابق التّاريخية "هيبة قرطاج" ومن أهم ما ورد فيه: "...ستة عشر أو سبعة عشر قرنا قرطاج المهزومة على يد روما تستعيد السّيادة في إفريقيا، ثلاثة عشرة قرنا قرطاج واقعة تحت الغزو العربي كانت خلالها قرطاج منزوعة ومضطربة... أطلقت صيحات المناشدة، ليست اتّجاه روما بل اتّجاه بيزنطة³، فقدتها القوات البيزنطية عام 695 م واستعادت السّيطرة عليها عام 697 م وفقدتها مرة أخرى عام 698 م وهذه المرة للأبد... على أنقاض الأسقفية البالغ عددهم ستمائة أو سبعمائة أسقفية التي أحصتها إفريقيا الرّومانية والبيزنطية استقر الهلال...".⁴

نعم لقد استقر الإسلام في قرطاج التي افتكّها الرّومان من الفنيقيين في سنة 146 ق م، والتي خضعت لسلطة الإمبراطورية البيزنطية في سنة 533 م، ولكن بعد عدة فتوحات شملت مختلف مناطق تونس، إذ كانت الأولى في سنة 648 م، حيث قدم عبد الله بن

¹ روان: مدينة وبلدية فرنسية تابعة لإقليم السّين البحرية بمنطقة نورماندي بشمال غرب فرنسا.

² Bulletin Religieux de L'archidiocèse de Rouen ,Samedi 11janvier 1930 ,Année 29 ,N°2 ,p p 29-31.

³ بيزنطة:عاصمتها القسطنطينية، تكوّنت بالجنوب الشّرقى لأوروبا(على أنقاض مدينة يونانية قديمة على ضفاف البسفور) على إثر انقسام الإمبراطورية الرّومانية 395م، وتمكّن البيزنطيون الرّومان من إعادة احتلال إفريقيا الرّومانية سنة 533م، وتسمّى هذه المرحلة بإعادة الاحتلال La reconquista. أنظر: القرقوري، المرجع السّابق، ص 29.

⁴ les Annales coloniales, Avril 1930, « La France catholique en Tunisie. », Georges Goyau. p 5.

سعد¹ إلى قابس وأقام فيها حصنا واعتبر مركزا للتوسع، وبعدها توجه إلى سبيطة، ولجأ المسيحيون الذين كانوا هناك إلى المدن الساحلية، وساد بين 648 م و662 م سلام نسبي، ثم قام عقبة بن نافع² في سنة 662 م بغارة سريعة تغلغل حتى مدينة القيروان ثم عاد بسرعة إلى مصر، وفي سنة 668 م سيطر على جزيرة جربة، وفي سنة 671 م أسس مدينة القيروان وجعلها عاصمة الإقليم الإسلامي الجديد، وقاعدة حربية للتوسع، وفي سنة 672 م ضم عدة مناطق أخرى، واستمر بعدها الصراع مدة ستة عشرة سنة أخرى، إذ سيطر المسلمون على قرطاج سنة 695 م، لكن البيزنطيين استرجعوها في سنة 697 م، ثم استعادها المسلمون وسيطروا عليها بصفة نهائية بقيادة حسان بن النعمان³ سنة 698 م، وفي هذه السنة كان المسيحيون يقدرون بـ 1.5 مليون نسمة يتوزعون على سبع أو ثماني مدن ليست ذات أهمية، بعد أن كان عددهم في العهد الروماني حوالي 18 مليون نسمة متواجدين ضمن ثمانين مدينة.⁴

ثم أضاف المقال: "...قبل تسعة قرون أعلن البابا ليون التاسع في رسالة إلى توما أسقف قرطاج" لاشك أن رئيس الأساقفة الأول بعد الحبر الروماني والمطران الأول لكل إفريقيا هو أسقف قرطاج "...⁵، وبعث البابا ليون التاسع هذه الرسالة إلى توماس أسقف قرطاج في سنة 1053م لفض النزاع الحاصل بينه وبين أسقف المهديّة حول قيادة الكنيسة وعمّن يحمل منهما لقب رئيس الأساقفة، فوضّح فيها أن رئيس أساقفة شمال إفريقيا هو

¹ عبد الله بن سعد بن أبي سرح، صحابي وقائد عسكري، والي مصر في عهد خلافته وهو أخ الصحابي عثمان بن عفان من الرضاعة، توفي سنة 656م.

² عقبة بن نافع الفهري القرشي (ولد حوالي 621م، توفي 683م)، من أبرز قادة الفتح الإسلامي في صدر الإسلام، فاتح مصر وواليها، والي إفريقية مرتين (663-675م) ثم (681-683م). للمزيد أنظر: الكيالي، موسوعة السياسة، ج4، المرجع السابق، ص 127-128.

³ حسان بن النعمان بن عدي الغساني: قائد أموي لقب بالشيخ الأمين قائد الفتوحات في إفريقية، والي إفريقية (688-703م)، اضطلع بدور حاسم في دعم غزو إفريقية، واقتحام قرطاج والتغلب في النهاية على البيزنطيين والبربر الأمازيغ وزعيمهم الكاهنة.

⁴ Bibliothèque illustrée des missions catholiques, *La Tunisie chrétienne*, bureaux des missions catholiques, Lyon, 1878, p 100-101.

⁵ *les Annales coloniales*, Avril 1930, « La France catholique en Tunisie. », Georges Goyau. p 5.

أسقف قرطاج وهو الأول الذي يأتي بعد أسقف روما، وقيل أنه في فترة كتابة هاته الرسالة لم يبق من 205 أسقف الذين كانوا قبل مجيء العرب سوى خمسة أساقفة متصارعين فيما بينهم، وبعد 1076م لم يعد هناك أي وجود أسقفي، فالمسيحية الأصلية اختفت في تونس من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر¹، ويفسر المؤرخون الغربيون حالة الذوبان المسيحي في تونس والغرب الإسلامي ككل، إلى سياسة حكام دولة الموحدين²، وذلك بالاستناد إلى نص أورده ابن شدّاد (توفي بعد 1186م)، واستعاده ابن الأثير (1160-1233م)، والذي يقول: "عُرِضَ الإسلام على من بها من اليهود والنصارى: فمن أسلم سَلِمَ، ومن امتنع قُتِلَ"، فمع القرن الحادي عشر انتهت علاقة الصداقة الرسمية التي كانت تربط كنيسة روما بالحاكم المسلم في شمال إفريقيا، ويرى الكاتب عزالدين عناية أن اختفاء المسيحية داخلي وليس خارجيا وإلا لكانت اليهودية لاقت نفس المصير.³

أمّا في العنصر الثاني والذي تناول السوابق التاريخية وذكرى القديس لويس، ذكر فيه بأن تاريخ فرنسا الدينية في تونس يعود إلى القرن الثالث عشر، وقال أنّ الحملة الصليبية الثامنة قبل مغادرتها وقّعت مع تونس أول معاهدة تتعلّق بالدين أبرمها معها كل من فليب الثالث (Philippe3) وشارل دانجو (Charles d'Anjou) وثيوبالد دي نافار (Théobald de Navarre)، والتي أنتجت مفهوم جديد وهو الحرية الدينية لصالح جميع تجار أوروبا والكنيسة والرهبان⁴، وقد تم إبرام هذه الاتفاقية مع الخليفة الحفصي أبي عبد الله المستنصر بالله⁵ في

¹ Soumille , « Des catholiques en Tunisie », Op. cit , p 13.

² دولة الموحدين (1129-1269): وهي أول سلطة توحد كل أقاليم بلاد المغرب مع الأندلس في دولة واحدة، أسسها محمد بن تومرت. للمزيد أنظر: الكيالي، موسوعة السياسة، ج2، المرجع السابق، ص725-726.

³ عناية المرجع السابق، ص 40.

⁴ Goyau , « La France catholique. . », Op. cit , p 6.

⁵ المستنصر بالله الحفصي: وهو أبو عبد الله محمد المنتصر بن زكرياء بن عبد الله أبي محمد عبد الواحد، ولد عام 1228م، سلطان حفصي تولى الحكم فيما بين عامي (1249-1277م)، ويعتبر عهده العصر الذهبي للدولة الحفصية، توفي 1277م.

28 أكتوبر 1270م، وهي تسمح للنسك المسيحيين بتشييد مساكن وبناء كنائس للصلاة، ودفن موتاهم، ويخطبون داخل كنائسهم ويصلون بصوت مرتفع.¹

ويرى الغربيون بأن استقلال الحفصيين عن الموحدين، وتأسيس دولتهم بتونس (1228-1574م)، واتخاذهم موقف متسامح اتجاه المسيحيين شجع على عودة التواجد المسيحي من جديد خاصة بمدينة تونس والمدن الساحلية.² كما يرون كذلك أنّ أوروبا كانت عاجزة لفترة طويلة (1073-1535م) على قمع التونسيين وتغيير الوضع المزري، واكتفت فقط بالدفاع عن نفسها من خلال المعاهدات، وأرجعوا الفضل لبقاء المسيحية في هاته الفترة الطويلة في تونس إلى البعثات التبشيرية.³

ثمّ تحدّث المقال عن التواجد المسيحي الفرنسي بتونس خلال القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر وجاء فيه: "... قبل ثلاث قرون، ومن سنة 1645 إلى 1649 أرسل القديس فينسنت دي بول⁴ (كان محاميا في داكس⁵ وعبدا في تونس لبعض الوقت) ثلاثة من أتباعه (نويل(Noel)، لوساج (Le Sage)، ديب(Dieppe)) كقساوسة إلى الجزائر، وهم يأخذون نائب أعظم لقرطاج، كما لو كانت هذه الأسقفية موجودة دائما...، كما كتب إلى القنصل الفرنسي في تونس لانج مارتين(Lange Martin) ليسأله عما إذا كان سيستقبل في منزله قسيس لازاري جوليان غيران(Julien Guérin)، وبعد الموافقة، جاء جوليان غيران مع الأخ فرانسويون(Francillon) في 22 نوفمبر 1645 إلى تونس وبفضلهما تحوّلت السجون إلى معابد صغيرة، وأرسل فنسنت دي بول كذلك لوفاشير (Jean Le Vacher) كنائب رسولي إلى تونس، وتولى هذا الأخير منصب قنصل فرنسا في تونس خلال الفترتين: (1648-1657) و(1657-1666)، ليتحول بعدها إلى تمثيل المسيحية في الجزائر العاصمة، وبعد

¹ اللافي، المقال السابق، ص 15.

² Soumille , « Des catholiques en Tunisie », Op. cit ,p 14.

³ Bibliothèque illustrée des missions catholiques , Op. cit ,p 90.

⁴ فنسنت دي بول (1581-1660): هو كاهن كاثوليكي من فرنسا، توفي في باريس عن عمر يناهز 79 عاما.

⁵ داكس (Dax): أو أش هي بلدية فرنسية تقع بإقليم لاند (تابع لمنطقة أكييتانيا جنوب غرب فرنسا).

ذلك أصبح الكتّوبيين الإيطاليين هم من يحملون لقب النائب الرسولي تحت رعاية القنصلية الفرنسية ..¹

وفينسنت دي بول (Saint-Vincent de Paul) هو كاهن فرنسي تعرّض للأسر بتونس في الفترة (1605-1607)م، ولكنه تمكّن من الفرار الأمر الذي أعطى صفة الأسطورية لهذه الحلقة من حياته، إذ كان الأسرى المسيحيين في تلك الفترة من تاريخ تونس العثمانية يسجنون في سجون خاصة ونادرا ما كانت تنجح عمليات هروبهم منها، وكان الأسرى يوزعون حسب الكنيسة التي ينتمون إليها، كما كانت تأتيهم بعثات دينية للتواصل معهم وإرشادهم خوفا من استدراجهم وتحويلهم للإسلام، وكان هؤلاء الأسرى يتحصّلون على الحرية عن طريق الفدية من قبل العائلات أو بعثات الخلاص، أو عن طريق العمل الدبلوماسي الفرنسي الذي يعتمد على الاتفاقيات المبرمة بين فرنسا والدولة العثمانية كمعاهدة 1604² أو مع تونس، والتي في مجملها تحظر القرصنة لذلك تُجادل فرنسا بأنّ هذه الأحكام لم تُحترم من أجل الحصول من خلال قنصلها³ في تونس على الإفراج على عبيد بلادها. وكذلك

¹ Goyau , « La France catholique. . », Op. cit ,p5.

² وهي المعاهدة المبرمة بين الملك الفرنسي هنري الرابع (1589-1610)م والسُلطان العثماني أحمد الأول (1603-1617)، وقد احتوت على 48 بنداً شملت امتيازات هامة وعديدة حمت أمن التجار الفرنسيين وأمن تجارتهم داخل الإيالات المغربية، ولكن هنري الرابع اقتنع بأنّه لا يجب على الاعتماد على وساطة الباب العالي من أجل ضمان الهدوء والسلم في البحر المتوسط، فلجأ إلى التفاوض المباشر مع الإيالة التونسية ومع الداي عثمان (1591-1610)، حيث عهد إلى السفير الكونت صفاري دي براف بالتفاوض من أجل حمل سلطات هذه الإيالة على الاعتراف بالمعاهدة التي أبرمت سنة 1604، حيث كانت بنود المعاهدة تنص على إطلاق سراح جميع الأسرى الفرنسيين، وتسوية بعض القضايا العالقة حول ممتلكات الرعايا الفرنسيين التي استولى عليها قراصنة الإيالة. للمزيد حول هذه المعاهدة، أنظر: مبروك خرنق، العلاقات التونسية الفرنسية خلال القرن السابع عشر (1605-1705)م سياسيا وتجاريا، رسالة ماجستير، قسم التاريخ معهد العلوم الانسانية والاجتماعية، المركز الجامعي بغرداية، السنة الجامعية 2011/2012، ص55-56.

³ تعود العلاقات الرسمية بين تونس وفرنسا إلى بدء التمثيل الدبلوماسي، وذلك بتعيين أول قنصل فرنسي بتاريخ 28 ماي 1577 تماشيا مع بنود معاهدة الامتيازات التي وقعها السلطان سليمان القانوني (1520-1566) مع الملك الفرنسي فرانسوا الأول (1515-1547) سنة 1536 والتي تتيح لفرنسا إنشاء قنصليات في المناطق التابعة للدولة العثمانية، وتمثلت مهمة هذا القنصل في رعاية مصالح التجار الفرنسيين في تونس. أنظر: الشافعي درويش، "العلاقات التونسية الفرنسية ما بين 1577 و1685 (التميز والتنوع)"، مجلة روافد، مج 4، (2)، قسم التاريخ جامعة زيّان عاشور، الجلفة، ديسمبر 2020، ص 347.

الأسرى الكاثوليك فيما بعد، إذ أنّ مجمع الدّعاية (نوع من خدمة الارساليات في الحكومة البابوية) منح فرنسا سنة 1622 حق التّدخل باسم حماية الكاثوليك مهما كانت جنسيتهم. وبقي الوضع على هذا الحال إلى قيام الثّورة الفرنسية، وإلغاء القرصنة في 1818م، وغلق سجون العبيد والأسرى في سنة 1815.

، وذكر المقال أنّ المسيحيين المتواجدون في تونس كانوا يقيمون شعائرهم الدينية بكل حرية فلم يكن هناك تحوّل قسري للإسلام، وكانوا يحتفلون كل عام بعيد القديس لويس.¹

ولكن ما يجب ذكره هنا أنّه مع وجود الحرّية الدّينية² إلّا أنّ المجتمعات المسيحية ظلّت كما وُجِدَت قبل مجئ العثمانيين إلى تونس 1574م، فلم يتم إنشاء أبرشيات خارج المستعمرات العقابية حتّى ثلاثينات القرن 19م في تونس العاصمة، باستثناء فرنسا التي أنشأت كنيسة القنصلية في الفندق الفرنسي في القرن 17م، كما مُنِع رجال الدّين المسيحيين من أي تبشير اتّجاه المسلمين، وصدر في سنة 1722م مرسوم بايليكي يمنع اعتناق الرّعايا المسلمين للعقيدة الكاثوليكية، كما يمنع البعثات الكاثوليكية من التّواصل مع رعايا السّلطان بحجة إرشادهم، وعدم إعلان العبادة الكاثوليكية أو إزعاج المسلمين، فلا يوجد قرع أجراس أو مواكب خارجية، أي أنّ الدّيانة المسيحية شأن داخلي للمجتمع الفرنسي والأوربي وتهيمن عليه فرنسا رغم قلة عدد مواطنيها.³

أمّا في العنصر الثالث والمتعلق بفرنسا الدّينية في تونس (1830-1875) بدأ الحديث فيه عن المعاهدة السّرية بين باي تونس حسين باشا والقنصل العام ماثيو دي ليسبس والتي أصبحت بموجبها فرنسا مالكة للأرض المناسبة كما ورد في المقال، وقُدّم نص المعاهدة،

¹ Goyau , « La France catholique. . », Op. cit , p 7.

² حيث كان رجال الدّين المسيحيين قادرين على ممارسة خدمتهم من خلال تقديم الدّعم المعنوي للعبيد المسيحيين المحتجزين في السّجون وعلى السّفن الشّراعية، وقيل مراد باي في عام 1624 تحت اسم "وكلاء العبيد" جماعة مكوّنة من أربعة كابوشيين أسسوا أول مؤسّسة كاثوليكية في تونس، وفي عام 1645 منح البابا القنصل الفرنسي لقب النّائب الرّسولي لتونس، وأصبحت تونس مثالا عن التّسامح الدّيني. أنظر:

-Anna Parzymies , « La Tunisie musulmane ,pays au riche passé chrétien et au présent tolérant » , *Studia Arabistyczne i Islamistyczne* 4,1996. p 100.

³ Soumille , « Des catholiques en Tunisie » , Op. cit , p 17-18.

والتي جاء فيها: "الحمد لله الذي يرجع إليه كل شيء، نتنازل إلى جلالة ملك فرنسا إلى الأبد عن موقع في مالقة يكفي لإقامة نصب تذكاري للملك لويس التاسع في المكان الذي توفي فيه هذا الأمير، نتعهد باحترام هذا النصب التذكاري الذي كرّسه ملك فرنسا لذكرى أحد أسلافه اللامعين، تحية من عبد الله حسين باشا باي، أمين، 17 صفر 1246 حرّر في باردو في 8 أوت 1830"، وذكر بأنّ جول دي ليسبس ابن القنصل العام هو المسؤول عن اختيار موقع النصب ورأى أن يكون في تلة بيرسا، وفي تسع سنوات لم يتم بناء شيء، ثمّ قامت حكومة لويس فيليب ببناء كنيسة سان لويس القادرة على استيعاب خمسين شخصا.¹

فالبابوية كانت تسعى للحفاظ على ما تبقى من المسيحيين الكاثوليك (حوالي 6000 كاثوليكي) في تونس خوفاً عليهم من التحويل وإغرائهم باعتناق الإسلام، فطلبت من "جمعية الشباب لنشر الإيمان في البلدان الإرسالية" والتي تأسست في ليون سنة 1822 إرسال كهنة إلى تونس قبل أن تتولى مقاطعة الكبوشين في مالطا مسؤولية السّكان الأوربيين في تونس بحكم أنّ الكبوشيين² يشكلون أغلبية المجتمع الكاثوليكي³، ولكن انتصار الجيش الفرنسي في الجزائر 1830م، أعاد توجيه أنظار فرنسا من جديد نحو تونس، إذ أثار هذا الانتصار الشّعور الصّليبي لدى الملك الفرنسي شارل العاشر، وجعله يتطلّع إلى تونس، فقام بتحويل فيلق من البحرية الفرنسية بعد أيام فقط من سقوط الجزائر إليها، ليفرض على واليها حسين باشا هذه المعاهدة⁴، وبعد تولّي الملك الفرنسي لويس فيليب العرش خلفا لشارل العاشر أظهر تشجيعا وعطفا كبيرا على الكنيسة والارسلات التبشيرية في شمال إفريقيا، استجابة لمساعي البابا غريغوري السادس عشر (Grégoire-16) (1831-1846)، فعين لأول مرة الأسقف

¹ Goyau « La France catholique. . », Op. cit , p 8.

² الكبوشيون: أتباع مسلك رهبنة كاثوليكية تأسست 1525م، ويعتبر تيارا إصلاحيا ضمن تنظيم فرانشيسكو الأسيزي الإيطالي، واستقلت عنهم سنة 1619، وقد وصلت أول بعثة للرهبنة الكبوشية إلى تونس في 28 أكتوبر 1624 وكانت تهدف إلى تحرير الرّهائن من يؤس العبودية واسترجاعهم، وتمتعت هذه البعثة الإيطالية بالحماية الفرنسية حسب المعاهدة الفرنسية التّونسية 1685، ويعيشون تحت حماية قنصل فرنسا مستعملين كنيسة الفندق الفرنسية إلى حين حصولهم على كنيسة خاصة بهم سنة 1735م. أنظر: عناية، المرجع السابق، ص198. وكذلك: اللافي، المقال السابق، ص 15.

³ Soumille « Des catholiques en Tunisie », Op. cit , p 19.

⁴ عبد الجليل التّميمي، "التّفكير الدّيني والتّبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر، في القرن التاسع عشر"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 1، تونس، جانفي 1974، ص 15.

دوبوش للقيام بهذه المهمة في الجزائر، أما في تونس فأنشأ كنيسة سان لويس في قرطاج وعيّن عليها القسيس بورغاد.¹

كما طلبت فرنسا من البابوية أن تجعل تونس أسقفية موّكلة إلى فرنسي، لكن روما رفضت واكتفت بجعل تونس مقرا لنائب الرسول - أي أسقف ليس كامل الحق أي ممثل البابا وتحت سلطته المباشرة -، وقامت بتعيين الأسقف سوتر² لهذا المنصب.³

ولكن المسعى الفرنسي لم يلبث طويلا وتحقق، فورد في المقال: "...وفي 1884 عين ليون الثالث عشر الكاردينال لافيغري رئيسا لأساقفة قرطاج ووضع تحت سلطة الكنيسة كل أراضي الرّسولية بتونس، وباعتماد مبدأ التسامح الديني الإسلامي ووفقا للمبادئ المشتركة للحرية الدينية تمكّن الصّليب من مجاورة الهلال، واستأنفت الكاثوليكية الفرنسية رسالتها هناك... مثلما وجدت فرنسا السياسية وفرنسا الاقتصادية وراء البحر المتوسط في ظل الطّمي الإسلامي بقايا رومانية... كذلك تفرح فرنسا الدينية وتكرم نفسها في تونس كما في الجزائر بالاستقرار على أرض الإسلام... ستخلف الكنيسة الفرنسية الكنيسة التي رسمها ترتيليان وقبريانوس وأوغسطين وفولجنس إنّ العمل الذي جعلنا من خلاله ليون الثالث عشر كمهندسي استعادة المسيحية كان مجرد نتيجة لحمايتنا السياسية، لكن هذا العمل في الوقت نفسه صدّق وكافأ سلسلة طويلة من الأعمال والمبادرات العفوية لفرنسا الدينية لمدة تسعمائة عام في تونس...".⁴

وبعدها أسهب في الحديث عن نشأة أخوات القديس يوسف⁵ وعن كيفية وأسباب مجيئهن واستقرارهن بتونس سنة 1840 والدور الذي لعبنه في تعليم الفتيات الصغيرات اللواتي لم يكن

¹ عبد الجليل التّميمي، "التّفكير الديني والتّبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر.."، المقال السابق، ص18.

² فيدال سوتر (Fidèle Sutter): ولد 1796م من أصل ألماني، (كان والده كبير الحرس البابوي السّويسري)، أسقف في عام 1844، ونائب رسولي 1845 وكان عمره في سنة 1881:85 عاما. أنظر:

- Soumille, « Les activités et les œuvres des congrégation... », Op. cit, p3.

³ Soumille, « Des catholiques en Tunisie », Op. cit, p20.

⁴ Goyau, « La France catholique. », Op. cit, p 5-6.

⁵ أخوات القديس يوسف: مؤسسة أسستها القديسة إميلي دي فيالار عام 1840، بعد مغادرتها للجزائر بسبب الأسقف دوبوش، وهنّ راهبات فرنسيات كانت أول مؤسّستهم في تونس، ثم امتدت إلى سوسة 1842 وصفاقس 1852 وحلق الوادي

لهن حتى ذلك الوقت نصيب في التعليم، وكذلك في تدريس اللغة الفرنسية، وقدّم الأعمال الخيرية التي قامت بها الأخوات والتفاني الذي أبدينه في عام (1849-1850) خلال وباء الكوليرا الذي أودى بحياة خمس وعشرين ألف ضحية. ثمّ شرح دور بورغاد التّصيري في تونس وذكر بأنّ الفضل يرجع إليه في تقدّم فرنسا الدّينية باثنتين وأربعين عاما عن فرنسا العسكرية والسياسية.¹

وفي العنصر الرّابع من المقال تناول عمل الكاردينال لافيغري (1875-1893)، وشرح فيه دوره في فرض السّيطرة الفرنسية على كنيسة سان لويس، وأرجع الأمر إلى اللّواء شانزي زوجة حاكم الجزائر² (Chanzy)، والتي لاحظت عند قيامها بزيارة إلى الكنيسة بقرطاج في أفريل 1875 أنّ قداسة المكان وقيّمته التّاريخية تتناقض مع خراب المبنى، كما لاحظت أنّ من يخدم الكنيسة هم الكبّوشيين الإيطاليين³ وغياب العنصر الفرنسي باستثناء الأب أنسيلم (Anselme)⁴ مع القنصل الفرنسي روستان¹. وعند عودتها للجزائر طلبت من المطران

1855، يشير تقرير 1877 إلى وجود 30 شقيقة في تونس و5 مدارس ومستشفيات مع تقديم رعاية منزلية للنساء المسلمات، كانت علاقة الرّاهبات سيئة مع الأسقف سوتر حول تمويل أنشطتهن، حيث كان النّائب الرّسولي سوتر يتلقّى المال مباشرة من ليون أو باريس لتمويلهنّ، لكنه ينسى إعادتها لهنّ، ومن هنا تدخلنّ لدى القنصل الفرنسي للحصول على المال دون وسيط. أنظر:

-Soumille, « Les activités et les œuvres des congrégation... » , **Op. cit**, p 4.

¹ Goyau, « La France catholique. » , **Op. cit**, p 8-9.

² أنطوان ألفريد شانزي (Antoine Alfred Chanzy) (1823-1883): عيّن حاكما عاما للجزائر في 10 جوان 1873 لمدة ست سنوات، وزوجته هيرمين جيرار (Hermine Gérard) ابنة ضابط برتبة مقدم، تزوجها بوهان في 8 ماي 1845 وأنجب منها ثلاثة أبناء وبنات. للمزيد أنظر:

-Parcollet-Delille Dominique, **Chanzy Antoine Eugène Alfred (1823-1883)**, Sorbone, 1995, p 1. (<http://www.openedition.org/6540>)

³ كان الكبّوشيين الإيطاليين والمالطيين حتى عام 1870 هم أكثر الأوربيين في تونس، استقروا فيها منذ عام 1624م، كان عدد الدّينيين الكبّوشيين الذين يخدمون الكنيسة قليلا، 17 كاهنا وعدد قليل من الإخوة عام 1881 على رأسهم أسقف إيطالي فيدال سوتر، من بين 24 إلى 25 راهبا كان واحدا فقط فرنسيا وهو أنسيلم دي آركس (Anselme des Arcs). أنظر:

-Soumille, « Les activités et les œuvres des congrégation... » , **Op. cit**, p3.

⁴ أنسيلم دي آركس (Anselme des Arcs): مستشار الأسقفية حتى عام 1879، حيث فقد ذاكرته، وتوفي عند وصوله إلى روما 1881، ألف عام 1865 " تاريخ مهمّة الكبّوشيين الإيطاليين بتونس (1865-1624). أنظر:

-Ibid, p3.

لافيجري كهنة للخدمة المنتظمة في المزار، وعلى الفور توجه لافيغري للمكان وعايينه وبعدها حصل على موافقة من البابا بيوس التاسع على إرسال اثنين من آبائه البيض كقساوسة، وقال حينها البابا: "إنه من العدل أن يخدم الفرنسيون في قرطاج كما يفعلون في روما نفسها ملاذ ملك فرنسا"، وما كان على سوتر النائب الرسولي إلا أن يعطي موافقته، وهكذا من تحريض من لافيغري بدأ تواجد الفرنسيين في كنيسة تل بيرسا، وكتب حينها في رسالة مؤرخة في 25 أوت 1875 إلى الأبولين المكرسين للخدمة في كنيسة سان لويس "إن المزار الذي ستقيمونه سيكون مكان الإيمان والكرامة والشرف القديم لفرنسا"، وتم تكريس هذه الهيمنة الفرنسية رسميا سنة 1881 حين منح البابا لافيغري لقب مدير النيابة الرسولية لتونس.²

أما العنصر الخامس والأخير خصّصه لفرنسا الدينية في تونس المعاصرة (1883-1930)، وتحدث فيه عن نشاط وإنجازات الأساقفة الفرنسيين الثلاث الذين تعاقبوا على إدارة كنيسة قرطاج بدءا من لافيغري ثم كومب وأخيرا لوماتر، كما تناول الاتفاقية المبرمة بين الحكومة الفرنسية والفاتيكان حول تنظيم العلاقات بين الكنيسة والدولة في تونس. ووضح التقدم الديني الذي تم إحرازه منذ أن استقرت فرنسا بتونس مع تقديم معطيات إحصائية لنشاط أخوات القديس يوسف وراهبات سانت فينسنت دي بول التي تأسست بتونس عام 1895، ودورهن في التعليم والطب والأعمال الخيرية. كما أشاد بثمار المعاهد الدينية التي أنشأها لافيغري والآباء البيض³ وكذلك بالنشاط الأثري للباحث ديلاتر والذي بفضل عادت

¹ ثيودور روستان (Théodore Roustan) (1833-1906) دبلوماسي ومسؤول في الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية، درس القانون في أكس أون بروفانس، عين قنصلا على التوالي منذ 1860: في بيروت ثم أزمير، ونقل في مارس 1865 للقاهرة، ثم عاد إلى باريس لتوجيه القنصليات في ديسمبر 1866، ثم قنصلا في الاسكندرية 1867، وفي دمشق مارس 1868، المفوض في فلسطين أوت 1870 قنصل عام في بيروت 1872، ورفي إلى رتبة قنصل عام وقائم بالأعمال في تونس في 17 ديسمبر 1874، وتمكن من الحصول على عدة امتيازات لفرنسا في تونس كمد خط سكة حديدية بين الجزائر وتونس 28 جانفي 1878، ويعتبر دخول القوات الفرنسية إلى تونس تكريسا لمجهودات روستان. غادر تونس 18 فيفري 1882، وتوفي في باريس 8 أوت 1906 عن عمر يناهز 73 عاما.

² Goyau, Op. cit, p 9-10.

³ عندما عُيّن لافيغري نائبا رسوليا في سنة 1881 كان يضم أبرشية قرطاج، و9 أبرشيات: تونس، حلق الوادي، بنزرت، بورتو فارينو، سوسة، مهدية، المنستير، صفاقس، جربة، وكان عددهم ما بين 38000 و40000 كاثوليكي، منهم 20000

المسيحية الإفريقية القديمة للظهور تدريجيا على سطح الأرض، وقدّم أهم الاكتشافات الأثرية والتي ستكون مسرحا للتّظاهرة الأفخارستية في قرطاج.

وختم المقال بالعبارات التّالية: "هذه هي روح فرنسا الدّينية في تونس وهذا هو قلبها، بادرة أو لفظة من لوماتر هذا العام لاستدعاء الكاثوليك من جميع أنحاء العالم لحضور المؤتمر الأفخارستي بقرطاج... لم يمض نصف قرن على استعادة أسقفية إفريقيا في قرطاج، وسيظهر هذا الظهور للكاتوليكية العالمية في ظل علمنا، أعتقد أنّه مهما كانت مخيلة لافيغري واسعة لا يمكن أن تحلم أن يسود وفي مثل هذا الوقت القصير هذا الانتصار لفرنسا الدّينية والتي عرفت كيف تعيد تشكيل إكليروس قرطاج... سيرى زوّار المؤتمر الأفخارستي أنّ قرطاج وجدت روحها مرة أخرى".¹

وكتبت كذلك جريدة (La Croix du Paris) يوم انطلاق المؤتمر في 7 ماي 1930 مقالا قدّمت فيه وصفا لقرطاج جاء فيه: "سيتوجه الوافدون للمؤتمر مباشرة إلى قرطاج والتي تبعد عن الميناء مسافة عشرين كلم وهي مسافة طويلة، إلّا أنّه يمكن قطعها في غضون نصف ساعة عن طريق القطارات الكهربائيّة، وفي قرطاج سيجدون عددا كبيرا من الخيم للإقامة فيها، وأنّهم سيندهشون من روعة المناظر الطبيعية العالمية الفريدة حيث البحر والسماء تتألق بالألوان الزّاهية، والتّلال الوعرة مزينة بالجواهر ذات البياض المتألّئ وهي القرى والأديرة والفيلات، وفي حي قرطاج القديم سيستقبلهم الآباء والأخوات البيض بشكل جيد لإضفاء المزيد من الرّهبانية للمؤتمر. وأخيرا سيجدون حشد الذّكريات التي تنطق في كل مكان إلى قلب وروح كل مسيحي، وهي بحق كما قال الكاردينال فيردييه (Verdier):..الأغنى بالذّكريات الكاثوليكية في العالم بعد روما..لقد قمنا بأنفسنا بالحج إلى

في مدينة تونس، باستثناء تونس كلّها كنائس صغيرة ومتواضعة، وكان هناك سوى 17 كاهنا من الكيوشيين، بما في ذلك 8 في تونس العاصمة، ثلاث مدارس للإخوة وخمس راهبات القديس يوسف، ومستشفى صغير في تونس العاصمة، ثم صارت 24 أبرشية سنة 1892، بالإضافة إلى إنشاء العديد من المدارس والمستشفيات. أنظر:

- Anna Parzymies , **Op. cit** ,p102.

- Soumille, « Les activités et les œuvres des congrégation... » , **Op. cit** ,p33.

¹ Goyau ,**Op. cit** ,p p 10-12.

قرطاج مرتين الأمس واليوم، شعرت بمشاعر كثيرة للأسف يمكن أن أختصرها بكلمة واحدة هي (واحسرتها)...¹.

كما أشاد المقال بدور الأخوات البيض وراهبات "فرانسيسكان مريم" في تربية بنات أكبر العائلات المسلمة كالحفيدة الصغرى للباي، وعلى ما قدّمته من خدمات طبية وأعمال خيرية لسكان المنطقة، كما أعرب عن مساهمتهم في تنظيم المؤتمر والمتمثلة خاصة في تقديم أجزاء كبيرة من منازلهم وحدائقهم لإيواء المؤتمرين، واستعدادهم لتوفير 4000 وجبة يوميا صباحا ومساء خلال أيام المؤتمر.²

1-1-1-3- دوافع وأهداف مؤتمر قرطاج:

- تكريم قرطاج لما فيها من ذكريات للمسيحية حسب ما ورد في النشرة الإخبارية الشهرية (Bulletin Mensuel de l'office du Protectorat Français en Tunisie ,Février 1930) "...إنّ اختيار البابا بيوس لقرطاج لعقد المؤتمر الثلاثون رغم وجود العديد من الطلبات في أكبر المدن العالمية إلا تكريما وتشريفا لها لما فيها من ذكريات للمسيحية، وكذلك لعدم عقد مؤتمر في القارة الإفريقية..."³.

فالمؤتمر جاء خاصة لتذكير الحشود المسيحية بموت الملك الفرنسي عند قيامه بالحملة الصليبية الثامنة على تونس حسب صحيفة (L'Afrique du Nord illustrée).⁴

- إحياء قرطاج وإرجاعها إلى كنف المسيحية إذ نشرت جريدة (La Croix du Paris) في العدد المشترك ليومي الأحد 11 ماي والاثنين 12 ماي عنوان كبير في صفحتها الأولى "المضيف يعيد إحياء قرطاج"، ومن ضمن ما جاء تحت هذا العنوان خواطر للأب بيار لارميت (1863-1959)(Pierre l'Ermite)، ورد فيها: "...هذا البحر ذو الوجه الأزرق

¹ La Croix , mercredi 7 mai 1930, «Avant Le Congrès. . », A-Michelin ,Op. cit ,p 1.

² Ibid ,p1.

³ Bulletin Mensuel de l'office du Protectorat Français en Tunisie ,Février 1930 ,Op. cit ,P 23.

⁴ L'Afrique du Nord illustrée ,31 Mais1930 ,N°474 ,Année 25 ,P 6.

دائماً.. هذا البحر الذي حمل الرسل: لآزر¹ (Lazare)... أو غسطين والقديس لويس... كانت نفس خيبة الأمل... ولكن هنا على هذا الشاطئ هناك شيء خالد، من أجل هذا ولهذا وحده، تمّ إحياء قرطاج اليوم، هي ليست رومانية ولا وثنية ولا مسلمة، قرطاج هذه ماتت إلى الأبد لأنها كانت مجرد بشر، قرطاج تُحيى المسيح وكنيسته، يجب أن يبتهج الموتى العظام غير المرئيين والذين صنعوا كنيسة إفريقيا بعد الشتاء الطويل وموتها الظاهر يرون هذا الربيع... هذا التجديد للانطلاق ينبع من التربة المبللة بدمائهم، إنهم من بين الحجّاج.. تحدّثوا إلى أرواح هؤلاء الستة آلاف من الأطفال جاءوا بتقن لاستقبال القربان، وحماسة هذا المؤتمر مبنية على أرواحهم المنتشرة وعلى قلوبهم التي ننبض بقوة أكبر، يمكنهم إجراء المقارنة بين الماضي واليوم... أين يكتشفون روائع القربان المقدس بين بوقرنين² الجبل المقدس للقارطاجيين حيث كانت تُقدّم القرابين البشرية وتلّة بيرسا حيث ارتفع تمثال مولوخ³ (Moloch) المشهور بشكل بشع بتضحيات الأطفال... العصور الحديثة لا تشبه العصور القديمة... كانت إفريقيا ميتة اليوم عادت للحياة...".⁴

وكذلك ما ورد في جريدة (La Croix de la Charente): "...وعلى مدى مائة عام وبفضل غزو الجزائر، أعاد مرسلونا إحياء الايمان المسيحي، وأنشأوا مراكز دينية وجمعوا المؤمنين، والآن في الذكرى المئوية للغزو وفي نفس اللحظة التي تحتفل فيها فرنسا بسيادتها،

¹ عاش في القرن الأول قبل الميلاد وتوفي سنة 30 م، يقال أن يهود يافا وضعوه هو وشقيقته وآخرين في سفينة بها تسرب ماء قاصدين إغراقهم، لكن السفينة رست بسلام في جزيرة قبرص، حيث أقيم لعازر أسقفا على كتيون (لارنكا)، وهناك تنجح بعد نحو ثلاثين عاما، وفي عام 890م، بنى الامبراطور ليو السادس في القسطنطينية كنيسة ودير على اسمه، ونقل جزء من رفاتة إليها.

² جبل بوقرنين: هو جبل يقع في الشمال الشرقي التونسي قرب مدينة حمام الأنف يبلغ ارتفاعه 576م، سمي بجبل بوقرنين نظرا لوجود قمتين في أعلاه واحدة بارتفاع 576م والثانية بارتفاع 493م.

³ مولوخ: هو إله كنعاني قديم، وهو إله الفينيقيين، ومولوخ كان إلها ذو نزعة شريرة، كان لا يرضيه شيئا إلا قرابين الأطفال، التي كان الفينيقيون القدماء يقدمونها له لا رضائه، فيتم حرق الأطفال بالقرب من مذبحه وتقديمهم له كقربان.

⁴ La Croix, Dimanche 11, Lundi 12 mai 1930, «L'Hostie ressuscite. », A-Michelin, Op. cit, p1

أصبحت هذه الأرض الإفريقية مرة أخرى نقطة محورية للكون بأسره وذلك بفضل المؤتمر الأفخارستي....¹.

— -الرد على العلمانية وأعداء الدين: ومثال على ذلك ما ورد في (La Croix de la Charente): "...وما أعطى هذا المؤتمر أهمية خاصة على بقية المؤتمرات السابقة هو أنه كان الرد الأكثر بلاغة على العلمانية المعاصرة، التي يحاول كارهو الله فرضها على العالم بدءاً من فرنسا، العلمانية هي مجرد ماسونية مقنّعة مطالبة بالتخلص من كل الديانات... العلمانية عقيدة الدولة الفرنسية التي تُدرس في مؤسسات التعليم العام بتونس، هي بغیضة للآباء المسلمين والذين اعتبروها شكلاً من أشكال الإلحاد وهي فضيحة في نظر المؤمنين بالإسلام...مغامرة تركيا الملحدة تفتح عيونهم وبالمثل فإنّ المعاملة السيئة الأخيرة التي تعرّض لها اليهود والحاخامات من قبل السوفييت تثير قلق الإسرائيليين في تونس، وهذه المشاعر تدفع المسلمين واليهود إلى التقرب من الكاثوليك في دفاعهم المشترك ضد العلمانية أو بشكل أكثر تحديداً ضد الماسونية...".²

"... ولمثل هذا قمنا بالكتابة إنّ المؤتمر الأفخارستي بقرطاج كان أفضل رد للعلمانية: اتّحد اليهود والمسلمون والكاثوليك لإعلان الحاجة إلى الله، في مثل هذه الظروف خدمت الكاثوليكية فرنسا بشكل جيد....".³

ومن خلال هذا نستنتج أنّ المسيحيين استغلّوا الاضطهاد الذي وجّهه البلاشفة بعد نجاح ثورتهم في عام 1917- ضد النظام القيصري - نحو الكنيسة ورجال الدين النصارى لاعتقادهم أنّها العدو الأكبر للبلاشفة، واعتدائهم على المسلمين ابتداءً من 1927 بإلغائهم قانون الملكية الخاصة ومصادرة أملاكهم ومساجدهم ومدارسهم وتقتيل بعض علمائهم ومفكرهم وإجبارهم على جعل اللغة اللاتينية الروسية محل العربية في أداء الصلاة وقراءة

¹La Croix de la Charente ,année 34°,N°20,dimanche 18 mai1930 , « A Carthage une réponse au laïcisme »,Georges LARIGLDY.

²Ibid.

³Georges LARIGLDY, « A Carthage une réponse au laïcisme »,La Croix de la Charente , Op. cit.

القرآن¹ ونفس الأمر بالنسبة لليهود²، لكسب ود المسلمين واليهود وتأييدهم للمؤتمر وتعبئتهم ضد الشيوعيين والاشتراكيين وأعداء الدين.

— إبراز قوة فرنسا ونجاح سياستها في إدارة شؤون مستعمراتها: ونذكر على سبيل المثال ما جاء في (Bulletin Mensuel de l'office du Protectorat Français en Tunisie): "...إنّ هذا المؤتمر سيُظهر للعالم صورة فرنسا الحضارية والرّاعية لحقوق الانسان والمواطن في هذه المنطقة الخاضعة لحمايتها..."، وذكرت: "...إنّ التّونسيين يتمتعون في بلدهم بنفوذ واعتبار لا يُستهان به، وما موقف قادتهم التّعاوني كقبول الباي للرّئاسة الفخرية للمؤتمر، والتّعاطف الذي أبداه كلّ المنظمين المدنيين والدينيين سواء تعلق الأمر بتقديم المساعدات المعنوية، أو المساهمة في التّفقات التحضيرية للمؤتمر إلا دليل على ذلك...".³

1-1-1-4-قدوم المؤتمرين إلى تونس:

لقد نال قدوم المؤتمرين إلى تونس وخاصة النّائب الرّسولي الكاردينال ليغات لبيسييه والاستقبال المهيّب الذي لقيه من قبل رجال الدّين والسّلاطات المحلية المدنية والعسكرية اهتمام معظم الصّحف الفرنسية الصّادرة آنذاك، ونجد من بين الصّحف من أعطت تقديرات حول المشاركين كجريدة (Journal des débats) والتي أعلنت في 8 ماي 1930 أنّ عدد المشاركين قدّر ما بين 15 ألفا و 20 ألفا، وذكرت بأنّ الفرنسيين هم الأكثر مشاركة، إذ قدم حوالي 4000 كاهن وإكليري وعلماني ضمن مجموعات أبرشية، وحوالي 3000 زائر قدموا بشكل فردي، أمّا من أمريكا فقدم 600 شخص ومن كندا 300 فرد، ومن أستراليا 50 حاجّا أما الألمان والبلجيكي والإسبان والإيطاليين فجاءوا بأعداد كبيرة، و 60 حاجّا من ليتوانيا

¹ محمد سالم أحمد عمّاية، شكيب أرسلان (1869-1946) دراسة في فكره السّياسي، رسالة مكّملة للحصول على درجة الدّكتوراه، كلية الدّراسات العليا، الجامعة الأردنيّة، 2000، ص 229-230.

² قتل 150000 ألف يهودي في مذابح 1918-1920، منهم 125000 في أوكرانيا، و 25000 في بيلاروسيا، وتعتبر من أكبر مذابح اليهود في أوروبا في ذلك الوقت.

³ Bulletin Mensuel de l'office du Protectorat Français en Tunisie ,Février 1930 ,Op. cit ,P 23.

الفصل الثالث: وقائع المؤتمر الأفخارستي ونتائجه من خلال بعض الصحف والدوريات

و200 نرويجيا، ووجود مشاركة أيضا من سوريا وفلسطين وأرمينيا، وقالت بأن عدد الأساقفة ورؤساء الأساقفة حوالي 125 أمّا الكهنة فحوالي 5000 كاهن من جميع الجنسيات.¹

أمّا جريدة (La Croix) فقد أحصت عدد السفن المحملة بالحجاج القادمة إلى تونس يومي الثلاثاء والأربعاء، فذكرت أنّه وصل يوم الثلاثاء سفينتين، الأولى روشامبو (Rochambeau) القادمة من أمريكا وعلى متنها 300 حاج من بينهم أكثر من 60 قسا وأربعة أساقفة، والثانية ميلور (La Mieur) النروجية قادمة من جنوة ونابولي ومالطا مع حجاج اسكندنافيا وإنجلترا وبلجيكا وتشيكوسلوفاكيا. أمّا يوم الأربعاء وصلت ثلاث عشرة سفينة، خمسة فرنسية، وخمسة إيطالية وواحدة إسبانية وواحدة إنجليزية وواحدة ألمانية، كما تحدّثت عن قدوم بعض القساوسة ورجال الدين.²

بينما جريدة (Le Monde colonial illustré) فقد أضافت إلى سفينة روشامبو القادمة من نيويورك بحمولة 17000 طن، وميلور، سفينة فرنسية بحمولة 34000 طن، وأرجوايا (L'Aragouya) القادمة من أمريكا الجنوبية وأربع سفن كبيرة أخرى تابعة لشركة الشحن المشتركة رست كلها بحلق الوادي يوم 6 ماي. أمّا في 7 ماي رست 12 سفينة أخرى في تونس، ورأت بأنّ هذا الحشد المهيّب من الحجاج والذي قدرته بحوالي خمسين ألف شخص بما فيهم القادمين من الدّاخل يستدعي من المنظمين اتّخاذ تدابير استثنائية للإيواء والإطعام والنّقل.³

واهتمّت بعض الصحف بعرض أسماء أهم الشخصيات الكنسية العالمية التي قدمت لحضور المؤتمر، ويبقى قدوم الممثل البابوي ليغات مساء الثلاثاء على الساعة الرابعة الأهم على الإطلاق، إذ حظي هذا الحدث والاستقبال العظيم الذي وجده بالتفاتة كبيرة من الصحف، فتحدّثت (Journal des débats) تحت عنوان "وصول الكاردينال ليغات إلى تونس" على الحركة والحيوية الكبيرة التي شهدتها تونس بسبب الحشود الهائلة التي جاءت لاستقبال الكاردينال، ولاسيما الفتية والفتيات الذين يحملون أعلام البابا ويلوحون بها على طول الطريق

¹ Journal des débats, jeudi 8 mai 1930.

² La Croix, jeudi 8 mai 1930, «L'ouverture du congrès de Carthage», A-Michelin, p 2.

³ Le Monde colonial illustré, Juillet 1930, Op. cit, p 175.

الفصل الثالث: وقائع المؤتمر الأفخارستي ونتائجه من خلال بعض الصحف والدوريات

الرّابط بين الميناء ومكان إقامة المندوب، ووصفت السفينة سيتا دي نابولي التي نقلت الرّسول البابوي وذكرت بأنّها كانت تحمل العلم الايطالي، كما قدّمت أعضاء السّلك الدّبلوماسي والحكومي وكل المسؤولين الحاضرين في استقبال المبعوث البابوي.¹

ونفس الأمر بالنّسبة لجريدة (La Croix) والتي كتبت أيضا أسماء هاته الشّخصيات وهي ممثلة في: بوزون (Bouson) ممثل الإقامة العامة، الجنرال حاجوج (Hadjouj) ممثل الباي، شامبرون (Chambrun) القائد الأعلى للقوات التّونسية، الأميرال ألييه (Allier) نائب مدير البحرية، رئيس ونواب رئيس بلدية تونس، والكاردينال فيردييه (Verdier)، والأسقف هيلين (Heylen)، وشاروست (Charost)، والمطران لوماتر (Lemaitre)، ومجموعة من البرلمانيين الفرنسيين، وذكرت العديد منهم.. ثمّ تحدثت عن الاستقبال الذي حظي به المندوب بالتّفصيل، والموكب والترانيم الموسيقية التي كانت ترافقه في كل تحركاته.²

ورأت هاته الصّحف بأنّ تونس ونتيجة لكثرة وتنوع جنسيات الوافدين أصبحت عالمية أكثر من أي وقت مضى، لكنّها في معظمها كانت غير متفائلة باستعداد تونس الكافي لمثل هاته التّظاهرة العالمية، وأنّ المؤتمر ستعثره مشاكل عديدة من النّاحية التنظيمية سواء على مستوى الإقامة والإيواء أو على مستوى حركة النّقل والمرور.

أمّا عن التّنظيم من النّاحية الفنية والدينية فقد نال إعجاب أسقف باريس فيردييه، والذي مدح المساهمين في التّحضير للمؤتمر، وقام باجتماع ظهر يوم الاثنين في دير سانت مونيكا (Sainte Monique) رفقة العديد من الكهنة والقساوسة مع المونسieur لوماتر الذي قدّم لهم بعض النّصائح العملية من أجل ضمان الاستقبال الجيّد والسير الحسن للمؤتمر.³

1-1-1-5-المظاهر الاحتفالية أو فعاليات المؤتمر:

لقد نالت مجريات وتفاصيل هذا الحدث العالمي اهتمام كل الصّحف وبمختلف أنواعها، فبالإضافة إلى الجريدة الدينية (La Croix du Paris)، والتي حازت السّبق الإعلامي في

¹ Journal des débats ,jeudi 8 mai 1930.

² La Croix , jeudi 8 mai 1930 ,«L' ouverture du congrès de Carthage», A-Michelin ,p 2.

³ La Croix , mercredi 7 mai 1930 ,Op. cit ,p1.

متابعة تنقلات وخطابات رجال الدين المسيحيين، نجد العديد من الصحف التي غطت كلّ الفعاليات الخاصة بالمؤتمر بدءاً من التّحضيرات والاستعدادات إلى كل التّحركات والنّشاطات طيلة أيام المؤتمر، ونذكر من بينها: الصحف الدّينية المحلية للمدن الفرنسية والتي ركّزت على متابعة نشاط حجّاجها ومشاركاتهم في المؤتمر، كما وصفت أهم أحداثه، ومنها: (La Croix du nord) وهي صحيفة كبرى يومية في شمال فرنسا ملحقة بصحيفة (La Croix du Paris)¹، والصّحيفة الأسبوعية الكاثوليكية (La Croix de la Charente) لمدينة أنغوليم (Angoulême)، وصحيفة (Bulletin Meusien) والتي تناولت أخبار حجّاج أبرشية فردان - بلغ عددهم ثمانية وعشرين كاهناً وخمسة عشرة إكليرياً - في عددها الصّادر في 3 ماي²، وقُدّمت في عددها الصّادر في 17 ماي حواراً أجرته مع أحد الكهنة الذين حضروا المؤتمر، والذي قدّم شرحاً مفصلاً لرحلته إلى تونس وأهم أحداث المؤتمر.³

ونذكر كذلك في الإعلام المحلي ما ورد في (Annuaire de l'Institution secondaire libre de Saint-Pé) وهي نشرية لمعهد تدريس اللغة اللاتينية بمدينة تارب بمرسيليا (Tarbes) والتي كتبت مقالاً مطوّلاً مكوناً من عشرين صفحة (143-163) حول رحلة حجّاج تارب إلى قارطاج، وكلّ أحداث المؤتمر، ودور مطرانهم جيرلييه (Gerlier) فيه.⁴

وجريدة (Le monde colonial illustré) الشّهرية والصّادرة في جويلية 1930، والتي خصّصت مقالاً تناولت فيه فعاليات للمؤتمر من لحظة وصول المندوب البابوي إلى تونس إلى غاية الحفل الختامي.⁵ وكذلك (L'Afrique française) النّشرة الشّهرية للجنة إفريقيا الفرنسية ولجنة المغرب، وأيضاً الصّحف الإخبارية اليومية كصحيفة: (Le Matin)، (Le Temps)، (l'ouest éclair)، (Paris-midi)، (Le Progrès du Finistère)، (Excelsior)

¹ لقد تصفحت عدة أعداد للجريدة المنشورة قبل وأثناء المؤتمر، فوجدت فيها تكرار لمعلومات ورد ذكرها في جريدة (La Criox)

² Bulletin Meusien, « Le Congrès Eucharistique de Carthage », N° 777, Samedi 3 mai 1930.

³ Bulletin Meusien, « Nos prêtres meusiens de retour de Carthage », N°779, Samedi 17 mai 1930.

⁴ Annuaire de l'Institution secondaire libre de Saint-Pé, Op. cit, P 159-160.

⁵ Le Monde colonial illustré, Juilliet 1930, Op. cit, p 175.

و (Les Annales colonial)، (La Liberté)، (L'Afrique du Nord illustrée) والتي نشرت في كل أيام المؤتمر الأخبار الخاصة به.¹

كما تابعت كذلك الصحف الفرنسية الصادرة بالجزائر كجريدة (L'echo d'Alger) وجريدة (L'echo d'Oran) مجريات المؤتمر طيلة أيامه.²

وكتبت كل هاته الصحف عن الافتتاح الرسمي للمؤتمر والذي بدأ من الساعة الثانية بعد ظهر يوم الأربعاء في الساحة الواقعة بين الإقامة العامة والكاتدرائية بتونس العاصمة والذي حضره ثلاثين ألف شخص³، وتمّ خلاله قراءة نصّ الرسالة البابوية والتي ألقاها بالنيابة عنه الأسقف مارياني (Mgr Mariani) باللاتينية، ثمّ ترجمها هرزوغ (Herzog Mgr) إلى الفرنسية وأذاعها للحشود بالميكروفون.⁴

وقد نشرت بعض الصحف هاته الرسالة، ونذكر من أهم ما ورد فيها: "...تعود أصول المؤتمرات الأفخارستية الدولية إلى عام 1881 في مدينة ليل الصناعية الكبرى في شمال فرنسا، وعلى مدار خمسين عاما جابت هذه المظاهرات تقريبا كل القارات، أوروبا، آسيا، القدس، أمريكا، مونتريال، شيكاغو، سيدني... كان المضيف الطاهر يشع بالحب والسلام، فلم يؤكد القربان المقدس إيمان المسيحيين فقط بهذا السرّ الرائع الذي هو ربط بين السماء والأرض، ولكن هذه المظاهرات المؤثرة لم تذهب دون أن تمس قلوب وعقول هؤلاء الذين ليسوا من إيماننا...".⁵

ثمّ تحدّث عن الأهداف الروحية للمؤتمر القرباني، وقال بأنّ الأرض الإفريقية لم تستقبل بعد زيارة المؤتمر الأفخارستي، وأضاف قائلا: "...يبدو أنّ في هذه الذكرى الخامسة

¹ بعد تصفحنا للأعداد الموافقة للتاريخ المؤتمر (7-13) ماي، لكل الجرائد المذكورة أعلاه، أمّا عن الأخبار فهي تعدّ نفس المعلومات الواردة في جريدة (La Croix) مع الاختصار أحيانا والإطناب أحيانا أخرى.

² بعد اطلاعنا على جلّ الأعداد الصادرة أيام المؤتمر.

³ La Croix ,Vendredi 9 mai 1930, «Le 30 congrès eucharistiques de Carthage -Les grandioses cérémonies inaugurales », A-Michelin , p 1.

⁴ L'Afrique du Nord illustrée ,31 Mais1930 ,N°474 ,Année 25 ,P 6.

⁵ La Croix , jeudi 8 mai 1930,«L'Eucharistie sur la terre d'Afrique- le congrès de Carthage s'est ouvert mercredi après-midi », A-Michelin ,p 1.

عشر للقديس أوغسطينيوس عملاق العلم والقداسة والدكتور والفيلسوف اللامع لن يتم اختيار أي مدينة أفضل من قرطاج، حيث كان صوت أسقف هيبون (Hippone) العظيم يتردد... قرطاج الآن هي في حالة خراب، لا يمكننا أن نرى إلا بقايا عاصمة قديمة التي دمرتها الحروب البونيقية الشهيرة... لكن المدينة مليئة بالتاريخ والذكريات المسيحية، وكانت إفريقيا والتي قرطاج محورها واحدة من أكثر الأجزاء ازدهارا في الكنيسة الأولى... لا يستحضر المرء دون عاطفة المدافع العظيم في القرن الأول ترتيليان والذي ظلّ وحيه مشهورا... لا يستحضر المرء دون اعتزاز ديني قوي الإيمان القديس قبريانوس أسقف قرطاج، الذي يشكل موته إحدى أجمل صفحات الاستشهاد، ولا القديستين بيريتوا وفيليسيبي اللتين عانتا مع حشد مجهول من الشهداء من القتال الأسمى في المدرج القرطاجي.... المسيحية تستدعي بمناسبة المؤتمر العالمي رسلا جددا يسرون على خطى الكاردينال لافيغري في هذه الأرض الإفريقية حيث الملك سان لويس... إن البابا بيوس الحادي عشر أراد المشاركة شخصيا في المؤتمر بإرسال مندوب ليحل محله لأنه هو نفسه يشغل مكان اليسوع المسيح في الأرض، ووقع اختياره على الكاردينال ليغات مواطن من سانت جان دارك، والذي تشرف بتمثيل الحبر الأعظم العام الماضي في أعياد أورليانز... خضوع الجميع لإمبراطورية المسيح هو العنوان البارز للمؤتمر الأفخارستي الدولي بقرطاج...¹، وقال ليغات: "سأرفع القربان المقدس في القارة، أعتزم أن أجعل الشمس تسطع على الكون بأسره، على كل النفوس أصحاب النوايا الحسنة والتي أدعوها إلى هذا الاجتماع للصلاة والعبادة".²

كما قدمت بعض الجرائد كجريدة (Le Monde colonial illustré) أهم الشخصيات الحاضرة في حفل الافتتاح وعلى رأسها أعضاء السلك الدبلوماسي والعسكري، بما فيهم المقيم العام الذي جاء لاستقبال ليغات، وبايردينو فيردييه (Verdier) رئيس أساقفة باريس، شاروست (Charost) رئيس أساقفة دبلن، أسقف إيرلندا هولند (Hlond)، رئيس أساقفة بوزنان (Poznan)، رئيس أساقفة بولندا أسكالزي (Ascalesi)، رئيس أساقفة نابولي، فان روي (Van-

¹ La Croix , jeudi 8 mai 1930, «L'Eucharistie sur la terre d'Afrique- le congrès de Carthage s'est ouvert mercredi après-midi », A-Michelin , p 1

² Ibid ,p1.

الفصل الثالث: وقائع المؤتمر الأفخارستي ونتائجه من خلال بعض الصحف والدوريات

(Roye) رئيس أساقفة ماليناز (Malines)، لوماتر (Lemaitre) رئيس أساقفة قرطاج ورئيس إفريقيا، هيلين (Heylen) أسقف نامور (Namur) رئيس اللجنة الدائمة للمؤتمرات الأفخارستية، مع بودريلات (Baudrillart) من الأكاديمية الفرنسية.¹

وتناولت الصحف أعمال يوم الخميس والتمثلة في الاحتفال بالقدّاس في كل الكنائس من الساعة السادسة إلى الساعة الثامنة، والجمعية العامة للأطفال في ملعب بلفيدير على الساعة الثامنة والنصف، ثم الاحتفال بالقدّاس في كاتدرائية سان لويس في الساعة العاشرة، أمّا في المساء وعلى الساعة الثالثة والنصف تقديم الأطفال لقرايين النّخيل لشهداء المسيحية في مدرج قرطاج، واجتماع الجمعية العامة للمؤتمر على الخامسة في تلة سان لويس في قرطاج، والعبادة الليلية ممثلة في ساعة مقدّسة في كاتدرائية تونس العاصمة وقرطاج.²

وشرحت سير المؤتمر خلال باقي الأيام وإلى غاية توديع المفوض البابوي ليغات ليبيسييه في الثالث عشر ماي. (تمّ التّطرق لها سابقا) وأشادت بحفل الاختتام والذي ترأّسه الكاردينال ليغات، وحضره المقيم العام وجميع رجال إدارة المحمية والهيئة القنصلية، ورأت أنّه كان الأروع في المؤتمر وذلك للتدفق الهائل للحجيج والذي لم تشهده قرطاج لعدة قرون.³

كما تناولت "اجتماعات المؤتمر" سواء الجمعيات العامة التي عقدت في الساعة الخامسة مساء أيّام الخميس والجمعة والسّبت حول "ممارسة القربان المقدّس وفقا لسان أوغسطين والآباء الآخرين لكنيسة إفريقيا في القرون الأولى"، وحازت الكلمة التي ألّقاها لويس برتران في اختتام فعاليات اليوم العاشر ماي عن الكنيسة القديمة على إعجاب جلّ الصحف الفرنسية وحتى الأوروبية والتي قامت بنشرها والثناء عليها.⁴

أو الاجتماعات الخاصّة كالاجتماع الذي وقع بين أصدقاء القدّيس سان فينسنت دي بول والمقدّر عددهم بحوالي 200 شخص والموجودين بقرطاج برئاسة بودريلات والرئيس العام فيرجيس (Vergès) والذي أستمع فيه لكلمة للأسقف كاليكا (Caleca) حول التّقدم

¹ Le Monde colonial illustré ,Juillet 1930 , Op. cit ,p 175.

² Ibid ,p 175.

³ Ibid ,p 175.

⁴ L'Afrique du Nord illustrée ,31 Mais1930 ,N°474 ,Année 25 ,P 6.

المحرز للعمل في تونس منذ الوقت الذي طلب فيه الكاردينال لافيغري (1884) تنظيم المؤتمر الأول للقديس سان فينسنت، وقال بأنّه له اليوم 13 مؤتمرا و180 عضوا، وبعدها قدّم بودريلا رت حديثا معمّقا حول إمكانية نشر الكاثوليكية في البلدان الإسلامية.¹

واجتماع قسم الطّقوس الروسية والذي تكلم عن الاضطهاد الديني بين السوفييت والحرب التي شنها البلاشفة على الدين في روسيا والتي أسفرت على تعرّض حوالي ألفي كنيسة للهدم أو الإيقاف والإغلاق في الفترة الممتدة من 15 ديسمبر 1929 إلى 23 جانفي 1930، ووصف معاناة الكهنة والمؤمنين المسيحيين في روسيا.²

1-1-1-6-المواقف المتعدّدة من المؤتمر:

لقد اختصرت معظم الصحف الفرنسية موقف التونسيين في قبول الباي للرئاسة الفخرية للجنة المؤتمر وعضوية بعض رجال الدين والإدارة التونسية في هاته اللجنة ومساهمتهم في التحضير للمؤتمر، ورأت بأنّ هذا الموقف التعاوني يفي بكرم الضيافة الشرقية، وقد استغلّت الصحف الفرنسية المؤيدة للمؤتمر هذا الموقف في إطار ردّها على الاشتراكيين الرافضين لانعقاده في تونس البلد الإسلامي، وفي هذا الصدد نقلت صحيفة (La Croix de la Charente) رد جريدة الفاتيكان (Osservatore Romano) على الاشتراكيين فقالت: " بأنّ مؤتمرا من نفس النوع عقد في عام 1893 في القدس تحت السيطرة التركية، وقد أظهر أكبر قدر من التسامح"، وأضافت: "...لم يبلغنا قط ولم يطرق مسامعنا أنّ هناك مسلما من المسلمين قد احتجّ باسم المبادئ والحرية على المؤتمر القادم، ونحن نعلم على النقيض من ذلك أنّ باي تونس وهو مسلم قد وافق على أن يكون رئيسا للجنة الفخرية، ونحن نعلم أيضا أنّ عمدة مدينة تونس العربية وبعض زملائه من المنطقة المحيطة قد عرضوا أنفسهم للبحث عن مساكن للمؤتمرين لدى مسلمي تونس، ونعلم أنّ العديد من الأمراء والأميرات من عائلة الباي أعربوا من تلقاء أنفسهم عن رغبتهم في إيواء الأساقفة الكاثوليك المشاركين في المؤتمر بمنازلهم، وأنّ أميرا واحدا منهم أتاح للجنة المنظمة نصف قصره وست مساكن بشاطئ

¹ La Croix ,Vendredi 9 mai 1930 ,«Le 30 c. e. de C ... », A-Michelin , Op. cit,p 1.

² La Liberté(Paris) , 10 mai 1930.

البحر...". وفي الأخير ذكرت الجريدة الفرنسية بأن الاشتراكيين لا يهمهم سواء مناهضة الإكليروس.¹

وكتبت نفس الجريدة في 18 ماي: "...لقد أغضب المؤتمر الاشتراكيين، فأرسلوا إلى منبر الغرفة جامارد الاشتراكي ليعلن: "إنّ التّونسيين يحبون فرنسا، وليست فرنسا الابنة الكبرى للكنيسة، بل فرنسا ابنة الثّورة"... ونحن نردّ عليه بأنّ الباي اقترح على رئيس أساقفة قرطاج لتولّي الرئاسة الفخرية للمؤتمر وكذلك طلب المفتّيين الرئيسيين المالكي والحنفي الانضمام للجنة الشّرفية ونفس الشّيء بالنسبة لرئيس أحبار اليهود، أميرات الباي اللواتي تعلّمن على يد راهبات قرطاج البيض حصلن من آبائهن على الموافقة على وضع قصورهن ومنازلهن تحت تصرّف الحجاج، وتعمل هؤلاء الأميرات بناء على طلبهن لمدة ستة أسابيع لإعداد قطع الزّخرفة واللافتات والأعلام والشارات وقد حصل البعض على إذن آبائهن لارتداء زي الصّلبان".²

وقلّلت الصحف الفرنسية من شأن موقف التّونسيين المعارض، ولم تتعرض له إلّا بإيجاز شديد، فتطرّقت جريدة (La Croix) للاحتجاجات الطّالبية المناهضة للمؤتمر في سطرين، وذكرت بأنّ عدد من الشّباب الأصليين تعرّضوا للاعتقال في أعقاب حوادث طفيفة سبقت المؤتمر وبأنّه تمّ الافراج عنهم يوم الأربعاء نتيجة تدخل شخصي من المطران لوماتر.³

أمّا جريدة (Le Temps) فذكرت: "...إنّ الدّستوريين وجدوا في المؤتمر الذي بالنسبة لهم أساء للعقيدة الإسلامية فرصة مواتية لإثارة الغضب ضدّ الكاثوليك، وحرّضوا التّجار وأجبروهم على غلق دكاكينهم بينما كان هؤلاء ينتظرون ورود الزّوار الأجانب لاكتساب عملاء جدد فتدخلت الشرطة واعتقلت بعض هؤلاء المتعصّبين... وأنّ الطّلبة والذين بلغ

¹La Croix de la Charente ,année 34 ,N°19,dimanche 11 mai 1930 , « A propos du congrès de Carthage ».

²La Croix de la Charente ,année 34°,N°20,dimanche 18 mai1930 , « A Carthage une réponse au laïcisme »,Georges LARIGLDY.

³La Croix ,Vendredi 9 mai 1930, «Le 30 c. e. de C ... », A-Michelin , Op. cit ,p 1.

الفصل الثالث: وقائع المؤتمر الأفخارستي ونتائجه من خلال بعض الصحف والدوريات

عددهم 400 طالب تظاهروا واستعملوا العنف مع أعوان البوليس وأوسعوهم شتما فحدثت العديد من الاعتقالات وتم الاحتفاظ بأحد عشر فردا...¹

ولم تكتف الجريدة بتقليل عدد المتظاهرين والذين قدرتهم جلّ الأوساط الوطنية التونسية بين ألفين وسبعة آلاف متظاهر²، بل اعتبرت الاشتراكيين وراء المعارضة التونسية، فقالت: "إنّ الشبان التونسيين أوشكوا أن يتسببوا في حوادث خطيرة خلال المؤتمر وأنّ الذين حاولوا إثارة المظاهرات العدائية هم أبعد الناس تلّبسا بالأديان جميعا وهم يمتقونها لأنها من مظاهر التأخر والجمود ويتنافى بما هم متصفون به من النزعة الحرة، إلّا أنّهم أصبحوا متلبسين بالإيمان المعتدى عليه ليشيروا حفائظ اليهود والمسلمين الذين كانوا ينظرون للمؤتمر نظرة حياد إن لم نقل نظرة عطف...".³

ونفس الأمر بالنسبة للصحافة العربية فكتبت: "...إنّها وقفت موقف عدائي ومعارض وذلك بتشجيع من صحيفة تونس الاشتراكية، هاته الأخيرة التي حرصت على تقسيم الفرنسيين وتشجيعهم على القتال فيما بينهم تحت أعين السكّان الأصليين الفضوليين وتحت أعين القمصان السوداء المبتهجة... وأنّه لولا حزم وصرامة المقيم العام وسرعة الاجراءات المتخذة لكان المؤتمر مجالا للفتنة ومثارا للهرج...".⁴

كما ردّت الاحتجاجات إلى عوامل أخرى غير المؤتمر، وقالت: "...إنّ من أسباب هذه الحوادث الاحتفال المؤني بالجزائر وإقامة تمثال بول بورد⁵...".⁶

¹ **Le Temps** , 70^e année , N°25125 , vendredi 6 juin 1930 , « Après le Congrès Eucharistique ».

² حفيظ طبابي، البناء الوطني وتحديات الاستقلال، المرجع السابق، ص 93.

³ **Le Temps** , vendredi 6 juin 1930 , **Op. cit.**

⁴ Ibid.

⁵ بول أنتلمي بورد (Paul Anthelme Bourde) (1851-1914) وهو صحفي ومسرحي ومسؤول استعماري فرنسي، عمل في جريدة (Le Temps) الباريسية، شغل منصب مدير الزراعة عند وصوله إلى تونس 1890، وبعدها عين أمينا عاما لمدغشقر 1895، ثم رجع لفرنسا 1897، وتم إنشاء نصب تذكاري لبورد من قبل النحات البلجيكي إيفون سيرويز، وتم تدشينه في 13 أفريل 1930 بمدينة صفاقس من قبل المقيم العام حضره عدّة شخصيات، وبقي إلى أن أزيل وفكك وسلم إلى قنصلية فرنسا 1956.

⁶ **Le Temps** , vendredi 6 juin 1930 , **Op. cit.**

أما (L'Afrique française) رأت بأن الدّستوريين ومن جميع الأَطْياف قد استغلّوا الفرصة الممتازة التي أتاحها لهم المؤتمر لتكثيف دعاياتهم، ونشرت بعض العيّنات من يومياتهم، فعرضت ما نشرته كل من (الزّهرة) بتاريخ 13-5-1930 و(الصّواب) بتاريخ 16-5-1930.¹

وقد اهتمت الصّحف الفرنسية كذلك بالموقف الاشتراكي المعارض، فكتبت (L'Afrique française) شرحا وافيا لموقف كلّ من جريدة (تونس الاشتراكية) والتنظيم الاشتراكي (S.F.I.O.S) من المؤتمر والاتّهامات التي وجّهت لمنظميه وخصوصا المطران لوماتر وكذلك السّلطات الفرنسية الي أذنت بالتّظاهرة، كما كتبت حول الجدالات الشّديدة العنف التي نشأت بين جريدتي (تونس الاشتراكية) و(تونس الفرنسية)، وقالت بأنّ هاته الأخيرة انتقمت بأجود حبر لها من (تونس الاشتراكية) التي لم تتوقف عن الوخر الدّائم بالإعلان كل يوم أنّ الإسلام قد أُسْتُفِز من الكاثوليك.²

كما كان لتداعيات المؤتمر على الأوساط الإيطالية نصيب في الصّحافة الفرنسية، فتحدّثت (Le Temps) عن موقف بعض الصّحف الإيطالية من المؤتمر، وكذلك (L'Afrique française) التي أضافت موقف الصّحف الإيطالية بتونس.³

1-1-2- الصّحف المؤيدة بتونس:

ومن بين هاته الصّحف نذكر جريدة (تونس الفرنسية) والتي اهتمت بكتابة مقالات مغرضة ضد الإسلام والمسلمين واعتبرت المؤتمر وسيلة لمواصلة عملية التّنصير في شمال إفريقيا، والتي ورد فيها وبإمضاء الصّحفي الفرنسي موران (Maurin) ما يلي: "...إنّ المسيح لا تشاهده عيوننا لكنّه حاضر معنا، فالمسيح سيتجول في طرقات وساحات قرطاجنة التي

¹ L'Afrique française, Juin 1930 , Op. cit ,p p 350-355.

² Ibid.

³ Ibid.

ارتوت بدماء شهدائنا، وسيشاهد تلك الشعوب المختلفة يهود ومحمّدين وزنوج وحبش ويونان ولاتين وغيرهم، يتسابقون مثل ذي قبل للرّكوع تحت قدميه...¹.

كما نشرت نفس الجريدة بلاغا من الكنيسة جاء في ختامه مايلي: "إنّا نحزّض المسيحيين ولاسيما من سيجتمع منهم بقرطاجنة بأن يبتهلوا إلى الله تعالى أن يعلّي شأن الكنيسة وأن يفيض أنوار المذهب الإنجيلي على الجموع البشرية المنبّثة في نواحي إفريقية الفسيحة، والذين لا يزالون محرومين لأن من الحقيقة المسيحية، وأن يبادر الأهالي والأجانب بالالتجاء لأحضان الكنيسة التي هي أمهم المثقفة عليهم كثيرا".²

ونفت في مقال آخر لها أهداف المؤتمر التّصيرية، فقالت: "لم يقل أحد من الكاثوليكين ولم يكتب أحد منهم، بل لم يفكر كائن من كان بأنّ منظمي المؤتمر الأفخارستي بقرطاجنة يقصدون تحويل المسلمين عن عقائدهم... إنّ المسلمين يعلمون حق العلم أنّ صغار الصّليبيين التّونسيين إناث وذكرور ليس غرضهم الإجهاز على الإسلام، ولا يهمهم بحال من الأحوال تحويل المسلمين عن عقائدهم الدينية...".³

ونسبت هذه الفكرة إلى الاشتراكيين فذكرت: "إنّ تصوير العرب بواسطة المؤتمر الأفخارستي هو اختراع اشتراكي، لكنّه اختراع سخيف فإنّ هؤلاء يترصدون جميع الفرص وينتهزون جميع الأسباب في أوتارهم الفاسدة على نغمة (الصّليبيين والصّليبيي)... إنّ الاشتراكيين يذكرون دائما وأبدا الحروب الصّليبية، لكن سوء نيّتهم الواضحة، تمنعهم من القول بأنّ الحروب الصّليبية لم تكن إلّا جوابا عن هجمات الإسلام المتتابعة على الكاثوليكية، فلو أنّ العرب لبثوا في جزيرتهم العربية، إذن لما كانت تقع حروب صليبية، وليس الكاثوليكين هم الذين ساقوا العرب وجلبوهم لفلسطين ومصر وإفريقية الشّمالية وإسبانيا

¹ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 34.

² نفسه، ص 58.

³ نفسه، ص 50.

حتى إلى بواتييه، فأنت ترى بأنّ التاريخ مشوّه بكيفية شنيعة من طرف الاشتراكيين لقضاء وطهرهم وتنفيذ غرضهم السّافل".¹

ثمّ اتّهمت المسلمين بالعنف واستعمال السيّف، فكتبت: " نحن بحثنا بحثا مجردا عن الهوى والغرض، وجدنا أنّ هناك أتباعا لمحمد (صل الله عليه وسلم) خرجوا للاستيلاء على العالم وسيوفهم بأيديهم بخلاف المذهب الكاثوليكي الذي لم ينتشر بهاته الصّفة، وقد كان الغزاة من العرب قليلي العدد بالنسبة لسكان الأقطار التي توجّهوا إليها، وما كان لهم لولا الإكراه في الدّين أن تستقر قدمهم في إفريقية وفي إسبانيا ويصلوا إلى بواتييه..."، ويحضرنا هنا كرد عليها ما كتبه جريدة (المنار) حيث قالت: "...كان المسلمون يفتحون مصر من الأمصار والقطر من الأقطار فيرضون من أهله بقليل من المال يسمى الجزية يجعلون لهم بها حق حمايتهم والدّفاع عنهم، مع حرّيتهم المطلقة في عقائدهم وعباداتهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ويسمحون لهم بتلقّي العلوم معهم في مساجدهم ومدارسهم كأبنائهم وبجميع الأعمال التي يقدرّون عليها لترقية أنفسهم، ومن اختار منهم الدّخول إلى الإسلام كان أخا للمسلمين في الأمور الرّوحية، فوق ما كان له من مساواتهم في الحقوق المدنية وتُرفع عنه الجزية، وأمّا هؤلاء المستعمرون من الإفرنج فهم يسلبون من أهل البلاد التي يستولون عليها أكثر ثمرات كسبهم، ولا يساوون أحدا منهم بأبناء جنسهم، وإن هو دخل في دينهم، وأشدّهم إسرافا في هذه الخطة الدّولة الفرنسية، فسياسة فرنسا الاستعمارية تسعى إلى استعباد البشر، فلا تدعو لهم سبيلا لا إلى الثروة ولا إلى العلم...".²

وذكرت (تونس الفرنسية) بأنّ المسيحيين هم السّكان الأصليين لشمال إفريقيا، فقالت: "... ومن هم الذين اعتنقوا الدّيانة الإسلامية على أثر الغزوات: هم المسيحيون بدون شك، حيث أنّ الأغلبية السّاحقة لسكان هذه الأرض الإفريقية كانت مؤلّفة من

¹ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 51.

² المنار، "الفتح الأوربي والفتح الإسلامي"، ج2، م31، ربيع الأول 1349هـ / أوت 1930. ص، 149.

الفصل الثالث: وقائع المؤتمر الأفخارستي ونتائجه من خلال بعض الصحف والدوريات

الكاثوليكين...ومن هم أحفاد أولئك المسيحيين القدماء، هم المسلمون الذين يعمّرون اليوم إفريقيا الشمالية على نسبة تسعين في المائة على الأقل من مجموعهم...¹.

واعتبرت إظهار روح التسامح الديني والتعاون بين المسيحية والإسلام هما الهدف الأساسي من المؤتمر الأفخارستي بقرطاج، فقالت: "...إنّ الماضي الزاهر لقرطاجنة الذي أنجب أمثال سان قبريانوس وسانت بيرييتو وسانت فليسييتي وسان أوغسطين، وغيرهم من الشهداء الذين افتدوا المذهب الكاثوليكي بأرواحهم، يَجْدُو بنا أن نذكّر بعهدة المسلمين، لا بقصد التفرقة والشقاق بل بقصد توطيد روابط الأخوة بين الأجناس وتنمية إحساس التسامح الديني".²

ونذكر لها كذلك من باب الاستشهاد في إطار الانتقام من الاشتراكيين التونسيين الذين لم يتوقفوا عن انتقاد المؤتمر ومنظميه، وعملوا كل ما في وسعهم لإفشاله وعرقلة مساره.³ المقال الذي نشرته في 16 أفريل 1930 بعنوان: "المؤتمر الأفخارستي والاشتراكيون بتونس" والذي تناول الرد على رفض الاشتراكيين لانضمام باي تونس للهيئة الشرفية، وجاء فيه ما يلي: "... حقيقة إنّ اشتراكيي تونس لا قدرة لهم على هضم انخراط بعض الذوات في الهيئة الشرفية للمؤتمر الأفخارستي، وقد أعربوا بذلك عن قصر نظرهم خصوصا إزاء المظاهرات الكاثوليكية، وحتى ولو كانت هذه المظاهرات ترجع بالفائدة العظمى لكافة البلاد. فقد هجموا بشدة لا مثال لها على شيخ محترم قد أعطى لهم درسا على تسامحه وحسن سلوكه وكياسته بانخراطه في الهيئة الشرفية مقتديا بذلك بإخوانه في أمريكا وأستراليا..."، ثم تساءلت عن موقف الاشتراكيين من تأييد ودعم كبار اليهود والجالية اليهودية في تونس للمؤتمر، وختم المقال ب: "...وفي الحقيقة إنّ الاشتراكيين وغيرهم من أحرار المفكرين تتمزق أكبادهم عندما يشاهدون نجاح المؤتمر..."⁴، فالجريدة أرادت التباهي بانضمام كبار

¹ مكتب الأخبار التونسية، الصدر السابق، ص 52.

² نفسه، ص 53.

³ L'Afrique française , Juin 1930 , Op. cit, p 351.

⁴ لسان الشعب، " المؤتمر الأفخارستي والاشتراكيون بتونس "، العدد 388، السنة العاشرة، الأربعاء 25 ذي القعدة 1348 / 23 أفريل 1930، ص 3.

الشخصيات الإسلامية واليهودية أمام الاشتراكيين ناكرة عليهم حملتهم على المؤتمر باعتبار أنه لو لم يكن هناك شرف في قبول العضوية الشرفية لما قبلها شيخ الإسلام والباش مفتي وأحد أئمة اليهود والثلاثة هؤلاء لا هم مسيحيين ولا رهبان وإنما هم رجال الدين عند اليهود والمسلمين.¹

ونجد كذلك من الصحف الفرنسية في تونس بعض الصحف الإخبارية المحايدة والتي خرجت عن حيادها على حد قول جريدتي (الزهرة) و(لسان الشعب)²، ونذكر على سبيل المثال: "جريدة (ديباش تونزيان)³ (Dépêche Tunsienne) الناطقة باسم الدولة الفرنسية التي ليس لها علاقة بالدين، صارت الناطق الرسمي باسم الكنيسة عن طريق فتح أعمدها لنشر أحداث المؤتمر وتخصيصها 12 صفحة عامرة بالأخبار الأفخارستية وتنقلات الرهبان ونشر اعتقاداتهم وخطبهم ودعاياتهم وأقوالهم عن المسيح والكنيسة وما يتعلق بها، وهي بهذا الصنيع أقامت الدليل على تدينها وتمسكها بالدين الذي نبذته الدولة. وكذلك جريدة (البتى ماتان) (Petit Matin) التي تعلن أنها من اليسار الديموقراطي والتي احتفظت بأعمدها لخدمة قضية المؤتمر".⁴

وفي آخر هذا العنصر وبعد اطلاعنا على محتوى الجرائد الفرنسية المؤيدة للمؤتمر خرجت بجملة من النتائج يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

– لقد اعتبرت الصحف المسيحية والاستعمارية الفتح الإسلامي لتونس غزوا عربيا وأن المنطقة تابعة تاريخيا لحيز المسيحية الرومانية وذلك لتبرير الحضور الفرنسي المسيحي فيها وإقناع الشعب التونسي بأن الاحتلال أمر طبيعي، وبالتالي تضيي المشروع على التدخل العسكري الفرنسي بتونس.

¹ L'Afrique française, Juin 1930 , Op. cit ,p 351.

² Ibid ,p 351.

³ الديبش تونزيان:جريدة سياسية فرنسية، أصدرت أول أعدادها يوم 25 ديسمبر 1889 وهي مقربة من الإقامة العامة، ومديرها لينكور كاربنتي. ، أنظر: اللولب، المرجع السابق، ص 125.

⁴ مصطفى بن شعبان، "ذيل المؤتمر... حوادث وتعليق"، لسان الشعب، العدد 391، السنة العاشرة، الأربعاء 23 ذي الحجة 1348 / 21 ماي 1930، ص 2-3.

- هاجمت هذه الصحافة الإسلام كنظام حكم، وأثارت عليه حملة ضخمة وادّعت أنّه دين مناف للمدنية، وأنّ المسلمين لا يمكن أن يرتقوا في سلّم الحضارة والتّمدن إلّا بعد أن يتركوا دينهم لأنّه يأمرهم بالخمول والتّعصب.
- نوّهت الصحافة المسيحية بجهود الكنيسة في ما أطلقت عليه مهمة التّثقيف والتّحضر التي تقوم بها في المجتمعات الإسلامية المتخلّفة، الأمية، المريضة، الفقيرة...، وذلك بالإفصاح عن الإرث المعرفي والعلمي من مؤسسات تعليمية وثقافية وخدمية والتي خلفها الحضور المسيحي بتونس.
- ردّت كلّ الصحف الفرنسية المؤيّدّة الفضل للكنيسة في التّخطيط والتّنفيد، وذلك لقيامها بجملة مهام تجمعها في الوظائف التالية: التّعليمية، والطبية والانسانية والخدمية وهي في ذلك تتقاطع مع مهام الإدارة الفرنسية القابضة بيد من حديد على مقاليد الأمور بتونس تحت مسمّى الحماية، في ظل غياب شبه تام لسلطة السّيادة الوطنية المتمثلة في الباي وأجهزته الإدارية، مما هيأّ مناخ النّشاط لمختلف البعثات الدينية بدون حدود وضوابط، وفسح لها المجال في بناء الكنائس والمؤسسات التابعة لها في أغلب الجهات.
- الصحافة الدّينية الفرنسية المؤيّدّة كشفت عن التّوجه العام للكنيسة ووضّحت المسار الذي تبنته في التّعاطي مع المؤتمر الأفخارستي، من منطلق ديني متناسق مع التّوجه السّياسي لدولة الاحتلال، مستجيبة لرغبة المعمرين.
- لقد ركّزت هذه الصحافة على وجه الخصوص بوصف فرنسا في تونس متفوقة اثنيا على السّكان الأصليين، وقد مكّنها هذا النّفوق بالقيام بمهمة حضارية، وهي تغيّير بلد وجد في حالة خراب..".أنقاض تراكمت على مدى 13 قرنا من التّهوّر والكسل والتّعصب..".أي صوّرت الوجود الاستعماري كان عاملا من عوامل التّنوير والثّقافة والنّهضة والسّلام، وحتّى تحافظ فرنسا على هذا العمل لابد من إبقاء سيطرتها وتعزيز هيمنتها على تونس وفي جميع القطاعات، ولم تكتف بهذا فحسب بل طالبت من السّكان الأصليين الامتنان إلى فرنسا والفرنسيين للعمل الذي قاموا به في تونس، بمعنى أنّها سعت إلى إحلال مفهوم التّقبل والرّضا للنّفوذ الاستعماري والمدنية.

- رأت هذه الصحف وخاصة الصحف الدينية منها بأن الكنيسة قد انتعشت في ظل الاحتلال الفرنسي، لذا كانت من المدافعين والمتحمسين عن النظام الاستعماري والإدارة المباشرة والتي راهنت عليها كثيرا لترهب خصومها من الأوساط اليسارية الفرنسية (الشيوعيين، الاشتراكيين والماسونيين)، وتفرض الأمر الواقع على التونسيين. ونستشهد هنا بما ذكره ميشال ليلونج¹: "ليس من المبالغة القول أن فترة المحمية كانت على ما يبدو فترة سعيدة لكنيسة تونس".²

1-2- الصّحف الفرنسية المعارضة:

1-2-1- الصّحف المعارضة بفرنسا:

نجد جريدة (Le libre du penseur de France)³ بتاريخ 29 جانفي 1930، والتي نشرت البيان الصحفي الصادر عن جمعية الفكر الحر (Germinal) بمدينة فيرفيل⁴ (Ferryville) والتي يعود تاريخها إلى 26 ديسمبر 1929 والممضاة من طرف رئيسها ب. روبيرت (B.Robert)، وبينت هذه الوثيقة مدى تأثر الجمعية بالفعل السلطوي من حكومة الجمهورية وبفرضها على الحكومة التونسية مساهمة قدرها مليوني فرنك للمشاركة في نفقات تنظيم المؤتمر، ورأت في تقديم هذا المال لعمل طائفي كاثوليكي بحت يعتبر فضيحة وظلم في حق غالبية سكان المحمية المسلمين أو اليهود أو الجمهوريين. وردت على الطلب الموجّه من قبل المروجين للمؤتمر بتسريح تلاميذ المدارس العلمانية بتونس للسماح بإيواء أعضاء المؤتمر واعتبرته تحدّي واستفزاز للرأي العام العلماني بالوصاية، وذكرت أن لرجال الدين مدارس ذات نزعة طائفية يتمتّعون فيها بحرية تامة في تقديم الضيافة لأعضائها، وتأسفت

¹ ميشال ليلونج: من الآباء الببض الذين انخرطوا باكرا في أسقفية قرطاج، وعين كاهنا بكنيسة قرطاج 1948، له بحث حول "اللقاء بين الكنيسة الكاثوليكية والإسلام في تونس من 1930 إلى 1968" وهي أطروحة تكميلية للدكتوراه آيكس أون بروفانس 1970، أنظر: اللافي، المقال السابق، ص 27.

² M. Lelong, La rencontre entre l'église catholique et l'islam en Tunisie de 1930 à 1968, Se Comprendre, N° jau/60-10 mai 1972, p3.

³ جريدة نصف شهرية تأسست سنة 1904 من طرف إميل نويل (Emile Noel) تصدر بمدينة تور الفرنسية.

⁴ مدينة فيرفيل: مدينة ساحلية بولاية بنزرت، اسمها فيري فيل نسبة إلى جول فيري الذي أوعز إلى حكومته باحتلال تونس، ثم تحول اسمها إلى منزل بورقيبة

لفعل حكومة الجمهورية وتعجبت من عرقلتها لتنظيم مؤتمر لرابطة حقوق الانسان والمواطن في مستعمرة مجاورة، ثم دعت الوثيقة إلى الاحتجاج بقوة على هذه الأعمال الفاضحة والمضرة من جميع النواحي، وحث النواب الجمهوريين وأعضاء مجلس الشيوخ على التدخل لدى مجلس النواب ومجلس الشيوخ من أجل الحصول على: التفسيرات الضرورية وطلب إلغاء الدعم المالي الذي فرضه وزير الخارجية على تونس لصالح الدعاية الكاثوليكية، ورفض أي طلب يتجه إلى تحويل المدارس العلمانية في تونس العاصمة لإيواء الكاثوليك.¹

وكذلك صحيفة (L'Ancien combattant de l'Ardèche)² والتي تساءلت في عددها الصادر بتاريخ 24 ماي 1930 عن السبب المزعوم لتبرير الانتهاك الصارخ للقانون الذي فصل الكنائس عن الدولة، ورأت "...أنه كان من المهم أن نظهر للعالم ولأسيما التونسيين الوجه الحقيقي لفرنسا... لا أدري ما رأي العالم في حماسة الجمهورية للأفخارستيا... لكنني أعرف ما يشعر به التونسيون حيال ذلك، فجريدة (الصوت التونسي) تخبرنا بمشاعرها اتجاه الموضوع وهي تعلن حرفيا: "أن فرنسا تتلقى للأسف مع هذا للمؤتمر ضربة لن تتعاف منها قريبا"، كما أن محمد بورقيبة قال: "بأن التونسيين المسلمين احتفظوا بذكرى مؤسفة للحملة التي نزل فيها لويس التاسع في إفريقيا ليحول بالسلح المؤمنين بالله إلى مسيحيين ولاستعادة هذه الذكريات وإحيائها تم عرض الشباب في الشوارع وهم بلباس الصليبيين".³

ثم قدمت الجريدة اعتذارها للتونسيين: "...نحن العلمانيون أنصار حرية الضمير لا يسعنا إلا أن نعتذر للتونسيين، هل نقول أن هذه المظاهر الخرقاء والاستفزازية يبررها النجاح أي أن بعد المؤتمر سيتحول الكثير من المسلمين عن الإسلام... فالمسلمون يتكلمون بدون عدا للامسيحية وعيسى. لكنهم يلومون الكنيسة الحديثة لأنها نسيت التعاليم الانجيلية، فطقوس الأفخارستيا تتعارض مع أفكارهم وجها لوجه... يتحدثون إلى المسلمين عن إله

¹ Le libre du penseur de France ,26°année,N°164 ,29 janvier 1930 ,« Une légitime protestation ».

² جريدة أسبوعية لقوى اليسار تصدر بمدينة لارديش الفرنسية.

³ L'Ancien combattant de l'Ardèche , 12°année ,N°21 ,samedi 24 mai 1930,"Echos du congrès eucharistique", Albert Bayet.

مضيف، عن إله تحت رعاية قطعة خبز مبلّلة بمشروب كحولي فهذا سيثير شفقتهم أكثر ممّا سيثير سخطهم...".¹

ثمّ انتقدت الصحف المؤيدة للمؤتمر فذكرت: "...إنّ الصحف الرّسمية لم تجلب لنا سوى المعلومات المثالية عن المؤتمر الأفخارستي لتصديقهم ككون المسلمون سعداء بالتّصفيق لتحديّات الصليبيين، صَفَّقوا بأيديهم عند مرور الأساقفة... نتساءل إذا كانوا كذلك فلما لم يتحوّلوا بشكل جماعي في نهاية الحفل...فصحيفة (تونس الاشتراكية) والتي هي من هناك قدّمت لنا معلومات لا يمكن العثور عليها في أي مكان آخر وأخبرتنا بأنّهم يحتجّون وأنّ طلاب التّعليم العالي والثانوي حتّى الابتدائي تظاهروا في تونس ضدّ تمجيد الحروب الصليبية، وكان عدد قليل منهم أطفال...ماذا فعلنا؟ لقد وُجّهت لهم الاتّهامات من قبل الشرطة التي أساءت معاملة بعضهم بعد ذلك تمّ القبض عليهم واقتيادهم إلى السّجن...لأولئك الذين يزعمون أنّهم يحمون حقوق الانسان والمواطن..أهذه هي الوسيلة الأخيرة التي وجدها حكّامنا لإظهار ليبرالية فرنسا للتّونسيين ولجعلها محبوبة لديهم...".²

وكتبت في نفس العدد مقالا آخر بعنوان "الخبز الأفخارستي" والذي سخر فيه صاحب المقال من العقيدة المسيحية ومن الأفخارستيا فقال: "...إنّه من السّخف أن يجتمع الآلاف من المتعصّبين ناهيك عن كبار الشّخصيات في الجمهورية للسّجود أمام قرص مصنوع من عجينة (قطعة خبز) في قرطاج...". وقدّم شرحا مفصلا ممزوجا بالاستهزاء عن فكرة الأفخارستيا وتطوّرها عبر التّاريخ.³

2-2-2- الصحف المعارضة بتونس:

¹ L'Ancien combattant de l'Ardèche , 12^e année ,N°21 ,samedi 24 mai 1930 ,
,"Echos du congrès eucharistique" , Albert Bayet.

² Ibid. .

³ L'Ancien combattant de l'Ardèche, samedi 24 mai 1930 ,,"Le pain Eucharistique " , L.
Barbedette, samedi 24 mai 1930.

لقد عارض الاشتراكيون في تونس المؤتمر، وكان ذلك وقبل كل شيء مسألة مبدأ - وليس رفضا لفرنسا وسياساتها الإدماجية - لأنه بالنسبة لهم لا يطاق الاعتراف بإمكانية حدوث تظاهرة دينية كبيرة في تونس.

وقد عملت جريدة (تونس الاشتراكية) كل ما في وسعها لحمل المسلمين على معارضة المؤتمر أو على الأقل عرقلة مساره. ولم تتوقف منذ الإعلان عليه عن نشر مقالات وقصص قصيرة للتعبير عن سخطها وغضبها منه، كما وجهت هجمات وانتقادات وتصريحات شديدة اللّهجة لمنظميه، ولاسيما رئيس أساقفة قرطاج المونسieur لوماتر، وكذلك السلطات العامة للميتروبوليس واعتبرتهم مذنبين لسماحهم للقيام بالمظاهرة.¹

وفي نفس الوقت الذي تمّ فيه التعبير عن هذا الاستياء نشر محرروها مقالات أسبوعية فكاهية مضحكة للسخرية من منظمي المؤتمر وممارسات الديانة الكاثوليكية، كالمقال الذي نشر يوم 4 ماي 1930، والذي دعا السّكان إلى التّحلي بالأخلاق الحميدة والرّصانة وعدم التّطرف والتّحدث بحذر، وأن يتذكروا دائما بأنّ الشّارع والهواء النّقي والرّيف والسّماء.... وما وراءها، محجوزة لرجال الدّين الكاثوليك في الفترة الممتدة من 3 الى 11 ماي.²

واعتبرت هذه الجريدة المؤتمر الأفخارستي حملة صليبية تاسعة فكتبت تحت عنوان "الحروب الصليبية": "...أمّا الحملتان السّابعة والثّامنة، فقد جهّزهما لويس التّاسع وكان هذا الملك قديسا ولمجاراته أرسل الله عليه وباء، وفي مايو 1930 ستقع الحملة الصليبية التّاسعة وميدانها هو ميدان الحملة الأخيرة أعني بذلك قرطاجنة، وها قد ظهر الصّليبيون يجوبون شوارع العاصمة التّونسية... إنّ هذه المهزلة العتيقة تدل على تقهقر سبعة قرون للوراء، فياله من منظر يؤسف له جعل أولئك الذين ليسوا بمحل شبهة ضدّ الكنيسة يقولون: حقيقة إنّهم بالغوا.... إنّ ما علق بالكنيسة من الأدّران لا يزول، وإنّ مرور التّسعة عشر قرنا لم تجن

¹ L'Afrique française ,Juin 1930 , Op. cit ,p 351.

² Gutron , Op. cit ,p 178.

الكنيسة من ورائها شيئاً... فهي صمّاء عمياء لا تشم، وهذه علامات من طعن في السن، إنّ ساعاتها قد أزفت، كفاها ما فعلت من الآثام".¹

وحسب (L'Afrique française) فإنّ (تونس الاشتراكية) ومن أجل تحقيق غايتها اعتمدت في حملتها العدائية للمؤتمر على المسلمين²، فكتبت بعدد 01 أبريل 1930 ما نصّه: "هل علم اليهود وغيرهم، أنّ هذا المؤتمر ان هو إلّا حرب ضدّ الأديان الأخرى ووسيلة للتّصريح والإعلان بانتصار العقيدة الكاثوليكية وسيادتها على سائر العقائد ولا يمكن أن يكون لدعوة القسيس للأمير المسلم الحاكم على هذه البلاد معنى آخر غير انحناء الهلال أمام الصليب، والدليل ما قاله موران في جريدة تونس الفرنسية".³

كما قالت بأنّ الإعانات التي قُدمت للمؤتمر والمقدرة بمليون فرنك قد أُخذت من أموال المؤسّسة الخيرية للمسلمين الأمر الذي سيحرم الفقراء من الضروريات في الوقت الذي كان من السّهل جدا على فرنسا أن تدفع هذا المبلغ بنفسها، وأنّ النّظام في المؤتمر أوكل للسنغاليين المعتادين على أكل الأطفال، وكذلك أنّ تاريخ انعقاد المؤتمر تزامن مع عيد الأضحى للمسلمين ليزيل عنة أي صفة احتفالية، وأنّ المباني التي أستخدمها أعضاء الكونغرس الدّينيون ضاعت لأصحابها لأنّ الكهنة بمجرد أن يستقروا بها لن يتركوها... إلخ.⁴

وقال في هذا الصّدّد دوران أنقليفيال في مقال صادر يوم 5 ماي 1930: "...نحن لم ندّخر تحذيراتنا يوما بعد يوم، لاحظنا وأبلغنا عن الطبيعة المسيئة لهذه الدّعاية الطائفية، لقد احتجنا على الشّخصية الرّسمية وعلى الإعانة الوفيرة التي منحها إنسان واحد... والمؤتمر الأفخارستي ببرنامج الدّيني لم يحترم حرية العلمانيين، لقد أرادوا التّجاوز والنّزول إلى الشّوارع، وإجبار المحايدين على اللّجوء إلى منازلهم أو الانحناء أمام القربان المقدّس الذي تمّ

¹ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 36-37.

² L'Afrique française, Juin 1930, Op. cit, p 351.

³ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 37.

⁴ L'Afrique française, Juin 1930, Op. cit, p 351.

الفصل الثالث: وقائع المؤتمر الأفخارستي ونتائجه من خلال بعض الصحف والدوريات

عقده من أجل لا شيء، الفضيحة التي يمكن أن يثيرها مثل هذا المشهد في النفوس غير الكاثوليكية...¹.

أمّا من الناحية السياسية ومن أجل إقناع وزير الخارجية بأنّ المؤتمر سيدر أرباحا اقتصادية نتيجة لكثرة الوافدين إلى تونس (40000 ألف) فإنّهم تمكّنوا من الحصول على ائتمان من الحكومة التونسية بقيمة 2 مليون فرنك دفعة قابلة للاسترداد في حالة ثبوت عدم عجز لجنة تنظيم المؤتمر، وأنّ هذه الإحصائيات مبالغ فيها لأنّ الذين وصلوا إلى تونس خلال الأسبوع الذي سبق المؤتمر يقدر ب 6253 شخصا، وبالتالي فإنّ هناك فجوة بين 6000 شخص وبين 30 أو 40 ألف شخص والتي تمّ الإنفاق عليها اثنين مليون، ومن ناحية أخرى فإنّ الحركة الاقتصادية لم تستفد بأي شكل من الأشكال من الزوّار لأن معظم الذين جاؤوا إلى المؤتمر من رجال الدّين وقد جلبوا معهم احتياجاتهم، ولم ينفقوا أموالهم إلّا في بعض الضّروريات الغذائية البسيطة، وبالتالي فالفائدة الوحيدة التي تحصّل عليها التّونسيون من المؤتمر هو الازدحام المفروض على النّقل، وحظر التّجول في بعض شوارع تونس، وارتفاع أسعار بعض المنتجات كالبيض، بالإضافة إلى العجز الكبير في ميزانية شركة السكك الحديدية، وغيرها من الانتقادات.²

كما تناولت صحيفة (تونس الاشتراكية) الإضراب الذي شنّه طلاب الزيتونة والطلّاب المسلمون في ليسيه كارنو وكتيّتي الصادقية والعلوية والتّجار احتجاجا على استفزازات الكنيسة وما أعقبه من ردود أفعال السّلطة الفرنسية³، فكتبت في هذا الصّدّد (باسم المسيح المضيف، دخل 25 شابا مسلما ظلّمت السّجون)⁴، وكذلك: "...الآن بين المؤتمر والتّونسيين هناك السّجن".⁵

¹ *Tunis Socialiste*, 5 Mai 1930.

² *L'Afrique française*, Juin 1930, *Op. cit*, p 352.

³ *Tunis Socialiste*, 4 Mai 1930.

⁴ ابن شعبان، "ذيل المؤتمر ... حوادث وتعاليق"، لسان الشعب، 21 ماي 1930.

⁵ *Tunis Socialiste*, 5 Mai 1930.

2- القضايا التي طرحتها الصحف التونسية في ردّها على المؤتمر:

لعبت الصحافة التونسية المواكبة للحدث¹ دورا كبيرا في رفض انعقاد هذه التظاهرة الدينية بالبلاد كما شنت حملة شعواء على منظّميه، وفي ردّها عليه كتبت فصولا شتّى وفي مواضيع عدّة، ويمكن أن نلخص أهم المواضيع التي عالجتها الصحف التونسية في طرحها للمؤتمر كالتالي:

2-1- التّنديد بنشاط الكنيسة الكاثوليكية ومدارس المبشرين:

لقد لامت الصحافة التونسية رجال الكنيسة واعتبرتهم قد أساءوا للتّونسيين بمحاربتهم في دينهم وفي عقر دارهم، ووجّهت أكبر اللّوم لسلطة الحماية التي عملت كل ما في وسعها للضغط على حرية المسلمين وسلبها حقوقهم الطبيعية ومناهضتها للغتهم، لغة الإسلام وبالمقابل غضّت الطرف على أعمال الجمعيات التبشيرية تأييدا لهم وتعزيزا لدعايتهم، ناكثة بذلك عهدا والتزامها في حماية دين الأمّة التونسية.²

فقالّت جريدة (الزّهرة) بتاريخ 25 أفريل 1930 وبعنوان (نشاط الكنيسة الكاثوليكية): "تبذل الكنيسة الكاثوليكية هذه المدّة نشاطا كبيرا في بث دعايتها وتكثير سواد أنصارها، فزيادة على الاحتفال العتيد الذي ستقيمه في شهر مايو المقبل رأينا عمدها وكبار رجالها أمثال رئيس أسقفية قرطاجنة والرّاهب بونس يقومون بحركات مختلفة بالعاصمة وداخل المملكة تتجاوز نطاق مأموريتهم الدّينية التي ينبغي أن تكون مقصورة على المتدينين بدينهم، والمحتاجين لنصائحهم وإرشادهم بدون أن يكون فيها مرمى من مرامي التّبشير والترغيب في التنصير... كما أنّ تجولات أسقف قرطاجنة بالمراكز الاستعمارية بداخل المملكة... وبعض تصريحاته تعتبر خروجاً محضاً عن النّطاق الدّيني وخوضاً مقنعا في الشّؤون السّياسية... أمّا

¹ الصحف العربية التي كانت تصدر سنة 1930 تشتمل إلى جانب (الزّهرة) و(النهضة) المعتدلتين، (الصّواب) و(لسان الشّعب) و(المنير) و(النّديم) و(الوزير) التي كانت ذات نزعة دستورية بالإضافة إلى جريدة (الصّوت التّونسي) التي كان يديرها الشّاذلي خيرالله وهي جريدة أسبوعية كانت تصدر بالفرنسية منذ 26 مارس 1930. أنظر: المحجوبي، جذور الحركة

الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 500-501.

² ابن ميلاد، مسعود، المصدر السابق، ص 307.

الراهب بونس فيكفي أن نقول في حقّه أنّه لم يتمالك من تحريض الدولة الفرنسية على تنصير أهالي إفريقية الشمالية، إذا شئت أن يدوم نفوذها وترسيخ قدمها في هذه الأقطار وذلك في خطاب ألقاه منذ ثلاثة أشهر بمدينة سوسة أمام جمع غفير فيه المسلمون والاسرائليون وغيرهم،... واستمرّ في بث نظريته بصورة أوسع نطاقاً وأضمن بقاء، إذ جعلها في كتاب سمّاه (الكنيسة الجديدة بإفريقية)...¹.

أمّا جريدة (لسان الشعب)² فرأت أنّ التعاطف والتأييد الخفي من السلطة هو الذي جعل الكنيسة تتسع بالنسبة لتنصير مسلمي شمال إفريقيا، وهو الذي دفع برجال الدين كالأسقف لوماتر والسنور بونس إلى التّطاول في العبارات والتي كان لها أثرها في الأوساط الإسلامية التونسية،³ وقالت بتاريخ 21 أفريل 1930: "...إنّنا نعتقد أنّ التونسيين لم يكن يخطر ببالهم التّعرض لأعمال المبشرين في هذه البلاد لو لم يكن للحكومة دخل كبير في تنشيطهم بشتى الوسائل...".⁴

وتبنّت جريدة (الصّواب) نفس الرّأي في عددها الصادر في 02 ماي 1930: إذ قالت: "يظهر من عدة قرائن أنّ عاطفة الدّين بين المسيحيين هنا أخذت تنمو نموا كبيرا، وأنّ الصحافة الكاثوليكية طفقت تظهر بمظهر المنتقد ذي السّيطرة الواسعة، كما أنّ رجال الكهنوت وفي مقدمتهم أسقف قرطاجنة والأب بونس قد بدأوا يتدخلون في شؤون وأمور لم يتح التّدخل لهم فيها من قبل، والمظنون أنّ هذه الحركة هي إحدى نتائج ما تقرّر من انعقاد المؤتمر الأفخارستي...، ولقد ازداد زهو وخيلاء المسيحيين بما وجده المؤتمرون من المساعدة النفيسة والسّخاء الحاتمي من الحكومة التونسية...، نحن لا يهمنا أن يتعلق المسيحيون بدينهم

¹ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 40.

² لسان الشعب: هي جريدة أسبوعية ذات طابع أدبي وسياسي تصدر بتونس كل أربعاء يديرها البشير الخنقي.

³ أبو الفرج، "حول المؤتمر الأفخارستي بقرطاجنة"، لسان الشعب، العدد 389، السنة العاشرة، الأربعاء 2 ذي الحجة 1348 / 30 أفريل 1930، ص 1.

⁴ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 41.

ولسنا أعداء المسيح، لكننا نخشى أن يؤدي التّمادي على هذه الحالة إلى الاستطالة على غير المسيحيين في هذه البلاد وإحياء ذكريات لا نرغب فيها...¹

أمّا جريدة (الصّوت التّونسي) فقد استنكرت الطّابع الاستفزازي للمؤتمر، وقالت أنّه قدّم أولاً كمشروع موجه ضدّ الإسلام وفي حالة الاعتراض على مبدأ المؤتمر نفسه تدافع الكنيسة عن نفسها بالاعتماد على مبادئ التّسامح الدّيني وكرم الضّيافة الإسلامية.² ومع ذلك فهي ترى: "أنّ الصّليب لن يستطيع أن يفعل شيئاً".³

فالصحف التّونسية اتّهمت المؤتمر بقيامه بالدّعاية الدّينية والتّبشير، فنبتت (لسان الشّعب) الوضع الذي وصلت إليه تونس من جراء حرية التّبشير التي يقوم بها الرّهبان إلى درجة التّجول في أنحاء القطر التّونسي ونشر الدّعاية المسيحية وتحقير الدّين الإسلامي في نظر معتقيه كي يتمكنوا من الاستحواذ عليهم وتنصيرهم.⁴ أمّا (الصّواب) فرأت "أنّ الكاثوليكية قد أضرت من خلال هذا المؤتمر مختلف المعتقدات في هذا البلد وقامت بابتزازهم من خلال المظاهرات أو الاحتفالات التي جرت علانية خارج الكنائس وباستعمال مكبرات الأصوات...".⁵

أمّا جريدة (الزّهرة) كتبت في 19 جوان 1930: "لن يعارض المسلمون هذا المؤتمر الأفخارستي في بلادهم بأي شكل من الأشكال، إذا كان منظمو هذا المؤتمر حريصين على مراعاة السّرية والاحتياطات المناسبة، وإذا فعلوا ذلك لا تسعى في نفس الوقت إلى تنصير المسلمين". فالصحف التّونسية إذن عارضت الأهداف التنصيرية للمؤتمر واستنكرت الاعتداء على الإسلام سواء أكان ذلك يتعلق بتدفق الحجاج أو أنشطتهم أو تصريحاتهم.

ولذلك عملت على فضح السّياسة الاستعمارية والكاثوليكيين، وحاولت تنوير الرّأي العام بنوايا وخلفيات هذا المؤتمر وبيان خطره على العقيدة الإسلامية، فكتبت جريدة (الوزير): "إنّ

¹ مكتب الأخبار التّونسية، المصدر السابق، ص 38.

² La Voix du Tunisien ,10 mai 1930.

³ Vermeren , Op. cit ,p18.

⁴ أبو الفرج، "حول المؤتمر الأفخارستي... "، لسان الشعب، نفس المقال، ص، 1.

⁵ L'Afrique française ,Juin 1930 , Op-cit , p 352.

افتتاح مؤتمر قرطاجنة كان يوم وقوف المسلمين بعرفات وكان انعقاده لأيام خمسة فقط أي في أيام التشريق بالحج الأكبر وهي مصادفة غريبة نادرة الوقوع لدرجة التشابه بين الحج والمؤتمر، إنّه لتخطيط محكم من إدارة التنظيم وذلك بأن تجعل أيام المؤتمر هي نفسها أيام الحج.¹ أي جعل المسلمين في شك من أمرهم، أمّا (لسان الشعب) فذكرت " أنّه وقع في اليوم التاسع من ذي الحجة وهو يوم عرفة ارتقاع صوت نائب البابا بيوس الحادي عشر وهو يخطب داخل الكنيسة باستخدام مكبرات الصوت وكأنه في لندن أو برلين.² وبالتالي فالمؤتمر لم يحترم الشعائر الدينية للمسلمين وقام بالتشويش عليهم.

أمّا جريدة (الصّواب) فقد رأت أنّ الغرض الأساسي من إقامة هذا المؤتمر هو النّظر في الجهود التي قامت بها الكنيسة المسيحية في عملية التّصير والبحث عن أنجع الطّرق والوسائل لتحقيق ذلك في أقرب وقت، فورد في عددها الصّادر ب (16 ماي 1930): "قام منظمو المؤتمر الذين اجتمعوا لأول مرة في العالم الإسلامي، ولم تعترضهم أيّة عوائق، بينما المؤتمر الأخير الذي عقد في بريطانيا منعت الحكومة المحلية اللّجنة من القيام بأيّ شيء قد يؤذي مشاعر السّكان الإنجليز البروتستانت... وهذا المؤتمر في الواقع يعتبر بمثابة تذكير بالحروب الصّليبية... لقد أظهر المؤتمر الدّين الكاثوليكي وكأنّه المنتصر، إذ مجّد أعمال المرسلين، وهنّأ المؤتمر أنفسهم على العمل الذي أنجزته الفتيات المسلمات الشّابات...".³

وقد اعتبرت المرأة أحد الآليات والوسائل الهامّة لتتصير المجتمع التّونسي المسلم، لذا انبثق عن هذا المؤتمر موضوع في غاية الحساسية، تمثّل في تعليم الفتيات في مدارس الرّاهبات، هذا الموضوع الذي أخذ حيّزا واسعا من اهتمامات الصّحف التّونسية والتي شجّبه بشدّة، فنجد مثلا جريدة (لسان الشعب) قدّمت اللوم لمن يرسلون بناتهم إلى مدارس المبشرين بتونس وقرطاج بحجة التّعليم وعدم وجود مدارس إسلامية حرة لتعليم بناتهم وذكرت: " إنّ عدم وجود المدارس الإسلامية الحرة ناشئ عن عدم تمّتعنا بالتّسامح الذي تجده الكنيسة في إقامة

¹ ريم غانمي، الحضور المسيحي بتونس من 1881 إلى 1930، رسالة ماجستير، المعهد الأعلى لأصول الدين، جامعة تونس، 2004-2008، ص 90-91.

² ابن شعبان، "ذيل المؤتمر... حوادث وتعاليق"، لسان الشعب، 21 ماي 1930، ص 2-3.

³ L'Afrique française, Juin 1930, Op. cit, p 352.

قدّاساتها من مدارس واجتماعات ونشرات، ولعلّ هذا من قبيل المساعدة التي جرّأت القوم على التّوسع في أعمالهم والطّمع في الاستزادة من المساعدات من طرف الحكومة".¹

ورأت (الزّهرة) أنّ هذا الأمر يشكّل خطراً على المجتمع التّونسي المسلم، وكتبت: "ليتق الله المسلمون في أبنائهم - ولاسيما في بناتهم- فإنّ كلّ تعليم، وكلّ مصلحة دنيوية مهما كانت رفيعة لتتضاءل إذا كان فداؤهما الزّيغ وتلاشي العقيدة وتسرب الانفكاك بواسطة المرأة لعري العائلة الإسلامية حسبما ترمي الكنيسة من مساعيها التّعليمية التي هي - مثل الإغاثة والإسعاف- ضرب من ضروب التّبشير والرّغبة في التّصير".²

أمّا جريدة (النّديم) فقد حدّرت من مدرّسات الرّاهبات لأنّ دروسها غير متّفقة مع تعاليم الإسلام، ولامت الأولياء الذين يرسلون بناتهم لهاته المدارس، وقامت بنشر مقولة للأب فوكو جاء فيها: "إنّ الرّاهبات الكاثوليكيّات لهن دور عظيم يمكنهن القيام به في سبيل تنصير المسلمين، إذ ليس هناك غيرهن من هو قادر على الاقتراب من المرأة المسلمة التي هي نصف الأمّة".³

بينما ذكرت جريدة (الوزير) في 29 ماي 1930: "وحول هذا المؤتمر نتج شيء آخر وهو أنّ كثيراً من المسلمين الذين كانوا يعلّمون بناتهم الصّناعات بمدارس الرّاهبات (الأخوات) تقطّنوا وعزموا على إخراجهن كلّهن عن بكرة أبيهن حالا دون تأخير. ذلك لأنّ أباءهن كانوا يحسبون التّعليم بتلك المدارس صناعي بحت، فلمّا شعروا بأنّ وراء الأكّمة ما وراءها عاد إليهم صوابهم ورجعوا إلى رشدهم فتداركوا الهفوات قبل فوات الأوقات".⁴

وقالت (الزّهرة) في 6 محرم 1349: "...فلمّا تبينّ اليوم الغرض الحقيقي الذي تسعى إليه الكنيسة من القيام بمشاريعها التّعليمية بهذه الدّيار ولاسيما تعليم البنات اللاتي هنّ أزواج

¹ لسان الشعب، "حول المؤتمر الأفخارستي"، العدد 392، السنة العاشرة، الاربعاء 30 ذي الحجة 1348هـ/28 ماي 1930، ص، 1.

² مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 61.

³ نفسه، ص 62.

⁴ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 48.

وأمهات الغد، بادر المؤمنون الصادقون بسحب بناتهم من مدارس تدسّ السم في الدسم، وتعنى بإدخال الزيغ والعبث بمكونات الضمائر تحت ستار التربية والتّهذيب...¹

وكتبت (النّديم) ما نصّه: "سحب بعض الآباء في المرسى وغيرها بناتهم من مدارس الرّاهبات وهم يقولون ماكنّا نحسب أنّ في الأمر ضرراً لولا أنّ الجرائد نبّهتنا إلى ما في الرّوايا من الخبايا وما في الرّؤوس من المقاصد والنّوايا..."²

ولمواجهة سياسة التّنصير والإدماج دعت (الصّوت التونسي) إلى الالتفاف حول الإسلام باعتباره السّلاح الكفيل، وكتب في هذا الصّدّد شمس الدّين العجيمي بتاريخ 3 ماي 1930 "إنّ العبرة التي يجب استخلاصها من هذا المؤتمر هو أن نكون جميعاً متّحدين وراء ديننا الذي يجب أن يكون وسيلتنا للعمل... فلا ينبغي جحد ديننا الذي طبع تقدم الانسانية وأنشأ حضارة من أزهى وألمع الحضارات التي شهدها التّاريخ، ولا ننس عقيدتنا هي كل شيء عندنا، وإنّا لن نفلت من مجسّمات الأخطبوط الإدماجي إلّا بتوثيق علاقاتنا مع الرّسالة المحمّدية..."³

فالصحف التّونسية نبذت حرية الدّعاية والتّبشير التي يقوم بها الرّهبان والرّاهبات، كما استنكرت التّدفق الهائل للحجّاج وأنشطتهم وكلماتهم، وتواطؤ الكنيسة مع النّظام الاستعماري، وقامت بالتّشهير بسياسة فرنسا والتّحريض على عداوتها لدعمها وتأييدها للكنيسة في ازدهارها للإسلام والمسلمين، كما فضحت أهداف المؤتمر ومراميه الدّينية والسّياسية، ودعت إلى الالتفاف حول الإسلام كحل مناسب لمواجهة خطري التّنصير والإدماج.

2-2- انقلاب فرنسا على مبادئها العلمانية والصّبغة الرّسمية التي أعطتها الحكومة للمؤتمر:

¹ نفسه ، ص 63.

² نفسه ، ص 64.

³ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التّونسية، المرجع السابق، ص 512.

لقد انتقدت الصحف التونسية الحكومة الفرنسية عن عدولها عن مرجعيتها اللادينية أو اللائكية، وعن الصبغة الرسمية التي منحها للمؤتمر، فقالت (الزهرة) في هذا الشأن في عدد 7 ماي 1930: "...ولسنا في حاجة إلى بيان الصبغة الرسمية التي أُعطيت لهذا المؤتمر بعدما ذكرناه من أقوال الصحف في وصف استقبالات أعضائه ومآدب التكريم التي تُبذلت بين الطرفين فهي وحدها توضح موقف الحكومة من الكنيسة... ولازلنا نكرّر أنّ الدافع للتونسيين لهذه المواقف هو مشاهدتهم يد الحكومة تعضد الكنيسة وتدفعها إلى غاياتها بحجز حريات التونسيين وانتزاع حقوقهم منهم، وبالنزول مع الكنيسة إلى ميدان التصير بالتبشير".¹

كما ورد في مقال نشرته (لسان الشعب) في أبريل 1930: "...لقد حادت فرنسا عن شعارها "ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، وهو الشعار الذي تبنته كل الحكومات التي نادت بوجوب فصل الدين عن الدولة وعلى رأسها الجمهورية الفرنسية والتي اعتبرت أول حكومة أوربية نبذت تعاليم الكنيسة وأعلنت رسمياً أنّها لا تدين بدين من الأديان، ومع ذلك فإنّ قانونها الدستوري الذي يرمي إلى هذا الانفصال لا يسمح لها أن تتعرض لرجال الكاثوليك فيما يقيمونه من شعائر وطقوس لكنّه في الوقت نفسه يحجر عليها الاعتراف لما هو مصدره الكنيسة كشيء يستحق المعاضدة والتشجيع... لكن الاجتماع الذي انعقد أخيراً بمجلس الأمة الفرنسي والمناقشات التي دارت بين أفراد هذا المجلس في خصوص المؤتمر الأفخارستي جعلنا نشك بعض الشك في أنّ الأديان قد أخذت مجرى الانتقام من أولئك الذي كانوا السبب الوحيد في القضاء عليها..."، ورأت في تأييد حكومة الجمهورية لهاته المظاهرة الأفخارستية إلاّ تأكيداً على ذلك.²

أمّا (الصوت التونسي) اعتبرت مفاهيم الديمقراطية والعلمانية مثل مفاهيم الحرية والإخاء والمساواة كلّها أفرغت من مضمونها وجوهرها، وفي هذا الصدد نشرت مقالاً يوم 10 ماي 1930 بعنوان "العلمانية في غرفة الملابس" جاء فيه: "فوجئنا في هذه الأيام رؤية

¹ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 69.

² أبو الفرج، "حول المؤتمر الأفخارستي..."، لسان الشعب، المقال السابق، ص 1.

حكومة الجمهورية تأذن بعقد مؤتمر كاثوليكي على أرض الإسلام، ومنحه بالإضافة إلى رعاية معنوية ثمينة، مساعدة مادية ملموسة...تساءل اليساريون عن قيام الحكومة الفرنسية بهذا الأمر وهي التي تقول "إنّ الجمهورية لا تعترف ولا تدافع أو تدعم أي دين..." هذه التصرفات الخيرة لكبار رجال الجمهورية فيما يتعلق برجال الدين هي في أسفلها علامات امتنان فقط للخدمات المقدّمة، لقد أعطت الكنيسة الكثير لفرنسا قبل أن تأتي القوات الفرنسية...يبدو أنّ الكنيسة قد ربطت مصيرها بمصير الاستعمار...بالنسبة لنا نحن التونسيون، هناك درس استخلصناه وموقف اتخذناه منذ عام 1881، لقد تعلمنا على حسابنا أنّ كلمات الحرية والمساواة والإخاء قد أفرغت من مضمونها، ونفس الأمر يتكرر الآن، فالعلمانية هي كلمة أخرى تُبهر البعض ممّا ولا تقل خدعة بالنسبة لنا، فعندنا لم يعد هناك أي معنى سوى الاستعمار يسير جنباً إلى جنب مع التبشير...¹

ونفس الأمر ذهبت إليه جريدة (الصّواب) في عددها 16 ماي 1930 وهي أنّ المؤتمر وجد الدّعم من الحكومة والكاثوليك المتعصبين وعُرض من قبل الحزب الاشتراكي التونسي لأنّه انصرف عن المسار الذي رسمته الحكومة الفرنسية منذ إنشاء المحمية، والذي بموجبه تحظر حكومة الجمهورية الديمقراطية والعلمانية التّدخل في الشّؤون الدّينية، فهذا المؤتمر كان باختصار مخالفا لمبادئ ثورة 1789، مخالفا لأفكار النّقاهم وحسن النّية والانسجام بين السّكان من خلال إيقاظ الأحقاد القديمة.ودعت (الصّواب) الحكومة إلى احترام نص المعاهدات في علاقتها مع تونس.²

ومنّه فإنّ جلّ الصحف التّونسية استاءت من موقف السّلطة الاستعمارية وتواطئها مع الكنيسة وتأييدها ونصرتها لقضية المؤتمر واعتبرتها بفعاليتها هذه قد ناءت عن حيادها الدّيني.

2-3- مشاركة الباي وبعض أعيان تونس في الهيئة الشّرفية للمؤتمر:

لقد ضاق المسلمون ضرعا بمشاركة الباي وبعض كبراء المسلمين في المؤتمر واعتبروها إهانة للبلاد والأمة الإسلامية، ولم يتوقفوا عن الهيجان والكتابة في الموضوع

¹ La Voix du Tunisien ,10 -05-1930 , "La laïciste au vestiaire", Abdel Hac.

² L'Afrique française , Juin 1930 ,Op. cit ,p 352.

والتنديد بالمشرفين على المؤتمر والمدعويين للمشاركة فيه، ورأوا أنه لا يعقل أن يفضي التسامح الديني من الجانب التونسي في تلك الظروف العصبية إلى قبول العضوية في لجنة شرفية لمؤتمر كشف عن عدائه للإسلام حضارة وأمة وعقيدة.

فاستغلت (الصوت التونسي) الموضوع لتكثيف دعايتها ضد المؤتمر ومنظميه فخاطبت المسلمين الذين كانوا ضمن هيئة الشرف في شأن اعتزالهم هذا الأمر الذي لا تلتئم صبغته مع منزلتهم في الأمة التونسية الإسلامية وحكومتها التي تدين بهذا الدين.¹ ونشرت في 03 ماي 1930 رسالة موجهة إلى الباي تحمل 678 توقيعاً، نذكر منها ما يلي: "...إننا نتضرع إليكم طالبين منكم مشاركة أمتكم في إعلان عدم رضاها عن هذه الصبغة غير اللائقة التي ظهر فيها هذا المؤتمر... إن الروح التي يديها المؤتمر بصفة مهينة والتي كانت مصدر أسف وألم لنا، تملي علينا ونحن رعاياكم المخلصين، نشأنا على تقديس المشاعر الإسلامية التي هي مشاعركم، إننا نتقدم إليكم بكل احترام راجين منكم الانضمام إلى شعبكم لاستنكار الصبغة العدوانية لهذا المؤتمر ورفض الرئاسة الشرفية، ومما لاشك فيه إن الروح الصليبية والتذكير ببرنامج سان لويس ليسا ظاهرتين متصفتين بالتعقل ولا هما مطابقتين لقواعد الضيافة ولاسيما في بلاد مازالت وفيّة للديانة الإسلامية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً خلت، ونحن واثقون بالفضائل السامية لجلالتكم، وتمسّكم بمبادئ الديانة الإسلامية وحميتكم للدفاع عن إيمان ومعتقدات شعبكم ليبقى الإسلام في هذه البلاد الدين المنيع، وأملنا وثيق أن يحظى طلبنا بالقبول..."²

أمّا جريدة (الزهرة) فقد عزّرت اللجنة المنظمة للمؤتمر بضمّها لأعضاء غير مسيحيين، ورأت أنّ من وراء ذلك مرامي ومقاصد بعيدة، فكتبت في (13 ماي 1930) ما يلي: "...إنّ المسلمين قد حافظوا على حياد مثالي، وإذا كانوا قد وجّهوا انتقادات فهذا ليس ضدّ قيام الكونغرس الديني في بلادهم لأنّهم يحترمون جميع الأديان، بل ضدّ اللجنة التي نظّمت المؤتمر، وضدّ أسقف قرطاج الذي أخرج المؤتمر من طابعه الكاثوليكي وأعطاه صبغة

¹ مصطفى بن شعبان، "حركات الرهبان"، لسان الشعب، الأربعاء 2 ذي الحجة 1348/30 أفريل 1930، ص 2-3.

² المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 513.

سياسية بتعيين بعض الشخصيات غير المرتبطة بالمسيحية كأعضاء في المجلس، مما جعل الدعاية المكثفة ضدّ هذا المؤتمر حقيقة واقعة، وكأنّ المسيحيون الكاثوليك يعتقدون أنّه عندما تكرمّ جلاله الملك بقبول رئاسة الشرف أنّ الحكومة العلمانية للجمهورية الفرنسية قد فضلتهم ماديا ومعنويا، فقد وصلوا إلى هدفهم وهو الدعاية الإنجيلية في شمال إفريقيا.¹

وذكرت جريدة (الوزير) بهذا الشأن في 15 ماي 1930 مايلي: "...عُيّنّت لجنة المؤتمر شخصيات بارزة من المسلمين وفي الطليعة الجناح العالي وفضيلة شيخ الإسلام وفضيلة المفتي الأكبر ونشرت أسماءهم في قائمة الرئاسة والعضوية الشرفية، ونحن لا ندري كيف يقبلون !! لأنّ المؤتمر ديني بحث لا دخل للسياسة فيه، وما دامت صفته كذلك فمشاركة غير المسيحيين فيه ليست مناسبة...".²

بينما كتبت (الصواب) " نحن بصفتنا مسلمين نحترم سائر العقائد والديانات لا نرى مانعا أو غضاضة من كرامتنا باشتغال الطوائف المسيحية بما يهم ديانتهم وترقيتها وانتشارها بواسطة التبشير والترويج. غير أنّ لهذا التسامح الديني وهذا التساهل حدودا لا ينبغي أن نتخطاها نحن.. فليس من اللياقة في شيء أن نحرض بعضنا بعضا لتعزيد عمل لا يهمننا ولا يتفق مع منازعنا الدينية كما أنّه من الخروج عن حدود اللباقة أن يُطلب من أمير مسلم قبول الرئاسة الشرفية لمؤتمر مسيحي بحث....".³

كما أحدثت عضوية شيخ الإسلام في الهيئة الشرفية للمؤتمر ضجة إعلامية، وأدت إلى ظهور حملة صحفية وخاصة بين جريدتي (النّهضة) و(الزهرة)، إذ ذكرت (النّهضة) أنّ شيخ الإسلام حميدة بيرم طلب بنفسه الانضمام إلى الهيئة الشرفية للمؤتمر، فنفت (الزهرة) وقوع هذا من شيخ الإسلام ورمّت "النّهضة" بالافتراء والتضليل.⁴ ونشرت يوم الأحد 27 أفريل 1930 الموافق ل 29 ذي القعدة 1348 هـ أسطرا بعنوان "دفع التباس" مفادها أنّ شيخ

¹ L'Afrique française ,Juin 1930 ,Op. cit ,p 351.

² مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 76.

³ الصواب، "المؤتمر الافخارستي وآراء الناس فيه"، 31 جانفي 1930.

⁴ أبو الفرج، " حول المؤتمر ... "، لسان الشعب، 30 أفريل 1930، ص 1

الإسلام والباش مفتي المالكي يعلنان عدم مشاركتهما بأي صفة في المؤتمر الأفخارستي وأنّ منصبهما الديني يمنعهما من هذه المشاركة، وأنّ الانخراط في هيئة الشرف لم يكن بضغط من الحكومة بل هو أمر اختياري يقع إجابة لطلب أسقف قرطاج الذي وجّه الدعوة لأولئك الذين نشرت جريدة (الدبيش تونزيان) أسماءهم.¹ واتّخذت (الصّواب) نفس رأي (الزّهرة)، وكتبت في هذا الشأن: "...لكن هذين الشّيخين أي شيخ الإسلام والشّيخ المفتي الأكبر قد أدركا بثاقب فكرهما، ما في هذه النّسبة من المنافاة لمهمّتهما الدّينية، فرفضاً أن يكونا عضوين شرفيين في هذا المؤتمر...".²

ولكن رأي جريدة (الزّهرة) لم يرض ملاحظين لأحداث المؤتمر في جريدة (تونس الاشتراكية) ومن بينهم محمد نعمان الذي لاحظ الصّيغة الرّسمية لقائمة اللجنة الشّرفية وذكر أنّها "لم تتكون وحدها"، ورأت بأنّ (الزّهرة) نفت الخبر بأسلوب ملتو وغير مباشر أريد به إرضاء الطّرفين إدارة الحماية والرّأي العام التّونسي.³

وكذلك القوميون التّونسيون أو الدّستوريون والذين عبّروا عن موقفهم من خلال كتاب "ظاهرة مريبة"، فرأوا في عدم تأثير هذا الموقف المتأخّر على مجريات الأحداث وسيرورة المؤتمر، وقالوا: "...قد كانت الطّروف تُحتمّ على الهيئة المتنفّذة الاقتناع من الشّيخين بهذه الكلمات التي وقّعا عليها، وإن كان الموقف يوجب عليهما غير هذا العمل الضئيل والتّصريح المتضعع، وينبغي الاعتراف بما كان لهذا التّصريح على ضعفه من التأثير على الكنيسة ورئيسها خصوصاً وقد صدر قُبيل انعقاد المؤتمر وفي وقت قد اطمأنت فيه الكنيسة إلى بقائها ضمن حضيرتها، وأخذت تُفكر في استثمار وجودها مع سمو الباي ضمن الهيئة الشّرفية...".⁴

¹. نفسه، ص 1.

² مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 41.

³ **Tunis Socialiste** , 29 avril 1930, "Le Congrès Eucharistique international" , Mohamed Nomane.

⁴ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 41

ورأوا أنّه إذا كان قبول العضوية في البداية تسرّعاً من باب التسامح الديني وربّما التعاون مع النظام الاستعماري لجهل ما يخفيه منظمو المؤتمر من عدااء لأهل البلاد، فلم لم يرفض شيخ الإسلام عندما ظهر اسمه في قائمة الهيئة الشرفية، وما سكوته وعدم إدلائه بتصريح قاطع لتوضيح موقفه إلاّ دليل على التماس مشاركته.¹

2-4- أموال البلاد:

علّقت الصحف التونسية على المبالغ المالية الطائلة التي أنفقتها حكومة الحماية لإنجاح هذا المؤتمر مبرزة في ذلك درجة الاستغلال لأموال الدولة في وقت هي في أمس الحاجة إليها لتحسين الوضع الاقتصادي والاجتماعي المتدهور، فتأسفت جريدة (لسان الشعب) عن خروج المليونين من أموال الميزانية واعتبرتها مأساة وطنية، وأنّها كانت في غنى عن ذلك، واعتبر كلمة مليونين سهلة ولكن عند التطبيق وخصوصاً على بلاد ضعيفة وفقيرة فالأمر صعب للغاية، وتساءلت كيف اتسعت الميزانية لفائدة المؤتمر في وقت كان فيه أي طلب من الأهالي يقابل بضعف الميزانية، والأدهى والأمر من ذلك أنّه لا فائدة رجعت للبلاد والعباد منه رغم التّمويه بحصول فائدة لتجارة وصناعة البلاد، وذكرت الفائدة الوحيدة التي تحصل عليها أهل البلاد منه هي غلاء أسعار المأكولات وعجز الفقراء عن توفير أدنى ضروريات حياتهم.²

ونفس الأمر ذهب إلى جريدة (الصواب) في عددها ل16 ماي 1930 "...ومما أثار حفيظة التونسي مليوني فرنك التي أعطيت للكونغرس، والفائدة الاقتصادية التي كانت مزعومة من المؤتمر كانت خدعة وهراء، والنتيجة الاقتصادية الوحيدة من هذا المؤتمر هو ارتفاع أسعار بعض المنتجات الغذائية بشكل كبير على المسلمين أيام العيد".³

وقالت جريدة (الوزير) بعدد 15 ماي 1930: "...والذي نلاحظه أنّ المسلمين من أبناء جنسنا لا يهتمهم أن يعقد مؤتمر بقرطاجنة أو بالعاصمة نفسها ما داموا لم يُمسّوا بأذى، ولم

¹ Mahjoubi, Op. cit, p 124.

² ابن شعبان، "ذيل المؤتمر ... حوادث وتعاليق"، لسان الشعب، 21 ماي 1930، ص 2-3.

³ L'Afrique française, Juin 1930, Op. cit, p 352.

تحصل لهم أضرار في دينهم ولا مالهم، ولكن الأمر جاء بالعكس، فبمجرد ما تقرّر عقد المؤتمر تبرّعت الميزانية التونسية بمليونين ووافق المجلس على إعطائهما لقمة باردة لإقامة المؤتمر...¹.

أمّا (الصوت التونسي) تحسّرت عن "تقديم إعانة من الخزينة بمقدار مليوني فرنك لدعم تظاهرة كاثوليكية..."²، وتساءلت (لسان الشعب) عن السبب الذي أهدر بسببه الملايين من أموال البلاد لفائدة إقامة شعائر دينية تتباين كلّ التباين مع دين البلد وأميرها، وفي وقت كان فيه الشعب التونسي في أمس الحاجة إليها وخصوصاً وأنّ الخلل الذي يشكو منه الشعب التونسي قد عمّ جميع أنحاء البلاد سواء كان ذلك في التعليم أو في الزراعة أو في التجارة... إلخ، فقالت: "...إذا كان السبب هو تراجع حكومة الجمهورية إلى الاعتراف بالدين الكاثوليكي فلم لم تخصّص هاته الإعانة بطلب من البرلمان...وبما أنّ الميزان في وسعه أن يتصدق على حجاج قرطاج فمن الأفضل التصدق على فقراء حجاج بيت الله الحرام ولا سيما وأنّ هذا العام رفعوا أصواتهم بالشكوى من ارتفاع أسعار ركوب باخرة ليفورنو..."³.

أمّا فيما يخص مسألة المال المخصّص للمؤتمر فقالت أنّه عندما أراد نواب المجلس الكبير مناقشة الحكومة فيه قالت إنّ وزارة الخارجية قرّرت هذه الإعانة ولا سبيل إلى مناقشتها، ولما وقعت مناقشة الخارجية لدى البرلمان قالت إنّ سمو الباي خصّص ذلك المبلغ من ميزانه الخاص.⁴

كما تساءلت نفس الجريدة عن المليونين من الفرنكات والتي مُنحت للجنة الشركة المدنية للمؤتمر على أساس أنّ الوافدين يقدر عددهم بثلاثين ألف أو خمسة عشر ألف، والذين لم يقدم منهم سوى ستة آلاف ونيف فعلى من صُرفت الملايين وأين الباقي؟⁵.

¹ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 45.

² غانمي، المرجع السابق، ص 91. (الصوت التونسي، 3-5-1930، "المؤتمر الافخارستي في قرطاج والمسلمين").

³ أبو الفرج، "حول المؤتمر الأفخارستي بقرطاجنة"، لسان الشعب، 30 أبريل 1930، ص 1.

⁴ أبو الفرج، "حول المؤتمر الأفخارستي بقرطاجنة"، لسان الشعب، 30 أبريل 1930، ص 1.

⁵ لسان الشعب، "حول المؤتمر الأفخارستي"، 28 ماي 1930، ص 2-3.

2-5-الاحتجاجات والإضراب العام الذي وقع يوم السبت 5 ذي الحجة /3ماي:

لقد كان للمظاهرات السلمية التي قام بها الطلبة الزيتونيون والعلويون والصادقيون وغيرهم قصد إعلان غضب الأمة عن هذه المجريات والتي كان من نتائجها إيقاف عدد عظيم من الطلبة ومحاكمة بعضهم صدى كبير في الصحافة التونسية¹، فأحصت (لسان الشعب) أسباب الاحتجاج مبتدئة بأخذ المليونين من أموال الخزينة دون مناقشتها بالمجلس الكبير، وجعل كبراء المسلمين في تونس ضمن الهيئة الشرفية.² إضافة إلى صبغة المؤتمر التّصيرية، وما صاحبه من تصريحات ونشرات للكنيسة وكتاب بونس وأضرابها³، وذكرت ردود أفعال الطلبة من عموم معاهد تونس، واستتكار واحتجاج طلبة باريس تضامنا مع إخوانهم الموقوفين، كما أشارت بأن المؤتمر جعل أيام العيد تمر على المسلمين وهم في كدر وامتعاض.⁴

ونفس الرّأي ذهبت إليه جريدة (الصّواب) في 16 ماي 1930: " لقد أثارت مظاهرات المشاركين في المؤتمر وخطبهم الحماسية، وكتاب المونسير بونس (Bons) سخط طلبة جامع الزيتونة وتلاميذ المدارس الثانوية، والذين تركوا صفوفهم وتظاهروا ضدّ المؤتمر، وقامت الحكومة الفرنسية بالقبض على العديد منهم ومحاكمتهم في الوقت الذي كان من الممكن أن تغضّ الطرف عليهم، فالحكومة هنا لم تكن ليبرالية وديموقراطية ومتسامحة..⁵

ونشرت تحت عنوان "احتجاجات الطّلاب في تونس وفي فرنسا ضدّ المؤتمر الأفخارستي واعتقال الطّلاب "عريضة ممضاة من طرف 125 طالبا جاء فيها: " نحن الطّلاب التّونسيون ومن مختلف المؤسسات التّونسية نظهر للحكومتين الحامية والمحمية والرّأي العام العالمي بأسره استياءنا الكبير من روح المؤتمر القرباني وهي نفس روح سان

¹ ابن شعبان، "ذيل المؤتمر . حوادث وتعاليق"، لسان الشعب، 21 ماي 1930، ص 2-3.

² لسان الشعب، "حول المؤتمر الأفخارستي"، 28 ماي 1930، ص 1.

³ لسان الشعب، "النقط الموحشة في وجه المؤتمر الأفخارستي" العدد 395، السنة العاشرة، الأربعاء 22 محرم 1349 / 18 جوان 1930، ص 1.

⁴ ابن شعبان، "ذيل المؤتمر ... حوادث وتعاليق"، لسان الشعب، 21 ماي 1930، ص 2-3.

⁵ L'Afrique française ,Juin 1930 , Op. cit ,p 352.

لويس، إنّ هذا المؤتمر يسعى إلى تنفيذ برنامج الكاردينال لافيغري، وقد صرّح منظموه مرارا وتكرارا أنّ هدفه الحقيقي هو شنّ حملة صليبية عنيفة ضدّ الإسلام في شمال إفريقيا، وبحكم إيماننا نحن ملزمون بالتعبير عن عدم رضانا عن الحكومة الفرنسية التي يتمثل مبدؤها في احترام الأديان، ولولا روح المؤتمر الأفخارستي لكنا استقبلنا هذا المؤتمر بفرح مثل كل السّواح الإنجليز والألمان.."، كما نشرت ما ورد في صحيفة (Paris) الصّادرة في 9 ماي عن احتجاجات الطّلاب التّونسيين والجزائريين والمغاربة في المهجر عن المؤتمر.¹

2-6- مواقف من بعض الصحف والرّد على بعض أقاويلها:

وسنركّز هنا على موقف الصّحف التّونسية من بعض الصّحف، وردّها على ما نشرته من أقاويل، ونستهلّها بما صرّحت به صحيفة (لسان الشّعب) في رأيها وموقفها من بعض الصّحف الفرنسية والتّونسية المؤيّدة للمؤتمر، أمّا عن الصّحف الفرنسية المؤيّدة في تونس فتعجبت من جريدة (الدّبيش) النّاطقة باسم الدّولة الفرنسية وكيف صارت النّاطق الرّسمي باسم الكنيسة، كما استغربت من جريدة (البتّي ماتان) اليهودية كيف خالفت قومها بالدّعاية للمسيح والمسيحية وزاحمت (الدّبيش) في التّقرب للكنيسة.²

وعابت على صاحب (تونس الفرنسية) تريدون³ (Tridon) على ما تفنّن به في كره الجنس العربي، وقالت: "...إنّه قد رفع على وجهه القناع ودعا للمؤتمر وضرب على نغمة الرّهبان وشتّم وسبّ جريدة (تونس الاشتراكية) التي لم توافقه على حركتهم هذه وعلى ما يدعون إليه مستندة لكون دولتهم لا دينية وصفتها هذه تجعلها لا تنتصر لا للرّهبان ولا لغيرهم من رجال الأديان الأخرى..."، ورأت أنّه من الأجدي أن يعارض صاحب (تونس

¹ Ibid , p 352.

² ابن شعبان، "ذيل المؤتمر... حوادث وتعاليق"، لسان الشّعب، 21 ماي 1930، ص 2-3.

³ هنري تريدون (1856-1930): صحفي فرنسي، وصل إلى تونس عام 1892، وكان أول رئيس تحرير جريدة ديباش تونزيان (Dépêche Tunisienne) من مارس 1893 إلى فيفري 1896، ثم رجع إلى باريس إلى غاية 1900، وأصبح رئيس تحرير من جديد لدبيش أفريل 1904، وبعدها صار رئيس تحرير (تونس الفرنسية) اليومية 1913، له كتاب (Comment la France perdra sa colonie) أكّد فيه على مخاطر تعليم التّونسيين على الوجود الاستعماري الفرنسي ووجود المستوطنين بتونس. أنظر: اللولب، المرجع السابق، ص 78. وكذلك:

-pierre Soumille , « Les activités et les œuvres des congrégation... » , Op. cit , p37.

الفرنسية) المؤتمر، وأن تُخصّص الملايين والجهود المبذولة في سبيل إنجاحه لفتح مدارس ونشر تعليم، لكن استبعدت هذا من م. تريدون الذي أنكر على إنجلترا تعليم الهنود قائلا: "...إن ما وصلت إليه الآن الحالة في الهند كان نتيجة تعليم الهنود ولو أنها تركتهم في حرمان من نور العلم والعرفان لكانوا ولا زالوا من النّائمين..."¹

كما استكرت (لسان الشعب) على (تونس الفرنسية) نشرها لاسمي شيخ الإسلام والباش مفتي ضمن أسماء القائمة الشرفية، ورأت أنّ ذلك كان عن قصد للحط من قيمة هذين الشّيخين في نظر أمّتهما والتّشهير بهما في نظر المسلمين، وردّت على ادّعائها بأن رجال المؤتمر لم يأتوا بقصد الدّعاية، وأنّ كل نشرة وجدت من هذا القبيل هي مفتعلة ومدسوسة عليهم، بقوله: "...إنّه قد وقع نشر رسالة بعنوان "هل أنت مؤمن"، وأخرى بعنوان "الآيات الالهية في العقيدة المسيحية" وغيرها كثير من طرف الكنيسة ورجالها ووزّعت على الناس..."²

أمّا عن الصّحف التّونسية فتعجبت من جريدة (النّهضة) وقالت بأنّها تفنّنت في التّضليل وقلب الحقائق وشوّعت بشخصيات بارزة لكون أصحاب هذه الشخصيات يمقتونها، وتساءلت كيف أنّ جريدة إسلامية حاربت قومها بكل قواها وناصرت المؤتمر بفتح صفحاتها لنشر كل ما يهم الكاثوليكين وفاقّت في ذلك (الدبيش) و(البتّي ماتان) و(تونس الفرنسية)، وأنّ هذا الأمر هو الذي جعل لجنة المؤتمر تقدّم شكرها للجريدة على ما قامت به من أعمال مطلوبة، وقالت في هذا الصّدد: "أمّا جريدة (النّهضة) فقد ورد لها كتاب من نيافة أسقف قرطاجنة يقول لها فيه: إنّ للنّهضة منّة في رقبة الكنيسة اكتسبتها بموقفها إزاء هذا المؤتمر وترويجها لدعايته..."³

¹ أبو الفرج، "حول المؤتمر. . لسان الشعب، 30 أبريل 1930، ص 1.

² لسان الشعب، "حول المؤتمر الأفخارستي"، 28 ماي 1930.

³ حسب ما ورد في جريدة (لسان الشعب) أن "لجنة الشّركة المدنية لتهيئة المساكن ولوازم المؤتمر" استأجرت جريدة (النّهضة) لنشر مقراراتها. أنظر: مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 42.

ونورد كذلك رد جريدة (الزّهرة) على مقال (تونس الفرنسية) فيما يخص أنّ العرب أكرهوا الأمم المغلوبة على اتّباع دينهم، فكتبت: "...هذه أسطورة بالية طالما تشدّق بها قُصار النّظر من المسيحيين الذين لا يريدون مراجعة كتب التّاريخ النّزيهة... لو كَلّف صاحب (تونس الفرنسية) نفسه قليلا من الجهد لمراجعة مؤلفات العلماء من بني جلدته كالّدكتور غوستاف لوبون¹ في كتابه (حضارة العرب) وكتاب العلامة سيديو² وكتاب بارتيليمي -سانت هيلار³ في حياة نبي الإسلام (صل الله عليه وسلم) وخلفائه الرّاشدين...، وغيرها إذن لتبيّن له ما في هذه الدّعوى التي لم يزل متمسكا بها من سخافة وبعد عن الصّواب.... ذلك أنّ خروج المسلمين من جزيرتهم العربية واستقرارهم بجهات أخرى من المعمور، لم يكن القصد منها الظّفر بغنائم دنيوية أو قضاء مآرب اقتصادية بل كانت الغاية منه إعلاء كلمة الله والتّعريف بالدين الحنيف⁴... ولم يمّسوا سكان الجهات التي حلّوا بها بأدنى أذى إذا كفّ هؤلاء عن إذايتهم، ولم يتعرّضوا لهم دون القيام بمأموريتهم الدّينية بحيث أنّ سيوف المسلمين لم تكن تُشهر إلّا في وجوه الذين يسبقونهم بسيوفهم بالعداء، ولم تكن تحكم في رقاب ممن فضّلوا البقاء على معتقداتهم القديمة، وأعظم دليل على ذلك هو بقاء زمر عديدة من المسيحيين بالبلدان التي استولى عليها الإسلام ثلاثة عشر قرنا، وهي متمتعة بكامل الحرية في أداء شعائرها الدّينية، الأمر الذي لم تكن تجده ولم تزل للآن غير ظافرة به في كثير من البلدان الأوربية المسيحية التي كان البعض منها يُقتل المسلمين واليهود تقتيلا، حتى أنّ محاكم

¹ غوستاف لوبون (Gustave le Bon) (1841-1931) طبيب ومؤرخ فرنسي عمل في أوروبا وآسيا وشمال إفريقيا، كتب في علم الآثار والأنثروبولوجيا وعني بالحضارة الشرقية، من أشهر آثاره حضارة العرب وحضارات الهند وباريس، والحضارة المصرية... إلخ. ، وكان غوستاف لوبون يفضل في كتبه سيرة إنكلترا في مستعمراتها على سيرة دولته، وكان ساستها يسخرون من فلسفته ومن السياسة الإنجليزية الاستعمارية. أنظر: المنار، "الفتح الأوربي والفتح الإسلامي"، ج2، م31، ص، 149.

² لويس بيبير أوجين سيديو (Louis-Pierre-Eugène Sédillot) (1808-1875): هو مستشرق فرنسي صاحب كتاب (Histoire des Arabes) ألفه بالفرنسية وأشرف علي مبارك باشا بترجمته إلى العربية، وسمّاه "خلاصة تاريخ العرب".

³ برتلمي سنت هيلار (Jules Barthélemy-Saint-Hilaire) (1805-1895) هو فيلسوف، سياسي، صحفي ومستشرق فرنسي، له تأليف في أديان الشّرق حيث كتب عن محمد (ص) والقرآن (1865).

⁴ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 53-54.

التفتيش بإسبانيا¹ قضت بالإعدام في يوم واحد على مئة ألف مسلم ممن لم يشاءوا التّصر...² وآية أخرى على أنّ الدّين الإسلامي لم ينتشر بقوة السّيف، هي أنّك تجد أقطارا كثيرة من الهند وأواسط إفريقية وبعض جزر المحيط الهادئ قد اعتنق فيها الكثير من سكانها الدّين الإسلامي، ويعدّ أتباعه اليوم بالملايين الكثيرة ولا يزال الدّين يعمل أثره في النفوس وينتشر انتشارا متواصلا بإفريقية وبأوروبا وأمريكا بدون تأييد رسمي ولا بعثات منظّمة فهل السّيف هو الذي كوّن جامعة إسلامية في ليفربول ومانشستر بإنجلترا، وهل السّيف هو الذي يفتح المساجد بمجاهل إفريقية في الوقت الحاضر؟ كلاً بل هي نزاهة التّعاليم الإسلامية³.

كما علّقت جريدة (الزّهرة) كذلك على جريدة (L'Unione) لسان القنصلية الإيطالية في تونس عندما نوّهت بشأن التّسامح الدّيني الذي للمسلمين، ولاسيما باعترافهم بجميع المساعي التّبشيرية التي يبذلها المسيحيون، وبما تقوم به نحوهم البعثات الكنسية ومشروعاتها الخيرية الإحسانية كالتّالي: "نحن نعلم، وليس هناك من يجهل فيما نعتقد، أنّ نفس مشاريع الإغاثة والإسعاف المسيحية التي يقصد بها ظاهرا إلّا خدمة الانسانية وتخفيف آلام البشر، إنّما تخفي في الواقع مقاصد تبشيرية..."⁵.

وفيما يخص موقفها من الصّحف الفرنسية المعارضة للمؤتمر فقد قدمت كل الصّحف التّونسية شكرها لجريدة (تونس الاشتراكية)، فقالت (لسان الشّعب) عنها: "... كتبت ونشرت منذ يوم تخصيص المليونين فرنك والاستعداد للمؤتمر إلى انتهاء انعقاده ورجوع أعضائه ما

¹ محاكم التّفتيش بإسبانيا: أسّسها الملوك الكاثوليك فرناندو الثّاني وإيزابيلا الأولى في 1478 بموافقة البابا سيكستوس الرّابع، ومهمّتها الحفاظ على العقيدة الكاثوليكية في الممالك الاسبانية، طالبة من اليهود والمسلمين إمّا تحويل دينهم أو ترك إسبانيا، واستمرت محاكم التّفتيش حتى تمّ إلغاؤها نهائيا سنة 1834. في عهد إيزابيلا الثّانية.

² مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 55.

³ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 56.

⁴ لونيوني أو (الوحدة) جريدة إيطالية سياسية اقتصادية، أصدرت أول أعدادها يوم 21 مارس 1886، مقرّبة من القنصلية الإيطالية، ومديرها سيزار فابري. أنظر اللولب، المرجع السابق، ص 125.

⁵ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 57.

لا يكاد يختلف عما كتبه كتّابنا المخلصين أو أشدّ لهجة، فهي بذلك استحققت شكر من يقرّ بالفضل لذويه....¹

وأشادت (الزهرة) كذلك بدور رئيس الحزب الاشتراكي، فذكرت في عددها الصادر ب13 ماي 1930: "... و عليه فإنّ الحزب الاشتراكي وعلى رأسه السيّد دوران أنقليفيال تمكّن من الفوز في المعركة التي خاضها ضدّ المؤتمر إذ استطاع قلب عناصر السّكان وخصوصا المسلمين".²

كما نشرت (الصّواب) مقالا بعنوان "موقف الاشتراكيين من المؤتمر الأفخارستي" وهنّأت فيه الحزب الاشتراكي ورئيسه دوران أنقليفيال بشكل خاص لفوزه بقضية النّضال ضدّ المؤتمر وخروجه من المعركة برأس مرفوع، وقالت بأنّ موقف الحزب قد استحوذ على مختلف شرائح المجتمع التّونسي وعلى وجه الخصوص المسلمين الذين صاروا يحترمون قيم ومبادئ العدالة التي ينادي بها الحزب.³

وفيما يخصّ الصحف الفرنسية المؤيدة للمؤتمر بفرنسا سنوضّح ما نشرته (لسان الشعب) كرد على جريدة (Le Temps) الباريسية الصّادرة في 6 جوان 1930 حول بعض القضايا التي طرحتها واعتبرتها بمثابة نقط موحشة في وجه المؤتمر، فكان جواب (لسان الشعب) على: "أنّ القائمين بالاحتجاج غير متدينين" ب: "... ربّما كان البعض من المتشبعين بالمبادئ الفرنسية التي منها لا دينية ولكن وقوف الطّان التي تعرب عن الفكرة الفرنسية العليا هذا الموقف ووقوف بعض رجال فرنسا قبلها مثله قد جعل غير المتدينين منّا عن غاية من التّعصب للدين..⁴، أمّا عن حشر الوطنيين في زمرة واحدة مع الفاشيست

¹ لسان الشعب، "ذيل المؤتمر ... حوادث وتعليق"، 21 ماي 1930، ص 2-3.

² L'Afrique française, Juin 1930, Op. cit, p 352.

³ Ibid, p 352.

⁴ لسان الشعب، "النقط الموحشة في وجه المؤتمر الأفخارستي"، 18 جوان 1930، ص 1.

فردت (لسان الشعب): "...إننا لا نكتب عنه شيئاً لأنّ الطان نفسها تعترف بأنّ التونسيين غير منخرطين في سلك الفاشيست...".¹

أمّا عن قولها الدّستوريين هدّوا أرباب الدّكاكين لغلق دكاكينهم فقالت: "...لقد رأوا نقيض الواقع لأنّ البوليس هو الذي هدّد المضربين احتجاجاً على المؤتمر وألزمهم بحل الإضراب". ورأت (لسان الشعب) بأنّ (الطّان) قد قلبت الحقائق بادّعاءها أنّ الطّلبة ضربوا البوليس وشتّمهم، لأنّ هذا الأمر لم يقع وإن وقع فهو من باب الدّفاع عن النّفس، أمّا فيما يخص مسألة المال قالت: "...لسنا في حاجة إلى إثبات ما اعترفت به الحكومة والتمست له المخارج..."، أمّا بخصوص ربط مؤتمر قرطاج بالاحتفال المئوي بالجزائر فكان الردّ هو أنّه وقع من طرف الكنيسة التي أرسلت إلى أتباعها نداء بمناسبة ذلك الاحتفال.²

أمّا عن قول (الطّان) بأنّ الصحافة العربية وقفت موقف المعارضة فقالت لها: "...إنّ الصحافة التّونسية ناضلت عن قومها ومواقفها دفاعية بحتة لا بمعارضة ولا بهجوم".³

وفي الأخير يمكننا القول بأنّ مؤتمر قرطاج أعطى فرصة للتّونسيين لشنّ حملة صحفية واسعة النّطاق، تمكنوا من خلالها كشف أهداف المؤتمر السّياسية ومراميه الدّينية التّصيرية، مما زاد في تعميق الحس الوطني، وتوعية الرّأي العام التّونسي وتقوية الشّعور بالعداء والحقّ والكرهية تجاه المستعمر وسياسته العنصرية.

3-المؤتمر الأفخارستي من خلال بعض الصحف الإقليمية والدولية:

3-1-الصحف الإقليمية:

3-1-1-الجزائرية:

¹ لسان الشعب، "هذيان الطان، رد وتزييف"، ع 396، س 10، 29 محرم 1349/25 جوان 1930، ص 2-3.

² لسان الشعب، "النقط الموحشة في وجه المؤتمر الأفخارستي"، 18 جوان 1930، ص 1.

³ لسان الشعب، "هذيان الطان، رد وتزييف"، 25 جوان 1930، ص 2-3.

نجد من بين الصحف الجزائرية والتي تناولت موضوع المؤتمر مجلة الشّهاب¹، والتي كتبت في عددها الصادر بجوان 1930 حول أعمال المؤتمر ونتائجه، إذ استنكرت المجلة الصّبغة الصّليبية للمؤتمر وعدّت طواف الصّبية بملابسهم الصّليبية أنحاء العاصمة التّونسية انتصارا عظيما لم تستطع حتى حملة سان لويس تحقيقه أيام المستنصر بالله الحفصي، وكذّبت المجلة مسألة موافقة الباي على منح المساعدة المادية والمقدّرة بمليونين من الفرنكات للمؤتمر، ورأت بأنّها أخذت من الميزانية التّونسية بأمر من وزارة الخارجية الفرنسية وبدون مناقشة النّواب التّونسيين في المجلس الكبير.

كما أيّدت رفض أهالي تونس للمؤتمر، وساندت الاحتجاجات والمظاهرات الطّالبية المننّدة بانعقاده في بلاد إسلامية، والناقمة على أفعال السّلطة الفرنسية العنصرية.²

وفي الأخير عدّدت المجلة النّتائج التي خرج بها المؤتمر الذي حضره نحو المائة والخمسين ألفا من كبار المسيحيين -حسب المجلة -، وكان على رأسها نجاح رجال الكنيسة الكاثوليكية وتحت رعاية دولة الحماية في نشر الدّعاية المسيحية في أرض إسلامية لها ملك مسلم وإدارة إسلامية، وكذلك تكوين شقّة خلاف جديدة بين الشّعب التّونسي وبين إدارة الحماية ناهيك عن سوء التّفاهم الكبير الذي وقع بين الجالية الإيطالية والسّلطة الفرنسية، أمّا بالنسبة للفائدة الاقتصادية للمؤتمر فرأت أنّ المؤتمر أحدث إخفاقات كثيرة، وخيّب آمال الذين كانوا يظنون أنّه سيدر أرباحا تجارية كبيرة.³

3-1-2- المشرق العربي (مصر):

3-1-2-1- جريدة الشّورى:

¹ صدر أول عدد من الشّهاب في 12 نوفمبر 1925، حيث كانت تصدر مرة كل أسبوع ثم أصبحت تصدر مرتين في الأسبوع وفي السنة الرابعة من صدورها سنة 1928 عرفت أزمة مالية حادة حولت من جريدة إلى مجلة شهرية، مبادئها الإصلاح الديني والدنيوي، ، بلغ أعدادها 178 عددا، وأوقفت سنة 1940 بعد وفاة ابن باديس. أنظر أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 71.

² الشّهاب، غرة محرم 1349هـ / جوان 1930، ج5، ص6، المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة، ص 228.

³ الشّهاب، غرة محرم 1349هـ / جوان 1930، ص229.

كتبت جريدة (الشورى)¹ للمحمد علي الطاهر² العديد من المنشورات فيما يخص موضوع المؤتمر الأفخارستي، فنشرت نقلا عن جريدة (لسان الشعب) مقالا في 5 فيفري 1930 حول أخذ الأموال من الخزينة لتمويل المؤتمر وختمته بالعبارة التالية: "...لما طلبوا الدراهم لمقاومة الطاعون قالوا لا يوجد دراهم !! وأما للتبشير فالملايين موجودة فليحي الاستعمار البديع".³

كما نقلت عن (الزهرة) خلاصة مناقشة جرت في البرلمان الفرنسي حول مساندة فرنسا العلمانية المادية للمؤتمر، وختمتها برد وزير الخارجية بريان حول القضية ب: "أنّ باي تونس هو الذي طلب مساعدة المؤتمر بالرئاسة الشرفية وبالمليونين".⁴

وورد فيها مقال آخر نُشر بتاريخ 7 ماي 1930 تحت عنوان: "ماذا في تونس؟ فجيرة من أفضع الفجائع"، تعجبت فيه الجريدة من عقد مؤتمر كاثوليكي بتونس وبدء أعماله يوم وقفة عرفات، كما استنكرت قبول كلّ من: "باي تونس أحمد باي، والوزير الأكبر خليل بوحاجب نجل المفتي الشهير الشيخ سالم بوحاجب ووزير العدلية طاهر بك خير الدين الذي كان متصرفا على القدس ونجل الوزير التونسي خير الدين باشا الصدر الأعظم واللواء الشاذلي العقبي وشيخ الإسلام بتونس الشيخ حميدة بيرم والباش مفتي الشيخ طاهر بن عاشور" تكليف فرنسا لهم بأن يكونوا ضمن اللجنة الشرفية لمؤتمر تبشيري، وكتبت: "إننا ما

¹ تأسست من قبل الصحفي الفلسطيني محمد علي الطاهر المكّي بأبي الحسن عام 1924 في القاهرة بمصر، وهي جريدة سياسية أسبوعية مناهضة للاحتلال الأوربي، تبحث في شؤون فلسطين وسوريا ولبنان وشرق الأردن، أصدر عددها الأول الأربعاء 22 أكتوبر 1924م، وتوقفت بتاريخ 15 جويلية 1931م بعد اعتقال مؤسسها، وأصبح العدد 332 هو الأخير من الجريدة التي استمرت 7 سنوات. أنظر: أشرف محمد عبد الرحمان مؤنس، المقال السابق، ص 12.

² محمد علي الطاهر (1896-1974)، وكنيته أبو الحسن، هو كاتب وصحفي فلسطيني، ولد في نابلس، وتلقّى تعليمه الأساسي فيها وقد عمل صحافيا في أكثر من صحيفة، تولّى مديرية (البرق) و(المؤيد) في مدينة نابلس، ثم انتقل بعدها إلى القاهرة عام 1912، اعتقل عدّة مرّات، أول مرة كانت لمدة سنتين (1915-1917) من قبل سلطات الاحتلال البريطاني، والثانية كانت عام 1925، والثالثة كانت عام 1931، والرابعة سنة 1940، والمرة الأخيرة كانت عام 1949، وتوفي في بيروت عام 1974. أنظر: نفسه، ص 13.

³ الشورى، "ماذا في تونس"، ع 361، س 6، الأربعاء 6 رمضان 1348 / 5 فيفري 1930.

⁴ الشورى، "ماذا في تونس؟ فجيرة من أفضع الفجائع، إلى جمعيات الشبان المسلمين في الشرق وإلى علماء الدين"، ع 273، س 6، الأربعاء 8 ذو الحجة 1348 هـ / 7 ماي 1930.

كنّا نتصور إنّ مثل هؤلاء يرضون القيام بعمل فطيع من هذا النوع ولو كان في رفضه قطع الرقاب".¹

وناشدت الجريدة جمعيات الشّبان المسلمين وعلماء الدّين في الشّرق وبالأخص فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر والمجلس الإسلامي الأعلى بفلسطين لرفع الاحتجاجات على فرنسا، كما طلبت من الصّحف الهندية والجاوية ترجمة خبر هذه الفاجعة لتوسيع دائرة احتجاج المسلمين في العالم على عملية التبشير المسيحي.²

وكتبت (الشّورى) في 27 ماي 1930 عن فعاليات الحفل الختامي للمؤتمر الأفخارستي وأشارت إلى تعداد الحاضرين له فقالت: "حضره 50 ألف نسمة و10 آلاف كاهن من جميع الجنسيات"، واعتبرت الجريدة أنّ فرنسا قد ذلّت التّونسيين بهذا المؤتمر.³

كما قدّمت كذلك موقف الشّبان التّونسيين من المؤتمر تحت عنوان "أبناء تونس بالقاهرة يعملون لوطنهم"، صرّحت فيه بإعجاب سكرتير شعبة الحزب الدّستوري بالقاهرة الشّيخ التّونسي علي محمد شقرون باحتجاج الطّلبة التّونسيين على عقد المؤتمر الأفخارستي بتونس، وبدفاع شّبّان تونس في باريس عن بلادهم.⁴

ونشرت (الشّورى) في فيفري 1931 موقف شكيب أرسلان⁵ من المؤتمر تحت عنوان "لا دينية فرنسا المزعومة!"، إذ انتقد أرسلان الرّعاية الرّسمية التي منحتها الدّولة الفرنسية اللادينية للمؤتمر الأفخارستي ودعمها وحمايتها المتواصلة للدّين الكاثوليكي بالخارج، كما استغرب من غضب الفرنسيين عند رفض التّونسيين لعقد هذه التّظاهرة في بلادهم الإسلامي،

¹ الشّورى، "ماذا في تونس؟ فجيرة من أفضع الفجائع".، ع 273، 7 ماي 1930.

² نفسه.

³ الشّورى، ع 275، س 6، الأربعاء 28 ذو الحجة 1348 هـ / 27 ماي 1930.

⁴ الشّورى، ع 276، السّنة 6، الأربعاء 7 محرم 1349 هـ / 4 جوان 1930.

⁵ شكيب أرسلان (1869-1946)، من الشّوقيات بلبنان، تعلّم في مدرسة الحكمة، والمدرسة السّلطانية، وأتقن التّركية والعربية، وكان من المناصرين للدّولة العثمانية قبل معاهدة لوزان، أمّا بعد المعاهدة فتحوّل إلى مناصرة القضايا القومية بخاصة والإسلامية بعامّة، له عدة مؤلفات منها تعليقه وتعقيبه على كتاب حاضر العالم الإسلامي، وخاتمة تاريخ العرب والأندلس، وله شعر كثير حتى سمي بأمير البيان، للمزيد أنظر: عميرة، المرجع السابق، ص 1-15.

الفصل الثالث: وقائع المؤتمر الأفخارستي ونتائجه من خلال بعض الصحف والدوريات

وقد لاقى انعقاد المؤتمر الأفخارستي برودس نفس الرّفْض والمعارضة من قبل اليونانيين والذين اعتبروه تحرّش الكاثوليك بالكنيسة الأرثوذكسية.¹

3-1-2-2- جريدة الفتح:

كتبت جريدة (الفتح)² القاهرية لمحِب الدّين الخطيب مقالات عديدة احتجاجاً على هذا العدوان الصّليبي، فتحدّثت عن قضية الأموال الممنوحة للمؤتمر الأفخارستي.³ وقامت بنشر الحوار الذي دار في مجلس النّواب الفرنسي عند مناقشة الأسئلة التي طرحها جامارد أحد أعضاء الحزب المعارض حول المساعدة المادية والمعنوية التي قدّمتها الحكومة الفرنسية للمؤتمر، والسّبب وراء اختيار مدينة إسلامية لتكون مسرحاً لمظاهرات كاثوليكية، وترأس الباي والمقيم العام للجنة الشّرفية، وقدّمت ردّ أرسيتيد بريان وزير الخارجية الفرنسي والمتمثل في أنّه دائماً متساهل في موضوع المؤتمرات الدّولية، أمّا بالنّسبة للمقيم العام والباي لم يعارض المؤتمر، واهتمّ بأمر إعداد مكان لخمسين أو ستين ألف زائر، كما أنّ الباي قرّر إسداء المساعدة للمؤتمر وأعطى لجنة تنظيمه ملوني فرنك، وهذا بسبب السّمة الطّيبة والشّرف الذي ستأله تونس من تكريم ضيوفها.⁴

كما نشرت مقالا جاء تحت عنوان "كارثة أكبر من ضياع الأندلس" بتاريخ 15 ماي 1930، ونذكر من بين ما ورد فيه: "...خسرنا الأندلس، وكنا ولا نزال نعلم بأننا خسرناها. ونزلت بنا كارثة الأندلس، وكنا ولا نزال نشعر بألم هذه الجريمة في فؤاد العربية

¹ الشورى، ع 313، س 7، الأربعاء 30 رمضان 1349 هـ / 18 فيفري 1931 م.

² الفتح: أصدرها محِب الدّين الخطيب في 29 ذي الحجة 1344 هـ الموافق ل 10 يونيو 1926 م، واستمرت الفتح حتى عام 1366 هـ الموافق ل 1948 م. أي أغلقت بعد 22 عاما من الجهاد النّقافي، تولّى رئاسة التحرير فيها العامين الأوليين الشّيخ الأزهري عبد الباقي سرور نعيم، ثم تولّى رئاستها محِب الدّين الخطيب حتى إغلاقها، وكانت موضوعاتها ومادتها الإعلامية موجّهة للرّد على دعاة الغزو الفكري والتّغريب والتّنصير والاستشراق، هذا إلى جانب اهتمامها بأحوال المسلمين في كل مكان. أنظر: أنور الجندي، تاريخ الصحافة الإسلامية-2-، الفتح، محِب الدين الخطيب (1926-1948) م، دار الأنصار، مصر، ص 6.

³ الفتح، "تونس والمؤتمر الكاثوليكي"، ع 185، س 4، الخميس 7 رمضان 1348 هـ / 6 فيفري 1930 م، ص 12.

⁴ الفتح، "المؤتمر الكاثوليكي بقرطاجنة (تونس)"، ع 198، س 4، الخميس 9 ذي الحجة 1348 هـ / 8 ماي 1930، ص 10.

والإسلام. وأمّا الآن فنحن أمام كارثة أكبر من كارثة الأندلس، وقد لا تكون هنالك كارثة أكبر منها غير كونها تمرّ بنا ونحن أموات لا نشعر بجريمتها، هذه الكارثة العظمى هي أنّ شيخ الإسلام في تونس وكبير المفتّيين فيها وعظماء حملة علوم الشريعة قبلوا أن تتألف منهم لجنة شرف مؤتمر التبشير الكاثوليكي الذي عُقد منذ أيام في الدّيار التّونسية¹.

واستكرت الجريدة مسألة أخذ مليونين من الفرنكات من بيت مال المسلمين في تونس، وإعطائها لمؤتمر التبشير الأفخارستي، وقبول أمير المسلمين في تونس رئاسة شرف هذا المؤتمر، وتساءلت عمّا سيكون بعد ذلك؟ فكتبت: "... يكون بعد ذلك أنّ المسلمين صار المفروض فيهم أنّهم ماتوا، فاتخذ غيرهم من جثتهم الهامدة لجنة شرف لمؤتمر التبشير الأفخارستي، شرف عظيم يتقلّده شيخ الإسلام في تونس وعصابته. أيّ شرف أعظم من أن يكونوا لجنة شرف لتسهيل مهمة كاثوليكية يقوم بها نحو خمسين ألف قسيس من حملة الصّلبان العاملين بهمة وإخلاص لإخراج المسلمين من الدّين المُحمّدي وإدخالهم تحت راية الصّليب..."².

وكتبت كذلك حول موقف الطّلبة التّونسيين من المؤتمر في مقال تحت عنوان "شباب تونس ومؤتمر التبشير الكاثوليكي"، تناولت فيه رد السّلطات الاستعمارية على الحركة الاحتجاجية الطّالبية والمتمثل في زج خمسة وعشرين شاباً في السّجن، وإصدار أوامر إلى الصّحف الفرنسية والعربية بعدم الإشارة إلى هاته الأحداث وذلك حتى تظهر للعالم بأنّ المسلمين في تونس استقبلوا المظاهرة الكاثوليكية ورحّبوا بها.³

¹ الفتح، "كارثة أكبر من ضياع الأندلس"، ع 199، س 4، الخميس 16 ذي الحجة 1348 هـ/15 ماي 1930م، ص 1.

² نفسه، ص 1-2.

³ الفتح، "شباب تونس ومؤتمر التبشير الكاثوليكي"، ع 200، س 4، الخميس 23 ذي الحجة 1348 هـ/22 ماي 1930 م. ص 12.

وأضافت في عددها الصادر ب 5 ربيع الأول 1349هـ موقفا آخر من السلطة الاستعمارية تمثل في مواصلة منعها لتلامذة الصادقية المضربين من المبيت والغذاء في مدرستهم.¹

وذكرت (الفتح) بأنها أول جريدة في دول المشرق العربي أشارت لموقف الطلبة التونسيين من المؤتمر، واعتبرته موقفا مشرفا بيّضوا به وجه العالم الإسلامي.²

كما نقلت تحت اسم جريدة (المنهاج) مقالا لجريدة (الزهرة) رأت فيه بأن (الفتح) كانت مخطئة عند تسميتها للمؤتمر الأفخارستي بالمؤتمر التبشيري، ومما ورد فيه: "إنّ نعتها المؤتمر الأفخارستي بمؤتمر التبشير هو نعت في غير محله، لأنّ هذا المؤتمر الذي ينعقد كل سنة أو سنتين في بلد من بلدان العالم ليس له اشتغال بالتبشير أصالة، بل المراد منه هو إحياء معجزة استحالة الخبز والخمر لجسد ودم سيدنا عيسى عليه السلام والتبرك بأكل جسده الطاهر في صورة قطعة خبز يتناولها المؤتمر بعد صنعها بكيفية مخصوصة. وإنّما رجال الكنيسة قد اغتتموا فرصة انعقاد هذا المؤتمر الصّيد في بلد إسلامي فأخذوا يفسحون لأنفسهم مجال الآمال في إمكان تنصير المسلمين، وقوت شهوة النّهمين عندما رأوا مجاملة من بعض المسلمين فعلقوا ينوّهون في صحفهم ومؤلفاتهم بقيمة وأهمية هذه المظاهرة الكاثوليكية الكبرى على مستقبل المسيحية، ويخرجون مكنونات ضمائرهم ما يؤملونه لسكان هذه البلاد من استبدال شقائهم الحالي بالسعادة الأبدية ! هذا هو الذي أثار حفاظ المسلمين فيما بعد. أمّا لو الغرض الأصلي من المؤتمر هو التبشير حقيقة إذن لما كان يقبل أي فرد من التونسيين وخاصة أميرهم المعظم عضويته أو رئاسته الشرفية." ³

وردت (الفتح) على (الزهرة) فقالت كيف لمؤتمر يحمل كل هاته المواصفات لم يكن مؤتمرا تبشيريا، وتساءلت ما دخل المسلمين في مؤتمر كان للتبرك بأكل جسد السيّد المسيح،

¹ الفتح، " المؤتمر الكاثوليكي وتلامذة الصادقية "، ع 210، س5، 5 ربيع الأول 1349هـ، ص 10.

² المنهاج، "ومع ذلك لم يكن مؤتمرا تبشيريا !!... المؤتمر الأفخارستي أيضا"، ع 6-7، ع/ 207، س5، الخميس 14 صفر 1349هـ. ص 4.

³ المنهاج، "ومع ذلك لم يكن مؤتمرا تبشيريا !!..."، ع 6-7، ع/ 207، س5، الخميس 14 صفر 1349هـ. ص 4.

وأَيَّ عمل لهم في هذا المأزق، وأين الإمضاءات الصريحة في البراءة منه؟ وكيف لا ترسل هذه البراءة إلى كل صحيفة نُسب فيها لمسلم من المسلمين أن له انتسابا إلى هذا المؤتمر؟، ثم علّقت على ماقالته (الزّهرة) ورأت بأن اسم المؤتمر التبشيري قليلا عليه، وطلبت من (الزّهرة) أن تبحث له عن اسم آخر يليق به.¹

وختمت ردّها بأن المؤتمر الأفخارستي قد باء هو وأنصاره بالفشل، إذ لم يستطع رجال الكنيسة القيام بما كانوا ينون القيام به من الأعمال التبشيرية بسبب الصدمة التي لاقوها من غضب الرأى العام، وإعراض التونسيين بشكل تام عن حضور فعالياته، فلم يأت إليه إلاّ عددا قليلا من الموظفين جاءوه بصفتهم موظفين ملزومين بالحضور، كما لم يحضره الباي رئيس اللجنة الشرفية وكذلك شيخ الإسلام والمفتي الأكبر لأن حضورهما لا يليق بمقامهما وكرامتهما، وحتّى الصّحافيين التونسيين المسلمين بالرغم من أنّ لهم عذر عملهم إذا حضروا، وإضافة إلى كلّ هذا الحركة الاحتجاجية الواسعة والاضرابات والمظاهرات الطّالبية الكبيرة والتّديدات العنيفة التي قادتها الصّحف الإسلامية ضدّ المؤتمر ومنظميه، والتي في مجملها أثبتت للملاحدة والزّهبان المسيحيين بأنّ تونس لا تزال بلدا عربيا إسلاميا.²

وواصلت (الفتح) الكتابة في موضوع المؤتمر فكتبت مقالا مطوّلا في عددها (219) الصادر ب 10 جمادى الأولى 1349 هـ مشكّل من خمس صفحات ضمن سبعة أعمدة ونصف تحت عنوان: "ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي هل تمثل مأساة الأندلس من جديد في شمال إفريقية؟ الحملة الصليبية التاسعة في المؤتمر الأفخارستي المنعقد بقرطاجنة من المملكة التّونسية"، واعتبرت الجريدة في هذا المقال المؤتمر الأفخارستي حملة صليبية سلمية أخطر من حرب قوامها السيف والنّار، قادتها الكنيسة الكاثوليكية تجاه تونس من أجل إضعاف شأن الإسلام فيها، وبمساهمة ودعم السّلطات الاستعمارية، هاته الأخيرة التي لم تكتف بحرمان التونسيين من جميع حقوقهم وحرّياتهم، كحقهم في التشريع ومراقبة صرف الأموال التي تُجبي منهم ومتابعة سير الحكومة وإدارتها، إضافة إلى حرمانهم من

¹ نفسه، ص4.

² نفسه، ص5.

حرية النشر والقول والاجتماع وتأسيس الجمعيات وعدم وجود قضاء مستقل ناهيك عن مواصلة إجلائهم عن أراضيهم لفائدة الاستعمار، أضافت لسياستها فتح ثغرة جديدة لهدم الذاتية التونسية، بدأتها أولا بفتح باب تجنيس التونسيين والأجانب المقيمين بتونس ثم أكملتها بمناهضة الإسلام وتنشيط الكنيسة بإطلاق حرية العمل لها، والذي تجلّى أولا في مصادقة الحكومة على نصب تمثال الكاردينال لافيغري في باب العاصمة العربية الإسلامية، ثم تأييدها ودعمها لهذا المؤتمر الذي يهدف إلى تقويض أركان الإسلام وإزالة معالمه وتعميم المسيحية في تونس وشمال إفريقيا، ومنحه صبغة رسمية، وبذلك أصبح لسياسة الاحتلال عنصر جديد تمثل في اصطباغ الاستعمار بالمسيحية، وهو ما أثار حفيظة المسلمين وجعلهم يثورون ضد الكنيسة والاستعمار معا.¹

كما قدّمت الجريدة في هذا المقال شرحا مفصّلا لقضية المليونين من الفرنكات التي خصّصت كإعانة لإقامة المؤتمر، وذكرت بأنّه عندما أراد أعضاء المجلس الكبير مناقشة الحكومة في هذا التبرع فأجيبوا من طرفها بمنع المناقشة في الموضوع، لأنّ هذه الإعانة مقرّرة من طرف وزارة الخارجية ومفروغ منها. وقالت بأنّ الميزانية التونسية - مقابيضها ومصاريفها - تقرّر بوزارة الخارجية، ثم يُوتّى بها إلى تونس فتُعرض على المجلس الكبير بقسميه الفرنسي والتونسي لينظر في بعض أبوابها بصفة استشارية يمكنه بمقتضاها أن يقترح تعديل بعض الأبواب من المصاريف أو المقابيض لفائدة أبواب أخرى براها أشد تأكيداً، وهناك أبواب أخرى من المصاريف لا حق للمجلس في النظر فيها، ومنها الأمن العام والحربية، ومخصّصات السفارة الفرنسية العامة، ومخصّصات الملك، وقد أدرج المليونان من الفرنكات المخصّصة لإقامة المؤتمر ضمن مصاريف الملك الخاصة، وبذلك حيل بين الأعضاء وبين الخوض فيها، وذلك ليُقال أنّ الملك أنفق من مخصّصاته على المؤتمر حبا

¹ **الفتح**، "ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي هل تمثل مأساة الأندلس من جديد في شمال إفريقيا؟ الحملة الصليبية التاسعة في المؤتمر الأفخارستي المنعقد بقرطاجنة من المملكة التونسية -1"، ع219، س5، الخميس 10 جمادى الأولى 1349هـ، ص 1-2.

بوقوعه في بلاده. وهذا لما سيديره المؤتمر من فوائد اقتصادية نتيجة الحركة التجارية الواسعة التي ستحدثها كثرة الوافدين إلى تونس.¹

كما تناولت الجريدة بشيء من التفصيل قضية المساعدات المقدمة إلى الشركة المدنية للمؤتمر، وتشكيل الهيئة الشرفية وموقف الحزب الحر الدستوري منها والرسائل التي بُعثت إلى الباي ورجال دولته الذين قبلوا بالعضوية فيها والتي تمّ التطرق إليها ضمن عناصر البحث السابقة.²

ثم واصلت الجريدة هذا المقال في عدد (220) الصادر ب 17 جمادى الأولى 1349هـ، فكتبت في أربع صفحات وضمن سبعة أعمدة عن الحركة الاحتجاجية التونسية ضدّ المؤتمر، فبعد التطرق إلى العرائض التي أرسلت إلى الباي ورجال دولته، قدّمت تحليلاً مفصّلاً للمظاهرات الطالبة في الأيام القليلة التي سبقت المؤتمر وموقف السلطات الاستعمارية منها.³

أمّا في العدد (221) الصادر ب 24 جمادى الأولى 1349هـ تحدّثت عن إخفاق المؤتمر الأفخارستي، ورأت بأنّ الحركة التجارية المزعومة من وراء هذا المؤتمر قد كبّدت التّجار المنخدعين بأباطيل الشركة المدنية والتي أعلنت عن قدوم حوالي ثلاثين ألف مؤتمر إلى تونس والذين لم يقدم منهم سوى سبعة آلاف خسائر مالية عظيمة إثر انتهاء المؤتمر، وذلك نتيجة الانخفاض الفجائي في أثمان المواد الصّرفية التي احتكروا منها كميات كبيرة قصد بيعها للوافدين.⁴

كما تناولت الحملة الصحفية التي نتجت عن المؤتمر، فقامت بنشر مقتطفات من أقوال الصحف على اختلاف نزعاتها ولغاتها في شأن المؤتمر وضمن عدة أعداد (221-222-

¹ الفتح، "ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي -1"، ع219، الخميس 10 جمادى الأولى 1349هـ، ص 3.

² الفتح، "ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي -1"، ع219، الخميس 10 جمادى الأولى 1349هـ، ص 14-15.

³ الفتح، "ظاهرة مريبة... -2"، ع220، س5، الخميس 17 جمادى الأولى 1349هـ، ص ص 12-15.

⁴ الفتح، "ظاهرة مريبة... -3"، ع221، س5، الخميس 24 جمادى الأولى 1349هـ، ص 11.

223-224-225-226) في 12 صفحة مقسمة إلى 24 عموداً، وذلك من أجل توضيح مختلف تفاصيله وتداعياته وكشف أهدافه وأبعاده.¹

وأشارت إلى محاكمة المساجين الذين تمّ القبض عليهم في المظاهرات المعادية للمؤتمر، وشرحت بإسهاب مسألة شيخ الإسلام والحملة الصحفية التي نشبت بين جريدتي (الزّهرة) و(النّهضة)، وذكرت أنّ منشأ هذه الحملة هو ادّعاء (النّهضة) أنّ شيخ الإسلام أحمد بيرم طلب بنفسه بواسطة موظف سام من إدارة الداخلية إلى أسقف قرطاج أن يرسم اسمه ضمن أعضاء الهيئة الشّرفية للمؤتمر، فنفّت (الزّهرة) وقوع هذا من شيخ الإسلام ورمّت (النّهضة) بالافتراء والتّضليل.²

فردّت جريدة (الفتح) على لسان مكتب الأخبار التّونسية عليها وقالت: "...الذي نعرفه نحن هو أنّ ثلاثة من الثّقات ذهبوا إلى أسقف قرطاجنة للمفاهمة معه في جعل حد للمظاهر التي أثارت الخواطر في تونس وكوّنت تلك المظاهرات، وانتقدوا عليه فيما انتقدوه وضعه اسم شيخ الإسلام ضمن أعضاء الهيئة الشّرفية للمؤتمر فانقضّ الأسقف لهذه الكلمة قائلاً: "أنا لم أكن أفكر في أمر شيخ الإسلام ولا خطر لي ببال وضع اسمه بين أسماء أعضاء اللّجنة الشّرفية ولكن ورد إليّ منه كتاب يلحّ عليّ فيه بوضع اسمه ضمن الأعضاء ويعاتبني على أنني لم أدعه في حفلة تذكّار الكاردينال لافيغري ويعرض عليّ قسماً من مساكنه ليخصّصه للوافدين من المؤتمرين، ولولا أنّي أخشى أن تزداد النّار اضطرّاراً لنشرت هذا المكتوب بنصه وصورته حتى يعرف النّاس قيمة ما نشرته (الزّهرة) على لسان هذا الرّجل، هذا ما رواه لنا أولئك الأنفار".³

ورأت (الفتح) أنّ ما يثبت صحة هذا الكلام هو عدم نشر شيخ الإسلام لبيان صريح منه في الموضوع واكتفاؤه بتكذيب (الزّهرة) عنه. وحتى عندما وقعت الحملة الصحفية بين

¹ الفتح، "ظاهرة مريبة... 3-4-5-6-7-8"، العدد 221/222/223/224/225/226، س5، الخميس 24 ج1-01 29/22/15/8/ جمادى الآخرة 1349هـ.

² الفتح، "ظاهرة مريبة... 9-"، ع 227، س5، الخميس 6 رجب 1349هـ، ص 14.

³ الفتح، "ظاهرة مريبة... 9-"، الخميس 6 رجب 1349هـ ص 14-15.

الجريدتين، وقيام الصحف المسيحية بنشر اسمه ضمن الهيئة الشرفية بقي صامتا وهو ما يؤكد فعلا موقفه.¹

وفي الأخير خُتم المنشور المدعوب "ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي" بالهدف الذي سعى إليه مكتب الأخبار التونسية من نشر هاته الحقائق أمام العالم الإسلامي، فقال: "...حتى يكون رجاله (العالم الإسلامي) على بينة مما يُراد بالإسلام في إفريقيا الإسلامية فيقومون له بواجب الدفاع المفروض عليهم بمالهم وما في طرقهم تقاديا من إعادة تلك الفاجعة العظيمة والمأساة المؤلمة: نكبة الإسلام في الأندلس، فقد أجهز على الإسلام في تلك البقاع واستصرخ المسلمون إخوانهم في مشارق الأرض ومغاربها فلم يجدوا منهم وليا ولا نصيرا... فالكنيسة الكاثوليكية صاحبة ديوان التفتيش ومذابح الأندلس وإثارة الحروب الصليبية ضد الإسلام، هي التي تمدّ يدها اليوم للإسلام في شمال إفريقيا تحاول تحويل أهله عنه وإحلال النصرانية بينهم بدلا منه، وقد جدّت وراء اكتساب يد الحكومة ومعونتها ووصلت إلى ما تريد.

وليس بيد المسلمين في هذه الأقطار من الحقوق العامة والحريات ما يكون لهم مناعة من هذا الخطر الداهم ويحولهم وسيلة من وسائل الدفاع، فالحكومة بضغطها على المسلمين واغتصابها لحقوقهم جلبت لهم الجهل والفقر والانحلال الاجتماعي والخلقي الذي هو نتيجة هذين العاملين الخبيثين، قد مهدت الطريق للكنيسة وأفسحت لها الميدان لمنازلة الإسلام الأعزل في عقر داره وإجلائه عنها وإرجاعها للنصرانية... والمسلمون في هذه الأقطار مهما بلغوا في الضعف والانحطاط والتحكم القهري من المحتلين فإنهم لا يزالون بحمد الله على استعداد للدفاع عن عقيدتهم والمحافظة على أرض سُقي ترابها بدماء أبطال الإسلام من أصحاب الرسول (صلّى الله عليه وسلم) وأتباعهم... وإنما أردنا إعلام المسلمين في أطراف الأرض بما يدبر للإسلام في جهة من جهاته حتى يقوموا بما عليهم من واجب الدفاع... وختمها بالآية الكريمة (ولينصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ).²

¹ نفسه، ص 15.

² الفتحة، "ظاهرة مريبة... -9"، الخميس 6 رجب 1349 هـ ص 15.

3-1-2-2- جريدة المنار:

لم تتطرق جريدة (المنار) لموضوع المؤتمر الأفخارستي إلا بشكل طفيف وحتى كتابتها عليه كانت بشكل غير مباشر، فمثلا نشرت رسالة للطلبة المغاربة في باريس جاء فيها: "استغربنا ممّا كتبته جريدة (الأهرام) في أحد أعدادها من تكذيبها ما تسعى إليه فرنسة من هدم الديانة الإسلامية في المغرب الأقصى، وحبّتها هي كون فرنسا الدولة اللادينية الوحيدة في أوربة وكأنّها تجهل كلمة قامبيتا "إنّ اللادينية بضاعة لا تصدر للخارج"، وكأنّه غاب على (الأهرام) ¹ أنّ فرنسا سمحت بعقد مؤتمر أفخارستي والذي ينظر في مسائل التبشير بأن يعقد في تونس واشتركت في المؤتمر رسميا يمثلها مندوبها السامي في تونس والذي حضر في جلسات ذلك المؤتمر ومنحت مليونين من الفرنكات من أموال المسلمين لأعضائه، وسمحت لأبناء المدارس الفرنسيين في تونس أن يتجولوا في الشوارع مرتدين ملابس الصليبيين !! فهل تستطيع (الأهرام) مع هذا أن تصف فرنسة بأنّها لا دينية ²

واكتفت (المنار) باتّهام مسلمي تونس بالنفاق لكونهم رضوا بمساعدة مؤتمر المبشرين، وأطلقت عليهم تسمية (المسلمين الجغرافيين) ومن حملة شارات الشرف الفرنسية. ³

وهذا التّجاهل من (المنار) دفع مصطفى بن شعبان وهو صحفي بجريدة (لسان الشعب) أن يكتب لمحمد رشيد رضا وينتقده على موقفه من المؤتمر: "... حضرة صاحب الفضيلة مولانا الإمام العلامة المصلح الكبير الأستاذ الجليل رشيد رضا صاحب المنار الإسلامي الزّاهر... أكاد استغرب سكوت المنار على المؤتمر الأفخارستي الذي انعقد بتونس. وكان جديرا بأمثال المنار أن يؤازر تونس المقهورة ويضمّ صوته إليها في الاستغاثة من الذين يسعون في تنصير تونس الإسلامية، ويؤازر أعمالهم الصّادرة من أعماق الكنيسة

¹ الأهرام: جريدة مصرية تأسست 25 ديسمبر 1875 من قبل اثنين من الأشقاء اللبنانيين بشارة وسليم نقلا، وصدر العدد الأول في 5 أوت 1875 في المنشية بالإسكندرية، وبدأت كصحيفة أسبوعية تصدر كل يوم سبت، وبعد شهرين تحوّلت إلى يومية، ونقل مقرها 1899 إلى القاهرة.

² المنار، "كيف تريد فرنسا القضاء على الإسلام في المغرب الأقصى" ج 3، م 31، ربيع الآخر 1349 هـ / 22 سبتمبر 1930م، ص 225-226.

³ المنار: ج 3، م 31، 22 سبتمبر 1930م، ص 214.

الفصل الثالث: وقائع المؤتمر الأفخارستي ونتائجه من خلال بعض الصحف والدوريات

رجال السياسة عندنا ورجال الدين أيضا، إذ هم قبلوا العضوية وكانوا مع الزّمان علينا بدل أن يصبحوا معنا، ولكن ابتلينا بهم ولا راد لقضاء الله...¹

وكان رد المنار عليه مختصرا في: "...وأما المؤتمر الأفخارستي فلم يُكتب لنا شيء في موضوعه إلا في هذا الشهر...".²

وعلى ما يبدو أنّ صاحب (المنار) كان على خلاف مع الشّيخ محمد الخضر حسين³ أدّى به إلى اتّهامه بعدم خدمة الإسلام والدّفاع عنه، وبالسّكوت عن أمور كثيرة والتي أوجب عليه بيانها، كعدم الكتابة في موضوع المؤتمر الأفخارستي في مجلتيه (نور الإسلام)⁴ و(الهداية الإسلامية)⁵، إذ قال: "...ولا أدري ماذا يريد الأستاذ رئيس التحرير (محمد الخضر حسين) من المكاره التي تمسّ الشّعوب الإسلامية، وأما جماهير المسلمين فيعلمون أنّ شرّ هذه المكاره وتصرفات الاعتداء وأفظعها، ما أصاب شعوب المغرب الإسلامية في دينهم وديناهم ولاسيما مؤتمر دعاة النّصرانية الملقّب بالأفخارستي في تونس وطن الأستاذ ذي الرّياستين، والقلم الجوّال في المجلّتين الإسلاميتين، الذي أسّس لتتصير المسلمين بالدّعاية والطّعن في الإسلام....، فإذا كانت رئاسة المعاهد الدّينية تمنعه من بيان هذه المكاره والنّوازل التي أصابت قومه ووطنه في مجلّة (نور الإسلام)، فما الذي منعه عن بيانها في مجلّة (الهداية) وهو يرى جميع المجلّات والجرائد والجمعيات الإسلامية تقيم النّكير على

¹ المنار: "تهنئة للمنار ونقد واقتراح من الأستاذ الفاضل وأحد دعاة الإصلاح بتونس -مصطفى بن شعبان"، ج 3، م 31، 22 سبتمبر 1930م، ص 226-227.

² نفسه، ص 227.

³ للنّظر في تفاصيل هذا الخلاف، ارجع إلى: علي الرضا الحسيني، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين -21-، المرجع السابق، ص 84-96. وجريدة المنار الأجزاء 4-5-6، مجلد 31، 1930/1931.

⁴ مجلة نور الإسلام: مجلة دينية علمية أخلاقية تاريخية حكمية تصدرها مشيخة الأزهر الشّريف أول كل شهر عربي، وهي تصدر منذ شهر محرم 1349هـ/1930، رئيس تحريرها السيّد محمد الخضر حسين إلى غاية 1935. أنظر: علي الرضا الحسيني، موسوعة الأعمال الكاملة للشّيخ محمد الخضر حسين، ج 1، المرجع السابق ص 31.

⁵ مجلة الهداية الإسلامية: صدر العدد الأول منها جمادى الثانية من عام 1347هـ بالقاهرة، صدر لها ثلاث وعشرين مجلدا، وتابعت صدورها ثلاث وعشرين سنة برئاسة الشّيخ محمد الخضر حسين، وهي النّاطقة باسم جمعية الهداية الإسلامية التي أنشأها الشّيخ الخضر مع جمهرة من كبار العلماء بالقاهرة في 13 رجب 1346هـ الموافق 6 كانون الثاني 1928م. أنظر: علي الرضا الحسيني، موسوعة الأعمال الكاملة للشّيخ محمد الخضر حسين، ج 18، ص 3-4.

دولة فرنسا وتثير عليها العالم الإسلامي، وأحرار العالم المدني، ولم يبق إلا مجلة (نور الإسلام) ومجلة (الهداية)¹ لم ينبض لأصحابهما عرق ولم يهيج لهما شعور ولا حس...².

3-2- الصّحف الدّولية الغربيّة:

3-2-1- الصّحف الإيطاليّة:

لقد أظهرت الصّحف الإيطاليّة استياءها من المؤتمر بشكل واضح، ويتجلى هذا من خلال المقالات التي نشرتها عشية المؤتمر، كالمقالة التي نشرتها صحيفة ستامبا (La Stampa) تصدر في مدينة تورينو الإيطالية - بتاريخ 8 ماي 1930، تحت عنوان "حوادث خطيرة بتونس على إثر وصول إثنين من الكرادلة الإيطاليين" حيث قالت: "إنّ الكرادلة الإيطاليين لم يحظوا باستقبال عظيم عند وصولهم إلى تونس يوم 7 ماي، ولم يُعطَ لهم أيّ اهتمام كما لم يحضر الأسقف لوماتر لاستقبالهم مبررا ذلك بمرافقة رسول البابا لزيارة برتوكوليه للباي، وحتىّ عندما أراد حشد من المواطنين الإيطاليين من الوصول إلى الرّصيف الذي يوجد به الكرادلة لاستقبالهم منعتهم الشرطة، وتمّ السّماح فقط للسلطات القنصلية والشّخصيات البارزة جدا والمختارة بعناية، ولعلّ هذا راجع لتخوّف الفرنسيين من التّجمع الكبير للإيطاليين وقيامهم بمظاهرة كبيرة لصالح وطنهم، كما تعرّض نائب القنصل الإيطالي للضّرب بوحشية من طرف جندي بعقب بندقيّة، وحتىّ جمعية الساليزيان (Salésiens) وهارموني بيوس العاشر (10 Harmonie Pie)، واللّتين كانتا تستعدان منذ أيام لإحياء الاحتفالية بوصول الكرادلة، ومرافقة الموكب إلى أصول شوارع المدينة تمّ مقاطعتهما دون

¹ للتّويه فقد تمّ الإشارة إلى المؤتمر الأفخارستي بشكل مختصر وطفيف وبالتركيز على سياسة فرنسا العنصرية بتونس في مذكرة الإمام محمد الخضر الحسين بصفته رئيس رابطة الدّفاع عن إفريقيا الشّمالية إلى دول العالم، والتي نشرتها مجلة الهداية الإسلامية تحت عنوان "تونس"، في المجلد 17، سنة 1364هـ. أنظر: علي الرّضا الحسيني، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين -20-، المرجع السابق، ص 177-178.

² المنار، "بقية رد المنار على مقال رئيس تحرير مجلة نور الإسلام في الدّفاع عن نفسه وعنّها"، ج6، م31، 30 شعبان 1349هـ/19 جانفي 1931م، ص 476.

رحمة، إذ سمح لهما بأداء قطعة أو قطعتين، ثم أجبرهما رجال الدرك عن الانسحاب والتخلي عن مرافقة الموكب.¹

فالإيطاليون إذن عبّروا في صحفهم عن استيائهم من الاستقبال غير المناسب للكرادلة الإيطاليين في المؤتمر، إذ لم يحضر لاستقبالهم الرئيس الإفريقي المونسيور لوماتر أو أي عضو من أعضاء اللجنة الدولية للمؤتمر، وطلبت كلّ من الصحفيتين (Lavoro Fascista) و(Giornale d'Italia) إعطاء الأحداث التي وقعت للإيطاليين في المؤتمر أهمية خاصة ومحاولة إيجاد أسبابها، وردّت الصحفيتين الأمر إلى استياء الفرنسيين من حمل سفينة (Citta di Napoli) والتي تمّ استئجارها من قبل الكرسي الرسولي لنقل المبعوث البابوي ليغات ليبيسية العلمين البابوي والإيطالي، والتي كانت من المفروض بالنسبة للفرنسيين أن تحمل العلم البابوي فقط أو معه العلم الفرنسي والذي يمثل جنسية الرسول البابوي، واعتبروا وجود العلم الإيطالي دخولا غير مقبول دبلوماسيا للمؤتمر.²

وعليه فإنّ الصحف الإيطالية قامت بالترويج لعدم الثقة وسوء الفهم والنزاعات بين الشعبين في تونس لأسباب سياسية أو اقتصادية أو معنوية.³

وعلى عكس ذلك نجد الصحف الإيطالية بتونس كصحيفة (Voce Nuova) والتي أرادت تصحيح الوضع، فكتبت في 18 ماي "...إنّ كلّ من شاهد أحداث المؤتمر سيعرف أنّه لم تقع حادثة من التي وصفها المراسلون من بعض الصحف الإيطالية...كيف تخلق سوء التفاهم والارتباك والاختلاف بين شعبين..."، وقالت الصحيفة بأنّ كل ما نشرته الصحف الإيطالية يعتبر من الأكاذيب والمغالطات والأخبار المغرضة، وأنّ الأساقفة الإيطاليين الذين حضروا المؤتمر وانطلاقا من تقارير صحيفة (L'Unione) الفاشية الإيطالية

¹ L'Afrique française ,Juin 1930 ,Op. cit ,p 35 .4

² Le Temps ,Samedi 10 mai 1930 ,Soixante-dixieme année ,N°25098. Et -Journal des débats, année 142 ,N°129 jeudi 8 mai 1930

³ L'Afrique française ,Juin 1930 ,Op. cit ,p 35 .4

بتونس والتي عرضت مظاهر نشاط كبار الشخصيات الدينية الإيطالية أثناء إقامتهم بتونس، أنهم بذلوا قصارى جهدهم لتنفيذ جميع الأعمال الإيطالية والفاشية الموكلة لهم.¹

ونشرت صحيفة (L'Unione) مقال في 14 ماي 1930 لتوديع رجال الدين الإيطاليين ورد فيه: "...يغادر الطلاب الإيطاليون تونس في المساء...معهم يذهب جزء من روحنا إلى إيطاليا، أرض مجدنا....لقد قدّموا هذه الأيام للأجانب المهّدين في عقيدتهم وفي لغتهم الإيطالية من خلال قدرات خفية راحة لا تقدر بثمن..."، كما تحدّثت عن دور الأب سميريا (Semeria) أثناء تواجده بتونس، ودور روما في ازدهار الأرض التونسية "...في هذه الأرض حيث انتصرت روما على أعدائها، على هذه الأرض حيث الشّهداء والقديسين، وأطباء الكنيسة المستنيرين....جدّد أحفاد هؤلاء الرّومان المسيحيين من أجلكم (يقصد البابا بيوس 11، وبنيتو موسوليني) ميثاق الإخلاص والذي لم يعد يلتزم اليوم وأكثر من أي وقت مضى بالسلطات المنفصلة، ولكن لروما واحدة عظيمة تمّ تجديدها... لن نتعمّق في دحض الاتهامات التي قرأناها للتوّ، سيكون مضيعة للوقت..."².

3-2-2- البولندية:

لقد أولت الصحف البولندية اهتماما كبيرا بالمؤتمر، وبدأت في الدعاية له من شهر فيفري، إذ كتبت صحيفة (Dziennik Bydgoski) يوم الثلاثاء 18 فيفري 1930 عنوان موسوم بـ "الحج البولندي إلى المؤتمر الأفخارستي بقرطاج" وقدّمت فيه معلومات حول تاريخ انعقاده، وتحديد موعد الانطلاق للحجاج البولنديين والذي سيكون يوم 26 أفريل من كاتوفيتشي، أمّا العودة فتكون يوم 17 ماي، وذكرت بأنّه من أراد المشاركة في رحلات إلى ساحل إفريقيا إلى قسنطينة وعنابة (بون) والجزائر فإنّ ذلك سيكون مقابل أجر منفصل، وحدّدت تكلفة الاشتراك وهي مقدرة بـ 1600 زلّوتي، ويتم إرسالها بحلول أول مارس على

¹ L'Afrique française ,Juin 1930 ,Op. cit,p 35 .4

² Ibid ,p 35 .4

أبعد تقدير، 1000 زلوتي بولندي لبنك اتحاد الشركات التجارية في بوزنان لحساب الحج إلى قرطاج، والباقي يدفع في موعد أقصاه 1 أفريل من نفس العام.¹

أما صحيفة (Niedziela) فقد كتبت مقالا في 16 فيفري 1930 تحت عنوان "قبل المؤتمر الأفخارستي بقرطاج" وخصّصته للتعريف بالقدّيس قبريانوس (Cyprian) الأسقف القرطاجي بادية بمقولته الشهيرة والتي كتبها في منتصف القرن الثالث "كم هي سعيدة وفخورة كنيسةنا بنعمة الله عليها لدرجة أنّها تتشرف في عصرنا بتاج الشّهداء"، وفي آخره قدمت دعوة للحجاج البولنديين لإحياء ذكراه في مؤتمر قرطاج.²

كما كتبت (Dziennik Bydgoski) أيضا في 22 ماي 1930 قرارات القسم البولندي في المؤتمر الأفخارستي والتي كلّها تدور حول أهمية الأفخارستيا في توحيد جميع النّاس في محبة الله، ومحبتهم المتبادلة كأعضاء في الكنيسة الكاثوليكية.³

وقد تناولت كذلك (Tygodnik Polski) وهي الجريدة البولندية الوحيدة التي تصدر في آسيا بالصّين كلمة الأب بولاسكي سفير جمهورية بولندا إلى مؤتمر قرطاج، والتي تحدّث فيها عن الأهمية الدّينية للمؤتمرات الأفخارستية واعتبرها انتصارا للكاثوليكية، وقال بأنّ هاته العبادة العابرة للحدود هي رابطة وصل بين الرّب والبشرية جمعاء، كما ذكر أهميتها غير الدّينية وقال: "إنّ التّطور والتّقدم غير المتكافئ بين التّقافة المادية والتّقافة الروحية في الوقت الحاضر أدّى إلى اختلال التّوازن في العالم وفي جميع مجالات الحياة الاجتماعية والسّياسية وحتى الاقتصادية"، وذكر: "... في الوقت الذي تسعى فيه البشرية إلى تحقيق مكاسب مادية فإنّه تقابلها مخاطر كبيرة وتصبح على حافة الهاوية ويصبح تواجهها في موقف خطر، وتبدأ في البحث عن نقطة ارتكاز لاستعادة توازنها، في مثل هذه اللّحظة التّاريخية تصبح المؤتمرات الأفخارستية والتي هي اجتماع الآلاف من النّاس دون أنانية ودون مصالح مادية

¹ Dziennik Bydgoski, «Pielgrzymka polska na kongres Eucharystyczny w Kartaginie. », N°40, Rok 24, wtorek dnia 18 lutego 1930.

² Niedziela, « Przed Kongresem Eucharystycznym w kartaginie. », N°7, Katowice, dnia 16 go lute go 1930.

³ Dziennik Bydgoski, « Rezolucje sekcji polskiej na kongres Eucharystycznym w Kartaginie », N°118, Rok 24, Czwartek dnia 22 maja 1930.

حدثا هاما حتى في الحياة غير الدينية. ويصبح الدين جزيرة خلاص في بحر العواصف البشرية....، حيث عندما يصبح الانسان غير قادر على العيش في حياة اجتماعية فاسدة، وفي اضطراب سياسي وفوضى اقتصادية سوف يأتي شفاء الانسان بالروح.. إلى مصدر السعادة أي اللجوء إلى الله..."، وبالتالي فإنه يرى عدم القدرة على العيش بدون دين، وقال: "... حتى الحكومات التي تتكوّن من أشخاص بعيدين عن الإيمان لا تقدّم للمؤتمرات الأفخارستية ضيافة ودّية فحسب بل تُظهر لها كلّ المساعدات، فهي بذلك تستجيب وبغير وعي لضمير خامد بالعبودية، أو تعترف بخجل أنّه لا يمكن العيش بدون الله، فبدون الله فإنّ كل المساعي المادية لا تكاد تذكر...". وأضاف: "... إلى جانب الدين فإنّ للمؤتمرات الأفخارستية أهمية في مجال الحياة الاجتماعية وفي العلاقات الدولية إذ تعمل على إصلاح ما دمرته الحرب وتُهيّئ الظروف التي تقضي إلى فكرة السّلام العالمي والجهود المشتركة للأمم في مجال التّقدم والعمل. فهي لقاء ديني للسّلام".¹

كما كتبت كذلك مجلة أخبار أبرشية لوبلين في جوان 1930 مقالا عن المؤتمر القرطاجي تناول دوافع عقد المؤتمر في القارة الإفريقية، وركّزت فيه على تكريم القديس أوغسطين وشهداء المسيحية.²

3-2-3 - السويسرية:

لقد أولت الصحف السويسرية اهتماما كبيرا بالمؤتمر الأفخارستي بقرطاج ومن بين هذه الصحف نذكر الصحيفة الدينية لمدينة فاليه (La Patrie Valaisanne)³ والتي كانت السبّاقة في إعلان مكان وموعد المؤتمر الأفخارستي الثلاثين في عددها الصادر بتاريخ 29 ديسمبر 1927⁴، وتناولت الموضوع كذلك في عدّة أعداد أخرى كالعدد الصادر بتاريخ 7 نوفمبر

¹ Tygodnik Polski, « Przemowienie ambasadora Rzeczypospolitej Polskiej min. Fr. Fulaskiego na kongres Eucharystycznym w Kartaginie w dn. 8 maja r. b. », N°419, 25 maja 1930.

² Wiadomosci Diecezjalne Lubelskie, « Breve Apostolskle na kongres Eucharystyczny w Kartaginie. », N°6, Rok 12, Czerwiec 1930 r.

³ جريدة كاثوليكية تصدر من مدينة فاليه السويسرية أيام الثلاثاء والخميس والسّبت.

⁴ La Patrie Valaisanne, « Le Congrès eucharistique du 1930 », première année, N°11, Jeudi 29 décembre 1927.

1929 والتي تناولت دوافع اختيار مدينة قرطاج وذكرت بأنه في كل إفريقيا لا توجد مدينة مقدّسة وأكثر ثراء في الذكريات من قرطاج وقدّمت أهم القديسين والشهداء المسيحيين فيها وقالت بأنهم سفكوا دماءهم من أجل المسيح، وأخيرا تمّ زرع الصليب مرة أخرى من قبل الكاردينال لافيغري وأبنائه وبناته الرّوحيين وسرعان ما تبعهم رسل شجعان آخرون.¹

أمّا في العدد الصّادر بتاريخ 29 أبريل 1930 تحدّثت عن تنقل العديد من الشّخصيات الدّينية الهامة كرئيس أساقفة باريس إلى قرطاج²، بينما تناولت بتاريخ 10 ماي 1930 حفل الافتتاح وقدّمت أهم الشّخصيات الحاضرة، وبعدها تحدّثت عن زيارة المندوب البابوي للباي والذي قدّم له ولفيردييه وسام الشّرف.³ وفي عدد 13 ماي 1930 تعرّضت بإيجاز لأهم فعاليات المؤتمر.⁴

وكذلك جريدة⁵ (Nouvelliste valaisan) الناطقة بالفرنسية والتي قامت بالإعلان عن انعقاد مؤتمر قرطاج بتاريخ 29 ديسمبر 1927⁶ وبعدها نشرت في 13 ديسمبر 1928 محادثة مبعوثها المرسل بتاريخ التاسع من شهر ديسمبر من روما، ومفادها أنّ هيلين أسقف نامور ورئيس اللّجنة الدائمة للمؤتمرات الأفخارستية وأثناء زيارته إلى روما والتي دامت ثمانية أيام، وذلك من أجل تقديم المشاريع النّسبية للمؤتمر القادم للحبر السيادي صرّح بأنّ البابا هنّاه كثيرا على النّجاح الباهر الذي حققه مؤتمر سيدني، كما أثنى على الاستقبال الرّائع والتّرحيب الكبير الذي حظي به المؤتمر من قبل السّكان الأستراليين البروتستانت، ثم أبلغه بأنّ المؤتمر القادم سيكون في قرطاج وذلك لأنّه يتناسب مع الذّكرى المئوية الخامسة عشرة لوفاة القديس أوغسطين، وأنّ محور الخطابات والدراسات في هذا المؤتمر سيكون حول إحياء أمجاد مسيحيّ إفريقيا، وأعمال القديس أوغسطين. وقال له بأنّ اجتماع قرطاج سيكون

¹ La P. V. , deuxième année, N°143 ,Jeudi 7 novembre 1929, « Le C. e. i de C. »,

² La P. V. , troisième année, N°57 , mardi 29 avril 1930, « Au Le C. E. de C. ».

³ La P. V. , troisième année, N°62, samedi 10 mai 1930, « Au Le C. E. de C. ».

⁴ La P. V. , troisième année , N°63 ,mardi 13 mai 1930 , « Au Le C. E. de C. ».

⁵ وهي جريدة سويسرية ناطقة بالفرنسية تصدر أيام الثلاثاء والخميس والسّبت منذ تأسيسها 1903، ثم أصبحت صحيفة يومية من عام 1929.

⁶ Nouvelliste valaisan , année 24 , N°150 , jeudi 29 décembre 1927.

الأول في إفريقيا، فبعد أن أقيم في أجزاء عديدة من العالم، وبعد مؤتمري شيكاغو وسيدني سيكون مؤتمر قرطاج أقرب وأكثر سهولة بالنسبة لكاثوليك أوروبا، كما أعلمه بأن اللجنة الدائمة والسلطة المحلية بدأت عملها في التحضير للمؤتمر وبإشراف المطران لوماتر أسقف قرطاج، الذي يود أن يرى عددا كبيرا من أساقفة وكهنة ومؤمني أوروبا في هذا المؤتمر الذي بالنسبة له أي لوماتر لن يكون في ضخامة مؤتمري شيكاغو وسيدني، وأنه لا يطمح في الأعداد الهائلة مثل المؤتمرين السابقين، إنما يأمل في حضور ثلاثين ألف شخص فقط، وأن المشكلة الأكثر خطرا والتي تواجه المنظمين لهذا المؤتمر هي السكن وإيواء المؤتمرين.¹

كما قدّمت نفس الصحيفة موضوع معارضة اليسار الفرنسي للدعم الرسمي لهذه التظاهرة الدينية، وسخرت من الذين يعارضون المؤتمر ووضعت مقالا تحت عنوان "المحافل تعارض المؤتمر الذي تحميه الحكومة الفرنسية" والذي بدّأته بـ "...ينبغي تهنئة الحكومة على القرار الذي اتخذته، وبصرف النظر عن أي مخاوف طائفية يمنح إعانة لمنظمي المؤتمر بمرسوم بايلي، مثل هذا القرار يحظى بموافقة جميع أولئك الذين يرون أن المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات..."، وتناولت فيه موقف الماسونيين المعارض للمؤتمر وكذلك السيد جامارد رئيس رابطة حقوق الانسان وفرانسوا ألبرت ووصفتهم بالمعوزين والفقراء، وادوارد هيريو الذي كان وزيرا للخارجية، والذي صرّح بقوله: "...قامبيطا كان مخطئا عندما قال للكاردينال لافيغري مناهضة رجال الدين ليست بضاعة للتصدير، فمثل هذه العبارة تجعل الكارتل اليوم يعبر البحر الأبيض المتوسط...".²

كما ردّت على هيريو الذي قال بأنه لا يكفي منح الكاثوليك للبابا هاتف معدني ثمين تمّ إعطاؤه كذلك وسام شرف من تونس مقابل موافقته على عقد المؤتمر بها بقوله "...لقد جعل من الممكن فقط قياس الابتذال الذي تطوّره السياسة الاشتراكية في رجل عالم، واللطيف أن

¹ N. V. , Année 25 ,N°145 ,Jeudi 13 décembre 1928, « Le prochain C. e. international-Mgr Heylen, président du comité permanent nous parle du Congrès qui se réunira à Carthage en 1930. », Gardin ,p 1.

² N. V. ,,année 27 ,N°94 ,mardi 22 avril 1930.

السيد هيريو كان للأسف وزير الشؤون الخارجية، كان من الممكن أن يعلم أن البابا يمنح الأوسمة لكنه لا يحصل على أيّ منها... إن هيريو سيء حقاً.¹

ونجد كذلك جريدة² (L'Echo de sierre) والتي كتبت وفي عدّة أعداد لها عن المؤتمر، فنشرت في عددها الصادر بتاريخ (19 جانفي 1930) مقال بعنوان "المؤتمر الأفخارستي القادم"، وقدّمت فيه الموضوع الأساسي للمؤتمر ودوافع اختيار تونس لعقد هذا المؤتمر، وبعدها عرّفت مدينة تونس لأنّ فيها العديد من الكنائس والقاعات المتاحة الضرورية والتي ستقام فيها بعض الاحتفالات، وذكرت أنّ فيها 180 ألف نسمة من السّكان، وأنّ لديها ما يكفي من الكفاف للمشاركين في المؤتمر وعلاوة على ذلك سيتم إنشاء أكشاك لتوفير المؤن على طول الطريق الرّابط بين تونس وقرطاج، وكذلك في ميناء تونس للذين لم يتمكّنوا من النّزول إلى الفنادق والنّزل، وقالت: "إنّ الاستعدادات الفعلية للمؤتمر قد بدأت، وأنّ الفرق المدنية عرضت مساعدتها، وحتى باي تونس والذي يمارس سيادته تحت الحماية الفرنسية وعلى الرّغم من أنّه محمّدي أعرب عن رضاه عن مكان انعقاد المؤتمر، ويمكننا أن نلاحظ في هذا الصّد أنّ المدارس الكاثوليكية التّونسية تحظى بتقدير كبير في الأوساط المحمّدية حتّى أن بعض العائلات البارزة ترسل أطفالها إلى هناك".³

أمّا في عددها الصادر بتاريخ 23 أفريل 1930 فذكرت بعض التّقديرات للحضور في المؤتمر وذكرت أنّه من المنتظر أن يتواجد عشرة كرادلة ونحو أكثر من مائة أسقف وأنّه تمّ تخصيص لجنة لإقامة الكرادلة ورؤساء الأساقفة والأساقفة، وقالت بأنّ الكاثوليك اعتبروا فتح منازلهم لإقامة كبار الشّخصيات في الكنيسة لشرف كبير والجدير بالذّكر أنّ العديد من غير الكاثوليك قد نالوا هذا الشّرف.⁴

¹ N. V. ,année 27 ,N°94 ,mardi 22 avril 1930.

² وهي جريدة سياسية دينية اجتماعية تصدر من مدينة فالبييه السويسرية يومي السبت والأربعاء.

³ L'Echo de sierre, cinquième année,N°5, samedi 19 janvier 1930, « Le prochain c. e. international », cinquième année,N°5, samedi 19 janvier 1930.

⁴ L'Echo de sierre, sixième année,N°33, mercredi 23 avril 1930, « Le C. e. de C ».

كما تحدّثت الصحيفة الصّادرة بتاريخ 7 ماي 1930 عن وصول العديد من الشّخصيات الكنسية الفرنسية إلى قرطاج.¹ وفي عددها ليوم 14 ماي 1930 عن القّداس البابوي الختامي والذي أحدث جولة على أنقاض كنيسة القديس قبريانوس وشهد حضور حشد غفير أكثر من قبل، وتحدّثت عن الكاردينال لبيسييه الذي قدّم فيه الشّكر باسم البابا للشّعب التّونسي الذي ضمنت حماسته نجاح المؤتمر، كما منح البركة البابوية للجمهور، وبعدها تعرّض للمسيرة الختامية للمؤتمر.²

ونجد كذلك صحيفة (La liberté)³، والتي كتبت حول المؤتمر الأفخارستي بقرطاج منذ 31 أوت 1929 في مقالين الأول تحدّث فيه عن قداسة قرطاج بحيث اعتبرت أرض قرطاج مقدّسة لقداسة الآثار المسيحية الممزوجة بترابها وذكرت فيه: "...لأول مرة في قلب الإسلام سيتم تمجيد إله الأفخارستيا ظاهريا إنّهُ لامتياز لها لاستقبال مثل هذا الحدث..." ثمّ تساءلت: "...لكن هل يمكن اعتبار مدينة الذّكريات مركزا إسلاميا؟ أليست هي بالأحرى أول مدينة مسيحية لكن غمرها الطوفان الإسلامي بالكامل... لقد حصل الغازي باستخدام القوّة والذي ربما لم يكن لينجح في الحصول عليه عن طريق الإقناع... في المائة العام الماضية استحوذت الكنيسة شيئا فشيئا على تلك المناطق... لكن لايزال الغزو متواضعا للغاية... في الجزائر وفي تونس وفي المغرب انتشرت الكنائس في كل مكان إلا أنّها غير فعّالة...".⁴

أمّا المقال الثاني الذي نشرته الجريدة في نفس العدد والذي كتبه جوزيف بوبي (Joseph Boubée) حول تاريخ مدينة قرطاج والتّعريف بها والاستعدادات للمؤتمر وختمه بتقديم دعوة لحضور المؤتمر والذي يتمنّى أن يكون العدد كبير حتى "يثير مشهد إيمان المسيحيين شعور المسلمين ومن أجل أن تزدهر المسيحية مرة أخرى على أنقاض الماضي المجيد".⁵

¹ L'Echo de sierre, sixième année, N°37, mercredi 7 mai 1930, «pour Le c. e. ».

² L'Echo de sierre, sixième année, N°39, mercredi 14 mai 1930, «Le c. de C. ».

³ جريدة سياسية دينية واجتماعية تصدر بمدينة فريبورغ السويسرية.

⁴ La Liberté, année 59°, N°203, samedi 31 aout 1929. « Le prochain c. e. », Georges Favre.

⁵ La Liberté, samedi 31 aout 1929, « Ce qu'on voit à Carthage », Joseph Boubée.

وتحدّثت في عددها الصادر بتاريخ 13 نوفمبر 1929 عن وضع الخطّة العامة وجدول أعمال وبرنامج المؤتمر من طرف رئيس أساقفة قرطاج واللجنة الدولية الدائمة برئاسة أسقف نامور¹، وفي تاريخ 14 أبريل 1930 أعلنت عن اختيار لبيسييه لتمثيل البابا في المؤتمر²، أمّا في 18 أبريل فنشرت مقال بعنوان "الاشتراكيون الفرنسيون والمؤتمر الأفخارستي" تناولت فيه موقف جامارد والذي تساءل في الغرفة الفرنسية يوم الخميس 17 أبريل حول مشاركة الحكومة في تنظيم المؤتمر الأفخارستي بقرطاج وقالت أنّه كان يود تنظيمه في الأراضي اللاتينية بدلا من الدّول الإسلامية، وردّ بريان عليه وهو: "أنّ مؤتمرات مماثلة عقدت في أمريكا وأستراليا، وأنّ فرنسا لا يمكنها أن تظلّ غير مبالية بوصول 50 ألف زائر إلى تونس، وأنّه من المستحسن اتّخاذ تدابير لعقد المؤتمر في ظروف مقبولة".³

كما تناولت الجريدة جّل تفاصيل المؤتمر في عدة أعداد في شهر ماي وختمتها بمقال مطّول يوم 19 ماي 1930 بعنوان "انطباعات عن قرطاج"، وتحدّث هذا المقال عن اختيار قرطاج لعقد المؤتمر الأفخارستي: "...بعد أوروبا وآسيا وأمريكا وأستراليا، كان الانتصار الأفخارستي مرغوبا فيه أيضا على الأرض الإفريقية، حيث شهدنا ازدهارا في الأيام الأولى للكنيسة... وهكذا تمّ منح قرطاج القديمة بعد انعاشها شرف العمل كمقر للمؤتمر القرباني الدّولي الثّلاثين، الذي جلب إلى الأرض الأوغسطينية أكثر من خمسين ألف حاج من جميع أنحاء العالم... جاؤوا للاحتفال بالقدّاس في الأماكن المقدّسة في شمال إفريقيا... على هذه الشّواطئ نفسها التي شهدت قبل قرون وصول الصّليبي سان لويس.. جاؤوا لإعلان سيادة المسيح الملك...".⁴

كما تحدّث المقال عن مجريات المؤتمر بدءا من وصول المندوب البابوي، والافتتاح الرّسمي للمؤتمر في السّابع ماي أمام كاتدرائية تونس، والذي قال عنه: "...حضره العديد من السّكان الأصليين الذين تعاطفوا مع مختلف مظاهر المؤتمر، كما أنّ باي تونس كان هو

¹ La Liberté , année 59°, N°265 ,mercredi 13 novembre 1929, « le C. E. de C. ».

² La Liberté , année 60°, N°87 , lundi 14 avril 1930, « Au c. E. de C. ».

³ La Liberté , année 60°, N°91, vendredi 18 avril 1930, « Les socialistes Français et le c. e. de C. ».

⁴ La Liberté , année 60°, N°116 ,lundi 19 mai 1930, « Impressions de Carthage ».

نفسه الرئيس الفخري للمؤتمر إنّه استقبل ببراعة الكاردينال ليغات وكبار الشخصيات الكنسية الأخرى، وبعد كلمات الترحيب من المطران لوماتر رئيس أساقفة قرطاج ورئيس إفريقيا ثمّ تحية الأسقف هيلين رئيس اللجنة الدائمة للمؤتمرات الأفخارستية، ألقى الكاردينال المندوب خطاباً رائعاً حول الأهمية الدينية لأعياد قرطاج، وفي اليوم التالي كان الانتصار الحقيقي للقربان المقدّس بقرطاج...¹.

فالمقال أراد إبراز القبول والاستحسان الذي وجده المؤتمر من قبل أهالي تونس وزعمائها وذلك لإضفاء الشرعية لعقد مؤتمر مسيحي في دولة إسلامية من ناحية، ومن ناحية أخرى توضيح مدى تفوّق وعظمة وقداسة الدّين المسيحي ورجاله واستصغار وتقزيم للمسلمين، وما التمسّته من خلال القراءة لهذا المقال وجود نبرة الاستعلاء والانتصار للنصرانية، إذ شبّه المؤتمر بالحرب الصّليبية لسان لويس والحجّاج الذين جاؤوا للمؤتمر وكأنّهم جند لهذه الحرب، فتكلّم بلغة المنتصر لدينه، ورأى بأنّ السّيادة على هاته الأرض ستكون للمسيحية.

ونجد كذلك صحيفة ²(Le Jura) والتي تحدّثت عن المؤتمر في عدة أعداد نذكر منها ما ورد في تاريخ 3 ماي 1930 عن عدد الحجّاج و المقدّر ب 15 ألف نصفهم فرنسيين، وذكرت بأنّ هذه التّظاهرة أخذت طابعاً فرنسياً لدرجة أنّ المسلمين والاسرائيليين والكاثوليك والمفكرين الأحرار أوصوا بأنفسهم من فرنسا، وقد انظموا وتظاهروا مع الكاثوليك لتسخير السّنة أو السّبعة ملايين لاستقبال المؤتمر، وبعدها قدّمت شرحاً مفصلاً عن ذكريات القديس أوغسطين والشّهداء المسيحيين في سنتي 203م و258م.³

أمّا في عددها الصّادر بتاريخ 8 ماي تحدّثت عن التّحضيرات للمؤتمر واستعرضت برنامجه باختصار ⁴، وفي تاريخ 10 ماي وصفت حفل الافتتاح وذكرت تعداد الحجّاج الذين حضروا للمؤتمر، كما قدّمت أهمّ الشخصيات الكنسية الحاضرة وتحدّثت عن المناولة العامة

¹ La Liberté ,lundi 19 mai 1930 ,op. cit.

² صحيفة تجارية وصناعية وزراعية تصدر أيام السبت والثلاثاء والخميس بمدينة بورينترى (Porrentruy) السويسرية.

³ Le Jura ,année 80 ,N°53 ,samedi 3 mai 1930.

⁴ Le Jura ,année 80 ,N°55 ,jeudi 8 mai 1930.

للأطفال بملعب بلفيدير، وختمت حديثها بتقديم باي تونس وسامي افتخار لكل من المندوب البابوي والكاردينال فيردييه.¹

3-2-4- الصحف البلجيكية:

نذكر المجلة الدينية الصادرة ببروكسل (La revue catholique des idées et des faits) والتي نشرت مقالتين بخصوص المؤتمر الأفخارستي بقرطاج سنة 1930، وأشارت إليه كذلك في مقال آخر سنة 1931، أمّا عن المقال الأول والصادر بتاريخ الثاني من ماي 1930 أي قبل انعقاد المؤتمر، فقدّم وصفا جغرافيا دقيقا لقرطاج في تلك الفترة، ثمّ بدأ في الحديث عن تاريخ قرطاج عبر العصور، بدءا بالعصر الفينيقي ودور قرطاج في حوض البحر المتوسط، وموقعها الاستراتيجي شمال القارة الإفريقية والذي أكسبها دور الوساطة بين الفينيقيين في الشرق وجنوب القارة الإفريقية، كما عرض آثار الفينيقيين في قرطاج.

وبعدها تطرّق إلى الحروب البونية ودمار قرطاج على يد جنود سكيبيون (Scipion)، والتي نشأت على أعقابها المدينة الرومانية أين ازدهرت المسيحية، وما يشهد على ازدهارها وحيويتها كتابات قبريانوس (Cyprien)، وأوغسطين (Augustin)، وترتليان (Tertullien) وكثيرين آخرين.²

وذكر أنّه بعد ازدهار المسيحية ولعدة قرون على هاته الأرض كان التّعاقب المأساوي للمدّ الوندالي من الغرب، والمد الإسلامي من الشرق، وأنّ مدينة قرطاج الإسلامية ومساجدها قد بنيت بحجارة مأخوذة من أنقاض قرطاج، ومزينة بالرّخام والسّماقي التي نجت من التّلف ونهب الغزاة.³

¹ Le Jura ,année 80 ,N°56 ,samedi 10 mai 1930.

² La revue catholique des idées et des faits , année 10,N°5 et N°6 ,Vendredi 2 mai 1930 « Carthage », Gonzague Ryckmans ,p 13.

³ La r. c. i. f. , Vendredi 2 mai 1930 , Op. cit ,p 13.

واعتبر حملة سان لويس على تونس بداية عصر جديد، وأنه قد تم إنشاء كنيسة صغيرة بربوة بيرسا تخليدا لذكرى الطّاعون الذي قضى على الجيش وموت الملك، وقال أنّه بعد هذه الحملة ساد الصّمت، وغفوت قرطاج في نوم الموت.¹

ثمّ عادت الرّوح إليها من جديد في القرن التّاسع عشر عند قدوم الكاردينال لافيغري، هذا الأخير الذي استحوذت على نظرتة إفريقيا بأكملها من أجل تحريرها تحت علامة الصّليب، بحيث قام بإنشاء المبنى الرّئيسي بتل بيرسا والذي به دير للدراسات اللاهوتية أين يدرّب الآباء البيض على كيفية أداء رسالتهم عند اتّصالهم بالعرب، ومتحف لعرض القطع الأثرية والذي يوجد به نقش يحمل كلمات البابا سان ليون التّاسع والتي كُتبت سنة 1054م عن ديمومة سيادة قرطاج على كافة مقاعد إفريقيا. وعند ترميم المدينة القديمة أكّد البابا ليون الثالث عشر هذا الامتياز والمكسب لقرطاج.²

ثم تحدّث عن الكاردينال لافيغري وسياسته التّبشيرية والتي تدعو إلى طمأنة المسلمين ومحاولة كسبهم، وأنّه كان مولعا بالأسلوب المغربي والذي أغدقه على قرطاج وهييون القديمة والجزائر العاصمة.³

ثم قال بأنّ المرء يشعر بالندم عند دخول كنائس قرطاج لأنّها تذكره بأعداد الأوبرا والبازيليك الرائعة التي تُداس أطلالها. وذكر بأنّ الفضل لاكتشاف هذا الموقع الأثري والذي سيعقد فيه القربان المقدّس يرجع للأب ديلاتر الذي استطاع التّقيب وكشف سبعة عشر بازيليك يعود تاريخها إلى عصر المدينة القديمة، ثمّ أسهب في وصف أعمال ديلاتر والكنائس التي ستستضيف الحدث.⁴

¹ La r. c. i. f. , Vendredi 2 mai 1930 , Op. cit ,p 13, p 13.

² Ibid,p 13. .

³ Ibid, p 13.

⁴ Ibid ,p 14.

وختم المقال على اعتبار أنّ عقد المؤتمر الأفخارستي سوف يجعل قرطاج تستيقظ من سباتها، وتمنّى بأن تكون هذه اليقظة أو الصّحة ضمانة القيامة المجيدة لإعادة النّهضة المسيحية بإفريقيا وإحياء مجد العصور القديمة.¹

أمّا المقال الثانية والتي خُصّصت للمؤتمر فقد نشرت بتاريخ 23 ماي 1930 تحت عنوان: « Au 30 congrès eucharistique international » وتناولت المؤتمر من زوايا متعدّدة، كان أولها حول مقارنة المؤتمر الأفخارستي ببقية المؤتمرات التي سبقته، والجديد الذي أضافه، فقال صاحب المقال: "سيكون مؤتمر قرطاج مختلفا عن أيّ مؤتمر آخر على سطح الكرة الأرضية... في قرطاج هناك تحوّل مفاجئ، إذ لم تعد الكنيسة تفكّر في ثرواتها بل أصبحت تفكر في ما خسرت، إنّها تعتبر لما قد يفعله المستقبل لها... إنّها لا تملك شيئا تقريبا، ومن هنا تأتي الصّرامة العميقة لهذا المؤتمر، الجلوس بين الموتى... إذا كان هناك مكان في العالم حيث يدوس المرء على غبار السّكان الأصليين فهو بالتأكيد ريف قرطاج هذا..."²، فقرطاج على حسب صاحب المقال عرفت وعلى مدار خمس وعشرين قرنا تعاقب العديد من الامبراطوريات، وتلاشت المدن الواحدة تلو الأخرى، في كلّ مرّة أُقيمت قصور جديدة على أنقاض المدينة المنهارة، وعليه فإنّ قرطاج القديمة أصبحت خراب أو أنقاض، الأمر الذي فسح المجال لعلماء الآثار لإعطاء بعض التّخمينات، ففي قرطاج " تحوّل كلّ شيء إلى غبار، هذه هي النّقطة التي تمّ اختيارها من بين الجميع لتكون هذا العام مقرّ لأكبر التّجمعات العالمية المعروفة للكنيسة "³

واعتبر صاحب المقال أنّ هذا الأمر تحدّد عظيم ورهان كبير تمّ تحقيقه، ومن هذا المنطلق فإنّه من الخطأ مقارنة مؤتمر قرطاج ببقية المؤتمرات الأفخارستية، والحكم عليه من خلال إحصائيات الحشود لأنّ هذا سيجعله بلا شك من أصغر المؤتمرات "...إذا كان هناك 25 ألف مشارك مسجّل، ومن هذا العدد جاء 11 ألف من الخارج فالأمر سخيّف جدا إذا ما

¹ La r. c. i. f. , Vendredi 2 mai 1930 , **Op. cit**, p 14.

² **La r. c. i. f**, année 10,N°9 ,Vendredi 23 mai 1930, « Au 30 c. e. international », Giovanni Hoyois ,p 5.

³ **La r. c. i. f** ,Vendredi 23 mai 1930 , « Au 30 c. e. i. », Giovanni Hoyois, p 5.

قورن بشيكاغو وسيدني وأمستردام...¹، وقال كذلك: "ربّما بدا مؤتمر قرطاج متواضعا بعد نصف المليون الذين حضروا شيكاغو، كان من الواضح أن بضعة آلاف في قرطاج كانت هزيلة...".²

ثمّ عرض المقال مقارنة بين المشاركين في المؤتمر، وقال بأنّ العنصر الفرنسي كان هو الغالب على المؤتمر إذ تجاوز تعداده 7000 مشارك، أمّا بقية المشاركات من الإيطاليين والإسبان والألمان والبولنديين والتشييكوسلوفاك والأمريكيين فقد كانت متساوية أو متوازنة. أمّا عن البلجيكيين فإنّ عددهم يجعلهم على رأس الوفود الأجنبية، وقال بأنّهم أثبتوا أنّهم مسافرون جيّدون، وحجّاج ممتازون. وذكر بأنّ الأمر المدهش في المؤتمر هو قلّة الإيطاليين على عكس ما كان متوقع وهو أن يكون هناك فيضان إيطالي لكثرة عدد المستوطنين الإيطاليين في تونس والذي يفوق الفرنسيين أنفسهم بثلاث أضعاف، وفسّر ذلك بضعف الحملة الدّعائية للمؤتمر.³

ثم صرّح صاحب المقال بأنّ مؤتمر قرطاج بالرغم من الحسم بأنّه دولي إلّا أنّه أخذ طابعا فرنسيا واضحا، ليس فقط من ناحية الغلبة العددية للحجّاج الفرنسيين بل إنّ الأهم من ذلك الدّعم الحكومي الواضح للمؤتمر والذي استشفّه من عدّة جوانب وأمور كانت مُلفتة للنّظر في المؤتمر، كاستقبال المقيم العام للكاردينال ليغات ليبيسييه، والتّكريم العسكري للسلطات الديّنية طوال فترة المؤتمر، وإنشاء المعسكرات الرّائعة والتي تأوي الألاف من الكهنة ورجال الدّين على هضبة قرطاج من طرف الجيش، ووجود المقيم العام نفسه وهو شخص غير كاثوليكي في القدّاس المهيّب يوم الاختتام، وكلّ هذا على حسب رأيه دليل على مدى قدرة فرنسا على الانتقام الذي كان في تونس على وجه الخصوص. أي أنّ المؤتمر بالنّسبة لصاحب المقال جاء لرد الاعتبار لفرنسا والانتقام للملك سان لويس الذي خسر في حملته ومات على هذه الأرض الإسلامية.⁴

¹ La r. c. i. f, Vendredi 23 mai 1930, « Au 30 c. e. i », Giovanni Hoyois, p 5.

² Ibde, p 6.

³ Ibde, p 6.

⁴ Ibde, p 6.

وإضافة إلى التقارب الواضح بين الدولة والكنيسة في مؤتمر قرطاج، زاد صاحب المقال سمة أخرى لهذا المؤتمر وهي الامتناع العربي التام عن الحضور للمؤتمر، وبالرغم من الانضمام الرسمي كمثل ما قام به الباي والذي قبل الرئاسة الفخرية للمؤتمر إلى جانب المقيم العام ومطران قرطاج، إلا أنه من جانب الأهالي فلا يوجد شيء ولا حتى القليل من باب الفضول لمثل هذا الحدث الفريد بتونس. وقال في هذا الصدد: "...إن الوجود المؤكد لفرنسا الرسمية في كل مكان، والغياب المؤكد للإسلام في كل مكان هنا هي السمات التي يجب أن نتذكرها عن مؤتمر قرطاج...".¹

واعتبر صاحب المقال الغياب العربي في المؤتمر ما هو إلا دليل على فشل سياسة الكاردينال لافيجري التبشيرية، وعلامة على ضياع جهود رهبانه أي الآباء البيض الذين يرتدون الزي العربي من طربوش وبرنوس²، وأن هذا الغياب ضيّع على المسيحيين فرصة التبشير المباشر للمسلمين خلال هذا المؤتمر، وقال في هذا الصدد: "...لا يسع للمرء إلا أن يشعر بالألم، لقد انزلق كل جهد التبشير إلى الإسلام دون أن يصل إليه، وإذا لم يظهر مسلمو تونس التعصب، فإنهم لم يظهروا أنفسهم أكثر قابلية للاختراق من خلال التأثير الروحي للمسيحية التي هو جار لها... ما يتبناه الشعب التونسي من خلال مساهمة المستوطنين الأوروبيين هو التقدم التقني والموضة وأساليب المعيشة الخارجية أو المادية، وهي ليست الروح المسيحية التي جلبها الفرنسيون إلى شواطئ المغرب العربي...".³

ورأى أن الامتناع العربي عن الحضور للمؤتمر والعداء الصريح للعناصر الإسلامية لهذا التطفل لأبناء سان لويس على حد قوله والذي كان بارزا من خلال الصحافة في تونس،

¹ La r. c. i. f, Vendredi 23 mai 1930, « Au 30 c. e. i », Giovanni Hoyois, p 6.

² تمثلت سياسة لافيجري في إحياء المبشرين للمسلمين في شمال إفريقيا بالإحساس بالتواضع، والتشبه بهم بغرض جلبهم إلى يسوع المسيح، فدعا معاونيه إلى أنه ما أن تتوفر لهم الفرصة المناسبة لاختراق قبيلة ما، حتى يقلدوا ما أمكن من عوائدهم في الملبس والمأكل، ونهاهم عن التعرض لمسائل الدين للفوز بقلوب الناس وثقتهم فضلا عن تعليماته للمبشرين بتقليد الأهالي في ارتداء الشاشية والبرنس وأكل الكسكسي، وتقليد عوائد العرب والأمازيغ الضاربة في القدم، حضّمهم على استعمال المسيحية أمام الأهالي، تشبها بالمسلمين حتى يتوهم الناس تقواهم، وهي الدعوة التي سيعيدها أتباعه من التوصيات الفلكلورية. أنظر: عناية، المرجع السابق، ص 45-46.

³ La r. c. i. f, Vendredi 23 mai 1930, « Au 30 c. e. i », Giovanni Hoyois, p 6.

جعل المؤتمرين يتصرفون بحذر، وقال بأنه للتحدث بحرية عن الإسلام فعليك البقاء بفرنسا ولذلك فإنّ هذا المؤتمر الديني لم يكن تجمعا للعمل الكاثوليكي.

وقال بأنّ فهم السّياح أو الحجاج لما يجري في مؤتمر قرطاج كان يحتاج أحيانا إلى جهد كبير، يحتاج إلى الانغماس في الأدب الخيالي لما كان يجري على مسرح قرطاج من طرف القديسين فيرجيل (Virgil) وديدن (Didon) الذي اختلق على خشبة أعلى تل بيرسا. وكان لابد أيضا من إعادة قراءة الأدب الحقيقي الذي يمجّد قرطاج الثّانية المدينة الرّومانية المسيحية وأفعال الشّهيدتين سانت بربيتو وفيلستي، وتحذيرات أسقف قرطاج قبريانوس، وقراءة كتابات ترتليان، واعترافات القديس أوغسطين، والقراءة لجوانفيل¹ (Joinville) وتاريخ سان لويس.²

ورأى بأنّ العبء الضخم للتّاريخ في مؤتمر قرطاج مع عدم وجود ما يُلفت الانتباه من أمور حيوية أو حركية قد أثقل كاهل الحاضرين، ومع ذلك فإنّ المؤتمر حيث تلتقي العديد من الجنسيات فرصة للأباء البيض للتذكير بفكرة الكاردينال لافيغري وهي اعتبار قرطاج نقطة البداية للتبشير في القارة الإفريقية، وقال: "...حتّى وإن فلت منّا المغرب العربي والإسلام الذي لم نتمكن من اختراقه لفترة طويلة، سوف نستمر سوف نتجاوز هذه الجبال، سوف نعبر الصّحراء للوصول بعيدا إلى الشّعوب السّوداء، ستُثبت الكنيسة وبشكل دائم على سيطرة المسيحية في كل مكان."³

وأشار المقال إلى الفكرة النّهائية والرّائدة للمؤتمر وهي أنّ هناك حاجة ملحة شعرت بها الكنيسة المسيحية وهي تجديد التّقليد الذي انقطع في إفريقيا منذ عشرة قرون، وأنّه من الصّورة إرسال حملات صليبية إلى هاته القارة، وتكون بشكل دائم وذات تأثير أكثر من التي قام بها فرسان الماضي، وأشاد بدور المبشرين الذين يضعون الصّليب على شفاههم

¹ مؤرخ فرنسي رافق الملك لويس التاسع في حملته الصّليبية على مصر. أنظر: عميرة، المرجع السابق، ص 23.

² La r. c. i. f, Vendredi 23 mai 1930, « Au 30 c. e. i. », Giovanni Hoyois, p 6.

³ Ibde, p 6.

وقلوبهم وقال أنهم رسل أفضل من الذين نقشوا الصليب على سيوفهم، وهي دعوة إلى اعتماد العمل الخيري والدعوة السلمية في التبشير.¹

وفي آخر المقال ذكر أهم الأمور الملفتة للانتباه في المؤتمر وحصرها في عرض النخيل الذي قدمه آلاف من الأطفال يرتدون ملابس بيضاء مع الصليب الأحمر في مدرج قرطاج، وخطاب لويس برتران الذي أثار في الجمهور المسيحي الحاضر، واعتبره أفضل نص أدبي في المؤتمر.²

وختم المقال بأبرز نقطة في المؤتمر وهي: "...أنه كان في أرض غير مخصصة وخائنة، ومن ارتفاع الكنيسة التي يُفتخر بممارسة السلطة فيها على كل إفريقيا، القارة التي لا يمكنها الهروب من المسيح".³

وقد أشارت نفس المجلة إلى مؤتمر قرطاج في عدد آخر لها صادر في 10 جويلية 1931 في إطار خمسينية الاحتفالات الأفخارستية، وقالت بأن مؤتمر قرطاج مثل الاستحضر الجريء للتاريخ، وأنه أكمل الرحلة العالمية للمؤتمرات بحيث تمت زيارة كل القارات بما فيها القارة الإفريقية، وأنه أضاف إلى التنوع الفخم للمؤتمرات ملاحظة جديدة تمثلت في تأكيد الكاثوليكية على الإسلام.⁴

4- تداعيات المؤتمر على الكنيسة وسلطة الحماية:

كرّس انعقاد المؤتمر وتداعياته على التونسيين الانقسام والاختلاف الموجود داخل الكنيسة الكاثوليكية في حد ذاتها، إذ عارض بعض الآباء البيض المؤتمر ومن بينهم الأب أندريه ديميرسمان (Demeerseman André)⁵ الذي حذر من عدم ملائمة المبادرة، ليقينه

¹ La r. c. i. f, Vendredi 23 mai 1930, « Au 30 c. e. i. », Giovanni Hoyois, p 6.

² Ibid, p 6.

³ Ibid, p 7.

⁴ La r. c. i. f, année 11, N°16, Vendredi 10 juillet 1931, « Le cinquantenaire des congrès eucharistiques internationaux », p 24.

⁵ أندريه ديميرسمان (Demeerseman André) (1901-1993): أب أبيض مولود في 20 أوت 1901 في هازبروك (أبرشية ليل)، التحق بالآباء البيض في تونس في عام 1920، درس في مدرسة قرطاج من عام 1922، رسم كاهنا في

بما سيمد به المحتجّين من ذرائع لتأجيج الشعب التّونسي ضدّ الكنيسة والمستعمر¹، وكذلك الأب فوكا² (Focà) أحد مؤسسي (IBLA) والذي قال في منشور له في مجلة (En Terre d'islame): "لا يمكن أن أدّعي بمعرفة مسبقة مقدار النّعم التي سيضيفها المؤتمر الأفخارستي على المسلمين.. إنّ رؤية هذه الجماهير المهيبة ستقوّي الرّوح الدّينية لدى المسلمين.. من خلال إظهار أنّ العبادة التي أقيمت بمناسبة هذا المؤتمر هي انعكاس لسورة المائدة الموجودة في القرآن".⁴

وبالتّالي فإنّ هذه الخلافات الموجودة داخل الكنيسة حول المؤتمر، إضافة إلى ما أفرزه هذا الأخير من نتائج وردود أفعال قوية من قبل التّونسيين أكّدت على سوء التفاهم بين القومية التّونسية والكنيسة، وحتى التّونسيين ذوي الثقافة المزدوجة ظهروا كحلفاء لليسار الفرنسي وليس للمسيحيين؛ وذلك لتواصلهم مع الكتاب والمفكرين والسّياسيين الغرب والذين أظهروا لهم الكاثوليكية كقوة محافظة وظلامية مهدّدة⁵، ومن جهة أخرى أثبت المؤتمر الأفخارستي فشل خطط تحويل الجماهير المسلمة إلى المسيحية، وأكّد على أنّ الحركة

سنة 1928، كان جزء من فريق (IBLA) الأول أولاً كطالب ثم كعضو مسؤول، وأخيراً كمدير في عام 1931 وإلى غاية 1954، أسس مجلة (IBLA) 1937 وأدارها بنفسه حتى عام 1975، غادر تونس في سنة 1988 للمزيد أنظر: -Françoise Jacquin et Jean -François Zorn, *L'altérité religieuse ,Un défi pour la mission chrétienne* , op. cit , p109-110.

¹ عناية، المرجع السابق، ص 58.

² من أصل إيطالي، ولد عام 1887، من أبرشية تورين وصل إلى تونس 1926، وهو أحد مؤسسي (IBLA)، أنظر: - Françoise Jacquin et Jean -François Zorn, *L'altérité religieuse ,Un défi pour la mission chrétienne* , op. cit ,p109.

³ (Institut des Belles lettres Arabes) أو معهد الحروف العربية الجميلة والذي وضعه الآباء البيض 1926، تم تصميمه كمكان لتكوين الآباء البيض في اللغة والثقافة العربية والإسلام من منظور تبشيري يهدف إلى معرفة محاوره والتّحدث معهم وإقناعهم بصبر، فالمؤسسة تهدف إلى معرفة أفضل للمجتمع والثّقافة التّونسية، تمّ إنشاء المركز بالقرب من المرسى وانتقل إلى تونس 1932، وأصبح مكان للحوار بين التّونسيين والأوروبيين تحت تأثير الأب ديميرسمان. للمزيد أنظر:

- Soumille ,« Des catholiques en Tunisie » ,op. cit ,p 30.

- Cugusi ,Op. cit ,p 75.

⁴ Rémi Caucanas ,Lavigerie au prisme de trois Pères Blancs ,Via Aurelie ,18 novembre 2017 ,p 7.

⁵ Soumille ,« Des catholiques en Tunisie » ,op. cit ,p p 28-29.

التنصيرية في تونس تسير في طريق مسدود، ويمكن أن نستدل هنا بما ورد في نشرية (Annuaire de l'Institution secondaire libre de Saint-Pé) حول فشل المؤتمر ومنظموه: "...استأنفت المدينة الميَّنة مظهرها المعتاد، ولكن تمت إضافة ذكرى أخرى للذكريات المسيحية، ولم يتغير شيء خارجيا، ولم يعلن عن أي اعتناق جماعي، اضطربت حياة المسلم لفترة وجيزة ثم أُستؤنفت في كل مكان غير مبالية... لكنَّ العاصمة الروحية لقرطاج اغتنت لساعة القيامة، والتي مازالت مجهولة ولكنها متوقعة وبالتالي مُمكنة.."¹، وكذلك ما جاء في جريدة (La Tunisie catholique) على لسان الأب بارا مدير الرِّسولية للصَّلاة: "المؤتمر أعاد إحياء الأماكن المقدَّسة في قرطاج، وتونس؟ وماذا عن المسلمين؟ مشاركة صغار العرب أصعب من تحديدها، في قرطاج نادرا ما شاهدنا الشاشيات والقندورة، باختصار إنَّه امتناع العرب المسلمين عن المشاركة".²

ولذا فالمؤتمر كان بمثابة نقطة تحوّل مفصلي في تاريخ الكنيسة بتونس وفي العمل التبشيري إزاء شعبها. إذ قدّمت الجماعات التبشيرية (الآباء البيض) بعد المؤتمر تقريراً حقيقياً³ عن العجز فيما يتعلّق بالإسلام على الرّغم من جميع أنشطة وخدمات الإرسالية، ودفع هذا الأمر ببعض الشخصيات التبشيرية إلى تجديد نهجها للإسلام وإظهار نموذج بديل يتمثل في إخفاء الحركة التنصيرية وتوقّفها عن النّشاط العلني الذي يتحدّى الشّعور الإسلامي العام للنّاس، ودعت إلى تعزيز الصّداقة المتكوّنة من التقارب والحوار والتّفاهم والاحترام المتبادل بين المسلمين والمسيحيين، وعلى رأس هاته الشخصيات الأب فوكا الذي دعا إلى اندماج آخر في المجتمع الاستعماري في تونس يتمثل في معرفة الطّرف المحاور أي التّوجه إلى الاستماع واللقاء بالتّونسيين عوض هدايتهم بمعنى المبادرة إلى الدّخول في علاقة عامة

¹ Annuaire de l'Institution secondaire libre de Saint-Pé , Op. cit , P 159-160.

² Françoise Jacquin et Jean –François Zorn, L'altérité religieuse ,Un défi pour la mission chrétienne , op. cit , p 107.

³ نشر أسقف قرطاج ألكسيس لوماتر سنة 1935 رسالة بابوية تحت عنوان « Quinze ans de vie catholique en Tunisie » حوصل فيها تقييمه لتجربة خلال خمسة عشرة سنة منذ تولّيه كرسي أسقفية قرطاج، ورؤية المشهد الكاثوليكي بتونس، إذ اعتبر الكاثوليك أمة منغلقة على ذاتها، ولم تستفد من الوضعية القانونية المميزة بفضل الحماية الفرنسية وكذلك دعم الحكومة منذ 1893. أنظر: اللافي، المرجع السابق، ص 14-15.

مع الناس مع احترام شخصيتهم الدينية والثقافية من أجل تعزيز المعرفة الاثنوغرافية للمجتمع التونسي ليتم فيما بعد إقناعهم وتحويلهم بصبر.¹

وكذلك هنري مارشال (Henri Marchal) (1875-1957)²، الذي قدّم رؤيته³ في الأسبوع الاجتماعي الذي نُظِم في مرسيليا بفرنسا أوت 1930 حول " المشكلة الاجتماعية في المستعمرات"، وأكّد على ضرورة "إصلاح الأفكار والعادات قبل التّصير"،⁴ وسعى لإرساء معهد للدراسات التبشيرية، يمد حملة التّصير في شمال إفريقيا بالأدوات اللازمة، ويلزم فيه المبشّرون الشّبان بمداومة أطول لدراسة الدّين والعادات الإسلامية وعلوم الشّريعة وأخلاق الشّعب.⁵

كما دعا مؤتمر التجنيد الكهنوتي بتونس 13-17 أفريل 1932 والذي أُعتبر من توصيات المؤتمر الأفخارستي إلى ضرورة تكوين إطارات دينية تونسية غير وافدة، أي المرور من طور الاعتماد على الإطارات الدّينية الكنسية المتصلة بالبعثات الأجنبية إلى التّأسيس لأجهزة دينية كنسية محلية يقوم عليها كهنة من أهل البلاد، ويعتبر هذا في تقدير

¹ Soumille, « Des catholiques en Tunisie », **op. cit**, p 30.

² هنري مارشال كاهن فرنسي ولد في أبرشية نانسي، وأصبح مبشرا في شمال إفريقيا، وأصبح صديقا شخصيا لشارل دي فوكو، أنتخب هنري مارشال عام 1912 مساعد رئيس الجمعية التبشيرية للأباء البيض وأعيد انتخابه لهذا المنصب إلى غاية 1947. وطوّر هذا الأب عقيدة لافيّجري الرّسولية إلى المسلمين، كان من أوائل الذين سعوا في ترجمة بعض أسفار الإنجيل إلى العربية الدّارجة أثناء إقامته بالزّاب بالجنوب الجزائري. للمزيد أنظر: عناية، المرجع السابق، ص 61. وكذلك: Caucanas, **op. cit**, p 4.

³ تتمثل رؤيته في تحويل الوسط الإسلامي إلى مجتمع مسيحي بدل السّعي إلى تعميم أنفار، وقد شرح أطروحته في كتابه: الحضور الخفي للكنيسة (Invisible présence de l'église) المنشور بالجزائر سنة 1950، حاول فيه توظيف آليات علم الاجتماع وعلم النّفس، للإجابة عن أسئلة محورية مثل: لماذا لا ينقلب المسلمون إلى المسيحية، وكيف السبيل لاختراق المسلمين الذين يبدوون غير قابلين للاختراق؟ وخلص إلى أنّ السبيل إلى ذلك ليس عبر متحوّلين إلى المسيحية بل بخلق أشباه مسلمين، ورأى في التّعليم الفرصة السّانحة لغرس بشارة الإنجيل... أنظر: عناية، المرجع السابق، ص 61.

⁴ Soumille, « Des catholiques en Tunisie », **op. cit**, p 30.

⁵ عناية، المرجع السابق، ص 50.

محمد الفاضل اللافي "إشارة خفية استباقية لإمكانية فشل مشروع الاحتلال الفرنسي مستقبلا واستعدادا للاستثناء قبل فوات الأوان".¹

وتمّ تأكيد كلّ هذه التّوجهات في عام 1937 في مؤتمر بنوحي (القبائل) والذي وضع حداً للآباء البيض ونهاية للإرسالية في شمال إفريقيا، ودعا إلى الانغماس في البيئة الإسلامية. أمّا في تونس أطلق ديميرسمان في نفس السنة مجلة (IBLA) الرّوحية والتي تبحث في المجتمع التّونسي وعلم الإسلام،² وتهدف إلى جمع التّراث والحفاظ على النّقافة الشّفوية من أمثال وأغاني شعبية والعادات والتّقاليد وما شابه ذلك ونشرها من خلال المجلة لجعلها معروفة للمبشرين المستقبليين والعلماء والمهتمين.³

وبالتّالي فالكنيسة الكاثوليكية استشرفت التّحولات المستقبلية للدّول المغاربية (الاستقلال) لذا عملت على تغيير استراتيجيتها اتّجاه شعوبها، فبعد أن كانت تعتمد على التّنصير التّحتي الشّعبي عبر بناء المدارس والمي�م وإنشاء الجمعيات الخيرية، تحوّلت إلى احتضان المثقّفين عبر مجلّاتها ودورياتها ومراكز بحوثها ومكتباتها، فتوجّه خطابها إلى النّخبة المثقّفة من أساتذة وباحثين وطلّاب وخاصة المثقّفين ثقافة غربية، وذلك بهدف تحويل المجتمعات الإسلامية إلى مجتمعات متقبّلة للمسيحية، عبر مسوّغات حقوق الإنسان وحقوق المرأة والحريّات الشّخصية.⁴ وهي بالضبط نفس النّتيجة التي خرج بها مؤتمر التّبشير المسيحي المنعقد بالقدس في أفريل 1928، والتي مفادها أنّه يجب على المسيحيّين قبل أن يبنوا النّصرانية في قلوب المسلمين أن يهدّموا الإسلام في نفوسهم، أي تلاشي الإسلام تدريجيا، حتّى إذا أصبحوا غير مسلمين سهّل عليهم أو على من يأتي بعدهم أن يبنوا النّصرانية في نفوسهم، وقد رأى محب الدّين الخطيب في هذه النّتيجة أنّ المسيحيّين عمدوا إلى عقد الأواصر مع دعاة الإلحاد.⁵

¹ اللافي، المقال السّابق، ص 11.

² Vermeren , **op. cit** , p 14.

³ Soumille , » Des catholiques en Tunisie « , **op. cit** , p 28-29.

⁴ عناية، المرجع السّابق، 63.

⁵ أنور الجندي، تاريخ الصحافة العربية -2-، المرجع السّابق، ص 91.

وفيما يخص سلطة الحماية فإنّ تصلّب التونسيين وشدة لومهم على التكلفة المآلية التي أنفقت على المؤتمر والتي تحمّلها الشعب جعلت المقيم العام مونسورون يأسف لتداعيات المؤتمر ويصرّح ب: "أعتقد أنّه من المستحسن عدم تكرار مثل هذه التجربة كثيرا...".¹ ولموازنة ذلك، وللتأكيد على طابع الحياد المذهبي للسلطة السياسية قام في ديسمبر 1931 برعاية (مؤتمر اللغة والآداب والفنون العربية)، كما أنّه ألقى فيه خطابا تعرّض للإسلام وحثّه على العلم واعترف بفضل اللغة العربية.² وهذا لإظهار احترامه للحضارة الإسلامية ومن أجل امتصاص غضب التونسيين.

ومنه نقول بأنّ المؤتمر الأفخارستي والذي كان يُعوّل عليه أن يكون نقطة انطلاق الكنيسة، شكّل نقطة تراجعها، بما خلقه من تنبيه لما تتطلّع له الكنيسة، فأثبت المؤتمر فشل سياسية الآباء البيض، كما خيب آمال الكنيسة وضياع جهودها بعد قرن من التبشير في المغرب الإسلامي، ووضع حدّا للعلاقة بين مصالح الكنيسة والجمهورية، إذ أدّى تأجّج الحسّ الوطني وتصاعد المطالب التحرّرية بعد المؤتمر إلى ضعف الحافز من وراء دعم الكنيسة للامّشروط للسياسة الفرنسية.

خلاصة:

لقد أثار انعقاد المؤتمر الأفخارستي الدولي بقرطاج جدلا طويلا وحيويا بين مختلف الصحف الصادرة آنذاك، كما مكّنها من طرح عدة انشغالات والخوض في عدة قضايا وعلى غاية من الأهمية، فبالنسبة للصحافة الاستعمارية والمالية للكنيسة شنت حملة صحفية واسعة النطاق للدعاية والترويج له كاشفة عن حقدها الصليبي اتّجاه الإسلام والمسلمين جاهرة بالصّبهة التّصيرية للمؤتمر، معتبرة إيّاه حملة صليبية جديدة وبادرة لإعادة تونس إلى السّيطرة المسيحية وجعلها منطلقا لتتصير كامل إفريقيا.

¹ لسان الشعب، العدد 467، السنة 12، 20 شعبان 1350، 30 ديسمبر 1930.

² Vermeren , op. cit ,p19.

ونوهت الصحافة الفرنسية المؤيدة بجهود الكنيسة فيما أطلقت عليه مهمة التثقيف والتحضر التي تقوم بها في المجتمع التونسي الإسلامي المتخلف، مستجيبة بذلك لرغبة المعمرين، متناسقة مع التوجه السياسي لدولة الاحتلال، متبنيه شعار يبرر الحملات العسكرية الفرنسية على تونس دفعا للمنافسة الإيطالية على مستوياتها الدينية والسياسية.

وكذلك أظهرت هذه الصحف تأييد الباي ورجال الحكومة التونسية للمؤتمر وتدعيمهم المادي والمعنوي لإبراز التلاحم وروح التفاهم والتعاون والاتحاد الحميمي الذي أصبح يجمع فرنسا مع التونسيين لتسجل في أعين العالم صورة فرنسا الحضارية والزراعية لحقوق الإنسان والمواطن في هذه المنطقة الخاضعة لحمايتها، كما استغلت منصبه شيعي الإسلام والإفتاء وكذلك نفوذهما الأدبي في الأوساط الشعبية للترويج بانضمامهما ومشاركتهما في هذا المؤتمر وذلك من أجل التّغريب بالمسلمين وكسب رضاهم على انعقاده.

كما اعتبرت هذه الصحف أنّ تحالف المسلمين واليهود مع الكاثوليك في هذا المؤتمر جاء للرد عن الماسونيين والعلمانيين والاشتراكيين والملحدين وللتأكيد على أهمية الدين وضرورة الحاجة إلى الله.

وشجبت الصحف ذات التوجه الاشتراكي المؤتمر بشدة، وأخذت منه موقف المعارضة، واعتبرته فضيحة وانتهاك صارخ لقانون فصل الدين عن الدولة.

كما أظهرت هذه الصحف الأوساط اليسارية الفرنسية (الشيوعيين، الاشتراكيين والماسونيين) وهم في أغلب الأحيان ملحدين أو ذوي ميول علمانية مناهضين للإكليروس، وأنهم أكثر استعدادا لفهم ودعم مطالب القومية التونسية.

أمّا الصحف التونسية الإسلامية فقد ندّدت بالمؤتمر واعتبرته دعاية دينية للتبشير، وعمل عدواني ضد الإسلام وتحدي للهوية الحضارية التونسية، وانتهزت فرصة انعقاده لتوعية الرأي العام الإسلامي وتعبئته ضد النظام الاستعماري وسياسته الادماجية ومخططاته التغريبية والعنصرية، فكان لها بذلك دور رئيس في تعميق الشعور الوطني، والدفاع عن الإسلام والمسلمين والوقوف في وجه المشروع الكنسي، وتعطيل الحركة التنصيرية.

بينما الصحف الإيطالية فقد أعطت صورة عن توتر العلاقات والنزاع القائم بين فرنسا وإيطاليا. أمّا بقية الصحف الغربية فقد قدّمت تقييماً للمؤتمر من وجهة نظر غير فرنسية كما أبرزت عقدة التّخوف من العروبة والإسلام، وأقرّت فشل استرداد تونس من الديانة الإسلامية.

الفصل الرابع: تداعيات المؤتمر الأفخارستي على الحركة السياسية التونسية (1930-1940)

1- التحول في فكر وتركيبية الحركة الوطنية التونسية:

1-1- المرحلة الأولى (1930-1933)

1-2- مؤتمر نهج الجبل 12-13 ماي 1933:

1-3- انشقاق الحزب الدستوري

1-4- مرحلة ما بعد 1936:

2- اعتماد الخطاب الديني والتأكيد على مبدأ الحفاظ على الهوية التونسية

1-2- قبل انشقاق الحزب الدستوري

2-2- موضوع الهوية بعد انشقاق الحزب الدستوري

3- التعبئة الشعبية أو إقحام الجماهير الشعبية في النضال الوطني

1-3- وسائل وأساليب التعبئة الشعبية

1-1-3- احتضان العمل الجمعياتي

1-2-3- تعبئة الطلبة التونسيين في فرنسا

1-3-3- الحملات الصحفية

1-4-3- الجولات الدعائية لزعماء الحزب

1-5-3- الهيمنة على جامعة عموم العملة التونسية الثانية

1-6-3- عبر المناشير

2-3- مظاهر العمل الجماهيري في الحركة الوطنية

1-2-3- تزايد الانخراط في صفوف الحزب

2-2-3- الحركات الاحتجاجية والمظاهرات

2-3-2- تزايد نشاط الحركة الطلابية في المهجر

تداعيات المؤتمر الأفخارستي على الحركة السياسية التونسية (1930/1940)

قد بدا لسلطات الحماية أنّ مسألة مؤتمر قرطاج قد انتهى أمرها، على أنّ هذه القضية قد أسهمت في إخراج الحركة الوطنية من خمولها وكشفت عن وجود قوى جديدة بالبلاد التونسية سوف تلعب أدوارا هامة في تأطير العمل الوطني التونسي، هذا الأخير الذي شهد تطورا في فترة الثلاثينات.

وتجلى هذا التغير والتطور في الحركة الوطنية في فترة الثلاثينات في عدة أصعدة ومستويات هي:

1- التحول في فكر وتركيبه الحركة الوطنية التونسية:

1-1- المرحلة الأولى (1930-1933):

لقد ساعدت محاولات السلطة الاستعمارية الاستفزازية لمشاعر المسلمين التونسيين خلال هذه المرحلة على نشر الروح الوطنية وبعثها في قوة جديدة، ويمثل المؤتمر الأفخارستي أول هذه الاستفزازات إذ شكّل انعقاده مفجرا حقيقيا للحركة الوطنية التونسية والتي تجلّت في بداية الأمر في مضاعفة اجتماعات الحزب الدستوري.¹ الذي استغلّ المؤتمر لزعة الحركة من السّبات الذي انزلت فيه منذ عام 1926، فوجد فيه فرصة للتّقدم علنا وتعبئة السّكان ضد النّظام الاستعماري.

فقدّم الدستوريون المؤتمر كأنّه مشروع موجّه ضدّ الإسلام وبما أنّ الدّفاع عن الإسلام لا ينفصل عن الدّفاع عن الأمّة التونسية، ومن هذا المنطلق خاضوا حربهم ضدّ الاستعمار باسم الدّين الإسلامي ودعوا السّكان إلى التّجمع حول الإسلام لأنّه سلاح فعّال لمحاربة الاندماج.²

¹ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 515.

² Mahjoubi ,Op. cit ,p 125.

كما كانت المساعدة المادية المقدّمة للمؤتمر محل انتقاد الوطنيين التونسيين كذلك، إذ رأوا أنّ الفوائد المادية التي أشارت إليها الدوائر الرسمية لتبرير مشاركتها في المؤتمر لم تكن لتفيد التونسيين في شيء، إذ أنّ الصناعة الفندقية والمطبخية وحتى التجارة الكبرى التي يمكن أن تستفيد من تدفق آلاف الزوّار لم تكن من مشمولات التونسيين، وحتى بائعي التحف والأشياء النادرة بالأسواق لم يكونوا يأملون كثيرا من قدوم أولئك الزوّار الذين كانت صفتهم الكنسية تمنعهم من إعطاء قيمة كبرى لتزّهات العالم الدنيوي.¹ فكان أولى بالحكومة حسب رأيهم إنفاق هاته الأموال في إصلاح أحوال الأهالي ورفع المستوى الفكري والمادي لوطنهم.²

واستغلّ الوطنيون كذلك انعقاد المؤتمر للتّديد بسياسة الميز العنصري المطبّق من قبل سلطات الحماية، إذ أنّ الديانتين الإسلامية واليهودية واللاتين تمثلان أغلبية السّكان هي أبعد ما تكون عن الاستفادة من الهبات والتّسهيلات والامتيازات التي تقدّمها الحكومة للكنيسة المسيحية بالبلاد التونسية.³ وخاصة عندما تُقّطع من ميزانية أهم مواردها صادرة أساسا عن الأهالي التونسيين وفي فترة هي في أشدّ الحاجة إلى المال، ولذا وقع بهذه المناسبة التّأكيد على الحفاظ على أموال دافعي الضّريبة ومن هنا طرحت مشكلة الضّمانات الدّستورية لوضع حد لأنواع التعسف وضمان تصرّف عادل في أموال دافعي الضّريبة، والذي لا يكون إلّا عن طريق تأسيس مجلس تفاوضي منتخب بالاقتراع العام وحكومة مسؤولة أمام هذا المجلس الذي ينبغي أن يكون الدّائرة الوحيدة القادرة على توجيه ومراقبة التّصرف في الميزانية، وكانت مراقبة الميزانية تبدو مناسبة لاسيما وأن المساعدات المالية الممنوحة للكنيسة سنويا أو بمناسبة المؤتمر تعتبر إجبارية ولم تكن خاضعة لنظر المجلس الكبير، وبما أنّ الميزانية

¹ (الصّوت التّونسي 3 ماي 1930). نقلا عن المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 514.

² نفسه، 512-513.

³ ففي سنة 1925 خُصّص من الميزانية 25 ألف فرنك للحاخامية الكبرى، و50 ألف فرنك للجامع الكبير، و97600 فرنك للأعمال الإسلامية، بينما خُصّص للأبرشية 500 ألف فرنك، وازداد هذا التّمييز سوءا عام 1926 عندما ارتفع الدّعم المقدّم إلى رئيس أساقفة قرطاج إلى 1.800.000 فرنك. أنظر:

تقرّر بوزارة الخارجية والمجلس لم يكن سوى سلطة استشارية ولم يكن يوفر أيّ ضمان للأهالي التونسيين، وهذا الضمان لا يمكن أن يتمثل إلا في منح دستور للبلاد التونسية.¹

وبنفس المناسبة طرح الوطنيون مشكلة الحريّات الديمقراطيّة إثر إيقاف السلطات الاستعمارية للشبان التونسيين الذين شاركوا في المظاهرات المعادية للمؤتمر، وبذلك مكّن المؤتمر الأفخارستي الوطنيّين التونسيّين من مقاومة النّظام الاستعماريّ طيلة فترة الثلاثينات على ثلاثة أصعدة وهي: الدّين الإسلاميّ، الاستغلال والتّمييز الاستعماريّين وغياب الحريّات والضّمانات الدّستورية.²

وكانت الصّحافة هي الشّكل الأوّل للعمل السّياسي، حيث تبنّى الجيل الجديد من المناضلين والمتمثّلين في فئة الشّبان المثقّفين العائدين من فرنسا بين سنتي 1927-1928³ موقفا قويا قرّروا فيه مضاعفة نشاطهم في مقاومة الاستعمار الفرنسي،⁴ وعبروا عنه من خلال الصّحافة المسؤولة، فالتقّوا حول جريدة (الصّوت التونسي) التي كان يديرها الشاذلي خيرالله⁵ لأنّ الصّحف العربيّة ممنوعة والموجود منها⁶ يُمنع من الخوض في المسائل السّياسية الوطنيّة⁷، ولعبت هذه الجريدة دورا هاما في إنكاء الرّوح الوطنيّة لدى الشّباب⁸ وخاصة عند مواكبتها لأحداث المؤتمر الافخارستي، حيث دخلت النّخبة الجديدة معترك الحياة السّياسية، وقامت بدور إيجابي في نقد سياسة فرنسا وعدوانها ضدّ التونسيّين واستفزازهم بعقد المؤتمر

¹ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، 509-510.

² Mahjoubi ,Op. cit ,p 127.

³ أحمد خالد، المرجع السابق، ص 65.

⁴ ثامر، المصدر السابق، ص 90.

⁵ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 500-501.

⁶ فقد كانت الإقامة العامة تمنع الصّحافة السّياسية الجديدة منعا باتا طبقا لأوامر 1926 التي تسمح بإيقاف الجرائد العربيّة لأسباب سياسية وتُحاكم أصحابها أمام المحاكم الجنائيّة، لذا لم تصدر أي جريدة بالعربيّة فيما بين 1925 و1933 باستثناء جريدة (الزّمان) الصّادرة سنة 1929 ذات الطّابع الأدبيّ والثّقافي، ومجلّات (العالم) سنة 1930 لزين العابدين السّنوسي، و(الفجر) سنة 1931 لعبد السّلام فريول، فاتّجهت الصّحافة السّياسية للحركة الوطنيّة إجباريا إلى استعمال اللّغة الفرنسيّة والتي يسهل للسلطات الفرنسيّة مراقبتها. أنظر: الدّوايدي، تطور الحركة الوطنيّة، المرجع السابق، ص 86.

⁷ الطّاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 57.

⁸ الماطري، المصدر السابق، ص 41.

على أرضهم، وكذلك نقدت الباي الذي أشرف عليه وقبل المساهمة المالية فيه، كما نادت إلى جعل الدين الإسلامي سلاح وحدة للشباب التونسي لمواجهة تحديات أوضاع بلاده.¹

ومن خلال هذه الجريدة أصبح للشباب مركز ممتاز بين قادة الرأي العام لما تميّزوا به من نشاط كبير، وحماس متدفق، وإقدام متزايد، فأخذ كفاحهم الصحفي طابعا أكثر حزما وفعالية، فعالجوا مشاكل سياسية واجتماعية واقتصادية كانت تشغل بال التونسيين وقاوموا بكل جرأة في مقالاتهم التحديات الاستعمارية السافرة للشعور الديني والوطني لأهل البلاد في المؤتمر الأفخارستي²، إذ كان للتصريحات الصحفية التي رافقت المؤتمر والتي في مجملها أقرت التفوق الحضاري للاستعمار والذي يبرر ضمنا الوضع المتميز للمستوطنين الفرنسيين في تونس³، ووصفها لفترة الحكم العربي الإسلامي بالخراب والدمار، وتصويرها للسكان الأصليين أي العرب والمسلمين على أنهم يفتقدون إلى الذكاء ويتميزون بالكسل وعدم القدرة على حكم أنفسهم وهو ما جعلهم في حالة البؤس والجهل دور في إصرار الشباب على تأكيد الدفاع عن الشخصية التونسية والمطالبة بالحرية السياسية وإصلاح المؤسسات ووصول التونسيين إلى جميع المناصب الإدارية.⁴

فتمكّنوا من تغيير لهجة الحركة الوطنية، فأصبحت المقالات أكثر جرأة وتصلبا، ولهجة أكثر عنفا تجاه الاستعمار، إذ أعلنت (الصوت التونسي) أنها تدافع عن المصالح التونسية، فورد فيها في شهر أكتوبر 1930 "...لقد حافظ هذا الشعب على خاصياته البدائية وطبيعته الخاصة اللتين تؤهلانه عند الاقتضاء لأن يزيل الحجاب ويرفع عاليا راية الاستقلال..."⁵، كما هاجم الحبيب بورقيبة فيها نظام الحماية في 13 فيفري 1931 قائلا: "...إذا كان شعبا

¹ (الصوت التونسي، 3 ماي 1930، المؤتمر الأفخارستي في قرطاج والمسلمين). نقلا عن: الذواوي، تطور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 39.

² نفسه، ص 30.

³ أطلقت (La Voix Française) في 4 فيفري 1928 عبارة "السكان الأصليون سيكونون تلاميذنا، ونحن أسيادهم."

⁴ اللافي، المرجع السابق، ص 2.

⁵ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 503.

قويا استعمرته دولة قوية بسبب أزمة مؤقتة، فالاتصال بحضارة متقدمة تبعث فيه ثورة هي وسيلة النجاة... لا بد أن يصل شيئا فشيئا إلى استقلاله".¹

وبعدها تحولت جريدة (الصوت التونسي) إلى جريدة يومية، وكانت هيئة تحريرها تضم الشاذلي خير الله، الشاذلي الدامرجي، الطاهر صفر، محمد بورقيبة، محمد بدر، الحبيب بورقيبة ومحمود الماطري²، وصدر العدد الأول منها يوم 16 فيفري 1931، "وكان ظهورها بمثابة انفجار أيقظ التونسيين من سباتهم وكدر راحة الفرنسيين" على حد قول الماطري.

وتمثلت مطالبها كما ورد في مقال لمحمد بورقيبة في مكافحة نظام المراسيم وسوء الإدارة المالية والربا والمرابطة وإدمان الكحول، إحياء الزراعة والصناعة، إزالة امتيازات الأوروبيين، الدفاع عن حرية الصحافة وحرية التجمع وتكوين الجمعيات ووصول التونسيين إلى الإدارة³.

أمّا موقفها من الحماية حسب ما عبرت به الجريدة في مقال "مواقفنا" الصادر يوم 18-2-1931: "إنّ موقفنا واضح ويحترم في مجمله حق الشعوب في تقرير مصيرها، إنّ النظر لنظام الحماية دون حقد ودون تحيز، مثلما تحدّد بالمعاهدات العضوية يلزم الحكومة لاحترامه نصّا وروحا نساعد به باقتراحاتنا للدّخول الجدي في طريق الإصلاحات التحريرية وإنشاء في تونس العمل الذي تناشد تطبيقه فرنسا 1789، كل من يمثلها في العالم، لكي لا تتعارض الأفكار الكبرى التي تشكل زاد ثقافتها مع مبادئ سياستها"، فالجريدة إذن تميّزت بالاعتدال السياسي ومرد ذلك التوازن السياسي الموجود عبر هيئة الجريدة والذي يعكس تجنّب الاختلاف في وجهات النظر داخل الحزب الدستوري، وأيضا ممكن للهروب عن

¹ زغير حزيم، المقال السابق، ص 590.

² محمود شاكر، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج2 (جمهورية تونس)، القارة الإفريقية، ص 108-109.

³ La Voix du Tunisien ,17 février 1931 , "Notre programme".

الرقابة الاستعمارية وتجنّب المصادرة.¹ ومع ذلك فالجريدة أعطت دفعا قويا للحركة الوطنية والتي شهدت آنذاك انطلاقة جديدة وحازمة.²

فأخذ الشعب يلتف حولها، وحتى عندما حاولت السلطة الفرنسية القضاء على نشاطها وتقديم محرّريها للمحاكمة سنة 1931 بتهمة التحريض على القتل بين الأجناس على إثر الاحتفال بالذكرى الخمسينية للحماية³ تضامن الشعب وتعاطف معهم وقام بمظاهرات في الشوارع أجبرت السلطة الفرنسية على التقهقر وإلغاء المحاكمة.⁴

ولكن تعاون الجناح الراديكالي الذي شكّله جيل الشباب لم يستمر طويلا مع الشاذلي خير الله وجريدة (الصوت التونسي)، إذ عمل على إنشاء جريدته الخاصة لترجمة خطه الخاص، تصدر باللغة الفرنسية تحمل اسم (العمل التونسي)(L'action Tunisienne) ، وصدر أول عدد لها يوم الثلاثاء 01 نوفمبر 1932 وكان محرّرها الرئيسي الحبيب بورقيبة، وضمت كل من محمود الماطري ومحمد بورقيبة والبحري قيقة ثم انظم إليها اسماعيل زويتن، علي بوحاجب،⁵ والطاهر صفر، وخاضت غمار الكفاح بأكثر حزم لتردّي الوضع في البلاد.⁶

فركّزت الجريدة كثيرا على المواضيع الاقتصادية فاستنكرت دور المجلس الكبير الذي يصادق على ميزانية ليس له الحق في إعدادها، ونقدت سياسية التمييز الفرنسية، وكان الحبيب بورقيبة أكثر وضوحا عندما أعلن في أول عدد من (العمل التونسي) "...إنّ التعاون خدعة من السلطات الاستعمارية أريد به تغطية التّفكير التّدرّجي للشّعب التّونسي عن طريق

¹ الذوايدي، تحولات... . المرجع السابق، ص 28-29.

² الماطري، المصدر السابق، ص 41-42.

³ الماطري، المصدر السابق، ص 30.

⁴ ثامر، المصدر السابق، ص 91. وكذلك: الماطري، المصدر السابق، ص 41-43. .

⁵ الدقي، تونس من الإيالة، المرجع السابق، ص 151.

⁶ الماطري، المصدر السابق، ص 46.

تحويل منظم ومستمر لثرواته ومكاسبه وبدون إثارة الاصطدامات...¹، كما دعت الجريدة إلى ضرورة مقاطعة المنتجات الأجنبية لحماية الانتاج المحلي من المزاحمة الأجنبية كوسيلة لحماية الاقتصاد من الهيمنة الرأسمالية وكذلك للمحافظة على الطبقات والفئات الاجتماعية الضعيفة والمتضررة.²

ومنه يمكن القول بأن الصحف التونسية المشاركة في العمل الإعلامي مطلع الثلاثينات وخاصة الصادرة باللغة الفرنسية مثل (الصوت التونسي)، و(العمل التونسي)³ ساهمت في إبراز ملامح النضج في الفكر والتحليل السياسي الوطني، كما أنها شملت تباينا بين كتابات تنادي بتطبيق نزيه لبنود معاهدة الحماية على ضوء مبادئ الثورة الفرنسية من ناحية، وكتابات تطرح على الصعيد الفكري والسياسي مسألة البحث عن أنجع السبل وأرقها لإنهاء نظام الحماية نفسه، ويتجلى هذا في التيار المتجدد وعلى رأسه الحبيب بورقيبة الذي استبعد سياسة التعاون مع السلطات الاستعمارية ودعا إلى ضرورة توحيد صفوف الشعب حول تحقيق هدف التحرير الوطني، فكان لهذه الصحف دورا مهما في إبراز الضرورات الجديدة في استراتيجية الكفاح المعادي للاستعمار مما جعلها مستهدفة لحملات محاصرة وتتبع عدلي من طرف السلطات الفرنسية.⁴

1-2- مؤتمر نهج الجبل 12-13 ماي 1933:

على إثر تصاعد حركات الاحتجاج إبان قضية دفن المتجنسين في المقابر الإسلامية والتي أدت إلى الصدام الدامي في تونس وبنزرت والساحل، قامت حكومة الحماية حتى لا تفقد هيبتها، بإصدار الأمر المؤرخ في 6 ماي 1933 والقاضي بإحداث نظام المراقبة الإدارية للوطنيين، والذي يسمح بإيقاف كل من يخل بالأمن العام بمجرد قرار إداري، فدفعت

¹ العمل التونسي، الثلاثاء 01 نوفمبر 1932، "الميزانية التونسية". نقلا عن: الحبيب بورقيبة، تاريخ الحركة الوطنية التونسية، مقالات صحفية (1929-1934)، المصدر السابق، ص ص 114-116.

² العمل التونسي، الاثنين، 14 نوفمبر 1932، "الميزانية التونسية، حماية السوق الداخلية". نقلا عن: الحبيب بورقيبة، تاريخ الحركة الوطنية التونسية، المصدر السابق، ص ص 126-131.

³ الذوايدي، تحولات...، المرجع السابق، ص ص 31-32.

⁴ نفسه، ص ص 33-34.

هذه الإجراءات التعسفية بقيادة الحركة الوطنية التونسية إلى ضرورة مراجعة الخطة النضالية أمام الاستعمار وخصوصاً أمام تعاضم التناقضات الداخلية للصف الوطني، والذي بدوره سيصبح عنصر تقهت لقوى الكفاح المتنامية لدى الجماهير الشعبية، ومن ثمة برزت ضرورة توحيد صفوف المناضلين ومختلف فصائل الحركة الدستورية، وتمّ عقد مؤتمر 12-13 ماي 1933¹ بنادي الحزب في نهج الجبل لتنظيم الحزب من جديد وعلى أسس متينة، ووضع خطط ملائمة للظروف ومسايرة لما اكتسبه الشعب من حسّ ووحي وطني وتعبئة شعبية واسعة، وجمع كل من رجال اللجنة التنفيذية وممثلي شعب الحزب، كما قرّر المؤتمر إحتواء عناصر الشباب الجديدة والمتمثلين في هيئة تحرير جريدة (العمل التونسي) (محمود الماطري، الحبيب بورقيبة والطاهر صفر، محمد بورقيبة والبحري قيقه) وذلك لما قاموا به من أعمال وما بذلوه من جهود ونشاط واندفاع وكفاءة في سبيل الدفاع عن الوطن، فمواقف هذه الجماعة ولاسيما في القضايا الجوهرية التي مسّت مشاعر المسلمين التونسيين كالمؤتمر الأفخارستي والاحتفال بالخمسينية ومسألة التجنيس إذن هي التي دفعت قيادات الحزب الدستوري لاختيارهم لعضوية اللجنة التنفيذية.²

وبعد استعراض الحالة، واعتبار التقلّبات التي مرّت بها الحركة الوطنية منذ سفر رئيسها الثعالبى للشرق، ودرس النوايا التي رمت إليها السياسة الفرنسية من حملاتها التصيرية والتجنيسية - اتفق المؤتمر على ضرورة العدول عن كل خطة تدعو للتعاون مع النظام القائم، ورفض الاعتراف بالمجلس الكبير والعودة بالحزب للسياسة الحازمة التي سار بها وفده الأول إلى باريس بعد الحرب. ع.1.، أي التّركيز على مطلبى الحرية والدستور وهما المكوّنين الرئيسيين في اسم هذا الحزب وذلك رغبة منهم في تحقيق نظام برلماني، فالغاية التي يرمي إليها الحزب من العمل السياسى إذن هي تحرير الشعب التونسي، والحصول على دستور يصون الشّخصية التونسية وسيادة الشعب وذلك بواسطة برلمان تونسي ينتخب بالاقتراع العام ويملك حق وضع منهاج أعماله وتكون له كامل السّطة

¹ الذوايد، تحولات...، المرجع السابق، ص 17.

² مؤتمر البعث، المؤتمر العام للحزب الحر الدستوري التونسي المنعقد بمدينة قصر هلال يوم الجمعة 17 ذي القعدة عام 1352 هـ الموافق ل يوم 2 مارس 1934، تق: عبد المجيد شاكر، دار الكتب الوطنية، تونس، 1967، ص 16.

التشريعية، والفصل بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية، وإقرار حكومة مسؤولة أمام هذا البرلمان، والتأكيد على مسألة الحريات العامة وتمكين التونسيين من جميع حقوقهم، وبصفة عامة كلّ ما من شأنه أن ينهض بالبلاد من الوهدة التي هي فيها ماديا ومعنويا، ويعطيها المحل اللائق بها بين الشعوب المتمدنة التي تملك مصيرها.¹

" فالمؤتمر إذن لم يخرج بحل نهائي حول الأهداف الاستراتيجية والتي اعتدل فيها المؤتمرون لاعتبارات ظرفية ومتعلقة بالوضع القانوني للحزب، كما أنّه لم يطرح هدف الاستقلال التام والنهائي عن فرنسا بصورة صارخة، لكن طالب بتحقيق أهداف تجعل من التونسيين أسياد مصير البلاد "²، وقد عبّر الحبيب بورقيبة عن توازن وجهات النظر في خطابه الافتتاحي للمؤتمر حين قال: "حل أزمة المجتمع التونسي يتمثل في استقلال البلاد من ناحية، وإيجاد معاهدة صداقة ووحدة مع الجمهورية الفرنسية من ناحية أخرى ".³

وعليه فمؤتمر 12-13 ماي 1933 والذي يمثل ذكرى بسط نظام الحماية، أقحم داخل الهياكل القيادية للحزب الدستوري عناصر جديدة تتسم بحركيتها وتوحيها لأساليب جديدة ومختلفة في المعارك الوطنية، كما طالب بتخلي الحزب عن وسائله البالية وبرنامجه القديم والخروج ببرنامج راديكالي طرح في وثيقته مسألة السير بالشعب التونسي نحو التحرير معلنا قطعه مع سياسة التعاون والمشاركة، وجعل الجماهير الشعبية وسيلة ضغط ضد سلطات الحماية، فأخرج الحزب من نخبويته، وانطلق في توسيع قاعدته الاجتماعية، وتأسيس شعب جديدة في تونس وضواحيها وفي الوطن القبلي والساحل و صفاقس والقيروان وقفصة وماطر وقابس والمطوية وباجة وبنزرت ليخرج من دائرة نفوذه التقليدية في الشمال لينغرس أكثر في جهة الساحل منطقة الكثافة السكانية الهامة وموطن البرجوازية الصغرى

¹ علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، طبعة جديدة، مؤسسة علال الفاسي، ص 74.

² الذوايدي، تحولات. . ، المرجع السابق، ص 18.

³ العمل التونسي، 15 ماي 1933 "مؤتمر تاريخي". نقلا عن الذوايدي، تحولات. . ، المرجع السابق، ص 18.

الزراعية والحرفية والتي تضررت كثيرا من الأزمة الاقتصادية وبالتالي أصبح الحزب الدستوري أكبر حزب جماهيري في البلاد يضم حوالي 80 ثمانين شعبة 1933.¹

ونتيجة لهذا العمل قرر المقيم العام مونصورون حل الحزب الحر الدستوري، وتوقيف سائر صحفه.² فأصدر أمر بتاريخ 27 ماي 1933 يقضي بإيقاف نشر الصحف التونسية المكتوبة بالفرنسية مثلما سبق بخصوص الصحف المكتوبة بالعربية، فعُطّلت يوم 31 ماي جرائد (العمل التونسي)(L'Action Tunisienne) و(الصوت التونسي)(La Voix du tunisien) و(صوت الشعب)(La Voix du peuple) وحلّ الحزب الدستوري في نفس اليوم تطبيقا للقرار الصادر في 13 ماي 1933، كما نتج عن تطور الأحداث تغيير الحاكم العام مونصورون بمارسال بيروطون(Marcel Peyrouton) الذي وصل إلى تونس يوم 8 أوت 1933 ووجد الوضع متأزما.³

1-3- انشقاق الحزب الدستوري:

لم يمر على وجود جماعة العمل سبعة أشهر حتى نشبت خلافات بين الشبان وبين قيادات الحزب،⁴ إذ كانت النزعة الجديدة التي تمثلها كتلة شباب (العمل التونسي) مختلفة من حيث حماسها مع النزعة التي كان يمثلها رجال اللجنة التنفيذية في الحزب، وبالرغم من محاولة اللجنة التنفيذية تفادي الانشقاق في الصفوف إلا أنّ هذه الحركة لم تدرك الغاية منها، إذ عندما عُيّن المقيم العام بيروطون أخذ يُظهر للدستوريين عطفه واستعداده للتعاون، وسعى للاتصال بجميع الفئات بهدف تهدئة الأوضاع، فاستقبل في أكتوبر 1933 وفدا دستوريا مشكلا من أحمد الصّافي، صالح فرحات، محي الدين القليبي، علي بوحاجب، المنصف المستيري⁵ والبحري قيقية¹، ثمّ استدعى على حدى بعد بضعة أيام محمود

¹ لعيرج وآخرون، المرجع السابق، ص ص 82-84.

² الفاسي، المصدر السابق، ص 74.

³ الماطري، المصدر السابق، ص 49. وكذلك: لعيرج، المرجع السابق، ص 84.

⁴ الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص ص 56-58.

⁵ محمد المنصف المنستيري (1901-1971)، تلقى المنستيري تعليمًا زيتونيا، كان أحد قيادي الحزب الدستوري القديم وكان عضوا في لجنته التنفيذية إلى جانب الثعالبي وأحمد الصّافي وأحمد توفيق المدني وصالح فرحات. . إلخ، نشط

الماطري، وكان الهدف من ذلك تدارس الوضع وإيجاد حلول للأزمة²، وبعد أن اجتمع بهم أعلن لهم موافقته على بعض المطالب التي منها تقليل عدد الموظفين الفرنسيين، وإحلال الأهالي محلهم سيرا في طريقة التشريك في الحكم التي تؤدي في النهاية لأن يحكم التونسيون أنفسهم بأنفسهم، ولكنه اشترط عليهم عدم إعلان موافقته هذه ليتمكن من تنفيذها دون أن تمنعه من ذلك معارضة الفرنسيين، لكن السيد قيقه أخلف الوعد وكان هذا السبب في خروج جماعة العمل³، ففي 7 نوفمبر 1933 أحاط أحمد الصافي اللجنة التنفيذية علما بالوعود التي تعهد بها المقيم العام وطلب بنفس المناسبة رفت البحري قيقه من الحزب لإفشاء سر⁴ المحادثة التي أجراها الوفد الدستوري مع بيروطن، فاحتجت جماعة (العمل التونسي) باستثناء علي بوحاجب على ذلك القرار⁵، وتضامن الأخوين بورقيبة ومحمود الماطري والطاهر صفر معه، واستغلت جماعة (العمل التونسي) قبول القيادة الدستورية بمطالب المقيم العام والدّاعية إلى الرّكون إلى التّهدئة مقابل وعدهم بإصلاحات جدية للتّحديد بأحمد الصافي زعيم الحزب وجماعته وفضحهم أمام الدّستوريين متّهمين إيّاهم بخرق مقررات مؤتمر نهج الجبل التي عاهدت بالسّير بالشّعب التونسي في سبيل التّحرير⁶، وهنا ظهرت

منصف المنستيري خاصة في الميدان الصحفي، وبرز خاصة في الثلاثينات حيث كان يكتب في جريدة الإرادة ضد مجموعة الحزب الحر الدّستوري الجديد.

¹ البحري قيقه (1904-1998): ولد في 4 مارس 1904 بتاستور كان من المؤسسين لجريدة العمل التونسي سنة 1932 رفقة بورقيبة، درس الحقوق واشتغل بالمحاماة، وكان من أعضاء مكتب 4 الديوان السياسي الأول للدّستور الجديد بعد تأسيسه سنة 1934، تولى العديد من المسؤوليات وشغل مناصب مختلفة وتوفي سنة 1998. أنظر: عقيب، المرجع السابق، ص 81.

² الماطري، المصدر السابق، ص 50-51.

³ نفسه، ص 75-76.

⁴ سر الحوار الدائر في مقابلة بين اللجنة التنفيذية والمقيم العام بيروطن، هذا الأخير أراد عدم إفشاء المحادثة خشية من أن يسمع حزب المعمرين بها فتبطل عمله، إلا أنّ بحري قيقه أفشى السر إلى صديقه القديم الشاذلي خير الله والذي بدوره نقله إلى (دوران أنقليفيال) مدير جريدة (تونس الاشتراكية) لسان الحزب الاشتراكي، فنشرت فحوى المحادثة، كما نشرت كذلك جريدة (لاديباش) التونسية الصّادرة بالفرنسية ولسان حزب المعمرين الفرنسيين فحوى المحادثة. فاستدعى المقيم العام أعضاء اللجنة التنفيذية ونتج على إثر ذلك رفت البحري قيقه. أنظر، الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 56.

⁵ الماطري، المصدر السابق، ص 52-53.

⁶ محمد الأزهر الغربي، المرجع السابق، ص 275.

القطيعة داخل الحزب، وبالرغم من أنّ بواورها ظهرت قبل ذلك، وتعود إلى مشاركة الحبيب بورقيبة في الوفد الذي أُلّفه أعيان مدينة المنستير لمقابلة الباي في سبتمبر 1933 احتجاجاً على أعمال العنف التي رافقت رفض الأهالي لدفن أحد المجنّسين في المقبرة الإسلامية¹ دون أن يُعلم اللّجنة التّفيذية للحزب بهذه الزيارة الأمر الذي أدّى إلى توبيخه من قبل هذه اللّجنة، مما جعله يقدّم استقالته من الحزب يوم 9 سبتمبر 1933.²

وعليه فإنّ هذه الأمور دفعت الشّبان إلى الانفصال نهائياً عن حزب الدّستور بعد أن يُسّوا من إمكانية التّعاون مع رجالاته من الرّعيل الأول نتيجة التّباین الثقافي والانتماء الفكري بين الفريقين، حيث لم تتفق جماعة (العمل التّونسي) الغربية الثّقافة العلمانية المنهج مع أعضاء اللّجنة التّفيذية الذين كانوا في أغلبهم من ذوي الثّقافة العربية الإسلامية والفكر الشّرقي المتديّن والذين تشدّدوا في المحافظة على الدّين ورفضوا فصله عن السّياسة باعتبار أنّ الإسلام دبن ودولة، واعتبرت جماعة (العمل التّونسي) ذلك إغراقاً للقضية التّونسية في الوحل، وتمزيقها بين السّلطة الرّوحية والسّلطة التّفيذية، وكان أصحاب (العمل التّونسي) يرون أنّ الحزب أصبح بمزجه بين السّياسة والدّين عبارة عن طريقة صوفية، ذلك أنّه يفتح جلساته بتلاوة الآيات القرآنية، ولديه قاعة للصّلاة في نواديّه، ويشترط على من أراد الانخراط فيه أن يقسم يمين الإخلاص.³

فالجيل القديم بني ايديولوجيا على أساس فكرة تمتد جذورها إلى الفكر السّلفي الإصلاحي، وربط الحركة الوطنية في تونس بالمشرق العربي واعتمد على أسلوب الاحتجاج السّلمي ونشر المقالات المطوّلة في الصّحف، فهو يميل إلى الاعتدال ويحترز من العمل

¹ بعد أحداث المنستير التي تسبّبت في مقتل شعبان لبحوري إلى جانب الجرحى ونحو خمسين اعتقالاً، وللتعبير عن سخط السّكان قدّم وفد مكوّن من ستين شخصاً إلى مكتب المحامي بورقيبة في تونس، وطلبوا تدخله، وهكذا ودون تشاور قاد بورقيبة الوفد في 4 سبتمبر 1933 للاحتجاج عند الباي أحمد، والذي كان يقيم في المرسى. للمزيد أنظر:

Mohamed Bouzekri, "L'aube du mouvement national Tunisien ou l'ascension de Bourguiba", dant chaut pour l'au –delà des mers, préface de Jean Ganiage, Le Harmattan, Paris, 2008, p 20.

² الماطري، المصدر السابق، ص 52-53.

³ يوسف مناصرية، الصّراع الايديولوجي في الحركة الوطنية التونسية 1934-1937، دار المعارف للطباعة والنّشر، سوسة، تونس، 2002، ص 14.

الجماهيري، أما الجيل الجديد من فئة الشباب الذين درسوا بالجامعات الأوروبية وتلقوا علومًا عصرية وتشبعوا بأفكار الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وعانوا التجربة السياسية عن قرب، وبحكم اتصالهم بالأحزاب الفرنسية تعودوا على أساليب التنظيم الحزبي الغربي، فاندفعوا إلى العمل الميداني والاتصال المباشر بالجماهير، وبالتالي اختلاف الثقافة أدى إلى اختلاف أسلوب العمل، وهذا ما ولد نفور بين الجيلين، فاتخذ الشباب بعض الأحداث كحجة فقط للاستقالة.¹

وانقسم الحزب الحر الدستوري التونسي، وعقد الشباب الجدد مؤتمرا لهم في 2 مارس 1934 بمدينة قصر هلال حضره ستون شعبة، صرح فيه الطاهر صفر بأن الحزب الحر الدستوري قد تدهور وسقط نتيجة إدارته من قبل رجال بعضهم خاملين والبعض الآخر مستبدّين بالرأي²، أما الحبيب بورقيبة فأكد فيه بأن أعضاء الديوان السياسي الذي تأسس في هذا المؤتمر سيطبقون في تونس طرق المقاومة الأوروبية، وأنهم مصممون على المطالبة بحقوقهم المهضومة وحياتهم المسلوبة، وأنهم سيكافحون إلى أن يسود البلاد نظام سياسي واقتصادي واجتماعي قوامه العدالة والمساواة، وأن هذا النظام يزيد فرنسا قوة ومتانة، وتكون الأمة التونسية قوية مرتبطة مع الأمة الفرنسية لما بينهما من التضامن الذي لا ينكره أحد.³

وعليه فإن الديوان السياسي أو الحزب الدستوري الجديد اعتمد على قاعدة الحزب الدستوري واختار الانطلاق من داخله، والحفاظ على هياكله وتراثه ورأسماله الرمزي لدى الرأي العام الوطني لتفادي الفشل في منافسة حزب سياسي عريق، وتجنب مصير التجارب السابقة لفرحات بن عياد عند تأسيسه الحزب الدستوري المستقل وحسن قلاّتي عند تأسيسه الحزب الإصلاحي.⁴

¹ الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 61.

² مؤتمر البعث، المؤتمر العام للحزب الحر الدستوري التونسي، المصدر السابق، ص 44.

³ نفسه، ص 50.

⁴ الذواودي، تحولات...، المرجع السابق، ص 49.

وقام الحبيب بورقيبة بعزل قيادته العاجزة سياسيا بالنسبة إليه ، ووجّه مكتوبا إلى أحمد الصافي كاتب اللجنة التنفيذية العام أبلغه فيه طرده مع جميع أعضاء اللجنة من الحزب¹، "ليفسح له المجال لتنفيذ برنامجه الخاص الذي لا يختلف عن برنامج الحزب الإصلاحي، إذ حافظ على روح الحماية وصارع سلطتها المنحرفة عن نصوص المعاهدات الفرنسية التونسية، وطالب بالتعاون مع الفرنسيين وأتبع برنامجا يعتمد على سياسة المراحل الموصلة إلى استقلال تونس استقلالا ذاتيا تكون بمقتضاه مرتبطة بفرنسا في إطار اتحاد متوسطي للمستعمرات، فهو إذن حزب علماني يهّمش فيه الدين الإسلامي ليصبح مجرد طقوس لا دخل لها في تسيير الشؤون العامة للأمة"².

فبرنامج الحزب الحر الدستوري الجديد إذن لم يتأثر بنظام الحكم الشرقي المستمد سلطانه من الدين والذي يمثله الباي، بل استوحى في الميدان النظري من أصول القانون العام الغربي التي تلقاها المحامون الشبان على مقاعد كليات فرنسا، وفي الميدان العملي من عهد الأمان ودستور 1861 اللذين فرضهما الضّغط الأوربي على البايات المصلحين.³

وتشكّل الحزب الجديد باسم الحزب الحر الدستوري برئاسة الدكتور محمود الماطري، والحبيب بورقيبة كاتب عام، الطاهر صفر كاتب عام مساعد، محمد بورقيبة أمين للمال، البحري قيقة أمين مال مساعد، وفي ختام المؤتمر (قصر هلال)، صدر القانون الداخلي للحزب وانتخب مجلسا وطنيا سمي بالمجلس المّلي.⁴

¹ وجاء فيه: "لسوء صنيعتكم بالحركة الدستورية وعدم قيامكم بواجبكم نحو الأمة والطّعون في رجالها العاملين تقرر طردكم من الحزب. . وطلب منه كذلك تمكينه منه أوراق الحزب والأثاث الرّاجعة إليه ". أنظر: مناصريه، الصراع الايديولوجي، المرجع السابق، ص 10-11. .

² نفسه، ص 10-11.

³ جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، المصدر السابق، ص 102.

⁴ يتألف الحزب من ديوان سياسي، يتكون من رئيس وكاتب عام ومساعد له، وأمين مال ومساعد له، ويجتمع الديوان مرة كل أسبوع على الأقل للنظر في شؤون الحزب، أما المجلس المّلي يتكون من أفراد الديوان السياسي، ونواب عن الشعب الدستورية لا يتجاوز عددهم الثلاثين نائبا، يقع انتخابهم سنويا، ويجتمع كل ثلاثة شهور مرة، ووظيفته مراقبة أعمال الحزب ومراقبة الديوان السياسي، وهو الوساطة بين الديوان والمؤتمر، وهذا الأخير الذي يتكوّن من الشعب الدستورية ويجتمع

ولم تعترف اللجنة التنفيذية بالقرارات التي أصدرها مؤتمر قصر هلال، واعتبرت نفسها الممثل الشرعي والوحيد للحزب الحر الدستوري¹، ودعت إلى عقد مؤتمر للحزب يوم 26 أبريل 1934 بنهج غرنوطة، وتم فيه تعويض قادة العمل التونسي المنشقين بآخرين، والتأكيد على التمسك بمبادئ الحزب والسير بالبلاد نحو الاستقلال، وتحديد النقاط العريضة التي تسمح بالمحافظة على الشخصية الوطنية وسلطة الشعب، وركز المؤتمر خاصة على المطالبة ببرلمان تونسي منتخب بالاقتراع العام مع التمتع بالسلطة التشريعية وحقوق المراقبة، وإيجاد حكومة مسؤولة أمام البرلمان، وفصل السلطات الثلاث واستقلال العدالة التونسية وبسطها لتشمل جميع السكان، وإعطاء جميع الحريات لكل التونسيين بدون تمييز وإجبارية التعليم للجميع وحماية الاقتصاد.²

أما السلطات الاستعمارية فقد استبشرت بانقسام الحركة الوطنية، إذ فرح المقيم العام بيروطن بتأسيس الديوان السياسي وأيده وذلك عبر التسامح إزاء عودة النشاط الحزبي رغم المنع القانوني بمقتضى أمر 13/5/1933³، وصدر جريدة (العمل) جوان 1934 بعد أن قام بزيارة للمنستير والساحل التونسي في أبريل 1934، واستدعى الحبيب بورقيبة وجماعته وأخبرهم أن الإقامة العامة قد رخصت لهم في إخراج جريدتين بالعربية وبالفرنسية للتعبير عن نشاط حزبهم ونشر مبادئه،⁴ تحمل الجريدة الأولى اسم (العمل) والثانية اسم (العمل الحر).⁵ كما تم السماح من قبل بإعادة إصدار جريدة (الإرادة)⁶ لسان الحزب الدستوري القديم

بصورة اعتيادية في شهر محرم من كل سنة، ووظيفته النظر في الميزانية وتجديد الديوان السياسي والمجلس الملي، وله الحق في إبدال القانون الداخلي والبرنامج السياسي للحزب، للمزيد من التفصيل حول القانون الداخلي للحزب أنظر، مؤتمر البعث، المؤتمر العام للحزب الحر الدستوري التونسي، المصدر السابق، ص 89، 90.

¹ العبيدي، المقال السابق، ص 26.

² مناصرية، الصراع الأيديولوجي. . المرجع السابق، ص 20.

³ الذواوي، تحولات. . المرجع السابق، ص 40.

⁴ مناصرية، الصراع الأيديولوجي. . المرجع السابق، ص 16.

⁵ ثامر، المصدر السابق، ص 153.

⁶ جريدة الإرادة: هي لسان حال الحزب الدستوري القديم -اللجنة التنفيذية- صدر أول عدد لها بتاريخ 1934/1/8، وكان مديرها محمد المنصف المنستيري، وشعارها "إرادة الشعب من إرادة الله وإرادة الله لا تقاوم"، بدأت يومية ثم تحولت أسبوعية، عرفت الإيقاف في العديد من المرات مثل 1935-1936، ثم عادت سنة 1937، ثم في سنة 1938 لمدة عشرة

جانفي 1934،¹ الأمر الذي أدى إلى اشتعال المعارك الصحفية بين الحزبين، بين المنصف المنستيري ومحي الدين القليبي من جهة والطاهر صفر ومحمود الماطري من جهة أخرى، فالقديم اتهم الجديد بالديماغوجيا والارتجال والارتقاء في أحضان الغرب وأنه هو الذي يمثل الثقافة الأصلية للشعب،² أما الجديد اتهم القديم بالرجعية والسلبية والجمود والجبن.³

فالسطة الفرنسية إذن حاولت توسيع شقة الخلاف بين شقي الحزب بتعميق مناخ الريبة والصراع عبر تكثيف الاتصالات مع ممثلي الشقين المتصارعين وعملها على الإغداق عليهم بالوعود ببعض الإصلاحات الطفيفة بهدف إذكاء روح الفتنة والاختلاف وإشغال البعض بالآخر من أجل إخماد نشاط الحركة الوطنية، وقد كانت هذه المحاولة الهادفة إلى تجزئة الصف الوطني السبب في الصراع الخطي داخل الحزب الدستوري على حد رأي بعض المؤرخين كمحمد الصالح اللاجري الذي رأى أن بيروطنون كان وراء دفع أعضاء اللجنة التنفيذية إلى خوض صراع ضد جماعة (العمل التونسي) قصد منع إصلاح شؤون الحزب الدستوري، أما الطاهر عبد الله فقد اعتبر أن المقيم العام بيروطنون كان وراء انقسام الحركة الوطنية ولم يكن يناصر جماعة اللجنة التنفيذية كما يراه اللاجري، بل اعتبر أن جماعة (العمل التونسي) هي أداة فرنسا في تكسير وحدة الصف الوطني وسحب ذلك التحليل الخاطئ على حد قول الذواوي على كل تاريخ النضال الوطني التونسي.⁴

فالانشقاق داخل الحزب الدستوري كان نتيجة مؤامرة استعمارية حسب رأيهم، لكن الانقسام والخلاف حول أسلوب مقاومة الاحتلال الفرنسي بتونس لم يوقف نشاط الحركة.⁵

أيام وغيرها، وتوقفت تلقائيا لظروف الح. ع. 2 سنة 1940، ورجعت سنة 1948، وتعطلت نهائيا بداية من مارس 1955، لتحل محلها جريدة الاستقلال. أنظر: عقيب، الحزب الحر الدستوري...، المرجع السابق، 45.

¹ الذواوي، تحولات...، المرجع السابق، ص 40.

² لعيرج، المرجع السابق، ص 87.

³ الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 62.

⁴ الذواوي، تحولات...، المرجع السابق، ص 40.

⁵ الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 62-63.

الأمر الذي جعل الإدارة الاستعمارية تصاب بخيبة أمل، فقامت باعتقال زعماء الحزب بعد خمسة أشهر من تشكيله.¹

وعليه يمكن القول بأنّ انتماء القطبين الدستوريين فكريا واجتماعيا إلى وسطين مختلفين جعل تعارضهما السياسي أمرا حتميا، كما أنّ سيرورة تطور الحزب جعلت الاتجاه التقليدي المستند على المرجعيات الإسلامية المتمثلة في القيادة الأرستقراطية التقليدية المكونة من شيوخ الزيتونة وأعيان العاصمة² تتراجع أمام نخبة شابة صاعدة خريجة المدارس الفرنسية

¹ ياغي، شاكّر، المرجع السابق، ص 109-110.

² وقد فند ذلك المحجوبي، إذ قال: "عند هيكلة الحزب الدستوري 29 ماي 1921 عُهد بالأمانة العامة إلى أحمد الصّافي وكان محاميا، أمّا عبد العزيز النّعالبي رغم كونه الرّعيم الفعلي للحزب فقد اختار وضعية عضو عادي في الحزب، وكانت اللّجنة التّنفيذية الثّانية مشكّلة من 24 عضوا، كان أغلبهم من أبناء مدينة تونس باستثناء المزايي صالح بن يحيى، وسليمان الجادوي من جربة، فمدينة تونس إذن هي من تولّت قيادة الحركة الوطنية حتى الثلاثينات. وعلاوة على هذا كانت قيادة الحزب تحت سيطرة عناصر جلّهم من البرجوازية (ملاكّي أراضي، فلاحين، تجار، محامين)، غير أنّ البعض كانوا ذوي وضعية متواضعة، وكان ذلك شأن عبد العزيز النّعالبي الذي لم يكن يشغل أي عمل (كان من العدول بمدينة تونس)، ولم يورثه والده إرثا هاما، وكذلك شأن أحمد توفيق المدني الذي كان متفرّغا للحركة الوطنية، وأيضا محمد الرياحي الذي شغل منصب متواضع بجمعية الأوقاف، أمّا محمد الجعايي وسليمان الجادوي، والطيب بن عيسى فقد كانوا على النّوالي: مهنة خياط وعطّار وإسكافي. وكل هؤلاء كانت لهم مكانة قوية ضمن قيادة الحزب الدّستوري.

وكما أنّ اللّجنة التّنفيذية لم تتضمّن البرجوازيين فقط، فكَذلك وخلافا للرأي المسلم به عادة، لم تكن متركبة من رجال رجعيين من ذوي التكوين التقليدي، فأحمد الصّافي الأمين العام للحزب ومساعد الطيب الجميل وكذلك صالح بن فرحات العضو المؤثر في اللّجنة التّنفيذية كلّهم كانوا محامين متخرجين من الجامعات الفرنسية، وكان الطّاهر بن عمّار من قدماء تلامذة معهد كارنو، وكان من اللّجنة التّنفيذية ممّن تلقى تعليما مزدوجا بالعربية وبالفرنسية كأحمد توفيق المدني والطّيب رضوان. ولئن كانت أغلبية القيادة الدّستورية ذات تكوين زيتوني إلاّ أنّها أبعد ما تكون عن الرّجعية، فكانت تسير في خط الشّباب التّونسي قبل ح. ع. 1. وكانت تنزع إلى الإصلاح والتّوفيق بين الإسلام والعالم العصري.

كما لم يكن أنصار الدّستور خلافا للرأي السّائد ينحصرّون في تونس والعاصمة ومن البرجوازيين، بل كانوا يمتدّون إلى مناطق شتى من الإيالة (سوسة وفي قرى مختلفة من السّاحل، وقابس، القيروان، صفاقس، الحامة،

ومتشعبة بمناهجها وأفكارها الليبرالية، والتي تبنت رؤية أكثر راديكالية وعملية في العمل السياسي، فالنخبة الجديدة ساهمت في إزاحة العائلات العريقة من مواقع القيادة الاجتماعية والسياسية، ورفعت لواء الحداثة والوطنية التونسية بدل بشائر (الجامعة الإسلامية) التي حملتها حركة (الشباب التونسي) والحزب الحر الدستوري التونسي.

وبالتالي أصبح الحزب الدستوري ذا قطبين تفرق بينهما الأصول الجهوية والانتماء الطبقي¹ والنظرة السياسية (الإصلاح المعتدل من جهة والتغيير السياسي من جهة أخرى)، وصيغ النضال (النضال النخبوي والسلمي من ناحية والنضال الجماهيري من ناحية ثانية).²

فالانشقاق إذن يعكس صراعا على الزعامة بين جيلين، ويؤشر وصول الجيل الجديد إلى موقع متقدم في المعارضة السياسية على نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى، مرحلة انحسار نفوذ أعيان العاصمة وشيوخ الزيتونة نتيجة خطّهم النضالي "الناعم"، ومرحلة صعود النخبة الجديدة وجلّ عناصرها ينحدر من أصول "نصف بلدية" أو قروية وشعبية، وكانت تتقد حماسا وحيوية وقيادتها للعمل الوطني، ويقول في هذا الصدد عبد الباقي الهرماسي³: "...انطلاقا من سنة 1930 نشاهد ظهور جيل جديد من المثقفين أصيلي داخل البلاد متخرجين من معاهد التعليم العليا الأوروبية، ففي محاولة انفتاح كان الحزب الدستوري أول من أقحم هؤلاء المثقفين الشبان، ولكنهم كانوا هم الذين اكتشفوا أنّ الحزب لم يكن سوى

باجة، ماطر و بنزرت كلّها كان بها شعب دستورية.)، وإلى كافة الطبقات الاجتماعية. أنظر: المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص ص 277-279.

¹ وفي الانتماء الجهوي لقيادة الحزبين الدستوريين بعد أن انفصلا عن بعضهما، فإننا نجد في قيادة الحزب الدستوري 20 شخصا من العاصمة واثنين من باقي الجهات، أمّا في قيادة الديوان السياسي نجد 14 شخصا من العاصمة و25 شخصا من باقي الجهات، أمّا مهن هؤلاء القادة فهي كما يلي: ففي الحزب الدستوري نجد 10 أشخاص مهن حرة و11 شخصا تاجرا ومزارعين وموظف واحد، أمّا عن الديوان السياسي، فنجد 31 شخصا مهن حرة وسبعة موظفين وتاجر أو مزارع واحد. أنظر: الذواوي، تحولات...، المرجع السابق، ص ص 34-38.

² الذواوي، تحولات...، المرجع السابق، ص ص 34-38.

³ عبد الباقي الهرماسي (1937-2021)، أستاذ علم اجتماع في تونس، ووزير الثقافة بين عامي (1996-2004) قبل تعيينه وزيرا للشؤون الخارجية (2004-2005).

مجموعة من الأعيان الهرمين، فدفعهم تفتحهم الفكري تجاه الطموحات الشعبية والأشخاص دون اعتبار أصولهم الاجتماعية والجهوية وكذلك امتعاضهم من التكتيكات البيزنطية إلى تحملهم بأنفسهم قيادة الحزب الدستوري وبالتالي قيادة الحركة الوطنية.¹

1-4- مرحلة ما بعد 1936:

بعد حملات الاعتقال في صفوف قادة الحركة الوطنية، تشكّل الديوان السياسي الثاني تحت قيادة البحري قيقة والبشير صفر وصالح بن يوسف²، والذين تمّ إيقافهم يوم 3 جانفي 1935، ليتشكّل بعدها ديوان سياسي ثالث والمتركّب من بعض الوجوه المعتدلة أمثال الشاذلي خير الله، البشير الفراتي، الطاهر الزاوش، محمد سويسي، الشاذلي زويتن، توفيق بن الشيخ³ وعبد الرحمان علولو،⁴ والذي قدّم استقالته على إثر مظاهرة غفيرة يوم 28 مارس 1935 لكونه يرفض الشّعب الشّعبى والاصطدام مع سلطات الحماية، بينما القاعدة الحزبية كانت ترفض الرّجوع إلى صيغ وتقاليد كانت أحد أسباب ابتعادها عن الحزب الدستوري القديم.⁵ وكانت هذه المظاهرة للمطالبة بإطلاق سراح الرّعاء السياسيين المعتقلين في برج

¹ الذوايدي، تطور الحركة الوطنية التونسية. . المرجع السابق، ص 30.

² صالح بن يوسف (1961-1907): ولد يوم 11 أكتوبر 1907 بمغراوة شرق جزيرة جربة، تعلّم القرآن في جامع حاضر باش، زاول تعليمه في تونس بداية من سنة 1915، وحصل على الشّهادة الابتدائية سنة 1922، والتحق بمعهد كارنو حتى نال منه شهادة البكالوريا سنة 1929 بعدها انتقل إلى السّربون بباريس، أسّس سنة 1931 شعبة دستورية بباريس، حتى نشوب الخلاف بينه وبين بورقيبة حول المفاوضات مع فرنسا ورفضه الاستقلال الدّاخل، وتطوّرت لتصبح نزاعا مسلحا بينهما خسر بعدها بن يوسف المعركة فرحل إلى القاهرة، وفي إحدى رحلاته العلاجية لألمانيا تمّ اغتياله في جوان 1961 بفرانكفورت. أنظر: عقيب، المرجع السابق، ص 142.

³ منصف الشّابي، صالح بن يوسف حياة كفاح، ط2، دار نقوش عربية، تونس، 2007، ص 54.

⁴ الذوايدي، تحولات. . المرجع السابق، ص 55-56.

⁵ نفسه، ص 57.

لوبوف (Le Beuf) بجنوب البلاد منذ 1934.¹ والذين مكثوا به دون محاكمة إلى غاية وصول الجبهة الشعبية للحكم في فرنسا في ماي 1936.²

إذ بعد تعيين بيروطون مقيما عاما بالمغرب يوم 7 مارس 1936، وتعويضه في تونس بوالي مقاطعة الشمال أرمان قيون (Armand Guillion)، وذلك بعد تأكد فرنسا من عدم جدوى سياسة القوة التي طبقها بيروطون والتي صادقت عليها حكومة لافال³ (Laval) الرجعية التي أطاح بها البرلمان.⁴

التحق الحاكم العام الجديد بتونس 14 أبريل 1936، وأعلن عن عزمه على استهلال مهمته الجديدة باتخاذ إجراءات في سبيل التهدئة⁵، ومنها الإفراج عن المعتقلين⁶، فتم إطلاق سراحهم يوم 23 أبريل 1936 أي بعد حلول المقيم العام الجديد بأسبوع، وذلك باستثناء الحبيب بورقيبة ومحمود الماطري وصالح بن يوسف ومحمد بوزويطة الذين تم نقلهم إلى حومة السوق بجربة، أما البحري قيقة ومحي الدين القليبي ومحمد بن علي براهيم تم نقلهم إلى قابس.⁷ وتم الإعلان عن تسريحهم والسماح بعودتهم إلى مقراتهم ببلاغ من الإقامة العامة في 23 ماي 1936،⁸ وذلك بعد اتفاقهم مع المقيم العام الجديد على التوقف عن إثارة الشعب ومساعدة فرنسا على توفير الهدوء للقيام بالإصلاحات، واحترام حقوق فرنسا الحامية

¹ عزيز، المرجع السابق، ص 246.

² أسفرت الانتخابات التشريعية الفرنسية ليوم 3 ماي 1936 عن فوز قوائم الجبهة الشعبية (Le Front Populaire) التي مثلت تحالف الاشتراكيين والشيوعيين والزاديكاليين، وتم تجسيم هذا الانتصار بتكوين حكومة ترأسها الاشتراكي ليون بلوم، والتي سقطت في 21 جوان 1937، لتتكون بعدها حكومة كامى شوطان الزاديكالية، للمزيد أنظر، القزدغلي، المرجع السابق، ص 256.

³ بيير لافال (Pierre Laval) (1883-1945): سياسي فرنسي شغل عدة مناصب إدارية، وتولى رئاسة وزراء فرنسا أربع مرات. للمزيد أنظر: الكيالي، موسوعة السياسة، ج 5، المرجع السابق، ص 389.

⁴ الماطري، المصدر السابق، ص 98.

⁵ الماطري، المصدر السابق، ص 98.

⁶ الدقي، تونس من الإيالة. .، المرجع السابق، ص 158.

⁷ عزيز، المرجع السابق، ص 246.

⁸ منصف الشابي، المرجع السابق، ص 59.

وحقوق الباي، وأن لا يعارضوا مبدأ الحماية، ومطالبهم الحقيقية هي العدل والحرية، وانتهاج سياسة مشاركة حقيقية مع الحماية.¹

وكان ذلك منطلقاً لعودة النشاط العلني للوطنيين.² فبعد عودة المبعدين أعادوا تنظيم الحزب من جديد، واجتمع المجلس الملي يوم 10 جوان 1936.³

وقد رأى الحزب الدستوري الجديد في ذلك الحين إتباع سياسة براغماتية يسلك فيها مناورة جديدة تقوم على المطالبة بإصلاحات جوهرية ومستعجلة، والمشاركة النزيهة للحزب في تمكين تونس والتونسيين من تحسين أوضاعهم تحسيناً حقيقياً في حدود احترام مبادئ الحماية.⁴ أي احترام السيادة التونسية التي أقرتها المعاهدات التي خرقتها فرنسا منذ فرض الحماية⁵، وتنفيذ ما التزمت به من السير بالشعب في طريق الرقي، وإعداده لتسيير شؤونه بنفسه وهو برنامج عملي غير متطرف، كان من شأنه أن يفوز بتأييد أحرار فرنسا، ومنح تونس برلماناً وحكومة مسؤولة أمامه كمرحلة أولى في سبيل تحقيق أهداف الحزب الأصلية التي ترمي إلى استقلال البلاد وسيادتها، وعبر الحزب الدستوري الجديد عن استعداده للتفاوض مع فرنسا على هذا الأساس، وأوفد الحزب أمينه العام الحبيب بورقيبة إلى فرنسا مرّات عديدة سنة (1936-1937) للتفاوض مع الحكومة الفرنسية والدوائر الرسمية، وإقناعها بوجهة نظر الوطنيين في وجوب إرضاء رغبات الشعب التونسي.⁶

¹ الماطري، المصدر السابق، ص 100-101.

² الدقي، تونس من الإيالة. . المرجع السابق، ص 0158.

³ الماطري، المصدر السابق، ص 104.

⁴ نفسه، ص 112.

⁵ وكان بورقيبة قد راسل المقيم العام بيرطون في شهر جانفي 1936 برسالة جاء فيها "... إنني لم أفكر أبداً في مقاومة فرنسا ولم يتسرب إلى عقلنا الشك في صلاحيات فرنسا ولا حدثتنا أنفسنا بمقاومة مبدأ الحماية كما نصّت عليها معاهدة باردو. بل إنه غير مسموح بمقاومة الحماية باعتبارها طريق نحو انعتاق الشعب التونسي تدريجياً ودخوله عالم الحضارة عن طريق الإصلاحات المناسبة، وأنّ عملنا السياسي السابق لا يخرج عن إطار الشرعية وإنّها لا تعدو أن تكون محاولة لجلب انتباه المسؤولين إلى بعض نقاط الضعف في آلية الحماية والبحث مع فرنسا عن سبل تجانس مصالحها في تونس مع مطالب الشعب التونسي المشروعة ". أنظر: منصف الشابي، المرجع السابق، ص 59.

⁶ ثامر، المصدر السابق، ص 94.

وتمكّن بورقيبة في (جوان 1936) من عرض هذه المطالب على بيار فيانو¹ كاتب الدولة المساعد لوزير الخارجية المكلف بشؤون تونس والمغرب الأقصى، والذي بادر بدوره بزيارة إلى تونس في 20 فيفري 1937، وألقى خطابه الشهير في 1 مارس 1937 والذي جاء فيه: "ينبغي إنجاز الإصلاحات التي ترمي إلى تشريك فرنسا وتونس مشاركة فعالية وصادقة في إدارة الشؤون العمومية..."²، ولكن وعوده بإنجاز إصلاحات بخصوص الإدارة وتشريك التونسيين في شؤون البلاد في نطاق الحماية اصطدمت بمعارضة غلاة الاستعمار، فقامت وزارة الخارجية بإقصائه لأنه أظهر بعض العطف على الشعب التونسي.³

وعند عودة الحبيب بورقيبة من باريس 6 ماي 1937 نظم الديوان السياسي اجتماعا عاما كبيرا بحديقة قامبيط، ودعا الديوان السياسي إلى الهدوء في سبيل إنجاح السياسة التي اقترحها فيانو. لكن خصوم سياسة التقاهم ضاعفوا من الاستفزات وأخذوا في تنظيم المظاهرات ممّا حمل المقيم العام على التراجع على الإجراءات التحريرية المتخذة في أوت 1936، وأصدر أمران يقيّدان الحريّات العامة ويعيدان العمل بأحكام الأوامر الجائرة السابقة⁴ ممّا أدّى إلى توقف الحوار وتوتر العلاقة مع الحزب الدستوري الجديد.⁵

وعليه فإنّ الحزب وبالرغم من انحيازه إلى حكومة الجبهة الشعبية، وقبوله مبادئ السيادة المزدوجة والحقوق المكتسبة وإتباع سياسة المراحل، ودعوته إلى تأسيس مجموعة متوسطة فرنسية تكون تونس جزءا منها، إذ أنّ بورقيبة في خطابه بباريس في فيفري 1937 ركّز على تدعيم حكومة الجبهة الكامل لتونس والجزائر والمغرب الأقصى والاندماج في نظام

¹ بيار فيانو (Pierre Vienot)؛ سياسي فرنسي ولد في 5 أوت 1897 بكليرمون (Clermont) درس في ثانوية جونسون دي سالي بباريس، شارك في الحرب العالمية الأولى، درس الحقوق بعد حيازته على البكالوريا، عمل مع ليوتي في المغرب، وعيّن كاتباً للدولة المحمية المغربية، وفي خريف 1936 عيّن وكيلا وكاتباً للدولة مكلفاً بشؤون المحميات والمستعمرات المغربية والشرق الأوسط مساعدا لوزير الخارجية، كان ضمن الوفد المفاوض في لبنان وسوريا، وتوفي إثر أزمة قلبية في لندن في 20 جويلية 1944. أنظر: عقيب، الحزب الحر الدستوري...، المرجع السابق، ص 56.

² الماطري، المصدر السابق، ص 112.

³ ثامر، المصدر السابق، ص 95.

⁴ الماطري، المصدر السابق، ص 113.

⁵ مناصريه، الصراع الايديولوجي، المرجع السابق، ص 25-26.

متوسطي اتّحادي،¹ ونفس الأمر بالنسبة للماطري والذي قال: "...عاجلا أم آجلا ستفهم فرنسا أنّ مستقبل إمبراطوريتها الاستعمارية يكمن في اتّحادية تمنح الأطراف التي تتركب منها حكما ذاتيا عريضا وحرّيات كبيرة هذا هو على سبيل المثال الطّريق الذي تسلكه حاليا الإمبراطورية البريطانية بنجاح حقيقي".²، إلّا أنّ حكومة الجبهة الشعبية سلكت نفس المسلك الذي سلكته الحكومات التي سبقتها على اختلاف أنواعها السياسية وهي سياسة بذل الوعود التي لا تُنفذ ولا يقصد منها غير تخدير الشعب وكسب الوقت.

أمّا الحزب الدّستوري القديم فركّز على الشّعور الدّيني والانتماء إلى مجتمع إسلامي، ونظّم حملاته الإعلامية والدّعائية عبر صحافته (الإرادة) و(الميثاق التونسي) النّاطقة بالفرنسية³ حول فكرة " أنّه لا يمكن أن ينتظر شيئا من فرنسا وهذه هي الفكرة التي تميّزه عن الدّستوري الجديد"، وركّز على ديمومة الدّولة التونسية والمحافظة على تقاليد العريقة، ومحاولة ربطها بالشرق العربي الإسلامي⁴، وكان قادة الحزب مصمّمين على الاستقلال الكامل للبلاد وجاء واضحا في تصريح الأمين العام للحزب صالح فرحات الذي رفض التّعاون مع فرنسا وانتقد إجراءات الحماية وحكومة الجبهة الشعبية التي ركّزت فقط على مصالح الاستعمار الفرنسي في تونس، وعليه فإنّ الحزب الدّستوري القديم اتّخذ مواقف وطنية راديكالية ومتشدّدة ترفض سياسة الكواليس والمساومة،⁵ فكان مشروع الحزبين على طرفي نقيض، وتأكّد ذلك خاصة بعد عودة الثّعالبي إلى تونس جويلية 1937، وفشل الدّيوان السّياسي في احتوائه.⁶

¹ نفسه.

² الذوايدي، تطور الحركة الوطنية. ، المرجع السابق، ص 140.

³ مناصرة، الصراع الايديولوجي، المرجع السابق، ص 24.

⁴ نفسه، ص 23.

⁵ لعيرج، المرجع السابق، ص 97.

⁶ إذ أوفد الحزب الدّستوري الجديد صالح بن يوسف صحبة ابن الثّعالبي إلى مرسيليا لاستقباله، وعندما وصل إلى تونس كان في استقباله الدّيوان السّياسي والذي نظّم اجتماعا كبيرا في حديقة قامبيتا 10 جويلية 1937 (لمدة ست ساعات) ألقي فيه الثّعالبي خطابا تأسف فيه على الانشقاق الذي مسّ الحزب، ودعا إلى ضرورة إعادة الوحدة الوطنية ونادى فيه لأول

إذ أصدر بورقيبة أوامره بمقاطعة اجتماعات الثعالبي ونزع الثقة منه، وراح يجوب البلاد لتأسيس شعب دستورية جديدة، وكتب في جريدة (العمل التونسي) يوم 30 جويلية 1937 "عندما يلبي الجميع النداء، و يحتل كل تونسي مكانه في صفوف الحزب، تكون حينئذ حرية بلادنا أمرا مكتسبا"¹، وقد تضاعفت المواجهات بين الحزبين الدستوريين على إثر نشر "الكلمة الحاسمة" للثعالبي يوم 3-10-1937، والتي انحاز فيها للدستوريين القدامى، ودعا فيها إلى تأليف لجنة عليا تسمى لجنة النظر والبحوث السياسية تتركب من ثمانية أعضاء تحت رئاسة الثعالبي ينتخبون من الهيئتين (اللجنة التنفيذية والديوان السياسي) وما تقرره هذه اللجنة يقع عرضه على الهيئتين لإعطائه الصبغة التنفيذية، لكن الديوان السياسي رفض هذا الاقتراح وطلب بعقد مؤتمر عام ينتخب مکتبا جديدا لتسيير شؤون الحزب، واعتبر الثعالبي ذلك من مهام الهيئتين، وفسر الديوان السياسي ذلك بأن الثعالبي يريد توحيد الحزب دون استشارة القاعدة الشعبية.²

وتمسك الحزب الدستوري الجديد بضرورة عقد مؤتمر عام فلأن ذلك يضمن له النجاح الكامل لتفوقه في امتلاك الأغلبية الساحقة من المناضلين، لأن الديوان السياسي عمل عملا جادا في التوغل في الأوساط الشعبية والاتصال المباشر مع الشعب بما في ذلك زعماء الطرق الصوفية المعادين للإصلاح³، وتأسيس الشعب الدستورية والإكثار منها حتى بدون منخرطين كافيين منذ 1934 وذلك بهدف الحصول على الأغلبية في حالة انعقاد مؤتمر عام، بينما اللجنة التنفيذية أبت على نفس الشعب تقريبا.⁴

وقام الديوان السياسي بحملة عنيفة ضد الثعالبي وفكرته التوفيقية وأتهمه بالخيانة والجاسوسية لحساب الإقامة العامة، وشملت حملته الإعلامية جميع المدن الداخلية، والشمال

مرة باستقلال شمال إفريقيا التام، ووحدة المغرب العربي كخطوة لتحريره وتوحيده مع بقية الأقطار العربية. أنظر: الماطري، المصدر السابق، ص 115. وكذلك: الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 164.

¹ مناصرة، الصراع الأيديولوجي. .، المرجع السابق، ص 31.

² مناصرة، الصراع الأيديولوجي. .، المرجع السابق، ص 34.

³ نفسه، ص 44-45.

⁴ نفسه، ص 33.

والشمال الغربي التونسي، واستمرت الحملة طيلة شهر سبتمبر تمكّن خلالها الديوان السياسي من كسب أنصار جدد وتكوين كتلة معارضة للثعلابي عملت على الوقوف أمامه في كل مكان قصده، وذلك من أجل الضّغط عليه للتّخلي عن فكرته.¹ وفي أواخر 1937 تردّى الوضع كثيرا وازداد النزاع بين الحزب القديم والجديد، وكانت جريدة (الإرادة) لسان الحزب القديم تقوم بحملة ديماغوجية عنيفة لا مثيل لها، كما كان مناضلو الحزب الجديد يقومون بإفساد الاجتماعات التي يخطب فيها الثعلابي لفائدة الوحدة الوطنية.²

ويعود الفشل في توحيد شقّي الحركة الوطنية بالأساس إلى تباين صريح في الرؤية الفكرية، حيث كان الثعلابي يعوّل على إعطاء الحركة الوطنية بعدا عربيا إسلاميا وتحقيق الاستقلال في نطاق الوحدة العربية الإسلامية، أمّا جماعة بورقيبة فكانت تميل إلى تحرير البلاد دون التّخلي عن فرنسا.³

واستمرّت القطيعة النّهائية التي ظهر فيها تفوّق الديوان السياسي، والذي دعا إلى عقد مؤتمره الثاني من 30 أكتوبر إلى 2 نوفمبر 1937 بنهج التّربونال بتونس، لمناقشة الوضع السياسي في البلاد، ومسألة تغيير كلمة "تحرير" (Libération ou émancipation) التي جاءت في برنامج الحزب نهج الجبل إلى كلمة "استقلال" (Indépendance)،⁴ ونتج عن هذا المؤتمر ظهور جناحين: جناح راديكالي متشدّد وطالب بتغيير برنامج الحزب وإدراج قضية استقلال البلاد بصفة رسمية ومثّل هذا الاتجاه خاصة أعضاء اللّجنة السياسية برئاسة سالم الشاذلي والمقرّر العام الحبيب بوقطفة⁵ ويوسف الرّويسى والمنجي سليم¹ وعلي البلهوان²

¹ مناصرية، الصراع الأيديولوجي...، المرجع السابق، ص ص 34-40.

² الماطري، المصدر السابق، ص 117.

³ الدقي، تونس من الإيالة. .، المرجع السابق، ص 158.

⁴ لعيرج، المرجع السابق، ص 101.

⁵ الحبيب بوقطفة (1906-1943)، ولد ببزرت، وبعد أن أنهى تعليمه الابتدائي، انخرط في التّعليم الرّيتوني، الذي لم يكمله لوفاة والده، وهو ناشط جمعي ضمن الجامعة الخيرية الإسلامية ببزرت، برز في السّاحة السياسية في أحداث التّجنيس ببزرت، كان عضوا ناشطا ضمن الحزب الدّستوري الجديد، لحقه القمع البيروطوني وأبعد إلى بن قردان رفقة محمود الماطري بتنفيذ قرار الإبعاد 3 جانفي 1935، وبعد أن قضى عاما وثلاثة أشهر في السّجن أفرج عليه رفقة أصدقائه من برج البوف أبريل 1936، وتعرّض للإيقاف في 3 مارس 1938 بتهمة الإعتداء على كوميسار فرنسي، وأبعد

والباهي الأدغم وصالح بن يوسف والهادي نويرة³ ومفتاح فرحات وسليمان بن سليمان، وجناح معتدل ضمّ كل من محمود الماطري، الطاهر صفر، البحري قيقّة، وبوصقارة والعجمي، وتمّ الاقتراع وكانت نتائجه لصالح المعتدلين (28 صوتا للمعتدلين و13 صوتا للراديكاليين)⁴، وهكذا لم يدرج موضوع الاستقلال في برنامج الحزب واقتصر الأمر على تعويضه بمصطلح تحرير واستنساخ برنامج مؤتمر نهج الجبل.⁵

ويقول الدكتور الماطري قبل أن يستقيل من رئاسة الحزب: "هل نحن في حاجة من أجل التحرر، أن نضرب صفحا عن معاهدات الحماية ليس هذا رأيّا بل إنّه من الواجب حسب

هذه المرة إلى الجزائر والتي بقي منتقلا بين سجونها إلى غاية 1943، وبعد عودته 1943 إلى تونس، قرّر السفر إلى روما حيث كان صديقه الحبيب ثامر ينتظره، فتوفي في الباخرة التي نقله نتيجة إغارة جوية من طائفة مقاتلة إبان الحرب. أنظر: محمد الصالح المهدي، تونس في تراجم أعلامها، ج1، وزارة القافة، تونس، 2012، ص ص 164-169.

¹ المنجي سليم (1908-1969): درس بالمدرسة الصادقية، ثمّ تحوّل إلى فرنسا حيث درس الحقوق بباريس، وبعد عودته لتونس انتمى للحزب الدستوري الجديد، بعد إعلان الحكومة الفرنسية عن استعدادها لمنح تونس استقلالها الداخلي، أصبح من الوفد المفاوض حتى أفضت تلك المفاوضات لتوقيع اتفاقيات الاستقلال الداخلي في 3 جوان 1955. للمزيد أنظر: عقيب، الحزب الحر الدستوري ...، المرجع السابق، ص 216.

² علي البلهوان، من مواليد 13-4-1909، بتونس، زاول تعليمه الابتدائي والثانوي بتونس، والعالى بباريس (1932-1935)، انتمى في باريس إلى نجم شمال إفريقيا، انضمّ إلى الحزب الدستوري الجديد سنة 1936، وقع فصله عن عمله كأستاذ في المعهد الصادقي، من أنصار الصّدام العنيف مع الحكومة في المؤتمر الثاني للحزب، لعب دورا هاما خلال نضالات أبريل 1938، وتمّ إقافه يوم 9 أفريل 1938، وسجن إلى حد سنة 1943، عضو بالديوان السياسي للحزب منذ أكتوبر 1948، ناضل باسم الدستور الجديد في المشرق العربي، ممثل تونس بمؤتمر طنجة 1958، التي حاولت إرساء الوحدة المغاربية، توفي مباشرة إثر عودته من طنجة يوم 11-5-1958. أنظر: الذواوي، الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 258.

³ الهادي نويرة (1911-1993): ولد بالمنستير، تلقى تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه، ثمّ بالمدرسة الصادقية، بعدها انتقل إلى باريس حيث تحصّل على البكالوريا سنة 1932، وعاد منها نهائيا سنة 1937 بعد أن حصل على شهادة الحقوق، كان من مؤسسي الدستور الجديد، تعرّض للاعتقال عدّة مرّات. للمزيد أنظر: عقيب، الحزب الحر الدستوري ...، المرجع السابق، ص 215.

⁴ الشّابي، "الحركة الوطنية 1934-1952"، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 110.

⁵ الدّقي، تونس من الإيالة...، المرجع السابق، ص 160.

اعتقادنا العودة إلى تطبيق صارم للمعاهدات التي تربط تونس بفرنسا ¹. "كما قال: " نحن نريد بصدق أن نرى تحرّنا يقع في مدار فرنسا ومع فرنسا".²

أمّا موقف الحبيب بورقيبة الكاتب العام للحزب من التيار الأول يتمثل في قوله: "...لاشك أننا متفّقون في الغاية هي الاستقلال وأنّنا لم نحجم لا من التعبير عليها لدى المسؤولين من رجال حكومة فرنسا ولا من إذاعة تلك المحادثة التي بسطت فيها مسألة استقلال تونس عبر صفحات الجرائد، فالخلاف باللجنة السياسية انحصر في هل تبقى كلمة "التحرير" بالبرنامج الأساسي أم تعوّض بـ "الاستقلال" وأنا شخصياً أرى عدم التّغيير لأنّنا وضعنا في برنامجنا الأساسي كلمة "التحرير" لا يمنعنا من الطّموح إلى الاستقلال طبعاً، أنا أول من يعتقد في ضرورة الاستقلال ولهذه العقيدة لم أجازف بمطالبته أول الأمر ورحت أكون له الأسس الصّالحة للبناء واستعد له وأعتقد أنّي هيأت له بعض التّهيؤ ولازلت مستمراً في البناء".³

فالدستوري الجديد إذن رفض مبدأ الاستقلال بمفهوم الحزب الدّستوري القديم، وادّعى الحبيب بورقيبة بأنّ اللّجنة التّنفيذية ستعود بالشّعب التّونسي مراحل شاسعة إلى الوراء نظراً لتمسّكها بالاستقلال الكامل،⁴ فسياسة الكل أو لا شيء سياسة غير معقولة لأنّها غير ناجعة، وأن مطلب الاستقلال غير واقعي ووهم كبير وسابق لأوانه ذلك أنّه إذا كان هذا المبدأ هدفاً فمن الضّروري أن يكون المرء واقعياً - في نظره - وأن يختار طريق الإصلاحات التي تقود الشّعب إلى التّحرر من غير عذاب، فمن الأحسن إذن التّمسك بكلمة "التحرير" الواسعة المعنى،⁵ كما أنّ مفهوم التّحرر لديه هو أمر خاضع بلا شك إلى شروط تتمثل في العمل على توثيق الرّوابط مع فرنسا،⁶ ولقد حصل وأن قال في مقال هام:

¹ الذواذي، تطور الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص 135.

² نفسه، ص 139.

³ الشّابيبي، "الحركة الوطنية التونسية ومطلب الاستقلال..."، المرجع السابق، ص 20-21.

⁴ مناصريه، الصّراع الأيديولوجي...، المرجع السابق، ص 15.

⁵ الماطري، المصدر السابق، ص 121.

⁶ مناصرية، الصّراع الأيديولوجي...، المرجع السابق، ص 24.

الدستور وفرنسا"، نشره ب(العمل التونسي) ليوم 11-2-1937: "لقد أكدنا ما هو صحيح قطعاً، إننا لم نكافح أبداً مبدأ الحماية، نحن نعتبر فعلاً أنّ معاهدة باردو إذا طبقت بصدق ومن غير خلفيات من شأنها أن تفضي حتماً إلى نتيجتين وهما ازدهار وتحرر الشعب التونسي وتعلّقه بأكثر متانة بفرنسا".¹

وبالتالي فإنّ الدستور الجديد يطالب بسيادة مشتركة فرنسية تونسية، وهذه السيادة المشتركة تكون عودة إلى تطبيق مخلص لمعاهدة باردو، فالتحرر والاستقلال لديه لن يتحققا إلا بموافقة فرنسا وتحت ظلّها، أي التحرر يكون في فلك فرنسا وليس من الضروري أن يلغي هذا التحرر جميع معاهدات الحماية، وقال بورقيبة في هذا الشأن: "وإذا كنّا لم نياس بعد من فرنسا... التي كوّننا ورّسخت في نفوسنا المبادئ المكوّنة للإنسان الأفضل، فلأننا مقتنعون بأنّ صوتنا لم يبلغ بعد مسامع شعب فرنسا"، وقال: "إننا نريد من فرنسا أن تحكم مع الشعب التونسي وليس مع الأعيان".²

وسيطر على مؤتمر نهج التبرونال روح الحماس وخرج بقرارات في منتهى الخطورة لمجابهة الاستعمار الفرنسي ومن هذه القرارات إعلان العصيان المدني ومجابهة الاستعمار بالعنف، ولكن رفض الماطري لأسلوب العنف المسيطر على المؤتمر والتصلب في مواقف الحزب جعله ينسحب من رئاسته في 13 جانفي 1938³، ومنذ ذلك الحين أصبح الحبيب بورقيبة رئيساً فعلياً للحزب كما أصبح صالح بن يوسف أميناً عاماً.⁴

وجاء المجلس المّلي المنعقد بين 13 و 14 مارس 1938 للتأكيد على تصعيد المواجهة ضد الإدارة الاستعمارية، وهذا وإن دلّ على شيء فإنّما يدل على تضائل آمال الحزب الدستوري الجديد التي كانت معلّقة على إمكانية التطوير السلمي لنظام الحماية،

¹ الذّوايدي، تطور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 135-136.

² الدّقي، تونس من الإيالة...، المرجع السابق، ص 158.

³ ويقال بأنّ الماطري استقال من الحزب تحت تهديد بورقيبة الذي أشهر مسدسا كان بحوزته في وجهه، للمزيد أنظر:

الحسين بن عيسى، المرجع السابق، ص 25. وكذلك، الطّاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 65.

⁴ الشّابي، "الحركة الوطنية التونسية ومطلب الاستقلال..."، المرجع السابق، ص 72.

وخيبته في حكومات الجبهة الشعبية المتتالية، التي تطوّر تحفظها تجاه المطالب الوطنية التونسية مع اشتداد ضغط الدّول الفاشية (ألمانيا وإيطاليا) من أجل الحصول على أراض خارج حدودها (المجال الحيوي).¹

وتوجت كل تحركات الحزب الدّستوري الجديد وعمليات التّعبئة التي شرع في القيام بها منذ مؤتمره الثاني بأحداث 9 أفريل 1938، والتي دفعت الإدارة الاستعمارية إلى شنّ حملة قمعية واسعة النّطاق ضدّ مناضلي الحزب الحر الدّستوري الجديد، وقيام المقيم العام بمجموعة من الإجراءات القانونية يوم 28 جوان 1938 للحد من حرية الصحافة والاجتماع التي أقرتها النّصوص الصّادرة في صائفة 1936 التي تعتبر متسامحة وليبرالية.²

أمّا الدّستور القديم تصلّب في موقفه وبقي يسير في فلك مبدأ الاستقلال الكامل وعدم فتح الحوار والتّعاون مع السّلطة والدّعوة إلى وحدة الشّمال الإفريقية والعربية والإسلامية،³ ولكنّ عداوته للاستعمار لم تتعدّد شدّة النّقد اللفظي فلم تكن مصحوبة بنشاط نضالي فعلي ضدّه أي عدم وجود توافق بين المبادئ والعمل فكان يعلن عن عزمه على تحقيق أهداف لم يعمل في سبيل تحقيقها عملاً كبيراً.⁴

أمّا الحزبين السياسيين الاشتراكي والشيوعي التونسيين قد انصبّا على الدّستور الجديد لأجل معارضته للجبهة الشعبية ابتداء من 1937، فاتّهم الاشتراكيون الحزب الدّستوري الجديد بأنّه على اتّفاق مع موسوليني، وتحدّثوا عن مساعدة مالية إيطالية له، وعادوا إلى الدّفاع عن الحكومة الفرنسية، إذ يقول أ. دوران انقليفيال: "لكن عندما يتّضح أنّ هؤلاء الدّعاة ينصحون برفض الحماية ورفض الخدمة العسكرية ويهيّئون الشّعب للعمل العلني ضدّ

¹ القزذغلي، المرجع السابق، ص 305-306.

² نفسه، ص 306-307.

³ نفسه، ص 45.

⁴ بورقيبة، تاريخ الحركة الوطنية...، المصدر السابق، ص 7.

الحماية، أعتقد أنهم يبتعدون عن ميدان النقاش المسموح..."، فالاختلافات بين الحزبين أضرت بعلاقتها بشدة، ولم يكونا في أحداث أبريل 1938 في نفس المعسكر.¹

أما الحزب الشيوعي التونسي² فقد تخلّى عن رفع راية التحرر الوطني، وتراجع عن موقفه تجاه المسألة الاستعمارية وعن مطلب الاستقلال لفائدة المستعمرات، ومردّ ذلك إلى ما فرضته أولويات النضال ضدّ الفاشية في فرنسا ومحاولة كسب أكثر ما يمكن من الأنصار للدفاع عن الحريّات الديمقراطيّة، فالوضع العالمي الجديد وخاصة بعد الهجوم الإيطالي على ليبيا سبتمبر 1935، ورغبة الفاشية في التّوسع في شمال إفريقيا جعلت موقف الحزب الشيوعي التونسي محدّد بالحيثيّات والأولويات التي رسمتها الحركة الشيوعية العالمية منذ المؤتمر السابع للأمم المتحدة الشيوعية 1935 والمتمثلة في النضال ضدّ الفاشية الأمر الذي أدّى إلى انزاله عن مطالب الحركة الوطنية واعتبار تحرّكات الوطنيين التونسيين من أجل تحقيق مطالبهم تساعد موضوعيا المطامع الإيطالية في تونس³. كما وقف في وجه تكوين نقابات وطنية مستقلة عن النقابات الاستعمارية معتبرا إيّاها عامل تقسيم لصفوف العمّال. وعمل على حصر نضال الشعب التونسي في حدود إصلاحات اقتصادية واجتماعية متواضعة.⁴

وأخيرا يمكن أن نقول بأنّ الحركة الوطنية في الفترة الممتدة من 1930 إلى 1933 لم تكتمل تحولاتها بصفة تسمح لها الحسم في قضايا النضال ووسائله وأساليبه، وحتّى العمل الصحفي لم يكن خاضعا لخطة دعائية ما، والعمل التحريضي لم يكن وليد الاختيارات والبرامج العملية للحزب، بل كان أساسا مبادرات فردية أو جماعية محدودة وغير منسّقة، فالحركة الوطنية عاشت في هذه المرحلة حالة من الارتجال والبعثرة ووجود جملة من

¹ الذوّادي، تطور الحركة الوطنية. . ، المرجع السابق، ص 233.

² لقد كان النشاط الشيوعي خلال كامل الفترة (1922-1936) ممنوعا بمقتضى قرار حل الجامعة الشيوعية الصادر في ماي 1922، وتمّ أول اجتماع تأسيسي للحزب الشيوعي التونسي 1 جوان 1936، وحل الحزب أكتوبر 1939 على إثر اندلاع ح. ع. 2، أنظر: القزدي، المرجع السابق، ص 259. وكذلك ص 310.

³ القزدي، المرجع السابق، ص 277.

⁴ الكيلاني، المرجع السابق، ص 24.

التناقضات المتمثلة في عدم وضوح الأهداف السياسية فليس هناك موقف محدّد من مسألة الحماية ومسألة الاستقلال.¹

كما عرفت هذه المرحلة كذلك ظهور جيل جديد والذي دخل الحياة السياسية بصفة عرضية بمناسبة تنظيم المؤتمر الأفخارستي، إذ أنّ قيام الشّبان الجدد بقسط من الجهد والعمل على الصّعيد الفكري والسياسي والنّضال الميداني خلاله مكّنهم من اقتحام الحزب الدّستوري، وبما أنّ نظرتهم السياسية للحزب الدّستوري تمثلت في ضعف دوره في المجتمع وعلى جميع الأصعدة، وعدم استيعاب مناضليه لتجارب العمل والنّضال السياسيين في فرنسا وأوروبا، جعلهم يخوضون غمار الكفاح وإقحام تصوّرات ومفاهيم ثورية للعمل الحزبي والكفاح الوطني، ممّا أدّى بهم في الأخير إلى إحداث تحوّل بنيوي وفكري وسياسي للحركة الوطنية التونسية.²

ومما سبق يظهر أنّ الحركة الوطنية في فترة الثلاثينات شهدت تطوّرات هامّة شملت طرق العمل وطبيعة المطالب، ويعدّ ميلاد الحزب الدّستوري الجديد كامتداد للحزب الدّستوري الأصلي وكتغيير له حدثا سياسيا مؤسّسا لمرحلة تاريخية جديدة، حيث أصبح القوة القائدة للعمل الوطني والموحّدة حولها أوسع الفئات الشّعبية التي كانت مضى تناصر الحزب الدّستوري القديم مع إقحام قوى اجتماعية جديدة في جدلية الكفاح.

2- اعتماد الخطاب الديني والتأكيد على مبدأ الحفاظ على الهوية التونسية:

إنّ السياسات التي قدّمها الفكر الاستعماري كمشاريع لترسيخ مركزه ومسح وجود الآخر وتذويب خصوصيته الحضارية وترسيخ قيم من شأنها أن تُغرّب الانسان وتطمس معالم هويته وشخصيته التّاريخية وفق استراتيجية مقنّنة عكس ما تسوقه الايديولوجيا الاستعمارية على أنّه ترقية المجتمعات المتخلّفة لتمدينها وتمكينها من أن تحكم نفسها بنفسها، هي ذاتها التي أيقظت مضاجع الخاملين من المؤمنين وحركت خوامد نفوسهم بما أوجب إزاحتها، فكان

¹ الدّواوي، تطور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص51.

² نفسه، ص29-30.

مبدأ الحفاظ على الهوية التونسية ومقوماتها الشخصية من عروبة وإسلام دافعا لكفاحها التحرري من الاستعمار وسياسته الإدماجية.

2-1- قبل انشقاق الحزب الدستوري:

إنّ تصميم فرنسا على انعقاد المؤتمر الأفخارستي 1930 من أجل إحياء كنيسة قرطاج وإعطاء دعم جديد للنشاط التبشيري وحملات التنصير في تونس وشمال إفريقيا ككل لم يكن ليمرّ دون ردة فعل التونسيين لكن تعذر على الاستعمار أن يتجنب سوء تقديره، فالمساسس بالهوية والأعمال الممتحنة للشخصية التاريخية للتونسيين شكل الأرضية السياسية والفكرية والايديولوجية لانبعاث وعي الحركة الوطنية وتأطير أطروحتها في مضمار النضال والمقاومة من أجل الاستقلال.¹

إذ خلق انعقاد المؤتمر الأفخارستي مناخا نفسانيا متوترا لدى النخبة الوطنية التونسية، فدخلت في معركة ضد "عودة الروح الصليبية" والعدوانية المناهضة للهوية الثقافية التونسية، وبالرغم من خوض الوطنيين التونسيين كفاحات عديدة للدفاع عن عروبة وإسلام تونس وشعبها منذ انتصاب الحماية الفرنسية 1881، إلا أنّه مع مطلع الثلاثينات أصبحت المسألة مطروحة في أفق سياسي وطني أكثر إلحاحا، فمشروعات التنصير والتجنيس التي جاء بها مونسرون جعلت لقضية الدفاع عن الدين الإسلامي بعدا سياسيا كما أخذ العمل السياسي محورا دينيا نجح القادة الجدد للعمل الوطني في ربطه بباقي المحاور السياسية والاقتصادية والاجتماعية لخط الكفاح التحرري.

وعلى كل فإنّ الوطنيين التونسيين شنّوا بمناسبة المؤتمر الأفخارستي كفاحهم ضدّ الاستعمار باسم الدين الإسلامي، فاستخدموا المؤتمر للتدبير بتحالف الاستعمار مع الكنيسة لتقويض الإسلام وتحدي واستفزاز السّكان المسلمين والذي تجلّى في مسيرات الشّبان الكاثوليك المرتدين الرّبي الصّليبي في شوارع تونس لتذكير المسلمين بحملة سان لويس وأيضا في تصريحات رئيس أساقفة قرطاج ومعاونيه الذين يشيرون صراحة إلى إمكانية تنصير

¹ المالكي، المرجع السابق، ص 189.

تونس.¹ وفي هذا الصدد ذكر الحبيب بورقيبة في خطاب رسمي له بعد ثلاثين سنة، أن المؤتمر الأفخارستي كان من بين الأسباب التي دفعته للانخراط في الساحة السياسية، وقال: "...كنت أفكر في الدفاع عن الدين الإسلامي الذي تمّ ازدهاره والاستهزاء به، لقد لاحظت أنّ السياسة التي تبناها الاستعمار لا تميل فقط للقضاء على السيادة التونسية بل تهدف أيضا إلى تدمير الدين الإسلامي واختفائه نهائيا من تونس، وقد ظهر هذا من خطاب رسمي ألقاه رئيس أساقفة قرطاج عام 1930 في المؤتمر القرباني، فقررت حينها أن أعمل حتى لو تخلّيت عن حياتي لإنقاذ هذه الأمة بدينها ولغتها وشخصيتها وكرامتها...".²

أمّا محمد بورقيبة فكتب "من ممّا لا يرى في هذا المؤتمر سلسلة كاملة من الاستفزات والتحديات لضمير مليوني مسلم، إنّ المؤتمر الأفخارستي أعاد إحياء حركة مكروهة للمؤمنين المسلمين".³

لذا دعا الدّستوريون الأهالي إلى الالتفاف حول الإسلام باعتباره سلاحا ناجحا وفعّالا لمواجهة السياسة التّنصيرية وأيضاً لاعتباره بمثابة الواقي والحامي للشّخصية التونسية من الاندماج، وبالتالي فإنّ النّضال من أجل حماية الدين الإسلامي هو أيضاً من أجل حماية الوطن لأنّه من مقومات الشّخصية الوطنية، فالدّفاع عن الإسلام أصبح لا ينفصل عن الدّفاع عن الأمّة التونسية.

ففي هذه الظروف إذن امتزج الشّعور الديني بالشّعور الوطني الأمر الذي استغلّه الدّستوريون لتحريك الجماهير ضد النّظام الاستعماري الهادف إلى النّيل من الهوية العربية الإسلامية⁴ والتّديد ببعض المظاهر الأخرى للسياسة الفرنسية، فركّزت النّخبة في أدبياتها السياسية على ربط مجمل القضايا الاجتماعية والفكرية والسياسية بالبعد الديني، وذلك لأنّ

¹ Mahjoubi ,Op. cit. ,p 122.

² M. Lelong , Op. cit. ,p 4-5.

³ L'Ancien combattant de l'Ardèche ,« Echos du congrès eucharistique », Albert Bayet, Op. cit.

⁴ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 512-513.

الفئات الشعبية تندفع أكثر للدفاع عن القضايا التي تمس الهوية والدين لأنها تتحسسها أكثر من باقي المسائل الأخرى.

فباسم الإسلام دعا الدستوريون الباي وأعيان تونس إلى رفض الرئاسة الشرفية للمؤتمر الأفخارستي.¹

وباسم الإسلام وقفوا ضد أفكار تحرير المرأة ونزع الحجاب، ومعاداة أنصار الحداثة كالطاهر الحداد وكتابه " المرأة في الشريعة والمجتمع " الصادر سنة 1930 بفعل ما تضمنه من أفكار جديدة وجريئة تدعو إلى ضرورة التوفيق بين الأحكام الشرعية الإسلامية وبين تطوّر المجتمع أي أنّ أحكام الشريعة الثابتة يجب أن تتغير بتغير الظروف والمجتمع، فانتقد عدم التساوي في الإرث بين المرأة والرجل، ورأى أنّه لا مانع من تغيير نظام الإرث واستبدال عقوبة الزنا وحظر تعدد الزوجات²، ووجّه نقدا لاذعا لوضع المرأة الاجتماعي وللحجاب السائد في تونس واعتبر فرض النقاب على المرأة تمسكا بعبادات موروثة بالية، وقال في ذلك: "ما أشبه أن تضع المرأة النقاب على وجهها منعا للفجور، بما يوضع من الكمامة على فم الكلاب كي لا تعض المارين"، واقترح تحرير المرأة التونسية من منظور الدفاع عن المرأة المسلمة.³

فتعرّض الحداد وآرائه إلى انتقادات كبيرة في أوساط المجتمع التونسي⁴، وتمّ توبيخ المؤلف لتولّيه افتراءات المسيحيين على الإسلام، واعتبر الكتاب "دعوة إلى الفجور والمروق

¹ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 509.

² الطاهر الحداد، امراتنا في الشريعة والمجتمع، تق: خالد محمد، موفم للنشر، 1992، ص 61.

³ نفسه، ص 35.

⁴ وحتى في العالم العربي، فورد في جريدة "المغرب" الجزائرية: "... تصفحنا كتاب " امراتنا في الشريعة والمجتمع " فوجدناه محشوا سموما وإلحادا في الإسلام، وزيجا في الدين...، إذ من يقرأ سطرا أو سطرين من الكتاب يتخيل إليه كأنه حكيم من حكماء الإسلام يتكلم غيرة على الدين وذودا عن الإسلام، وشفقة بالمسلمين وعظفا على المسلمات، ولكنه عندما يستوفي بحثا من بحثه أو موضوعا من مواضيعه يجد في آخره نتيجة بحثه تبدو كدخان مخنق عندما تتطفي. . وهي عندما تتأمل كلها تشكيك في الدين والتشريع الإسلامي. . "، "المغرب"، قنبلة الإلحاد في تونس"، ع 25، السنة الأولى، 26 جمادى الثانية 1349، الموافق ل 18 نوفمبر 1930.

عن الدين"، وأتهم الحداد بالخروج عن ملة الإسلام وبالإلحاد والزندقة والكفر وتأييد الكنيسة ومشروع التجنيس.¹

فهاجمه علماء الزيتونة، وسعت النظارة العلمية للحصول على أمر من الحكومة بمصادرة كتابه لكنها لم تفلح، وشكلت لجنة من كبار علماء الشريعة لتصرّح برأيها في الكتاب، وترتب على تقريرها سحب شهادة الطاهر الحداد الزيتونية وحرمانه من حقه في العمل، وتبرؤوا من كتابه الذي لا تحمل مسؤوليته على عاتق جامع الزيتونة.²

وردّ بعضهم عليه بما يُدحض دعواه، وكان من أبرز تلك الردود؛ رد راجح إبراهيم في مقال في جريدة (النديم) بتاريخ 1 نوفمبر 1930 نعت فيه الطاهر حداد وجماعته بأنهم شرذمة من الأميين الذين أصيبوا بداء التقليد والإلحاد بفعل تأثرهم بأفكار الزنادقة مدّعين في ذلك حرية التفكير.³

وكذلك محمد الصّالح بن مراد⁴ من الزيتونة والذي اعتبر الكتاب فضيحة للتونسيين عامة والزيتونيين على وجه الخصوص أمام العالم الإسلامي، وردّ عليه بكتاب عنوان ب "الحداد على امرأة الحداد" في 16 سبتمبر 1931، بموافقة مجموعة من العلماء⁵ الذين كانوا أعضاء في النظارة العلمية بالمملكة التونسية، وورد فيه: "إنّه فضحنا فضيحة كبرى، وتجراً على شعب كامل بل أمة إسلامية بوضعه كتاب "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" ولو عوض عنوانه "بفضيحتنا في الشريعة والمجتمع" لكان أصاب الحداد، وأنّه خدع التونسيين الذين

¹ أحمد خالد، المرجع السابق، ص 395.

² الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص 223.

³ محمد بوطيبي، الفكر الاجتماعي...، المرجع السابق، ص 55.

⁴ محمد الصّالح بن مراد: وهو ابن الشّيخ المفتي والفقير الحنفي أحمد بن مراد، درس بالزيتونة، وباشّر خطّة العدالة (التوثيق)، ثم ارتقى إلى التدريس من الطّبعة الأولى في جامع الزيتونة بعد أن كان يدرّس الطّبعة الثّانية، وبعد ذلك ولي الإفتاء ثم مشيخة الإسلام الحنفي في عهد أمين باي آخر البايات بتونس، وعزل عن مشيخة الإسلام 1946، أصدر أعداد من مجلته "شمس الإسلام"، وله كتاب "الحداد على امرأة الحداد"، توفي 1979م. أنظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج4، المرجع السابق، ص 297.

⁵ تتكون من السّادة أحمد والطّيب بيرم، صالح المالقي، ومحمد الطّاهر بن عاشور، والتي جازت لمحمد بن مراد الرد على الحداد.

صدّقوا أفكاره"¹، ودعا ابن مراد إخوانه المسلمين التونسيين إلى توخي الحذر وإلى التحلي بالحصافة والوحدة والتّماسك في مواجهة مخاطر التّشويه وفقدان الهوية النّاجم عن دعوة السّلاطات الاستعمارية للتّجنّس، واحتشد إلى موقفه الحزب الدّستوري الذي رأى بعد ذلك في لبس الحجاب والتّمسك بالعادات والتّقاليد التي رفضها الحداّاد وسيلة لحملة ضد التّجنّس الفرنسي للمسلمين ولترسيخ الوحدة الوطنية.²

فالجو السّياسي في تونس في تلك الطّروف لم يكن سانحا لقبول أراء الحداّاد التّحرّرية وخاصة بعد تصريحات رجال الدّين المسحيين في المؤتمر الأفخارستي التي تدعوا إلى تحرير المرأة المسلمة وتغريبها، ولذلك رأت الحركة الوطنية في ذلك الوقت أنّ كل ما يرمز للخصوصية التّونسية كلبس المرأة للحجاب والرّجل للشّاشية يمثل درعا ضد الاعتداء وقوة صامدة في وجه الاختراق الاستعماري المسيحي، ويعتبر وسيلة لصيانة الدّاتية القومية وتعزيز للتّماسك السّياسي المنشود.³

كما اعتبر جلّ أفراد جماعة (الصّوت التونسي) وهي النّخبة المؤمنة بحقوق المرأة وفي مقدمتهم الحبيب بورقيبة - محرر المرأة في الخمسينات - السّفور آنذاك سابقا لأوانه في تونس.⁴ فكتب الشاذلي الدامرجي مقال بعنوان: "المرأة التّونسية " يوم 3 مارس 1931 وضمّنه صدى الآراء التي جهر بها الحبيب بورقيبة في نفس الموضوع قبل ذلك التّاريخ بسنتين، وأهم ما ورد فيه: "عوض أن تهتم (الصّوت التّونسي) بالحريم وبمصير المرأة المسلمة ألا يجدر بها أن تتّجه جادّة نحو الأوكد. أي أن تجهر بعظيم بليّة الشّعب التّونسي وشقائه منبهة إلى العلاج الكفيل بإيقاف انزلاقه نحو الهوة؟ أليس تحرير المرأة ترفا تافها وعيبا حقيقيا في بلاد رجالها أنفسهم محرومون من أبسط الحريّات والضّمانات، منحنية ظهورهم إذلالا بتقل شتّى

¹ محمد صالح بن مرّاد، الحداّاد على امرأة الحداّاد أو ريّ الخطأ والكفر والبدع التي حواها كتاب امراتنا في الشّريعة والمجتمع، ط1، المطبعة التّونسية، تونس، 1350هـ/1930م، ص ص 3-6. نقلا عن: محمد بوطيبي، الفكر الاجتماعي...، المرجع السابق، ص ص 56-57.

² Vermeren , Op. cit. ,p19 .

³ بورقيبة، تاريخ الحركة الوطنية التّونسية، المصدر السابق، ص 6.

⁴ نفسه، ص 396.

التّعسف والإهانات؟ إنّ الحجاب الذي نعتبر هتكه جدّ أكيد هو حجاب الجهل والاعتقاد في الغيبيات، فهو الحجاب الوحيد المنافي للصّحة والمضر حقاً. أمّا الحجاب الآخر فأهميته في نظرنا ثانوية... سنتحدّث عنه يوم تكون المرأة محرزة نصيباً من التّقافة والتّربية تمكّنها من المشاركة في النقّاش وإبداء رأيها في مسألة تهمّها أولاً وبالذّات.¹

ومهما يكن من أمر فإنّ جماعة (الصّوت التّونسي) تعفّفت عن قذف الحدّاد ببذء السّباب، وكان جلّ الشّباب ومن بينهم الحبيب بورقيبة يأبون الدّخول في نقاش حاد حول قضية "تحرير المرأة".²

وقد أثارت المساجلات والضّجة القائمة حول الطّاهر الحدّاد وكتابه إعجاب المقيم العام، لأنّها أشغلت الصّحافة التّونسية عن الحماية، كما صرفت الأهالي والوطنيين التّونسيين عن القضية الوطنية الأصلية إلى خلافات شخصية تصدع الإجماع على مواجهة الاستعمار.³ وهذا ما صرّح به المقيم العام فرانسوا مونصرون في تقرير وجهه إلى وزير الخارجية بباريس بتاريخ 15 نوفمبر 1930،⁴ أي بعد مرور خمسة أشهر على انعقاد المؤتمر الأفخارستي بقرطاج، واعتبر هذا التّقرير موقف أحمد باي ورجال الدّين من كتاب الطّاهر الحدّاد ما هو إلا حيلة للخروج من ورطة العضوية في اللجنة الشّرفية للمؤتمر الافخارستي بأيسر طريقة وأخف ضرر، فوجدوا في شخص الطّاهر الحدّاد كبش فداء، وانقضّوا عليه شاهرين راية الدّين متّهمين إيّاه بالمروق منه، وهم يريدون في الحقيقة ستر

¹ La Voix du Tunisien ,3 mars 1931 , « La femme Tunisienne » , Chedly Damergi.

نقلا عن أحمد خالد، المرجع السابق، ص 398.

² وذلك ما أكده الحبيب بورقيبة في خطاب 15 ديسمبر 1961 حيث علّل مناهضته السّفور وتحرير المرأة 1929 تعليلاً سياسياً: "كنت أهتم بالغ الاهتمام منذ ذلك التّاريخ بمشكلة الشّلل الذي أصاب نصف أمتنا تحت ضغط عوائد قديمة والانحطاط في تفكير الرّجل، وكلّ ذلك تسبّب عن خطأ في الفهم لصريح الآيات القرآنية وقواعد الدّين الإسلامي، ورأيت أنّ لا سبيل في إثارة هذه الآراء الجريئة والمفاهيم الصّحيحة والدّخول في نقاش حاد إلّا إذا قبضنا على زمام الحكم في إمكاننا تسيير الأمور وتنظيم المجتمع". أنظر: أحمد خالد، المرجع السابق، ص 398.

³ أحمد خالد، المرجع السابق، ص 391-392.

⁴ أنظر الملحق رقم 12، ص 377.

معرفة سابقة لهم أضعفت اضطلاعهم بدور الوصاية الدينية والسياسية والاجتماعية على الأهالي المسلمين.¹

وعموما فالزوجة التي أثارها الحزب الدستوري على كتاب الطاهر حداد "امراتنا في الشريعة والمجتمع" خرج منها الحزب بحصانة دينية كبيرة في وعي القاعدة الشعبية.

وفي نفس إطار معادة أنصار التحرر عارض الحزب الدستوري القديم سنة 1932 تأسيس "جمعية النساء المسلمات الخيرية" والتي ترأسها فاطمة القلاّتي زوجة حسن القلاّتي، أحد زعماء حزب الإصلاح واعتبرها مدخلا لتغريب تونس.²

فعنصر الحماسة الدينية إذن أصبح حاضرا في الخطاب السياسي، إذ استخدمه كذلك الدستوريون الجدد وفي مقدمتهم جماعة (الصوت التونسي) ضد سياسة الفرنسية والإدماج³ التي سلكتها السلط الاستعمارية في البلاد وخاصة بعد انعقاد المؤتمر والمتمثلة خاصة في الاحتفال بالذكرى الخمسينية للحماية الذي أرادت من ورائه تأكيد هيمنتها على البلاد التونسية، وفرض سيطرتها عليها دون رجعة، وهذا ما أكّده الرئيس الفرنسي قاستون دوميرق عند زيارته إلى تونس في أفريل 1931، إذ رسم صورة مثالية لعمل فرنسا بالبلاد التونسية، ونفس الأمر بالنسبة للمعرض الاستعماري المقام بباريس في شهر ماي 1931، والذي مجّد المنجزات الفرنسية بتونس من أجل تلقين الجماهير الفرنسية مشاعر الإجلال للإمبراطورية، فكانت الحكومة الفرنسية بسياستها هذه والمتمثلة في استعراض قوتها والتعبير عن اعتزازها بما حقّقه السياسة الاستعمارية في تونس الفرنسية في إطار ما سمّته بالمهمة الحضارية⁴ أبعد ما تكون عن الإعراب عن أدنى استعداد لاتخاذ إجراءات تحريرية ولو على

¹ أحمد خالد، المرجع السابق، ص 391.

² الدقي، تونس من الإيالة...، المرجع السابق، ص 147.

³ نفسه، ص 152.

⁴ حفيظ طبّاي، الحزب الحر الدستوري التونسي، المرجع السابق، ص، 38.

المدى البعيد، الأمر الذي دفع بالحزب الدستوري والصحف التونسية إلى القيام بحملة ضدّ خمسينية الحماية.¹

ورأى الوطنيون أنّه لا سبيل لإنقاذ أنفسهم ومقاومة الاستعمار إلّا بالاتّحاد في كتلة واحدة وفي كنف الدّين الإسلامي، وهكذا تشابك الشّعور الدّيني بالشّعور الوطني، وهذا ما صرّح به الطّاهر صفر أثناء اجتماع نظّمه الحزب الدّستوري بمناسبة المولد النبوي في 26 جويلية 1931: "اعلموا أنّ الدّين والوطنية إنّما هما شيء واحد، فلا يمكن للمرء أن يكون وطنيا دون أن يكون متديّنا، وعندما تكون متديّنا فالواجب الوطني هو واجب يحث عليه الدّين فالسياسة هي إحدى نقاط الدّين الأساسيّة".²

كما تمّ ربط الدّفاع عن الهوية الإسلاميّة للشّعب التّونسي بمعارضة الاستعمار وسياسته الاستيطانية بكل أشكالها وخاصة انتزاع الأراضي الفلاحية لفائدة المعمرين الفرنسيين لاعتبارها وجها من أوجه السياسة الإدماجية، فالأولى تخصّ الجانب المعنوي، أمّا الثانية تخصّ الجانب المادي، وقد كتب الحبيب بورقيبة ما يؤكد ذلك "... لكنّ السياسة الفلاحية لسلطة الحماية... ليست إلّا جانبا من السياسة العامة إزاء الأهالي، فكل سياسة الاستعمار متماسكة، إنّ سياسة التّجنيس هي وسيلة للإسراع في تفكيك الشّعب التّونسي وهي ترتبط بسياسة الانتزاع والتفجير الموجّهة لإضعافه وحرمانه من وسائل المقاومة...".³

ومنه فإنّ الفكر السّياسي التّونسي بداية الثلاثينات أصبح متشبّثا بالدّفاع عن الأسس والمقومات الثقافيّة والحضارية والدينيّة للشّعب التّونسي، فكان يدعو إلى ضرورة الحفاظ على الذاتيّة التّونسية من الأخطار الكبيرة المحدّقة بها من فرنسة وتتنصير، ومناهضة قضايا التّجنيس التي طغت على السّاحة منذ نهاية 1932⁴ عندما أصدر رجال الشّرع بقسميه

¹ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص-ص، 520-521.

² نفسه، ص، 573.

³ زغير حزيم، المقال السابق، ص 593.

⁴ التيمومي وآخرون، المرجع السابق، ص 692.

الحنفي (شيخ الإسلام محمد بن يوسف) والمالكي (شيخ الإسلام الطاهر بن عاشور) فتوى تُقرُّ مبدأ دفن المتجنسين في المقابر الإسلامية بشرط النطق بالشهادتين.

فنصّدَى الوطنيون لسياسة التّجنيس باعتبار لا فرق في التّجنيس بين الدّين والقومية فهو قاض عليهما، فهو في الدّين كفر وردّة، وهو في القومية قاض عليها، وهذا ما صرّح به مورينو صاحب أوامر التّجنيس علنا، إذ قال أنّ القصد منه هو إدماج الشعب التّونسي والقضاء على قوميّته وتسخيرهُ للاستعمار الفرنسي.¹ فالتّجنيس إذن يهدف إلى خلق عنصر جديد يمتزج مع المحتلّين بدون خلط، وتكون لغته وآدابه فرنسية، ووضعيته وأخلاقه إفرنجية، ويقطع صلته مع تاريخه، وبالتالي فهو السّير في طريق قتل العربية والقضاء عليها وهدم الفكرة القومية التّونسية.²

لذا احتجوا عليه وقاموا بحملة صحفية مندّدة به وبالسّياسة الفرنسية بصفة عامة، مبرزين استياءهم من رجال الدّين والمجلس الشّرعي لتواطئهم مع سلطات الحماية التي تنتهك الدّين الإسلامي وتستغلّه أحيانا لحماية مصالحها، وتولّت جماعة (العمل التّونسي) وعلى رأسهم بورقيبة تعبئة الرّأي العام والأهالي ضد المتجنّسين وضدّ فرنسا.³

وكتب بورقيبة في ذلك عدّة مقالات، ورد في إحداها: "أرادت السّلطات دفن المتجنّسين في مقابر المسلمين بالقوة، فوثبنا وعقدنا العزم على أن نمنع ذلك، وكانت المظاهرات تتجدّد كلّما توفي أحد المتجنّسين ممّا سبب فضيحة بالنّسبة لعائلته حتى دفع المتجنّسون إلى المطالبة باسترجاع الجنسية التّونسية".⁴

وهكذا ظهر الوطنيون الدّستوريون وخاصة الشّبان الجدد بمظهر المدافعين عن الإسلام والحامين له ما سيساعدهم في كسب المزيد من التعاطف إزاء حركتهم لدى السّكان والفئات

¹ عثمان الكعّك: "الدكتور قاطان وقضية التّجنيس" الأُمّة، العدد 49، 25 ربيع الأنور 1342هـ. من كتاب: الفلاح الجيلاني، المصدر السابق. ص 76.

² الفلاح الجيلاني، المصدر السابق، ، ص 72.

³ الغربي، المرجع السابق، ص 275.

⁴ زغير حزيم، المقال السابق، ص 592.

العريضة من الجماهير التي نددت بتلك الفتوى ومن كان وراءها من شيخي الإسلام الحنفي والمالكي،¹ ووصل الأمر إلى رفض الأهالي في 14 أبريل 1933 أداء صلاة الجمعة وراء قضاة المجلس الشرعي.²

ومنه فإن قضية التّجنيس التي اعتبرها الكاثوليك وسيلة محتملة لاعتناق المسلمين دينهم واعتبرها المسلمون ارتداد ديني قد عزّزت الروابط بين الوطنية والإسلام وزادت من تعميق الفجوة بين الإسلام والمسيحية.³

كما أنّ وعي الشعب التونسي لخطر التّجنيس وشدة تمسكه بتاريخه العربي ودينه الإسلامي، واندفاعه لإعلان غضبه على السلطات الفرنسية وتدخلها في شؤونه الداخلية والدينية، فوّت الفرصة على تمرير الخطّة الفرنسية، فأخفقت سياستها وطُوّيت صفحة التّجنيس نهائيا في عام 1933.⁴

وفي الأخير يمكن القول بأنّ المؤتمر الأفخارستي والأحداث التي شهدتها تونس في مطلع الثلاثينات أظهرت مدى ارتباط الكنيسة التونسية بالاستعمار وسياسته، كما أظهرت إلى أي مدى شكّل الإسلام أحد العناصر الأساسية للشّخصية التونسية، وهذا ممّا دفع بالنّخبة السياسية التونسية إلى جعل مبدأ الحفاظ على الهوية بكل مقوماتها الدينية، اللّغوية والحضارية، والدّفاع عن الشّخصية الوطنية في صلب العمل السياسي وفي مقدمة أدواته، لذا وفي سياق الاستعداد لإعادة هيكلة الحركة الوطنية وبروز الحزب الحر الدّستوري بمؤتمر قسم الجبل، حتّى وإن لم يكن البعد الديني متصدّرا للمطالب الوطنية فإنّه كان متضمّنا في مطلب الدّفاع عن الشّخصية التونسية التي شدّد عليها المؤتمر كثيرا⁵، فجاء في مقرّراته: "إنّ الغاية التي يرمي إليها الحزب من العمل السياسي هي تحرير الشعب التونسي، وإعطاء

¹ البلهوان، المصدر السابق، ص 45.

² الغربي، المرجع السابق، ص 275.

³ Pierre Soumille , « Des catholiques en Tunisie », Op. cit ,p 28-29.

⁴ ثامر، المصدر السابق، ص 136.

⁵ الدقي، تونس من الإيالة...، المرجع السابق، ص 153.

البلاد نظاما صالحا مستقرًا في شكل دستور يحفظ الشخصية التونسية، ويحقق سيادة الشعب...¹

2-2- موضوع الهوية التونسية بعد انشقاق الحزب الدستوري:

لقد كان لوجود التّواصل والاستمرارية بين النّخبة التونسية التي أطّرت الحزب القديم والجديد دور في استمرارية موضوع الهوية وجعله بعدا مشتركا بين النّخبتين اللّتين قادتا النّضال² ولا يختلف موقفا الحركتين من الدّين إلّا قليلا ومع مقاومتهم لمظاهر التّخلف والانحطاط في الدّين الإسلامي التي يمثلها آنذاك الاعتقاد في الأولياء والزّوايا والطّرق الصّوفية، فكانوا جميعا يعتبرون الإسلام كعنصر أساسي من عناصر الشخصية التونسية ويجب مهما كلّف الأمر المحافظة عليه، إذ أنّ الشّعور الدّيني آنذاك كان قويّا جدا بين التونسيين فلم يفت الدّستوريين القدامى والجدد من استغلاله لتحسيس الجماهير الشّعبية بالقضية الوطنية.³

فالحزب الجديد أكّد على الانتماء إلى العروبة والإسلام، وجعل من الآية القرآنية "وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"⁴ شارة لحزبه.⁵ فلم يكن متنكرا للمقومات العربية الإسلامية بل كان يعتبرها أحد العناصر الأساسية في نضاله ضدّ المسخ الاستعماري والدّفاع عن الدّاتية التونسية وقد وظّف الشّعور الدّيني⁶ ضدّ سياسة التّجنيس والوقوف ضدّ سفور المرأة إلّا أنّ هذا التّوظيف للمشاعر الدّينية ليس إلّا من باب التّكتيك لكون الانتشار النّسبي للثقافة الغربية ونمط العيش الأوربي أفرز جيلا جديدا ميّالا إلى سماع خطاب جديد وتوخي أساليب نضالية جديدة..ولقد

¹ المالكي، المرجع السابق، ص 264، 265.

² نفسه، ص 264-265.

³ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية. .، المرجع السابق، ص 573.

⁴ سورة التّوبة، الآية 105.

⁵ سالم الأبيض، الهوية، الإسلام، العروبة، التونسية، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص 3.

⁶ لعيرج، المرجع السابق، ص 89.

لقى خطاب العناصر الدستورية الجديدة استحسانا وصدى لدى الأوساط الشعبية وخاصة الشّبّانية.¹

إذ طوّر الفريق الجديد مفاهيم جديدة حدّدت معالم الطّريق الجديد للعمل الوطني المتمحور حول تأكيد الذات الوطنية التونسية وتعزيز أسسها وتبيين خصوصية مقومات شخصيّتها الحضارية والوطنية من ناحية أولى وحول تجديد صيغ وأساليب وأهداف النّضال التحرري من أجل تحقيق الاستقلال من ناحية ثانية.

ففي المجال الأول والمتعلّق بمسألة تأكيد الذات الوطنية التونسية جهد الجيل الجديد من قادة النّضال الوطني في مواصلة وتجديد العمل الذي بدأه الجيل الأول من الوطنيين (حركة الشّباب التونسي والحزب الحر الدستوري التونسي) من أجل إبراز مقومات الهوية الثقافيّة والحضارية التونسية، وقد أخذ ذلك الجهد شكل الدّفاع عن اللّغة العربية كوسيلة هائلة وخطيرة لمقاومة سياسة الإدماج التي حاولت السّلط الاستعمارية ممارستها في تونس، والقيام بحملة تشهيرية ضد مقاصدها الهادفة إلى إضعاف اللّغة العربية في المعاملات الرّسمية والمهنية وتقليص دورها في الحياة العامة ودعوة المواطنين إلى التّجمع حول لغتهم وإعلاء شأنها في وجه الذين يتباهون بإلحاق الهزيمة بها، وكتب محمد بورقيبة في هذا السّياق: "إنّ السّلط الاستعمارية حاولت تقليص استعمال اللّغة العربية تدريجيا، وهو تدمير لأسس تلك الشّخصية التونسية التي تشكّل حاجزا ضدّ فرنسة البلاد، ومن ثمّة طالب محمد بورقيبة بتعميم استعمال اللّغة العربية في كل مراحل التّعليم وفي الإدارة والمعاملات التّجارية والمهنية".²

أمّا الحبيب بورقيبة فقد ظلّ بالرّغم من ثقافته الحديثة المنفتحة على العلوم الغربية المعاصرة ومكاسبها المنهجية منشداً إلى الهوية التونسية في بعديها العربي والإسلامي مدافعا عن شخصيّتها مرتبطا بمقومات وجودها، وهذا سرّ نجاحه في تأطير وتوجيه النّضال الوطني، حيث تمكّن من "نزع فتيل المعارضة الدّينية بإدماج قاعدتها الاجتماعية في دواليب

¹ لعيرج، المرجع السابق، ص 90.

² الذواودي، تحولات...، المرجع السابق، ص 23.

منظومته، وذلك لحذقه فنّ استمالة المناضلين والاستيلاء على مشاعرهم، فكان قادرا على دغدغة أحاسيس سامعيه دون التخلي عن استراتيجيته العلمانية بالاستدلال في خطابه بآيات قرآنية وأحاديث نبوية في سياقها المناسب من أجل أن يفند مزاعم الدستوريين القدامى الذين يعتبرونه ضعيف الإيمان.¹

كما شجّع الحزب على إنشاء الجمعيات ذات الطابع الثقافي للدفاع عن هوية الشعب العربية الإسلامية، ونسجل في هذا الإطار أنّ الكثير من طلبة جامع الزيتونة كانوا يناضلون تحت لواء الحزب، فبورقية كان يعمل بصفة انتقائية على استثمار النصّ الديني، ولاسيما وأن استحضار المعاني الدينية يفيد في تعبئة الشعب ضد الاستعمار،² مع تقادي الجدل حول مفهوم الهوية ومحدّداته حسب التعريفات العصرية وخاصة على مستوى الخطاب المباشر الموجّه للجماهير.³

كما روج لمفهوم الأمة التونسية، فأنتهى أقلمة المفهوم العصري لكلمة أمة، وجعلها تقف عند الحدود الضيقة للبلاد التونسية، وأنّ المجموعة القومية التونسية قسم متميّز تمام التميّز عن الأمة الإسلامية والعربية وعلى أنّها مجموعة حقيقية متماسكة من الأشخاص لا مجرد "شّتات من الأفراد" وهي العبارة التي كان يردّها بورقية ورفقاؤه.⁴

ولكن مع ذلك فإنّ الوعي القومي التونسي لم يكن واضحا وعمليا إلّا في أذهان النخبة الاجتماعية والثقافية، أمّا على مستوى الجماهير الشعبية والنخبة التقليدية وخاصة في الأوساط الزيتونية ولدى بعض قيادي الحزب الدستوري القديم، فإنّ وعي الهوية بأبعاده

¹ الشاذلي القليبي، أضواء من الذاكرة: الحبيب بورقية، ترجمة محمد معالي، مراجعة عبد العزيز قاسم، دار الكتب الوطنية، تونس، 2014، ص 35.

² ابن عيسى، المرجع السابق، ص 26.

³ محمد الرّحموني، العلمانيون في تونس، صراع الفكر والسياسة، ط1، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، 2013، ص 28.

⁴ الدقي، تونس من الإيالة...، المرجع السابق، ص 156-157.

الدينية والذي يتداخل مع فكرة الانتماء لدائرة الأمة الإسلامية كان حاضرا بقوة¹، وكان الكفاح السياسي يصطبغ في كثير من الأحيان بصبغة الجهاد الديني.

كما نادى الدستوريون الجدد في مرحلة لاحقة بعدم تأكيد الذات الوطنية في أفق تقليدي مغلق رافض لعناصر التقدم الحضاري الغربي، بل طالبوا بضرورة الأخذ بما يحقق التقدم الهائل الذي يأتي من الشمال، وعبر البحري قيقة عن ذلك قائلا: ".نحن نعتزف بالرّفعة المادية للحضارة الغربية، لكننا نحن نرفض له كل رفعة معنوية، حيث أنّ لكل شعب روح جماعية تتجمّع فيها المميّزات المعنوية والمعتقدات ذلك الإرث المهم لذلك الجنس"، وعليه فبورقية والجناح المتغرب من الحزب الدستوري الجديد اعتمدوا ازدواجية الخطاب فيما يتعلّق بقضية الهوية وركنيها المكيّنين الإسلام واللّغة العربية، فهم غربيّون ديمقراطيون أمام الغربيّين، وإسلاميون كارهون للأجانب أمام العرب والمسلمين.²

فبورقية أراد تعزيز هوية تونسية تعدّدية ومسالمة ومتفتّحة على التّيارات المتوسطة، إذ كان يتصوّر أن جميع الفترات التّاريخية القديمة لتونس قد ساهمت بمرور الوقت في بناء هوية متوازنة بين الشرق والغرب.³

أمّا الدّستوريون القدامى وأثناء ظهور الخلاف بينهم وبين الجدد في أوائل سنة 1934 استغلّوا الشّعور الديني للجمهور التّونسي بنية الإطاحة بهم وتشويه سمعتهم بين النّاس وتألّيبهم عليهم، فاتّهموهم بالزّندقة والإلحاد ومناصرة الحدايين والماسونيّين والشّيعيّين، وكذلك بمحمد شنيق⁴ لأنّه زوّدهم بالمال،⁵ فأشهبوا ضدّهم الوجه الآخر للخلاف والمتعلّق

¹ نفسه، ص 157.

² ابن عيسى، المرجع السابق، ص 26.

³ Alexandropoulos, Le Maghreb antique:enjeux contemporains ,Op. cit ,p 67.

⁴ وهو الذي أشاد بذكرى خمسينية الحماية في الخطاب الذي ألقاه أمام رئيس جمهورية فرنسا دومارق في ماي 1930، ومجدّ فيه السياسة الفرنسية الاستعمارية، ودعّم فيه أعمال الإقامة العامة. للمزيد أنظر: الحسين بن علي، البورقية والهوية صراع مشاريع، ط1، مكتبة تونس، تونس، 2015، ص 50.

⁵ الإرادة، 7 مارس 1934، نقلا عن: مؤتمر البعث، المؤتمر العام للحزب الحر الدّستوري التّونسي، المصدر السابق، ص 100.

بالمنطلقات الفكرية والثقافية، فاعتبروهم من أنصار الحضارة الأوروبية المكتسبة من المدارس الفرنسية، ومن دعاة تغريب الشعب التونسي ومن المدافعين عن سفور المرأة وتحزّرها، فاعتبرت القيادة القديمة نفسها ممثلة الثقافة الأصلية للشعب التونسي، وأن دورها يتمثل في الدفاع عن الهوية الثقافية العربية الإسلامية.¹

فالتوجه السياسي للدستوري القديم يتّسم بالارتداد إلى الماضي مركّزا على البعد العربي الإسلامي، وقد تعزّز هذا التوجه خاصة بعد عودة الثعالب² 1937 والذي كان مشبعا بأفكار الوحدة العربية الإسلامية ويعتبر الأرض الإسلامية وطن لكل مسلم، فكان يرفض الحدود الضيقة للقطر التونسي أو الدولة القطرية ضمن الحدود التي رسمها الاستعمار الفرنسي، فهو لم يكن يحبّذ الاتجاه القومي الصّميم للحزب الدستوري الجديد ولا أساليبه العلمانية التي تستعمل المبادئ الجوهرية الدينية كوسيلة لا كغاية.³

ويرى نورالدين الدّقي حتّى وإن اختلفت المنطلقات الفكرية ورؤية كل من الفريقين للتراث الحضاري فإنّ البعد الديني عند كلا الطرفين استخدم كوسيلة للتعبئة الجماهيرية ولم يكن حاضرا في مطالب وبرامج التّيارين إلّا بشكل ضمني، ولعلّ مرد ذلك أنّه لم تكن لرجال الدّين مشاركة مؤسسية في الحركة الوطنية على غرار ما حدث في الجزائر حيث ساهمت جمعية العلماء المسلمين في العمل الوطني، وكذلك في ليبيا والمغرب حيث شاركت الحركات الصّوفية في مقاومة الاستعمار، وعلى النقيض من ذلك لازمت الطّرق الصّوفية في تونس الصّمت إزاء دخول الجيش الفرنسي، ثمّ تعاونت مع الحماية، وباركت إصلاحات لوسيان سان 1922".⁴

كما أنّ الخطاب الديني للحركة الوطنية في المرحلة الأولى (1930-1933) كان موجّها ضد سياسة الكنيسة والاستعمار الرّاميتين إلى تنصير وإدماج الشعب التونسي،

¹ طبّاي، الحزب الحر الدستوري التونسي، المرجع السابق، ص 75.

² لعيرج، المرجع السابق، ص 90.

³ القصاب، المرجع السابق، ص 563.

⁴ الدّقي، تونس من الإيالة...، المرجع السابق، ص 153-154.

فاستخدم الدين كوسيلة من أجل التعبئة الشعبية لمجابهة المشروع الاستعماري الكاثوليكي، لكن بعد 1933 وبنهاية سياسة التجنيس ومع حدوث القطيعة داخل الحزب الدستوري، اعتمد على الخطاب الديني كوسيلة في المعركة القومية بين الجناحين المتصارعين وعلى أساس سياسي بحت، أي أن الخطاب الذي كان موجّهاً للكنيسة والكاثوليكية والاستعمار والذي تكرر كثيرا بعد المؤتمر الأفخارستي أصبح نادرا واستثنائيا، وهذا وإن دلّ على شيء فإنما يدل على مدى نجاعة الاستعمار وسياسته في تحويل الصراع الموجّه ضدهم أساسا إلى وسيلة لزرع الفتنة والتفرقة بين أبناء الشعب التونسي لضمان بقاء سيادته وديمومة سيطرته على تونس.

3- التعبئة الشعبية أو إقحام الجماهير الشعبية في النضال الوطني:

لقد كشف المؤتمر الأفخارستي عن وجود قوى جديدة بالبلاد التونسية سوف تلعب أدوارا هامة في تأطير الاتجاه الوطني التونسي وتوجيهه نحو التّصلب، إذ فتحت لهم التجربة النضالية التي قادوها في المؤتمر الأفخارستي من حيث تأثيرها في الوعي الوطني الجماهيري ومن حيث ما حقّقه من نجاح سياسي ومعنوي الباب من أجل الشروع في إرساء علاقات التحام مع الجماهير، ورغم أن الاعتماد على تعبئة القاعدة الشعبية أسلوبا نضاليا لم يكن وليد هذا المؤتمر، فإنّه أصبح أكثر تأكيدا طيلة السنوات الثلاثين معلنا عن تحوّل الحركة الوطنية في اتجاه أكثر راديكالية مفضيا إلى بروز الجماهير على الساحة السياسية، ولعبها أدوارا هامة في تصعيد العمل الوطني وتمكّنها من الضّغط على سلطات الحماية.

3-1- وسائل وأساليب التعبئة الشعبية:

3-1-1- احتضان العمل الجمعياتي:

نظرا لما لعبته الجمعيات المختلفة سواء الفكرية أو الفنية أو الثقافية من دور هام في تجميع النخبة الوطنية المثقفة والسياسية، وفي بلورة وعيهم بهويّتهم وتنمية دورهم التاريخي

في بلادهم كالدور الذي لعبته جمعية قدماء الصّادقية¹، وجمعية الشّبيبة المدرسية²، لجأت الحركة الوطنية إلى اختراق العمل الجمعياتي، وخاصة عقب صدور قانون تكوين الجمعيات³ 12 أوت 1936 في عهد الحكومة الشّعبية، إذ استغلت الحركة الوطنية التونسية هذا المجال للعمل الشّعبي فدفعت به وعززته وساعدته بشتى الطرق، وما يؤكد ذلك المنشور الدّخلي للحزب الدّستوري الجديد المؤرخ في 17 سبتمبر 1936 والذي حرّره صالح بن يوسف ووجّهه إلى رؤساء الشّعب الدّستوري يحثّهم على احتضانهم تدريجيا العمل الجمعياتي حتى يصبح الحزب الدّستوري الجديد حزب الأمّة ومصدر رغباتها وإرادتها، فدعا إلى تكوين جمعيات في كل جهات البلاد وفي شتى الأوساط الاجتماعية وحول كل المسائل الهامة وإلى ضرورة تواجد المناضلين الدّستوريين الجدد في هيئات تلك الهياكل لتحقيق المزيد من الاهتمام بالقواعد الشّعبية واستيعاب مطالبها وتعزيز صفوف الحزب بمزيد من الكوادر والمناضلين، فأصبح نتيجة لذلك الطابع الوطني هو الطّابع المشترك لكل الجمعيات.⁴

فتكوّنت الجمعيات في مختلف المجالات الثّقافية والاقتصادية والسّياسية والرياضية، وكثيرا ما كان رؤساء الشّعب الدّستوري المحلي رؤساء لهاته الجمعيات، إذ عمل المناضلون الوطنيون على بعث الجمعيات والانتماء إليها ومساعدتها بكل الوسائل، و نذكر على سبيل المثال تأسيس الحبيب بوقطفة جمعية (الثّغر المسرحية) في بنزرت، كما أسّس مناضلون دستوريون في قابس (الجمعية التّمثيلية) وفي القيروان (جمعية الشّباب الرّشيقية) وغيرهم كثير، وكانت

¹ إذ بلغ عدد المحاضرات التي قدّماها النّادي الأدبي صائفة 1930 حوالي مئتين ونيف، وعظم الإقبال عليها فاضطرت الجمعية إلى تحديد عدد الحضور بتوزيع بطاقات على أهل العلم والأدب والطلّبة. أنظر: الدّواوي، **تحولات**...، المرجع السابق، ص 69.

² تأسّست سنة 1932 واحتضنتها جمعية قدماء الصّادقية عندما رفضت السّلطة الاستعمارية الاعتراف بها، وقد سعت هذه الجمعية إلى تيسير التّكامل بين الرّيتونيين والصّادقيين. أنظر: الشّايب، "الحزب الحر الدّستوري..."، المرجع السابق، ص 100.

³ القاضي بحرية الاجتماع وتكوين الجمعيات على التزام الجهات المؤسّسة للجمعيات بإعلام الإدارة الفرنسية مسبقا، وذلك بهدف المماطلة والعرقلة من طرف الإدارة الفرنسية. للمزيد أنظر: بوطيبي، "الجمعيات الخيرية التونسية..."، **المقال السابق**، ص 153.

⁴ الدّواوي، **تحولات**...، المرجع السابق، ص 64.

المسرحيات التي تعرض للجمهور ذات مضامين سياسية في كثير من الأحيان.¹ فأصبحت الجمعيات بذلك وخصوصا الحركة الكشفية رافدا مهما وداعما أساسيا للحركة الوطنية.²

كما عملت الحركة الوطنية التونسية على دفع الطلبة والتلاميذ إلى تأسيس جمعيات لتنظيم صفوف شباب مختلف الهياكل التربوية والدفاع عن مصالحهم المادية والمعنوية وبث الروح الوطنية فيهم.³

وتفيد الإحصائيات الرسمية أنّ عدد الجمعيات الشّبابية التونسية المرخص لها بالنشاط إلى حدود أواسط سنة 1937 قد تطور من 51 إلى 94 جمعية، وهي موزعة كالتالي 20 جمعية رياضية، 25 جمعية مدرسية، 43 جمعية أدبية ومسرحية و 6 جمعيات كشفية.⁴

ومن أهم هذه الجمعيات نذكر:

— **جمعية الشّبان المسلمين:** تكوّنت 1934 وعملت في البداية كفرع للخلدونية إلى أن تحصّلت على تأشيرة قانونية 22-9-1936 وقد كانت هذه الجمعية تعمل ضمن التّيار الوطني⁵، إذ كانت نشاطاتها سياسية بحتة تحت غطاء تظاهرات ثقافية، وذاع صيتها بفعل مواكبتها لتطوّرات القضية الفلسطينية 1936-1939.⁶، وأسست الجمعية جريدة (تونس الفتاة) مارس 1938 لتكون منبرا وطنيا صريحا موجّها للشّبيبة التونسية، واعتبرت لسان حال شمال إفريقيا 1-4-1938، إذ عبّرت خلال الأعداد القليلة الصّادرة منها (20 عددا) عن المطالبة بالاستقلال التونسي، وبالوحدة مع باقي البلدان العربية الإسلامية، وساهمت في بلورة الوعي الوطني في صفوف الشّباب التونسي بالرّغم من مضايقات السّلطات الاستعمارية خاصة قبيل وبعد انتفاضة أفريل 1938.⁷

¹ الذّواودي، تحولات...، المرجع السابق، ص 65.

² لعيرج، المرجع السابق، ص 9.

³ الذّواودي، تحولات...، المرجع السابق، ص 69.

⁴ نفسه، ص 65.

⁵ الذّواودي، تحولات...، المرجع السابق، ص 65.

⁶ الشايب، "الحركة الوطنية 1934-1952"، المرجع السابق، ص 108.

⁷ الشايب، "الحركة الوطنية 1934-1952"، المرجع السابق، ص 109.

– **الحركة الكشفية:** ظهرت الحركة الكشفية في أوائل الثلاثينات فأُسست 1933 الجمعية الكشفية الإسلامية بقيادة مصطفى يحي دالي والبشير بن مصطفى لتظهر في النصف الثاني من الثلاثينات فرق كشفية أخرى.ك(كشاف الخضراء) التي كوّنوها الهادي الورتاني منذ أوائل جانفي 1936، و(الكشاف المّلي) برئاسة المناضل الدّستوري سالم الشاذلي وهو أول رئيس لجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا (1928-1929)¹، ولعبت الحركة الكشفية دورا هاما في إقحام الأجيال الجديدة في الحياة العامة وبلورة حسّها المدني ووعيها الوطني، وقد عملت الحركة الوطنية وخاصة الحزب الدّستوري الجديد على مساعدة بعث الجمعيات وتمويل برامجها العلمية وتعزيز حضورها في الوسط الشّبابي والشّعبي، وتشريكها في المبادرات الجماهيرية للحركة الدّستورية، إذ كثيرا ما كانت هذه الفرق ترافق الرّعاء الدّستوريين في جولاتهم الدّعائية من أجل حفظ النّظام في الاجتماعات وبيع بطاقات الانخراط في الحزب، بعث الحماس لدى الجماهير عن طريق أزيائهم وأناشيدهم الوطنية.³

وكان الاتحاد الكشفى التّونسي متعاطفا مع الدّستوري القديم، أمّا النّجم الكشفى تابعا للدّستوري الجديد، فلعبت هذه الفرق الكشفية دور الرّبط بين القيادة الوطنية والجماهير الشّعبية.⁴

– **الاتحاد النسائي الإسلامي التّونسي:** وهو أول تنظيم نسائي تونسي ظهر ديسمبر 1936 برئاسة بشيرة بن مراد ابنة الشيخ محمد الصالح بن مراد الذي عارض نشر كتاب الطّاهر حدّاد، كما شارك في تسييره مجموعة من النّساء المنتميات إلى العائلات "البلدية" المحافظة، مثل توحيدة بن الشيخ (أول طبيبة تونسية) ونبيهة بن ميلاد وحسيبة غيلب والسّيدة القروي، وقد استخدمت المنظمة المجلّة الزّيتونية (شمس الإسلام) التي كان يديرها محمد الصّالح بن مراد منبرا للدّعائية، وكذلك ظهرت سنة 1936 مجلة

¹ نفسه، ص 109.

² الذواوي، تحولات...، المرجع السابق، ص 69.

³ لعيرج، المرجع السابق، ص، 94.

⁴ نفسه .

(ليلي) التي تولّت محاربة التّقاليد البالية وتأييد تطورها الاجتماعي، فهذه المنظمة جمعية ذات توجه سياسي وخيري مهمتها جمع التبرعات ومساعدة الطّلبة على إتمام دراستهم بالخارج،¹ كما كانت تهدف إلى نشر الثقافة الإسلامية والعربية في الوسط النسائي والحث على التّعليم والحفاظ على الأخلاق الإسلامية.²

3-1-2- تعبئة الطّلبة التونسيين في فرنسا:

نظرا لما أبداه الطّلبة التونسيين وبالأخص الناشطين في (جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين) بباريس من نشاط بارز³ على إثر انعقاد المؤتمر الأفخارستي رأى الحزب الدّستوري الجديد ضرورة تعبئتهم، فدعاهم إلى تأسيس (لجنة الدّفاع عن الحريّات بتونس)، واعتبرها امتدادا للنشاط الحزبي إلى باريس، وتشكّلت اللّجنة في (سبتمبر 1934) وتولّى رئاستها سليمان بن سليمان، أمّا كاتبها العام الهادي نويرة، وقد اتّخذت هذه الجمعية من مقر جمعية (طلبة شمال إفريقيا المسلمين) بفرنسا محلاّ لها لعقد اجتماعاتها⁴، وكان أغلب هؤلاء

¹ الدقي، تونس من الإيالة...، المرجع السابق، ص 148.

² لعيرج، المرجع السابق، ص 95.

³ لقد تابع الطّلبة التونسيون الناشطون في صلب جمعية شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا ما يحدث بتونس والأقطار المغربية، فحرص الطالب الدستوري المنجي سليم على توظيف نشاط الجمعية في سبيل تحرير أقطار المغرب العربي، وألقى الحبيب ثامر على إثر انتخابه كاتبا عاما للجمعية مداخله بالجزائر 1932 بعنوان "حالة التّعليم والتّربية بالمدارس الابتدائية بتونس"، وقد أبرز تردي تدريس اللغة العربية والتّاريخ الوطني مبينا تقصير السّلطة الاستعمارية وإهمالها شؤون الأهالي، كما ندّد الطّلبة التونسيون بفرنسا منذ ماي 1933 بالإجراءات القمعية الجديدة (أمر 6 ماي 1933) مشاركين في أغلب الاجتماعات التي نظمتها مجلة المغرب (Maghreb) التي أسسها المحامي الاشتراكي روبرار جون لونقي (J. R. Longuet) المتعاطف مع حركة تحرير المستعمرات. كما انخرط أحمد بن ميلاد والهادي نويرة في 4 جوان 1933 في جمعية نجم شمال إفريقيا والتي ندّدت بالإجراءات التعسفية التي اتّخذتها سلطات الحماية بتونس، ودعت مسلمي شمال إفريقيا إلى التآزر لمواجهة الاستعمار. كما كان الشّباب الطّلابي بفرنسا قد تمكن من نسج علاقات وطيدة مع الزعيم السوري-اللبناني شبيب أرسلان وقاموا بإثراء محتوى مجلته "الأمة العربية (La nation Arabe) الأدبية السّياسية (مارس 1930) المهمة بقضايا المغرب العربي ومحاولة ربطها بتحرير سوريا ولبنان بكتابة (الشاذلي الخلافي، صالح بن يوسف، الحبيب ثامر، عبد الوهاب بكير) عدة مقالات للتعريف بالقضية التّونسية. للمزيد أنظر: القصاب، المرجع السابق، ص 548-549. وكذلك: الشايب، "الحركة الوطنية 1934-1952"، المرجع السابق، ص 106.

⁴ وقد ضمت خمسة أعضاء هم: محمود المسعدي، علي البلهوان، صلاح الدين بوشوشة، عبد الوهاب بكير، محمد سومر ثم تزايد أعضاء هذه اللجنة لاحقا بانضمام: محمود سليم وصالح الرحال، وأحمد بوخريص. وشارك كذلك في عمل اللجنة

الطّلبة متحمّسين لفكرة العمل الجماعي والالتحام بال جماهير الشّعبية، وتركّز نشاط هذه اللّجنة منذ تكوينها على الاتّصال بالأحزاب والمنظمات اليسارية الفرنسية مثل الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي ومنظمة حقوق الانسان، إضافة إلى الاتّصال ببعض الشّخصيات التّقدمية في البرلمان الفرنسي.¹ وذلك قصد التّشهير بالقمع البيروطوني، وكتابة المقالات الصحفية والعرائض في الصّحف الفرنسية والمغربية الصّادرة بباريس، واعتبرت بذلك رافدا أساسيا من روافد الحركة الوطنية التّونسية، فكانت على اتّصال دائم بتونس عن طريق تلغراف بعبادة الدكتور محمد الرّقيق بصفاقس.

3-1-3- الحملات الصحفية:

منذ انعقاد المؤتمر الأفخارستي شهدت الصّحافة الوطنية قفزة نوعية في معالجة القضايا المطروحة وتوظيفها لصالح القضية الوطنية، فاستطاعت هذه الصّحافة بفضل إخلاص أبنائها وجرأة مقالاتها تجاه الاستعمار أن ترد كيد الصّحف الاستعمارية وتكشف حقيقة نواياها وبطلان ادعاءاتها في العديد من المناسبات التي تلت المؤتمر كالاحتفالات الخمسينية، فيقول الحبيب بورقيبة: "وفي نهاية عام 1930 شاع خبر مفاده أنّه سيحتفل في العام القادم بالذكرى الخمسين لاحتلال تونس من طرف الجيش الفرنسي ولجمع النّاس على أنّ هذا الاحتفال سيكون نكبة أخرى " وإزاء تلك التّصرفات اجتمعت الطّبعة المثقّفة في تونس من الحزب الدّستوري وأعيان البلد بمؤتمر عام في 30 أكتوبر 1931 قرّرت فيه مضاعفة نشاطها في مقاومة الاحتلال الفرنسي، وقرّر المجتمعون إعادة انتخاب هيئة جديدة لإدارة وتحرير (الصوت التونسي)، وتمكّن بذلك الجيل من الشّباب أن يفتح الجريدة من جديد والقيام بحملة دعائية مكثّفة.²

ونشاطها كل من: الحبيب ثامر وأحمد علولو، ومحمود الزرزري، وبدرجة أقل المنجي سليم، وقد ساندتهم آخرون من الطّلبة. أنظر: ابن يوسف، النّخبة العصرية التّونسية. . المرجع السابق، ص 534-535.

¹ الشايب، "الحركة الوطنية 1934-1952"، المرجع السابق، ص 106.

² العبيدي، المقال السابق، ص 13.

فأدرجت جريدة (صوت التونسي) مقالات تشهّر بالاحتقالات الفرنسية والمصاريف الباهظة والمقدّرة بـ 300 مليون فرنك في الوقت الذي كان فيه أغلب التونسيين يشكو من بؤس شديد،¹ ومشرفين على أبواب المجاعة.²

وقامت الصحف التونسية على كافة مشاربها، وحتى جريدة (النّهضة) الموالية عادة للحكومة بحملات صحفية مشهّرة بالتّظاهرات، مندّدة بهذه الممارسات اللاخلاقية واللامقبولة، ومفندة مزاعم فرنسا التّمدينية، وفضح مخططاتها الاستعمارية، وردّت على الدّعاية الاستعمارية مبينة مساوئ الاستعمار والآلام التي يتخبّط فيها الشعب التونسي منذ خمسين سنة من حرمان للحقوق السياسية ومصادرات للأراضي وانتشار للأمراض المعدية.. الخ، فضلا عن حثّهم للسّكان ودعوتهم لمقاطعتها مع تحذير أعيان البلاد من المشاركة في هذه الاحتقالات.³ ونذكر على سبيل المثال ما كتبه محمد الجعايي في مقال ظهر في (الصّواب) في 5 سبتمبر 1930 بعنوان "بعد خمسين عاما من المحمية" ورد فيه: "إنّ الاحتفال بالخمسينية الذي يمثل مظاهرة التفوق على الشعب التونسي أمر غير مرغوب فيه خصوصا بعد ما أنجزته فرنسا مع الشعب التونسي الذي لا يزال محروما من الحقوق السياسية والحريّات والمساواة، ويعتبر في بلده أجنبيا".⁴ وكذلك ما كتبه صالح فرحات في مقاله حول "الذكرى الخمسين" بتاريخ 10 أفريل 1931: "إنّ الدّعم لفكرة أنّ فرنسا جاءت لتمدين السّكان ونشر الحضارة هو نفاق خالص".⁵

وعند مجيء الرّئيس الفرنسي دومارق للإشراف عليها قامت الصّحافة الوطنية بحملة عنيفة ضد الوفد التونسي المتركّب من الأعيان ونواب المجلس الكبير يتقدّمهم محمد شنيق

¹ آيت ميهوب، المرجع السابق، ص 133.

² الحمّاص، المرجع السابق، ص 234.

³ آيت ميهوب، المرجع السابق، ص 133-134.

⁴ Mohamed Bouzekri, "L'aube du mouvement national Tunisien ou l'ascension de Bourguiba", Op. cit, p 18.

⁵ La Voix du Tunisien , 10 Avril 1931 , "A propos du cinquantenaire".

وكان لخطابه خلال مقابلته لرئيس الجمهورية الفرنسية استياء شديد من قبل صحافة الحزب التي ستتطلق في حملة طويلة النفس ضده.¹

كما شنت الصحف الوطنية حملة عنيفة على المتجنّسين عارضة على صفحاتها فتوى الشيخ الزنكلاوي بجامع الأزهر التي أصدرها سنة 1924 والقائلة بخروج المتجنّس عن الديانة الإسلامية ودعم هذا الموقف بالفتوى التي أصدرها مفتي بنزرت الشيخ إدريس الشّريف.²

كما استغلّ الدّستوريون الشّبان أو جماعة (العمل التونسي) أمثال بورقيبة هذه الفرصة لتعبئة الرّأي العام والأهالي ضد المتجنّسين وضدّ فرنسا، والتّديد بالمجلس الشّرعّي واتّخذ الحزب الحر الدّستوري التونسي من تلك العملية مطيّة للبروز وكسب الأنصار بعد الفتر الذي أصبح عليه.³

كما لعبت الصحافة والصحافيون دورا إيجابيا في تصوير حالة المجتمع اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، ونقد الامتيازات التي يتمتع بها المعمّرون.⁴ ممّا أدّى إلى كسب ثقة القراء والتأثير فيهم إعلاميا وثقافيا، وفي إيقاظ الجماهير الواسعة ودفعها إلى ميدان النّضال الوطني بإبرازها حالات الاضطهاد الممارس ضدها من طرف الاستعمار.⁵

كما أنّ الصحافة تعاملت مع كل التّقلبات التي شهدتها الحياة السياسية بتونس، فشهدت الصحافة معارك المجدّدين والمحافظين في كلّ الميادين: الدّينية والاجتماعية والسياسية، إذ أخذ الجدل بين الطّرفين بعدا سياسيا ذو خلفية ايديولوجية جسّمه السّجال الصحفي بين جريدة "(الإرادة) التي مثلها محي الدّين القليبي والمنصف المنستيري عن القدامى ذوي الخلفية الرّيتونية، وجريدة (العمل) التي مثلها الطّاهر صفر عن الدّستوريين

¹ ابن ميلاد، مسعود، المصدر السابق، ص 309.

² لعيرج، المرجع السابق، ص 80.

³ الذواودي، تطور الحركة الوطنية التونسية...، المرجع السابق، ص 17.

⁴ نفسه، ص 17.

⁵ الذواودي، تطور الحركة الوطنية التونسية...، المرجع السابق، ص 87.

الجدد ذوي التكوين العصري، وهو صراع سيبقى محتدما بين الجانبين طيلة فترة الثلاثينات، فدخلت الصحيفتان في مواجهة حادة قوامها شرعية قيادة الحركة وتوجيهها الفكري، فالقديم يرى بأنه هو الأحق بالزعامة وأنّ تمسّكه بالثقافة الإسلامية هو الضامن للدّفاع عن الشخصية التونسية، أمّا الجدد فكانوا لا يبالون بالسّجال المذهبي بقدر ما يهتمون بالصّراع الميداني مع الحماية.¹

فالفرق بين قطبي الحركة الوطنية، هو اعتماد فريق على الدّين الإسلامي كعنصر ومحرك للإصلاح الاجتماعي، في حين يبقى الفريق الثّاني أكثر اهتماما بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية المتأزّمة²، فجعل تردّي حالة الفلاحين والحرفيين مادة خصبة لحملاته الصحفية، واتّخذ من الدّفاع على المنكوبين منطلقا لنقد الحماية والتّشهير بتعديّاتها، كما فعل بورقيبة سنة 1936 حين استغلّ وضعية الجفاف والمجاعة وكثرة التّكاي (مأوى لإطعام العجزة والفقراء) للتّشهير في الجرائد بسياسة تجويع الشعب التونسي.³ وشن حملة صحفية واسعة النّطاق، وكان من نتائجها أن تزايد عدد المنخرطين في الحزب خاصة من الأوساط الطّلابية التي كثّفت من إضراباتهما.⁴

وأخيرا يمكن القول بأنّه نتيجة للصّحوة التي شهدتها الحركة الوطنية في فترة الثلاثينات، وما صاحبها من نشاط في الصحافة والتي وقفت جميعها إلى صف القضايا الوطنية، أصبحت هذه الفترة من أرقى فترات الصحافة التونسية، إذ تمّ تسجيل سبعين عنوانا صحفيا باللّغتين العربية والفرنسية ما بين (1929 و 1939) وخصوصا بعد وصول الجبهة الشّعبية للحكم في فرنسا، إذ صدر خلال سنة 1936 اثني عشر مجلة عربية أسبوعية جديدة، أمّا

¹ الدقي، تونس من الإيالة...، المرجع السابق، ص 158.

² نفسه، ص 152.

³ عزيز، المرجع السابق، ص 262.

⁴ الشابيبي، "الحزب الحر الدستوري التونسي (1920-1934)"، المرجع السابق، ص 97.

في سنة 1937 فصدرت 41 نشرية عربية أخرى تقاسمتها القوى السياسية مع مساندة أغلبها الحزب الدستوري الجديد في مرحلة ما بعد الانشقاق.¹

3-1-4- الجولات الدعائية لزعماء الحزب:

لقد ارتكز العمل السياسي للحزب الحر الدستوري بعد المؤتمر الأفخارستي على مبادئ دائمة ترمي إلى إبقاء الشعب التونسي في حالة تعبئة مستمرة، وقد عزز هذا الاتجاه خاصة الشق الزايدكالي وذلك عن طريق تكثيف الاتصال بين القادة وال جماهير وخاصة الشباب، وأثناء اجتماعات عامة تعقد دوريا في مختلف أنحاء البلاد، يتناول الكلمة الزعماء لتمجيد حب الوطن وتوضيح العمل الذي يقوم به القادة وشحن العزائم وإثارة الحماس.

وبعد مؤتمر نهج الجبل عمد الجيل الجديد إلى الاتصال المباشر مع القواعد الحزبية والشعبية، فعزز هذا الأسلوب تفاعل القاعدة الشعبية مع الأحداث السياسية²، وزيادة الانتماءات داخل الحزب.³

وتكرس العمل الميداني أكثر بعد الانشقاق، فمنذ خريف 1933 بدأت المنافسة الميدانية بين أعضاء اللجنة التنفيذية وجماعة (العمل التونسي) من أجل تفسير وجهة نظر كل من الفريقين لدى الهياكل القاعدية للحزب ولدى الرأي العام، وقد كانت تلك المنافسة تدور حول رغبة كل فريق في تعزيز جانبه وتقوية عدد أنصاره، وشكلت شعب مدن وقرى الساحل الساحة الأولى التي قصدها الحبيب بورقيبة وعمل على الاتصال بأهاليها وبمناضليها بصفة مباشرة وخلق نوع من العلاقات معهم خصوصا وأنها في طليعة المواجهة الشعبية النقابية والسياسية وفي حاجة إلى قيادة سياسية فالجناح الجديد عمل على كسب

¹ الأزهر الصخراوي، مخطوط السياسة الاستعمارية الفرنسية بتونس من برنار رو إلى شارل سومانيه (1881-1956)، ط1، تقديم الهادي تيمومي، دار المسير، 2018، ص 154.

² فقد قامت مظاهرات شعبية أوت 1920 بسبب غلاء المعيشة وخاصة أسعار السميد والخبز، كما أمضت العديد من العرائض أهمها التي تطالب بالإفراج عن المتهمين بترويح كتاب " تونس الشهيدة "، ولكن أهم حدث استقطب هذه الفئات وكان له الأثر الكبير على الانخراط في الحزب هو تنازل الباي محمد الناصر عن العرش في أفريل 1922. أنظر:

التيمومي، المرجع السابق، ص 687.

³ نفسه، ص 687.

أكثر شعب الحزب نضالية وأهم المناطق التي تشهد تصاعداً في الكفاح الوطني والاجتماعي، ثم توجه بعدها في خريف 1933 إلى منطقة صفاقس والوطن القبلي، ولم يباشر الصدام مع اللجنة التنفيذية في تونس العاصمة إلا في جانفي 1934 بعد أن توفر لديه أنصار في بنزرت وباجة والمهدية وفي الوسط الطلابي التونسي في باريس بواسطة صالح بن يوسف، وبعدها تم عقد المؤتمر الاستثنائي في 2 مارس 1934.¹

وبعد عودة الثعالبي إلى تونس جويلية 1937 وفشل الدستوري الجديد في احتوائه، أصدر بورقيبة أوامره بمقاطعة اجتماعات الثعالبي ونزع الثقة منه، وراح يجوب مدن سليانة ومكثر والوسلانية لتأسيس شعب دستورية جديدة، كما شملت حملته الإعلامية القيروان والزلاّس وفي جميع المدن الداخلية، وفي مناطق وادي مجردة وشمال البلاد والشمال الغربي التونسي واستمرت الحملة طيلة شهر سبتمبر، وتمكن خلالها الديوان السياسي من كسب أنصار جدد وتكوين كتلة معارضة للثعالبي عملت على الوقوف أمامه في كل مكان قصده واستمرت القطيعة النهائية التي ظهر فيها تفوق الديوان السياسي في التوغل في الأوساط الشعبية²

واعتمد الدستور الجديد طرق عملية عصرية مقتبسة من الشيوعيين والفاشيّين، فأتخذت دعايته جميع الوسائل الصالحة للتأثير على المخيلة، كدخول الزعماء المدن في مواكب رهيبة، واستعراضات وشارات، وشبّية مرتدية أزياء خاصّة، وتزيين المنصات ونشيد وطني ملحن، وطاقم موسيقي يعزف على الآلات النحاسية، فبعثت الاجتماعات العمومية حماساً في نفوس الجماهير، وعملت الشعب المحلية على استمرار تلك الشعلة المقدّسة وبالتالي فإنّ الحزب الجديد اعتمد على المرونة في التّقرب إلى الجماهير الشعبية التي يصعب أن تفهم مبادئه المدنية الحديثة.³

¹ الذواودي، تحولات. . ، المرجع السابق، ص 45.

² مناصريه، الصراع الايديولوجي. . ، المرجع السابق، ص 31.

³ جوليّان، إفريقيا الشّمالية تسير، المصدر السابق، ص 102.

فأصبح الحزب الجديد يوحّد حوله أوسع الفئات الشّعبية التي كانت فيما مضى تتاصر الحزب الدّستوري القديم مع إقحام قوى اجتماعية جديدة في جدلية الكفاح بالرّغم من أنّ بعض الأوساط بقيت بعيدة عنه نسبيا مثل أعيان المدن والوسط الرّيتوني والحركة النقابية والعمّالية المنضوية في النقابات الفرنسية.

3-1-5- الهيمنة على جامعة عموم العملة التونسية الثانية :

لقد تبلورت فكرة تأسيس جامعة عموم العملة التونسيين نتيجة عدّة عوامل، نذكر من أهمّها التّرخيص القانوني الصّادر في 16 نوفمبر 1932 والذي يسمح بإنشاء جمعيات نقابية، وعزم الحزب الدّستوري الجديد على الدّفاع عن الصّناعات التونسية والنقابات، وتشجيعه وتدعيمه لإعادة بعث الجامعة ومناصرتها خاصة بعد خيبة أمّله في حكومة الجبهة الشّعبية الفرنسية¹، إذ كتب في 23 سبتمبر 1936 إلى الهادي نويرة يدعو إلى الإحاطة بالعمّال وإعادة بعث جامعة عموم العملة التونسيين لينفصلوا عن النقابة الفرنسية، وجاء في جريدة (العمل التونسي) بتاريخ 20 فيفري 1937: "لا يوجد تميّز بين العمل النقابي والعمل السّياسي، إنّ الحركتين تلتقيان إذا لم تتحصر الواحدة في الأخرى"²، وتمّ بعث هذه الحركة النقابية رغم استنكار الشّيعيين والاشتراكيين في 16 مارس 1937، وتمّ عقد مؤتمرها التّأسيسي يوم 27 أبريل 1937³، وانتخب بلقاسم القناوي⁴ أمينا عاما لها، وعمل الدّستوريون الجدد والقدامى على مساندتها، والتّسرب داخلها والتّأثير على اتّجاهها السّياسي، كما قام الحزب الدّستوري الجديد بالسيطرة عليها وذلك بإزاحة أمينها العام بلقاسم القناوي الذي رفض

¹ ليلي بوجلال، "النضال النقابي في الحزب الدستوري التونسي الجديد، الوجه الآخر للكفاح التحرري"، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، ع 20، جوان 2018، ص(212-220)، ص 215.

² عزيز، المرجع السابق، ص 258-259.

³ عبد السلام بن حميدة، الحركة النقابية (1924-1952)، تونس عبر التاريخ، ج 3، المرجع السابق، ص 131.

⁴ بلقاسم القناوي (1907-1987): ولد بالمطوية وتعلم بكتّابها، التحق بتونس العاصمة سنة 1918، انخرط في الحزب الحر الدّستوري التونسي سنة 1924، وكان في صف بورقيبة عند انشقاق الحزب الدستوري وشارك في مؤتمر قصر هلال، وكان في ربيع 1936 من أهم العناصر التي أحييت جامعة عموم العملة التي حلها الاستعمار ونفى زعمائها سنة 1925. إذ انتخب القناوي منذ انبثاقها في 16 مارس 1937 كاتبا عاما، اختلف مع رفاقه الدّستوريين حول تسييس العمل النقابي، الأمر الذي أدّى إلى إزاحته.

تسييس العمل النقابي ومسايرة الخيارات السياسية للحزب الدستوري الجديد خصوصا حول شتّى إضراب يوم 20 نوفمبر 1937 للتّديد بالقمع المسلّط على القادة الوطنيين والحركات المناهضة للاستعمار في المغرب الأقصى والجزائر¹، ولذا تعارض مع نزعة الحزب الرّامية إلى مراقبة جميع المنظمات التّونسية لكي يوظّفها كأداة ضغط على السّلط الفرنسية ومناوئيه، فارتأ الحزب إلى فرض قيادة جديدة وبطرق غير ديموقراطية على جامعة عموم العملة التّونسية الثّانية خلال مؤتمر استثنائيّ عقد في 29 جانفي 1938²، وتشكّلت القيادة الجديدة برئاسة الهادي نويرة، وهكذا تمكّن الدّستوريون من افتكاك القيادة النّقابية والاستفادة من كل الطّاقات العمالية المنظّمة وكسبها إلى جانبهم في النّضال السّياسي والوطني، وخاصة بعد أحداث بنزرت وإعلان القطيعة بين الدّستوري الجديد والإقامة العامة، ولكن بالرّغم من سيطرتهم عليها، إلا أنّها كانت نقابة مفرّغة نتيجة ضرب الإقامة العامة للعديد من فروعها وهجران العديد من النّقابيين لصفوفها بعد الانقلاب الدّستوري، إذ لم تنجح قيادة نويرة في جمع المناضلين والإطارات النّقابية تحت نفوذها باستثناء نقابات بنزرت التي كانت تحت تأثير النّقابي حسن النّوري³. ومع ذلك فإنّ لهذه العملية الانقلابية دورا هامّا في إبراز احتكار الحزب الدّستوري الجديد مهمة الدّفاع عن كل التّونسيين بما فيهم العمّال⁴.

3-1-6- عبر المناشير:

لقد اعتمد أسلوب كتابة المناشير خاصة عند حدوث القطيعة داخل صفوف الحزب الدّستوري 1933، حيث حرّر الشّبان الجدد منشورا بيّتوا فيه أسباب الخلاف بينهم وبين اللّجنة التّفيذية، وبعثوا به إلى الشّعب الدّستوري لكسبهم إلى صفهم، كما كتبت اللّجنة

¹ الشّابي، المرجع السابق، ص 70.

² لعيرج، المرجع السابق، ص 101.

³ حسن النّوري (1939-1905): من أصل جزائري، ولد ببزرت وبها تلقى تعليمه الأول، ثم زاول دراسته بالمعهد الثّانوي، وبعد أربع سنوات وقع طرده بسبب موقفه الوطنيّة، شارك في مؤتمر قصر هلال، طرد من تونس عقب أحداث التّجنيس 1934، وسمح له بالعودة سنة 1936، سجن العديد من المرات، وتمّ إبعاده سنة 1938 للجزائر حيث سجن بسجن الحرّاش، وبه مات بسبب مرضه. أنظر: عقيب، الحزب الحر الدستوري ...، المرجع السابق، ص 215.

⁴ الذواودي، تطور الحركة الوطنية. . المرجع السابق، ص 239-240.

التنفيذية إلى الشعب لطلب موافقتها على ما قرّرت به بخصوص طرد البحري قيقة وقبول استقالة الأربعة الباقين من جماعة (العمل التونسي)، وكتبت لهم مناشير كذلك تطلب منهم عدم المشاركة في المؤتمر الذي سيجتمع بقصر هلال وتوعز إليهم التبرؤ منه.¹

وأعتمد كذلك على أسلوب الملصقات الحائطية في زمن القمع والتضييق على الحريات خاصة بعد مظاهرة أفريل 1938.²

3-2- مظاهر العمل الجماهيري في الحركة الوطنية:

3-2-1- تزايد الانخراط في صفوف الحزب:

منذ خروج واندفاع الجماهير الشعبية في العمل لمناهضة انعقاد المؤتمر الأفخارستي بقرطاج تولّى الجناح المتصلّب في الحركة الوطنية بواسطة (الصوت التونسي) الدفاع عنهم وتشجيعهم على ما قاموا به من اضطرابات وبنّوا فيهم دفعا متزايدا نحو التصلّب، وبالرغم من بروز الجماهير على الساحة السياسية في أول الأمر كان ظهورا محتشما بمناسبة المؤتمر لكنّه شكّل آنذاك مفجرا حقيقيا للحركة الوطنية³، وكان له تأثير على تجذّر الحركة الوطنية، إذ أدّى المؤتمر الأفخارستي إلى دخول قوى اجتماعية جديدة الساحة السياسية إضافة إلى العمّال وصغار التجار والحرفيين والطلّبة الرّيتونيين الذين مثلوا إلى حد ذلك الحين القاعدة الاجتماعية للحركة الوطنية، دخل التلاميذ والطلّبة ذوي التكوين الحديث ليقتموا الساحة.

وبرز الجناح المتصلّب الذي يميل إلى الارتباط بالقوى الشعبية لكون أغلب العناصر الجدد تعلّموا في الجامعات الفرنسية وتأثروا بطرق العمل السياسي هناك حيث المنظّمات الكثيرة والأحزاب اليسارية التي تعوّل كثيرا على القوى الجماهيرية، وهو ما تجلّى بوضوح خلال التّحركات الشعبية التي عرفتها تونس في الثلاثينات والتي تؤكد على نمو الوعي وتطور الحسّ الوطني لدى الأهالي، وهو ما لا يتماشى وطرق العمل المعتدلة والتي توخّاها

¹ مؤتمر البعث، المصدر السابق، ص 38-39.

² لعيرج، المرجع السابق، ص 96.

³ المحجوبي، جذور الحركة الوطنية...، المرجع السابق، ص 505.

إلى حد ذلك الحين الدستور القديم، حيث كانت طريقة عملهم تعتمد بالأساس على الشرعية ونبذ العنف واقتصرت على الصحف والعرائض والاجتماعات وإرسال الوفود.

وقد أفضى الوصول إلى تلك التعبئة عدّة عوامل فعلى مستوى الجماهير كان الشعور الديني أي الانتماء إلى أمة عربية إسلامية الايديولوجية الضمنية والمبرر العميق، إضافة إلى التحوّلات العميقة التي أحدثها الاستعمار خاصّة بعد الحرب العالمية الأولى إذ أنّ النمو المادي الاستعماري تمكّن من إحداث اختلال توازنات وأنتج تناقضات ومن ضمنها التي نتجت عن النّجاح المادي للاقتصاد الاستعماري كاستيلاء المعمّرين على عشرات بل مئات الهكتارات من أحسن الأراضي الفلاحية التونسية وسخّر أحدث الوسائل الفنيّة لاستغلال تلك الأراضي والاستفادة منها إلى أقصى حد ممكن، وتحطيم الهياكل الاجتماعية التقليديّة من قبائل وعشائر وغيرها، ووقّرت السوق الفرنسية بفضل الاتحاد الجمركي 1928 لأرباب الصّناعات بفرنسا وبالخصوص للتّجار الأوروبيين والإسرائيليين بتونس أرباحا طائلة، وبالمقابل أدّت إلى اختناق الحرف والحرفيّين التونسيين بسبب المزاحمة الأوروبية، كما أشركت أكثر ما يمكن من الموظّفين غير التونسيين للاستفادة من الميزانية والعمل على فرنسة البلاد للقضاء على خصائصها العربية الإسلامية.¹ كما لا ننسى وضعيّة التونسي المتدنيّة في النظام الاجتماعي الاستعماري والحيث السّافر الذي ناله في حياته اليومية.²

إضافة إلى الارتفاع الديموغرافي فبعد أن كانت تونس سنة 1881 تعدّ بين مليون ومليون ونصف نسمة، فإنّه مع بداية الثلاثينات عرفت تغييرا سكانيا نوعيا، حيث بلغ حجم السكّان 2411000 نسمة سنة 1931، و2610000 نسمة سنة 1936، وقد تزامنت بؤادر التّغيير الديموغرافي مع بداية الأزمة الاقتصادية.³

وقد تمّ استغلال الأزمة الاقتصادية في بداية الثلاثينات للتأثير على الوعي الوطني بأن جرّت عديد التونسيين إلى المساهمة في الأحداث الوطنية، ولذلك نجد أنّ أغلب الانتماءات

¹ القصاب، المرجع السابق، ص 534.

² الشريف، المرجع السابق، ص 690.

³ نفسه، ص 691.

كانت ما بين 1930 و1934 وذلك تقريبا بالنسبة لكافة الفئات الاجتماعية إذ بدأ عددهم يرتفع منذ سنة 1930 وبشكل متزايد إلى سنة 1934 وهي الفترة التي استعادت فيها الحركة الوطنية نشاطها.¹

كما كان للخلافات السياسية الداخلية في صلب الحزب والتي بدأت بوادرها تبرز بجلاء منذ 1932 وانتهت بتصدع الحزب، وبالرغم مما أحدثته من انخراط في رصيد الثقة بين صفوف المناضلين، إلا أنها أثرت في الحرص على التأكيد على الانخراط والذي ارتفع حجمه نسبيا خلال هاتين السنتين.²

كما وظّف الدستور الجديد الأزمة الاقتصادية أحسن توظيف للنفاذ إلى الأوساط الريفية، إذ استغلّ تواصل الأزمة الاقتصادية والاجتماعية³ إلى ما بعد 1936 ليهيكل وينظم حزبه ويوسع قاعدته، فارتفع عدد شعبه من 50 سنة 1934 إلى 162 شعبة سنة 1936،⁴ و400 شعبة سنة 1937، وبلغ عدد المنخرطين حوالي 100 ألف عضو، بينما الحزب القديم لم يحتفظ إلا بـ 67 شعبة منها 13 بتونس وشعبة واحدة ببافيس، وانحصر نفوذه بتونس وسوسة وقلبيية وماطر ومساكن.⁵

هذا إلى جانب تطوّر التعليم وكذلك وسائل المواصلات والاتصال وكلّها عوامل من شأنها أن تطوّر الوعي الوطني لدى الفئات الشعبية التي أصبحت فاعلة على الساحة السياسية.⁶

فازداد عدد التلاميذ والطلّبة وهي الفئة التي تفاعلت أكثر مع الأحداث، كما ارتفع عدد المنخرطين من العمّال والحرفيين والتّجار، وربّما يعود ذلك إلى تفاعلهم مع الأحداث

¹ الشريف، المرجع السابق، ص 691.

² نفسه، ص 691.

³ سجّلت سنة 1935 حوالي مائة ألف عاطل عن العمل من بينهم 30 ألف بمدينة تونس.

⁴ لعيرج، المرجع السابق، ص 82.

⁵ الدقي، تونس من الإيالة. . ، المرجع السابق، ص 158.

⁶ الشريف، المرجع السابق، ص 692.

وتحسّسهم خاصّة للانعكاسات الوخيمة للأزمة الاقتصادية التي ظهرت بواورها منذ مطلع الثلاثينات.

فأصبح الحزب بعد 1930 يمثل حركة شعبية شاملة لا يقتصر نشاطها على أبناء الطبقة الوسطى وسكّان المدن بل أصبح من صنيع الجماهير العمّالية والفلاحية والفئات الوسطى الحضرية والشباب المثقّف وصغار الحرفيين، وبعد أن كانت الحلقات السياسية متوقّعة في العاصمة وأحوازها بدأ أهالي الرّيف والمدن الصّغرى داخل البلاد يكتسحون الميدان بممارسات تبعثر العمل النّخبوي ونضال المقالات والنّوادي.¹

3-2-2-الحركات الاحتجاجية والمظاهرات

برز إقحام الجماهير في الكفاح خلال الثلاثينات في مناسبات عدة كانت أولاها الاحتفالات الخمسينية وأحداث التّجنيس، ففي الاحتفالات الخمسينية: تصدّى مناضلو الحزب الدّستوري لهذه التّظاهرة الاستقرازية منذ شهر سبتمبر 1930 بتعدّد الاجتماعات وكتابة المقالات في الصحف التي تحثّ الأهالي على عدم الاشتراك في هذه التّظاهرة، وقرّر نفس الحزب بتنظيم مظاهرة يوم 12 ماي 1931 بالذّات لتذكير الشّعب باليوم الذي فقد فيه استقلاله واحتجاجا على هذا الاحتفال.²

واتّسعت حركة المعارضة لإقامة الاحتفال ووزّعت العديد من المناشير والملصقات في تونس، وقد لعب طلبة جامع الزّيتونة دورا هامّا في توزيعها ونشرها.³

وكان رد فعل سلطات الحماية على هذه الحملة الصّحفية بأن أوقفت بعض الجرائد ك(الوزير) و(النهضة)، ورفع دعوة قضائية ضدّ (الصّوت التّونسي) النّاطقة بالفرنسية والتي

¹ ياغي، شاكر، المرجع السابق، ص110.

² الغربي، المرجع السابق، ص 274.

³ ابن ميلاد، مسعود، المصدر السابق، ص 309.

لا يسمح قانون الصحافة بتعطيلها، فأغلقت المحلات احتجاجا على التّبعات العدلية ضدّ هيئة تحريرها.¹

وتحت ضغط الشارع والرأي العام الوطني قامت الإدارة الفرنسية بحفظ القضايا المتعلقة بأصحاب الجرائد المعطّلة، وإطلاق سراح محرّريها، فكان ذلك نصرا رائعا للقوى الوطنية، وأكد مرة أخرى أنّ قوة الجماهير ضرورية وحاسمة لكسء العمل السياسي النّجاح المطلوب.²

كما أثار دفن المتجنّسين بالمقابر الإسلامية حركة شعبية أوسع وأعمق ممّا أثاره انعقاد المؤتمر الأفخارستي والاحتفال بخمسينية الحماية، الأمر الذي جعل الشّق المتصلّب في الحركة الوطنية يدرك ما لهذا السّلاح من أهمية في كل عمل سياسي.³

وبالرّغم من أنّ قضية التّجنّس ليست وليدة الثلاثينات، كما أنّ معارضة السّكان لدفن المتجنّسين من التّونسيين في المقابر الإسلامية لم تطرح قبل 1930، إلّا أنّ تحدّي المشاعر الوطنية وأزمة الثلاثينات الاقتصادية وآثارها الاجتماعية أدّت إلى إثارة المسألة بحدّة.⁴

حيث رجعت القضية من جديد على إثر الفتوى التي أصدرها مفتي بنزرت الشّيخ إدريس الشريف والتي أقرّ فيها أنّ المتجنّس مرتد، والمرتد لا يصلّ عليه، ولا يدفن في المقابر الإسلامية.⁵ فنُظّمت مظاهرات احتجاجا على دفن متجنس في مقبرة المسلمين، وكانت المظاهرة عظيمة وصاخبة شارك فيها الوطنيون التّونسيون وفي مقدمتهم أتباع الحزب الدّستوري. وشاءت الصّدف أن أدركت المنية عددا من المتجنّسين في نفس الفترة فتجدّدت المظاهرات وتزايد صخبها في سائر المدن وخاصة بتونس.⁶ وجلبت هذه العملية العاطفية ذات الصّبغة الدّينية كثيرا من الأنصار والتأييد الشّعبي للحزب، فنظّم الحزب مظاهرات

¹ آيت ميهوب، المرجع السابق، ص 133-134.

² الطباي، الحزب الحر الدستوري التونسي، المرجع السابق، ص 39.

³ لعيرج، المرجع السابق، ص 80-81.

⁴ نفسه.

⁵ العبيدي، المقال السابق، ص 8.

⁶ الماطري، المصدر السابق، ص 47.

عديدة بدعوى أنّ عملية التّجنيس كانت تهدف قبل كل شيء إلى محو الدّات التّونسية والهوية العربية الإسلامية.

وقام المقيم العام بالضّغط على رجال الدّين وانتزع منهم فتوى لا تحرم دفن المتجنّسين في مقابر المسلمين، فنظّم على إثرها الحزب مظاهرة يوم 7 أفريل 1933 وشارك فيها طلبة الزيتونة تعبيرا عن الاحتجاج ضدّ فتوى المالكية بالتّرخيص بدفن المتجنّسين في مقابر المسلمين.¹ وفي النّهاية وبعد المواجهات الدّامية وأمام ضغط القوى الوطنية المدعوم بقرار المؤتمر الإسلامي بالقدس الدّاعي إلى تشديد النّضال ضد التّجنيس ومواجهة سياسة الادمج²، وبعد كثرة المعارضة قرّرت الإقامة العامة يوم 12 ماي 1933 إحداث مقابر خاصّة بالمتجنّسين بالجنسية الفرنسية أطلق عليها أبناء الشّعب اسم " مقابر الجيفة " وقد كان صدور هذا القرار انتصارا³ للحزب والوطنيين، إذ استغلّها الحزب وخاصّة جماعة بورقيبة لتحرك سياسي كبير، فاعترض الدّستوريون ومنعوا دفن المتجنّسين في المقابر الإسلامية أو في مقابر خاصة بهم بل أصرّوا على دفنهم في مقابر المسيحيين. وأفضت المصادمات بين الأهالي وقوّات الاحتلال عند اعتراض المتظاهرين على دفن التّونسيين المتجنّسين بالمقابر الإسلامية على سقوط ضحايا، مثلما حصل خلال يوم 07 أوت 1933 ببلدة المنستير⁴ عندما سقط " شعبان البحوري " شهيدا.⁵

وهذه الأحداث أدّت إلى تطور سريع للوعي السّياسي للجماهير التي بدأت النّخب ترتكز عليها أكثر فأكثر عاملة على ضبطها وتوجيهها وخصوصا الأجيال الشّابة.⁶ وهكذا

¹ عزيز، المرجع السابق، ص 204.

² نفسه، ص 203. ولعيرج، المرجع السابق، ص 81.

³ الماطري، المصدر السابق، ص 48.

⁴ الغربي، المرجع السابق، ص 275.

⁵ عزيز، المرجع السابق، ص 204.

⁶ لعيرج، المرجع السابق، ص 82.

فبعد حوادث التجنيس انبعثت الحركة الوطنية انبعثا جديدا وبدا الوقت قد حان لتنظيم الحزب من جديد على أسس متينة.¹

وبعد مؤتمري قصر هلال مارس 1934 وغرنوطة أفريل 1934 اقتحمت الحركة الوطنية مرحلة تاريخية جديدة في صيغها وأشكالها، فتجبر الأوضاع في البلاد جعل الأهالي يتوجهون نحو المزيد من المظاهرات الاحتجاجية وتقديم المطالب، وكان موقف الدستور القديم يتمثل في مناشدة الأهالي بعدم التضامن مع "الخونة والمرتدين الضالين" و"المحرّضين الفوضويين" الذين أضروا بالأمة من جراء أعمالهم، وأن يتركوا قادة البلاد يتدبرون أمرها دون عنف ودون صدام مع قوات الأمن العام (جريدة الإرادة: 7-9-1934).² أما جيل الشباب المتطلع إلى تجديد أساليب الكفاح الوطني طالب بمقارعة الاستعمار وإحكام القوى الشعبية في المواجهة،³ فوجدت الفئة الوسطى في العناصر الجديدة خير مُعبّر عن طموحاتها ومشاغلا فانخرطت وتعاطفت مع الدستور الجديد، وفقد بذلك الحزب الدستوري القديم قاعدته الجماهيرية وخصوصا الشبان.⁴ والذين يمثلون الفئة العمرية الأكثر نسبة في المجتمع التونسي خلال الثلاثينات.⁵

مظاهرات سبتمبر 1934:

على إثر اعتقال القيادة الدستورية (محمود الماطري والحبيب بورقيبة وأخوه محمد ويوسف الرويسي) بالجنوب في 3 سبتمبر 1934، قامت مظاهرات شعبية مسّت كل أرجاء تونس⁶ في الفترة المتراوحة بين 3 و 28 سبتمبر 1934، ففي يوم 4 سبتمبر 1934 انتقلت كتلة بشرية والتي ضمت ما بين 2500 إلى 3000 شخص إلى المرسى ودخل ممثلون

¹ ثامر، المصدر السابق، ص 91.

² الذوايدي، تحولات. . ، المرجع السابق، ص 53.

³ الدقي، تونس من الإيالة... ، المرجع السابق، ص 151.

⁴ لعيرج، المرجع السابق، ص 89.

⁵ الذوايدي، تحولات. . ، المرجع السابق، ص 41.

⁶ الماطري، المصدر السابق، ص 63-64.

دستوريون منهم إلى قصر الباي للتعبير عن رغباتهم وهو ما أزعج الباي، ف وقعت أحداث دامية.¹

وببلدة المكنين تحوّلت التّحركات الشّعبية يوم 5 سبتمبر² والتي شارك فيها ما يزيد على ألفي متظاهر إضافة إلى أعداد أخرى من بلدة قصر هلال المجاورة لها إلى مواجهات عنيفة مع السّلط الاستعمارية.³

ولم تقتصر المواجهات الفعلية مع السّلط الاستعمارية على قرية المكنين، بل شملت أماكن أخرى كالمستير والمهدية وغيرهم⁴، إذ شهدت تونس وخصوصا في الأسبوعين الأول والثاني من شهر سبتمبر (1934) 21 مظاهرة احتجاجية شارك فيها حوالي 60000 مواطن رغم حملة التّتبعات والنّفي التي تعرض لها قادة الحركة الوطنية.⁵

وبعد حملات الاعتقال في صفوف قادة الحركة الوطنية، وتشكّل الديوان السّياسي الثاني والذي وجّهت له الانتقادات لتخليه عن النّشاط التّحريضي والدّعائي الجماهيري مقابل بعض الوعود التي قدّمها له بيروطنون هذا الأخير الذي جعل التّفاوض والحوار مع الوطنيين مشروطين بهدوء في الشّارع، الأمر الذي دفع قيقة وصفر بالتّجوال عبر البلاد بهدف التّهدئة

¹ عزيز، المرجع السابق، ص 233.

² وقد جاء في تقرير لوكيل الجمهورية بسوسة بتاريخ 8 سبتمبر 1934 ما يلي: "صبيحة يوم 5 سبتمبر 1934 تجمّع في مدخل مدينة المكنين قرابة 3000 شخص من الأهالي المسلمين (...) وألقوا الحجارة على مقر الخليفة الذي يحتوي على البلدية، كما وقعت مdahمة المبنى، وأتلفوا وثائق الأرشيف، ثمّ أضرّموا فيه النّار ..."، وقد قام قائد جندرمة سوسة مع أربعة من رجاله على عين المكان وعند وصوله على الساعة التاسعة إلى مدخل القرية واستقبله الأهالي بوابل من الحجارة، كما قاموا بحرق سيارتين، وتمّ حاليا إيقاف خمسين شخصا من الأهالي.

وقد أسفرت هذه المظاهرات عن مقتل شخصين وإصابة عدد كبير من المتظاهرين بجروح ووفاة أحد أعوان الجندرمة - رجل أمن (مسلم فرنسي) باستعمال فأس - . للمزيد أنظر: الماطري، المصدر السابق، ص 65. وكذلك: الحمّاص، المرجع السابق، ص 235.

³ الشابيبي، "الحركة الوطنية 1934-1952"، تونس عبر التّاريخ، المرجع السابق، ص 104.

⁴ جاء في مذكرة من مصلحة الشّؤون السّياسية بتاريخ 15 سبتمبر 1934 ما يلي: "اندلعت مظاهرات في المستير والمهدية، وخاصة المكنين حيث كانت أكثر خطورة".

⁵ الذواودي، تحولات...، المرجع السابق، ص 55-56.

وذلك من أجل الحصول على إطلاق سراح المعتقلين، ولكن مع ذلك عرفت البلاد خلال فترة هذا الديوان 110 مظاهرة شعبية و 38 حملة لجمع الإعانات لفائدة المعتقلين.¹

وبعد إيقاف عناصر الديوان السياسي الثاني² إثر مظاهرة غرة جانفي 1935 والموافقة ل 27 رمضان والتي قوبل فيها الباي أحمد أمام المسجد الكبير بشعارات معادية له ولفرنسا تشكّل الديوان السياسي الثالث بزعامة الشاذلي خير الله، ومعه كل من بشير الفورتي³، الطاهر الزاوش، محمد سويسي، عبد الرحمان علولو⁴، واتّبَعوا نفس الاستراتيجية.⁵

وأمام التّشدد الذي أبدته الحكومة في إنجاز وعودها خاصة منها تحقيق إصلاحات سياسية محدّدة وإطلاق سراح المعتقلين، عاد الانفجار من جديد إلى أشدّه في مظاهرة غفيرة يوم 28 مارس 1935 التي شارك فيها حوالي 30000 مواطن، وهذا ما دفع بالديوان السياسي إلى الاستقالة في نفس اليوم لكونه معارض للشّعب الشّعبي والاصطدام مع سلطات الحماية، أمّا القاعدة الحزبية رفضت الرّجوع إلى صيغ وتقاليد كانت أحد أسباب ابتعادها عن الحزب الدّستوري القديم⁶، ليدخل بعدها الحزب مرحلة من الفتور إذ بعد خيرالله الذي قرّر

¹ الذوايدي، تحولات...، المرجع السابق، ص 55-56.

² قام بيروطون بإبعاد فوج آخر من الدّستوريين في 2 جانفي، من بينهم 3 من الديوان السياسي الثاني (الطاهر صفر، البحري قيقّة، صالح بن يوسف): الطاهر صفر، إلى جرجيس، وبحري قيقّة إلى مدنين، وصالح بن يوسف إلى برج البوف، والهادي شاكر والشّيخ محمد كركر (أحد دعاة الدّستور القديم) إلى مطماطة، وألحق الحبيب بوقطفة وبوكر داغة (أعضاء الدّستور القديم) إلى بن قردان. أنظر: الشايبي، "الحركة الوطنية 1934-1952"، تونس عبر التاريخ، ج 3، المرجع السابق، ص 5. وكذلك: الماطري، المصدر السابق، ص 68.

³ البشير الفورتي (1882-1954): الكاتب والصحفي والرّحالة، ولد بمدينة تونس، بعد تعليمه الابتدائي التحق بالزيتونة، وتحصّل منها على شهادة التّطويع، ثمّ أكمل دراسته بالخلدونية، أصدر جريدة التّقدم (1906-1911)، سافر إلى طرابلس الغرب 1911، ومنها توجه إلى اسطنبول ثمّ عاد إلى تونس، واهتم بالكتابة في الصّحف إلى أن توفي 1954، له عدة مؤلفات نذكر منها: العالم الإسلامي في ثلاثة أجزاء. أنظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلّفين التونسيين، ج 4، المرجع السابق، ص 34-36.

⁴ الذوايدي، تحولات...، المرجع السابق، ص 56.

⁵ الماطري، المصدر السابق، ص 70.

⁶ الذوايدي، تحولات...، المرجع السابق، ص 57.

اللجوء إلى روما في 13 أبريل 1935¹ اختار المناضلون بلقاسم القناوي رئيساً للديوان السياسي²، لكنه أعتقل كذلك وأُبعد إلى برج البوف³.

ومنه نقول إنّ الإجراءات التعسفية قد زادت الشعب التونسي إصراراً على مجابهة السياسة الاستعمارية فتكررت أعمال الاحتجاج والتحرك الجماهيري الانتفاضي في الفترة (1930-1935) ممّا أدى إلى سوء التفاهم وتصعيد المواجهة مع الاستعمار⁴.

واستمر المد الاحتجاجي إلى ما بعد 1935، ومسّ أوسع قطاعات الشعب، إذ انتقلت مبادرة العمل الوطني إلى تلاميذ المعاهد الثانوية وطلبة جامع الزيتونة، فاحتجّ الزيتونيون على السياسة التربوية غير الملائمة والجائرة، وعلى النظام التعليمي الذي لا يؤهلهم للاندماج في الحياة المهنية العصرية، وقاموا بعد إصدار الباي أمر 7 فيفري 1936 والذي نصّ على أنّه لا يمكن ترسيم أي موظف تونسي حتى يثبت معرفته للغة الفرنسية - ماعدا القضاة - والذي اعتبروه إغلاقاً لأبواب الوظيفة العمومية في وجوههم، وبتحريض من الحزب الدستوري القديم والجديد، وكرد فعل على سياسة القمع التي يسلكها المقيم العام بيروطون، وباعتبار أنّ الأمر الصادر هو تعبير عن العداوة ضدّ العروبة والإسلام، وتهميش للزيتونة وخريجها بعقد اجتماع عام في ساحة الملائسين يوم 22 فيفري وقرّروا تنظيم مسيرة في تونس فاعترضتهم الشرطة ووقع بينهم اشتباكات في باب عليوة سقط خلالها عديد الجرحى من الطرفين، وتمّ إيقاف 33 طالبا أحيل 32 منهم على المحاكمة⁵.

وفي اليوم الموالي أي 23 فيفري وقعت مسيرة شعبية كبيرة نظّمها الدستوريون وشارك فيها نحو 1000 متظاهر من بينهم طلبة الزيتونة والمهمّشين والعاطلين عن العمل، وكان المتظاهرون يحملون رايات ويهتفون "تونس للتونسيين"، "برلمان تونسي"، "يحي الحزب

¹ الماطري، المصدر السابق، ص 70-71.

² نفسه، ص 81.

³ الشابيبي، "الحركة الوطنية 1934-1952"، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 5.

⁴ الماطري، المصدر السابق، ص 69.

⁵ مختار العياشي، البيئة الزيتونية (1910-1945) مساهمة في تاريخ الجامعة الإسلامية التونسية، تعريب حمادي الساحلي، دار تركي للنشر، تونس، 1990، ص 163-164.

الدستوري"، وأرادوا الوصول إلى الإقامة العامة لكن قوّات الأمن استطاعت أن تشتت الجماهير المتظاهرين أمام قصر العدالة، فأصدر المقيم العام قرارا بنفي 15 من بين المتظاهرين الوطنيين من بينهم شيوعي واحد، كما وقعت مظاهرات أخرى في صفاقس والقيروان وقابس، وتمّ في الأيام الموالية إبعاد 11 وطنيا آخر إلى التراب العسكري في الجنوب، وفي 27 فبري 1936 أصدرت المحكمة على الطلبة الموقوفين بالسجن من 10 أيام إلى 3 أشهر.¹

وبعد 8 مارس عاد بعض الطلبة إلى الدراسة بينما واصلت الأغلبية الإضراب إلى أن قام المقيم العام الجديد أرمان قيون (31 مارس 1936) بترأس جلسة يوم 22 أفريل لإعادة النظر في مرسوم فيفري 1936، وتقرّر تأخير تطبيقه عدة سنوات، كما أذن بتسريح كل الطلبة المبعدين والمعتقلين.²

وهكذا دخل طلبة الزيتونة عدّة مرّات في حركات إضراب ومظاهرات في نفس الاتجاه، وكانت انتماءاتهم الفكرية موزّعة بين الدستوري القديم حامل راية العروبة والإسلام، والدستوري الجديد الأكثر شعبية وديناميكية.³

إذ أنّ الحزب الدستوري الجديد اتّجه إلى تأطير الطلبة الزيتونيين وحثّهم على الإضرابات، ونتج عن ذلك رقت حوالي 88 طالبا تونسيا و 20 طالبا جزائريا خلال سنتي 1936 و 1937 بتهمة النشاط في صفوف الحزب الدستوري الجديد وتكوين لجان طالبية وجمعيات غير معترف بها مثل (الشبيبة الزيتونية)، وتأكد ذلك على إثر مظاهرة 8 جانفي 1938.⁴

وبلغ عدد الإضرابات سنة 1936 حدود 220 إضرابا، كما شهد الثلث الأول من سنة 1937 موجة احتجاجية شملت عمال مناجم (الرديف، أم العرايس، المتلوي، المغيلة)، وأدّت

¹ عزيز، المرجع السابق، ص 244.

² نفسه، ص 245.

³ لعيرج، المرجع السابق، ص 92.

⁴ الشابيبي، "الحركة الوطنية 1934-1952"، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 110.

هذه الاحتجاجات إلى تدخّل الجيش وإطلاق النّار على المضربين، وخلف هذا التّدخل 17 قتيلا، و30 جريحا،¹ وتعزّزت الحركة الدّستورية بانضمام منظمات الشّباب إلى العمل الوطني، ومن هنا جاءت الأحداث الدّامية التي جرت بين مارس وجويلية بالماتلين والجريصة والمتلوي وأدّت إلى سقوط 24 قتيلا و41 جريحا.²

فكان العمّال والحرفيون وأصحاب الدّكاكين وكذلك الفلّاحين المادة الأساسيّة للدّستوري الجديد، إذ كانوا يستجيبون لنداءاته للنّضال مثلما كان في الإضراب العام ودون تظاهر يوم السبت 17 رمضان الموافق ل 20 نوفمبر 1937 احتجاجا على قمع فرنسا للوطنيين المغاربة والجزائريين.³ وكذلك في المظاهرة الاحتجاجية التي نظّمها بوقطفة ببنزرت في 8 جانفي 1938 على إثر إبعاد حسن النوري أمين عام النقابات التونسية إلى بلده الأصلي الجزائر، والتي أسفرت عن مقتل 6 أشخاص كلّهم من العملة وجرح عشرين آخرين.⁴

وبلغ التّصعيد مداه بانعقاد المجلس المّلي للحزب الدّستوري الجديد 13-14 مارس 1938، والذي طالب فيه جلّ النّواب اللّجوء إلى العصيان المدني بالامتناع عن دفع الضّرائب وأداء الخدمة العسكرية.⁵ فأصبح الحزب منذ ذلك الحين تحت تأثير العناصر الأكثر راديكالية مثل سليمان بن سليمان وصالح بن يوسف مدعومين بعناصر نشيطة كالهادي نويرة والمنجي سليم ويوسف الرويسي وعلي البلهوان ومحمود بورقيبة، وكان هؤلاء الرّعاء الدّستوريون الجدد يحضّون على الاستعداد للمواجهة والدّعوة إلى التّضحية.⁶

¹ بوجلال، المقال السابق، ص 215.

² الدقي، تونس من الإيالة...، المرجع السابق، ص 160.

³ بوجلال، المقال السابق، ص 215.

⁴ ابن عيسى، المرجع السابق، ص 24.

⁵ الدقي، تونس من الإيالة...، المرجع السابق، ص 160.

⁶ لعيرج، المرجع السابق، ص 102.

وعلى إثر اعتقال علي البلهوان في يوم 22 مارس 1938¹، نظم الحزب الدستوري الجديد اجتماعا بناديه في باب سويقة 23 مارس 1938 ليلا، وندد الوطنيون والتلاميذ بفصل علي البلهوان، وأعلن التلاميذ البيّاتة إضرابا وقرّر المدير العام للتعليم غلق المعهد الصادقي حتى إشعار آخر، ولجأ التلاميذ البيّاتة للإقامة بالمدارس الزيتونية، وأعلنت لجنة الدفاع عن حقوق التلاميذ التي تكوّنت في تلك المدة عن القيام بإضراب يشمل كل التلاميذ لكن قسما من تلاميذ الزيتونة الذين كانوا متأثرين بالدستوري القديم لم يشاركوا في الإضراب²، وردّت الإقامة العامة على هذا التصعيد بإصدار قرار منع رفع الأعلام والشعارات التونسية، وحلّ النجم الكشفي، وتسليط أحكام قاسية على نقابي بنزرت، وشنّ حملة إيقاف ضدّ العناصر النشيطة بتهمة التحريض وإثارة السّكان على العصيان وهم (سليمان بن سليمان، الهادي نويّرة، يوسف الرويسي)³.

وردّ الدستور الجديد على سياسة التضييق على الحريّات والإيقافات بتنظيم مظاهرة احتجاجية، حيث اجتمع حوالي 2500 فرد أمام قصر الباي بحمام الأنف، وأصدر الحبيب بورقيبة الإذن بشنّ إضراب مع تنظيم مظاهرات جماهيرية متكرّرة في جميع أنحاء البلاد ابتداء من 8 أفريل "حتى ترضخ الحكومة للتّفاهم" على حدّ قوله⁴، فانتظمت بالمناسبة مظاهرة ضخمة برهنت على قوة الحزب على تعبئة القوى الشعبيّة وقيادتها أمام الإقامة

¹ كان البلهوان موظفا (أستاذا بالمعهد الصادقي منذ 1935)، وكان الحزب لا يساند تحمل الموظفين لمسؤولية في صفه خوفا عليهم من الضرر، ألقى في يوم 20 نوفمبر 1936 بقصر الجمعيات بتونس محاضرة عنوانها "الشباب التونسي إزاء وطنه" ورغم أنّه وعد مدير الصادقية بعدم التحدث في السياسة فإنّ محور محاضرتة كان مهاجمة سياسة الضّغط والاستغلال الاستعماري المسلّط على البلاد التونسية، كما قام بمحاضرة أخرى في دار الحزب بنهج التريونال عنوانها "تصيب الشباب التونسي في حركة المقاومة" يوم 18 مارس 1938، حضرها كل من صالح بن يوسف والطاهر صفر وسليمان بن سليمان، ولا يقل عن 700 من تلاميذ المعاهد وطلبة الزيتونة، وجّه له مدير الصادقية إنذارا وهّدده بالطرد، وعندما تعرّض إلى دور الشباب قال: "على الطالب أن يهتم بالشؤون العامة لبلاده لأنّ الشباب لا يخاف وليس مثل الموظفين ينسون واجباتهم نحو وطنهم"، فأصدر المقيم العام 22 مارس 1938 أمرا بفصله عن التعليم بالصادقية. أنظر: عزيز، المرجع السابق، ص 297-298.

² عزيز، المرجع السابق، ص 297-298.

³ لعيرج، المرجع السابق، ص 102.

⁴ الماطري، المصدر السابق، ص 124-125.

العامة، قادها المنجي سليم جمعت أكثر من 7000 نفر طالبوا ببرلمان تونسي، وبحكومة وطنية، وخرج الوطنيون في مظاهرات مماثلة في ذات اليوم في الساحل والوطن القبلي وبنزرت¹، وفي 9 أفريل وقع تجمّع تلقائي أمام قصر العدالة بمناسبة محاكمة علي البلهوان ضمّ عددا كبيرا من طلبة الزيتونة والشباب المدرسي وأبناء أحياء باب سويقة والحلّافيين والملّاسين ورأس الطابية، ولكن القوّات عمدت إلى إطلاق النّار فتحوّلت التّظاهرة إلى اشتباك بين جموع المتظاهرين القادمين من الأحياء الشّعبية والقوات العسكرية أسفر عن 24 قتيلا وما يزيد عن 150 جريحا، واستتبع ذلك اتّخاذ إجراءات متشدّدة منها إعلان حالة الحصار وتعطيل الجرائد الوطنية وحلّ الحزب الدّستوري الجديد، وشمل القمع أبرز وجوه الحركة الوطنية حيث وقعت محاكمة الآلاف من الدّستوريين، كما وقع اعتقال أعضاء الدّيوان السّياسي وفي مقدمتهم بورقيبة وإحالتهم على المحكمة العسكرية بتهمة التّمرد على أمن الدّولة، وبعد التّحقيق وقع إيداعهم بسجن تبرسق ثمّ نقلهم دون محاكمة إلى حصن سان نيكولا (Saint-Nicolas) بمرسيليا في بداية الحرب العالمية الثّانية 26 ماي 1940.²

وتمّ إعلان الأحكام العرفية في البلاد وصارت المحاكم العسكرية في كل المدن تصدر أحكامها المستعجلة بالأشغال الشّاقة والسّجن الطّويل الأمد، وغصّت السّجون والمعتقلات بالوطنيين وانتشر الجيش الفرنسي في البلاد يعيث فيها فسادا، ويعذّب الأهالي ويضطهدهم ويعتدي عليهم في الشّوارع ودامت هذه الحال خمس سنوات ذاق فيها الشّعب التّونسي الأمرين بسبب البطش والطّغيان الفرنسي.³

كما تمّ إنهاء مهام أرمان قيون في 24 أكتوبر 1938، بعدما وجد نفسه مضطرا إلى التّخلي عن السّياسة التّحريرية التي شرع في تطبيقها في عهد حكومة الجبهة الشّعبية، إذ حاول إجراء بعض الإصلاحات الطّفيفة من ذلك بعث مخطط لإصلاح الفلاحة التّونسية وتحسين وضع الصّناعات التّقليدية وإنشاء مجلس اقتصادي واجتماعي وتنظيم إدارة الأوقاف

¹ الدقي، تونس من الإيالة. .، المرجع السابق، ص 162-163.

² الدقي، تونس من الإيالة. .، المرجع السابق، ص 162-163.

³ ثامر، المصدر السابق، ص 96.

واستصدار قانون أساسي للمدارس القرآنية، وكانت عبارة عن قطرة ماء قابلها الشعب باللامبالاة التامة.¹

وبعد بضعة أشهر انتظمت الحركة الوطنية من جديد تحت قيادة الحبيب ثامر²، وتشكلت شعب للحزب في كافة القرى والمدن في نظام سرّي محكم، تعمل في الخفاء لتنفيذ التعليمات التي تتلقاها من القيادة الجديدة، وكانت النشرات السرية التي يصدرها الحزب لإنارة الرأي العام تقوم مقام الصحف الوطنية المعطلة والاجتماعات العامة الممنوعة. وأول مظاهرة قام بها الحزب في ذلك العهد كانت في ميناء تونس وشوارعها بمناسبة قدوم المقيم العام الجديد إيرك لابون (Erick Iabonne) يوم 22 نوفمبر 1938، واشتهرت هذه المظاهرة بمشاركة عدد كبير من المتظاهرين.³

ولما رأت الحكومة الفرنسية تحرج الحالة في تونس وأنّ ما تستعمله من اضطهاد زائدها قوة وانتشارا، فقررت إرسال لجنة تحقيق تتكون من نواب في البرلمان الفرنسي برئاسة المسيو "لاغروسيلير" (Lagrosillière) فكان وجود هذه اللجنة مناسبة لأن تتقدّم لها الوفود من كافة أنحاء القطر التونسي بعرائض تطالب بإطلاق سراح الزعماء المعتقلين. وسمح المقيم العام الجديد بإصدار بعض الجرائد ذات الصبغة الوطنية نخص بالذكر منها جريدة (تونس الفتاة) وجريدة (تونس).⁴

¹ الماطري، المصدر السابق، ص 150.

² الحبيب ثامر (1909-1949): الطبيب والزعيم السياسي المناضل، ولد بتونس، بعد تعليمه الابتدائي، زاول تعليمه الثانوي بالصادقية إلى أن تحصل دبلومها، تحوّل لباريس وأحرز شهادة الدكتوراه من كلية الطب، وانتخبه طلبة المغرب العربي هناك رئيسا على جمعية "طلبة شمال إفريقيا"، وفي أواخر 1938 عاد لتونس وفتح عيادته في باب سويقة، وانخرط في الحزب الدستوري الجديد، نظم الكفاح السري بعد أحداث أبريل 1938، وكوّن الديوان السياسي السادس، وألقي عليه القبض خلال الحرب العالمية الثانية 1942، ثم أطلق سراحه في آخر السنة ليواصل نضاله السياسي داخل وخارج تونس. للمزيد أنظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص 211-212.

³ ثامر، المصدر السابق، ص 98.

⁴ نفسه، ص 98.

وكانت ح.ع.2. على الأبواب وظهرت مطامع إيطاليا في الاستيلاء على تونس، فقررت الحكومة الفرنسية في شهر جانفي 1939 إيفاد رئيسها دلاديه (D'aladier) إلى تونس لإظهار تمسك فرنسا بها، واغتتم الشعب الفرصة ليظهر للعالم أنه غير راض عن تصرفات فرنسا في البلاد وأنه يطالب باستقلاله، فقام بمظاهرات خاصة في بنزرت وباردو وتونس وصفاقس وفي كل مكان حلّ به رئيس الحكومة الفرنسية، وقد اعتقلت السلطة أثناء هذه المظاهرات المئات من الوطنيين وحكمت عليهم أحكاما قاسية.¹

لكنّ الشعب التونسي لم يفقد الأمل، وتمكّن الدّستوريون من تضييق الخناق على الحكومة، وذلك بعد رفع الحصار وإطلاق سراح نحو المائة وخمسين معتقلا من طرف المقيم العام الجديد إيريك لابون، وبالرّغم من القمع تواصلت الاجتماعات في بيوت المناضلين وتوالى العرائض والمناشير والمظاهرات، وتجلّت احتجاجات الشعب إلى ما كان يحدثه من أعمال الإرهاب والتّخريب التي كلّفت الإدارة خسائر فادحة (الحرائق في المصالح الفرنسية، ومصالح الجيش الفرنسي، وحقول المعمرين، وقطع وسائل المواصلات -السّكة الحديدية- وأعمدة التّليفون وأسلاكه).²

ولكنّ السّلطة تمكنت من جديد في نوفمبر 1939 من توجيه ضرباتها إلى قادة الحزب فألقت القبض على الباهي الأدغم والهادي السعيد والهادي خفشة والبشير زرق العيون، كما اعتقلت جانفي 1941 الحبيب ثامر والطيب سليم، وقد أُلقي عليهما القبض حينما كانا يحاولان اجتياز الحدود التونسية الطرابلسية، وقد حكم عليهما في فيفري 1942 بعشرين شهرا من الأشغال الشاقة.³

2-2-3- تزايد نشاط الحركة الطّلابية في المهجر:

لقد تعاطف الطّلبة التونسيين بفرنسا والنّاشط جلّهم في هياكل الحزب الدّستوري الجديد والبالغ عددهم حوالي 322 طالبا مع الرّعاء المبعدين إلى الجنوب التونسي إثر السّياسة

¹ ثامر، المصدر السابق، ص 98.

² القصاب، المرجع السابق، ص 569.

³ نفسه، ص 569.

القمعية البيروطونية، فازداد نشاط (لجنة الدفاع عن الحريات بتونس) بفرنسا، ومن أهم أعمالها تنظيمها تجمعا ضخما حضره 2500 شخص بقاعة (الموتيايتي) يوم 18 سبتمبر 1934 عرف خلاله سليمان بن سليمان بالمسألة التونسية، وندد بالقمع البيروطوني، وحضر هذا التجمع ممثلون عن عدة منظمات وهيئات سياسية من بينها رابطة حقوق الانسان والحزب الراديكالي والحزب الجمهوري، وأسفر ذلك عن صياغة لائحة ضمت إضاء 32 جمعية وحزبا سياسيا طالب ممثلوها بعزل المقيم العام بيروطون، وإطلاق سراح المبعدين وإقرار حرية التعبير والاجتماع وإبطال القوانين الجائرة، كما تمكّن سليمان بن سليمان من تنظيم مسيرة أمام وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية، وتسليم لائحة احتجاج إلى وزير الخارجية الفرنسي، وأدى هذا النشاط الحثيث إلى إيقاف 6 طلبة تونسيين يوم 14 أكتوبر كان من أبرزهم الهادي نويرة الذي وجّه رسالة احتجاج على إبعاد الوطنيين إلى البرلمان الفرنسي. كما ألغت الإدارة الفرنسية القروض التي يتمتع بها بعض الطلبة من أعضاء اللجنة المذكورة.¹

لكن ذلك لم يمنع أعضاء اللجنة المذكورة على امتداد السنة الجامعية (1934-1935) من تكثيف دعايتهم عن طريق الصحف مثل (L'Humanité) و (La Flèche de Paris) لإعلام الرأي العام الفرنسي بحقيقة الأوضاع السياسية بتونس.² مثل مقال للحبيب ثامر بعنوان "عاصفة على تونس" تعرّض فيه لاعتقالات 3 سبتمبر 1934 وسياسة القمع البيروطوني، وجاء فيه: "إنّ القوى الاستعمارية مهما استخدمت من عنف ووحشية فإنّها لن تنجح في إنهاء قوى الشعب ولن تحول دون تحرّره وانعتاقه التّام".³ وغيرها من المقالات المننّدة بالسياسة القمعية الفرنسية بتونس.

كما شارك رئيس اللجنة ابن سليمان في جلّ التظاهرات والاجتماعات السياسية بالعاصمة باريس من أجل التعريف بالقضية التونسية وآخر تطوّراتها من سبتمبر 1934 ومن هذه الاجتماعات نذكر، اجتماع "اللجنة المضادة للحرب والفاشية" يوم 2 ماي 1935،

¹ الشابيبي، "الحركة الوطنية 1934-1952"، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 106.

² نفسه، ص 106.

³ ابن يوسف، النّخبة العصرية التونسية، المرجع السابق، ص 536.

والحفل الذي نظّمته (الرابطة المناهضة للإمبريالية) يوم 15 جوان 1935 على شرف الزعيم مصالي الحاج، وندّد فيه رئيس اللجنة بإبعاد القادة إلى التراب العسكري داعيا إلى وحدة مسلمي شمال إفريقيا.¹

ورغم توقّف نشاط اللجنة بقدوم رئيسها سليمان بن سليمان إلى تونس وذلك بعد 22 شهرا من النشاط والعمل السياسي المكثّف والمتواصل إلّا أنّ النشاط الطلابي بفرنسا لم يتوقف إذ بادر الطالب الحبيب ثامر في 26 ماي 1936 وباعتباره عضواً في ج ط ش إ م بفرنسا إلى تسليم ليون بلوم² (Léon Blum) عريضة تضمّنت جملة من مطالب تتعلق ببلدان المغرب العربي الثلاث قام الطلبة بصياغتها بمقر جمعيتهم.³

خلاصة

اتّسمت ثلاثينات القرن العشرين بأحداث جسام وتحولات عميقة أحدثت بالفعل منعرجا حاسما في مسار الحركة الوطنية التونسية عموما ومسيرة الحزب الدستوري خصوصا. إذ كان لدخول الشبان الجدد غمار الكفاح الوطني واختلافهم مع الدستوريين القدامى، وتعارضهم معهم في أغلب قضايا العمل السياسي والنضال الوطني بالرغم من انطلاقهم من أرضية وطنية مشتركة إلى إحداث القطيعة داخل صفوف الحزب الدستوري.

وكان الاختلاف في البداية حول قضية طرق النضال وأساليبه، فالدستوريون الجدد كانوا يرون الانغماس في الطبقات الشعبية ودفع الجماهير للمواجهة محورا أساسيا لتصعيد مقاومة الاستعمار، وقد أدى تجذيرهم لأساليب النضال خلال الثلاثينات إلى التجديد في الحركة الوطنية التونسية، واختلافهم مع فكر الحزب الدستوري القديم ليس فقط على مستوى

¹ نفسه، ص 537.

² ليون بلوم (1872-1950): كاتب ورجل سياسة فرنسي، ترأس الفرع الفرنسي للمنظمة العمالية الدولية (SFIO)، ترأس حكومة الجبهة الشعبية بفرنسا جوان 1936، وغادر المنصب في 21 جوان 1937 وخلفت حكومته حكومة الجبهة الشعبية الثانية بزعامة كامي شوطان، وبعدها تولى بلوم العديد من المناصب السياسية خلال السنوات من 1938 حتى 1946. أنظر عقيب، الحزب الحر الدستوري، المرجع السابق، ص 166.

³ ابن يوسف، النخبة العصرية التونسية، المرجع السابق، ص 539-540.

طرق العمل الوطني بل حتى على مستوى الشعارات والأهداف، فالقداى وخاصة بعد عودة الثعالبى إلى تونس كانوا يعولون على إعطاء الحركة الوطنية بعدا عربيا إسلاميا وتحقيق الاستقلال فى نطاق الوحدة العربية الإسلامية، أمّا جماعة بورقية والجيل الجديد كانوا أكثر ميلا إلى تحرير البلاد دون التخلي عن فرنسا.

الخاتمة

الخاتمة:

من خلال هذه الدراسة التي توقّفت عند المؤتمر الأفارستي وأثره في تطور الحركة الوطنية التونسية (1930-1940)، اتّضحت لدي جملة من الاستنتاجات لعل أهمها:

– جاء احتلال فرنسا لتونس سنة 1881 مكمّلا لسلسلة سيطرتها على المناطق الواقعة شمال إفريقيا لكنّها طبقت على تونس نظام الحماية على خلاف بقية مستعمراتها، ويعدّ ذلك النظام أول تجربة للاستعمار الفرنسي بالمنطقة.

– لم يرض الشعب التونسي أن يحتل بلده تحت أي شكل من أشكال الاستعمار سواء باسم الحماية أو غيرها، ولم يستكن إذ أعلن المقاومة المسلّحة منذ الوهلة الأولى، وتزعّم المقاومة شيوخ القبائل أمثال قبيلة خمير، وهذا ما دفع السلطات الفرنسية إلى تعزيز تواجدها بتونس، نتيجة لذلك استطاعت القوات الفرنسية أن تخمد كل الانتفاضات الشعبيّة.

– انبثق عن الوضع الاستعماري حركة فكرية وإقبال على التّعلم وانتشار هام للصّحف وقيام بعض الجمعيات الثقافيّة والتي تضافرت جميعا وأدّت إلى بروز العديد من المثقفين سواء المتخرّجين من جامع الزيتونة أو من المتعلمين في المدارس الفرنسيّة والمتشبعين بالثقافة الغربيّة أمثال: علي باش حامية،.. إلخ، والذين حملوا لواء المقاومة السياسيّة، وقاموا بتنشيط الحركة الوطنية بكل أطيافها بداية من حركة الشّبان التونسيين (1907-1912)، ثم الحزب الحر الدّستوري سنة 1920.

– لم يكن مطلب الاستقلال مدرجا ضمن برامج الحركة الوطنية قبل 1930 إذ اكتفت حركة الشّباب التونسي (1907-1912) بالدّعوة إلى مشاركة التونسيين في حكم بلادهم، أمّا الحزب الحر الدّستوري فكان هدفه الأسمى تحرري، إذ قدّم فكرة الدّستور أي تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم على الاستقلال وإخراج الفرنسيين من البلاد، وبالرّغم من ذلك لم تمنع الحركة الوطنية من المضايقات الاستعماريّة، إذ مرّت منذ ظهورها على ساحة المقاومة بمنعطفات كبيرة جدا كادت أن تضعف دورها الوطني في سبيل تحقيق المطالب المشروع للشّعب التونسي، تمثّلت تلك المنعطفات خاصّة في السياسة الاستعماريّة لسلطة الحماية الفرنسيّة في اعتقال ونفي الرّعماء الوطنيين كأعضاء حزب

الشباب التونسي 1912، وعبد العزيز الثعالبي زعيم الحزب الدستوري والذي قرّر الفرار في سنة 1923 إلى المشرق والذي لم يعد منه إلى تونس حتى عام 1937. وكذلك في التضييق على الحريات ومنع التنظيمات والتجمعات بسن القوانين الزجرية واللامتناهية في الجور. ولكن مع ذلك لم تتوقف الحركة الوطنية التونسية في مجابهتها للاستعمار وسياسته التعسفية.

— سلكت السلطة الفرنسية منذ فرض حمايتها على تونس سبلا كثيرة لدمج الإيالة في الدولة الفرنسية للأبد، جعلت في مقدّمها فرنسة البلاد التونسية من أجل تفوق العنصر الفرنسي، وكذلك لإيجاد طبقة مثقفة ثقافة فرنسية تعمل لصالحها، وفي عشرينات القرن الماضي تمادت أكثر في مشروعها الإدماجي بسن قانون التجنيس 1923 والذي لم يكن الغرض منه كسب الجنسية فقط بقدر ما كان يهدف إلى تغيير البنية الاجتماعية للمجتمع التونسي في إطار مشروع سياسي عام. ناهيك عن سياستها التصيرية التي أخذت الطابع العلني والاستفزازي لمشاعر الجماهير العربية الإسلامية عند الاحتفال بمئوية لافيغري 1925 وفي عقدها للمؤتمر الأفخارستي بقرطاج 1930.

— لقد رسّخ المؤتمر الأفخارستي في أذهان التونسيين الارتباط الوثيق بين الحماية الفرنسية والتّصير، فبعد أن أحيا المقيم العام لوسيان سان الذكرى المئوية لميلاد الكاردينال لافيغري، والتي تمّ خلالها تكريم هذا المبشر الكبير وصانع السلام للعلاقات بين الكاثوليكية والجمهورية بوضع تمثال له في قلب العاصمة التونسية، احتفل المقيم مونسورون رفقة كبار رجال السلطة الفرنسية في المحمية إلى جانب الكنيسة بالمؤتمر الأفخارستي والذي يمثل أكبر تظاهرة عالمية مسيحية من أجل إحياء كنيسة قرطاج وإعادة بعثها من جديد.

— لقد كشف هذا المؤتمر حقيقة الاستعمار الفرنسي وأهدافه الحضارية، فكان له وقع أليم على الشعب التونسي فاستكره بشده، كما شجبه الحزب الدستوري والقوميون التونسيون، ورأوا فيه مواصلة لدعم فرنسا للكنيسة الكاثوليكية في استهزائها بالدين الإسلامي، وهذا يتناقض مع مبدأ حيادها الديني وكذلك بنود معاهدة الحماية.

— إذا كانت العلمانية مبدأ جمهوريا راسخا في فرنسا، فلا يبدو أنّه من المفيد تصديره إلى المستعمرات، بل على العكس، حيث تعاونت السلطات الاستعمارية والكنيسة في تونس

عن طيب خاطر من أجل تطوير فرنسا الكبرى، وتجلّى هذا في اهتمامهم المبكر وقبل التّواجد السّياسي الفرنسي بتونس بالعصور القديمة، وذلك من أجل إحياء الكنيسة الإفريقية القديمة وإضفاء الشّرعية على التّواجد الفرنسي المسيحي بها.

– المؤتمر الذي تعاون في عقده بشكل وثيق السّلطات الاستعمارية المدنية ورجال الدّين كان بمثابة إعادة بناء تاريخي لتونس القديمة، وذلك بالاشتراك بين الاهتمام العلمي الحقيقي والرّغبة في خدمة شرعية ومصالح العمل الاستعماري، إذ تمّ استغلال علم الآثار في تعزيز التّواجد الفرنسي في تونس، أي أنّ فرنسا وريثة روما جاءت لمواصلة العمل الحضاري الرّوماني في تونس والمنطقة المغاربية بصفة عامة.

– إنّ المؤتمر الأفخارستي بقرطاج كان مدعوما بقوة من طرف الأسقف لوماتر، كما أنّه لقي التأييد والدّعم من حكومة باريس، لأنّه يُنظر إليه على أنّه فرصة لتعزيز الوجود الفرنسي في تونس أمام مطالب إيطاليا التي لم تُخف أهدافها اتّجاهها. وكذلك ليسجل في أعين العالم نضج ثمار الجهد الفرنسي منذ نصف قرن من العمل، وإبراز الاتّحاد الحميمي الذي أصبح يجمعها مع شعب يختلف عليها في التّاريخ والثّقافة واللّغة والدّين وبالتالي نجاح رسالة فرنسا الحضارية هذا من ناحية دولية، أمّا من ناحية داخلية فكان المؤتمر يرمي إلى إيجاد مفهوم ثقافي قوامه الالتقاء بين الأهالي والمستعمر وتقبّل كلّ منهما الآخر، ومن هذا المنطلق فهو يهدف إلى خلق أجيال ترى بأنّ العلاقة بين الأوطان والمحتلّين ليست احتلالاً ولكنّها تمدين وتعاون وصدقة.

– لقد تسبّب المؤتمر في تداعيات لم تتوقعها لا السّلطة الفرنسية ولا المنطّمون ولا المشاركون، إذ وبالرّغم من أنّ المؤتمر قد تقرّر عقده منذ أمد بعيد (1927) إلّا أنّه لم تظهر من الأفكار أو من المقدّمات ما يوحي أو يدلّ على نتائجه، إذ كانت ردّة فعل التّونسيين قوية جداً، ومن الأسباب التي جعلت الفكر العام التّونسي ينقلب فجأة ضد المؤتمر هو ما صاحب المؤتمر من حملة صحفية صليبية مُغرصة ضدّ الإسلام والمسلمين ناهيك عن تصريحات كبار رجال الدّين المسيحيين بأنّ المؤتمر يهدف إلى تنصير تونس وأنّ فكرة سان لويس هي التي دفعته لعقده، بالإضافة إلى لباس الكشّافة أثواب الحملة الصّليبية، وبعد ذلك جعل كبار المسلمين التّونسيين في هيئة الشّرف،

ومعاضدة الحكومة المؤتمر ماديا من أموال الميزانية التونسية، وكلّ ذلك جعل التونسيين يضيّقون ضرعا وينقلبون ضدّ المؤتمر.

– لقد أعطى المؤتمر الأفخارستي بقرطاج فرصة للصحافة لخوض وطرح مواضيع على غاية من الأهمية، فبالنسبة للصحافة الاستعمارية أو الدينية والمالية للكنيسة شنت حملة صحفية واسعة النطاق كاشفة عن حقدّها الصليبي اتجاه الإسلام والمسلمين، معتبرة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب العربي ككل اعتداء حضاريا تعرّضت له المسيحية، فالمؤتمر إذن يمثل حملة صليبية جديدة وبادرة لإعادة نفوذ الكنيسة وبالتالي عودة المسيحية لسابق عهدها بتونس الأمر الذي أدّى إلى استياء التونسيين من المؤتمر، فقاموا بدورهم بحملة مضادة مملوءة بالعداء والكراهية تجاه المستعمر وسياسته العنصرية، منددة بالمؤتمر ومنظميه من رجال الكنيسة وسلطة الحماية، مشهورة بالخيانة على المشرفين عليه من أعيان تونس كالباي ورجال الدين، ناقمة على سياسة الاستغلال الاستعمارية لأموال الخزينة في وقت كان الشعب التونسي في أمس الحاجة إليها، معلنة عن علمانية فرنسا المزيّفة، داعية الشعب التونسي إلى الالتفاف حول الإسلام باعتباره السلاح الكفيل للتصدي لسياسة فرنسا الإدماجية.

– لقد أخذ تعاطي الصحف لموضوع المؤتمر شكل الصراع، والذي طفح نتيجة استماتة الكنيسة في المضي قدما في سياسة التّصير من جهة ومن جهة أخرى رفض التونسيين المطلق التّعدي على مقومات الهوية الوطنية، فكانت الجرائد التونسية والصحف الفرنسية الاستعمارية والمالية للكنيسة تقعان طرفي نقيض من المؤتمر وذلك لاختلاف طبيعة المنطلق والغاية، فبني الموضوع على رؤى متناقضة وتجاذبتة غايات متنافرة.

– يمكن أن نقول أنّ المؤتمر لم يكن ظاهرة دينية عرضية بل أعتبر تحديا للهوية الحضارية التونسية، الأمر الذي أحدث صدمة ثقافية ودينية حقيقية، وقعت هذه الصدمة في وقت كان فيه تجديد المعارضة في تونس، فكان المؤتمر فرصة مواتية للجيل الوطني الشاب الذي تشكّل في باريس للانضمام للحزب الدّستوري والتّديد بشدة بالتّصير الاستعماري الفرنسي وتعبئة الرّأي العام الإسلامي ضدّ الحماية.

– بعد أن مرّت الحركة الوطنية بمرحلة ركود حتى ثلاثينات القرن الماضي جاء المؤتمر الأفخارستي لينعش العمل السّياسي من جديد، وبرز خلاله مجموعة من الشباب

المتحمّس والمتعلّم في الجامعات الفرنسية، وعلى رأسهم الحبيب بورقيبة واستطاعوا إثارة الشارع بإقامة المظاهرات والاضطرابات ضدّه، فضلا عن مقالاتهم الصحفية المنذّرة بالعمل الاستعماري، فأصبحت لهم سمعة حسنة لدى الأهالي وخصوصا مع ما أبدوه من مواقف وطنية من قضايا الأدماج والتجنّس، كما أسّسوا جريدة للتعبير عن أفكارهم وآرائهم هي جريدة (الصوت التّونسي)، وبعدها تحوّلت إلى (العمل التّونسي)، وسُمّوا بعد ذلك بكتلة العمل الوطني، ونتيجة لمواقفهم الوطنية تمّ انتخابهم في الهيئة التّنفيذية للحزب الدّستوري في مؤتمر نهج الجبل في سنة 1933 مع أعضائها القدامى في الحزب، وبسبب الخلافات الفكرية والاجتماعية بين أعضاء الحركة الوطنية بدأت الخلافات تدب بين جيل الشّباب والقدامى، فرأى الجيل الجديد بأنّ أساليب القدامى أصبحت لا تتماشى وتتناسب والمرحلة الجديدة التي تمرّ بها تونس، وبدأت الخلافات على الرّغم من أنّه لم تمض مدّة كبيرة على التّوافق بين الجيلين، إذ سرعان ما دبّ الانشقاق بينهما وصولا إلى تقسيم الحزب في 2 مارس 1934 على قسمين، الحزب الدّستوري القديم (اللجنة التّنفيذية)، والحزب الدّستوري الجديد (الدّيون السياسي) ضمّ بورقيبة وجماعته في كتلة العمل الوطني.

— لم تكن هناك فروق جوهرية في مطالب الجيلين القديم والجديد، بل كانت توجد منهجية وأسلوب متميز في تناول القضية الوطنية.

— كان للسياسة الفرنسية دور في توسيع شقّة الخلاف ما بين المناضلين القدامى وجماعة العمل الوطني، إذ أصبح كل فريق يتّهم الآخر في تبعيته للسلطة الفرنسية وتهاونه في القضايا الوطنية.

— لمّا كانت ايدولوجيا الاستعمار هي ضرب عمق الهوية التّونسية، فلم يكن بمقدور الحركة الوطنية التّونسية إلّا أن تعتمد نفس السّلاح الاستعماري أي استخدام المجال الرّمزي نفسه من دين ولغة وتراث وتاريخ في مجابهة ومناهضة المشروع الاستعماري. فكان محور المقاومة والنّضال الوطني ضد الاستعمار وسياسته هي إثارة العواطف وتوتير الوجدان واستنهاض الوعي تجاه القيم الرّمزية للشّخصية التّونسية، والدّفاع عن الهوية شكّل الأساس الايدولوجي والنّضالي الذي على أرضيته تشكّلت النّواة للحركة

الوطنية التونسية مدافعة أولاً عن سيادتها الوطنية ومطالبة بالإصلاح في إطار الدولة الاستعمارية.

– إذا كان المؤتمر الأفخارستي قد وُحِد النّخبَة الوطنية ودفعها إلى تبني الايديولوجية المستندة للدين، وتوظيف رمزية الإسلام في تعبئة الجماهير ومحاولة ربطهم بمرجعيتهم الدينية واللغوية والثقافية من أجل استنهاض الهمم للدّفاع عن عزّة الإسلام ونصرة قضيته والحفاظ على الذات التونسية وصيانة الهوية والدّفاع عنها كطريق لمواجهة ولمقاومة الاستعمار. فإنّه وبعد ما وقع الانشقاق في الكتلة الوطنية بسبب اختلاف التّكوين الثقافي والتّوجه السّياسي والانتماء الطبقي بين زعماء الحركة الوطنية وحلول القيادة الجديدة المتعلّمة في المدارس الفرنسية والمنفتحة على الثّقافة الغربيّة مكان النّخبَة المتخرّجة من جامع الزيتونة والمرتبطة بالثقافة العربية الإسلامية أصبح هناك تيّارين فكريين، تيّار يعوّل على إعطاء الحركة الوطنية بعداً عربياً إسلامياً وتحقيق الاستقلال في نطاق الوحدة العربية الإسلامية، وتيّار يمثل الكتلة الليبرالية وعلى رأسها الحبيب بورقيبة والتي حاولت صياغة خطابها السّياسي والايديولوجي مستندة على ازدواجية المرجعية فمن جهة فهي منبهرة بمظاهر التّمدن في التّجربة الحضارية الأوربية بصفة عامة وفرنسا على وجه الخصوص ومن جهة أخرى فهي منشدة إلى ماضيها الحضاري العربي الإسلامي مدافعة عن قيمه ومقوماته. وكان هذا التّيار أكثر ميلاً إلى تحرير البلاد دون التّخلي عن فرنسا، فكانت مطالبه إصلاحية في مجملها، إذ ظلّ مطلب الاستقلال غائبا عن برنامج الحزب الحر الدّستوري الجديد طيلة الثلاثينات.

– لقد فشلت كلّ محاولات تعميق العمل المشترك وتنسيق الجهود بين الشّقين المتصارعين للحزب الدّستوري في مقاومة الاستعمار الذي كان يستهدف القضاء على مقومات الوحدة (فرق تسد).

– يمكن القول بأنّ المؤتمر الأفخارستي قد أتاح الفرصة للقومية الناشئة في تونس لتتبلور، ففي غضون سنوات قليلة أدّى إنشاء الحزب الحر الدّستوري الجديد، واعتقالات القادة الوطنيين 1934 ومواجهة عام 1938 والقمع القاسي الذي أعقب ذلك إلى وضع المطالب الوطنية في المقدّمة، أمّا بالنّسبة للكنيسة الكاثوليكية فإنّ صعود القومية هو دعوة للتّأني بنفسها عن الجهاز الاستعماري من أجل الحفاظ على المستقبل، وبالنّسبة

للسلطات الاستعمارية انتهى وقت التهور والتسوية، فأعطت الأولوية لاحتواء القومية من أجل إنقاذ المحمية، وبالتالي يمكن اعتبار سنة 1930 نقطة التحول بالنسبة للعلاقة بين الكنيسة والجمهورية، إذ قوّض المؤتمر الأفارستي التسوية الأولية (الشراكة) بينهما وأدى إلى انفصال مصالحهما.

الملاحق

الملحق رقم 1: المؤتمرات الأفارستية التي سبقت مؤتمر قرطاج 1.

II. Liste et thèmes des CEI						
	LIEU	DATE	APE	P	LÉGAT du	THÈME
.	LILLE (France)	28-30/06/1881	éon XIII	L		Les premiers 24 CEI étaient surtout des Congrès des "Oeuvres eucharistiques".
.	AVIGNON (F)	13-17/09/1882		«		
.	LIÈGE (Belgique)	05-10/06/1883		«		
.	FRIBOURG (Suisse)	09-13/09/1885		«		
.	TOULOUSE (F)	20-25/06/1885		«		
.	PARIS (F)	02-06/07/1888		«		
.	ANVERS (B)	16-21/08/1890		«		
.	JERUSALEM	14-21/05/1893		«	Cardinal B. Langenieux (Arch. de Reims)	
.	REIMS (F)	25-29/07/1894		«		
0.	PARAY-LE-MONIAL (F)	20-24/09/1897		«		
1.	BRUXELLES (B)	13-17/07/1898		«	Cardinal V.Vannutelli (Préf. S.C.Concile)	
2.	LOURDES (F)	07-11/08/1899		«	Cardinal B. Langenieux (Arch. de Reims)	
3.	ANGERS (F)	04-09/09/1901		«		
4.	NAMUR (B)	03-07/09/1902		«	Cardinal P.L. Goossens (Arch. de Malines)	
5.	ANGOULÊME (F)	20-24/06/1904	ie X	P		
6.	ROME (Italie)	01-04/06/1905		«	Le Pape même le présida	

¹ Pèlerins en marche ,Février 2007 ,p7.

7.	TOURNAI (B)	15- 19/08/1906	«	Cardinal V.Vannutelli S.C.Concile) (Pref.	
8.	METZ (F)	06- 11/08/1907	«		
9.	LONDON (Angleterre)	08- 13/09/1908	«		
0.	COLOGNE (Allemagne)	04- 08/08/1909	«		
1.	MONTREAL (Canada)	07- 11/09/1910	«	Cardinal Bourne (Arch. de Westminster)	
2.	MADRID (Espagne)	23/6- 01/7 1911	«	Cardinal G.Aguirrey (Arch. de Toledo)	
3.	VIENNE (Autriche)	12- 15/09/1912	«	Cardinal G.Van Rossum	
4.	MALTE	23- 27/04/1913	«	Cardinal D. Ferrata (Préf. S.C. Sacrem.)	
5.	LOURDES (F)	22- 26/07/1914	«	Cardinal G. Pignatelli de Belmonte	L'Eucha ristie & la Royauté Sociale de Jésus Christ
6.	ROME (I)	24- 29/05/1922	ie XI P	Le Pape même le présida	Le Règne Pacifique de Notre Seigneur dans l'Eucharistie
7.	AMSTERDAM (Hollande)	22- 27/06/1924	«	Cardinal G.Van Rossum (Préf. Propag. De la Foi)	L'Eucha ristie et la Hollande
8.	CHICAGO (ÉU)	20- 24/06/1926	«	Cardinal G. Bonzano	La Paix du Christ dans le Règne du Christ
9.	SYDNEY (Australie)	06- 09/09/1928	«	Cardinal B. Carretti	La Madone et l'Eucharistie

الملحق رقم 2: لوماتر: رئيس أساقفة قرطاج ومنظم المؤتمر¹



¹ « Ce que fut le congrès », ANO, XXX, 276 / 113.

الملحق رقم 3: قوس النصر¹



La reproduction de l'Arc de Triomphe de Sbēitla où passa la procession finale

¹ « Ce que fut le congrès », ANO ,XXX,276 /113.

الملحق رقم 4: مخيم المؤتمرين بقرطاج.¹



Un groupe de 500 tentes où sont logés des ecclésiastiques du pèlerinage français

¹ « Ce que fut le congrès », ANO ,XXX,276 /113.

الملحق رقم 5: زيارة المندوب البابوي رفقة المقيم العام للباي أحمد¹



S. A. le Bey accorde une audience au Légat en présence des princes de la famille Husseinite

¹ « Ce que fut le congrès », ANO ,XXX,276 /113 .

الملحق رقم 6: حفل الافتتاح أمام كاتدرائية تونس.1



¹ Alexandropoulos , "Entre archéologie universalité et nationalismes. . , Op. cit ,p58 .

الملحق رقم 7: حفل الأطفال بملعب بلفيدير¹



La Messe de Communion des enfants en costumes de croisés - Une Vue de détail



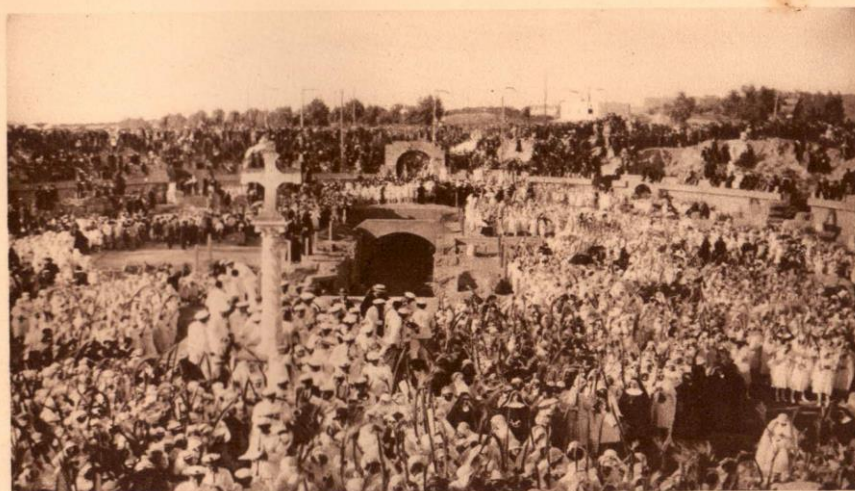
La Messe de Communion au Stade du Belvédère de 5,000 enfants disposés en croix

¹ « Ce que fut le congrès », ANO ,XXX,276 /113 .

الملحق رقم 8: تقديم قرابين النّخيل بالمدرج الرّوماني بقرطاج¹



L'Offrande des Palmes - Le Défilé des enfants continue à envahir l'Amphithéâtre



L'Offrande des Palmes - Vue générale de l'Amphithéâtre groupant plus de 40.000 personnes

¹ « Ce que fut le congrès », ANO ,XXX,276 /113 .

الملحق رقم 9: وسام مؤتمر قرطاج¹



¹ « Ce que fut le congrès », ANO ,XXX,276 /113 .

الملحق رقم 10: الرسالة التي وجهها الحزب الحر الدستوري للباي أحمد باشا

"إلى الجنب الأرفع والملاذ الأمتع نبراس القطر ومفخرة أمراء العصر تاج العائلة الحسينية المحترمة وواسطة عقدها المحفوظ بحفظ السور والآي سيدنا ومولانا أحمد باشا باي الثاني حاطه الله برعايته وأعز به ملته. بعد تقديم شعائر الاحترام لسامي المقام فالمنهي إلى مولانا أبقاه الله ما يأتي:

لقد كنّا نظن يا مولانا أنّ المؤتمر الأفخارستي الذي تقرّرت إقامته بقرطاجنة لا يخرج عن كونه اجتماعا عاديا لأهل دين من الأديان تفرض عليهم طقوسه هذا الاجتماع التّعدي الذي يرتادون له في كل نوبة ما يقع عليه اختيارهم من البقاع. فكنا من أجل ذلك لا نرى حرجا في وجوده ولا في تسابق البعض منا لإكرام الوافدين من رجاله بصفتهم ضيوفا في بلادنا، ولا في انخراط عظمائنا في اللجنة الشرفية له وفي مقدّمتهم سموكم أطل الله بقاءكم، نظرا لجريان هذا الأمر في الممالك الأخرى وترؤس أمرائها وكبراء رجالها للمؤتمرات الأممية التي تقع في ممالكها وتحت ظل راياتها في مختلف المواضيع وشتى الشؤون.

ونظرا لكون هذا الأمر ممّا يظهر تونس وعلى رأسها عرشها المقدّس وسمو صاحبه المحترم في مقدمة الأمم التي لها من كرم الوفاة وتسامح العقيدة ما يدفعها إلى التقاني في إكرام الضيف واحترامه، وكيف لا ولها من تاريخها المتّصل بتاريخ بيتكم الرّفع ما يثبت هذا ويؤيده.

أمّا وقد أصبح الحال على غير ما كنّا نعتقد، وأصبح المؤتمر عبارة عن حملة صليبية كما يقول أسقف قرطاجنة وإن كان ملؤها المحبة والسّلام وأصبح الدّافع لعقده هو الفكرة التي كانت تدور بين جنبي سان لوي وأضحى من أعماله نشر المسيحية في إفريقيا الإسلامية إلى غير ذلك من التّصريحات والأوضاع التي أخرجت هذا المؤتمر عمّا كنّا نعتقد فيه.

إنّا لنأسف لهذا ونتألّم للصّبغة الحقيقية التي يصطبغ بها هذا الاجتماع، وهذا ما يدفعنا ونحن أبناءكم البررة المخلصون لكم والمحترمون لتلك الآداب الإسلامية التي عرفتم بالتمسك بها والغيرة عليها أن نضرّع إليكم طالبين منكم مشاركة أمّتكم في إعلان عدم رضاها عن هذه الصّبغة غير اللائقة التي ظهر فيها هذا المؤتمر، وذلك بتخلّي سموكم عن رئاسته الشّرفية

بناء على كون الحملة الصليبية وتنفيذ فكرة سان لوي ليس الإعلان بهما من الحكمة ولا من آداب الضيافة في شيء خصوصا في بلاد مضى على الإسلام فيها أكثر من ثلاثة عشر قرنا ولنا في كرم أخلاق مولانا وتشبّعه بمبادئه الإسلامية وغيرته على عقيدته وشعور أمّته وقيامه بالدّفاع لفائدة بقاء الإسلام دينا راسخا في هذه البلاد - خير كفيل لإجابة هذه الدّعوة والله يحفظكم ويرعاكم بعين عنايته إنّه سميع مجيب.¹

الملحق رقم 11: النّداء الذي وجّهه الحزب الحر الدّستوري للشّخصيات التّونسية العضوة في اللّجنة الشّرفية

¹ مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، ص 16-17.

أمّا بعد فبناء على الصّبغة التي اصطبغ بها المؤتمر الأفخارستي الذي كنتم في ضمن أعضاء هيئته الشّرفية بتلك الصّبغة الماثلة في تصريحات كبار رجاله، وهي أنّه عبارة عن حملة صليبية ملؤها المحبّة والسّلام وأنّ الدّافع لانعقاده هو الفكرة التي كان يحملها سان لوي.

وبما أنّ الإعلان بالحملة الصليبية وتحقيق فكرة سان لوي الآن زيادة عن كونهما ليستا من الحكمة وآداب الضّيافة في شيء فإنّ العصر الذي نحن فيه لا يسمح بإثارة هذه الأحقاد الكامنة ولا يمكن أن يصبح ميدانا لحمالات الصّليب من جديد، فقد رأينا أن نلفت نظر جنابكم إلى أنّ المؤتمر صار ذا صبغة لا تسمح معها منزلتكم ولا عراقتكم في الإسلام بالاستمرار على المشاركة فيه ولا بصفة شخصيّة فضلا عن كونكم دخلتم في هيئته الشّرفية بعنوان.... بالدّولة التّونسية الإسلامية. وإنّنا واثقون في تلبيتكم هذه الدّعوة الصّادرة من قلوب مخلصة تعبّر عن إحساس أمة أنتم خلّصتها ومفخرتها بين الأمم. والسّلام عليكم ورحمة الله من الدّاعين لكم.¹

تونس في 25 ذو القعدة 1348هـ

الملحق رقم 12: تقرير من الوزير المفوض المقيم العام للجمهورية التّونسية إلى وزير الخارجية بباريس.

¹ مكتب الأخبار التّونسية، المصدر السابق، ص 18.

الإقامة العامة للجمهورية الفرنسية

تونس في 15-11-1930

20 نوفمبر 1930

إدارة الشؤون السياسية إفريقيا -المشرق

الكتابة العامة الحكومة التونسية

20 نوفمبر 1930(15)

سري

من الوزير المفوض المقيم العام للجمهورية التونسية

إلى

سيادة وزير الخارجية بباريس.

-حول عقلية المجتمع الإسلامي في المسألة الدينية:

يشرفني أن أحيط سعادتكم علما بأنّ شغبا دينيا يكاد ينحصر في مدينة تونس طرأ في غضون الشهر الماضي في الأوساط التي مدارها الجامع الأعظم بمناسبة صدور كتاب " امراتنا في الشريعة والمجتمع ".

إنّ مؤلفه - وهو متطوِّع قديم من الجامع الأعظم الطاهر الحداد - قد بسط في صيغة أسئلة موجّهة إلى المشرفين على التّعليم الديني في ذلك الجامع عدّة خواطر حول القرآن والرّسول وتعييده الرّوجات والمنزلة السّفلى حيث تقبّع المرأة المسلمة ولزوم تحريرها. وتلك المسائل اعتبرتّها النظارة - وهي مجلس إدارة الجامع الأعظم - مشكلة نسيج إلحاد وتهجّما سافرا على الأحكام القرآنية.

والجدير بالملاحظة في خصوص ذلك النّزاع الفكري وتلك الكتابية أنّ خطرهما ليس في بروزهما في حد ذاته بقدر ما هو في ردود الفعل النّاجمة عنهما والصّادرة عن الحزب

المحافظ المستند إلى صاحب العرش. فهي تكشف عن المجهودات التي ما انفكت تبذل في هذا البلد للصمود بعنف أمام منازع تطويرية لجانب هام من الأهالي المتعلمين الذين أثر فيهم بعمق مثال مصر وسوريا أكثر مما أثر فيهم مثال تركيا الفتاة.

إنّ الحزب المحافظ الذي يظم بمدينة تونس جل المشائخ المدرّسين بالجامع الأعظم والمشرفين على نظامه وكذلك اثنين من الوزراء ويحظى بمساندات قومية في حاشية جلالة الباي قد بادر ببذل جميع طاقات نشاطه لمقاومة كتاب الطاهر الحدّاد وحزب التّجديد (تجديد الدّين) مؤازره ومشجّعه.

وأول إجراء اتّخذته النّظارة اجتماعها للنّظر في النّشيرية المشاغبة وقد أعلنت عن إدانتها بالإجماع وطلبت من الوزير الأول اتّخاذ تدابير صارمة طبقا لمرسوم لم يعد نافذ المفعول مذ أمد بعيد.

والى جانب هذا الإجراء قام الحزب المحافظ بمساع أخرى - لدى صاحب العرش - تكتسي صبغة سياسية مقنّعة بذريعة دينية. فإنّ سمو سيدي أحمد باي المنظور إليه بصفته إماما أعظم للدّين ورئيس المجلس القضائي قد استحوذ عليه رجال الشّرع باتّفاق مع أقرب الناس إليه في حاشيته وهياؤه ليطلب من حكومة الحماية التّعجيل باتّخاذ تدابير ضدّ مشروع مُعاد للأحكام القرآنية التي تعتبر أسس المجتمع الإسلامي.

وأبلغ الوزير الأول الإدارة العامة للداخلية أنّ الملك ينوي بالتّأكيد التّوصل إلى إجراءات صارمة ضدّ الطاهر الحدّاد فضلا عن حجز نشرته وتمزيقها.

هذا وقد طالب سمّوه بمنع الاجتماع الذي أعلن عن عقده حزب "التّجديد" لتكريم الطاهر الحدّاد يوم 17 أكتوبر في جناح البلفيدير. ولم يكن لذلك الاجتماع وزن حقيقي. بيد أنّه تسبّب في مناورة محكمة التّدبير بفضل التّواطؤ الوزاري لمّا لعنه رجال الشّرع. ففي صبيحة ذلك اليوم نفسه اتّصل الوزير الأول هاتفيا من المرسى بالإدارة العامّة للداخلية ليبلغها القرار الذي عيّن جلاله الباي بموجبه السيّد الصادق النّيفر الإمام المنقطع عن المباشرة خطيبا في ذلك اليوم بالجامع الأعظم عوض الأئمة الرّسميين بدعوى أنّهم غير متهيّئين للخدمة

واحتوت الخطبة التي دعي عن قصد لسماعها جمهور غير تعليقاً باستهجان على مؤلف البدع ونصرائه وكانت بمثابة الهجوم المعاكس الصادر عن الشرع بقيادة الإمام الاتفاقي السيد النيفر وهو عضو سابق بمجلس الشرع رُفِت من منصبه منذ عامين، ثم أعيد إلى الرّكح الديني بإرادة الأمير.

أمّا الصحافة العربية فإنّها قدّمت في توافق مدّة أسبوعين مقالات مطوّلة مناهضة في مجموعها نظرية الحدّاد القائمة على اعتبار الدّين الإسلامي ملائماً ظروف العصر مؤاخذه ذلك المؤلّف على إبداء وجهات نظر تخالف التّعالم الدّينية التي أمر بها القرآن وتنتهك حرمة النّبي وأهله.

واستهدف حفل تكريم الطّاهر الحدّاد لتعليق عنيف أيضاً، ومن الملاحظ أنّ الصّحف الدّستورية سلكت نفس المسلك إلّا (الهلال) الجريدة الأسبوعية المحرّرة بالفرنسية بأقلام شبّان دعاة التّطور فإنّها انفردت بالدّفاع عن الطّاهر الحدّاد وفضحت التّعصب الضيق الصادر عن شيوخ الجامع الأعظم وأعلنت أنّها تعمل بشعار حرّية التّفكير وهو المرسوم في مقدّمة برنامجها.

إنّ تلك المهاترات التي احتدّت لهجتها أحيانا لا تثير امتعاضاً إذ تكاد تستأثر وحدها باهتمام الصّحافة المحلية في موضوع لا يهمّنا مباشرة فتصرّفها إلى حين عن المطاعن التي ألّفت رشق حكومة الحماية بها.

إنّ سياق التّدخلات واتّجاه المقالات الصّحفية المعروضة أعلاه تبين بوضوح حسب اعتقادي - مدى المساندات القومية التي يتمتع بها حزب المحافظة من جانب رجال الشرع وصاحب العرش في مقاومة أنصار المذاهب التّطورية الذين يحتل بعضهم رغم ذلك مناصب مرموقة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ تلك المقاومة المتصلّبة لم يلتجأ إليها للدّفاع عن العقيدة الإسلامية في حد ذاتها - وهي المحتفظة بأغلبه الأتباع - بقدر ما أشهرت لصيانة امتيازات اجتماعية ومادية يتمتع بها رجال الشرع والحزب المحافظ.

وتوجد هذه الامتيازات في الإشراف الفعلي على إدارة التعليم الديني في الجامع الأعظم حيث ينطبع ألفا طالب هم قضاة المستقبل وعدوله بشيوخ.

وإنّ مجلس الشّرع هو الذي يحتفظ لنفسه بحق ممارسة أحكام الأحوال الشّخصية وفض الخلافات الملكية ويغار على مهامه. وإنّ إصراره الموفق حتى الآن بفضل مساندة البايات على صيانة امتيازاته المنافية لمطامح العناصر الرّاقية يدل على صعوبة المهمّة التي تظطلع بها حكومة الحماية في سعيها الحثيث منذ الحرب العالمية إلى إدخال إصلاحات على التّعليم الديني ونظام الوصايات وإجراءات القضاء الشّرعي وغيرها...

وما مقاومة الشّرع نصراء ترقية المرأة المسلمة إلّا حلقة من سلسلة مناهضته العنيدة انتهاج سياسة ذات طابع تحرّري على غرار السّياسة المتّبعة في شرقي حوض البحر المتوسط.

إنّ هذا العرض يوفّر في اعتقادي مادة تفكير ضاف فيما يخصّ الوضع الاجتماعي الرّاهن في الإيالة التّونسية ويثبت أن واجبنا يقتضي العمل بكلّ حذر فيما يمسّ الحالة الاجتماعية ومسائل الأحوال الشّخصية للمسلمين الذين هم في حمايتنا.¹

¹ أحمد خالد، المرجع السابق، ص ص 392-395.

البيبايو غرافيا

قائمة المصادر والمراجع

1- قائمة المصادر:

- القرآن الكريم.

1-1 - باللغة العربية:

❖ القرآن الكريم.

1-1-1 - الكتب:

- ❖ ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، ج5، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس، 2004.
- ❖ (-)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، المجلد 4، ج7، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999.
- ❖ أرسلان (شكيب)، الرسائل المتبادلة بين الأمير والشيخ عبد العزيز الثعالبي، الدار التقديمية.
- ❖ أغسيتينوس، اعترافات، ترجمة: إبراهيم الغربي، مراجعة، محمد الشاوش، دار التنوير، تونس، ط2، 2015.
- ❖ (-)، اعترافات، ترجمة: الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط4، 1991.
- ❖ البلهوان (علي)، تونس النائرة، المطبعة العالمية، القاهرة، 1954.
- ❖ بورقيبة (الحبيب)، تاريخ الحركة الوطنية التونسية، مقالات صحفية (1929-1934)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1979.
- ❖ بورقيبة، محاضرات بورقيبة بمعهد الصحافة عن تاريخ الحركة الوطنية (حياتي، آرائي، جهادي)، إعداد ومراجعة وتعليق، عبد الجليل بوقرة، تقديم: سعيد بحيرة، ط1، دار آفاق، تونس، 2015.
- ❖ التونسي (خير الدين)، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ط1، مطبعة الدولة باحضررتها تونس المحمية، 1284هـ.

- ❖ ثامر (الحبيب)، هذه تونس، تقديم: الرّشيد إدريس، تحقيق حمادي السّاحلي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1988.
- ❖ الثعالبي (عبد العزيز)، تونس الشهيدة، ترجمة وتقديم سامي الجندي، ط1، دار القدس، بيروت، لبنان، 197.
- ❖ جوليان (شارل أندري)، إفريقيا الشّمالية تسير، ترجمة المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976.
- ❖ (- -)، المعمّرون الفرنسيون وحركة الشّباب التّونسي، تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الشّركة الوطنية للتّوزيع، تونس، (دت).
- ❖ الحدّاد (الطاهر)، امراتنا في الشّريعة والمجتمع، تق: خالد محمد، موفم للنّشر، 1992.
- ❖ الجيلاني (الفلاح)، الشّعب التّونسي والتّجنس، المطبعة العربية، تونس، 1342هـ/1924م.
- ❖ الحدّاد (الطاهر)، العمّال التّونسيون وظهور الحركة النّقابية، مطبعة العرب، تونس، 1927.
- ❖ ابن خوجة (محمد)، صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق: حمّادي السّاحلي، الجيلاني بن الحاج يحي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
- ❖ درمونة (يونس)، تونس بين الحماية والاحتلال، مكتب تونس الحرة، مطابع دار الكتاب العربي، مصر، 1953.
- ❖ الزّمرلي (الصّادق)، أعلام تونسيون، ترجمة وتقديم، حمّادي السّاحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1986.
- ❖ الشّابي (منصف)، صالح بن يوسف حياة كفاح، ط2، دار نقوش عربية، تونس، 2007.
- ❖ ابن عاشور (محمد الفاضل)، الحركة الأدبية والفكرية بتونس، الدّار التّونسية للنّشر، تونس، 1972.
- ❖ عبد الله (الطاهر)، الحركة الوطنية التّونسية رؤية شعبية قومية جديدة، ط2، دار المعارف للطّباعة والنّشر، تونس، (دت).

- ❖ الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، عبد السلام جاسوس، القاهرة، 1948.
- ❖ (-)، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، طبعة جديدة، مؤسسة علال الفاسي.
- ❖ (-)، محاضرات في المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، 1955.
- ❖ القليبي (عبد القادر)، محي الدين القليبي أو جهاد ثلث قرن، د ط، دار سراس للنشر، تونس، 2004.
- ❖ الماطري (محمود)، مذكرات مناضل، تقديم: عزالدين قلوز، تعريب: حمادي الساحلي.
- ❖ المدني (أحمد توفيق)، حياة كفاح، ج 1، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
- ❖ ابن مراد (محمد صالح)، الحداد على امرأة الحداد أو رد الخطأ والكفر والبدع التي حواها كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمع، ط 1، المطبعة التونسية، تونس، 1350هـ/1930م.
- ❖ مكتب الأخبار التونسية، ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي، هل تمثل مأساة الأندلس من جديد في شمال إفريقيا، الحملة الصليبية التاسعة في المؤتمر الأفارستي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، مصر، 1349هـ.
- ❖ مكتب استعلامات اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، مأساة عرش، سلسلة من الحقائق التاريخية والوثائق السياسية.
- ❖ مؤتمر البعث، المؤتمر العام للحزب الحر الدستوري التونسي المنعقد بمدينة قصر هلال يوم الجمعة 17 ذي القعدة عام 1352 هـ الموافق ل يوم 2 مارس 1934، تق: عبد المجيد شاكر، دار الكتب الوطنية، تونس، 1967.
- ❖ ابن ميلاد (أحمد) ومسعود إدريس (محمد)، الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية 1892-1940، ج 1، بيت الحكمة، تونس، 1991.

1-1-2- الجرائد والمجلات:

- ❖ البرهان، "برنامجنا"، قلاتي (حسن)، يوم الاثنين، 9 سبتمبر 1921، ع 1، س 1.

- ❖ الشَّهاب، غرة محرم 1349هـ / جوان 1930، ج 5، مج 6، المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة.
- ❖ الشَّورى، ع 275، س6، الأربعاء 28 ذو الحجة 1348هـ / 27 ماي 1930.
- ❖ (— —)، "ماذا في تونس"، ع361، س6، الأربعاء 6 رمضان 1348 / 5 فيفري 1930.
- ❖ (— —)، "أبناء تونس بالقاهرة يعملون لوطنهم"، ع 276، س6، الأربعاء 7 محرم 1349هـ / 4 جوان 1930.
- ❖ (- -)، "ماذا في تونس؟ فجيرة من أفزع الفجائع، إلى جمعيات الشَّبان المسلمين في الشرق وإلى علماء الدِّين"، ع 273، س6، الأربعاء 8 ذو الحجة 1348هـ / 7 ماي 1930.
- ❖ الصَّواب، 30 جويلية 1920، "الدستور"، محمد الجعايبي.
- ❖ (- -)، 31 جانفي 1930، "المؤتمر الافخارستي وآراء الناس فيه".
- ❖ الفتح، "تونس والمؤتمر الكاثوليكي"، ع185، س4، الخميس 7 رمضان 1348هـ / 6 فيفري 1930م.
- ❖ (- -)، "المؤتمر الكاثوليكي بقرطجنة (تونس)"، ع 198، س 4، الخميس 9 ذي الحجة 1348هـ / 8 ماي 1930م.
- ❖ (— —)، "كارثة أكبر من ضياع الأندلس"، ع 199، س4، الخميس 16 ذي الحجة 1348هـ / 15 ماي 1930م.
- ❖ (- -)، "شباب تونس ومؤتمر التبشير الكاثوليكي"، ع 200، س 4، الخميس 23 ذي الحجة 1348هـ / 22 ماي 1930 م.
- ❖ (— —)، "المؤتمر الكاثوليكي وتلامذة الصادقية"، ع 210، س 5، 5 ربيع الأول 1349هـ.
- ❖ (- -)/المنهاج، "ومع ذلك لم يكن مؤتمرا تبشيريا...!! المؤتمر الأفخارستي أيضا"، ع 207، س 5/العدد 6-7، الخميس 14 صفر 1349هـ.

- ❖ (-)، "ظاهرة مربية في سياسة الاستعمار الفرنسي هل تمثل مأساة الأندلس من جديد في شمال إفريقية؟ الحملة الصليبية التاسعة في المؤتمر الأفخارستي المنعقد بقرطاجنة من المملكة التونسية -1"، ع 219، س 5، الخميس 10 جمادى الأولى 1349هـ.
- ❖ (-)، "ظاهرة مربية... 2 - 3 - 4 - 5 - 6 - 7 - 8"، الأعداد: 221/220 / 222/223/224/225/226، السنة الخامسة، الخميس 17- 24 جمادى الأولى 29/22/15/8/ جمادى الآخرة 1349هـ.
- ❖ لسان الشعب، " المؤتمر الأفخارستي والاشتراكيون بتونس"، ع 388، س 10، الأربعاء 25 ذي القعدة 1348 / 23 أفريل 1930.
- ❖ (-)، "حول المؤتمر الأفخارستي بقرطاجنة"، ع 389، س 10، الأربعاء 2 ذي الحجة 1348 / 30 أفريل 1930.
- ❖ لسان الشعب، "حركات الرهبان"، الأربعاء 2 ذي الحجة 1348 / 30 أفريل 1930.
- ❖ (-)، "ذيل المؤتمر...حوادث وتعاليق"، ع 391، س 10، الأربعاء 23 ذي الحجة 1348 / 21 ماي 1930.
- ❖ (-)، "حول المؤتمر الأفخارستي"، ع 392، س 10، الأربعاء 30 ذي الحجة 1348هـ / 28 ماي 1930.
- ❖ (-)، "النقط الموحشة في وجه المؤتمر الأفخارستي" ع 395، س 10، الأربعاء 22 محرم 1349 / 18 جوان 1930.
- ❖ (-)، "هذيان الطان، رد وتزييف"، ع 396، س 10، 29 محرم 1349 / 25 جوان 1930.
- ❖ المغرب، "قنبلة الإلحاد في تونس"، ع 25، س 1، 26 جمادى الثانية 1349، الموافق ل 18 نوفمبر 1930.
- ❖ المنار، "الفتح الأوربي والفتح الإسلامي"، ج 2، م 31، ربيع الأول 1349 هـ / أوت 1930.
- ❖ (-): "آراء ساسة فرنسا في سياستها الإسلامية"، ج 3، مج 31، ربيع الآخر 1349 هـ / 22 سبتمبر 1930م.

- ❖ (-.-): "تهنئة للمنار ونقد واقتراح - من الأستاذ الفاضل وأحد دعاة الإصلاح بتونس - مصطفى بن شعبان"، ج 3، مج 31، 22 سبتمبر 1930م.
 - ❖ (-.-)، "بقية رد المنار على مقال رئيس تحرير مجلة نور الإسلام في الدفاع عن نفسه وعنها"، ج 6، مج 31، 30 شعبان 1349هـ/19 جانفي 1931م.
- 1-2-1 - باللغة الأجنبية:

1-2-1 - أرشيف ما وراء البحار:

- ❖ «Ce que fut le congrès », ANO ,XXX,276 /113.

1-2-2 - الكتب بالفرنسية:

- ❖ Bertrand L. ,**Le sens de l'ennemie** ,Paris ,Fayard ,1917.
- ❖ Delattre A.L. ,**L'archéologie et le congrès eucharistique international Carthage, avec 46 illustrations et une introduction par le P.G.G.Lapeyre** ,E2 ,Imprimerie.J.Aloccie,Tunis,1932.
- ❖ Delattre A.L.,**Symboles Eucharistiques Cartague** ,Imprimerie Générale ,Tunis ,25 avril 1930.
- ❖ Pons Mgr.A .,**La nouvelle église d'Afrique ,le catholicisme en Algérie ,en Tunisie et en Maroc depuis 1830**,librairie Louis Namuva ,Tunis.
- ❖ Robiquet (Paul) ,**Discours et Opinions de Jules Ferry** ,T.1 ,Armand Colin et ,Editeurs ,Paris ,1893,pp01FF.

1-2-3 - كتب بالبولندية:

- ❖ Roginski (Ks. Jozef) ,**Podroz do Afryki na kongres Eucharystyczny w Kartaginie** ,Odpitka z Zyciai Pracy,Lomza,1930.

1-2-4 - الجرائد و الدوريات بالفرنسية:

- ❖ **L'action Tunisienne**: 1 novembre 1932/14 novembre 1932/15 mai 1933.

- ❖ **L'Afrique du Nord illustrée** ,31 mai 1930, N°474 ,année 25." Le 30 congrès eucharistiques internationale de Carthage "
- ❖ **L'Afrique française**, Juin 1930 ,N° 6 ,année 4,"Autour du Congrès Eucharistique de Carthage".
- ❖ **L'Ancien combattant de l'Ardèche** ,12^eannée ,N°21 ,samedi 24 mai 1930,"Echos du congrès eucharistique", Albert Bayet ./ "Le pain Eucharistique " ,L.Barbedette.
- ❖ **les annales coloniales**, Avril 1930, « La France catholique en Tunisie.», Georges GOYAU.
- ❖ **(- -)**, 7/8/9/10/11/12/13/mai 1930.
- ❖ **Annuaire de l'Institution secondaire libre de Saint-Pé** , Année 24, Bagnères imprimerie péré,1931,P-P,157.
- ❖ **Bulletin Meusien**, « Le Congrès Eucharistique de Carthage » ,N° 777 ,Samedi 3 mai 1930./ « Nos prêtres meusiens de retour de Carthage »,N°779 ,Samedi 17 mai 1930.
- ❖ **Bulletin Mensuel de l'office du Protectorat Français en Tunisie** ,Février 1930 ,année 23,N° 225, " Le congrès eucharistique de Carthage " ./,Mars 1930,année 23,N°226./ Avril 1930,année 23,N°227.
- ❖ **Bulletin Religieux de L'archidiocèse de Rouen** ,Année 29 ,N°2 ,Samedi11 janvier 1930.
- ❖ **La Croissant** ,24-10-1930,Edilorial "comparez et jugez ", par Abdelaziz Laroui.
- ❖ **La Croix:**
 - année 31 , N° 14474,mercredi 7 mai 1930 , ,«Avant Le Congrès Eucharistique de Carthage- les congressistes à Carthage», A-Michelin.
 - jeudi 8 mai 1930 ,année 31 , N°14475.

- Vendredi 9 mai 1930 ,année 31, N°14476:«Le 30 congrès eucharistiques de Carthage -Les grandioses cérémonies inaugurales » ,A-Michelin, «Le congrès de Carthage -L'émouvante messe des enfants au Belvédère », A-Michelin.
- Samedi 10 mai 1930 ,année 31 , N°14475, «Sur les ruines des basiliques Carthaginoises-Les solennités du congrès eucharistique se poursuivent avec un incomparable éclat » A-Michelin.
- Dimanche 11, Lundi 12 mai 1930, année 31, N°14478, «L'Hostie ressuscite Carthage -Fermant le cycle des cérémonies-un cortège triomphal va parcourir la ville antique», A-Michelin.
- ❖ **La Croix de la Charente**, année 34, N°19,dimanche 11 mai 1930, « A propos du congrès de Carthage »./ année 34°,N°20,dimanche 18 mai1930, «A Carthage une réponse au laïcisme », Georges LARIGLDY.
- ❖ **L'Echo d'Alger**:7/8/9/10/11/12/13/mai 1930.
- ❖ **L'Echo d'Oran**: 7/8/9/10/11/12/13/mai 1930.
- ❖ **L'Echo de sierre**, « Le prochain congrès eucharistique international » ,cinquième année, N°5, samedi19 janvier 1930./ « Le congrès eucharistique de Carthage » ,sixième année,N°33,mercredi 23 avril1930./ «pour Le congrès eucharistique» ,sixième année,N°37,mercredi 7mai1930./ «Le congrès de Carthage» ,sixième année,N°39,mercredi 14mai1930.
- ❖ **Excelsior** , 7/8/9/10/11/12/13/mai 1930.
- ❖ **Express Du midi** ,lundi 12 mai 1930 ,N°18552,année 89,"A Carthage la clôture du congrès eucharistique"
- ❖ **journal des débats** , année 142 ,N°129, jeudi 8 mai 1930.
- ❖ **Le Jura** ,année 80 ,N°53 ,samedi 3 mai 1930./ année 80 ,N°55 ,jeudi 8 mai 1930./ année 80 ,N°56 ,samedi 10 mai 1930.

- ❖ **la Liberté(Fribourg)**, année 59°,N°203 ,samedi 31 aout 1929. « Le prochain congrès eucharistique »,Georges Favre./ samedi 31 aout 1929, «Ce qu'on voit à Carthage »,Joseph Boubée./, année 59°,N°265 ,mercredi 13 novembre 1929, «le congrès eucharistique de Carthage ». / année 60°,N°87 , lundi 14 avril 1930, « Au congrès eucharistique de Carthage »./ année 60°,N°91, vendredi 18 avril 1930, « Les socialistes Français et le congrès eucharistique de Carthage »./ année 60°,N°116 ,lundi 19 mai 1930, « Impressions de Carthage ».
- ❖ **La Liberté(Paris)**, 7/8/9/10/11/12/13/mai 1930
- ❖ **Le libre du penseur de France**, 26°année,N°164 ,29 janvier 1930, « Une légitime protestation».
- ❖ **Le Matin**, 7/8/9/10/11/12/13/mai 1930.
- ❖ **Le Monde colonial illustré**, Juillier 1930,N°83,année 8, « Au congrès eucharistique du Carthage".
- ❖ **Nouvelliste valaisan** ,Année 25 ,N°145 ,Jeudi 13 décembre 1928, « Le prochain Congrès eucharistique international-Mgr Heylen, président du comité permanent nous parle du Congrès qui se réunira à Carthage en 1930. », Gardin./
- mardi 22 avril 1930 ,année 27,N°94,"Les loges contre le congrès eucharistique que le gouvernement Français protège"./
- ❖ **L'ouest-Eclair** , Mercredi 7 mai1930, N° 11235,année 31./ vendredi ,9 mai1930 , N° 11237,année 31./ samedi 10 mai 1930 ,n 11238 ,année 31./
- ❖ **Paris –midi** , 7/8/9/10/11/12/13/mai 1930.
- ❖ **La Patrie Valaisanne** ,première année,N°11 ,Jeudi 29 décembre1927,« Le Congrès eucharistique du 1930»./ deuxième année,N°143 ,Jeudi 7 novembre 1929./ troisième année, N°57, mardi 29 avril1930./ troisième année, N°62, samedi 10 mai 1930. / troisième année, N°63, mardi 13 mai1930./

- ❖ **Le Progrès du Finistère**, 7/8/9/10/11/12/13/mai 1930.
- ❖ **Le Recrutement sacerdotal** ,Revue trimestrielle ,Année 30 ,Janvier 1930.
- ❖ **La revue catholique des idées et des faits** ,année 11,N°16 ,Vendredi 10 juillet 1931, «Le cinquantenaire des congrès eucharistiques internationaux », Giovanni Hoyoïs./ année 10,N°5 et N°6 ,Vendredi 2 mai 1930, « Carthage », Gonzague Ryckmans./ année 10,N°9 ,Vendredi 23 mai 1930, « Au 30 congrès eucharistique international », Giovanni Hoyoïs.
- ❖ **Semaine Religieuse de L'archidiocèse d'Alpi**, Jeudi ,5 juin 1930,N°,23,année,57,"Notre pèlerinage à Carthage".
- ❖ **Semaine religieuse du diocèse de Lyon** ,25 octobre 1929,N°47 ,année 36./1 aout 1930 ,N°35, année 87,"Le Bey de Tunis à Fourvière".
- ❖ **Le Temps** ,N°25099 , Mercredi 7 mai 1930./ N°25095 , Dimanche 11 mai 1930./70 °année ,N°25125 , vendredi 6 juin 1930 , « Après le Congrès Eucharistique »./ Samedi 10 mai 1930 ,Soixante-dixieme année ,N°25098./
- ❖ **La Tunisie Catholique,18 octobre 1925** ,"Les fêtes du centenaire du Cardinal Lavigerie."/ 19-01-1930,"Le Congrès Eucharistique de Carthage-Louis Bertrand et Le Congrès Eucharistique".
- La Tunisie catholique ,N°46 ,Dimanche 25 Décembre 1927.
- ❖ **La Tunisie Française** ,25 novembre 1925./ 17-01-1930 ,Echos-Chez S.A.Le Bey.
- ❖ **Tunis Socialiste** ,4 Mai 1930./ 5 Mai 1930./ 29 avril 1930, "Le Congrès Eucharistique international” , par Mohamed Nomane
- ❖ **La Voix du Tunisien** ,17 février 1931 ,"Notre programme"./ 10 -05-1930 , " Le Congrès Eucharistique , une folie" par Mohamed Bourguiba./10 -05-1930 , "La laïciste au vestiaire", Abdel Hac./ 3 mai 1930.

الصّحف البولندية:

- ❖ **Dziennik Bydgoski** ,«Pielgrzymka polska na kongres Eucharystyczny w Kartaginie. » ,N°40 ,Rok24 ,wtorek dina 18 lutego 1930/ « Rezolucje sekcji polskiej na kongres Eucharystycznym w Kartaginie » ,N°118 ,Rok 24 ,Czwartek dina 22 maja1930.
- ❖ **Niedziela**, « Przed Kongresem Eucharystycznym w kartaginie», N°7, Katowice, dina 16 go lute go1930.
- ❖ **Tygodnik Polski**, « Przemowienie ambasadora Rzeczypospolitej Polskiej min. Fr. Fulaskiego na kongres Eucharystycznym w Kartaginie w dn.8 maja r.b», N°419,25 maja 1930.
- ❖ **Wiadomosci Diecezjalne Lubelskie** , «Breve Apostolskle na kongres Eucharystyczny w Kartaginie. » ,N°6 ,Rok 12,Czerwiec 1930 r.

1-2-5-المصادر السمعية البصرية

- ❖ https://drive.google.com/file/d/1ZS10PCe-IIDEpbmzQTYziIbX4yhOKtBE/view?usp=share_link

2- المراجع:

2-1- بالعربية

2-1-1- الكتب

- ❖ الأبيض (سالم)، الهوية، الإسلام، العروبة، التّونسة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009.
- ❖ أمين (محمد)، شمال إفريقيا والحركة الصّليبية 1189-1390م، مطبعة جامعة القاهرة، مصر، 1975.
- ❖ أيّيش (يوسف)، رحلات الإمام محمد رشيد رضا، ط2، المؤسّسة العربية للدراسات والنّشر، بيروت، 1979.

- ❖ آيت ميهوب (علي)، بنزرت والاستعمار بحث في السياسة الاستعمارية والحركة الوطنية في جهة بنزرت، 1924-1956، المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، جامعة منوبة.
- ❖ باسمور (كيفن)، الفاشية، ترجمة رحاب صلاح الدين، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2013.
- ❖ بشيري (أحمد)، علماء من المغرب العربي في الأزهر الشريف، منشورات ثالة، الجزائر، 2007.
- ❖ بنبليغث (الشيباني)، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859-1882)، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، صفاقس، 1995.
- ❖ التميمي (عبد الماك خلف)، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي: المغرب العربي، فلسطين، الخليج العربي، دراسة تاريخية مقارنة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر، 1983.
- ❖ التهامي (حمة)، المجتمع التونسي دراسة اقتصادية واجتماعية، ط1، دار صامد للنشر والتوزيع، تونس، 1989.
- ❖ التيمومي (الهادي) وآخرون، المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي، بيت الحكمة قرطاج، 1999.
- ❖ جنداري (إدريس)، من أجل مقاربة فكرية لإشكاليات الربيع العربي، "العروبة، الإسلام، الديمقراطية"، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2015.
- ❖ الجندي (أنور)، تاريخ الصحافة الإسلامية -2-، الفتح، محب الدين الخطيب (1926-1948م)، دار الأنصار، مصر، (د.ت.).
- ❖ (—)، تاريخ الصحافة الإسلامية -1-، المنار محمد رشيد رضا (1315هـ/1898م) - (1353هـ/1935م)، دار الأنصار، مصر، (د.ت.).
- ❖ الجيلاني بن الحاج يحيى، محمد المرزوقي، معركة الزلّاج، ط2، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986.

- ❖ حسني عبد الوهاب (حسن)، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية التونسية، تونس، (دت).
- ❖ حسين (ممدوح)، مدخل إلى تاريخ حركة التنصير، ط1، دار عمار، عمان، الأردن، 1416هـ/1995م.
- ❖ الحسيني (علي الرضا)، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ج 1، ج 16، ج 18، ج 21، ط1، دار النوادر، سوريا، 2010.
- ❖ حمدان (جمال)، العالم الإسلامي المعاصر، ط 1، عالم الكتب، القاهرة، 1971.
- ❖ خالد (أحمد)، أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد ونضال جيل، ط3، الدار التونسية للنشر، تونس. 1985.
- ❖ خرفي (صالح)، عبد العزيز الثعالبي، من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.
- ❖ الخطّابي (محمد بن عبد الكريم)، صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار، تحقيق محمد علي داهش، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2002.
- ❖ الخطيب (أحمد)، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- ❖ الدقي (نورالدين)، تونس من الإيالة إلى الجمهورية (1814-2014)، المنشورات الجامعية بمنوبة،
- ❖ (-)، حركة الشباب التونسي، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة تونس الأولى، تونس، 1999.
- ❖ الذوّادي (زهير)، الاستعمار وتأسيس الحركة الإصلاحية الوطنية التونسية، ط1، الأطلسية للنشر، تونس، 2006.
- ❖ (-)، تحولات العمل الوطني التونسي في السّنوات الثلاثين 1929-1939، الأطلسية للنشر، تونس، 2003.

- ❖ (- -)، تطور الحركة الوطنية التونسية 1929-1939، دار التقدم للنشر والتوزيع، تونس، 1982.
- ❖ الرّحموني (محمد)، العلمانيون في تونس، صراع الفكر والسياسة، ط1، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، 2013.
- ❖ الزّركلي (خير الدّين)، الأعلام، ج1، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2002.
- ❖ زيادة (نيكولا)، تونس في عهد الحماية 1881-1934، الأهلية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1963.
- ❖ الزّيدي (علي)، الزيتونيون ودورهم في الحركة الوطنية التونسية، 1904-1945، ط1، مكتبة علاء الدّين، تونس، صفاقس، 2007.
- ❖ الزّيلعي (محمد بن علي آل عمر)، الطائفة الكاثوليكية وآثرها على العالم الإسلامي، ط1، مركز البحوث والدراسات، الرياض، 1432 هـ.
- ❖ سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
- ❖ سليمان (عبد العزيز) ونعني (عبد المجيد)، تاريخ الولايات المتحدة الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت).
- ❖ السمغي (كلثوم)، تصوّر الصحف اليهودية التونسية للدولة اليهودية "الثلاثينات"، دراسة في صحف، الحلّوز، الفجر، اليقظة اليهودية، ط1، شرتن، قبرص، 1989.
- ❖ شاكر (محمود)، التاريخ الإسلامي -14- التاريخ المعاصر لبلاد المغرب، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1996.
- ❖ (- -)، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج2 (جمهورية تونس)، القارة الإفريقية.
- ❖ الشّريف (البشير الحاج ابن عثمان)، أضواء على تاريخ تونس الحديث 1881-1924، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، 1981.
- ❖ الشّريف (محمد الهادي)، ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، دار سراس للنشر، تونس، 1993.

- ❖ الصّخراوي (الأزهر)، مخطوط السياسة الاستعمارية الفرنسية بتونس من برنار رو إلى شارل سومانيه (1881-1956)، ط1، تقديم الهادي تيمومي، دار المسير، 2018.
- ❖ ضيف الله (محمد)، الحركة الطّالبيّة التّونسيّة (1927-1939)، مؤسّسة التّميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، جانفي/كانون الأول، 1999.
- ❖ طبّابي (حفيظ)، الحزب الحر الدّستوري التّونسي، 1934-1938، ط1، الدارالتونسية للكتاب، تونس، 2011.
- ❖ (- -)، البناء الوطني وتحديات الاستقلال، ط1، الدّار التّونسية للكتاب، تونس، 2011.
- ❖ ابن عاشور (رافع)، المؤسّسات والنّظام السّياسي بتونس (الإطار التّاريخي -النّظام الحالي)، مركز النّشر الجامعي، 2000.
- ❖ عامر (سامية)، الصّليبيون في شمال إفريقيا، حملة لويس التّاسع على تونس (1270م) (668-669هـ)، ط1، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، مصر، 2002.
- ❖ عزيز (عبد الكريم)، نضال شعب أبي، تونس 1881-1956، مركز النّشر الجامعي، تونس، 2001.
- ❖ عماد (عبد الغني)، الحركات الإسلامية في الوطن العربي، مج1، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2013.
- ❖ عميرة عبد (الرحمان)، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التّبشير وضلال الاستشراق، دار الجيل، بيروت، (دت).
- ❖ العياري (محمد)، محمد الشّادلي خزندار أمير شعراء الخضراء، تونس، 1975.
- ❖ العياشي (مختار)، البيئة الزيتونية (1910-1945) مساهمة في تاريخ الجامعة الإسلامية التّونسية، تعريب حمّادي السّاحلي، دار تركي للنشر، 1990.
- ❖ ابن عيسى (الحسين)، البورقيبية والهوية، صراع مشاريع، ط1 مكتبة تونس، تونس، 2015.

- ❖ الغالي (بلقاسم)، من أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، ط1، دار ابن حزم، لبنان، 1996.
- ❖ غرابية (عبد الكريم محمود)، دراسات في تاريخ إفريقيا العربية (1918-1958)، ط1، مطبعة الجامعة، دمشق، 1960.
- ❖ الغربي (محمد الأزهر)، تونس رغم الاستعمار،
- ❖ فروخ (عمر) والخالدي (المصطفى)، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، منشورات المكتبة المصرية، بيروت، 1986.
- ❖ القرقوري (معتز)، النظام السياسي التونسي، مجمع الأطرش للكتاب المختص، تونس، 2020.
- ❖ القصاب (أحمد)، تاريخ تونس المعاصر (1881-1956)، تعريب السّاحلي (حمادي)، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986.
- ❖ القليبي (الشاذلي)، أضواء من الذاكرة: الحبيب بورقيبة، ترجمة محمد معالي، مراجعة عبد العزيز قاسم، دار الكتب الوطنية، تونس، 2014.
- ❖ الكيلاني (محمد)، الحركة الشيوعية في تونس، 1920-1985، مكتبة التقدمية، تونس، 1989.
- ❖ اللّافي (محمد الفاضل)، القضايا الجدلية بين المجلة الزيتونية ومجلة (La Tunisie catholique) "تونس الكاثوليكية"، مركز البحوث والدراسات في حوار الحضارات والأديان المقارنة، سوسة، تونس، (د.ت.).
- ❖ لعيرج (خولة) وآخرون، موجز تاريخ الحركة الوطنية التونسية (مقاربة) 1881-1964، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة منوبة، تونس، 2008.
- ❖ مالكي (أحمد)، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1993.
- ❖ مجموعة من المؤرخين، تونس عبر التاريخ، الحركة الوطنية ودولة الاستقلال، ج 3، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2005.

- ❖ محافظة (علي)، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1789-1914) الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1983.
- ❖ المحجوبي (علي)، جذور الحركة الوطنية التونسية (1904-1934)، تعريب: عبد الحميد الشابي، ط1، بيت الحكمة، تونس، 1999.
- ❖ (- -)، ما يجب أن تعرف عن انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، تعريب عمر بن ضو وآخرون، سراس للنشر، تونس، 1986.
- ❖ محفوظ (محمد)، تراجم المؤلفين التونسيين، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982.
- ❖ (- -)، تراجم المؤلفين التونسيين، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.
- ❖ محمد الصالح (نغم)، الحركات الإسلامية في المغرب العربي (المغرب- تونس - الجزائر) دراسة لدورها السياسي في ظل التحولات الديمقراطية، ط1، الجنان للنشر والتوزيع، عمان، 2010.
- ❖ محمد (محمود السروجي)، العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية إلى الاستقلال، المكتبة الوطنية، بنغازي (د.ت).
- ❖ مركز دراسات الوحدة العربية، تطور الوعي القومي في المغرب العربي، سلسلة كتب المستقبل العربي -8-، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، أفريل 1986.
- ❖ المعدي (الحسن الحسني)، موسوعة أشهر الثوار في العالم، ط1، دار النهار، القاهرة، 2012.
- ❖ مناصريه (يوسف)، الحزب الدستوري التونسي (1919-1934)، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1980.
- ❖ (- -)، الصراع الأيديولوجي في الحركة الوطنية التونسية 1934-1937، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، 2002.
- ❖ المهدي (محمد الصالح)، تاريخ الصحافة العربية وتطورها بالبلاد التونسية (1902-1969)، المطبعة الرسمية، تونس، 1965.

- ❖ (-)، تونس في تراجم أعلامها، ج1، وزارة الثقافة، تونس، 2012.
- ❖ ميدان (مادلين هورس)، تاريخ قرطاج، ترجمة إبراهيم بالش، ط 1، منشورات عويدات، بيروت، باريس، 1981.
- ❖ نعنعي (عبد المجيد)، تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، مطبعة دار النهضة العربية، بيروت، 1983.
- ❖ نور الدين زين (زين)، نشوء القومية العربية، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، ط4، دار النهار للنشر، بيروت، 1986.
- ❖ ياغي (أحمد)، شاكر (محمود)، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج2، قارة إفريقية، دار المريخ للفكر، الرياض، السعودية، 1993.
- ❖ يحي (جلال)، المغرب الكبير، الفترة المعاصرة وحركات التحرير والاستقلال، ج3، الدّار القومية للطباعة والنّشر، مصر، 1966.
- ❖ ابن يوسف (عادل)، النّخبة العصرية التّونسية طلبة الجامعات الفرنسية (1880-1956)، دار الميزان للنّشر، سوسة (تونس)، 2006.
- ❖ 2-1-2- المقالات:
- ❖ بوجلال (ليلى)، "النّضال النّقابي في الحزب الدّستوري التّونسي الجديد، الوجه الآخر للكفاح التّحريري"، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، ع 20، جوان 2018.
- ❖ بوطيبي (محمد)، "الجمعيات الخيرية التّونسية خلال النّصف الأول من القرن العشرين"، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، ع 10، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، جوان 2016.
- ❖ التّيمي (عبد الجليل)، "التّفكير الدّيني والتّبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر، في القرن التّاسع عشر"، المجلة التاريخية المغربية، عدد1، تونس، جانفي 1974.

- ❖ (-)، "دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس 1830-1881"، *المجلة التاريخية المغربية*، ع 3، تونس، جانفي يناير، 1975.
- ❖ حمايدي عيارى (حميدة)، "المشروع التبشيري الكاثوليكي الفرنسي بالجزائر وتونس في القرن التاسع عشر، أخوات القديس يوسف وفرانسوا بورغاد نموذجاً"، *مجلة مسارات*، ع 2، مركز مسارات للدراسات الفلسفية والانسانيات، تونس، 2014.
- ❖ درويش (الشّافعي)، "العلاقات التونسية الفرنسية ما بين 1577 و1685 (التميز والتنوع)"، *مجلة روافد*، مج 4، (2)، قسم التاريخ جامعة زيّان عاشور، الجلفة، ديسمبر 2020.
- ❖ الدّقي (نور الدين)، "الآباء المؤسّسون للحركة الوطنية، حركة الشّباب التّونسي"، *مجلة الفكر الجديد*، العدد 4، أكتوبر 2015.
- ❖ (-)، "أبو القاسم الشّابي وهاجس الصّحوة الدّينية"، *الفكر الجديد*، ع5، 2016.
- ❖ زغير حزيم (حسين) "دور الحبيب بورقيبة في تجديد عمل الحركة الوطنية في تونس (1929-1945)"، *مجلة كلية التّربية بجامعة المستنصرية*، العدد 55، ذي القعدة 1437 هـ/آب 2016م.
- ❖ الزّبيدي (المنجي)، "التّجمع الدّستوري الدّيمقراطي، التّحولات التّاريخية ورهانات التّغيير"، *جريدة الحرية*، ط1، تونس، 2008.
- ❖ الشّرفي (عبد المجيد)، "الحركة التبشيرية في تونس في القرن التاسع عشر، بورغاد (Bourgade)، ولافيجري (Lavigerie)"، *حوليات الجامعة التونسية*، ع8، جامعة منوبة تونس، 1971.
- ❖ الشّريدة (أحمد تركي)، "نشأة البابوية وتطورها"، *مجلة دراسات*، قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، مج 45، العدد 4، 2018.
- ❖ الشّريف (محمد الهادي)، "تاريخ الحركة الوطنية التونسية نظرة تقييمية"، *مجلة روافد*، العدد 1، المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة منوبة، تونس، 1995.

- ❖ العبيدي (عواد إبراهيم خضر)، العبيدي (حسن علي خضير)، "الخلافات الايديولوجية الفكرية في الحركة الوطنية التونسية 1933-1937"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، ع4، المجلد22، نيسان، 2016.
- ❖ العربي (إسماعيل)، "السياسة الاستعمارية في بلدان المغرب العربي سنة 1930"، مجلة القرطاس، العدد 8، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، جانفي 2018.
- ❖ عقيب (محمد السعيد)، "المؤتمر الافخارستي بقرطاج ماي 1930 وتطور العمل الوطني بتونس"، مجلة البحوث والدراسات، العدد 22، السنة 13، صيف 2016.
- ❖ عليوي فرحان الخفاجي (جمعة)، هادي عكار عظيم (وسام)، "السياسة الفرنسية حيال تونس 1881-1914"، مجلة الأستاذ، كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية، جامعة بغداد، العدد 214، المجلد الأول، سنة 2015.
- ❖ مؤنس (أشرف محمد عبد الرحمن)، "الشيخ عبد العزيز الثعالبي والنخبة السياسية والفكرية في مصر (1924-1931)م" صحيفة الشورى أنموذجا"، المجلة التاريخية المصرية، المجلد 55، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، 2021.
- ❖ ابن يوسف (عادل)، "قراءة في مواقف الطلبة التونسيين بفرنسا من بعض القضايا الوطنية في مطلع الثلاثينات (التجنيس والمؤتمر الافخارستي والزواج المختلط)"، مجلة روافد، ع5، جامعة منوبة، تونس، 1999-2000.
- ❖ (-)، "النضال المغربي المشترك ضد المستعمر الفرنسي: النشاط الطائفي التونسي-الجزائري بفرنسا (1927-1962)"، مجلة هيروودوت للعلوم الانسانية والاجتماعية /الردمك 2602-7038(www.heodotecb.com)، العدد العاشر.

2-1-3- الملتقيات

- ❖ الشايبني (محمد لطفي)، " الحركة الوطنية التونسية ومطلب الاستقلال (1881-1956)"، أعمال الندوة الوطنية الثالثة عشرة حول استقلال تونس ومسيرة التحرر من الاستعمار، المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة منوبة، تونس، 2006.

❖ العلاقي (عبد الكريم)، "النخبة الزيتونية وأهل الكتاب في عهد الحماية "أعمال الندوة الدولية الحادية عشر حول الزيتونة: الدين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي، بتونس أيام 5-6 ماي 2002، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة منوبة، ط2، ع11، تونس، 2006.

2-1-4- رسائل جامعية:

❖ بوطيبي (محمد)، الفكر الاجتماعي في تونس في النصف الأول من القرن العشرين (1900-1950) (دراسة مقارنة بين الفكر والواقع الاجتماعي)، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة بوزريعة، السنة الجامعية 2013-2014.

❖ دهّاش (الصّادق)، مشروع الوحدة التّحرري لحركة الجامعة الإسلامية في بلدان المغرب العربي بين 1876-1919، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2008-2009.

❖ خرنق (مبروكة)، العلاقات التونسية الفرنسية خلال القرن السابع عشر (1605-1705م) سياسيا وتجاريا، رسالة ماجستير، قسم التاريخ معهد العلوم الانسانية والاجتماعية، المركز الجامعي بغيرادية، السنة الجامعية 2011/2012.

❖ صحراوي (نور الدين)، النفوذ الأوربي (الفرنسي -الأنجليزي- الإيطالي) في تونس 1857م-1881م، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، السنة الجامعية 2012-2013.

❖ ابن علي بن محمد آل عمر (محمد)، الطائفة الكاثوليكية: فرقها وعقائدها وآثرها على العالم الإسلامي، رسالة دكتوراه، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، 1428هـ/2007م.

❖ عقيب (محمد السعيد) ، الحزب الحر الدستوري التونسي القديم (1934-1956) رسالة دكتوراه ،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، بوزريعة، 2011.

❖ عميرة (محمد سالم أحمد)، شكيب أرسلان (1869-1946) دراسة في فكره السياسي، رسالة مكمّلة للحصول على درجة الدكتوراه، كلية الدّراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2000.

❖ غانمي (ريم)، الحضور المسيحي بتونس من 1881 إلى 1930م، رسالة ماجستير، المعهد الأعلى لأصول الدّين، جامعة تونس، 2004-2005.

❖ قاسمي (الطّاهر)، مشروع النّهضة في المغرب العربي المعاصر (1867-1954)، رسالة دكتوراه، كليّة العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، السّنة الجامعية 2017-2018.

❖ القزدغلي (الحبيب)، تطوّر الحركة الشيوعية بتونس (1919-1943)، شهادة بحث معمّق، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة تونس، السّنة الجامعية 1987 - 1988.

❖ اللّولب (حبيب حسن): دور الصّحافة العربية بتونس في تفعيل الوعي الوطني 1860-1914، رسالة ماجستير، قسم التّاريخ، كلية العلوم الانسانية، جامعة الجزائر، السّنة الجامعية: 2000-2001.

❖ محمد أديب زيدان (رغداء)، قضايا الإصلاح والنّهضة عند محب الدّين الخطيب (-1969/1389)، رسالة ماجستير، كليّة الإمام الأوزاعي للدّراسات الإسلامية، بيروت، لبنان، 2006.

❖ نايت قاسمي (إلياس)، الذّكرى المئوية للاحتلال الفرنسي للجزائر وأثرها على الحركة الوطنية الجزائرية، رسالة ماجستير، قسم التّاريخ، جامعة الجزائر، السّنة الجامعية 2002/2003.

2-1-5-المعاجم والموسوعات:

- ❖ تلمي (افرايم ومناحم): معجم المصطلحات الصهيونية، ترجمة: أحمد بركات العجرمي، ط1، دار الجبل، عمان، 1988.
 - ❖ الكيالي (عبد الوهاب)، موسوعة السياسة، ج1، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، 1979.
 - ❖ (-)، موسوعة السياسة، ج2، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، 1981.
 - ❖ (-)، موسوعة السياسة، ج4، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، (د.ت).
 - ❖ (-)، موسوعة السياسة، ج5، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، 1990.
 - ❖ (-)، موسوعة السياسة، ج7، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994.
 - ❖ لالاند (أندريه)، موسوعة لالاند الفلسفية، مج1، مج3، تعريب خليل أحمد خليل، ط2، منشورات عويدات، بيروت -باريس، 2001.
- 2-2-المراجع باللغات الأجنبية:

2-2-1- الكتب بالفرنسية:

- ❖ Bibliothèque illustrée des missions catholiques ,La Tunisie chrétienne ,bureaux des missions catholiques ,Lyon,1878.
- ❖ Bouzekri (Mohamed),"L'aube du mouvement national Tunisien ou l'ascension de Bourguiba", dant chaut pour l'au –delà des mers, préface de Jean Ganiage, Le Harmattan,Paris,2008.
- ❖ Caucanas (Rémi), Lavigerie au prisme de trois Pères Blancs , Via Aurelie ,18 novembre 2017.
- ❖ Comby (Jean) , L'eucharistie au 20° siècle, Lyon , janvier,2000.
- ❖ Guérin (Victor) , La France catholique en Tunisie a Malte et en Tripolitaine ,éditeurs, Alfred mame et fils ,Tours.

- ❖ Gutron (Clémentine) ,**L'archéologie en Tunisie (19-20 siècles),jeux généalogiques sur l'antiquité** ,éditions Karthala ,Paris , 2010.
 - ❖ Jacquin (Françoise) et Zorn (Jean –François) ,**L'altérité religieuse** Moreno (R.P.Silvio Gaston), **Carthage éternelle- un pèlerinage aux ruines chrétiennes de Carthage**, Imprimatur R.P.Daniel Cima ,Institut du Verbe Incarné ,Tunis,2013.
 - ❖ (—————) (éds) ,**L'altérité religieuse ,Un défi pour la mission chrétienne** ,éditions Karthala ,Paris ,1999.
 - ❖ Mahjoubi (Ali) , **Le Congrès Eucharistique de Carthage et le mouvement national tunisien en 1930**, (Extrait des cahiers de Tunisie),C.T..Tunis ,1978.
 - ❖ Zelis (Guy) ,**Les intellectuels catholiques en Belgique francophone aux 19 siècles et 20 siècles** ,Presses universitaire de Louvain ,Belgique ,2009.
- ,éditions Karthala, Paris , 2001..

2-2-2 - المقالات بالفرنسية:

- ❖ Alexandropoulos (Jacques), «Entre archéologie universalité et nationalismes le trentième congrès eucharistique International de Carthage», **Anabases** ,9-2009 ,343.,(miss en ligne le 1 mars 2012).
- ❖ (—————) , Le Maghreb antique:enjeux contemporains.
- ❖ (—————), « Tourisme patrimoine à Carthage en 1930 souvenirs d'un pèlerin du congrès eucharistique » ,jeudi 21 janvier 2021 ,17:38,(<https://books.openedition.org/cjb/1491?lang=fr>)
- ❖ Chater (Khalifa), «La Franc-maçonnerie en Tunisie à l'épreuve de la colonisation (1930-1956)», mardi 24 /11/2020-20:03, (<https://journals.openedition.org/cdlm/1177>)
- ❖ Dominique (Parcollet-Delille) , Chanzy Antoine Eugène Alfred (1823-1883) ,Sorbone ,1995, (<http://www.openedition.org/6540>)

- ❖ El Ghouli (Fayçal), « Le français de Tunisie et L'autre dans les années 1920-1930 », **Cahier de la Méditerranée** (En ligne), 66 | 2003, mis en ligne le 21 juillet 2005, consulté le 22 octobre 2021. p6-7. (URL: <http://journals.openedition.org/cdlm/104> ; DOI: <https://doi.org/10.4000/cdlm.104>)
- ❖ Freed (Joann), « Le Père Alfred-Louis Delattre (1850-1932) et les fouilles archéologiques de Carthage », **Histoire et missions chrétiennes**, N°8, Décembre, 2008, p.75. (<https://www.cairn.info/revue-histoire-monde-et-cultures->)
- ❖ **Jacques-Berque Centre**, « Tourisme et patrimoine à Carthage en 1930 souvenirs d'un pèlerin du congrès eucharistique », jeudi 21 janvier 2021, 17:38. (<https://books.openedition.org/cjb/1491?lang=fr>)
- ❖ Lelong. M, La rencontre entre l'église catholique et l'islam en Tunisie de 1930 à 1968, **Se Comprendre**, N° jau/60-10 mai 1972.
- ❖ Parzymies (Anna), « La Tunisie musulmane, pays au riche passé chrétien et au présent tolérant », **Studia Arabistyczne i Islamistyczne** 4, 1996.
- ❖ **Pèlerins en marche**, Février 2007, N°17, "Les congrès eucharistiques".
- ❖ Soumille (Pierre), « Des catholiques en Tunisie », **Histoire, monde et cultures religieuses**, N°44, décembre, 2017. (<https://www.cairn.info/revue-histoire-monde-et-cultures-religieuses-2017--page-13.htm>)
- ❖ (—————), « Les activités et les œuvres des congrégations religieuses catholiques en Tunisie à l'époque du protectorat français (fin 19 – milieu 20 siècle) », **La Tunisie mosaïque**. (9:15-21/08/2022. (<https://books.openedition.org/pumi/5018>))
- ❖ Sraieb (Nouredine), « Note sur les dirigeants politiques et syndicalistes tunisiens de 1920 à 1934 », **Revue de L'Occident musulman et de la**

Méditerranée, N°9, 1971. (<https://www.persee.fr/doc/remmm-0035-1474-1971-num-9-1-1102>) 29-03-2019.

- ❖ Vermeren (Pierre), «Catholicisme et l’islam dans le cadre du protectorat tunisien (1881-1930)», édition de la Sorbonne, 9-8-2021. (<https://books.openedition.org/psorbonne/41278?lang=fr>)

2-2-3 - رسالة جامعية بالإيطالية:

- ❖ Cugusi (Maria Chiara) , **Una testimonianza silenziosa-Storia della chiesa cattolica in Tunisia dal Trattato del Bardo alla ‘rivoluzione dei gelsoini’**, coordinatore dottorato tutor Bianca Maria Carcangiu, Patrizia Manduchi, Università degli Studi di Cagliari , 2013-2014.

الفهارس

فهرس الأعلام

الصفحة	الشخصية
178	ابن الأثير
55	ابن خلدون
168	ابن شدّاد
92	أبو القاسم الشّابي
178	أبي عبد الله المستنصر بالله
83	أحمد الجزيري
78-73	أحمد السّقا
280-72	أحمد الصّافي
91	أحمد القصّاب
377-307-234-59-51	أحمد باي
55	أحمد بن أبي الضياف
165-17	أحمد بن ميلاد
241-137	أحمد بيرم
138	أحمد خالد
324	إدريس الشّريف
251-154-79	ادوارد هيريو
110	أدينو
343-340-290	أرمان قيون
195	أسكالزي
69-62	اسماعيل الصفايحي
276	اسماعيل زويتن
39	الابتيت
154	ألبير بيت

125	أليكسيس لوماتر
192	ألييه
97	إميل مورينو
138	أندري دوران أنقليفيال
262	أندريه ديميرسمان
184	انسيلم
22	أنوسنت الرابع
-196-188-183-144-136-126-125-124 261-256-255-250-249-203	أوغسطين
344	إيرك لابون
177	ايميلي تاميزي
206	ب.روبيرت
364	بارا
228	بارتيليمي
345-296	الباهي الأدغم
-290-289-284-281-280-178-276-104 .330-315-296	بحري قيقه
261-124-123	بربيتو
27	بريار
254-235-233-148	بريان
289	البشير الفراتي
320	البشير بن مصطفى
345	البشير زرق العيون
289-68-66-63-61-59-54-50-47-43	البشير صفر
320	بشيرة بن مراد

169	بلا فريج
107	بلغور
339-328	بلقاسم القناوي
169	بن جلول
253-124	بوبي
196	بودريالات
184-183-120	بورغاد
192	بوزون
296	بوصقارة
199	بول بورد
52-33-29	بول كامبون
248	بولاسكي
140	بونزون
225-213-212-157-156-146-144	بونس
292	بيار فيانو
187	بيار لارميت
346-339-337-322	بيروطون
140-61-44-35	بيشون
185-121	بيوس التاسع
215-195-140-124-114	بيوس الحادي عشر
117	بيير جوليان ايمارد
169	تامزالي
195-183-127-123	ترتيليان
227	تريدون
321	توحيدة بن الشيخ

289	توفيق بن الشيخ
177	توما
143	تيسيه
178	ثيوبالد دي نافار
168	جان بسيس
195	جان دارك
169	الجبلي
56-53	جمال الدين الأفغاني
55	الجنرال حسين
55	الجنرال رستم
261	جوانفيل
108	غورو
253	جوزيف بوبي
146-145	جوزيف روجينسكي
182	جول دي ليسبس
150-140-133-26	جول فيري
66	جونار
193	جيرلييه
84	الجيلاني بن رمضان
192	حاجوج
-278-277-276-275-274-104-93-17 -292-291-290-285-284-283-282-279 -322-313-309-307-306-303-298-297 355-354-342-336-326	الحبيب بورقيبة
318-295	الحبيب بوقطفة

347-345-344-17	الحبيب ثامر
165	الحبيب جاحدة
96	حبيرة المنشاري
177	حسان بن النّعمان
329	حسن النّوري
283-103-73-72-60-54-48	حسن قلاتي
61-60	حسونة العياشي
321	حسيبة غيلاب
182-181	حسين باشا
22	حسين بن علي
234-221	حميدة بيرم
169	الخطي
234-137-101	خليل بوحاجب
234-59-55-54-52-51-43-31	خير الدين
66-63-48-47	خير الله بن مصطفى
134	دقليديانوس
183	دوبوش
257-185-146-143-136-135-128-19	ديلاتر
286-89-19	الدّوادي
305	راجح إبراهيم
33-28	رافع بن عاشور
244-56	رشيد رضا
184	روستان
144	روشييه
44	روني ميري

147	ريموند بوانكريه
324	الزنكلوي
168	زوزايش
94-90	زين العابدين السنوسي
320-295	سالم الشاذلي
234-55-47-43	سالم بوحاجب
53	سان شارل
89	سان لوسيان
192-134-133	سانت مونيك
71	سعد زغلول
256	سكيبون
58	سليمان الجادوي
347-346-342-345-322-296-95	سليمان بن سليمان
247	سمريا
185-183	سوتر
228	سيديو
68	الشاذلي درغوث
306-275	الشاذلي الدامرجي
234-137-133	الشاذلي العقبي
83	الشاذلي المورالي
165	الشاذلي بن رمضان
90	الشاذلي خزندار
338-276-275-104-94	الشاذلي خير الله
289	الشاذلي زويتن
137	الشاذلي عقبي

182	شارل العاشر
65	شارل أندري جوليان
178	شارل دانجو
159	شارل دو فوكو
22	شارل كونت أنجو
195-192	شاروست
192	شامبرون
146	شايي
335	شعبان البحوري
235	شكيب أرسلان
217	شمس الدين العجيمي
141	شولات
63	الصّادق الزمرلي
165	الصّادق الملولي
377-77	الصّادق النّيفر
69-62	صالح الشريف
341-327-318-298-296-290-289	صالح بن يوسف
323-293-280-90	صالح فرحات
137-133	صلاح الدين البكوش
84	الطّاهر التوكابري
92	الطّاهر الحدّاد
338-289	الطّاهر الزّاوش
137-83	الطّاهر بن عمار
-309-296-286-284-283-281-275-93	الطّاهر صفر
325	

137	الطيب الجلولي
165	الطيب بن سالم
58	الطيب بن عيسى
345	الطيب سليم
168	عبّاس
169	العبّاسي
288	عبد الباقي الهرماسي
63-60-54-48	عبد الجليل الزاوش
27	عبد الحميد الثاني
338-289	عبد الرحمان علولو
169	عبد السلام الصّفاقسي
351-350-84-83-72-63-58-45-17	عبد العزيز الثّعالبي
112	عبد الكريم الخطّابي
177	عبد الله بن سعد
182	عبد الله حسين باشا
94	عثمان الكعّاك
296	العجيمي
178	عزالدين عناية
177	عقبة بن نافع
343-342-341-295-17	علي البلهوان
350-68-67-64-63-59-58-48-47	علي باش حامبة
33	علي باي
30	علي بن خايقة
281-280-276-63	علي بوحاجب
59-44-42	علي بوشوشة

169	علي شقرون
132	علي عزوز
137	عمر البكوش
164	عمر بن قفصية
237	عيسى عليه السلام
134	غاليروس
182	غريغوري السادس عشر
228	غوستاف لوبون
94	الفاضل بن عاشور
308	فاطمة القلاّتي
195	فان روي
146-145	فرانسوا موفيلييك
283-83-74	فرحات بن عياد
78-72	فلاندان
117	فلوبير فرو
178	فليب الثالث
176	الفنقيين
123	فولجانس
196	فيرجيس
261-124	فيرجيل
256-250-195-192-186	فيردييه
144	فيليب
22	فيليب الثالث
195-143-142-124-123	فيليسيّتي
196-185-180-179	فينسنت دي بول

147	قاستون دومارق
243-150	قامبيتا
-248-203-195-183-127-126-123-122 261-256-253	قبريانوس
185-183	القديس يوسف
211-163-162-53	كارنو
196	كاليكا
82	الكسندر ميلران
83	كمحمد شنيق
56	الكواكبي
185-151-133	كومب
188-187	لآزر
290	لافال
-124-123-122-121-101-100-84-53-14 -150-145-136-135-131-130-128-126 -185-184-183-176-163-158-155-151 -257-251-250-241-239-197-195-186 356-351-261-260	لافيجري
107	النبني
148	لوسيان بيزو
209-207-182-22-11	لويس التاسع،
262-196-144-128-125-124-100	لويس برتران
182-120	لويس فيليب
156-52	لويس ماشويل
140	ليغات ليببسيه

257-177-122	ليون التّاسع
257-183-117-116	ليون الثالث عشر
168	م.ليدون فلانى
181	ماثيو دي ليسبس
280	مارسال بيروطون
194	مارياني
53	ماكماهون
266-235-169-18	محب الدّين الخطيب
90-19	المحبوبي
202	محمد (صل الله عليه وسلم)
63-61-59-43	محمد الأصرم
323-84-77-46	محمد الجعايبي
83	محمد الحبيب
48	محمد الخضر بن الحسين
244	محمد الخضر حسين
322	محمد الرّقيق
31	محمّد السنوسي
33-27-24	محمد الصادق
286	محمد الصالح اللّاجري
321-305	محمد الصّالح بن مراد
50-48	محمد الطاهر بن عاشور
31	محمد العربي زروق
69	محمد العنابي
266	محمد الفاضل اللافي
48	محمد النّخلي

60	محمّد النّعمان
23	محمد الهادي الشّريف
69-68-59-54	محمد باش حامبة
25	محمد باي
275	محمد بدرة
43	محمد بن خوجة
137	محمد بن رمضان
290	محمّد بن علي براهيم
310	محمد بن يوسف
313-303-284-278-276-275-207	محمد بورقيبة
290	محمد بوزويّة
56-55-31	محمد بيرم الخامس
137	محمد حامد شنّيق
391-244	محمد رشيد رضا
338-289	محمد سويسّي
56-50	محمّد عبده
92-89-79	محمد علي الحامي
233	محمد علي الطّاهر
43	محمد منصف باي
-280-278-276-275-166-104-93-17 336-296-290-286-284-287	محمود الماطري
55	محمود قبادو
325-290-169-164	محي الدّين القليبي
347	مصالي الحاج
94	مصطفى آغا

90	مصطفى الكعاك
386-244	مصطفى بن شعبان
50	مصطفى كامل
320	مصطفى يحي دالي
296	مفتاح فرحات
62-45	المكي بن عزوز
343-341-295	المنجي سليم
280	المنصف المستيري
210-200	موران
299-147-171-114-97	موسوليني
168	موفق
67	المولى عبد العزيز
351-280-267-148-140	مونصورون
206	ميشال ليلونج
25	نابليون الثالث
321	نبيهة بن ميلاد
316-19	نور الدين الدقي
137	الهادي الأخوة
345	الهادي السعيدي
102	الهادي العبيدي
320	الهادي الورتاني
345	الهادي خفشة
342-341-329-328-322-296	الهادي نويرة
142	هالنز
194	هرزوغ

153	هنري قومار
265	هنري مارشال
195-141	هولند
255-250-196-192-141	هيلين
169	الوزاني
218-214-85-73-70	ولسن
168	يعقوب بوكارة
336-295	يوسف الرّويسي

فهرس الأماكن

الصفحة	المكان
70	الاتحاد السوفياتي
191	أرمينيا
229-202-201	إسبانيا
254-203-190-142-118	أستراليا
71	إستنبول
191	اسكندنافيا
-124-123-122-100-97-95-82-66-10 -142-139-136-131-130-129-128-127 -166-165-157-156-155-146-145-144 -196-195-193-188-186-177-176-172 -257-256-254-250-249-247-242-207 -321-320-319-318-301-299-264-261 349	إفريقيا
298-71-28-25-12	ألمانيا
339	أم العرايس
191	أمريكا الجنوبية
258-145-118	امستردام
118	أنجرس
229-227-190-163-27-29	إنجلترا
241-238-235-18	الأندلس
118	أنغوليام
193	أنغوليم
229	أواسط إفريقية

أورليانز	195
أوروبا	59-69-70-116-119-178-194-229-250-300
إيرلندا	195
إيطاليا	15-23-28-67-70-86-97-113-114-151-152-171-246-268-298-344-351
باب سويقة	341-342
باجة	278-326
باراي لومونيل	117
باردو	27-28-33-51-85-98-121-182-297-344
باريس	12-56-58-66-69-71-73-78-84-94-117-118-141-154-156-164-165-167-168-169-192-195-225-234-242-249-277-291-306-307-320-321-326-331-345-352
بازليك ماجورم	133-135-143
بلجيكا	117
برلين	25-69-214
بروكسل	91-117-255
بريطانيا	25-28-106-110-215
بلفدير	141
بنبله	43
بنزرت	23-27-40-42-161-276-278-317-323-326-328-333-340-341-342-344
بواتيه	201

247-195-141	بوزنان
248-195	بولندا
265	بونوح
124	بيروت
176	بيزنطة
193	تارب
376-189-96	تركيا
190	تشيكوسلوفاكيا
68	تطوان
260-256-185-120-119	تل بيرسا
117	تور
118	تورناي
245	تورينو
48	تولوز
356-355-354.....-11-10	تونس
289-177	جربة
340	الجريصة
-130-129-98-94-69-68-228-26-12 -169-168-167-166-160-159-150-149 -257-253-247-188-184-183-182-179 341-229-316-292	الجزائر
229	جزر المحيط الهادئ
107	الجزيرة العربية
23	جزيرة صقلية
191	جنوة

69	جنيف
343	الحفاويين
191-134	حلق الوادي
342	حمام الأنف
179	داكس
195	دبلن
180-112-71-57-27-23-22	الدولة العثمانية
343	رأس الطابية
340	الرديف
176	روان
235	رودس
197	روسيا
-129-128-126-124-122-119-118-110 -183-178-176-160-157-152-134-133 -323-261-250-247-204-188-186-185 370-352-339	روما
117	ريمس
66	الزّلاج
327	الزّلاس
106	سان ريمو
134-117	سبيطلة
69	ستوكهولم
327	سليانة
377-191-106-58	سوريا
398-397-396-332-227-213-61	سوسة

117-69	سويسرا
-251-250-194-152-145-125-119-118 259	سيدني
143	شالون
51	الشّام
-157-155-142-100-95-94-82-66-15 -202-200-182-178-177-166-165-163 -266-265-254-242-239-226-221-213 -350-347-322-321-320-319-302-300 395-391	شمال إفريقيا
259-251-194-152-145-125-119-118	شيكاغو
-392-345-340-327-322-279-169-30 394	صفاقس
248-165-164	الصّين
345-70-69-68-31-23	طرابلس
106-42	العراق
197-185-151-114-12	الفاتيكان
193	فردان
73	فرساي
356-355.....26-25-24	فرنسا
117	فريبورغ
392-319-234-201-191-167-107-106	فلسطين
206	فيريفيل
145-118	فيينا
340-318-290-279-177-30	قابس

394-262-261-256-249-187-128	القارة الإفريقية
234-169	القاهرة
27-25	قبرص
335-266-234-197-194-125-115-107	القدس
356-353-352-351-12-11-10	قرطاج
247	قسنطينة
383-336-330-283	قصر هلال
279	قفصة
332	قليبية
340-327-318-277-117	القيروان
247	كاتوفيتشي
141	كامبري
182	الكبوشين
118	كولونيا
114	لاتيران
207	لارديش
142	لارو
106	لبنان
215-119-118	لندن
249	لوبلين
124-118	لورد
69	لوزان
316-300-114-113-67	ليبيا
229	ليفربول
194-117	ليل

182	ليون
144-117	ليبيج
118	ماتز
341	الماتلين
332-279	ماطر
191-182-118	مالطا
182	مالقة
196	ماليناز
229	مانشستر
341-340	المتلوي
362-196-143	مدرج قرطاج
119-118	مدريد
336-217-85-33-29	المرسى
343-265-193-61	مرسيليا
67-55-51	المشرق العربي
377-233.....-25-18	مصر
279	المطوية
329-2292-243-169-165-129-69-67	المغرب الأقصى
-347-261-260-159-127-100-70-68-67 353	المغرب العربي
340	المغيلة
327	مكثر
337	المكنين
343-339	الملاسين
337-235-286-282	المنستير

337-327-177	المهدية
194-118	مونتريال
195-192-191-171	نابولي
254-250-196-118	نامور
298-295	نهج التربونال
354-326-296-295-281-278	نهج الجبل
285	نهج غرنوطة
153	نيفر
191	نيويورك
234-229-227-25	الهند
165-164	الهند الصّينية
257-195-126	هيون
327	الوسلانية
70	الولايات المتّحدة الأمريكية
107	اليمن

فهرس الموضوعات

الإهداء.....	4
شكر وعرفان.....	5
قائمة المختصرات:.....	7
مقدمة:.....	10
الفصل الأول: الحركة الوطنية التونسية قبل المؤتمر الأفخارستي:.....	22
1- الحماية الفرنسية على تونس 1881:.....	22
1-1- الوضع العام بتونس قبل الحماية وتزايد الأطماع الأوربية عليها:.....	22
1-2- فرض الحماية وتوقيع معاهدة الاستسلام:.....	25
2- عوامل ظهور الوعي الوطني بتونس في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين:.....	30
1-2-1- الظروف والعوامل الداخلية:.....	30
1-2-1-1- فشل المقاومة وبداية الاحتلال:.....	30
1-2-2- السياسة الاستعمارية:.....	32
1-2-1-2- السياسة الإدارية والقضائية:.....	32
1-2-2-2- السياسة الاقتصادية:.....	36
1-2-3-2- السياسة الاجتماعية:.....	39
1-2-3- ظهور الصحافة الوطنية:.....	41
1-2-4- ظهور الجمعيات:.....	46
1-2-5- الحركة الإصلاحية والتعليمية بتونس:.....	50
2-2- التأثيرات الخارجية: الشرقية الإسلامية والغربية الليبرالية:.....	55
1-2-2- التأثيرات الشرقية الإسلامية:.....	55

- 59.....2-2-2- التأثيرات الغربية:
- 61.....3 تطور العمل السياسي بتونس قبل 1930:
- 61.....1-3- حركة الشباب التونسي 1907-1912:
- 61.....3-1-1- بؤادر العمل السياسي:
- 63.....3-1-2- تأسيس حركة الشبان التونسيين 1907 وأهم مطالبها:
- 65.....3-1-3- أهم نشاطات حركة الشبان التونسيين:
- 68.....3-1-4- موقف السلطة الاستعمارية من حركة الشبان التونسيين:
- 70.....3-2- الحزب الحر الدستوري التونسي (1919-1925):
- 70.....3-2-1- ظروف وعوامل نشأة الحزب الحر الدستوري التونسي:
- 72.....3-2-2- نشأة الحزب الحر الدستوري وبرنامجه:
- 76.....3-2-3- وسائل العمل السياسي للحزب:
- 80.....3-2-4- موقف السلطات الاستعمارية من الحزب الدستوري:
- 84.....خلاصة:
- 88.....المؤتمر الأفخارستي الدولي بقرطاج 1930 والمواقف المتعددة منه:
- 88.....1- ظروف انعقاد المؤتمر الأفخارستي:
- 88.....1-1- الظروف الداخلية (المحلية):
- 88.....1-1-1- فشل إصلاحات 1922:
- 89.....1-1-2- القوانين الرّجعية سنة 1926 وتراجع نشاط الحركة الوطنية:
- 91.....1-1-3- ظهور فئة من المجدّدين:
- 94.....1-1-4- النشاط الجمعياتي:
- 96.....1-1-5- تنامي الوازع الديني والوعي بالهوية:
- 96.....1-1-5-1- قانون التجنيس 20 ديسمبر 1923:

- 1-1-5-2- الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد الكاردينال لافيغري نوفمبر 1925: 100.....
- 1-1-5-3- انتشار أفكار حول تحرير المرأة: 102.....
- 1-1-6- الأزمة الاقتصادية والاجتماعية 1930/1929: 105.....
- 1-2-2- ظروف دولية خارجية: 106.....
- 1-2-1- تواصل المد الاستعماري الأوروبي والحركة التنصيرية إزاء البلاد العربية والإسلامية بعد الح.ع.1: 106.....
- 1-2-2- إفرازات الحرب العالمية الأولى: 112.....
- 1-2-3- تصاعد المد الفاشي وتوتر العلاقات بين فرنسا وإيطاليا: 113.....
- 1-2-4- استقلال الفاتيكان 1929: 114.....
- 2- إنعقاد المؤتمر الأفخارستي 1930: 114.....
- 1-2- التعريف بالأفخارستيا والمؤتمر الأفخارستي: 115.....
- 1-1-2- الأفخارستيا: 115.....
- 2-1-2- المؤتمر الأفخارستي: 116.....
- 2-2- دوافع وعوامل اختيار قرطاج لعقد المؤتمر الأفخارستي الدولي الثلاثين: 119.....
- 2-3- الاستعدادات لمؤتمر قرطاج الدولي: 130.....
- 2-4- أحداث المؤتمر ومجرياته: 138.....
- 3- المواقف المتعددة من المؤتمر الأفخارستي: 146.....
- 1-3- الموقف الفرنسي: 146.....
- 1-1-3- الموقف المؤيد: 146.....
- 2-1-3- الموقف المعارض: 153.....
- 2-3- موقف التونسيين: 155.....
- 1-2-3- عموم التونسيين: 155.....

159.....	3-2-2- الوطّنيون:
161.....	3-2-3- الطّلبة التّونسيين:
161.....	3-2-3-1- في تونس:
163.....	3-2-3-2- الطّلبة التّونسيين بفرنسا:
166.....	3-3- موقف اليهود:
168.....	3-4- المواقف الدّولية من المؤّتمر الأفخارستي:
168.....	3-4-1- موقف الطّلبة الجزائريين والمغاربة بفرنسا:
168.....	3-4-2- الموقف المصري:
170.....	3-4-3- الموقف الإيطالي:
171.....	خلاصة:
	الفصل الثّالث: وقائع المؤّتمر الأفخارستي ونتائجه من خلال بعض الصّحف والدّوريات الفرنسيّة والتّونسيّة والإقليميّة والدّولية.....
173.....	1- الصّحف الفرنسيّة:
173.....	1-1- الصّحف الفرنسيّة المؤيّدة للمؤّتمر:
173.....	1-1-1- الصّحف المؤيّدة بفرنسا:
173.....	1-1-1-1- الدّعاية والإشهار للمؤّتمر:
174.....	1-1-1-2- التّعريف بتاريخ قرطاج وذكرياتها المسيحيّة:
186.....	1-1-1-3- دوافع وأهداف مؤّتمر قرطاج:
189.....	1-1-1-4- قدوم المؤّتمرين إلى تونس:
191.....	1-1-1-5- المظاهر الاحتفاليّة أو فعاليّات المؤّتمر:
196.....	1-1-1-6- المواقف المتعدّدة من المؤّتمر:
199.....	1-1-2- الصّحف المؤيّدة بتونس:

205.....	2-1- الصّحف الفرنسية المعارضة:
205.....	1-2-1- الصّحف المعارضة بفرنسا:
207.....	2-2-2- الصّحف المعارضة بتونس:
211.....	2- القضايا التي طرحتها الصّحف التّونسية في ردّها على المؤتمر:
211.....	1-2- التّدديد بنشاط الكنيسة الكاثوليكية ومدارس المبشّرين:
216...	2-2- انقلاب فرنسا على مبادئها العلمانية والصّبغة الرّسمية التي أعطتها الحكومة للمؤتمر:
218.....	2-3- مشاركة الباي وبعض أعيان تونس في الهيئة الشّرفية للمؤتمر:
224.....	2-5- الاحتجاجات والإضراب العام الذي وقع يوم السّبت 5 ذي الحجة /3 ماي:
225.....	2-6- مواقف من بعض الصّحف والرّد على بعض أقاويلها:
230.....	3- المؤتمر الأفخارستي من خلال بعض الصّحف الإقليميّة والدّولية:
230.....	3-1- الصّحف الإقليميّة:
230.....	3-1-1- الجزائرية:
231.....	3-1-2- المشرق العربي (مصر):
231.....	3-1-2-1- جريدة الشّورى:
234.....	3-1-2-2- جريدة الفتح:
242.....	3-1-2-2- جريدة المنار:
244.....	3-2- الصّحف الدّولية الغربيّة:
244.....	3-1-2- الصّحف الإيطاليّة:
246.....	3-2-2- البولندية:
248.....	3-2-3- السّويسرية:
255.....	3-2-4- الصّحف البلجيكية:
261.....	4- تداعيات المؤتمر على الكنيسة وسلطة الحماية:

266.....	خلاصة:
270.....	تداعيات المؤتمر الأفخارستي على الحركة السياسية التونسية(1940/1930)
270.....	1-التحول في فكر وتركيبه الحركة الوطنية التونسية:
270.....	1-1-المرحلة الأولى (1933-1930):
276.....	1-2- مؤتمر نهج الجبل 12-13 ماي 1933:
279.....	1-3- انشقاق الحزب الدستوري:
288.....	1-4- مرحلة ما بعد 1936:
300.....	2- اعتماد الخطاب الديني والتأكيد على مبدأ الحفاظ على الهوية التونسية:
301.....	2-1- قبل انشقاق الحزب الدستوري:
311.....	2-2- موضوع الهوية التونسية بعد انشقاق الحزب الدستوري:
316.....	3- التعبئة الشعبية أو إقحام الجماهير الشعبية في النضال الوطني:
316.....	3-1- وسائل وأساليب التعبئة الشعبية:
316.....	3-1-1- احتضان العمل الجمعياتي:
320.....	3-1-2- تعبئة الطلبة التونسيين في فرنسا:
321.....	3-1-3- الحملات الصحفية:
325.....	3-1-4- الجولات الدعائية لزعماء الحزب:
327.....	3-1-5- الهيمنة على جامعة عموم العملة التونسية الثانية:
328.....	3-1-6- عبر المناشير:
329.....	3-2- مظاهر العمل الجماهيري في الحركة الوطنية:
329.....	3-2-1- تزايد الانخراط في صفوف الحزب:
332.....	3-2-2- الحركات الاحتجاجية والمظاهرات
344.....	3-2-3- تزايد نشاط الحركة الطلابية في المهجر:

346.....	خلاصة
349.....	الخاتمة:
356.....	الملاحق
375.....	قائمة المصادر والمراجع
402.....	فهرس الأعلام
416.....	فهرس الأماكن
424.....	فهرس الموضوعات

المخلص:

لقد كان لعقد الجمهورية الفرنسية الثالثة للمؤتمر الأفخارستي الدولي بقرطاج في الفترة (7-11 ماي 1930) وإعطائه صفة رسمية وتأييده ومساندته ماديا ومعنويا ردود أفعال من قبل الأوساط اليسارية الفرنسية، والتي اعتبرته انتهاك صارخ لقانون فصل الدين عن الدولة، وخروج عن مبادئ العلمانية ومبادئ ثورة 1789م. وكذلك الأوساط الإسلامية التونسية والتي نددت بالمؤتمر ومنظميه، وكذلك بالنفقات الباهظة التي أخذت من أموال الخزينة التونسية لتمويل تظاهرة مسيحية ليس لها أي فائدة للشعب التونسي، وبالسّياسة التبشيرية التي تنتهجها الكنيسة باعتبار أنّ المؤتمر عقد من أجل إحياء كنيسة قرطاج وإعادة بعثها من جديد، وبالتالي فهو محاولة لطمس معالم الهوية العربية الإسلامية لتونس.

فكان هذا المؤتمر مناسبة لعودة نشاط الحزب الحر الدستوري التونسي، إذ مكّن الوطنيين التونسيين وعلى رأسهم الشبان الجدد خريجو المدارس الفرنسية من مقاومة النظام الاستعماري وسياسته الإدماجية والعنصرية وذلك بالاعتماد على مبدأ التعبئة الشعبية الأمر الذي أدّى إلى تصلّب الكفاح التحرري والتّصادم مع الاستعمار عدّة مرات طيلة فترة الثلاثينات .

الكلمات المفتاحية: المؤتمر الأفخارستي الدولي بقرطاج، العلمانية، الهوية العربية الإسلامية، الحركة الوطنية التونسية، الحزب الحر الدستوري.

Abstract:

The convening of the Third French Republic for the International Eucharistic Congress in Carthage on (7-11 May 1930) and giving it an official status by French left-wing circles, which considered it a flagrant violation of the law's religion separation from state, and a departure from the secularism principles . The Tunisian Islamic circles denounced the conference , its organizers, and the exorbitant expenses that were taken from the Tunisian treasury funds to finance a Christian demonstration that has no benefit for the Tunisians , and the missionary policy pursued by the church, considering the conference was held to revive the Church of Carthage and resurrect it again, therefore it is an attempt to obliterate the features of the Arab-Islamic identity of Tunisia.

This conference was an occasion for the return of the activity of the Tunisian Constitutional Free Party, that enabled the Tunisian patriots, led by the French schools young graduates, to resist the colonial regime, relying on the principle of popular mobilization, which led to the hardening of the liberation struggle and the collision with colonialism several times throughout the thirties.

Keywords: the International Eucharistic Congress in Carthage, secularism, the Arab-Islamic identity, the Tunisian national movement, the Constitutional Free Party.